مختصر تفسير البغوي

عبد الله بن أحمد بن علي الزيد

مصدر الكتاب : الموسوعة الشاملة

1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
كلمة الناشر
الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا ، والصلاة والسلام على النبي الأمي وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . أما بعد :
فهذا اختصار تفسيري اختصره فضيلة الدكتور / عبد الله بن أحمد بن علي الزيد ، حفظه الله ، من تفسير الإمام الحافظ الفقيه المجتهد أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء ، البغوي المسمى بـ " معالم التنزيل " .
وتفسيره الكامل الذي منه هذا الاختصار من أجل كتب التفسير بالمأثور ، يسرد فيه التفسير بالقرآن - أي يجمع بين الآيات ذات المعنى الواحد ليوضح معنى الكلمة التي تضمنتها - ويأتي بالأحاديث مع أسانيدها كما يذكر أقوال الصحابة ومن بعدهم من أئمة التفسير وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن أي التفاسير أقرب إلى الكتاب والسنة ؟ الزمخشري أم القرطبي أم البغوي أو غير هؤلاء ؟ فأجاب قائلًا :
" وأما التفاسير الثلاثة المسئول عنها فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة - البغوي " وعنه قال : " تفسيره مختصر من تفسير الثعلبي لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة " .

فلما كان تفسيره بهذه المكانة العظمى وأثنى على اختصاره غير واحد من أهل العلم ، أعدنا طبعه من جديد بعد التنسيق مع المختصر .
عملنا في هذا الكتاب :
1 - طبع الكتاب في مجلد واحد لأول مرة بلونين .
2 - وضع المصحف كاملًا ، وكذلك أخذ الآيات القرآنية المفسرة برسم المصحف من الحاسب الآلي تجنبًا للأخطاء المطبعية .
3 - تصحيح الأخطاء التي نبه عليها فضيلة الدكتور عبدالله الزيد ، فضلًا عن الأخطاء التي استدركها أعضاء لجنة البحث العلمي بدار السلام .
4 - تم طباعة الكتاب على ورق شمواه .
ونحن عندما نقدم هذا السفر الجليل بين يدي القارئ الكريم ، نتضرع إلى الله تعالى أن يجعل عملنا هذا خالصًا لوجهه الكريم . هذا . . . ونشكر كل من سعى لإخراج هذا العمل في ثوبه الجديد . وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه .
خادم الكتاب والسنة
عبد المالك مجاهد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تقريظ لفضيلة الشيخ الدكتور صالح بن فوزان آل فوزان
الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب وجعله هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، والصلاة والسلام على عبده ورسوله المؤيد بالمعجزات والبرهان ،

وعلى آله وأصحابه أولي العلم والعرفان . وبعد :
فإن تفسير الإمام محيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي تفسير جيد ، شهد العلماء بجودته وإتقانه وتمشيه على مذهب السلف في المنهج والاعتقاد ، إلا أنه طويل بالنسبة لحاجة غالب الناس اليوم ، فالناس اليوم بحاجة إلى تفسير مختصر موثوق .
فلذلك اتجهت همة أخينا الشيخ الدكتور / عبد الله بن أحمد بن علي الزيد إلى اختصار هذا التفسير وتقريبه للناس . وقد اطلعت على نموذج من عمله فوجدته عملًا جيدًا ومنهجًا سديدًا ، حيث إنه يختار من هذا التفسير ما يوضح الآيات بأقرب عبارة وأسهلها ، فهو مختصر جيد مفيد . جزى الله أخانا الشيخ / عبد الله على عمله هذا خيرًا وغفر الله للإمام البغوي ورحمه ، جزاء ما ترك للمسلمين من علم نافع ومنهج قويم . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .
كتبه :
صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان
في (13 / 10 / 1413 هـ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مقدمة
الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا ، ولمن استمسك به هدى ونورًا . . . والصلاة والسلام على من أرسله بالهدى والبينات سراجًا منيرًا ، نبينا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وأصحابه الذين حفظوا كتاب ربهم وعملوا على جمعه وضبطه وتدوينه ليصل إلى من بعدهم بصورته التي بها نزل .
وبعد : فإن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى الدالة على صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم والدعوة العظمى من الله تعالى إلى التوحيد الخالص والطريق المستقيم ، وقد تولى الله حفظه من التحريف والتبديل والتغيير والمعارضة كما قال تعالى : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }
وها هو قد مضى على نزوله أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان ولا يزال كما وعد الله محفوظًا كما أنزل لم يتغير فيه عما نزل حرف ولا كلمة ، ولا ترتيب ، وسيبقى كذلك إلى آخر الدهر .

وقد ظهر لي من خلال عملي حاجة الناس إلى تفسير مختصر يجمع بين علمي الرواية والدراية ، يكون في متناول الكل ، يتميز بخلوه من المخالفات الشرعية والعقدية ، وذلك لأن الوقت في هذا العصر أصبح قليلًا جدًّا بسبب تزاحم المعلومات في كل العلوم ، فرأيت من المناسب اختيار تفسير مختصر يلبي حاجة من أراد الاطلاع على معاني كلام الله سبحانه وتعالى . وقد اطلعت على كثير من المختصرات فوجدت بعضها يهتم بجانب واحد من جوانب إعجاز القرآن كمباحث الإعراب ونكت البلاغة ، والبعض الآخر لا يخلو مما يستوجب النظر ، ومنها ما يستطرد لعلوم أخرى لا يُحتاج إليها في فهم القرآن .

ولما كان تفسير الإمام البغوي - رحمه الله - المسمى (معالم التنزيل) يجمع بين علمي الرواية والدراية مع وضوح العبارة ، وجمعه لكثير من المعاني التي يذكرها المفسرون بأسلوب سهل مقتضب بعيدًا عن الألغاز والتعمية مع ما يتميز به من الالتزام بمذهب السلف الصالح في المجال العقدي وما خص به من ثناء العلماء والأئمة ، وما حظي به من القبول لدى الأمة ، فقد سئل شيخ

الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : أي التفاسير أقرب إلى الكتاب والسنة ، الزمخشري ؟ أم القرطبي ؟ أم البغوي ؟ فأجاب في فتواه (ج 2 - ص 193) ما نصه : " أسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة : البغوي " .
وقال محمد رشيد رضا في مقدمة طبعته له عام 1343 هجرية : " هذا التفسير من أشهر كتب التفسير في العناية بما رُوي عن مفسري السلف وبيان معاني الآيات وأحكامها " .

وهو من أجود التفاسير وأنفعها وأشملها أيضًا ، إلا أنه يشتمل على روايات كثيرة وبعض القصص الإسرائيلية والأمور التي يغني بعضها عن بعض ، ولم يسبق حسب علمي أن قام أحد باختصاره ، لذا قمت بهذا العمل لنفسي أولاً ، وحرصًا مني على تقريبه وتسهيله لمن يرغب في تفسير موثق لإمام من أئمة أهل السنة والجماعة ، أسأل الله الإعانة والتوفيق والسداد والقبول .
منهج البغوي في تفسيره :
1 - من المعلوم أن أحسن طرق التفسير هي تفسير القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر ، ثم بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ، ثم بأقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك حيث إنهم حضروا التنزيل وشاهدوا من القرائن والأحوال ما لم يعلمه غيرهم ، ثم بأقوال التابعين الذين تعلموا على الصحابة وأخذوا عنهم ، وهذا ما اتخذه البغوي منهجًا له في تفسيره .
2 - سلك البغوي - رحمه الله - مسلكًا متوسطًا بلفظ موجز وسهل بعيدًا عن الاستطراد والحشو ، جاء في مقدمة تفسيره : (جمعت بعون الله تعالى وحسن توفيقه فيما سألوا كتابًا متوسطًا بين الطويل الممل والقصير المخل) اهـ .

3 - ما ذكره من الأحاديث النبوية الشريفة فغالبها يسوقها بأسانيدها التي اشترط فيها الصحة أو الحسن ، وقد وضح ذلك بقوله : (ما ذكرت من أحاديث رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في أثناء الكتاب على وفق آية أو بيان حكم فإن الكتاب يطلب بيانه من السنة ، وعليها مدار الشرع وأمور الدين ، فهي من الكتب المسموعة للحفاظ وأئمة الحديث ، وأعرضت عن ذكر المناكير وما لا يليق بحال التفسير) .
4 - ما ذكره عن الصحابة والتابعين فغالبًا يذكره بلا إسناد وذلك لأنه ذكر في مقدمته إسناده إلى كل من يروي عنهم .
5 - يذكر أقوال السلف في تفسير الآية ولا يرجح بعضها على بعض في كثير من الأحيان إشارة منه - رحمه الله - إلى أن معنى الآية قد يحتمل جميع المعاني أو أكثرها ، وهذه ميزة تميز بها تفسير البغوي قلما توجد في غيره .
6 - يتحاشى ذكر المسائل الكلامية ويكتفي بإيراد منهج السلف فيها .
7 - يذكر البغوي بعض الأخبار الإسرائيلية عند تفسير بعض الآيات التي تحكي قصص أهل الكتاب وهو مقل منها بالنسبة لغيره من المفسرين .
8 - يذكر بعضر الأحكام الفقهية والقراءات المشهورة ، وأسباب النزول في تفسيره .
عملي في التفسير :

ما يجده القارئ في هذا المختصر هو كله من كلام البغوي فقد التزمت بنصه التزامًا تامًّا ولم أتصرف فيه بالزيادة إلا ما استدعى السياق إضافته لربط كلام البغوي بعضه ببعض كواو العطف ونحوها ، ليبقى التفسير بأسلوبه السهل

الميسر وجماله الناصع مع تمام الترابط والانسجام ، وقد جعلت ما أضفته بين قوسين تمييزًا له عن كلام البغوي . . . ومن هذا يعلم أن جميع ما في هذا المختصر هو من كلام البغوي ، فإذا ورد فيه قوله : (قد روينا أو حدثنا) أو نحو ذلك فالقائل هو : البغوي ، وقد حرصت على هذا المنهج لما لكلام الإمام البغوي - رحمه الله - من ميزة لدى العلماء تجعل الاطمئنان إليه أكثر والوثوق به أحرى ، وما عملته في الاختصار لا يخرج في الغالب عن أحد الأمور التالية :
1 - استبعاد ما لا ضرورة له في بيان معاني الآيات من الروايات والأسانيد المطولة والأحكام التي لا حاجة لها والاقتصار من سند الحديث عند ذكره على اسم الصحابي الذي روى الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ وتركت لمن أراد الاستزادة الرجوع إلى الأصل المختصر .

2 - إذا تعددت الأحاديث التي يوردها المؤلف على وفق معاني الآيات الكريمة اقتصرت على ذكر حديث واحد منها وقد أقتصر على موضع الشاهد من الحديث إذا كان يؤدي المعنى المقصود .
3 - جرى تخريج الأحاديث الشريفة التي وردت في المختصر .
4 - الإبقاء ما أمكن على الآيات التي استشهد بها المؤلف على طريقته في تفسير القرآن بالقرآن مع جعلها بين قوسين مختلفين عن أقواس الآيات المفسرة .
5 - تجريد المختصر من الإسرائيليات ما أمكن إلا ما روى منها عن رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ أو أقره .
6 - عند تعدد ذكر الآثار أكتفي منها بما يكشف معنى الآية .
7 - جرى حذف بعض القراءات وخاصة إذا لم يترتب على المحذوف منها تغير المعنى .
الطبعة التي اعتمدت عليها :

اعتمدت في عملي هذا على الطبعة المستقلة الكاملة لتفسير الإمام البغوي في طبعتها الثانية عام (1407) هجرية التي حققها الأستاذان خالد عبد الرحمن العك ، ومروان سوار ، وقد قابلت ما أشكل فيها على طبعة عام (1343) هجرية التي طبعت على حاشية تفسير الإمام ابن كثير . وبعد فراغي من العمل خرجت الطبعة الجديدة التي حققها الإخوة محمد عبدالله النمر ، وعثمان جمعة ضميرية ، وسليمان مسلم الحرش فاستفدت منها في مقابلة بعض العبارات المشكلة وفي بعض التخريجات للأحاديث النبوية الشريفة واكتفيت بذلك عن المقابلة على مخطوطة الكتاب وذلك لأن هذه الأخيرة طبعة مقابلة على مخطوطة الكتاب كما جاء في مقدمتها (1) .
أسأل الله الكريم أن ينفع بعملي هذا وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم . وجزى الله خيرًا من ينبهني على خطأ يجده فليراسلني على ص . ب (340655) الرياض (11333) ، ومن ينتفع بما فيه فيدعو لي من وراء الغيب دعوة خير صادقة ، والله الموفق وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .
الرياض في (22 / 9 / 1422 هجرية)
د . عبدالله بن أحمد بن علي الزيد

---
(1) وقد جرى إعادة صف الكتاب في هذه الطبعة الثانية التي استدرك فيها كثير مما فات في الطبعة الأولى وجرى تنقيح الطباعة وتدقيقها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ترجمة الإمام البغوي
هو الإمام العلامة الحافظ المفسر المحدث الفقيه محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي من أئمة السلف الصالح المتمسكين بالكتاب والسنة .
ولد في بلدة (بغشور أو : بغ) وإليها نسبته وهي من بلاد خراسان ، وذلك في أوائل العقد الرابع من القرن الخامس الهجري .
ونشأ البغوي شافعي المذهب غير متعصب لإمامه ولا مندد بغيره من العلماء ، بل سلك مسلك أهل الاختيار والترجيح والتصحيح .
ومنهجه في العقيدة منهج السلف الصالح من الصحابة وتابعيهم فلم يشغل نفسه بنظريات المتفلسفة وخلافات المتكلمين من الجهمية والمعتزلة وغيرهم ، وإنما التزم بمنهج أهل السنة والجماعة ناشرًا له ومدافعًا عنه .
وقد تنقل البغوي في كثير من البلاد طلبا للعلم إلى أن استقر في (مروالروذ) الوطن الثاني للبغوي ، وبقي فيها إلى أن وافته المنية عن نيف وثمانين سنة فيما بين عام (510 هـ) إلى (516 هـ) على خلاف في ذلك .

وقد أجمع علماء أهل السنة على جلالة قدر الإمام البغوي ورسوخ علمه بالكتاب والسنة وعلومهما ، وصفه من ترجم له : بشيخ الإسلام ومحيي السنة وعلامة زمانه وأنه دينًا ورعًا عابدًا حافظًا ثبتًا ثقة حجة صحيح العقيدة .
وهو من أئمة الحديث الشريف ، واسع المعرفة بمتونه وأسانيده وأحوال رجاله . كما أنه إمام في الفقه والأحكام . وإمام في التفسير وعلوم القرآن الكريم .
وقد خلف مؤلفات كثيرة منها شرح السنة ، ومصابيح السنة ، ومعالم التنزيل وهو أصل هذا المختصر والتهذيب في فقه الإمام الشافعي . وغير ذلك كثير .
وأخذ الإمام البغوي العلم عن أئمة عصره وكبار الحفاظ والمحدثين في زمانه منهم : الإمام أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد المروزي المتوفى سنة (462 هـ) ، ومحدث مرو عبد الواحد بن أحمد المليحي الهروي المتوفى سنة (463 هـ) ، والإمام علي بن يوسف الجويني شيخ الحجاز المتوفى (463 هـ) وغيرهم .
وقد روى عنه تلاميذ عدة منهم مجد الدين العطاردي الأصولي والمحدث الطائي الهمذاني وآخرون . رحم الله البغوي رحمة واسعة ورحمنا معه بمنه وكرمه إنه على ذلك قدير .

(1) سورة الفاتحة
ولها ثلاثة أسماء معروفة : فاتحة الكتاب ، وأم القرآن ، والسبع المثاني ، وهي مكية على قول الأكثرين ، وقال مجاهد : مدنية ، وقيل : نزلت مرتين ، مرة بمكة ومرة بالمدينة . والأول أصح أنها مكية لأن الله تعالى منَّ على الرسول صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ بقوله : { وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي } ، والمراد منها : فاتحة الكتاب ، وسورة الحجر مكية ، فلم يكن يمن عليه بها قبل نزولها .

[1] قوله : { بِسْمِ اللَّهِ } الباء زائدة يخفض ما بعدها ، مثل من وعن ، والمتعلق به محذوف لدلالة الكلام عليه ، تقديره : ابدأ بسم الله أو قل بسم الله ، وأسقطت الألف من الاسم طلبًا للخفة لكثرة استعمالها ، فإن قيل : ما معنى التسمية من الله لنفسه ؟ قيل : هو تعليم للعباد كيف يستفتحون القراءة .
قوله تعالى : { اللَّهِ } قال الخليل وجماعة : هو اسم علم خاص بالله عز وجل

لا اشتقاق له كأسماء الأعلام للعباد ، مثل زيد وعمرو ، وقال جماعة : هو مشتق ، ثم اختلفوا في اشتقاقه فقيل : من أله إلاهة أي : عبد عبادة ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما " ويذرك وإلاهتك " أي : عبادتك . معناه أنه المستحق للعبادة دون غيره ، وقيل : أصله إله ، قال الله عز وجل . { وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ } ، قال المبرد : هو قول العرب : ألهت إلى فلان أي سكنت إليه ، قال الشاعر :

ألهت إليها والحوادث جمة ...

فكأن الخلق يسكنون إليه ويطمئنون بذكره ، يقال : ألهت إليه أي : فزعت إليه . وقيل : أصل الإله ولاه ، فأبدلت الواو بالهمزة مثل وشاح وأشاح ، اشتقاقه من الوله لأن العباد يولهون إليه ، أي يفزعون إليه في الشدائد ويلجؤون إليه في الحوائج كما يوله كل طفل إلى أمه ، وقيل : هو من الوله وهو ذهاب العقل لفقد من يعز عليك .

قوله : { الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } قال ابن عباس رضي الله عنهما : هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر ، واختلفوا في آية التسمية فذهب قراء المدينة والبصرة وفقهاء الكوفة إلى أنها ليست من فاتحة الكتاب ، ولا من غيرها من السور والافتتاح بها للتيمن والتبرك ، وذهب قراء مكة والكوفة وأكثر فقهاء الحجاز إلى أنها ليست من الفاتحة وليست من سائر السور ، فإنما كتبت للفصل ، وذهب جماعة إلى أنها من الفاتحة ومن كل سورة إلا سورة التوبة ، واتفقوا على أن الفاتحة سبع آيات والآية الأولى عند من يعدها من الفاتحة { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } وابتداء الآية الأخيرة { صِرَاطَ الَّذِينَ } ، ومن لا يعدها من الفاتحة قال : ابتداؤها { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } وابتداء الآية الآخيرة { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ } .

[2 ، 3] قوله : { الْحَمْدُ لِلَّهِ } لفظه خبر كأنه يخبر عن المستحق للحمد هو الله عز وجل ، وفيه تعليم الخلق تقديره : قولوا الحمد لله ، والحمد يكون بمعنى الشكر على النعمة ويكون بمعنى الثناء عليه بما فيه من الخصال الحميدة ، يقال : حمدت فلانًا على ما أسدى إلي من نعمة ، وحمدته على علمه وشجاعته ، والشكر لا يكون إلا على النعمة ، والحمد أعم من الشكر إذ لا يقال : شكرت فلانًا على علمه ، فكل حامد شاكر وليس كل شاكر حامدا .
قوله : { لِلَّهِ } اللام فيه للاستحقاق كما يقال : الدار لزيد . قوله : { رَبِّ الْعَالَمِينَ }{ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } ، فالرب يكون بمعنى المالك كما يقال لمالك الدار : رب الدار ، ويقال : رب الشيء إذا ملكه ، ويكون بمعنى التربية والإصلاح يقال : رب فلان الضيعة يربها إذا أتمها وأصلحها ، فالله تعالى مالك العالمين ومربيهم ، ولا يقال للمخلوق : هو الرب معرفًا ، إنما يقال : ربِّ كذا مضافًا ، لأن الألف واللام للتعميم ، وهو لا يملك الكل .

والعالمين : جمع عالم والعالم جمع لا واحد له من لفظه ، واختلفوا في العالمين ، قال ابن عباس : هم الجن والإنس ، لأنهم مكلفون بالخطاب ، قال الله تعالى : { لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا } : وقال قتادة ومجاهد والحسن : جميع المخلوقين ، قال الله تعالى : { قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ }{ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا } .

[4] قوله : { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } قرأ عاصم والكسائي ويعقوب { مَالِكِ } وقرأ الآخرون " ملك " قال قوم : معناهما واحد مثل فرهين وفارهين وحذرين وحاذرين ، ومعناهما الرب ، يقال : رب الدار ومالكها ، وقيل : المالك هو القادر على اختراع الأعيان من العدم إلى الوجود ، ولا يقدر عليه أحد غير الله ، قال ابن عباس ومقاتل والسدي : ملك يوم الدين قاضي يوم الحساب ، وقال قتادة : الدين الجزاء ، ويقع على الجزاء في الخير والشر جميعًا ، كما يقال : كما تدين تدان ، قال محمد بن كعب القرظي : ملك يوم لا ينفع فيه إلا الدين ، وقال يمان بن رباب : الدين القهر ، يقال : دنته فدان ، أي : قهرته فذل ، وقيل : الدين الطاعة ، أي : يوم الطاعة ، وإنما خص يوم الدين بالذكر مع كونه مالكًا للأيام كلها لأن الأملاك يومئذ زائلة فلا ملك ولا أمر إلا له ، قال الله تعالى : { الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ } .

[5] قوله : { إِيَّاكَ } ، إِيَّا كلمة ضمير خصت بالإضافة إلى المضمر .
قوله : { نَعْبُدُ } أي : نوحدك ونطيعك خاضعين ، والعبادة الطاعة مع التذلل والخضوع ، وسمي العبد عبدًا لذلته وانقياده يقال : طريق معبد أي : مذلل ، { وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } ، نطلب منك المعونة على عبادتك وعلى جميع أمورنا .

[6] قوله : { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } ، اهدنا : أرشدنا ، وقال علي وأبي بن كعب : ثبتنا ، كما يقال للقائم : قم حتى أعود إليك ، أي : دم على ما أنت عليه ، وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية ، بمعنى التثبيت وبمعنى طلب مزيد الهداية ، لأن الألطاف والهدايات من الله تعالى لا تتناهى على مذهب أهل السنة .
{ الصِّرَاطَ } : وصراط قرئ بالسين وهو الأصل ، سمي سراطًا لأنه يسرط السابلة ، ويقرأ بالزاي وقرأ حمزة بإشمام الزاي وكلها لغات صحيحة ، والاختيار الصاد عند أكثر القراء لموافقة المصحف .
والصراط المستقيم : قال ابن عباس وجابر : هو الإسلام وهو قول مقاتل ، وقال ابن مسعود : هو القرآن وروي عن علي مرفوعًا : " الصراط المستقيم كتاب الله " (1) . وقال سعيد بن جبير : طريق الجنة ، وقال سهل بن عبد الله : طريق السنة والجماعة ، وقال بكر بن عبد الله المزني : طريق رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ ، وقال أبو العالية والحسن : رسول الله وآله وصاحباه ، وأصله في اللغة الطريق الواضح .

---

(1) أخرجه الطبري في التفسير 1 / 172 وضعفه أحمد شاكر في تعليقه عليه .

[7] { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } أي : مننت عليهم بالهداية والتوفيق ، قال عكرمة : مننت عليهم بالثبات على الإيمان والاستقامة وهم الأنبياء عليهم السلام ، وقيل : هم كل من ثبته الله على الإيمان من النبيين والمؤمنين . وقال ابن عباس : هم قوم موسى وعيسى عليهما السلام قبل أن يغيروا دينهم ، وقال عبد الرحمن : هم النبي ومن معه ، وقال أبو العالية : هم الرسول صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وقال عبد الرحمن بن زيدان : رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ وأهل بيته ، وقال شهر بن حوشب : هم أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ وأهل بيته .
قوله : { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ } يعني : غير صراط الذين غضبت عليهم .

{ وَلَا الضَّالِّينَ } أي : وغير الضالين عن الهدى ، وأصل الضلال الهلاك والغيبوبة ، يقال : ضل الماء في اللبن إذا هلك وغاب ، و " غير " ههنا بمعنى لا ، ولا بمعنى غير ، وقيل : { الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ } هم اليهود والضالون هم النصارى ، لأن الله تعالى حكم على اليهود بالغضب فقال : { مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ } [المائدة : 60] وحكم على النصارى بالضلال فقال : { وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ } [المائدة : 77] ، وقال سهل بن عبد الله : غير المغضوب عليهم بالبدعة ولا الضالين عن السنة .
والسنة للقارئ أن يقول بعد فراغه من قراءة الفاتحة " آمِين " ، مفصولاً عن الفاتحة بسكتة ، وهو مخفف ويجوز ممدودًا ومقصورًا ، ومعناه اللهم اسمع واستجب .

فصل في فضل فاتحة الكتاب
قال رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ : « والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها وإنها لهي السبع المثاني التي آتاني الله عز وجل » ، هذا حديث حسن صحيح (1) .
وعن ابن عباس قال : « بينا رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ وعنده جبريل إذ سمع نقيضًا من فوقه ، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : هذا باب فتح من السماء ما فتح قط ، قال : فنزل منه ملك فأتى النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ فقال : " أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفًا منهما إلا أعطيته »، صحيح (2) .
وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ : « من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج غير تمام » .

____
(1) رواه الترمذي في فضائل القرآن باب ما جاء في فضل فاتحة الكتاب 8 / 178 - 180 ، وأحمد في المسند 2 / 412 - 413 ، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم . انظر الترغيب والترهيب للمنذري 2 / 367 ، وأخرجه المصنف في شرح السنة 4 / 446 ، 447 .
(2) رواه مسلم في صلاة المسافرين برقم (806) 1 / 554 ، والنسائي في افتتاح الصلاة 2 / 138 والمصنف في شرح السنة 4 / 466 .

وعن أبي هريرة قال : « سمعت رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ يقول : " قال الله عز وجل : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل " قال رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ : " اقرؤوا يقول العبد { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } يقول الله : حمدني عبدي ، يقول العبد : { الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } يقول الله : أثنى علي عبدي ، يقول العبد : { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } ، يقول الله : مجدني عبدي ، يقول العبد : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } ، يقول الله عز وجل : هذه الآية بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل ، يقول العبد : { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ }{ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } ، يقول الله : (فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل) » ، صحيح (1) .

____
(1) رواه مسلم في الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة رقم (395) 1 / 296 ، والمصنف في شرح السنة 3 / 47 .

(3) سورة البقرة
[1] { الم } قال الشعبي وجماعة : الم وسائر حروف الهجاء في أوائل السور من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه ، وهي سر القرآن ، فنحن نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله تعالى ، وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها ، قال أبو بكر الصديق : في كل كتاب سر وسر الله في القرآن أوائل السور ، وقال علي : إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي .
وقال جماعة : هي معلومة المعاني ، فقيل : كل حرف منها مفتاح اسم من أسمائه كما قال ابن عباس في { كهيعص } ، الكاف من كافي والهاء من هادي والياء من حكيم والعين من عليم والصاد من صادق ، وقيل في { المص } أنا الله الملك الصادق ، وقال الربيع بن أنس في الم : الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه اللطيف والميم مفتاح اسمه المجيد ، وقال محمد بن كعب : الألف آلاء الله واللام لطفه والميم ملكه ، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : معنى { الم } أنا الله أعلم ، ومعنى المص أنا الله أعلم وأفصل ، ومعنى { الر } أنا الله أرى ، ومعنى { المر } أنا الله أعلم وأرى .
قال الزجاج : وهذا حسن فإن العرب تذكر حرفا من كلمة تريدها كقولهم :

قلت لها قفي فقالت لي قاف (1) ...

____
(1) هذا الرجز للوليد بن عقبة انظر تفسير الطبري 1 / 212 .

أي : وقفت .
وعن سعيد بن جبير قال : هي أسماء الله تعالى مقطعة لو أحسن الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم ، ألا ترى أنك تقول : { المر } ، و : { حم } ، و : { ن } ، فيكون الرحمن ، وكذلك سائرها إلا أنا لا نقدر على وصلها .
وقال قتادة : هذه الحروف أسماء القرآن ، وقال مجاهد وابن زيد : هي أسماء السور ، وبيانه أن القائل إذا قال قرأت { المص } عرف السامع أنه قرأ السورة التي افتتحت بالمص ، وروي عن ابن عباس : أنها أقسام ، وقال الأخفش : إنما أقسم الله بهذه الحروف لشرفها وفضلها لأنها مباني كتبه المنزلة ومبادئ أسمائه الحسنى .
[2] قوله : { ذَلِكَ الْكِتَابُ } أي : هذا الكتاب وهو القرآن ، وأصل الكتاب الضم والجمع ، وسمي الكتاب كتابًا لأنه جمع حرف إلى أحرف .
قوله تعالى : { لَا رَيْبَ فِيهِ } ، أي : لا شك فيه أنه من عند الله وأنه الحق والصدق ، وقيل : هو خبر بمعنى النهي أي : لا ترتابوا فيه .

قوله تعالى : { هُدًى لِلْمُتَّقِينَ } أي : هو هدى ، أي : رشد وبيان لأهل التقوى ، وقيل : هو نصب على الحال ، أي : هاديًا ، تقديره ، لا ريب فيه في هدايته للمتقين ، والهدى ما يهتدي به الإنسان . للمتقين ، أي : للمؤمنين ، قال ابن عباس : المتقي من يتقي الشرك والكبائر والفواحش ، وهو مأخوذ من الاتقاء ، وأصله الحجز بين شيئين ، ومنه يقال : اتقى بترسه أي : جعله حاجزًا بين نفسه وبين ما يقصده . فكأن المتقي يجعل امتثال أمر الله والاجتناب عما نهاه حاجزًا بينه وبين العذاب وتخصيص المتقين بالذكر تشريف لهم أو لأنهم هم المنتفعون بالهدى .

[3] : قوله تعالى : { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ } موضع (الذين) خفض ؛ نعتًا للمتقين ، يؤمنون يصدقون ، وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب ، قال الله تعالى : { وَمَا

أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا } أي : بمصدق لنا ، وهو في الشريعة : الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان ، فسمي الإقرار والعمل إيمانًا لوجه من المناسبة لأنه من شرائعه ، والإسلام هو الخضوع والانقياد فكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيمانًا إذا لم يكن معه تصديق ، وذلك لأن الرجل قد يكون مستسلمًا في الظاهر غير مصدق في الباطن ويكون مصدقًا في الباطن غير منقاد في الظاهر ، والإيمان مأخوذ من الأمان فسمي المؤمن مؤمنًا لأنه يؤمن نفسه من عذاب الله ، والله تعالى مؤمن لأنه يؤمن العباد من عذابه .
{ بِالْغَيْبِ } ما كان مغيبًا من العيون ، قال ابن عباس : الغيب ههنا كل ما أمرت بالإيمان به فيما غاب عن بصرك من الملائكة والبعث والجنة والنار والصراط والميزان ، وقيل : الغيب ههنا هو الله تعالى ، وقيل : القرآن وقال الحسن : الآخرة ، وقال ابن جريج : الوحي .

قوله : { وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ } ، أي : يديمونها ويحافظون عليها في مواقيتها بحدودها وأركانها وهيئاتها ، يقال : قام بالأمر وأقام الأمر إذا أتى به معطيًا حقوقه ، أو المراد بها الصلوات الخمس ، ذكر بلفظ الواحد . والصلاة في اللغة : الدعاء ، قال الله تعالى : { وَصَلِّ عَلَيْهِمْ } أي : ادع لهم ، وفي الشريعة اسم لأفعال مخصوصة من قيام وركوع وسجود وقعود ودعاء وثناء .
قوله : { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ } ، أي : أعطيناهم ، والرزق اسم لكل ما ينتفع به حتى الولد والعبد ، وأصله في اللغة : الحظ والنصيب .
{ يُنْفِقُونَ } : يتصدقون ، قال قتادة : ينفقون في سبيل الله وطاعته ، وأصل الإنفاق : الإخراج عن اليد والملك ، وهذه الآية في المؤمنين من مشركي العرب .

[4] قوله : { وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ } ، يعني : القرآن . { وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ } : من التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهذه الآية في المؤمنين من أهل الكتب . قوله : { وَبِالْآخِرَةِ } ، أي : بالدار الآخرة ، سميت الدنيا : دنيا لدنوها من الآخرة ، وسميت الآخرة : آخرة لتأخرها وكونها بعد الدنيا { هُمْ يُوقِنُونَ } ، أي : يستيقنون أنها كائنة ، من الإيقان وهو العلم ، وقيل : الإيقان واليقين علم عن استدلال ، ولذلك لا يسمى الله موقنًا ولا علمه يقينًا إذ ليس علمه عن استدلال .
[5] قوله : { أُولَئِكَ } أي : أهل هذه الصفة { عَلَى هُدًى } ، أي : رشد وبيان وبصيرة . { مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } : الناجون والفائزون فازوا بالجنة ونجوا من النار ، ويكون الفلاح بمعنى البقاء ، أي باقون في النعيم المقيم ، وأصل الفلاح : القطع والشق ، ومنه سمي الزارع : فلاحًا لأنه يشق الأرض ، فهم المقطوع لهم بالخير في الدنيا والآخرة .

[6] قوله : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا } يعني مشركي العرب ، قال الكلبي : يعني اليهود ، والكفر هو الجحود ، وأصله : من الستر ومنه سمي الليل كافرًا لأنه يستر الأشياء بظلمته ، وسمي الزارع كافرًا لأنه يستر الحب بالتراب ، فالكافر يستر الحق بجحوده ، والكفر على أربعة أنحاء : كفر إنكار ، وكفر جحود ، وكفر عناد ، وكفر نفاق ، فكفر الإنكار هو أن لا يعرف الله أصلًا ولا يعترف به ، وكفر الجحود هو أن يعرف الله بقلبه ولا يعترف بلسانه ككفر إبليس وكفر اليهود ، وكفر العناد هو أن يعرف الله بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به ككفر أبي طالب ، وأما كفر النفاق فهو أن يقر باللسان ولا يعتقد بالقلب .
وجميع هذه الأنواع سواء في أن من لقي الله تعالى بواحد منها لا يغفر له .

قوله : { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ } متساو لديهم { أَأَنْذَرْتَهُمْ } : خوفتهم وحذرتهم ، والإنذار : إعلام مع تخويف وتحذير ، فكل منذر معلم وليس كل معلم منذرًا . { أَمْ } : حرف عطف على الاستفهام ، { لَمْ } : حرف جزم لا يلي إلا الفعل ، لأن الجزم يختص بالأفعال . { تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } : وهذه الآية في أقوام حقت عليهم كلمة الشقاوة في سابق علم الله .
ثم ذكر سبب تركهم الإيمان فقال :
[7] { خَتَمَ اللَّهُ } أي : طبع الله { عَلَى قُلُوبِهِمْ } فلا تعي خيرًا ولا تفهمه ، وحقيقة الختم : الاستيثاق من الشيء كيلا يدخله ما خرج منه ولا يخرج عنه ما فيه ، ومنه الختم على الباب ، قال أهل السنة : أي حكم على قلوبهم بالكفر لما سبق من علمه الأول فيهم ، وقال المعتزلة : جعل على قلوبهم علامة تعرفهم الملائكة بها ، { وَعَلَى سَمْعِهِمْ } ، أي : على موضع سمعهم فلا يسمعون الحق ولا ينتفعون به ، وأراد على أسماعهم كما قال على قلوبهم ، وإنما وحده لأنه مصدر والمصدر لا يثنى ولا يجمع . { وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ } : هذا ابتداء كلام ، غشاوة أي : غطاء فلا يرون الحق .

{ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } أي : في الآخرة ، وقيل : القتل والأسر في الدنيا والعذاب الدائم في العقبى ، والعذاب : كل ما يعني الإنسان ويشق عليه ، قال الخليل : العذاب ما يمنع الإنسان عن مراده ، ومنه الماء العذب لأنه يمنع العطش .
[8] قوله : { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ } نزلت في المنافقين وأكثرهم من اليهود ، والناس : جمع إنسان ، وسمي به لأنه عهد إليه فنسي ، كما قال الله تعالى : { وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ } ، وقيل : لظهوره من قولهم أي أبصرت ، وقيل : لأنه يستأنس به . { وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ } أي : بيوم القيامة ، قال الله تعالى : { وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ } .

[9] { يُخَادِعُونَ اللَّهَ } أي : يخالفون الله ، وأصل الخداع في اللغة الإخفاء ، ومنه المخدع للبيت الذي يخفي فيه المتاع ، فالمخادع يظهر خلاف ما يضمر . وقيل : أصل الخداع : الفساد ، معناه : يفسدون ما أظهروا من الإيمان بما أضمروا من الكفر { وَالَّذِينَ آمَنُوا } ، أي ويخادعون المؤمنين بقولهم إذا رأوهم آمنا وهم غير مؤمنين . {وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ } لأن وبال خداعهم راجع إليهم لأن الله يطلع نبيه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ على نفاقهم فيفتضحون في الدنيا ويستوجبون العقاب في العقبى ، { وَمَا يَشْعُرُونَ } أي : لا يعلمون أنهم يخدعون أنفسهم وأن وبال خداعهم يعود عليهم .
[10] { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } : شك ونفاق ، وأصل المرض الضعف ، سمي الشك في الدنيا مرضًا لأنه يضعف الدين كالمرض يضعف البدن ، { فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا } ، لأن الآيات كانت تنزل تترى آية بعد آية ، كلما كفروا بآية ازدادوا كفرًا ونفاقًا { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } : مؤلم يخلص وجعه إلى قلوبهم ، { بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } : ما للمصدر ، أي : بتكذيبهم الله ورسوله في السر .

[11] { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ } ، يعني : للمنافقين ، وقيل : لليهود ، أي : قال لهم المؤمنون : { لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ } ، بالكفر وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ والقرآن ، وقيل : معناه لا تكفروا ، والكفر أشد فسادًا في الدين ، { قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ } : يقول هذا القول كذبًا كقولهم آمنا وهم كاذبون .
[12] { أَلَا } : كلمة تنبيه ينبه بها المخاطب ، { إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ }

أنفسهم بالكفر ، والناس بالتعويق عن الإيمان ، { وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ } أي : لا يعلمون أنهم مفسدون ، لأنهم يظنون أن الذي هم عليه من إبطان الكفر صلاح ، وقيل : لا يعلمون ما أعد الله لهم من العذاب .

[13] { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ } أي : للمنافقين ، وقيل : لليهود : { آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ } : عبد الله بن سلام وغيره من مؤمني أهل الكتاب ، وقيل : كما آمن المهاجرون والأنصار ، { قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ } أي : الجهال ، فإن قيل : كيف يصح النفاق مع المجاهرة . بقولهم أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ قيل : إنهم كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين ، فأخبر الله نبيه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ والمؤمنين بذلك فرد الله عليهم فقال : { أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ } ، أنهم كذلك ، والسفيه خفيف العقل رقيق الحلم ، من قولهم : ثوب سفيه أي : رقيق ، وقيل : السفيه : الكذاب الذي يتعمد بخلاف ما يعلم .

[14] { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا } ، يعني : هؤلاء المنافقين إذا لقوا المهاجرين والأنصار : { قَالُوا آمَنَّا } كإيمانكم { وَإِذَا خَلَوْا } رجعوا ، ويجوز أن يكون من الخلوة ، و { إِلَى } ، بمعنى : الباء أي : بشياطينهم ، وقيل : إلى بمعنى مع ، كما قال الله تعالى : { وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ } أي : مع أموالكم { شَيَاطِينِهِمْ } ، أي : رؤسائهم وكهنتهم ، ولا يكون كاهن إلا ومعه شيطان تابع له ، والشيطان : المتمرد العاتي من الجن والإنس ومن كل شيء ، وأصله البعد ، يقال : بئر شطون ، أي : بعيدة العمق ، سمي الشيطان شيطانًا لامتداده في الشر وبعده من الخير ، وقال مجاهد : إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين ، { قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ } ، أي : على دينكم { إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ } بمحمد صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ وأصحابه بما نُظهر من الإسلام .

[15] { اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ } : يتركهم ويمهلهم ، والمد والإمداد واحد ، وأصله الزيادة إلا أن المد كثيرًا ما يأتي في الشر ، والإمداد في الخير ، قال الله تعالى في المد { وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا } ، وقال في الإمداد : { وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ } ، { وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ } . { فِي طُغْيَانِهِمْ } أي : في ضلالتهم ، وأصل الطغيان : مجاوزة الحد ، ومنه : طغى الماء { يَعْمَهُونَ } ، أي يترددون في الضلالة متحيرين .

[16] { أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى } : بالإيمان { فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ } أي : استبدلوا الكفر ، أي : ما ربحوا في تجارتهم { وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ } : من الضلالة ، وقيل : مصيبين في تجارتهم .

[17] { مَثَلُهُمْ } : شبههم ، وقيل : صفتهم ، والمثل قول سائر في عرف الناس يعرف به منه الشيء ، وهو أحد أقسام القرآن السبعة ، { كَمَثَلِ الَّذِي } : يعني الذين بدليل سياق الآية { اسْتَوْقَدَ نَارًا } : أوقد نارًا ، { فَلَمَّا أَضَاءَتْ } النار { مَا حَوْلَهُ } ، أي : حول المستوقد { ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ } ، قال ابن عباس : نزلت في المنافقين ، يقول : مثلهم في نفاقهم كمثل رجل أوقد نارًا في ليلة مظلمة في مفازة فاستدفأ ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف ، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره فبقي في ظلمة خائفًا متحيرًا ، فكذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان أمِنُوا على أموالهم وأولادهم وناكحوا المؤمنين ، ووارثوهم وقاسموهم الغنائم ، فذلك نورهم ، فإذا ماتوا

عادوا إلى الظلمة والخوف ، وقيل : ذهاب نورهم في القبر ، وقيل : في القيامة حيث يقولون للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، وقيل : ذهاب نورهم بإظهار عقيدتهم على لسان النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ ، فضرب النار مثلًا ، ثم لم يقل : أطفأ الله نورهم لكن عبر بإذهاب النور عنه ، لأن النار نور وحرارة فيذهب نورهم

وتبقى الحرارة عليهم ، وقال مجاهد : إضاءة النار إقبالهم إلى المسلمين والهدى ، وذهاب نورهم إقبالهم إلى المشركين والضلالة ، وقال عطاء : نزلت في اليهود وانتظارهم خروج النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ واستفتاحهم به على مشركي العرب ، فلما خرج كفروا به .
ثم وصفهم الله فقال :
[18] { صُمٌّ } أي : هم صم عن الحق لا يقبلونه ، وإذا لم يقبلوا فكأنهم لم يسمعوا ، { بُكْمٌ } خرس عن الحق لا يقولونه ، أو أنهم لما أبطنوا خلاف ما أظهروا فكأنهم لم ينطقوا بالحق ، { عُمْيٌ } أي : لا بصائر لهم ، ومن لا بصيرة له كمن لا بصر له ، { فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } عن الضلالة إلى الحق .

[19] { أَوْ كَصَيِّبٍ } أي : كأصحاب صيب ، وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى للمنافقين ، بمعنى : إن شئت مثلهم بالمستوقد ، وإن شئت بأهل الصيب ، والصيب : المطر وكل ما نزل من الأعلى إلى الأسفل فهو صيب ، فعيل من صاب يصوب ، أي : نزل { مِنَ السَّمَاءِ } أي : من السحاب ، وقيل : هي السماء بعينها ، والسماء كل ما علاك فأظلك ، وهي من أسماء الأجناس يكون واحدًا وجمعًا . { فِيهِ } أي : في الصيب ، وقيل : في السماء ، أي : في السحاب { ظُلُمَاتٌ } جمع ظلمة { وَرَعْدٌ } : وهو الصوت الذي يسمع من السحاب ، { وَبَرْقٌ } : وهو النار التي تخرج منه { يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ } : جمع صاعقة ، وهي الصيحة التي يموت من يسمعها أو يغشى عليه ، ويقال لكل عذاب مهلك : صاعقة .
قوله : { حَذَرَ الْمَوْتِ } ، أي : مخافة الهلاك ، { وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ } ، أي : عالم بهم ، وقيل : جامعهم ، قال مجاهد : يجمعهم فيعذبهم ، وقيل : مهلكهم ، دليله قوله تعالى . { إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ } أي تهلكوا جميعًا .

[20] { يَكَادُ الْبَرْقُ } ، أي : يقرب ، يقال : كاد يفعل إذا قرب ولم يفعل ، { يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ } : يختلسها ، والخطف استلاب بسرعة { كُلَّمَا } متى ما ، { أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا } ، أي : وقفوا متحيرين ، فالله تعالى شبههم في كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا في مفازة وسواد في ليلة مظلمة أصابهم مطر فيه ظلمات ، من صفتها أن الساري لا يمكنه المشي فيها ، ورعد من صفته أن يضم السامعون أصابعهم إلى آذانهم من هوله ، وبرق من صفته أن يقرب من أن يخطف أبصارهم ويعميها من شدة توقده ، فهذا مثل ضربه الله للقرآن ، وصنيع الكافرين والمنافقين معه ، فالمطر : القرآن لأنه حياة الجنان كما أن المطر حياة الأبدان ، والظلمات : ما في القرآن من ذكر الكفر والشرك ، والرعد ما خوفوا به من الوعيد ، وذكر النار ، والبرق ما فيه من الهدى والبيان والوعد ، وذكر الجنة ، فالكافرون يسدون آذانهم عند قراءة القرآن مخافة ميل القلب إليه ، لأن الإيمان عندهم كفر ، والكفر موت ، يكاد البرق يخطف أبصارهم أي : القرآن يبهر قلوبهم . وقيل : هذا مثل ضربه الله للإسلام ، فالمطر : الإسلام ، والظلمات : ما فيه من

البلاء والمحن ، والرعد : ما فيه من الوعيد والمخاوف في الآخرة ، والبرق : ما فيه من الوعد ، { يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ } يعني : أن المنافقين إذا رأوا في الإسلام بلاء وشدة هربوا حذرًا من الهلاك ، والله محيط بالكافرين : جامعهم ، يعني : لا ينفعهم هربهم لأن الله تعالى من ورائهم يجمعهم فيعذبهم ، { يَكَادُ الْبَرْقُ } يعني : دلائل الإسلام تزعجهم إلى النظر لولا ما سبق لهم من الشقاوة { كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ } يعني : أن المنافقين إذا أظهروا كلمة الإيمان آمنوا فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة ، وقيل : معناه كلما نالوا غنيمة وراحة في الإسلام ثبتوا وقالوا : إنا معكم ، وإذا أظلم عليهم يعني : رأوا شدة وبلاء تأخروا وقاموا ، أي : وقفوا { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ } ، أي : بأسماعهم { وَأَبْصَارِهِمْ } الظاهرة ، كما ذهب بأسماعهم وأبصارهم الباطنة ، وقيل : لذهب بما استفادوا من العز والأمان الذي لهم بمنزلة السمع والبصر { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } : قادر .

[21] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا النَّاسُ } ، قال ابن عباس : يا أيها الناس : خطاب أهل مكة ، ويا أيها الذين آمنوا خطاب أهل المدينة ، وهو ههنا عام إلا من حيث إنه لا يدخله الصغار والمجانين { اعْبُدُوا } : وحدوا ، قال ابن عباس : كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناها التوحيد ، { رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ } : والخلق اختراع الشيء على غير مثال سبق { وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ } ، أي وخلق الذين من قبلكم { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } : لكي تنجوا من العذاب ، وقيل : معناه كونوا على رجاء التقوى بأن تصيروا في ستر ووقاية من عذاب الله ، وحكم الله من ورائكم يفعل ما يشاء .

[22] { الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا } ، أي بساطًا ، وقيل : منامًا ، وقيل : وطاء ، أي : ذللها ولم يجعلها حزنة لا يمكن القرار عليها ، والجعل ههنا بمعنى : الخلق ، { وَالسَّمَاءَ بِنَاءً } : سقفًا مرفوعًا ، { وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ } ، أي : من السحاب ، { مَاءً } ، وهو المطر ، { فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ } : من ألوان الثمرات وأنواع النبات ، { رِزْقًا لَكُمْ } : طعامًا لكم وعلفًا لدوابكم ، { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا } ، أي : أمثالًا تعبدونهم كعبادة الله ، وقال أبو عبيدة : الند الضد ، وهو من الأضداد ، والله تعالى بريء من المثل والضد ، { وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } : أنه واحد خالق هذه الأشياء .

[23] { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ } ، أي : وإن كنتم في شك ، لأن الله تعالى علم أنهم شاكون { مِمَّا نَزَّلْنَا } ، يعني : القرآن ، { عَلَى عَبْدِنَا } : محمد ، { فَأْتُوا } : أمر تعجيز ، { بِسُورَةٍ } ، والسورة قطعة من القرآن معلومة الأول والآخر { مِنْ مِثْلِهِ } ، أي : مثل القرآن ، ومن : صلة ، كقوله تعالى : { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ } ، وقيل : الهاء في مثله راجعة إلى محمد صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم ، يعني : من مثل محمد صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم أمي لا يحسن الخط والكتابة ، { وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ } ، أي : واستعينوا بآلهتكم التي تعبدونها ، { مِنْ دُونِ اللَّهِ } ، وقال مجاهد : ناسًا يشهدون لكم ، { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } : أن محمدًا صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم تقوَّله من تلقاء نفسه ، فلما تحداهم عجزوا ، فقال :

[24] { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا } ، فيما مضى { وَلَنْ تَفْعَلُوا } أبدًا فيما بقي ، وإنما قال ذلك لبيان الإعجاز ، وأن القرآن كان معجزة النبي صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم حيث عجزوا عن الإتيان بمثله ، قوله : { فَاتَّقُوا النَّارَ } ، أي : فآمنوا واتقوا

بالإيمان النار ، { الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ } ، قال ابن عباس وأكثر المفسرين : يعني حجارة الكبريت لأنها أكثر التهابًا ، وقيل : جمع الحجارة ، وهو دليل على عظم تلك النار ، وقيل : أراد بها الأصنام لأن أكثر أصنامهم كانت منحوتة من الحجارة ، كما قال : { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ } ، { أُعِدَّتْ } : هيئت { لِلْكَافِرِينَ } .

[25] قوله تعالى : { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا } ، أي : أخبر ، والبشارة : كل خبر صدق تتغير به بشرة الوجه ، ويستعمل في الخير والشر وفي الخير أغلب ، { وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } ، أي : الفعلات الصالحات ، يعني : المؤمنين الذين هم من أهل الطاعات قال معاذ : العمل الصالح الذي فيه أربعة أشياء : العلم والنية والصبر والإخلاص ، { أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ } : جمع الجنة ، والجنة : البستان الذي فيه أشجار مثمرة ، سميت بها لاجتنانها وتسترها بالأشجار ، وقال الفراء : الجنة ما فيه النخيل ، والفردوس ما فيه الكرم { تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا } أي : من تحت أشجارها ومساكنها { الْأَنْهَارُ } أي : المياه في الأنهار ، لأن النهر لا يجري ، وقيل : من تحتها أي : بأمرهم ، والأنهار جمع نهر ، سمي به لسعته وضيائه ، ومنه النهار { كُلَّمَا } : متى ما ، { رُزِقُوا } : أطعموا { مِنْهَا } أي : من الجنة ، { مِنْ ثَمَرَةٍ } أي : ثمرة ، ومن : صلة . { رِزْقًا } : طعامًا ، { قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ } قيل : من قبل في الدنيا ، وقيل : الثمار في الجنة متشابهة في اللون مختلفة في الطعم ، فإذا رزقوا ثمرة بعد أخرى ظنوا

أنها الأولى ، { وَأُتُوا بِهِ } : رزقًا { مُتَشَابِهًا } ، قال ابن عباس ومجاهد والربيع : متشابهًا في الألوان مختلفًا في الطعوم ، وقال الحسن وقتادة : متشابهًا أي : يشبه بعضها بعضًا في الجودة ، أي : كلها خيار لا رذالة فيها ، وقال محمد بن كعب : يشبه ثمر الدنيا ، غير أنها أطيب ، وقيل : متشابهًا في الاسم مختلفًا في الطعم ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسامي .
قوله تعالى : { وَلَهُمْ فِيهَا } : في الجنان { أَزْوَاجٌ } : نساء وجوار ، يعني : من الحور العين ، { مُطَهَّرَةٌ } : من الغائط والبول والحيض والنفاس والبصاق والمخاط والمني والولد وكل قذر ، وقيل : مطهرة عن مساوئ الأخلاق { وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } ، دائمون لا يموتون فيها ولا يخرجون منها .

[26] قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا } يذكر شبها ، { مَا بَعُوضَةً } ما : صلة ، أي : مثلاً بالبعوضة ، وبعوضة : نصب بدل عن المثل ، والبعوض صغار البق ، سميت بعوضة لأنها كانت بعض البق ، { فَمَا فَوْقَهَا } ، يعني : الذباب والعنكبوت ، وقال أبو عبيدة : أي : فما دونها ، كما يقال : فلان جاهل ، فيقال : وفوق ذلك ، أي : وأجهل . { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا } : بمحمد والقرآن ، { فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ } ، يعني : المثل هو { الْحَقُّ } : الصدق { مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا } أي : بهذا المثل ، فلما حذف الألف واللام نصب على الحال والقطع ، ثم أجابهم فقال : { يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا } من الكفار ، وذلك أنهم يكذبون فيزدادون ضلالاً ، { وَيَهْدِي بِهِ } ، أي بهذا المثل { كَثِيرًا } من المؤمنين فيصدقونه ، والإضلال هو الصرف عن الحق إلى الباطل ، وقيل : هو الهلاك ، يقال : ضل الماء في اللبن إذا هلك ، { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ } : الكافرين ، وأصل الفسق : الخروج ، يقال : فسقت الرطبة إذا خرجت عن

قشرها ، ثم وصفهم فقال :
[27] { الَّذِينَ يَنْقُضُونَ } : يخالفون ويتركون ، وأصل النقض : الكسر ، { عَهْدَ اللَّهِ } : أمر الله الذي عهد إليهم يوم الميثاق بقوله : { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ } ؟ { قَالُوا بَلَى } ، وقيل : أراد به العهد الذي أخذه على النبيين وسائر الأمم أن يؤمنوا بمحمد صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم في قوله : { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ } ، الآية ، وقيل : أراد به العهد الذي عهد إليهم في التوراة أن يؤمنوا بمحمد صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم ويبينوا نعته ، { مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ } : توكيده ، والميثاق : العهد المؤكد ، { وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ } ، يعني : الإيمان بمحمد صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم وبجميع الرسل عليهم السلام وقيل : أراد به الأرحام ، { وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ } : بالمعاصي وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم وبالقرآن ، { أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } : المغبونون .
ثم قال لمشركي العرب على وجه التعجب :
[28] { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ } ؟ بعد نصب الدلائل ووضوح البرهان .

ثم ذكر الدلائل فقال : { وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا } : نطفًا في أصلاب آبائكم ، { فَأَحْيَاكُمْ } : في الأرحام والدنيا ، { ثُمَّ يُمِيتُكُمْ } عند انقضاء آجالكم ، { ثُمَّ يُحْيِيكُمْ } : للبعث ، { ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } ، أي : تردون في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم .
[29] قوله تعالى : { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا } ، لكي تعتبروا وتستدلوا ، وقيل : لكي تنتفعوا ، { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ } ، قال ابن عباس وأكثر مفسري السلف : أي ارتفع إلى السماء { فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ } : خلقهن مستويات لا فطور فيها ولا صدوع ، { وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } .

[30] { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ } ، أي : وقال ربك وإذ زائدة ، وقيل : معناه واذكر إذ قال ربك ، وكذلك كل ما ورد في القرآن من هذا النحو فهذا سبيله ، إذ وإذا : حرفا توقيت إلا أن إذ للماضي وإذا للمستقبل ، وقد يوضع أحدهما موضع الآخر .
{ لِلْمَلَائِكَةِ } ، جمع ملك ، وأراد به الملائكة الذين كانوا في الأرض { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } ، أي : بدلا منكم ، والمراد بالخليفة ههنا آدم { قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا } : بالمعاصي ، { وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ } بغير حق { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ } ، قال الحسن : نقول : سبحان الله وبحمده هو صلاة الخلق وصلاة البهائم وغيرهما سوى الآدميين { وَنُقَدِّسُ لَكَ } ، أي : نثني عليك بالقدس والطهارة عما لا يليق بعظمتك وجلالك ، وقيل : ونطهر أنفسنا لطاعتك ، وقيل : وننزهك ، واللام : صلة ، وقيل : لم يكن هذا من الملائكة على طريق الاعتراض والعجب بالعمل بل على سبيل التعجب وطلب الحكمة فيه ، قَالَ الله { إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } : من المصلحة فيه ، وقيل : إني أعلم أن في ذريته من يطيعني ويعبدني من الأنبياء والأولياء والصلحاء ، وقيل

: إني أعلم أن فيكم من يعصيني وهو إبليس ، وقيل : إني أعلم أنهم يذنبون وأنا أغفر لهم .

[31] قوله تعالى : { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا } : سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض ، وقيل : لأنه كان آدم اللون ، فلما خلقه الله عز وجل علمه أسماء الأشياء ، وذلك أن الملائكة قالوا لما قال الله تعالى : { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقًا أكرم عليه منا وإن كان غيرنا أكرم عليه فنحن أعلم منه لأنا خلقنا قبله ورأينا ما لم يره ، فأظهر الله تعالى فضله عليهم بالعلم ، قال ابن عباس : علمه اسم كل شيء حتى القصعة والقصيعة ،

وقيل : اسم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، وقال الربيع بن أنس : أسماء الملائكة ، وقيل : أسماء ذريته ، وقيل : صنعة كل شيء { ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ } إنما قال : { عَرَضَهُمْ } ، ولم يقل عرضها لأن المسميات إذا جمعت من يعقل ومن لا يعقل يكنى عنها بلفظ من يعقل ، كما يكنى عن الذكور والإناث بلفظ الذكور ، وقال مقاتل : خلق الله كل شيء الحيوان والجماد ثم عرض تلك الشخوص على الملائكة ، فالكناية راجعة إلى الشخوص ، فلذلك قال عرضهم { فَقَالَ أَنْبِئُونِي } أخبروني { بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } ، إني لا أخلق

خلقًا إلا وكنتم أفضل وأعلم منه .
فقالت الملائكة إقرارًا بالعجز :
[32] { قَالُوا سُبْحَانَكَ } : تنزيهًا لك ، { لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا } ، معناه : إنك أجل من أن نحيط بشيء من علمك إلا ما علمتنا ، { إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ } بخلقك { الْحَكِيمُ } في أمرك ، والحكيم له معنيان : أحدهما الحاكم وهو القاضي العدل ، والثاني المحكم للأمر كي لا يتطرق إليه الفساد ، وأصل الحكمة في اللغة : المنع فهي تمنع صاحبها من الباطل .
فلما ظهر عجزهم .

[33] قال الله تعالى : { يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ } ، أخبرهم بأسمائهم فسمى آدم كل شيء وذكر الحكمة التي لأجلها خلق ، { فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ } الله تعالى : { أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ } يا ملائكتي { إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، ما كان منهما وما يكون { وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ } ، قال الحسن وقتادة : يعني قولهم : أتجعل فيها من يفسد فيها ، { وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } : قولكم لن يخلق الله خلقًا أكرم عليه منا ، قال ابن عباس هو : إن إبليس مر على جسد آدم لا روح فيه ، فقال : لأمر ما خلق هذا ، ثم دخل في فيه وخرج من دبره ، وقال : إنه خلق لا يتماسك لأنه أجوف ، ثم قال للملائكة الذين معه : أرأيتم إن فضل هذا عليكم وأمرتم بطاعته ماذا تصنعون ؟ قالوا : نطيع أمر ربنا ، فقال إبليس في نفسه : والله لئن سلطت عليه لأهلكنه ولئن سلط علي لأعصينه ، فقال الله تعالى : { وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ } يعني ما تبديه الملائكة من الطاعة ، { وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } يعني إبليس من المعصية .

[34] وقوله تعالى : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ } اختلفوا في هذا الخطاب مع الملائكة ، فقال بعضهم : مع الذين كانوا سكان الأرض والأصح أنه مع جميع الملائكة ، لقوله تعالى : { فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ } ، وقوله : { اسْجُدُوا } ، فيه قولان : الأصح أن السجود كان لآدم على الحقيقة وتضمن معنى الطاعة لله عز وجل وامتثال أمره ، وكان ذلك سجود تعظيم وتحية لا سجود عبادة ، كسجود إخوة يوسف له في قوله عز وجل : { وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا } ، ولم يكن فيه وضع الوجه على الأرض إنما كان انحناء فلما جاء الإسلام أبطل ذلك بالسلام ، وقيل : معنى قوله : { اسْجُدُوا لِآدَمَ } أي : إلى آدم فكان آدم قبلة والسجود لله تعالى كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة والصلاة لله عز وجل ، { فَسَجَدُوا } يعني : الملائكة ، { إِلَّا إِبْلِيسَ } ، وكان اسمه عزازيل بالسريانية وبالعربية الحارث ، فلما عصى غير اسمه وصورته ، فقيل : إبليس لأنه أبلس من رحمة الله تعالى ، أي : يئس ، واختلفوا فيه ، فقال ابن عباس وأكثر المفسرين : كان إبليس من الملائكة ، وقال الحسن : كان من الجن ولم يكن من الملائكة لقوله تعالى

: { إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ } ، فهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من النار والملائكة خلقوا من النور ، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة ، والأول أصح لأن خطاب السجود كان مع الملائكة ، وقوله : { كَانَ مِنَ الْجِنِّ } ، أي من الملائكة الذين هم خزنة الجنة ، وقال سعيد بن جبير : من الذين يعملون في الجنة وقيل : إن فرقة من الملائكة خلقوا من النار سموا جنًّا لاستتارهم عن الأعين ، وإبليس كان منهم .
قوله : { أَبَى } أي : امتنع فلم يسجد ، { وَاسْتَكْبَرَ } أي : تكبر عن السجود لآدم ، { وَكَانَ } أي : وصار { مِنَ الْكَافِرِينَ } ، وقال أكثر المفسرين : وكان في سابق علم الله من الكافرين الذين وجبت لهم الشقاوة . قوله تعالى :

[35] { وَقُلْنَا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا } : واسعًا كثيرًا ، { حَيْثُ شِئْتُمَا } : كيف شئتما ومتى شئتما وأين شئتما ، { وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ } ، يعني : بالأكل ، قال بعض العلماء : وقع النهي على جنس من الشجر ، وقال آخرون : على شجرة مخصوصة { فَتَكُونَا } : فتصيرا { مِنَ الظَّالِمِينَ } ، أي : الضارين أنفسكما بالمعصية ، وأصل الظلم : وضع الشيء في غير موضعه .

[36] { فَأَزَلَّهُمَا } : استزل { الشَّيْطَانُ } آدم وحواء ، أي : دعاهما إلى الزلة { عَنْهَا } عن الجنة { فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ } : من النعيم { وَقُلْنَا اهْبِطُوا } : انزلوا إلى الأرض ، يعني : آدم وحواء وإبليس والحية { بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } أراد العداوة التي بين ذرية آدم والحية ، وبين المؤمنين من ذرية آدم وبين إبليس ، وقوله تعالى : { وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ } موضع قرار { وَمَتَاعٌ } بلغة ومستمتع { إِلَى حِينٍ } إلى انقضاء آجالكم .

[37] { فَتَلَقَّى } التلقي : هو قبول عن فطنة وفهم ، وقيل : هو التعلم ، { آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ } اختلفوا في تلك الكلمات ، قال سعيد بن جبير ومجاهد والحسن : هي قوله : { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا } الآية ، وقال مجاهد ومحمد بن كعب القرظي : هو قوله : لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءًا وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم ، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءًا وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين ، وقال عبيد بن عمير : هي أن آدم قال : يا رب أرأيت ما أتيت ، أشيء ابتدعته من تلقاء نفسي أم شيء قدرتَه عليّ قبل أن تخلقني ؟ قال الله تعالى : لا بل شيء قدرته عليكم قبل أن أخلقك ، قال : يا رب فكما قدرته قبل أن تخلقني فاغفر لي ، وقيل : هي ثلاثة أشياء الحياء والدعاء والبكاء . قوله : { فَتَابَ عَلَيْهِ } : فتجاوز عنه { إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ } : يقبل توبة عباده { الرَّحِيمُ } : بخلقه .

[38] قوله تعالى : { قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا } ، يعني : هؤلاء الأربعة وقيل الهبوط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا ، والهبوط الثاني من السماء الدنيا إلى الأرض { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ } ، أي فإن يأتكم يا ذرية آدم { مِنِّي هُدًى } ، أي : رشد وبيان شريعة ، وقيل : كتاب ورسول ، { فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ } فيما يستقبلهم { وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } على ما خلفوا ، وقيل : لا خوف عليهم في الدنيا ولا هم يحزنون في الآخرة .
[39] { وَالَّذِينَ كَفَرُوا } : جحدوا { وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } بالقرآن { أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ } : يوم القيامة ، { هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } : لا يخرجون منها ولا يموتون فيها .

[40] قوله تعالى : { يا بَنِي إِسْرَائِيلَ } يا أولاد يعقوب ، ومعنى إسرائيل : عبد الله { اذْكُرُوا } : احفظوا ، والذكر يكون بالقلب ويكون باللسان ، وقيل : أراد به الشكر ، وذكر بلفظ الذكر ، لأن في الشكر ذكرًا وفي الكفران نسيانًا ، قال الحسن : ذكر النعمة شكرها ، { نِعْمَتِيَ } ، أي : نعمي ، لفظها واحد ومعناها جمع { الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ } ، أي : على أجدادكم وأسلافكم ، قال قتادة : هي النعم التي خصت بها بنو إسرائيل : فلق البحر ، وإنجاؤهم من فرعون بإغراقه ، وتظليل الغمام عليهم في التيه ، وإنزال المن والسلوى ، وإنزال التوراة ، في نعم كثيرة لا تحصى ، وقال غيره : هي جميع النعم التي لله عز وجل على عباده ، { وَأَوْفُوا بِعَهْدِي } : بامتثال أمري { أُوفِ بِعَهْدِكُمْ } : بالقبول والثواب { وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } : فخافوني في نقض العهد .

[41] { وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ } يعني القرآن ، { مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ } ، أي : موافقًا لما معكم من التوراة في التوحيد والنبوة والأخبار ونعت النبي صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم ، { وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ } ، أي : بالقرآن ، يريد من أهل الكتاب ، لأن قريشًا كفرت قبل اليهود بمكة ، معناه ولا تكونوا أول من كفر بالقرآن فتتابعكم اليهود على ذلك فتبوءوا بآثامكم وآثامهم ، { وَلَا تَشْتَرُوا } ، أي ولا تستبدلوا { بِآيَاتِي } : ببيان صفة محمد صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم ، { ثَمَنًا قَلِيلًا } أي : عوضًا يسيرًا من الدنيا ، وذلك أن رؤساء اليهود وعلماءهم كانت لهم مأكلة يصيبونها من سفلتهم وجهالهم يأخذون كل عام منهم شيئًا معروفًا من زروعهم وضروعهم ونقودهم ، فخافوا أنهم إن بينوا صفة محمد صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم وتابعوه أن تفوتهم تلك المأكلة ، فغيروا نعته وكتموا اسمه ، فاختاروا الدنيا على الآخرة { وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ } فاخشوني .

[42] { وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ } ، أي لا تخلطوا الحق الذي أنزلت عليكم من صفة محمد صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم بالباطل الذي تكتبونه بأيديكم من تغيير صفة محمد صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم ، والأكثرون على أنه أراد لا تلبسوا الإسلام باليهودية والنصرانية ، وقال مقاتل : إن اليهود أقروا ببعض صفة محمد صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم وكتموا بعضا ليصدقوا في ذلك ، فقال ولا تلبسوا الحق الذي تغيرون بالباطل ، يعني : بما تكتمونه ، فالحق بيانهم والباطل كتمانهم ، { وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ } ، أي : لا تكتموه ، يعني : نعت محمد صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم ، { وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } أنه نبي مرسل .

[43] { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ } ، يعني : الصلوات الخمس بمواقيتها وحدودها ، { وَآتُوا الزَّكَاةَ } أدوا زكاة أموالكم المفروضة ، فهي مأخوذة من زكاة الزرع إذا نما وكثر ، وقيل : من تزكى ، أي تطهر ، وكلا المعنيين موجودان في الزكاة لأن فيها تطهير أو تنمية للمال ، { وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ } ، أي صلوا مع المصلين محمد صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم وأصحابه ، وذكر بلفظ الركوع لأن الركوع ركن من أركان الصلاة ، ولأن صلاة اليهود لم يكن فيها ركوع ، وكأنه قال صلوا صلاة ذات ركوع ، قيل : وإعادته بعد قوله : { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ } لهذا ، أي : صلوا مع الذين في صلواتهم ركوع ، فالأول مطلق في حق الكل ، وهذا في حق أقوام مخصوصين ، وقيل : هذا حث على إقام الصلاة جماعة كأنه قال لهم : صلوا مع المصلين الذين سبقوهم بالإيمان .

[44] { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ } ، أي : بالطاعة ، نزلت في علماء اليهود وذلك أن الرجل منهم كان يقول لقريبه وحليفه من المؤمنين إذا سأله عن أمر محمد

صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم : اثبت على دينه فإن أمره حق ، وقوله صدق ، وقيل : هو خطاب لأحبارهم حيث أمروا أتباعهم بالتمسك بالتوراة ، ثم خالفوا وغيروا نعت محمد صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم ، { وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ } ، أي : تتركون أنفسكم فلا تتبعونه ، { وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ } : تقرءون التوراة فيها نعته وصفته ، { أَفَلَا تَعْقِلُونَ } : أنه حق فتتبعون ، والعقل مأخوذ من عقال الدابة ، وهو ما يشد به ركبة البعير فيمنعه عن الشرود ، فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود .

[45] { وَاسْتَعِينُوا } : على ما يستقبلكم من أنواع البلاء ، وقيل : على طلب الآخرة ، { بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ } : أراد حبس النفس عن المعاصي ، وقيل : أراد بالصبر : الصبر على أداء الفرائض ، وقال مجاهد : الصبر : الصوم ، ومنه سمي شهر رمضان شهر الصبر ، وذلك لأن الصوم يزهده في الدنيا والصلاة ترغبه في الآخرة ، وقيل : الواو بمعنى " على " أي : واستعينوا بالصبر على الصلاة كما قال الله تعالى : { وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا } ، { وَإِنَّهَا } ، ولم يقل وإنهما ، رد الكناية إلى كل واحد منهما ، أي وإن كل خصلة منهما وقيل : معناه واستعينوا بالصبر وإنه لكبير ، وبالصلاة وإنها لكبيرة ، فحذف أحدهما اختصارًا ، { لَكَبِيرَةٌ } ، أي : لثقيلة { إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } ، يعني : المؤمنين ، وقال الحسن : الخائفين ، وقيل : المطيعين ، وقال مقاتل بن حيان : المتواضعين ، وأصل الخشوع : السكون ، قال الله تعالى : { وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ } ، فالخاشع ساكن إلى طاعة الله تعالى .

[46] { الَّذِينَ يَظُنُّونَ } : يستيقنون ، فالظن من الأضداد يكون شكًّا ويقينًا ، كالرجاء يكون أمنًا وخوفًا . { أَنَّهُمْ مُلَاقُو } : معاينوا { رَبِّهِمْ } : في الآخرة ، وهو رؤية الله تعالى ، وقيل : المراد من اللقاء الصيرورة إليه ، { وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } : فيجزيهم بأعمالهم .
[47] { يا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } ، أي : عالمي زمانكم ، وذلك التفضيل وإن كان في حق الآباء ولكن يحصل به الشرف في حق الأبناء .
[48] { وَاتَّقُوا يَوْمًا } : واخشوا عقاب يوم ، { لَا تَجْزِي نَفْسٌ } . لا تقضي نفس { عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا } أي : حقًّا لزمها ، وقيل لا تغني ، وقيل لا تكفي شيئًا من الشدائد { وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ } إذا كانت كافرة { وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ } ، أي فداء ، { وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ } : يمنعون من عذاب الله .

[49] { وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ } ، أي أسلافكم وأجدادكم فاعتدها منة عليهم ، لأنهم نجوا بنجاتهم ، { مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ } : أتباعه وأهل دينه ، وفرعون هو الوليد بن مصعب بن الريان ، وكان من القبط { يَسُومُونَكُمْ } : يكلفونكم ويذيقونكم { سُوءَ الْعَذَابِ } : أشد العذاب وأسوأه ، وقيل : يصرفونكم في العذاب مرة هكذا كالإبل السائمة في البرية ، وذلك أن فرعون جعل بني إسرائيل خدمًا وخولًا ، وصنفهم في الأعمال فصنف يبنون ، وصنف يحرثون ويزرعون ، وصنف يخدمونه ، ومن لم يكن منهم في عمل وضع عليه الجزية ، وقيل : تفسير قوله : { يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ } : ما بعده وهو قوله تعالى : { يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ } ، فهو مذكور على وجه البدل من قوله : { يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ } { وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ } يتركونهن أحياء ، وذلك أن فرعون رأى في منامه كأن نارًا أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر وأحرقت كل قبطي فيها ، ولم يتعرض لبني إسرائيل ، فهاله ذلك وسأل الكهنة عن رؤياه فقالوا : يولد ولد في

بني إسرائيل غلام يكون على يده هلاكك وزوال ملكك ، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل { وَفِي

ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ } ، قيل : البلاء : المحنة ، أي : في سومهم إياكم سوء العذاب محنة عظيمة ، وقيل : البلاء : النعمة ، أي في إنجائي إياكم منهم نعمة عظيمة ، فالبلاء يكون بمعنى النعمة وبمعنى الشدة ، فالله تعالى قد يختبر على النعمة بالشكر ، وعلى الشدة بالصبر ، قال الله تعالى : { وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً } .

[50] { وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ } ، قيل : معناه فرقنا لكم ، وقيل : فرقنا البحر بدخولكم إياه ، وسمي البحر بحرًا لاتساعه ، ومنه قيل للفرس : بحر إذا اتسع في جريه ، وذلك أنه لما دنا هلاك فرعون أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يسير ببني إسرائيل من مصر ليلًا وخرج موسى عليه السلام في ستمائة ألف وعشرين ألف مقاتل لا يعدون ابن العشرين لصغره ولا ابن الستين لكبره ، وكانوا يوم دخلوا مصر مع يعقوب اثنين وسبعين إنسانًا ما بين رجل وامرأة ، فخرج فرعون في طلب بني إسرائيل ، وعلى مقدمة عسكره هامان في ألف وسبعمائة ألف ، وكان فيهم سبعون ألفًا من دهم الخيل سوى سائر الشيات فسارت بنو إسرائيل حتى وصلوا إلى البحر ونظروا فإذا هم بفرعون حين أشرقت الشمس ، فبقوا متحيرين فقالوا : يا موسى كيف نصنع وأين ما وعدتنا ؟ هذا فرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا والبحر أمامنا إن دخلناه غرقنا ، قال الله تعالى : { فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ }{ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } فأوحى الله إليه { أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ } ، فضربه وظهر فيه اثنا عشر طريقًا لكل

سبط طريق حتى عبروا البحر سالمين ، فذلك قوله تعالى : { وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ } : من آل فرعون والغرق { وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ } ، وذلك أن فرعون لما وصل إلى البحر فرآه منفلقًا خاض البحر فأمر الله تعالى البحر أن يأخذهم فالتطم وأغرقهم أجمعين ، وذلك بمرأى من بني إسرائيل ، فذلك قوله تعالى : { وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } إلى مصارعهم ، وقيل : إلى إهلاكهم .

[51] : { وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى } اسم عبري عُرّب وهو بالعبرانية الماء والشجر ، وسمي به لأنه أخذ من بين الماء والشجر ، ثم قلبت الشين المعجمة سينًا في العربية ، { أَرْبَعِينَ لَيْلَةً } ، أي : انقضاءها ، ثلاثون من ذي القعدة وعشر من ذي الحجة وذلك أن بني إسرائيل لما أمنوا من عدوهم ودخلوا مصر لم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليهما فوعد الله موسى ينزل عليهم التوراة ، فقال موسى لقومه : إني ذاهب لميقات ربكم آتيكم بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذرون ، وواعدهم أربعين ليلة ، ثلاثين من ذي القعدة وعشر من ذي الحجة ، واستخلف عليهم أخاه هارون ، فلما أتى الوعد جاء جبريل على فرس ليذهب بموسى إلى ربه ، فلما رآه السامري وكان رجلًا صائغًا ورأى موضع قدم الفرس تَخْضر من ذلك ، وكان منافقًا أظهر الإسلام ، وكان من قوم يعبدون البقر فصاغ لهم عجلًا في ثلاثة أيام فقال السامري : هذا إلهكم وإله موسى ، وكانت بنو إسرائيل قد أخلفوا الوعد فعدوا اليوم مع الليلة يومين ، فلما مضى عشرون يومًا ولم يرجع موسى وقعوا في الفتنة ، وقيل : كان موسى قد وعدهم ثلاثين ليلة ثم زيدت العشرة فكانت فتنتهم في تلك العشرة ، فلما مضت الثلاثون

ولم يرجع موسى ظنوا أنه قد مات ، ورأوا العجل وسمعوا قول السامري ، فعكف ثمانية آلاف رجل منهم على العجل يعبدونه ، وقيل : كلهم عبدوه إلا هارون مع اثني عشر ألف رجل وهذا أصح ، وقال الحسن : كلهم عبدوه إلا هارون وحده ، فذلك قوله تعالى : { ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ } ، أي : إلهًا { مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ } : ضارون لأنفسكم بالمعصية واضعون العبادة في غير موضعها .
[52] { ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ } : محونا ذنوبكم { مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ } : من بعد عبادتكم العجل ، { لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } : لكي تشكروا عفوي عنكم وصنيعي إليكم ، قيل : الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح في السر والعلانية ، وقال الحسن : شكر النعمة ذكرها .
قوله تعالى :

[53] { وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } ، يعني التوراة ، { وَالْفُرْقَانَ } ، قال مجاهد : هو التوراة أيضًا ذكرها باسمين ، قال الكسائي : الفرقان نعت الكتاب ، والواو زائدة ، يعني الكتاب الفرقان ، أي : المفرق بين الحلال والحرام ، وقال يمان بن ريان : أراد بالفرقان انفراق البحر كما قال : { وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ } , { لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } : بالتوراة .

[54] { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ } الذين عبدوا العجل { يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ } : ضررتم بأنفسكم : { بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ } : إلهًا قالوا : فأي شيء نصنع ؟ قال : { فَتُوبُوا } : فارجعوا { إِلَى بَارِئِكُمْ } : خالقكم ، قالوا : كيف نتوب ؟ قال : { فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } ، يعني : ليقتل البريء منكم المجرم ، { ذَلِكُمْ } ، أي : القتل ، { خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ } ، فلما أمرهم موسى بالقتل ، قالوا : نصبر لأمر الله فجلسوا بالأفنية محتبين ، وقيل لهم : من حل حبوته أو مد طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل فهو ملعون مردودة توبته ، وأصلت القوم عليهم الخناجر ، وكان الرجل يرى ابنه وأباه وأخاه وقريبه وصديقه وجاره ، فلم يمكنهم المضي لأمر الله تعالى ، قالوا : يا موسى كيف نفعل ؟ فأرسل الله تعالى عليهم ضبابة وسحابة سوداء لا يبصر بعضهم بعضًا فكانوا يقتلونهم إلى المساء فلما كثر القتل دعا موسى وهارون عليهما السلام وبكيا وتضرعا وقالا : يا رب هلكت بنو إسرائيل ، البقية البقية ، فكشف الله تعالى السحابة وأمرهم أن يكفوا عن القتل ، فكشف عن ألوف من القتلى فكان من قتل منهم

شهيدًا ومن بقي مكفر عنه ذنوبه ، فذلك قوله تعالى : { فَتَابَ عَلَيْكُمْ } , أي : ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم فتجاوز عنكم ، { إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ } : القابل للتوبة ، { الرَّحِيمُ } بهم .

[55] ، قوله تعالى : { وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً } ، وذلك أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ، فاختار موسى سبعين رجلًا من قومه من خيارهم فقالوا لموسى : اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا ، فقال : أفعل ، وسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه ، وأسمعهم الله إني أنا الله لا إله إلا أنا ، فلما فرغ موسى أقبل إليهم فقالوا له : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة معاينة ، وذلك أن العرب تجعل العلم بالقلب رؤية ، فقال : جهرة ليعلم أن المراد منه العيان ، { فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ } ، أي : الموت ، وقيل : نار جاءت من السماء فأحرقتهم ، { وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } ، أي : ينظر بعضكم لبعض حين

أخذكم الموت ، وقيل : تعلمون ، والنظر يكون بمعنى العلم ، فلما هلكوا جعل موسى يبكي ويتضرع ويقول : ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد هلك خيارهم ؟ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله تعالى رجلًا رجلًا ، بعدما ماتوا يومًا وليلة ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون فذلك قوله

تعالى :
[56] ، { ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ } : أحييناكم, والبعث : إثارة الشيء عن محله ، يقال : بعثت البعير وبعثت النائم فانبعث ، { مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ } ، قال قتادة : أحياهم ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم ، ولو ماتوا بآجالهم لم يُبعثوا إلى يوم القيامة ، { لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } .

[57] ، { وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ } ، في التيه تقيكم حرَّ الشمس والغمامُ من الغم ، وأصله : التغطية والستر ، سُمي السحاب غمامًا لأنه يُغطي وجه الشمس ، وذلك أنه لم يكن لهم في التيه كن يسترهم فشكوا إلى موسى فأرسل الله تعالى غمامًا أبيض رقيقًا أطيب من غمام المطر ، وجعل لهم عمودًا من نور يُضيء لهم الليل إذ لم يكن لهم قمر ، { وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى } أي : في التيه ، والأكثرون : عن أن المن هو الترنجبين ، وقال مجاهد : هو شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار طعمه كالشهد ، وقال وهب : هو الخبز الرقاق ، قال الزجاج : جملة المنّ من يمن الله به من غير تعب { كُلُوا } : أي : وقلنا لهم كلوا : { مِنْ طَيِّبَاتِ } : حلالات ، { مَا رَزَقْنَاكُمْ } ، ولا تدخروا لغدٍ ، ففعلوا فقطع الله ذلك عنهم ، ودوَّد وفسد ما ادخروا ، فقال الله تعالى : { وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } ، أي : وما بخسوا بحقنا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون باستيجابهم عذابي ، وقطع مادة الرزق الذي كان ينزل عليهم بلا مؤنة في الدنيا ولا حساب في العقبى .

[58] ، قوله تعالى : { وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ } ، سميت القرية قرية لأنها تجمع أهلها ، ومنه المقراة للحوض لأنها تجمع الماء ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : هي أريحاء وقيل : بلقاء ، وقال مجاهد : بيت المقدس ، وقال الضحاك : هي الرملة والأردن وفلسطين وتدمر ، وقال مقاتل : إيليا ، وقال ابن كيسان : الشام ، { فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا } : موسعًا عليكم { وَادْخُلُوا الْبَابَ } ، يعني : بابًا من أبواب القرية ، وكان لها سبعة أبواب { سُجَّدًا } ، أي : رُكّعًا خضعًا منحنين ، وقال وهب : فإذا دخلتموه فاسجدوا شكرًا لله تعالى ، { وَقُولُوا حِطَّةٌ } ، قال قتادة : حط عنا خطايانا ، أمروا بالاستغفار ، وقال ابن عباس : لا إله إلا الله ، لأنها تحط الذنوب { نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ } : من الغفر وهو الستر ، فالمغفرة : تستر الذنوب { وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ } : ثوابًا من فضلنا .

[59] { فَبَدَّلَ } : فغير { الَّذِينَ ظَلَمُوا } : أنفسهم ، وقالوا : { قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ } ، وذلك أنهم بدّلوا قول الحطة بالحنطة استخفافًا بأمر الله تعالى { فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ } قيل : أرسل الله عليهم طاعونًا فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفًا ، { بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } : يعصون ويخرجون من أمر الله تعالى .

[60] { وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى } : طلب السقيا { لِقَوْمِهِ } ، وذلك أنهم عطشوا في التيه فسألوا موسى أن يستسقي لهم ففعل ، فأوحى إليه كما قال : { فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ } وكانت من آس الجنة حملها آدم من الجنة فتوارثها الأنبياء حتى وصلت إلى شعيب عليه السلام ، فأعطاها موسى عليه السلام ، قوله تعالى : { الْحَجَرَ } ، اختلفوا فيه قال وهب : لم يكن حجرًا معينًا بل كان موسى يضرب أي حجر كان من عرض الحجارة فينفجر عيونًا ، لكل سبط عين ، وكانوا اثني عشر سبطًا ثم تسيل كل عين في جدول إلى السبط الذي أمر أن يسقيهم ، وقال الآخرون : كان حجرًا معينًا بدليل أنه عرّفه بالألف واللام ، وقال ابن عباس : كان حجرًا خفيفًا مربعًا على قدر رأس الرجل ، كان يضعه في مخلاته فإذا احتاجوا إلى الماء وضعه وضربه بعصاه ، قوله تعالى : { فَانْفَجَرَتْ } ، أي : فضرب فانفجرت أي سالت ، { مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا } : على عدد الأسباط ، { قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ } : موضع شربهم ، لا يدخل سبط على غيره في شربه ، { كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ } ، أي : وقلنا لهم : كلوا من المنّ والسلوى واشربوا من

الماء فهذا كله من رزق الله يأتيكم بلا مشقة ، { وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } ، والعثي , أشد الفساد ، يقال : عثى يعثي عثيًا ، وعثا يعثوا عثوًا ، وعاث يعيث عيثًا .
قوله تعالى :

[61] { وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ } ، وذلك أنهم أجمعوا وسئموا من أكل المن والسلوى وإنما قال : على طعام واحد وهما اثنان ، لأن العرب تعبّر عن الاثنين بلفظ الواحد كما تعبر عن الواحد بلفظ الاثنين وقيل : كانوا يأكلون أحدهما بالآخر فكانا كطعام واحد { فَادْعُ لَنَا } : فسل لأجلنا { رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا } ، قال ابن عباس : الفوم الخبز ، وقال عطاء : الحنطة ، وقال القتيبي رحمه الله تعالى : الحبوب التي تُؤكل كلها ، وقال الكلبي : الثوم ، { وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا } , { قَالَ } ، لهم موسى عليه السلام : { أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى } أخس وأردأ { بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ } : أشرف وأفضل { اهْبِطُوا مِصْرًا } ، يعني : فإن أبيتم إلّا ذلك فانزلوا مصرًا من الأمصار ، وقال الضحاك : هو مصر موسى وفرعون ، والأول أصح لأنه لو أراده لم يصرفه ، { فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ } : من نبات الأرض ، { وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ } : جُعلت عليهم ، وألزموا : { الذِّلَّةُ } والذل والهوان ، قيل : بالجزية {

وَالْمَسْكَنَةُ } : الفقر ، سُمي الفقير مسكينًا لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة ، فترى اليهود وإن كانوا مياسير كأنهم فقراء ، وقيل : الذلة هي فقر القلب فلا ترى في أهل الملل أذل وأحرص على المال من اليهود ، { وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ } : رجعوا ، ولا يقال : باءَ إلّا بالشر ، وقال أبو عبيدة : احتملوا وأقروا به ، ومنه الدعاءِ أبوءُ لك بنعمتك علي وأبوءُ بذنبي ، أي : أقر ، { ذَلِكَ } ، أي : الغضب ، { بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ } : بصفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم في التوراة ، ويكفرون بالإنجيل والقرآن ، { وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ } ، تفرد نافع بهمز النبي وبابه ، فيكون معناه : المخبر ، من أنبأ يُنبئ ، والقراءة المعروفة تَرْكُ الهمزة ، وله وجهان : أحدهما هو أيضًا من الأنباء تركت الهمزة فيه تخفيفًا لكثرة الاستعمال ، والثاني : هو بمعنى الرفيع مأخوذ من النبوة ، وهي المكان المرتفع ، فعلى هذا يكون (النبيين) على الأصل ، { بِغَيْرِ

الْحَقِّ } , أي بلا جرم { ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } : يتجاوزون أمري ويرتكبون محارمي .

[62] { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا } ، يعني : اليهود ، سموا به لقولهم إنا هُدنا إليك ، أي : ملنا إليك ، وقيل . لأنهم هادوا ، أي : تابوا عن عبادة العجل ، وقيل : لأنهم مالوا عن دين الإسلام وعن دين موسى عليه السلام { وَالنَّصَارَى } ، سُموا به لقول الحواريين : نحن أنصار الله ، وقال مقاتل : لأنهم نزلوا قرية يقال لها ناصرة ، وقيل : لاعتزائهم إلى نصرة وهي قرية كان ينزلها عيسى عليه السلام { وَالصَّابِئِينَ } قرأ أهل المدينة والصابين والصابون بترك الهمزة ، والباقون بالهمزة ، وأصله الخروج ، يقال : صبأ فلان أي خرج من دين إلى دين آخر ، قال عمر بن الخطاب وابن عباس : هم قوم من أهل الكتاب ، قال عمر : تحل ذبائحهم مثل ذبائح أهل الكتاب, وقال ابن عباس : لا تحل ذبائحهم ولا مناكحتهم ، { مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } ، فإن قيل : كيف يستقيم قوله من آمن بالله وقد ذكر في ابتداء الآية إن الذين آمنوا ؟ قيل : اختلفوا في حكم الآية فقال بعضهم : أراد بقوله : إن الذين آمنوا على التحقيق ثم اختلفوا في هؤلاء المؤمنين ، فقال قوم : هم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل المبعث وهم طلاب

الدين ، مثل حبيب النجار ، وقس بن ساعدة ، وسلمان الفارسي ، فمنهم من أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وتابعه ، ومنهم من لم يدركه ، وقيل : هم المؤمنون من الأمم الماضية ، وقيل هم المؤمنون من هذه الأمة ، والذين هادوا الذين كانوا على دين موسى عليه السلام ولم يبدلوا ، والنصارى الذين كانوا على دين عيسى عليه السلام ولم يغيروا وماتوا على ذلك والصابئون زمن استقامة أمرهم ، من آمن أي : من مات منهم وهو مؤمن لأن حقيقة الإيمانِ بالوفاة ، ويجوز أن يكون الواو مضمرًا ، أي : ومن آمن بعدك يا محمد إلى يوم القيامة .

وقال بعضهم : إن المذكورين بالإيمان في أول الآية على طريق المجاز دون الحقيقة ، ثم اختلفوا فيهم فقال بعضهم : الذين آمنوا بالأنبياء الماضين ولم يؤمنوا بك وقيل : أراد بهم المنافقين الذين آمنوا بألسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم ، واليهود والنصارى الذين اعتقدوا اليهوديّة والنصرانيّة بعد التبديل ، والصابئون بعض أصناف الكفار ، من آمن بالله واليوم الآخر من هذه الأصناف بالقلب واللسان ، { وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ } ، وإنما ذكر بلفظ الجمع لأن (مَن) يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث { وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ } : في الدنيا { وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } : في الآخرة .

[63] قوله تعالى : { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ } : عهدكم يا معشر اليهود { وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ } ، وهو الجبل بالسريانية قال ابن عباس : أمر الله تعالى جبلًا من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام على رؤوسهم ، وذلك أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام ، فأمر موسى قومه أن يقبلوها ويعملوا بأحكامها ، فأبوا أن يقبلوها للآصار والأنفال التي هي فيها ، وكانت شريعة ثقيلة ، فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام فقلع جبلًا على قدر عسكرهم فرفعه فوق رؤوسهم مثل قامة الرجل كالظلة ، وقال لهم : إن لم تقبلوا التوراة أرسلت هذا الجبل عليكم { خُذُوا } ، أي : قلنا لهم خذوا { مَا آتَيْنَاكُمْ } : أعطيناكم { بِقُوَّةٍ } : بجدّ واجتهاد ومواظبة ، { وَاذْكُرُوا } :

وادرسوا { مَا فِيهِ } ، وقيل : احفظوا واعملوا { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } ، لكي تنجوا من الهلاك في الدنيا والعذاب في العُقبى ، فإن قبلتم وإلّا رضختكم بهذا الجبل فلما رأوا أنْ لا مهرب لهم عنها قبلوا وسجدوا ، وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود فصار سنة في اليهود لا يسجدون إلا على أنصاف وجوههم ويقولون بهذا السجود رفع العذاب عنا .

[64] { ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ } : أعرضتم { مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ } : من بعدما قبلتم التوراة ، { فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ } يعني بالإمهال والإدراج وتأخير العذاب عنكم ، { لَكُنْتُمْ } لصرتم { مِنَ الْخَاسِرِينَ } : من المغبونين بالعقوبة وذهاب الدنيا والآخرة ، وقيل : من المعذبين في الحال كأنه رحمهم بالإمهال .

[65] ، قوله تعالى : { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ } ، أي : جاوزوا الحد ، وأصل السبت القطع ، قيل : سُمي يوم السبت بذلك لأن الله تعالى قطع فيه الخلق ، وقيل : لأن اليهود أُمروا فيه بقطع الأعمال والقصة فيه أنهم كانوا زمن داود عليه السلام حرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت ، فكان إذا دخل السبت لم يبق حوت في البحر إلا اجتمع ، فإذا مضى السبت تفرقن ولزمن قعر البحر فلا يُرى شيء منها ، ثم إن الشيطان وسوس إليهم وقال : إنما نُهيتم عن أخذها يوم السبت ، فعمد رجال فحفروا الحياض حول البحر ، وشرعوا منه إليها الأنهار ، فإذا كانت عشية الجمعة فتحوا تلك الأنهار فأقبل الموج بالحيتان إلى الحياض فلا يقدرن على الخروج لبعد عمقها وقلة مائها ، فإذا كان يوم الأحد أخذوها ، وقيل : كانوا يسوقون الحيتان إلى الحياض يوم السبت ولا يأخذونها ، ثم يأخذونها يوم الأحد ، وقيل كانوا ينصبون الحبائل والشخوص يوم الجمعة ، ويُخرجونها يوم الأحد ، ففعلوا ذلك زمانًا ولم تنزل عليهم عقوبة ، فتجرؤوا على الذنب وقالوا : وقد أحِلّ لنا ، فأخذوا وأكلوا وملّحوا وباعوا واشتروا وكثر مالهم ، فلما فعلوا ذلك صار

أهل القرية - وكانوا نحوًا من سبعين ألفًا - ثلاثة أصناف : صنف أمسك ونهى ، وصنف أمسك ولم ينه ، وصنف انتهك الحرمة ، وكان الناهون اثني عشر ألفًا ، فلما أبى المجرمون قبول نصحهم قالوا : والله لا نُساكِنكم في قرية واحدة ، فقسموا القرية بجدار وعبروا بذلك سنتين ، فلعنهم داود عليه السلام وغضب الله عليهم لإصرارهم على المعصية ، فخرج الناهون ذات يوم من بابهم ولم يخرج من المجرمين أحد ولم يفتحوا بابهم ، فلما أبطؤوا تسوروا عليهم الحائط فإذا هم جميع قردة لها أذناب يتعاوون ، قال قتادة : صار الشبان قردة والشيوخ خنازير ، فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا قال الله تعالى : { فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً } : أمر تحويل وتكوين ، { خَاسِئِينَ } : مُبعدين مطرودين والخسأ : الطرد والإبعاد .

[66] { فَجَعَلْنَاهَا } ، أي : جعلنا عقوبتهم بالمسخ { نَكَالًا } ، أي : عقوبة وعبرة ، والنكال : اسم لكل عقوبة ينكل الناظر من فعل ما جُعلت العقوبة جزاءً عليه ، ومنه النكول عن اليمين ، وهو الامتناع ، وأصله من النكل وهو القيد { لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا } ، قال قتادة : أراد بما بين يديها يعني : ما سبق من الذنوب ، أي : جعلنا تلك العقوبة جزاءً لِما تقدّم من ذنوبهم قبل نهيهم عن أخذ الصيد ، { وَمَا خَلْفَهَا } : ما حضر من الذنوب التي أخذوا بها ، وهي العصيان بأخذ الحيتان ، وقال أبو العالية والربيع : عقوبة لما مضى من ذنوبهم وعِبرة لمن بعدهم أن يَسْتَنُّوا بسنّتهم ، و (مَا) الثانية بمعنى : من ، وقيل : جعلناها أي : جعلنا قرية

أصحاب السبت عِبرة لما بين يديها ، أي : القرى التي كانت مبنية في الحال ، وما خلفها وما يحدث من القرى بعدُ ليتعظوا { وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ } : للمؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يفعلون مثل فعلهم .

[67] قوله عزّ وجلّ : { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً } : البقرة هي الأنثى من البقر ، يقال : هي مأخوذة من البقر وهي الشق ، سُميت به لأنها تبقر الأرض ، أي : تشقها للحراثة ، والقصة فيه أنه كان في بني إسرائيل رجل غني وله ابن عم فقير لا وارث له سواه ، فلما طال عليه موته قتله ليرثه وحمله إلى قرية أخرى وألقاه بفنائهم ، ثم أصبح يطلب ثأره وجاء بناس إلى موسى يدّعي عليهم القتل ، فسألهم موسى فجحدوا فاشتبه أمر القتيل على موسى ، قال الكلبي : وذلك قبل نزول قسامة في التوراة ، فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم بدعائه ، فأمرهم الله بذبح بقرة ، فقال لهم موسى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً } ، { قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا } ، أي : تستهزئ بنا نحن نسألك عن أمر القتيل وتأمرنا بذبح البقرة ، وإنما قالوا ذلك لبعد ما بين الأمرين في الظاهر ولم يدروا ما الحكمة فيه { قَالَ } موسى : { أَعُوذُ بِاللَّهِ } : أمتنع بالله { أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } أي : من المستهزئين بالمؤمنين ، وقيل : من الجاهلين بالجواب لا على وفق السؤال ، لأن

الجواب لا على وفق السؤال جهل ، فلما علم القوم أن ذبح البقرة عزم من الله عزّ وجل استوصفوها ، ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأتْ عنهم ، ولكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم .

[68] { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ } ، أي : ما سنّها { قَالَ } موسى { إِنَّهُ يَقُولُ } ، يعني فسأل الله تعالى فقال إنه يعني : إن الله تعالى يقول : { إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ } ، أي لا كبيرة ولا صغيرة ، والفارض : المسنة التي لا تلد ، والبكر : الفتية الصغيرة التي لم تلد قط ، { عَوَانٌ } : وسط نصف { بَيْنَ ذَلِكَ } ، أي : بين السنين ، يقال : عونت المرأة تعوينًا إذا زادت على الثلاثين { فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ } : من ذبح البقرة ولا تكثروا السؤال .

[69] { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا } ، قال ابن عباس : شديدة الصفرة ، وقال قتادة : صاف ، وقال الحسن : الصفراء السوداء ، والأول أصح لأنه لا يقال أسود فاقع ، إنّما يقال أصفر فاقع ، وأسود حالك وأحمر قانئ وأخضر ناضر وأبيض بقق للمبالغة ، { تَسُرُّ النَّاظِرِينَ } : إليها يعجبهم حُسنها وصفاء لونها .

[70] { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ } أسائمة أم عاملة ؟ { إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا } ، ولم يقل تشابهت لتذكير لفظ البقر ، كقوله تعالى : { أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ } ، وقال الزجاج : أي جنس البقر تشابه ، أي : التبس واشتبه أمره علينا فلا نهتدي إليه { وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ } : إلى وصفها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وايْم الله لو لم يستثنوا لَما بُيّنتْ لهم إلى آخر الأبد » (1) .

---

(1) رواه الإمام الطبري في تفسيره جـ 1 / 275 وابن كثير 1 / 199 وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبي هريرة .

[71] { قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ } : مذللة بالعمل ، يقال : رجل ذلول بيِّن الذل ودابة ذلولة بيّنة الذل ، { تُثِيرُ الْأَرْضَ } : تقلبها للزراعة ، { وَلَا

تَسْقِي الْحَرْثَ } ، أي : ليست بسانية ، { مُسَلَّمَةٌ } : بريئة من العيوب , { لَا شِيَةَ فِيهَا } : لا لون لها سوى لون جميع جلدها ، قال عطاء : لا عيب فيها ، قال مجاهد : لا بياض فيها ولا سواد ، { قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ } ، أي : بالبيان التام الشافي الذي لا إشكال فيه ، وطلبوها فلم يجدوا بكمال وصفها إلا مع الفتى فاشتروها بملء مَسْكها ذهبًا { فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ } : من غلاء ثمنها ، وقال محمد بن كعب : وما كادوا يجدونها باجتماع أوصافها ، وقيل : ما كادوا يفعلُونَ من شدة اضطرابهم واختلافهم فيها .

[72] قوله عزّ وجلّ : { وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا } : هذا أول القصة ، وإن كان مؤخرًا في التلاوة ، واسم القتيل عاميل ، { فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا } قال ابن عباس ومجاهد : معناه فاختلفتم ، وقال الربيع بن أنس : تدافعتم ، أي : يحيل بعضكم على بعض ، من الدرء : وهو الدفع ، فكان كل واحد يدفع عن نفسه ، { وَاللَّهُ مُخْرِجٌ } ، أي : مظهر : { مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } ، فإن القاتل كان يكتم القتل .
[73] قوله عزّ وجلّ : { فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ } ، يعني : القتيل ، { بِبَعْضِهَا } أي : ببعض البقرة ففعلوا ذلك فقام القتيل حيًّا بإذن الله تعالى وأوداجه ، أي : عروق العنق تشخب دمًا ، وقال : قتلني فلان ثم سقط ومات مكانه فحرم قاتله الميراث { كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى } : كما أحيا عاميل ، { وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } ، قيل : تمنعون أنفسكم من المعاصي .

[74] قوله تعالى : { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ } ، أي يبست وجفت ، جفاف القلب : خروج الرحمة واللين عنه ، وقيل : غلظت ، وقيل : اسودت ، { مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ } : من بعد ظهور الدَّلالات ، قال الكلبي : قالوا بعد ذلك نحن لم نقتله ، فلم يكونوا قط أعمى قلبًا ولا أشد تكذيبًا لنبيهم منهم عند ذلك ، أي { فَهِيَ } : في الغِلْظَة والشدة : { كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً } ، قيل : أو بمعنى الواو ، كقوله : { مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ } أي : بل يزيدون . وإنّما لم يشبهها بالحديد مع أنه أصلب من الحجارة لأن الحديد قابل للين , فإنه يلين بالنار ، وقد لَان لداود عليه السلام ، والحجارة لا تلين قط ، ثم فضّل الحجارة على القلب القاسي فقال : { وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ } ، قيل : أراد به جميع الحجارة ، وقيل : أراد به الحجر الذي كان يضرب عليه موسى للأسباط ، { وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ } : أراد به عيونًا دون الأنهار، { وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ } : ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله { مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ } : وقلوبكم لا تلين ولا تخشع

يا معشر اليهود ، فإن قيل : الحجر جماد لا يفهم فكيف يخشى ؟ قيل : الله يفهمه ويلهمه فيخشى بإلهامه ، ومذهب أهل السنة والجماعة أن لله تعالى علمًا في الجمادات وسائر الحيوانات ، سوى العقلاء لا يقف عليه غير الله ، فلها صلاة وتسبيح وخشية ، كما قال جلّ ذكره : { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ } وقال : { وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ } وقال : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ } الآية ، فيجب على المرء الإيمان به ويكل علمه إلى الله سبحانه وتعالى .
قوله عزّ وجلّ : { وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ } : بساهٍ { عَمَّا تَعْمَلُونَ } : وعيد وتهديد ، وقيل : بتارك عقوبة ما تعملون ، بل يجازيكم به .

[75] قوله عزّ وجلّ : { أَفَتَطْمَعُونَ } : أفترجون ، يريد محمدًا وأصحابه ، { أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ } : تصدقكم اليهود بما تخبرونهم به ؟ { وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ

يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ } ، يعني : التوراة ، { ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ } : يغيرون ما فيها من الأحكام ، { مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ } : علموه ، غيّروا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، وآية الرجم { وَهُمْ يَعْلَمُونَ } : أنهم كاذبون .

[76] قوله عزّ وجل : { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا } , قال ابن عباس والحسن وقتادة : يعني : منافقي اليهود الذين آمنوا بألسنتهم إذا لقوا المؤمنين المخلصين ، { قَالُوا آمَنَّا } : كإيمانكم ، { وَإِذَا خَلَا } : رجع { بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ } ، كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ووهب بن يهودا وغيرهم من رؤساء اليهود ، لأمرهم على ذلك ، { قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ } : بما قص الله عليكم في كتابكم أن محمدًا حق وقوله صدق , والفتاح : القاص , وقال الكسائي : بما بينه لكم من العلم بصفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته , وقال الواقدي : بما أنزل الله عليكم وأعطاكم { لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ } : ليخاصموكم به ، ويعني : أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ويحتجوا بقولكم عليكم ، فيقولوا : قد أقررتم أنه نبي حق في كتابكم ، ثم لا تتبعونه ؟ . وذلك أنّهم قالوا لأهل المدينة حين شاوروهم في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم : آمنوا به فإنه حق ، ثم قال بعضهم لبعض : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به ؟ . ويعني : لتكون لهم الحجة عليكم . { عِنْدَ رَبِّكُمْ } في الدنيا والآخرة وقيل : إنهم أخبروا

المؤمنين بما عذبهم الله به على الجنايات ، فقال بعضهم لبعض : أتحدثونهم بما أنزل الله عليكم من العذاب ليحاجوكم به عند ربكم ، ليروا الكرامة لأنفسهم عليكم عند الله ، وقال مجاهد : هو قول يهود قريظة ، قال بعضهم لبعض حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « يا إخوان القردة والخنازير ، فقالوا : من أخبر محمدًا بهذا ؟ ما خرج هذا إلّا منكم » (1) { أَفَلَا تَعْقِلُونَ }
[77] قوله عزّ وجلّ : { أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ } : يخفون ، { وَمَا يُعْلِنُونَ } : يبدون ، يعني اليهود .

____

(1) أخرجه الطبري 2 / 252 تحقيق أحمد شاكر وذكره ابن كثير 1 / 207 تحقيق الوادعي .

[78] وقوله تعالى : { وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ } , أي : من اليهود أميون لا يحسنون القراءة والكتابة جمع : أمّي ، ومنسوب إلى الأم كأنه باق على ما انفصل من الأم لم يعلم كتابة ولا قراءة ، وروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنا أمة أميّة » (1) أي : لا نكتب ولا نحسب ، وقيل : هو منسوب إلى أمّ القرى وهي مكة ، { لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ } , قرأ أبو جعفر . (أماني) ، بتخفيف الياء ، كل القرآن ، حذف إحدى الياءين تخفيفًا ، وقراءة العامة بالتشديد ، وهو جمع : أمنية وهي التلاوة ، وقال الله تعالى : { إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ } ، أي : في قراءته ، قال أبو عبيدة : إلا تلاوة وقراءة عن ظهر القلب لا يقرؤونه من كتاب ، وقيل : يعلمونه حفظًا وقراءة لا يعرفون معناه ، قال ابن عباس : يعني غير عارفين بمعاني الكتاب ، وقال مجاهد وقتادة : إلّا كذبًا وباطلًا ، قال الفراء : إلا أماني : الأحاديث المفتعلة وأراد بها الأشياء التي كتبها علماؤهم من عند أنفسهم ، ثم أضافوها إلى الله من تغيير نعت النبي صلى الله عليه وسلم وغيره .

____

(1) رواه البخاري في الصوم باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : لا نكتب

ولا نحسب 4 / 136 ، ومسلم في الصيام رقم (1080) 2 / 761 والمصنف في شرح السنة 6 / 228 .

وقال الحسن وأبو العالية : هي من التمني وهي أمانيهم الباطلة التي يتمنونها على الله عزّ وجلّ ، مثل قولهم : { لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى } ، وقولهم : { لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً } ، وقولهم : { نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ } ، فعلى هذا تكون إِلَّا بمعنى (لكن) ، أي لا يعلمون الكتاب لكن يتمنون أشياء لا تحصل لهم ، { وَإِنْ هُمْ } ، وما هم { إِلَّا يَظُنُّونَ } ، يعني : وما يظنون إلا ظنًّا وتوهمًا لا يقينًا قاله قتادة والربيع ، وقال مجاهد : يكذبون .

[79] ، قوله عزّ وجلّ : { فَوَيْلٌ } ، قال الزجاج : ويل ، كلمة تقولها العرب لكل واقع في هلكة ، وقيل : هو دعاء الكفار على أنفسهم بالويل والثبور ، وقال ابن عباس : شدة العذاب ، وقال سعيد بن المسيب : ويل واد في جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لانْمَاعتَ ولَذابتْ من شدة حرّها { لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا } ، وذلك أن أحبار اليهود خافوا ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، فاحتالوا في تعويق اليهود عن الإيمان به فعمدوا إلى صفته في التوراة ، وكانت صفته فيها : حسن الوجه حسن الشعر أكحل العينين ربعة القامة فغيروها وكتبوا مكانها : طوال أزرق سبط الشعر ، فإذا سألهم سفلتهم عن صفته قرؤوا ما كتبوه فيجدونه مخالفًا لصفته ويُكذّبونه ، قال الله تعالى : { فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ } ، يعني : كتبوه بأنفسهم اختراعًا من تغيير نعته صلى الله عليه وسلم ، { وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ } : من المآكل ، ويقال : من المعاصي .

[80] { وَقَالُوا } ، يعني اليهود { لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ } : لن تصيبنا النار ، { إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً } : قدرًا مقدرًا ثم يزول عنا العذاب ، واختلفوا في هذه الأيام ، فقال ابن عباس ومجاهد : كانت اليهود يقولون : مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب بكل ألف سنة يومًا واحدًا ثم ينقطع العذاب بعد سبعة أيام ، وقال قتادة وعطاء : يعنون أربعين يومًا التي عبد فيها آباؤهم العجل ، وقال الحسن وأبو العالية : قالت اليهود : إن ربنا عتب علينا في أمرنا فأقسم الله ليعذبنا أربعين يومًا فلن تمسنا النار إلا أربعين يومًا تحلة القسم ، فقال الله عزّ وجلّ تكذيبًا لهم ، { قُلْ } : يا محمد { أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ } ألف استفهام دخلت على ألف الوصل ، { عَهْدًا } موثقًا أن لايعذبكم إلا هذه المدة { فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ } وعده { أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } ثم قال :

[81] { بَلَى } ، وبلى وبل : حرفا استدراك ، ومعناهما نفي الخبر الماضي وإثبات الخبر المستقبل ، { مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً } ، يعني الشرك { وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ } والإحاطة : الإحداق بالشيء من جميع نواحيه ، قال ابن عباس وعطاء والضحاك وأبو العالية والربيع وجماعة : هي الشرك يموت عليه ، وقيل : السيئة الكبيرة والإحاطة به أن يصر عليها فيموت غير تائب قاله عكرمة والربيع بن خيثم ، قال الواحدي رحمه الله في تفسيره الوسيط : المؤمنون لا يدخلون في حكم هذه الآية لأن الله تعالى أوعد بالخلود في النار من أحاطت به خطيئته ، وتقدمت منه سيئة وهي الشرك والمؤمن وإن عمل الكبائر لم يوجد منه الشرك ، وقال مجاهد : هي الذنوب تحيط بالقلب كلما عمل ذنبًا ارتفعت حتى يغشى القلب ، وهي الرين { فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

[82] { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

[83] قوله تعالى : { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ } : في التوراة والميثاق العهد الشديد ، { لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ } ، أي : وصيناهم بالوالدين ، { إِحْسَانًا } برًا بهما وعطفًا عليهما ونزولاً عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى ، { وَذِي الْقُرْبَى } أي : وبذي القرابة ، والقربى مصدر كالحسنى ، { وَالْيَتَامَى } ، جمع يتيم وهو الطفل الذي لا أب له { وَالْمَسَاكِينِ } ، يعني الفقراء ، { وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا } : صدقًا وحقًا في شأن محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن سألكم عنه فاصدقوه وبينوا صفته لا تكتموا أمره ، وقال سفيان الثوري : مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر ، وقيل : هو اللين في القول والمعاشرة بحسن الخلق ، قرأ حمزة والكسائي ويعقوب (حَسنًا) بفتح الحاء والسين ، أي : قولاً حسنًا { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ } أعرضتم عن العهد والميثاق ، { إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ } ، وذلك أن قومًا منهم آمنوا ، { وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ } . كإعراض آبائكم .

[84] قوله عزّ وجلّ : { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ } ، أي : لا تريقون { دِمَاءَكُمْ } ، أي : لا يسفك بعضكم دم بعض ، وقيل : لا تسفكوا دماء غيركم فيسفك دماءكم فكأنكم سفكتم دماء أنفسكم ، { وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ } : لا يُخرج بعضكم بعضًا من داره ، وقيل : لا تسيئوا جوار من جاوركم فتلجئوهم إلى الخروج بسوء جواركم ، { ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ } : بهذا العهد أنه حق وقبلتم ، { وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ } : اليوم على ذلك يا معشر اليهود وتعترفون بالقبول .

[85] قوله عزّ وجلّ : { ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ } ، يعني : يا هؤلاء ، وهؤلاء للتنبيه ، { تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ } ، أي يقتل بعضكم بعضًا ، { وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ } تتظاهرون والظهير : العون { بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } : بالمعصية والظلم ، { وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى } ، قرأ حمزة (أسرى) ، وهما جمع أسير ، ومعناهما واحد ، (تفدوهم) : بالمال وتنقذوهم ، وقرأ أهل المدينة وعاصم { تُفَادُوهُمْ } ، أي : تبادلوهم ، أراد مفاداة الأسير بالأسير ، وقيل : معنى القراءتين واحد ، ومعنى الآية : قال السدي : إن الله تعالى أخذ على بني إسرائيل في التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضًا ولا يُخرج بعضهم بعضًا من ديارهم ، وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بني إسرائيل فاشتروه بما قام من ثمنه وأعتقوه ، وكانت قريظة حلفاء الأوس والنضير حلفاء الخزرج ، وكانوا يقتتلون في حرب سنين ، فيقاتل بنو قريظة مع حلفائهم وبنو النضير مع حلفائهم وإذا غلبوا خرّبوا ديارهم وأخرجوهم منها ، وإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه وإن كان الأسير من عدوهم ، فتعيرهم العرب ويقولون : كيف

تقاتلونهم وتفدونهم ؟ قالوا : إنا أمرنا أن نفديهم ، فيقولون فلم تقاتلوهم ؟ قالوا : إنا نستحي أن تذل حلفاؤنا ، فعيرهم الله تعالى بذلك { وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ } ، فكأن الله تعالى أخذ عليهم أربعة عهود : ترك القتال وترك الإخراج وترك المظاهرة عليهم مع أعدائهم وفداء أسراهم ، فأعرضوا عن الكل إلا الفداء ، قال الله تعالى : { أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ } ، قال مجاهد يقول : إن وجدته في يد غيرك فديته وأنت تقتله بيدك ، { فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ } : يا معشر اليهود { إِلَّا خِزْيٌ } : عذاب وهوان ، { فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ، فكان خزي بني قريظة القتل والسبي ، وخزي بني النضير الجلاء والنفي من منازلهم إلى أذرعات وأريحاء من الشام ، { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ } وهو عذاب النار { وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } .

[86] قوله عزّ وجلّ : { أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا } : استبدلوا { الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ } . يهون { عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ } ، لا يُمنعون من عذاب الله عزّ وجلّ .

[87] { وَلَقَدْ آتَيْنَا } : أعطينا { مُوسَى الْكِتَابَ } : التوراة جملة واحدة ، { وَقَفَّيْنَا } : وأتبعنا ، { مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ } : رسولاً بعد رسول ، { وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ } : الدَّلالات الواضحات ، وهي ما ذكر الله في سورة آل عمران والمائدة ، وقيل : أراد الإنجيل ، { وَأَيَّدْنَاهُ } : قويناه { بِرُوحِ الْقُدُسِ } اختلفوا في روح القدس ، قال الربيع وغيره : أراد الروح الذي لا نفخ فيه ، والقدس هو الله نحو بيت الله وناقة الله ، وقيل : أراد بالقدس : الطهارة ، يعني . الروح الطاهرة ، قال قتادة والسدي والضحاك : روح القدس جبريل عليه السلام ، وقيل : وصف جبريل بالقدس أي بالطهارة ، لأنه لم يقترف ذنبًا ، وقال الحسن : القدس هو الله وروحه جبريل , قال الله تعالى : { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } ، وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : روح القدس هو اسم الله تعالى الأعظم الذي كان يحيي به الموتى ، ويري الناس العجائب ، وقيل : هو الإنجيل جعل له روحًا كما جعل القرآن روحًا لمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه سبب لحياة القلوب .

فلما سمعت اليهود ذكر عيسى عليه السلام ، فقالوا : يا محمد لا مثلَ عيسى كما تزعُم عملتَ ، ولا كما يُقص علينا من الأنبياء فعلت ، فأتنا بما أتى به عيسى إن كنت صادقًا ، قال الله تعالى : { أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ } : يا معشر اليهود { رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ } : تكبرتم وتعظمتم عن الإيمان ، { فَفَرِيقًا } : طائفة { كَذَّبْتُمْ } : مثل عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ، { وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ } مثل زكريا ويحيى وشعيب ، وسائر من قتلوا من الأنبياء عليهم السلام .
[88] { وَقَالُوا } ، يعني اليهود ، { قُلُوبُنَا غُلْفٌ } ، جمع أغلف وهو الذي عليه غشاوة ، معناه : عليها غشاوة فلا تسمع ولا تفقه ما يقول ، قال الله عزّ وجلّ : { بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ } : طردهم الله وأبعدهم عن كل خير { بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ } ، قال قتادة : معناه لا يؤمن منهم إلا قليل ، لأن من آمن من المشركين أكثر ممن آمن من اليهود ، أي : فقليلاً يؤمنون ، وقال معمر : لا يؤمنون إلا بقليل مما في أيديهم ويكفرون بأكثره ، أي : فقليل يؤمنون .

[89] { وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } ، يعني القرآن { مُصَدِّقٌ } : موافق { لِمَا مَعَهُمْ } ، يعني : التوراة ، { وَكَانُوا } يعني : اليهود ، { مِنْ قَبْلُ } : من قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، { يَسْتَفْتِحُونَ } : يستنصرون ، { عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا } : على مشركي العرب ، وذلك أنهم كانوا يقولون إذا أحزنهم أمر ودهمهم عدوّ : اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة ، فكانوا ينصرون ، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين : قد أطل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وثمود وإرم .
{ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا } ، يعني محمدًا صلى الله عليه وسلم من غير بني

إسرائيل وعرفوا نعته وصفته ، { كَفَرُوا بِهِ } بغيًا وحسدًا , { فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ } .

[90] { بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ } ، بئس ونعم فعلان ماضيان وُضعا للمدح والذم ، لا يتصرفان تصرف الأفعال ، معناه : بئس الذي اختاروا لأنفسهم حين استبدلوا الباطل بالحق { أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ } ، يعني : القرآن ، { بَغْيًا } أي : حسدًا ، وأصل البغي : الفساد ، يقال : بغى الجرح إذا فسد ، والبغي : الظلم ، وأصله الطلب ، والباغي طالب الظلم والحاسد يظلم المحسود جهده طلبًا لإزالة نعمة الله تعالى عنه { أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } ، أي النبوة والكتاب { عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } : محمد صلى الله عليه وسلم { فَبَاءُوا } : رجعوا { بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ } ، أي مع غضب ، قال ابن عباس ومجاهد : الغضب الأول بتضييعهم التوراة وتبديلهم ، والثاني بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، وقال قتادة : الأول بكفرهم بعيسى والإنجيل ، والثاني بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وقال السدي : الأول بعبادة العجل ، والثاني بالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، { وَلِلْكَافِرِينَ } : الجاحدين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم من الناس كلهم ، { عَذَابٌ مُهِينٌ } : مخزٍ يُهانون

فيه .

[91] قوله عزّ وجلّ : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ } ، يعني : القرآن ، { قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا } ، يعني : التوراة ، يكفينا ذلك { وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ } ، أي بما سواه من الكتب ، وقال أبو عبيدة : بما بعده ، { وَهُوَ الْحَقُّ } ، يعني القرآن ، { مُصَدِّقًا } ، نُصب على الحال ، { لِمَا مَعَهُمْ } : من التوراة ، { قُلْ } : لهم يا محمد { فَلِمَ تَقْتُلُونَ } ، 0أي قتلتم ، { أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } : بالتوراة ، وقد نهيتم فيها عن قتل الأنبياء عليهم السلام .
[92] قوله عزّ وجلّ : { وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ } بالدَّلالات الواضحة والمعجزات الباهرة ، { ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ } ، أي : من بعد انطلاقه إلى الجبل ، { وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ } .

[93] قوله عزّ وجلّ : { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا } ، أي استجيبوا وأطيعوا ، سميت الطاعة والإجابة : سمعًا على المجاز ، لأنه سبب للطاعة والإجابة ، { قَالُوا سَمِعْنَا } : قولك ، { وَعَصَيْنَا } : أمْرَكَ ، وقيل : سمعنا بالأذن ، وعصينا بالقلوب { وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ } ، أي : حب العجل ، أي معناه : أدخل في قلوبهم حب العجل وخالطها ، كإشراب اللون لشدة الملازمة ، قوله عزّ وجلّ : { قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ } : أن تعبدوا العجل من دون الله ، أي : بئس إيمان يأمر بعبادة العجل ، { إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } : بزعمكم وذلك أنهم قالوا : نؤمن بما أُنزل علينا ، فكذبهم الله عزّ وجلّ .

[94] قوله تعالى : { قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ } ، وذلك أن اليهود ادّعوا دعاوى باطلة مثل قولهم : { لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً } ، و { لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى } ، وقولهم : { نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ } فكذبهم الله عزّ وجلّ وألزمهم الحُجة فقال : قل لهم يا محمد إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله ، يعني : الجنة ، { خَالِصَةً } ، أي خاصة { مِنْ

دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ } ، أي : فأريدوه أو اسألوه ، لأن من علم أن الجنة مأواه حنّ إليها ، ولا سبيل إلى دخولها إلا بعد الموت ، فاستعجلوه بالتمني ، { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } : في قولكم ، وقيل : فتمنوا الموت ، أي : ادعو بالموت على الفرقة الكاذبة .

[95] قال الله تعالى : { وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ } ، لعلمهم أنهم في دعواهم كاذبون ، وأراد بما قدمت أيديهم ما قدموه من الأعمال ، وأضاف العمل إلى اليد لأن أكثر جنايات الإنسان تكون باليد ، فأضيف إلى اليد أعماله ، وإن لم يكن لليد فيها عمل ، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } .

[96] { وَلَتَجِدَنَّهُمْ } ، اللام لام القسم ، والنون تأكيد للقسم ، تقديره : والله لتجدنّهم يا محمد ، يعني : اليهود { أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا } ، قيل : هو متصل بالأول ، أي : وأحرص من الذين أشركوا ، وقيل : تم الكلام بقوله : { عَلَى حَيَاةٍ } ، ثم ابتدأ { وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا } ، وأراد بالذين أشركوا المجوس { يَوَدُّ } : يريد ويتمنى ، { أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ } ، يعني : تعمير ألف سنة ، وهي تحية المجوس فيما بينهم يقول الله تعالى : اليهود أحرص على الحياة من المجوس الذين يقولون ذلك ، { وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ } : مُباعده { مِنَ الْعَذَابِ } : من النار { أَنْ يُعَمَّرَ } ، أي : طول عمره لا يبعده من العذاب { وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } .

[97] قوله عزّ وجلّ : { قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ } , قال ابن عباس رضي الله عنهما : « إن حبرًا من أحبار اليهود ، يقال له عبد الله بن صوريا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أي ملك يأتيك من السماء ؟ قال : جبريل ، قال : ذلك عدونا من الملائكة ، ولو كان ميكائيل لآمنّا بك ، إن جبريل ينزل العذاب والقتال والشدة وإنه عادانا مرارًا »{ فَإِنَّهُ } ، يعني : جبريل { نَزَّلَهُ} ، يعني : القرآن ، كناية عن غير مذكور ، { عَلَى قَلْبِكَ } : يا محمد { بِإِذْنِ اللَّهِ } : بأمر الله { مُصَدِّقًا } : موافقًا { لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ } : لما قبله من الكتب ، { وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } ، قوله عزّ وجل :
[98] { مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ } : خصهما بالذكر من جملة الملائكة مع دخولها في قوله : { وَمَلَائِكَتِهِ } ، تفضيلًا وتخصيصًا والواو فيهما بمعنى " أو " يعني : من كان عدوًّا لأحد هؤلاء فإنه عدو للكل ، لأن الكافر بالواحد كافر بالكل ، { فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ } .
قال ابن صوريا : ما جئتنا بشيء نعرفه فأنزل الله تعالى :

[99] { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} : واضحات مفصلات بالحلال والحرام والحدود والأحكام ، { وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ } : الخارجون عن أمر الله عزّ وجلّ .
[100] { أَوَكُلَّمَا } ، واو العطف عليها ألف الاستفهام ، { عَاهَدُوا عَهْدًا } ، يعني : اليهود عاهدوا : لئن خرج محمد صلى الله عليه وسلم لَتؤمنن به ، فلما خرج إليهم محمد صلى الله عليه وسلم كفروا به ، وقال عطاء : هي العهود التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين اليهود : أن لا يعاونوا المشركين على قتاله ، فنقضوها كفعل بني قريظة والنضير ، دليله قوله تعالى : { الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ } ، { نَبَذَهُ } : طرحه ونقضه { فَرِيقٌ } : طوائف { مِنْهُمْ } ؛ من اليهود ، { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } .

[101] { وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } ، يعني : محمدًا { مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ } ، يعني : التوراة ، وقيل : القرآن ، { كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } قال الشعبي : كانوا يقرؤون التوراة ولا يعملون بها .

[102] { وَاتَّبَعُوا } يعني : اليهود { مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ } ، أي : ما تلت ، والعرب تضع المستقبل موضع الماضي ، والماضي موضع المستقبل ، وقيل : ما كانت تتلو ، أي : تقرأ ، قال ابن عباس رضي الله عنه : تتبع وتعمل به ، وقال عطاء : تحدث وتتكلم به, { عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } ، أي : في ملكه وعهده { وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ } : بالسحر ، وقيل : لم يكن سليمان كافرًا يسحر ويعمل به { وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا } معنى لكن نفي الخبر الماضي وإثبات المستقبل ، { يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ } ، قيل معنى السحر : العلم والحذق بالشيء قال الله تعالى : { وَقَالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ } أي : العالم ، والصحيح أن السحر عبارة عن التمويه والتخييل ، والسحر وجوده حقيقة عند أهل السنة وعليه أكثر الأمم ، ولكن العمل به كفر .

وقوله عر وجلّ : { وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ } ، أي : ويعلمون الذي أنزل على الملكين ، أي : إلهامًا وعلمًا ، فالإنزال : بمعنى الإلهام والتعليم ، وقيل : واتبعوا ما أنزل على الملكين { هَارُوتَ وَمَارُوتَ } هما اسمان سريانيان { وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ } ، أي : أحدًا و (مِنْ) صلة { حَتَّى } : ينصحاه أولًا ، { يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ } : ابتلاءٌ ومحنة { فَلَا تَكْفُرْ } ، أي : ، لا تتعلم السحر فتعمل به فتكفر ، وأصل الفتنة : الاختبار والامتحان { فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ } وهو أن يؤخذ كل واحد عن صاحبه ويبغض كل واحد إلى صاحبه قال الله تعالى : { وَمَا هُمْ } ، قيل : أي السحرة . وقيل : الشياطين ، { بِضَارِّينَ بِهِ } ، أي : بالسحر { مِنْ أَحَدٍ } ، أي أحدًا { إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } ، أي : بعلمه وتكوينه ، فالساحر يسحر والله يكون ، قال سفيان الثوري : معناه إلا بقضائه وقدرته ومشيئته ، { وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ } ، يعني : السحر يضرهم ، { وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا } : يعني اليهود ، { لَمَنِ

اشْتَرَاهُ } : أي اختار السحر ، { مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ } ، أي : في الجنة ، { مِنْ خَلَاقٍ } ، من نصيب { وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ } : باعوا به { أَنْفُسَهُمْ } ، حظ أنفسهم حيث اختاروا السحر والكفر على الدين والحق ، { لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } .
[103] { وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا } بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، { وَاتَّقَوْا } : اليهودية والسحر ، { لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ } . لكان ثواب الله إياهم خيرًا لهم ، { لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } .

[104] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا } ، وذلك أن المسلمين كانوا يقولون : راعنا يا رسول الله ، من المراعاة ، أي : ارعنا سمعك ، أي : فرّغ سمعك لكل منا وكانت هذه اللفظة سبًّا قبيحًا بلغة اليهود ، وقيل : كان معناها عندهم : اسمع لا سمعت ، وقيل : هي من الرعونة كانوا إذا أرادوا أن يحمقوا إنسانًا قالوا : راعنا ، بمعنى : يا أحمق ، فلما سمع اليهود هذه اللفظة من المسلمين قالوا فيما بينهم : كنا نسب محمدًا سرًّا فأعلنوا به الآن ، فكانوا يأتونه ويقولون : راعنا يا محمد ويضحكون فيما بينهم فأنزل الله تعالى : { لَا تَقُولُوا رَاعِنَا } لكيلا يجد اليهود بذلك سبيلًا إلى شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، { وَقُولُوا انْظُرْنَا } ، أي انظر إلينا ، وقيل : انتظرنا وتأنّ بنا

{ وَاسْمَعُوا } : ما تؤمرون به وأطيعوا ، { وَلِلْكَافِرِينَ } ، يعني : اليهود ، { عَذَابٌ أَلِيمٌ } .

[105] قوله تعالى : { مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } أي : ما يحب وما يتمنى الذين كفروا من أهل الكتاب يعني : اليهود ، { وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ } ، أي : خير ونبوة ، و (مِنْ) ، صلة ، { وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ } : بنبوته ، { مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } ، والفضل ابتداء إحسان بلا علّة ، وقيل : المراد بالرحمة الإسلام والهداية .

[106] قوله عزّ وجلّ : { مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا } وذلك أن المشركين قالوا إن محمدًا يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ، ويأمرهم بخلاف ما يقوله إلا من تلقاء نفسه ، يقول اليوم قولًا ويرجع عنه غدًا ، كما أخبر الله : { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ } ، قالوا إنما أنت مفتر فأنزل : { مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا } ، فبين وجه الحكمة في النسخ بهذه الآية ، والنسخ في اللغة شيئان ، أحدهما : بمعنى التحويل والنقل ، ومنه نسخ الكتاب وهو أن يحوّل من كتاب إلى كتاب ، فعلى هذا الوجه كل القرآن منسوخ ، لأنه نسخ من اللوح المحفوظ ، والثاني : يكون بمعنى الرفع ، يقال : نسَخت الشمسُ الظلّ ، أي : ذهبت به وأبطلته ، فعلى هذا يكون بعض القرآن ناسخًا وبعضه منسوخًا ، وهو المراد من الآية { أَوْ نُنْسِهَا } أي : ننسها عن قلبك وقيل : ننسها أي نأمر بتركها ، يقال : أنسيت الشيء ، إذا أمرت بتركه { نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا } ، أي بما هو أنفع لكم وأسهل عليكم وأكثر لأجركم ، لا أن آية خير من آية ، لأن كلام الله واحد وكله خير ، { أَوْ مِثْلِهَا } : في المنفعة

والثواب , فكل ما نسخ إلى الأيسر فهو أسهل في العمل ، وما نسخ إلى الأشق فهو في الثواب أكثر .
{ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } : من النسخ والتبديل ، لفظه استفهام ومعناه تقرير ، أي : إنك تعلم .
[107] { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ } : يا معشر الكفار عند نزول العذاب ، { مِنْ دُونِ اللَّهِ } : مما سوى الله { مِنْ وَلِيٍّ } : قريب وصديق ، وقيل : والٍ ، وهو القيم بالأمور { وَلَا نَصِيرٍ } : ناصر يمنعكم من العذاب .

[108] قوله : { أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ } ، نزلت في اليهود حين قالوا : يا محمد ائتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى موسى بالتوراة ، فقال تعالى : { أَمْ تُرِيدُونَ } ، يعني : أتريدون ، فالميم صلة ، وقيل : بل تريدون أن تسألوا رسولكم محمدًا صلى الله عليه وسلم { كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ } ، سأله قومه { أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً } وقيل : إنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلًا ، كما أن موسى سأله قومه فقالوا : أرِنَا الله جهرة ، ففيه منعهم عن السؤالات المقترحة بعد ظهور الدلائل والبراهين { وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ } : يستبدل الكفر بالإيمان { فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } : أخطأ وسط الطريق ، وقيل : قصد السبيل .

[109] قوله تعالى : { وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } ، أي تمنى وأراد كثير من أهل الكتاب من اليهود : { لَوْ يَرُدُّونَكُمْ } ، يا معشر المؤمنين { مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا } ، نُصب على المصدر ، أي : يحسدونكم حسدًا ، { مِنْ

عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ } ، أي : من تلقاء أنفسهم ولم يأمرهم الله بذلك ، { مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ } . في التوراة أن قول محمد صلى الله عليه وسلم : صدق ودينه حق ، { فَاعْفُوا } : فاتركوا { وَاصْفَحُوا } ، وتجاوزوا ، فالعفو : المحو ، والصفح : الإعراض ، وكان هذا قبل آية القتال ، { حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } ، بعذابه القتل والسبي لبني قريظة والجلاء والنفي لبني النضير ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقال قتادة : هو أمره بقتالهم في قوله : { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ } إلى قوله : { وَهُمْ صَاغِرُونَ } , { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .

[110] { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا } : تسلفوا { لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ } : طاعة وعمل صالح { تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ } ، وقيل : أراد بالخير المال من زكاة أو صدقة تجدوه عند الله حتى الثمرة واللقمة مثل أحد { إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } .

[111] { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا } ، أي يهوديًّا { أَوْ نَصَارَى } ، وذلك أن اليهود قالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا ولا دين إلا دين اليهودية ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًّا ولا دين إلا دين النصرانية قال الله تعالى : { تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ } ، أي : شهواتهم الباطلة التي تمنوها على الله بغير الحق ، { قُلْ } : يا محمد { هَاتُوا } ، أصله آتوا { بُرْهَانَكُمْ } حجتكم على ما زعمتم ، { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } . ثم قال ردًّا عليهم :

[112] { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ } ، أي : ليس كما قالوا بل الحكم للإسلام ، وإنما يدخل الجنة من أسلم وجهه { لِلَّهِ } ، أي : أخلص دينه لله ، وقيل : أخلص عبادته لله ، وقيل : خضع وتواضع لله ، وأصل الإسلام الاستسلام والخضوع ، وخص الوجه لأنه إذا جاد بوجهه في السجود لم يبخل بسائر جوارحه ، { وَهُوَ مُحْسِنٌ } : في عمله ، وقيل : مؤمن ، وقيل : مخلص ، { فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } .

[113] قوله : { وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ } ، نزلت في يهود المدينة ونصارى أهل نجران ، وذلك أن وفد نجران لما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم ، فقالت لهم اليهود : ما أنتم على شيء من الدين ، وكفروا بعيسى والإنجيل ، وقالت لهم النصارى : ما أنتم على شيء من الدين ، وكفروا بموسى والتوراة ، فأنزل الله تعالى : { وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ } ، وكلا الفريقين يقرؤون الكتاب ، وقيل : معناه ليس في كتبهم هذا الاختلاف ، فدل تلاوتهم الكتاب ومخالفتهم ما فيه على كونهم على الباطل ، { كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } ، يعني : آباءهم الذين مضوا ، { مِثْلَ قَوْلِهِمْ } ، قال مجاهد : يعني عوام النصارى ، وقال مقاتل : يعني مشركي العرب ، كذلك قالوا في نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه : إنهم ليسوا على شيء من الدين ، وقال عطاء : أمم كانت قبل اليهود والنصارى ، مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام ، قالوا لنبيهم : إنه ليس على شيء ، { فَاللَّهُ يَحْكُمُ

بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } : يقضي بين المحق والمبطل ، { فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } : من الدين .

[114] قوله : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ } ، الآية نزلت في الذين غزوا بني إسرائيل فقتلوا مقاتلتهم وسبوا ذراريهم وحرقوا التوراة وخربوا بيت المقدس فكان خرابا إلى أن بناه المسلمون في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ومن أظلم) أي : أكفر (ممن منع مساجد الله) يعني : بيت المقدس ومحاريبه { وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ } ، وذلك أن بيت المقدس موضع حج النصارى ومحل زيارتهم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لم يدخلها - يعني بيت المقدس - بعد عمارتها رومي إلا خائفا لو علم به قتل { لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ } : عذاب وهوان ، قال قتادة : هو القتل للحربي والجزية للذمي ، قال مقاتل والكلبي : تفتح مدائنهم الثلاثة قسطنطينية ورومية وعمورية ، { وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } ، وهو النار .

وقال عطاء وعبد الرحمن بن زيد : نزلت في مشركي مكة ، وأراد بالمساجد المسجد الحرام منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من حجه والصلاة فيه عام الحديبية ، وإذا منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يعمره بذكر الله فقد سعوا في خرابها { أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ } ، يعني : أهل مكة ، يقول : أفتحها عليكم حتى تدخلوها وتكونوا أولى بها منهم ، ففتحها عليهم وأمر النبي صلى الله عليه وسلم مناديًا ينادي ألا لا يحجن بعد هذا العام مشرك (1) ، فهذا خوفهم ، وثبت في الشرع أن لا يمكن مشرك من دخول الحرم ، { لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ } الذل والهوان والقتل والسبي والنفي .
[115] { وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ } ، ملكا وخلقا { فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ } ، أي غني يعطي من السعة ، قال الفراء : الواسع الجود الذي يسع عطاؤه كل شيء ، قال الكلبي : واسع المغفرة { عَلِيمٌ } بنياتهم حيثما صلوا ودعوا .

____
(1) أخرجه البخاري في الصلاة باب ما يستر من العورة 1 / 471 وفي الحج والمغازي ، ومسلم في الحج باب لا يحج بالبيت مشرك رقم (1347) 2 / 982 والمصنف شرح السنة 7 / 21

[116] قوله تعالى : { وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا } ، قرأ ابن عامر (قالوا) ، بلا واو ، وقرأ الآخرون { وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا } نزلت في يهود المدينة حيث قالوا : عزير ابن الله وفي نصارى نجران حيث قالوا : المسيح ابن الله ، وفي مشركي العرب حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، { سُبْحَانَهُ } ، نزه وعظم نفسه ، قوله تعالى : { بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } : عبيدا وملكا ، { كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ } ، قال مجاهد وعطاء والسدي : مطيعون ، وقال عكرمة ومقاتل : مقرون له بالعبودية ، وقال ابن كيسان : قائمون بالشهادة ، وأصل القنوت القيام ، واختلفوا في حكم الآية فذهب جماعة إلى أن حكم الآية خاص ، وقال مقاتل : هو راجع إلى عزير والمسيح والملائكة ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : هو راجع إلى أهل طاعته دون سائر الناس ، وذهب جماعة إلى أن حكم الآية عام في جميع الخلق ، لأن لفظ " كل " يقتضي الإحاطة بالشيء حيث لا يشذ منه شيء وقيل : قانتون مذللون مسخرون لما خلقوا له .

[117] قوله عز وجل : { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، أي : مبدعها ومنشئها من غير مثال سبق ، { وَإِذَا قَضَى أَمْرًا } ، أي : قدره ، وقيل : أحكمه وأتقنه ،

وأصل القضاء : الفراغ ، ومنه قيل لمن مات : قضى عليه لفراغه من الدنيا ، ومنه قضاء الله وقدره ، لأنه فرغ منه تقديرا أو تدبيرا { فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } ، فإن قيل كيف قال : فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ والمعدوم لا يخاطب ؟ قيل : قال ابن الأنباري معناه : فإنما يقول له ، أي لأجل تكوينه ، فعلى هذا ذهب معنى الخطاب ، وقيل : هو وإن كان معدوما ولكنه لما قدر وجوده وهو كائن لا محالة كان كالموجود فصح الخطاب .

[118] قوله عز وجل : { وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : اليهود ، وقال مجاهد : النصارى ، وقال قتادة : مشركو العرب ، { لَوْلَا } : هلا { يُكَلِّمُنَا اللَّهُ } : عيانا بأنك رسوله { أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ } : دلالة علامة على صدقك ، قال الله تعالى : { كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } ، أي : كفار الأمم الخالية ، { مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ } ، أي : أشبه بعضهم بعضا في الكفر والقسوة وطلب المحال ، { قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } .
[119] { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ } ، أي : بالصدق ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : بالقرآن وقال ابن كيسان : بالإسلام وشرائعه ، وقال مقاتل : معناه لم نرسلك عبثا إنما أرسلناك بالحق .
قوله عز وجل : { بَشِيرًا } ، أي : مبشرا لأوليائي وأهل طاعتي بالثواب الكريم ، { وَنَذِيرًا } ، أي : منذرا مخوفا لأعدائي وأهل معصيتي بالعذاب الأليم .

قرأ نافع ويعقوب : { وَلَا تُسْأَلُ } : على النهي وقيل : هو على معنى قولهم لا تسأل عن شر فلان فإنه فوق ما تحسب ، وليس على النهي ، وقرأ الآخرون { وَلَا تُسْأَلُ } بالرفع ، على النفي بمعنى : ولست بمسئول عنهم { عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ } والجحيم معظم النار .

[120] ، قوله عز وجل : { وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى } ، وذلك أنهم يسألون النبي صلى الله عليه وسلم الهدنة ويطمعونه أنه إن أمهلهم اتبعوه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، معناه أنك وإن هادنتهم فلا يرجون بها ، وإنما يطلبون ذلك تعللا ولا يرضون منك إلا باتباع ملتهم { وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ } ، إلا باليهودية ، { وَلَا النَّصَارَى } إلا بالنصرانية ، والملة الطريقة ، { وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ } ، قيل : الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد به الأمة كقوله : { لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ } ، { بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ } : البيان بأن دين الله هو الإسلام والقبلة قبلة إبراهيم عليه السلام وهي الكعبة ، { مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } .

[121] { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت في أهل السفينة قدموا مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكانوا أربعين رجلا ، اثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من رهبان الشام منهم بحيرا ، وقال الضحاك : هم ممن آمن من اليهود عبد الله بن سلام وشعبة بن عمرو وتمام بن يهودا وأسد وأسيد ابنا كعب وابن يا مين وعبد الله بن صوريا ، وقال قتادة وعكرمة : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : هم المؤمنون عامة ، { يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ } ، قال الكلبي : يصفونه في كتبهم حق صفته لمن سألهم من الناس ، والهاء راجعة إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال الآخرون : هي عائدة إلى الكتاب ، واختلفوا في معناه فقال ابن مسعود رضي الله عنه : يقرؤونه كما أنزل ولا يحرفونه ، ويحلون حلاله ويحرمون حرامه ،

وقال الحسن : يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلون علم ما أشكل عليهم إلى عالمه ، وقال مجاهد : يتبعونه حق اتباعه { أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } .

[122] { يا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } .
[123] { وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ } .

[124] { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ } وهو إبراهيم بن تارخ هو آزر بن ناخور ، ومعنى الابتلاء : الاختبار والامتحان والأمر ، وابتلاء الله العباد ليس ليعلم أحوالهم بالابتلاء لأنه عالم بهم ، ولكن ليعلم العباد أحوالهم حتى يعرف بعضهم بعضا ، واختلفوا في الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم (فأتمهن) قال قتادة : أداهن ، قال الضحاك : قام بهن ، وقال يمان : عمل بهن ، قال الله تعالى : { قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } : يقتدى بك في الخير ، { قَالَ } إبراهيم : { وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } : ومن أولادي أيضًا فاجعل أئمة يقتدى بهم ، { قَالَ } الله تعالى : { لَا يَنَالُ } لا يصيب { عَهْدِي الظَّالِمِينَ } . أي من كان منهم ظالما لا يصيبه ، قال عطاء بن أبي رباح : عهدي رحمتي ، وقال السدي : نبوتي ، وقيل : الإمامة ، قال مجاهد : ليس لظالم أن يطاع في ظلمه ، ومعنى الآية : لا ينال ما عهدت إليك من النبوة والإمامة من كان ظالما من ولدك ، وقيل : أراد بالعهد الأمان من النار ، وبالظالم المشرك .

[125] قال الله تعالى : { وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ } ، يعني : الكعبة ، { مَثَابَةً لِلنَّاسِ } : مرجعا لهم ، قال مجاهد وسعيد بن جبير : يثوبون إليه من كل جانب ويحجون ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : معاذا وملجأ ، وقال قتادة وعكرمة : مجمعا ، { وَأَمْنًا } أي : مأمنا يأمنون فيه من إيذاء المشركين فإنهم ما كانوا يتعرضون لأهل مكة ، ويقولون هم أهل الله ، ويتعرضون لمن حوله { وَاتَّخِذُوا } ، قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على الخبر ، وقرأ الباقون بكسر الخاء على الأمر ، { مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى } ، قال يمان : المسجد كله مقام إبراهيم ، وقال إبراهيم النخعي : الحرم كله مقام إبراهيم ، وقيل : أراد بمقام إبراهيم جميع مشاهد الحج مثل عرفة ومزدلفة وسائر المشاهد ، والصحيح : أن مقام إبراهيم هو الحجر الذي في المسجد يصلي إليه الأئمة ، وذلك الحجر الذي قام عليه إبراهيم عند بناء البيت .

قوله عز وجل { وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ } ، أي : أمرناهما وأوصينا إليهما { أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ } ، يعني : الكعبة إضافة إليه تخصيصا وتفضيلا ، أي : ابنياه على الطهارة والتوحيد ، وقال سعيد بن جبير وعطاء : طهراه من الأوثان والريب وقول الزور { لِلطَّائِفِينَ } : الدائرين حوله ، { وَالْعَاكِفِينَ } : المقيمين المجاورين ، { وَالرُّكَّعِ } ، جمع راكع ، { السُّجُودِ } : ساجد ، وهم المصلون ، قال الكلبي ومقاتل : الطائفين هم الغرباء والعاكفين أهل مكة .

[126] { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا } ، يعني مكة ، وقيل : الحرم ، { بَلَدًا آمِنًا } ، أي : ذا أمن يأمن فيه أهله ، { وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ } ، إنما دعا بذلك لأنه كان بواد غير ذي زرع { مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } : دعا للمؤمنين خاصة ، { قَالَ } الله تعالى : { وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا } ، أي

سأرزق الكافر أيضًا قليلا إلى منتهى أجله ، وذلك أن الله تعالى وعد الرزق للخلق كافة مؤمنهم وكافرهم ، وإنما قيد بالقلة لأن متاع الدنيا قليل ، { ثُمَّ أَضْطَرُّهُ } ، أي : ألجئه في الآخرة : { إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } ، أي : المرجع يصير إليه .
[127] قوله عز وجل : { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ } يعني أسسه ، واحدتها : قاعدة ، وقال الكسائي : جدر البيت { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا } ، فيه إضمار ، أي ويقولان : ربنا تقبل منا بناءنا { إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ } ، لدعائنا { الْعَلِيمُ } : بنياتنا .

[128] { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ } : موحدين مطيعين مخلصين خاضعين لك : { وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا } ، أي : أولادنا ، { أُمَّةً } : جماعة ، والأمة : أتباع الأنبياء ، { مُسْلِمَةً لَكَ } : خاضعة لك ، { وَأَرِنَا } علمنا وعرفنا { مَنَاسِكَنَا } : شرائع ديننا وأعلام حجنا ، وقيل : مواضع حجنا ، وقال مجاهد : مذابحنا ، والنسك : الذبيحة ، وقيل : متعبداتنا ، وأصل النسك : العبادة ، والناسك : العابد ، فأجاب الله تعالى دعاءهما فبعث جبريل فأراهما المناسك في يوم عرفة ، فلما بلغ عرفات قال : عرفت يا إبراهيم ؟ قال : نعم فسمي الوقت عرفة والموضع عرفات . { وَتُبْ عَلَيْنَا } ، تجاوز عنا ، { إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }

[129] { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ } ، أي : في الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل ، وقيل : في أهل مكة ، { رَسُولًا مِنْهُمْ } ، أي : مرسلا منهم ، أراد به محمدا صلى الله عليه وسلم { يَتْلُو } : يقرأ { عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ } كتابك يعني : القرآن ، والآية من القرآن كلام متصل إلى انقطاعه ، وقيل : هي جماعة حروف ، يقال خرج القوم بآيتهم ، أي بجماعتهم ، { وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ } ، يعني : القرآن ، { وَالْحِكْمَةَ } ، قال مجاهد : فهم القرآن ، وقال مقاتل : مواعظ القرآن وما فيه من الأحكام ، قال قتيبة : هي العلم والعمل ، ولا يكون الرجل حكيما حتى يجمعهما ، وقيل : السنة والأحكام ، وقيل : هي القضاء ، وقيل : الحكمة الفقه ، قال أبو بكر بن دريد : كل كلمة وعظتك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة ، { وَيُزَكِّيهِمْ } ، أي : يطهرهم من الشرك والذنوب ، وقيل : يأخذ الزكاة من أموالهم ، وقال ابن كيسان : يشهد لهم يوم القيامة بالعدالة إذا شهدوا للأنبياء بالبلاغ من التزكية وهي التعديل ، { إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ، قال ابن عباس : العزيز : الذي لا يوجد مثله .

[130] { وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ } أي : يترك دينه وشريعته ، يقال : رغب في الشيء إذا أراده ، ورغب عنه إذا تركه ، وقوله : (من) : لفظة استفهام ومعناه التقريع والتوبيخ ، يعني : ما يرغب من ملة إبراهيم { إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ } ، قال ابن عباس : من خسر نفسه ، وقال الكلبي : ضل من قبل نفسه ، وقال أبو عبيدة : أهلك نفسه ، وقال ابن كيسان والزجاج : معناه جهل نفسه ، والسفاهة : الجهل وضعف الرأي ، وكل سفيه جاهل ، وذلك أن من عبد غير الله فقد جهل نفسه لأنه لم يعرف أن الله خلقها ، { وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا } : اخترناه في الدنيا ، { وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } ، يعني : أي مع الأنبياء في الجنة ، وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير ، تقديره ولقد اصطفيناه في الدنيا والآخرة وإنه لمن الصالحين .

[131] { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ } ، أي استقم على الإسلام واثبت عليه ، لأنه كان مسلما ، قال ابن عباس : قال له ذلك حين خرج من السرب ، وقال

الكلبي : أخلص دينك وعبادتك لله ، وقال عطاء : أسلم نفسك إلى الله عز وجل وفوض أمورك إليه ، { قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } ، أي : فوضت ، قال ابن عباس : وقد حقق ذلك حيث لم يستعن بأحد من الملائكة حين ألقي في النار .
[132] { وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ } معناه : ووصى بها إبراهيم ووصى يعقوب بنيه ، قال الكلبي ومقاتل : يعني كلمة الإخلاص لا إله إلا الله { يا بَنِيَّ } ، معناه أن يا بني : { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى } : اختار { لَكُمُ الدِّينَ } ، أي : دين الإسلام { فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } ، مؤمنون ، وقيل مخلصون ، وقيل مفوضون ، والنهي في ظاهر الكلام وقع على الموت ، وإنما نهوا في الحقيقة عن ترك الإسلام معناه : داوموا على الإسلام حتى لا يصادفكم الموت إلا وأنتم مسلمون .

[133] قوله تعالى : { أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ } يعني أكنتم شهداء يريد ما كنتم شهداء حضورا { إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ } ، أي : حين قرب يعقوب من الموت ، قيل : نزلت في اليهود حين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ألست تعلم أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية ؟ فعلى هذا القول يكون الخطاب لليهود ، وقال الكلبي : لما دخل يعقوب مصر رآهم يعبدون الأوثان والنيران ، فجمع ولده وخاف عليهم ذلك ، فقال عز وجل : { إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ } ، وكان إسماعيل عما لهم ، والعرب تسمي العم أبا كما تسمي الخالة أما { إِلَهًا وَاحِدًا } نصب على البدل من قوله ، { إِلَهَكَ } ، وقيل : نعرفه إلهًا واحدا ، { وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }
[134] { تِلْكَ أُمَّةٌ } : جماعة ، { قَدْ خَلَتْ } : مضت ، { لَهَا مَا كَسَبَتْ } من العمل ، { وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ، يعني : يسأل كل عن عمله لا عن عمل غيره .

[135] { وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا } ، قال ابن عباس : نزلت في رؤساء يهود المدينة وفي نصارى أهل نجران وذلك أنهم خاصموا المسلمين في الدين كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله ، فقالت اليهود : نبينا موسى أفضل الأنبياء وكتابنا التوراة أفضل الكتب ، وديننا أفضل الأديان ، وكفرت بعيسى والإنجيل وبمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، وقالت النصارى نبينا أفضل الأنبياء وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب ، وديننا أفضل الأديان وكفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين : كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك ، فقال تعالى : { قُلْ } يا محمد : { بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ } ، بل نتبع ملة إبراهيم { حَنِيفًا } أراد به ملة إبراهيم الحنيف قال مجاهد : الحنيفة أتباع إبراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماما للناس ، قال ابن عباس : الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ، وأصله من الحنف وهو ميل وعوج يكون في القدم { وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }
ثم علم المؤمنين طريق الإيمان فقال جل ذكره :

[136] { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا } ، يعني القرآن ، { وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ } وهو عشر صحف { وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ } ، يعني : أولاد يعقوب ، وهم اثنا عشر سبطا ، واحدهم : سبط ، سموا بذلك لأنه ولد لكل واحد منهم جماعة ، وسبط الرجل : حافده ، والأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من العرب ، من بني إسماعيل ، والشعوب من العجم , وكان في

الأسباط أنبياء ، ولذلك قال : { وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا } ، وقيل : هم بنو يعقوب من صلبه صاروا كلهم أنبياء . { وَمَا أُوتِيَ مُوسَى } ، يعني التوراة ، { وَعِيسَى } ، يعني الإنجيل ، { وَمَا أُوتِيَ } : أعطي { النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ } ، أي : نؤمن بالكل لا نفرق بين أحد منهم فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى ، { وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } ، عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله » الآية .

[137] { فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ } أي : بما آمنتم به ، وكذلك كان يقرؤها ابن عباس ، و (المثل) صلة ، كقوله تعالى : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } أي : ليس هو كشيء ، وقيل : معناه فإن آمنوا بجميع ما آمنتم به أي : أتوا بإيمان كإيمانكم وتوحيد كتوحيدكم ، وقيل : معناه فإن آمنوا مثل ما آمنتم ، والباء زائدة كقوله تعالى : { وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ } ، وقال أبو معاذ النحوي : معناه فإن آمنوا بكتابكم كما آمنتم بكتابهم : { فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ } , أي في خلاف ومنازعة ، قال ابن عباس وعطاء : يقال : شاق مشاقة إذا خالف ، كأن كل واحد أخذ في شق غير شق صاحبه ، قال الله تعالى : { لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي } أي : خلافي ، وقيل : في عداوة ، دليله قوله تعالى : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ } ، أي عادوا الله { فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ } : يا محمد ، أي يكفيك شر اليهود والنصارى ، وقد كفي بإجلاء بني النضير ، وقتل بني قريظة ، وضرب الجزية على اليهود والنصارى ، { وَهُوَ السَّمِيعُ } : لأقوالهم { الْعَلِيمُ } بأحوالهم .

[138] { صِبْغَةَ اللَّهِ } ، قال ابن عباس في رواية الكلبي وقتادة والحسن : دين الله ، وإنما سماه صبغة لأنه يظهر أثر الدين على المتدين ، كما يظهر أثر الثوب على الصبغ ، وقيل : لأن المتدين يلزمه ولا يفارقه كالصبغ يلزم الثوب ، وقال مجاهد : فطرة الله وهو قريب من الأول ، وقيل : سنة الله ، وقيل : أراد به الختان لأنه يصبغ صاحبه بالدم ، وقال ابن عباس : هي أن النصارى إذا ولد لأحدهم ولد فاتت عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم أصفر ، يقال له المعمودية ، وصبغوه به ليطهروه بذلك الماء مكان الختان ، فإذا فعلوا به ذلك قالوا : الآن صار نصرانيا حقا ، فأخبر الله أن دينه الإسلام لا ما يفعله النصارى ، وهو نصب على الإغراء ، يعني الزموا دين الله { وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً } : دينا وقيل : تطهيرا . { وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ } : مطيعون .

[139] { قُلْ } : يا محمد لليهود والنصارى : { أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ } ، أي في دين الله والمحاجة : المجادلة في الله لإظهار الحجة ، وذلك بأنهم قالوا : إن الأنبياء كانوا منا وعلى ديننا ، وديننا أقدم فنحن أولى بالله منكم { وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ } ، أي : نحن وأنتم سواء في الله فإنه ربنا وربكم ، { وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ } ، أي : لكل واحد جزاء عمله فكيف تدعون أنكم أولى بالله ، { وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ } ، وأنتم به مشركون ، قال سعيد بن جبير : الإخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله فلا يشرك به في دينه ولا يرائي بعمله .

[140] قال الله تعالى : { أَمْ تَقُولُونَ } ، يعني : أتقولون ، صيغة استفهام ، ومعناه التوبيخ { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ } يا محمد { أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ } بدينهم { أَمِ اللَّهُ } وقد أخبر الله

تعالى أن إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما . { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ } : أخفى { شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ } ، وهي علمهم بأن إبراهيم وبنيه كانوا مسلمين ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم حق ورسول أشهدهم عليه في كتبهم، { وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }
[141] { تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } , كرره تأكيدا .

[142] قوله تعالى : { سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ } الجهال { مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ } ، أي شيء صرفهم وحولهم { عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا } ، يعني بيت المقدس ، والقبلة فعلة من المقابلة نزلت في اليهود ومشركي مكة ، طعنوا في تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة فقالوا لمشركي مكة : قد تردد على محمد أمره فاشتاق إلى مولده وقد توجه نحو بلدكم ، وهو راجع إلى دينكم ، فقال الله تعالى { قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ } : ملكا والخلق عبيده ، { يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

[143] { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } أي : كما اخترنا إبراهيم وذريته واصطفيناهم ، كذلك جعلناكم أمة وسطا ، أي : عدلا خيارا ، قال الله تعالى : { قَالَ أَوْسَطُهُمْ } أي خيرهم وأعدلهم ، وخير الأشياء أوسطها ، وقال الكلبي : يعني أهل دين وسط بين الغلو والتقصير لأنهما مذمومان في الدين قوله تعالى : { لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ } ، يوم القيامة أن الرسل قد بلغتهم ، { وَيَكُونَ الرَّسُولُ } : محمد صلى الله عليه وسلم : { عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } : معدلا مزكيا لكم ، قوله تعالى : { وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا } ، أي : تحويلها ؟ يعني عن بيت المقدس ، فيكون من باب حذف المضاف ، ويحتمل أن يكون المفعول الثاني للجعل محذوفا على تقدير : وما جعلنا القبلة التي كنت عليها منسوخة ، وقيل معناه التي أنت عليها وهي الكعبة ، كقوله تعالى : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ } أي : أنتم { إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ } ، فإن قيل : ما معنى قوله : { إِلَّا لِنَعْلَمَ } وهو عالم بالأشياء كلها قبل كونها ؟ قيل : أراد به العلم الذي يتعلق به الثواب والعقاب ، فإنه لا يتعلق بما

هو عالم به في الغيب ، إنما يتعلق بما يوجد معناه لنعلم العلم الذي يستحق العامل عليه الثواب والعقاب ، وقيل : إلا لنعلم أي : لنرى ونميز من يتبع الرسول في القبلة ، { مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ } ، فيرتد ، وقال أهل المعاني : معناه إلا لعلمنا من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، كأنه سبق في علمه أن تحويل القبلة سبب لهداية قوم وضلالة قوم { وَإِنْ كَانَتْ } ، أي : وقد كانت ، أي تولية الكعبة ، وقيل : الكناية راجعة إلى القبلة ، وقيل : إلى الكعبة ، قال الزجاج : وإن كانت التحويلة ، { لَكَبِيرَةً } : ثقيلة شديدة ، { إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ } ، أي : هداهم الله ، قال سيبويه : (وإن) تأكيد شبيه باليمين ، ولذلك دخلت اللام في جوابها ، { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ } ، وذلك أن حيي بن أخطب وأصحابه من اليهود ، قالوا للمسلمين : أخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس إن كانت هدى ، فقد تحولتم عنها ، وإن كانت ضلالة فقد دنتم الله بها ؟ ومن مات منكم عليها فقد مات على الضلالة ، فقال المسلمون إنما الهدى ما أمر الله به ، والضلالة ما نهى الله عنه ، قالوا : فما شهادتكم على من مات منكم

على قبلتنا ؟ فانطلق عشائرهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله ، قد صرفك إلى قبلة إبراهيم فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس فأنزل الله تعالى: { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ } ، يعني : صلاتكم إلى بيت المقدس ، { إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } الرأفة : أشد الرحمة .

[144] { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ } ، هذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة فهي متقدمة في المعنى ، فإنها رأس القصة ، وأمر القبلة أول ما نسخ من أمور الشرع ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يصلون بمكة إلى الكعبة فلما هاجر إلى المدينة أمره أن يصلي نحو صخرة بيت المقدس ، ليكون أقرب إلى تصديق اليهود إياه إذا صلى إلى قبلتهم مع ما يجدون من نعته في التوراة وكان يحب أن يوجه إلى الكعبة لأنها كانت قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم النظر إلى السماء رجاء أن ينزل جبريل بما يحب من أمر القبلة ، فأنزل الله تعالى : { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ } ، { فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً } ، فلنحولنك إلى قبلة { تَرْضَاهَا } ، أي : تحبها وتهواها ، { فَوَلِّ } أي : حول { وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } أي : نحوه ، وأراد به الكعبة ، والحرام : المحرم ، { وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ } ، من بر أو نحو شرق أو غرب : { فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ } ، عند الصلاة .

فلما تحولت القبلة قالت اليهود : لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره ، فأنزل الله تعالى : { وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ } يعني أمر الكعبة ، { الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ } ، ثم هددهم فقال : { وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } ، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي بالتاء ، قال ابن عباس : يريد أنكم يا معشر المؤمنين تطلبون مرضاتي وما أنا بغافل عن ثوابكم وجزائكم ، وقرأ الباقون بالياء ، يعني : ما أنا بغافل عما يفعل اليهود فأجازيهم في الدنيا وفي الآخرة .

[145] قوله تعالى : { وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ } ، يعني : اليهود والنصارى ، قالوا : ائتنا بآية على ما تقول ، قال الله تعالى : { وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ } : معجزة ، { مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ } يعني : الكعبة { وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ } ، لأن اليهود تستقبل بيت المقدس { وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ } ، الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد به الأمة ، { مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ } ، من الحق في القبلة ، { إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ }

[146] قوله تعالى : { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ } ، يعني : مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه { يَعْرِفُونَهُ } ، يعني : يعرفون محمدا صلى الله عليه وسلم { كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ } : من بين الصبيان ، قال عمر بن الخطاب لعبد الله بن سلام : إن الله قد أنزل على نبيه { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ } ، فكيف هذه المعرفة ؟ قال عبد الله : يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما عرفت ابني ، ومعرفتي بمحمد صلى الله عليه وسلم أشد من معرفتي بابني ، فقال عمر : كيف ذلك ؟ فقال أشهد أنه رسول حق من الله تعالى ، وقد نعته الله في كتابنا ، فقال عمر : وفقك الله يا ابن سلام فقد صدقت ، { وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ } ، يعني : صفة محمد صلى الله عليه وسلم وأمر الكعبة { وَهُمْ يَعْلَمُونَ }

[147] ثم قال : { الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ } ، أي : هذا الحق خير ، مبتدأ مضمر ، وقيل : رفع بإضمار فعل ، أي : جاء الحق من ربك ، { فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } : الشاكين .

[148] قوله تعالى : { وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ } ، أي : لأهل كل ملة قبلة ، والوجهة : اسم للمتوجه إليه { هُوَ مُوَلِّيهَا } ، أي : مستقبلها ، ومقبل عليها ، يقال : وليته ، ووليت إليه إذا أقبلت عليه ، ووليت عنه إذا أدبرت عنه ، قال مجاهد : هو موليها وجهه ، وقال الأخفش : هو كناية عن الله عز وجل ، يعني : مولى الأمم إلى قبلتهم { فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ } ، أي : إلى الخيرات ، يريد بادروا بالطاعات ، والمراد : المبادرة إلى القبول ، { أَيْنَمَا تَكُونُوا } أنتم وأهل الكتاب ، { يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا } : يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم ، { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[149] قوله تعالى : { وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } ، قرأ أبو عمرو بالياء ، والباقون بالتاء .

[150] { وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ } ، وإنما كرره لتأييد النسخ ، { لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا } ، اختلفوا في تأويل هذه الآية ، ووجه قوله : (إلا) فقال بعضهم : معناه حولت القبلة إلى الكعبة لئلا يكون للناس عليكم حجة إذا توجهتم إلى غيرها ، فيقولون : ليست لكم قبلة ، إلا الذين ظلموا وهم قريش واليهود ، فأما قريش فتقول : رجع محمد إلى الكعبة لأنه علم أنها الحق وأنها قبلة آبائه ، فكذلك يرجع إلى ديننا ، وأما اليهود فتقول لم ينصرف عن بيت المقدس مع علمه بأنه حق إلا أنه يعمل برأيه ، وقال قوم : لئلا يكون للناس عليكم حجة يعني : اليهود ، وكانت حجتهم على طريق المخاصمة على المؤمنين في صلاتهم إلى بيت المقدس ، أنهم كانوا يقولون : ما درى محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم نحن ، وقوله : { إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا } ، وهم مشركو مكة ، وحجتهم أنهم قالوا لما صرفت قبلتهم إلى الكعبة : إن محمدا قد تحيّر في دينه وسيعود إلى ملتنا كما عاد إلى قبلتنا ، وهذا

معنى قول مجاهد وعطاء وقتادة ، وعلى هذين التأويلين يكون الاستثناء صحيحا ، وقوله : { إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا } يعني : لا حجة لأحد عليكم إلا مشركو قريش فإنهم يحاجونكم فيجادلونكم ويخاصمونكم بالباطل والظلم وموضع (الَّذِينَ) خفض كأنه قال : سوى الذين ظلموا ، وقال الفراء : نصب بالاستثناء .
قوله تعالى : { مِنْهُمْ } ، يعني : من الناس ، وقيل : هذا استثناء منقطع عن الكلام الأول ، معناه ولكن الذين ظلموا يجادلونكم بالباطل قال أبو روق : لئلا يكون للناس ، يعني : اليهود عليكم حجة ، وذلك أنهم عرفوا أن الكعبة لإبراهيم ، ووجدوا في التوراة أن محمدا سيحول إليها ، فحوله الله تعالى إليها لئلا يكون لهم حجة فيقولوا : إن النبي الذي نجده في كتابنا سيحول إليها ولم تحول أنت ، فلما حول إليها ذهبت حجتهم إلا الذين ظلموا, يعني : إلا أن يظلموا فيكتموا ما عرفوا من الحق .

وقال أبو عبيدة : قوله { إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا } ليس باستثناء ، ولكن (إلا) في موضع واو العطف ، يعني : والذين ظلموا أيضًا لا يكون لهم حجة ، فمعنى الآية : فتوجهوا إلى الكعبة لئلا يكون للناس - يعني لليهود - عليكم حجة فيقولوا : لِمَ

تركتم الكعبة وهي قبلة إبراهيم وأنتم على دينه ولا الذين ظلموا وهم مشركو مكة فيقولون لِمَ ترك محمد قبلة جده وتحول عنها إلى قبلة اليهود ؟ { فَلَا تَخْشَوْهُمْ } : في انصرافكم إلى الكعبة ، وفي تظاهرهم عليكم بالمجادلة ، فإني وليكم أظهركم عليهم بالحجة والنصرة ، { وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ } ، عطف على قوله : { لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ } ، ولكي أتم نعمتي عليكم بهدايتي إياكم إلى قبلة إبراهيم ، فتتم به لكم الملة الحنيفية { وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } : لكي تهتدوا من الضلالة ، و(لعلّ وعسى) من الله واجب .

[151] قوله تعالى : { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ } ، هذه الكاف للتشبيه ، ويحتاج إلى شيء يرجع إليه ، فقال بعضهم : يرجع إلى ما قبلها ، معناه : ولأتم نعمتي عليكم كما أرسلنا فيكم رسولا منكم ، وقال مجاهد وعطاء والكلبي : هي متعلقة بما بعدها وهو قوله : { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ } معناه : كما أرسلنا فيكم رسولا منكم فاذكروني ، وهذه الآية خطاب لأهل مكة والعرب ، يعني : كما أرسلنا فيكم يا معشر العرب { رَسُولًا مِنْكُمْ } يعني : محمدًا صلى الله عليه وسلم { يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا } يعني : القرآن ، { وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } ، قيل : الحكمة السنة ، وقيل : مواعظ القرآن ، { وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } ، من الأحكام وشرائع الإسلام .

[152] { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ } ، قال ابن عباس : اذكروني بطاعتي أذكركم بمعونتي ، وقال سعيد بن جبير : اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي ، وقيل : اذكروني في النعمة والرخاء أذكركم في الشدة والبلاء ، بيانه : { فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ }{ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } قوله تعالى : { وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ } ، يعني : واشكروا لي بالطاعة ولا تكفرون بالمعصية ، فإن من أطاع الله فقد شكره ، ومن عصاه فقد كفره .
[153] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } : بالعون والنصرة .

[154] { وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ } ، نزلت في قتلى بدر من المسلمين ، وكانوا أربعة عشر رجلًا ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار ، كان الناس يقولون لمن يقتل في سبيل الله : مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها ، فأنزل الله تعالى : { وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ }، { بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ } ، كما قال في شهداء أحد : { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } ، قال الحسن : إن الشهداء أحياء عند الله تعالى تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الروح والفرح ، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوة وعشية ، فيصل إليهم الوجع .

[155] قوله تعالى : { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ } أي : ولنختبرنكم يا أمة محمد ، واللام لجواب القسم المحذوف ، تقديره : والله لنبلونكم ، والابتلاء من الله لإظهار المطيع من العاصي ، لا ليعلم شيئا لم يكن عالما به ، { بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ } ، قال ابن عباس : يعني خوف العدو ، { وَالْجُوعِ } ، يعني : القحط ، { وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ } : بالخسران والهلاك ، { وَالْأَنْفُسِ } ، يعني : بالقتل والموت ، وقيل : بالمرض والشيب ، { وَالثَّمَرَاتِ } ، يعني : الجوائح في الثمار ، وحكي عن الشافعي أنه قال : الخوف خوف الله تعالى ، والجوع صيام رمضان ، ونقص من الأموال أداء الزكاة والصدقات ، والأنفس الأمراض ، والثمرات موت

الأولاد ، لأن ولد الرجل ثمرة قلبه ، { وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ } : على البلايا والرزايا ، ثم وصفهم فقال .

[156] { الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ } : عبيدا وملكا, { وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } في الآخرة .
[157] { أُولَئِكَ } أهل هذه الصفة : { عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ } أي : رحمة ، فإن الصلاة من الله الرحمة ، والرحمة ذكرها الله تأكيدا ، وجميع الصلوات ، أي رحمة بعد رحمة { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ } : إلى الاسترجاع ، وقيل : إلى الحق والصواب ، وقيل : إلى الجنة والثواب ، قال عمر رضي الله عنه : نعم العدلان ونعمت العلاوة فالعدلان : الصلاة والرحمة ، والعلاوة الهداية .

[158] قوله تعالى : { إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ } ، الصفا جمع : صفاة ، وهي الصخرة الصلبة الملساء ، يقال صفاة وصفا ، مثل : حصاة وحصى ونواة ونوى ، والمروة : الحجر الرخو ، وجمعها : مروات ، وجمع الكثير : مَرْو ، مثل : تمرة وتمرات وتمر ، وإنما عنى بهما الجبلين المعروفين بمكة في طرفي المسعى ، ولذلك أدخل فيهما الألف واللام ، وشعائر الله أعلام دينه ، أصلها من الإشعار ، وهو الإعلام ، واحدتها شعيرة ، وكل ما كان معلما لقربات يتقرب به إلى الله تعالى من صلاة ودعاء وذبيحة ، فهو شعيرة ، فالمطاف والموقف والنحر كلها شعائر لله ، ومثلها المشاعر ، والمراد بالمشاعر هاهنا : المناسك التي جعلها الله أعلاما لطاعته فالصفا والمروة منها حتى يطاف بهما جميعا ، { فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ } ، فالحج في اللغة : القصد ، والعمرة : الزيارة ، وفي الحج والعمرة المشروعين : قصد وزيارة ، { فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ } ، أي لا إثم عليه ، وأصله من جنح ، أي : مال عن القصد ، { أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا } ، أي : يدور بهما ، وأصله يتطوف أدغمت التاء في الطاء . وسبب نزول هذه الآية أنه كان على الصفا

والمروة صنمان إساف ونائلة ، وكان إساف على الصفا ونائلة على المروة ، وكان أهل الجاهلية يطوفون بين الصفا والمروة تعظيما للصنمين ويتمسحون بهما ، فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام كان المسلمون يتحرجون عن السعي بين الصفا والمروة لأجل الصنمين ، فأذن الله فيه وأخبر أنه من شعائر الله ، قوله تعالى : { وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا } , قال مجاهد : معناه فإن تطوع بالطواف بالصفا والمروة ، وقال مقاتل والكلبي فمن تطوع ، أي : زاد في الطواف بعد الواجب ، وقيل : من تطوع بالحج والعمرة بعد أداء الحجة الواجبة عليه ، وقال الحسن وغيره : أراد سائر الأعمال ، يعني : فعل غير المفترض عليه من زكاة وصلاة وطواف وغيرها من أنواع الطاعات ، { فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ } ، مجازٍ لعبده بعمله ، { عَلِيمٌ } : بنيته ، والشكر من الله تعالى أن يعطي لعبده فوق ما يستحق ، يشكر اليسير ويعطي الكثير .

[159] قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ } ، نزلت في علماء اليهود كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم وغيرهما من الأحكام التي كانت في التوراة ، { أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ } وأصل اللعن الطرد والبعد ، { وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ } ، أي : يسألون الله أن يلعنهم ويقولون : اللهم العنهم ، واختلفوا في هؤلاء اللاعنين ، قال ابن عباس : جميع الخلائق إلا الجن والإنس ، وقال قتادة : هم الملائكة ،

وقال عطاء : الجن والإنس, وقال الحسن : جميع عباد الله ثم استثنى فقال : [160] { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا } : من الكفر ، { وَأَصْلَحُوا } أسلموا أو أصلحوا الأعمال فيما بينهم وبين ربهم { وَبَيَّنُوا } : ما كتموا ، { فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ } : أتجاوز عنهم وأقبل توبتهم ، { وَأَنَا التَّوَّابُ } الرجاع بقلوب عبادي المنصرفة عني إلي . { الرَّحِيمُ } : بهم بعد إقبالهم عليّ .

[161] { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ } أي : لعنة الملائكة { وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } ، قال أبو العالية : هذا يوم القيامة يوقف الكافر فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس ، فإن قيل : فقد قال : (وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) والملعون هو من جملة الناس ، فكيف يلعن نفسه ؟ قيل : يلعن نفسه في القيامة ، قال الله تعالى : { وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا } ، وقيل : إنهم يلعنون الظالمين والكافرين ، ومن يلعن الظالمين والكافرين وهو منهم فقد لعن نفسه .
[162] { خَالِدِينَ فِيهَا } مقيمين في اللعنة وقيل : في النار ، { لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ } لا يمهلون ولا يؤجلون ، وقال أبو العالية : لا ينظرون فيعتذروا ، كقوله تعالى : { وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ } .

[163] قوله تعالى : { وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } ، سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا : يا محمد صف لنا ربك وانسبه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وسورة الإخلاص ، والواحد : الذي لا نظير له ولا شريك له ، قال أبو الضحى : لما نزلت هذه الآية قال المشركون : إن محمدا يقول إن إلهكم إله واحد فليأتنا بآية إن كان من الصادقين فأنزل الله عز وجل .

[164] { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، ذكر السماوات بلفظ الجمع والأرض بلفظ الواحد لأن كل سماء من جنس آخر ، والأرضون كلها من جنس واحد وهو التراب ، فالآية في السماوات : سمكها وارتفاعها من غير عمد ولا علاقة ، وما يرى فيها من الشمس والقمر والنجوم ، والآية في الأرض : مدها وبسطها وسعتها وما يرى فيها من الأشجار والأنهار ، والجبال والبحار والجواهر والنبات . قوله تعالى : { وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } ، أي : تعاقبهما في الذهاب والمجيء يخلف أحدهما صاحبه ، إذا ذهب أحدهما جاء الآخر أي : بعده ، نظيره : قوله تعالى : { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً } ، قال عطاء : أراد اختلافهما في النور والظلمة والزيادة والنقصان ، والليل جمع ليلة ، والليالي جمع الجمع ، والنهار جمع نهر ، وقدم الليل على النهار في الذكر لأنه أقدم منه ، قال الله تعالى : { وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ } ، { وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ } ، يعني : السفن واحده وجمعه سواء ، فإذا أريد به الجمع يؤنث ، وفي الواحد يذكر ، قال الله تعالى في الواحد والتذكير : {

إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ } ، وقال في الجمع والتأنيث : { حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ } ، { وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ } الآية في الفلك : تسخيرها وجريها على وجه الماء ، وهي موقرة لا ترسب تحت الماء ، { بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ } ، يعني : ركوبها والحمل عليها في التجارات والمكاسب وأنواع المطالب ، { وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ } ، يعني : المطر ، قيل : أراد بالسماء السحاب ، يخلق الله الماء في السحاب ثم من السحاب ينزل ، وقيل : أراد به السماء المعروفة ، يخلق الله تعالى الماء في السماء ثم ينزل من السماء إلى السحاب ثم من السحاب ينزل إلى الأرض ، { فَأَحْيَا بِهِ } ، أي

: بالماء { الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } ، أي : بعد يبسها وجدوبتها ، { وَبَثَّ فِيهَا } ، أي : فرق فيها { مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ } والريح يذكر ويؤنث ، وتصريفها أنها يتصرف إلى الجنوب والشمال ، والقبول والدبور والنكباء ، وقيل : تصريفها أنها تارة تكون لينا ، وتارة تكون عاصفا ، وتارة تكون حارة ، وتارة باردة ، قال ابن عباس

: أعظم جنود الله الريح والماء ، وسميت الريح ريحا لأنها تريح النفوس { وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ } أي : الغيم المذلل ، سمي سحابا لأنه ينسحب ، أي يسير في سرعة كأنه يسحب أي يجر { بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } ، فيعلمون أن لهذه الأشياء خالقا وصانعا .

[165] قوله تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ } ، يعني : المشركين ، { مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا } ، أي أصناما يعبدونها ، { يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ } ، أي : يحبون آلهتهم كحب المؤمنين الله ، وقال الزجاج : يحبون الأصنام كما يحبون الله لأنهم أشركوها مع الله ، فسووا بين الله وبين أوثانهم في المحبة ، { وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } ، أي : أثبت وأدوم على حبه من المشركين ؛ لأنهم لا يختارون على الله ما سواه ، والمشركون إذا اتخذوا صنما ثم رأوا أحسن منه ، طرحوا الأول واختاروا الثاني ، قال قتادة : إن الكافر يعرض عن معبوده في وقت البلاء ويقبل على الله تعالى ، كما أخبر الله عز وجل عنهم فقال : { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } ، والمؤمن لا يعرض عن الله في السراء والضراء والشدة والرخاء قوله تعالى : { وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا } معناه : لو يرى الذين ظلموا أنفسهم عند رؤية العذاب ، أي ولو رأوا شدة عذاب الله وعقوبته حين يرون العذاب ، لعرفوا مضرة الكفر ، وأن ما اتخذوا من الأصنام لا ينفعهم ، قوله تعالى : { إِذْ يَرَوْنَ } قرأ

ابن عامر بضم الياء والباقون بفتحها ، { الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ } أي : بأن القوة لله جميعا معناه : لرأوا وأيقنوا أن القوة لله جميعا .

[166] { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ } ، هذا في يوم القيامة حين يجمع الله القادة والأتباع ، فيتبرأ بعضهم من بعض ، هذا قول أكثر المفسرين ، وقال السدي : هم الشياطين يتبرءون من الإنس ، { وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ } أي : عنهم { الْأَسْبَابُ } ، أي الصِّلات التي كانت بينهم في الدنيا ، من القرابات والصداقات ، وصارت مخالطتهم عداوة ، وقال ابن جريج : الأرحام ، كما قال الله تعالى : { فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ } ، وقال السدي : يعني الأعمال التي كانوا يعملونها في الدنيا, كما قال الله تعالى : { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا } ، وأصل السبب ما يوصل به إلى الشيء من ذريعة أو قرابة أو مودة ومنة ، يقال للحبل : سبب ، وللطريق : سبب .

[167] { وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا } ، يعني : الأتباع : { لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً } ، أي : رجعة إلى الدنيا ، { فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ } ، أي : من المتبوعين ، { كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا } : اليوم ، { كَذَلِكَ } ، أي : كما أراهم العذاب ، كذلك { يُرِيهِمُ اللَّهُ } ، وقيل : كتبرؤ بعضهم من بعض ، يريهم الله : { أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ } : ندامات ، جمع حسرة ، قيل : يريهم ما ارتكبوا من السيئات فيتحسرون لِمَ عملوا ، وقيل : يريهم ما تركوا من الحسنات ، فيندمون على تضييعها ، وقال ابن كيسان : إنهم

أشركوا بالله الأوثان رجاء أن تقربهم إلى الله عز وجل ، فلما عذبوا على ما كانوا يرجون ثوابه تحسروا وندموا ، قال السدي : ترفع لهم الجنة فينظرون إليها وإلى بيوتهم فيها لو أطاعوا لله فيقال لهم : تلك مساكنكم لو أطعتم الله ، ثم تقسم بين المؤمنين فذلك حين يندمون ويتحسرون { وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ }

[168] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا } ، نزلت في ثقيف وخزاعة وعامر ابن صعصعة ، وبني مدلج فيما حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام ، والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، فالحلال ما أحله الشرع . طيبا ، قيل : ما يستطاب ويستلذ ، والمسلم يستطيب الحلال ، ويخاف الحرام ، { وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ } آثاره وزلاته ، وقيل : هي النذور في المعاصي ، وقال أبو عبيدة : هي المحقرات من الذنوب ، وقال الزجاج : طرقه ، { إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } : بين العداوة ، وقد أظهر عداوته بإبائه السجود لآدم وغروره إياه ، حتى أخرجه من الجنة ، ثم ذكر عداوته فقال :

[169] { إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ } ، أي : بالإثم ، وأصل السوء ما يسوء صاحبه ، وهو مصدر ساء يسوء سوءًا ومساءة ، أي : أحزنه ، وسوَّأته فساء أي : حزَّنته فحزن ، { وَالْفَحْشَاءِ } : المعاصي وما قبح من القول والفعل ، وهو مصدر كالسراء والضراء عن ابن عباس قال : الفحشاء من المعاصي ما يجب فيه الحد ، والسوء من الذنوب ما لا حد فيه ، وقال السدي : هي الزنا ، وقيل : هي البخل ، { وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } ، من تحريم الحرث والأنعام .
[170] قوله تعالى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا } ، أي : ما وجدنا { عَلَيْهِ آبَاءَنَا } , من عبادة الأصنام ، وقيل : معناه وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله في تحليل ما حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة ، والهاء والميم عائدتان إلى الناس في قوله تعالى : { يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا } .

و(مَا أَلْفَيْنَا) ما وجدنا عليه آباءنا من التحريم والتحليل ، قال تعالى : { أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ } أي : كيف يتبعون آباءهم ، وآباؤهم { لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا } ؟ الواو في (أَوَلَوْ) واو العطف ، ويقال لها أيضًا : واو التعجب دخلت عليها ألف الاستفهام للتوبيخ ، والمعنى : أيتبعون آباءهم وإن كانوا جهالا لا يعقلون شيئا ، لفظه عام ومعناه الخصوص ، أي : لا يعقلون شيئا من أمور الدين ، لأنهم كانوا يعقلون أمر الدنيا ، { وَلَا يَهْتَدُونَ } ثم ضرب لهم مثلا فقال جل ذكره .

[171] { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ } ، والنعيق والنعق : صوت الراعي بالغنم ، معناه : مثلك يا محمد ومثل الكفار في وعظهم ودعائهم إلى الله عز وجل كمثل الراعي الذي ينعق بالغنم ، وقيل : مثل واعظ الكفار وداعيهم معهم كمثل الراعي ينعق بالغنم وهي لا تسمع ، { إِلَّا دُعَاءً } ، صوتا { وَنِدَاءً } فأضاف المثل إلى الذين كفروا ، لدلالة الكلام عليه ، كما في قوله تعالى : { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ } ، معناه كما أن البهائم تسمع صوت الراعي ولا تفهم ولا تعقل ما يقال لها ، كذلك الكافر لا ينتفع بوعظك إنما يسمع صوتك ، وقيل : معناه ومثل الذين كفروا في قلة عقلهم وفهمهم عن الله وعن رسوله ، كمثل المنعوق به من البهائم التي لا تفقه من الأمر والنهي إلا الصوت وقيل : معناه مثل الذين كفروا في دعاء الأصنام التي لا تفقه ولا تعقل كمثل الناعق بالغنم ، فلا ينتفع من نعيقه بشيء ، غير أنه في غناء من الدعاء والنداء ، كذلك الكافر

ليس له من دعاء الآلهة وعبادتها إلا العناء والبلاء ، كما قال تعالى : { إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ }

، وقيل : معنى الآية ومثل الذين كفروا في دعاء الأوثان ، كمثل الذي يصيح في جوف الجبال ، فيسمع صوتا يقال له الصداء لا يفهم منه شيئا ، فمعنى الآية : كمثل الذي ينعق بما لا يسمع منه الناعق إلا دعاء ونداء . { صُمٌّ } ، تقول العرب لمن لا يسمع ولا يعمل : كأنه أصم ، { بُكْمٌ } عن الخير لا يقولونه ، { عُمْيٌ } ، عن الهدى ، لا يبصرونه ، { فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ }
[172] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ } : حلالات { مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ } : على نعمه ، { إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } ثم بين المحرمات فقال :

[173] { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ } الميتة : كل ما لم تدرك ذكاته مما يذبح { وَالدَّمَ } ، أراد به الدم الجاري واستثنى الشرع من الميتة السمك والجراد ، ومن الدم الكبد والطحال فأحلها ، { وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ } ، أراد به جميع أجزائه ، فعبر عن ذلك باللحم لأنه معظمه ، { وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ } ، أي : ما ذبح للأصنام والطواغيت ، وأصل الإهلال رفع الصوت ، وكانوا إذا ذبحوا لآلهتهم يرفعون أصواتهم بذكرها ، فجرى ذلك من أمرهم حتى قيل لكل ذابح وإن لم يجهر بالتسمية : مهل ، وقال الربيع بن أنس وغيره : (وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ) قال : ما ذكر عليه اسم غير الله ، { فَمَنِ اضْطُرَّ } معناه فمن اضطر إلى أكل الميتة ، أي : أحوج وألجئ إليه ، { غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ } ، أصل البغي : قصد الفساد ، يقال : بغى الجرح يبغي بغيا إذا ترامى إلى الفساد ، وأصل العدوان : الظلم ومجاوزة الحد ، يقال : عدا عليه عدوا وعدوانا إذا ظلم ، واختلفوا في معنى قوله : { غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ } ، فقال بعضهم : غير باغ أي : غير خارج على السلطان ، ولا عاد : متعد ، عاص بسفره ، بأن خرج لقطع الطريق

أو لفساد في الأرض ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير ، وقالوا : لا يجوز للعاصي بسفره أن يأكل الميتة إذا اضطر إليها ، ولا أن يترخص برخص المسافر حتى يتوب ، وبه قال الشافعي ، لأن إباحة الميتة له إعانة له على فساده ، وذهب جماعة إلى أن البغي والعدوان راجعان إلى الأكل ، واختلفوا في تفصيله ، وقال الحسن وقتادة : غير باغ بأكله من غير اضطرار ، ولا عاد ، أي : لا يعدو لشبعه ، وقيل : غير باغ أي : غير طالبها وهو يجد غيرها ، ولا عاد أي : غير متعد ما حد له ، فيأكل حتى يشبع ، ولكن يأكل منها قوتا مقدار ما يمسك رمقه ، وقال مقاتل بن حيان : غير باغ أي مستحل لها ، ولا عاد أي متزود منها ، وقيل : غير باغ أي غير مجاوز للقدر الذي أحل له ، ولا عاد أي لا يقصر فيما أبيح له فيدعه { فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ } ، فلا حرج عليه في أكلها ، { إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ } ، لمن أكل في حال الاضطرار { رَحِيمٌ } ، حيث رخص للعباد في ذلك .

[174] قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ } يعني : صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته ، { وَيَشْتَرُونَ بِهِ } أي : بالمكتوم { ثَمَنًا قَلِيلًا } ، أي : عوضا يسيرا ، يعني : المآكل التي يصيبونها من سفلتهم { أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ } ، يعني : إلا ما يؤديهم إلى النار وهو الرشوة والحرام وثمن الدين ، فلما كان يفضي ذلك بهم إلى النار فكأنهم أكلوا النار ، وقيل : معناه أنه يصير نارا في بطونهم ، { وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ، أي : لا يكلمهم بالرحمة وبما يسرهم ، إنما يكلمهم بالتوبيخ ، وقيل : أراد به أن

يكون عليهم غضبان ، كما يقال : فلان لا يكلم فلانا إذا كان عليه غضبان ، { وَلَا يُزَكِّيهِمْ } ، أي : لا يطهرهم من دنس الذنوب ، { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

[175] { أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ } ، قال عطاء والسدي : هو (ما) الاستفهام معناه : ما الذي صبرهم على النار ؟ وأي شيء صبرهم على النار حتى تركوا الحق واتبعوا الباطل ؟ قال الحسن وقتادة : والله ما لهم عليها من صبر ، ولكن ما أجرأهم على العمل الذي يقربهم إلى النار ؟ وقال الكسائي : فما أصبرهم على أهل النار ، أي : ما أدومهم عليه .

[176] { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ } ، يعني : ذلك العذاب بأن الله نزل الكتاب بالحق فأنكروه وكفروا به ، وحينئذ يكون (ذلك) في محل الرفع ، وقال بعضهم : محله نصب ، معناه : فعلنا ذلك بهم (بأن الله) ، أي : لأن الله نزل الكتاب بالحق ، فاختلفوا فيه ، وقيل : معناه ذلك أي فعلهم الذين يفعلون من الكفر والاختلاف والاجتراء على الله ، من أجل أن الله نزل الكتاب بالحق ، وهو قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ }{ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } ، { وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ } : فآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، { لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } ، أي : في خلاف وضلال بعيد .

[177] قوله تعالى : { لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ } البر : كل عمل خير يفضي بصاحبه إلى الجنة ، واختلفوا في المخاطبين بهذه الآية ، فقال قوم : عنى بها اليهود والنصارى ، وقال الآخرون : المراد بها المؤمنون ، ذلك أن الرجل كان في ابتداء الإسلام قبل نزول الفرائض إذا أتى بالشهادتين وصلى الصلاة إلى أي جهة كانت ، ثم مات على ذلك وجبت له الجنة ، ولما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الفرائض ، وحددت الحدود وصرفت القبلة إلى الكعبة ، أنزل الله هذه الآية فقال : (لَيْسَ الْبِرَّ) ، أي : كله أن تصلوا قبل المشرق والمغرب ولا تعملوا على غير ذلك ، لَكِنَّ الْبِرَّ ما ذكر في هذه الآية ، وقوله تعالى : { مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ } اختلفوا في وجهه ، قيل : لما وقع (من) في موقع المصدر جعله خبرا للبر ، كأنه قال : ولكن البر الإيمان بالله ، والعرب تجعل الاسم خبرا للفعل وقيل : فيه إضمار ، معناه : ولكن البر [بر] ، من آمن بالله ، فاستغنى بذكر الأول عن الثاني ، كقولهم : الجود حاتم ، أي : الجود جود حاتم ، وقيل معناه : ولكن ذا البر من آمن بالله كقوله تعالى : { هُمْ

دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ } ، أي : ذو[و] ، درجات ، وقيل معناه : ولكن البار من آمن بالله ، كقوله تعالى : { وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى } أي : للمتقي ، والمراد من البر ههنا الإيمان والتقوى ، { وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ } ، كلهم { وَالْكِتَابِ } يعني : الكتب المنزلة ، { وَالنَّبِيِّينَ } : أجمع ، { وَآتَى الْمَالَ } أعطى المال ، { عَلَى حُبِّهِ } ، اختلفوا في هذه الكناية ، فقال أكثر أهل التفسير : إنها راجعة إلى المال ، أي : أعطى المال في حال صحته ومحبته المال وقيل : هي عائدة إلى الله عز وجل ، أي : على حب الله تعالى ، { ذَوِي الْقُرْبَى } : أهل القرابة { وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ } ، قال مجاهد : يعنى المسافر المنقطع عن أهله يمر عليك ، ويقال للمسافر : ابن السبيل لملازمته الطريق ، وقيل : هو الضيف ينزل بالرجل { وَالسَّائِلِينَ } ، يعني : الطالبين { وَفِي الرِّقَابِ } ، يعني : المكاتبين ، قاله أكثر المفسرين ، وقيل : عتق النسمة وفك الرقبة ،

وقيل : فداء الأسارى ، { وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ } : وأعطى الزكاة { وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ } : فيما

بينهم وبين الله عز وجل ، وفيما بينهم وبين الناس ، { إِذَا عَاهَدُوا } ، يعني : إذا وعدوا أنجزوا ، وإذا حلفوا ونذروا أوفوا ، وإذا عاهدوا أوفوا ، وإذا قالوا صدقوا وإذا ائتُمنوا أدَّوا . واختلفوا في رفع قوله : (والموفون) ، قيل : هو عطف على خبر ، معناه : ولكن ذا البر المؤمنون والموفون بعهدهم ، وقيل تقديره : هم الموفون ، كأنه عدَّ أصنافا ثم قال : هم والموفون كذا ، وقيل على رفع الابتداء والخبر ، يعني : وهم الموفون ، ثم قال : { وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ } ، أي الشدة والفقر { وَالضَّرَّاءِ } : المرض والزمانة ، { وَحِينَ الْبَأْسِ } أي القتال والحرب { أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا } : في إيمانهم ، { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } : محارم الله .

[178] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ } أي : فرض عليكم القصاص ، { فِي الْقَتْلَى } ، والقصاص : المساواة والمماثلة في الجراحات والديات ، وأصله من قص الأثر إذا اتبعه ، فالمفعول به يتبع ما فعل به فيفعل مثله ، ثم بين المماثلة فقال : { الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى } وجملة الحكم فيه أنه إذا تكافأ الدمان من الأحرار المسلمين ، أو العبيد من المسلمين ، أو الأحرار من المعاهدين ، أو العبيد منهم ، قتل من كل صنف منهم ، الذكر إذا قتل بالذكر وبالأنثى وتقتل الأنثى إذا قتلت بالأنثى وبالذكر ، ولا يقتل مؤمن بكافر ولا حر بعبد ، ولا والد بولد ولا مسلم بذمي ، ويقتل الذمي بالمسلم والعبد بالحر والولد بالوالد ، هذا قول أكثر أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم ، وذهب الشعبي والنخعي وأصحاب الرأي إلى أن المسلم يقتل بالكافر الذمي ، وإلى أن الحر يقتل بالعبد ، { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ } ، أي ترك له وصفح عنه من الواجب عليه وهو القصاص في قتل العمد ، ورضي بالدية ، هذا قول أكثر المفسرين ، قالوا : العفو أن يقبل الدية في قتل

العمد ، وقوله : (من أخيه) أي : من دم أخيه ، وأراد بالأخ : المقتول ، والكنايتان في قوله (له) و (من أخيه) ، ترجعان إلى (من) وهو القاتل ، وقوله : (شيء) دليل على أن بعض الأولياء إذا عفا يسقط القود ؛ لأن شيئا من الدم قد بطل . قوله تعالى { فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ } أي : على الطالب للدية أن يتبع بالمعروف فلا يطالب بأكثر من حقه ، { وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ } ، أي : على المطلوب منه أداء الدية بالإحسان من غير مماطلة ، أمر كل واحد منهما بالإحسان في ما له وعليه { ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ } ، أي : ذلك الذي ذكرت من العفو عن القصاص وأخذ الدية تخفيف من ربكم ورحمة ، وذلك أن القصاص في النفس والجراح كان حتما في التوراة على اليهود ، ولم يكن لهم أخذ الدية ، وكان في شرع النصارى الدية ولم يكن لهم القصاص ، فخيّر اللّه هذه الأمة بين القصاص وبين العفو عن الدية تخفيفًا منه ورحمة ، { فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ } ، فقتل الجاني بعد العفو وقبول الدية ، { فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ، وهو أن يقتل قصاصا ، قال ابن جريج : يتحتم قتله حتى لا يقبل بعد العفو .

[179] قوله تعالى : { وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ } ، أي : بقاء ، وذلك أن القاصد للقتل إذا علم أنه إذا قَتَل يُقتل ، يمتنع عن القتل ، فيكون فيه بقاؤه وبقاء من هَمَّ بقتله ، وقيل في المثل : القتل أنفى للقتل ، وقيل معنى الحياة : سلامته من قصاص الآخرة ، فإنه إذا اقتُص منه في الدنيا حيي في الآخرة ، وإذا

لم يُقتص منه في الدنيا اقتُص منه في الآخرة ، { يا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } ، أي تنتهون عن القتل مخافة القَود .

[180] قوله تعالى : { كُتِبَ عَلَيْكُمْ } ، أي : فُرض عليكم ، { إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ } ، أي : جاء أسباب الموت وآثاره من العلل والأمراض ، { إِنْ تَرَكَ خَيْرًا } ، أي : مالًا ، نظيره قوله تعالى : { وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ } ، { الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ } ، كانت الوصية فريضة في ابتداء الإسلام للوالدين والأقربين على من مات وله مال ، ثم نُسخت بآية الميراث قوله تعالى : { بِالْمَعْرُوفِ } ، يريد : يوصي بالمعروف ولا يزيد على الثلث ، ولا يُوصي للغني ويدع الفقير ، قال ابن مسعود : الوصية للأخل فالأخل ، أي : الأحوج فالأحوج { حَقًّا } نُصب على المصدر ، وقيل : على المفعول ، أي : جعلَ الوصيةَ حقًّا ، { عَلَى الْمُتَّقِينَ } : المؤمنين .

[181] قوله تعالى : { فَمَنْ بَدَّلَهُ } ، أي : غيّر الوصيةَ عن الأوصياء أو الأولياء أو الشهود ، { بَعْدَمَا سَمِعَهُ } ، أي : بعد ما سمع قول الموصي { فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ } ، والميتُ بريء منه { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ } ، لما أوصى به الموصي ، { عَلِيمٌ } : بتبديل المُبدِّل أو سميع لوصيته عليم بنيته .

[182] قوله تعالى : { فَمَنْ خَافَ } ، أي علم { مِنْ مُوصٍ جَنَفًا } ، أي : جَورًا وعدولًا عن الحق ، والجنفُ : الميلُ ، { أَوْ إِثْمًا } ، أي : ظلمًا ، وقال السدي وعكرمة والربيع : الجَنَفُ : الخطأ ، والإثم : العمد ، فأصلح بينهم ، { فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ } ، واختلفوا في معنى الآية قال مجاهد : معناها أن الرجل إذا حضر مريضًا وهو يُوصي فرآه يميل إمّا بتقصير أو إسراف أو وضع الوصية في غير موضعها ، فلا حرج على من حضره أن يأمره بالعدل وينهاه عن الجنف ، فينظر للموصَى له والورثة ، وقال الآخرون : إنه أراد به أنه إذا أخطأ الميتُ في وصيته أو جار متعمدًا فلا حرج على وليه أو وصيه أو والي أمور المسلمين أن يُصلح بعد موته بين ورثته وبين الموصى لهم ، ويردّ الوصيةَ إلى العدل والحق (فَلا إثم عليه) ، أي : لا حرج عليه ، { إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } .

[183] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ } ، أي : فُرض وأوجب الصوم ، والصيام في اللغة : الإمساك ، يُقال : صام النهار إذا اعتدل وقام قائم الظهيرة ، لأن الشمس إذا بلغت كبد السماء كأنها وقفت وأمسكت عن السير سريعة ، ومنه قوله تعالى : { فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا } ، أي : صمتًا لأنه إمساك عن الكلام ، وفي الشريعة : الصوم وهو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع مع النيّة في وقت مخصوص . { كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ } : من الأنبياء والأمم ، واختلفوا في هذا التشبيه ، فقال سعيد بن جُبير : كان صوم من قبلنا من العتمة إلى الليلة القابلة ، كما كان في ابتداء الإسلام ، وقال جماعة من أهل العلم : أراد أن صيام رمضان كان واجبًا على النصارى ، كما فُرض علينا ، فربّما كان يقع في الحرّ الشديد والبرد الشديد ، وكان يشق عليهم في أسفارهم ويضرهم في معايشهم ، فاجتمع رأي علمائهم ورؤسائهم على أن يجعلوا صيامهم في فصل من السنة بين الشتاء والصيف ، فجعلوه في الربيع وزادوا فيه عشرة أيام كفارة لما صنعوا فصار أربعين ثم أتموه خمسين يومًا { لَعَلَّكُمْ

تَتَّقُونَ } ، يعني : بالصوم ، لأن الصوم وصلة إلى التقوى ، لما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات ، وقيل : (لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ) تحذرون عن الشهوات من الأكل والشرب والجماع .

[184] { أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ } ، قيل : كان في ابتداء الإسلام صوم ثلاثة أيام من كل شهر واجبًا ، وصوم يوم عاشوراء ، فصاموا كذلك من الربيع إلى شهر رمضان سبعة عشر شهرًا ، ثم نُسخ بصوم رمضان ، قال ابن عباس : أول ما نُسخ بعد الهجرة أمر القبلة والصوم وقيل : المراد من قوله : (أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ) : شهر رمضان ، وهي غير منسوخة ونصب (أَيَّامًا) على الظرف ، أي : في أيام معدوداتٍ { فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ } ، أي فأفطر فعدة { مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ } ، أي فعليه عدة ، والعدد والعدة واحد ، من أيام أخر ، أي غير أيام مرضه وسفره { وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ } ، اختلف العلماء في تأويل هذه الآية وحُكمها ، فذهب أكثرهم إلى أن الآية منسوخة ، وهو قول ابن عمر وسلمة بن الأكوع وغيرهما ، وذلك أنهم كانوا في ابتداء الإسلام مُخيرين بين أن يصوموا وبين أن يفطروا أو يفتدوا ، خَيّرهم الله تعالى لئلا يَشُقّ عليهم ، لأنهم كانوا لم يتعودوا الصوم ، ثم نُسخ التخيير ونزلت العزيمة بقوله تعالى : { فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ } قال قتادة : هي خاصة في حق الشيخ

الكبير الذي يطيق الصوم ولكن يشق عليه ، رخص له في أن يفطر ويفدي ، ثم نسخ ، وقال الحسن : هذا في المريض الذي به ما يقع عليه اسم المرض وهو مستطيع للصوم ، خيّر بين أن يصوم وبين أن يفطر أو يفدي ، ثم نُسخ بقوله تعالى : { فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ } وثبتت الرخصةُ للذين يُطيقون ، وذهب جماعة إلى أن الآية محكمة غير منسوخة ، ومعناه : وعلى الذين كانوا يطيقونه في حال الشباب فعجزوا عنه في حال الكِبَر فعليهم الفدية بدل الصوم ، وقرأ ابن عباس (وَعَلَي الَّذِين يُطَوَّقُونَه) بضم الياء وفتح الطاء وتخفيفها وفتح الواو وتشديدها ، أي : يُكلّفون الصوم ، وتأويله : على الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان الصوم ، والمريض الذي لا يُرجى زوال مرضه ، فهم يُكلفون الصوم ولا يُطيقونه ، فلهم أن يفطروا ويُطعموا مكان كل يوم مسكينًا ، وهو قول سعيد بن جُبير ، وجعل الآيةَ محكمة . قوله تعالى : { فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ } ، قرأ أهل المدينة والشام مضافًا ، وكذلك في المائدة : (كفارة طعام مساكين) ، أضاف الفدية إلى الطعام ، وإن كان واحدًا لاختلاف اللفظين ، كقوله تعالى : { وَحَبَّ الْحَصِيدِ } ، وقولهم

: مسجد الجامع ، وربيع الأول ، وقرأ الآخرون (فديةٌ ، وكفارةٌ) منونة ، (وطَعَامُ) رفع ، وقرأ (مَساكِين) بالجمع هنا ، أهل المدينة والشام ، وآخرون على التوحيد ، فمن جمع نصب النون ، ومن وحّد خفض النون ونوّنها ، والفدية الجزاء ويجب أن يطعم مكان كل يوم مسكينًا مُدًّا من الطعام بِمُدّ النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم - وهو رطل وثلث من غالب قوت البلد ، هذا قول فقهاء الحجاز ، وقال بعض فقهاء أهل العراق : عليه لكل مسكين نصف صاع لكل يوم يفطر ، وقال بعضهم : نصف صاع من قمح أو صاع من غيره ، وقال بعض الفقهاء : ما كان المفطر يتقوته يومَهُ الذي أفطره ، وقال ابن عباس : يعطي كل مسكين عشاءَهُ وسُحورَه ، { فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ } ، أي زاد على مسكين واحد فأطعم مكان كل يوم مسكينين فأكثر ، قاله مجاهد وعطاء وطاوس ، وقيل : من زاد على القدر الواجب عليه فأعطى صاعًا وعليه مُدّ فهو خير له ، { وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ } ، فمن ذهب إلى النسخ قال معناه : الصوم

خير له من الفدية ، وقيل هذا في الشيخ الكبير لو تكلّف الصوم ، وإن شق عليه فهو خير له من أن يفطر ويفدي { إِنْ كُنْتُمْ

تَعْلَمُونَ } ، ثم بين اللّه تعالى أيام الصيام فقال :

[185] { شَهْرُ رَمَضَانَ } ، رفعه على معنى : هو شهر رمضان ، وقال الكسائي كُتب عليكم شهر رمضان ، وسُمي الشهر شهرًا لشهرته ، وأما رمضان فقد قال مجاهد : هو من أسماء اللّه تعالى ، يقال : شهر رمضان كما يقال شهر اللّه ، والصحيح : أنه اسم للشهر سُمي به من الرمضاء ، وهي الحجارة المحماة ، وهم كانوا يصومونه في الحر الشديد ، وكانت ترمض فيه الحجارة من الحرارة ، قوله تعالى : { الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ } ، سمي القرآن قرآنا لأنه يجمع السور والآي والحروف ، وجمع فيه القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد ، وأصل القَرْء : الجمع ، وقد يحذف الهمزة فيقال : قريت الماء في الحوض إذا جمعته ، وقرأ ابن كثير القرَان بفتح الراء غير مهموز ، وكذلك كان يقرأ الشافعي ، ويقول : ليس هو من القراءة ولكنه اسم لهذا الكتاب كالتوراة والإنجيل ، رُوي عن مقسم عن ابن عباس أنه سُئل عن قوله عزّ وجلّ : { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ } ، وقوله : { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ } ، وقوله : { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ } ، وقد نزل في سائر الشهور ، وقوله عزّ وجلّ : { وَقُرْآنًا

فَرَقْنَاهُ } فقال : أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في ليلة القدر من شهر رمضان إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ثم نزل به جبريل - عليه السلام - على رسول اللّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم - نجومًا في ثلاث وعشرين سنة ، فذلك قوله تعالى : { فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ } ، قال داود بن أبي هند قلت للشعبي : { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ } أمَا كان ينزل في سائر الشهور؟ قال : بلى ولكنّ جبرائيل كان يعارض محمدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم - في رمضان ما أنزل اللّه إليه ، فيُحكم اللّه ما يشاء ويثبت ما يشاء ويُنسيه ما يشاء قوله تعالى : { هُدًى لِلنَّاسِ } : من الضلالة ، و (هدًى) في محل النصب على القطع ، لأن القرآن معرفة وهدًى نكرة { وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى } ، أي دَلالاتٍ واضحات من الحلال والحرام ، والحدود والأحكام ، { وَالْفُرْقَانِ } ، أي : الفارق بين الحق والباطل ، قوله تعالى : { فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ } ، أي : فمن كان مقيمًا في الحضر فأدركه الشهر . قوله تعالى : { وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ

فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ } ، أباح الفطر لعذر المرض والسفر ، أعاد هذا الكلام ليعلم أن هذا الحكم ثابت في الناسخ ثبوته في المنسوخ { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ } ، بإباحة الفطر في المرض والسفر { وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } قال الشعبي ما خُيِّر رجلٌ بين أمرين فاختار أيسرهما إلّا كان ذلك أحبهما إلى اللّه عزّ وجلّ { وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ } الواو في قوله تعالى : وَلِتُكْمِلُوا وَاوُ النَّسق واللام لام كي ، تقديره : ويريد لكي تكملوا العدة ، أي لتكملوا عدة أيام الشهر بقضاء ما أفطرتم في مرضكم وسفركم ، وقال : (وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ) ، أي : عدة أيام الشهر ، { وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ } : ولتعظموا اللّه ، { عَلَى مَا هَدَاكُمْ } : أرشدكم إلى ما أرضى به من صوم شهر رمضان وخصكم به دون سائر أهل الملل ، قال ابن عباس : هو تكبيرات ليلة الفطر ، وروى الشافعي عن ابن المسيب وعروة

وأبي سلمة أنه كانوا يكبرون ليلة الفطر يجهرون بالتكبير ، وشبه ليلة النحر بها إلا من كان حاجًّا وذكرُه التلبية ، { وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } : اللّه على نعمه .

[186] قوله تعالى : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ } ، فيه إضمار ، كأنه قال : فقل لهم إني قريب منهم بالعلم لا يخفى علَي شيء { أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي } ، قيل : الاستجابة بمعنى الإجابة ، أي : فليجيبوا إلي بالطاعة ، والإجابة في اللغة : الطاعة وإعطاء ما سئل ، فالإجابة من اللّه تعالى العطاء ، ومن العبد : الطاعة : وقيل فليستجيبوا إلي ، أي : ليستدعوا مني الإجابة ، وحقيقته فليطيعوني . { وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } ، لكي يهتدوا ، فإن قيل : فما وجه قوله تعالى : (أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ) وقوله : { ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } ، وقد ندعو كثيرًا فلا يجيب؟ قلنا : اختلفوا في معنى الآيتين ، قيل : معنى الدعاء ههنا : الطاعة ، ومعنى الإجابة؟ الثواب ، وقيل : معنى الآيتين خاص ، وإن كان لفظهما عامًّا تقديرهما : أجيبُ دعوة الداعي إن شئت ، كما قال : { فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ } ، وأجيبُ دعوةَ الداعِ إن وافق القضاء ، أو أجيبه إن كانت الإجابة خيرًا له ، أو أجيبه إن لم يسأل محالًا وقيل : هو عامّ ، ومعنى قوله أجيب

، أي : أسمع ، ويقال . ليس في الآية أكثر من استجابة الدعوة ، فأما إعطاء المنية فليس بمذكور فيها ، وقد يجيب السيدُ عبده والوالِدُ ولده ثم لا يُعطيه سؤله ، فالإجابة كائنة لا محالة عند حصول الدعوة ، وقيل : معنى الآية أنه يُجيب دعاءَه فإن قدّر له ما سأل أعطاه وإن لم يُقدِّر له ادخر له الثواب في الآخرة أو كفّ عنه به سوءًا . وقيل . إن اللّه تعالى يُجيب دعاء المؤمن في الوقت ، ويُؤخر إعطاء من يجيب مرادَه ليدعوه فيسمع صوته ، ويعجل إعطاء من لا يحبه لأنه يبغض صوته ، وقيل : إن للدعاء آدابًا وشرائط وهي أسباب الإجابة ، فمن استكملها كان من أهل الإجابة ، ومن أخلّ بها فهو من أهل الاعتداء في الدعاء ، فلا يستحق الإجابة .

[187] قوله تعالى : { أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ } ، فالرفث كناية عن الجماع ، قال ابن عباس : إن اللّه حيي كريم يكني ، كلما ذكر في القرآن من المباشرة والملامسة والإفضاء والدخول والرفث ، فإنما عنى به الجماع ، وقال الزجاج : الرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجال من النساء ، أي : أبيح لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم : { هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ } ، أي سكن لكم ، { وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ } ، أيْ : سكن لهن ، دليله قوله تعالى : { وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا } ، وقيل : لا يسكن شيء إلى شيء كسكون أحد الزوجين إلى الآخر ، وقيل : سمي كل واحد من الزوجين لباسًا لتجردهما عند النوم واجتماعهما في ثوب واحد ، حتى يصير كل واحد منهما لصاحبه كالثوب الذي يلبسه ، وقال الربيع بن أنس : هن فراش وقيل : اللباس اسم لما يُواري الشيء ، فيجوز أن يكون كل واحد منهما سترًا لصاحبه عما لا يحل ، كما جاء في الحديث : « منْ تزوج فقد أحرز ثلثي دينه » ، { عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ } { كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ } ، أي تخونونها وتظلمونها بالمجامعة بعد العشاء ، قال البَراء

: لمّا نزل صوم رمضان ، كانوا لا يقرَبُون النساء كله ، وكان رجال يخونون أنفسهم ، فأنزل اللّه تعالى : { عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ } ، { فَتَابَ عَلَيْكُمْ } : تجاوز عنكم { وَعَفَا عَنْكُمْ } : مَحَا ذُنوبَكم ، { فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ } : جامعوهن حلالًا ، سميت المجامعة : مباشرة ، لملاصقة بشرة

كل واحد منهما صاحبه ، { وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ } ، أي : فاطلبوا ما قضى اللّه لكم ، وقيل : ما كتب اللّه لكم في اللوح المحفوظ ، يعني : الولد ، قاله أكثر المفسرين ، قال مجاهد : ابتغوا الولد إن لم تلد هذه فهذه ، وقال قتادة : وابتغوا الرخصة التي كتب اللّه لكم بإباحة الأكل والشرب والجماع في اللوح المحفوظ ، وقال معاذ بن جبل : وابتغوا ما كتب اللّه لكم ، يعني : ليلة القدر { وَكُلُوا وَاشْرَبُوا } ، يعني في ليالي الصوم { حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ } ، يعني : بياض النهار من سواد الليل : سُمّيا خيطين لأن كل واحد منهما يبدو في الابتداء ممتدًّا كالخيط ، { ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ } ،

فالصائم يحرم عليه الطعام والشراب بطلوع الفجر الصادق ويمتد إلى غروب الشمس ، وإذا غربت حصل الفطر { وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ } ، العكوف هو الإقامة على الشيء ، والاعتكاف في الشرع هو الإقامة في المسجد على عبادة الله ، وهو سنة ، ولا يجوز في غير المسجد ويجوز في جميع المساجد { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ } , يعني : تلك الأحكام التي ذكرها في الصيام والاعتكاف حدود اللّه : أي : ما منع اللّه عنها ، قال السدي : شروط اللّه وقال شهر بن حوشب : فرائض الله ، وأصل الحد في اللغة المنع ، ومنه يُقال للبواب : حداد لأنه يمنع الناس من الدخول ، وحدود اللّه ما يمنع الناس من مخالفتها ، { فَلَا تَقْرَبُوهَا } فلا تأتوها { كَذَلِكَ } ، هكذا { يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } ، لكي يتقوها فينجوا من العذاب .

[188] قوله تعالى : { وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ } ، أي : لا يأكل بعضكم مالَ بعض بالباطل ، أي : من غير الوجه الذي أباحه اللّه وأصل الباطل : الشيء الذاهب ، والأكل بالباطل أنواع قد يكون بطريق الغصب والنهب ، وقد يكون بطريق اللهو كالقمار وأجرة المغني ، وغيرهما وقد يكون بطريق الرشوة والخيانة ، { وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ } ، أي : تُلقوا أمور تلك الأموال بينكم وبين أربابها إلى الحكام ، وأصل الإدلاء إرسال الدلو ، وإلقاؤه في البئر ، يُقال أدلى دلوه إذا أرسله ، ودلاه يدلوه إذا أخرجه قال ابن عباس : هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه بينة فيجحد المال ، ويخاصم فيه الحاكم وهو يعرف أن الحق عليه ، وإنه أثم بمنعه قال مجاهد في هذه الآية : لا تخاصم وأنت ظالم ، قال الكلبي هو أن يقيم شهادة الزور ، وقوله : (وَتُدْلُوا) في محل الجزم بتكرير حرف النهي ، معناه : ولا تدلوا بها إلى الحكام ، وقيل : معناه ولا تأكلوا بالباطل وتنسبونه إلى الحكام ، قال قتادة : لا تُدْلِ بمال أخيك إلى الحاكم وأنت تعلم أنك ظالم فإن قضاءَه لا يُحل حرامًا ، وكان شُريح القاضي يقول : إني لأقضي لك

وإني لأظنك ظالمًا ، ولكن لا يسعني إلا أن أقضي لك بما يحضرني من البينة ، وإن قضائي لا يُحل لك حرامًا ، { لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا } : طائفة { مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ } : بالظلم ، وقال ابن عباس : باليمين الكاذبة يقتطع بها مال أخيه { وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } : أنكم مبطلون .

[189] قوله تعالى : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ } جمع هلال ، مثل رداء وأردية ، سُمّي هلالًا لأن الناس يرفعون أصواتهم بالذكر عند رؤيته ، من قولهم : استهل الصبي إذا صرخ حين يُولد ، وأهل القوم بالحج إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية ، { قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ } ، جمع ميقات ، أي : فعلنا ذلك ليعلم الناس

أوقات الحج والعمرة والصوم والإفطار وآجال الديون وعدد النساء وغيرها ، فلذلك خالف بينه وبين الشمس التي هي دائمة على حالة واحدة ، { وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا } ، قال أهل التفسير : كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة ، لم يدخل حائطًا ولا بيتًا ولا دارًا من بابه ، فإن كان من أهل المدر نقب نقبا في ظهر بيت ليدخل منه ويخرج ، أو يتخذ سُلّمًا فيصعد منه ، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل ولا يخرج من الباب حتى يَحِلَّ من إحرامه ، ويرون ذلك برًّا إلّا أن يكون من الحُمْسِ ، وهم قريش وكنانة وخزاعة وثَقيف وخَثعم وبنو عامر بن صَعْصَعة وبنو نضر بن معاوية ، سُموا أحمسًا لتشددهم في دينهم ، والحماسة

الشدة والصلابة « فدخل رسول اللّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلِّم - ذات يوم بيتًا لبعض الأنصار ، فدخل رجل من الأنصار على أثره من الباب ، وهو محرم فأنكروا عليه ، فقال له رسول اللّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : "لمَ دخلت من الباب وأنت محرم؟" قال : رأيتك دخلت فدخلت على أثرك ، فقال رسول اللّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلِّم : "إني أحمسي » (1) ، فقال الرجل : إن كنت أحمسيًّا فإني أحمسي رضيتُ بهديك وسمتك ودينك ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية : { وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى } ، أي : البِرَّ بِرّ من اتقى { وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا } ، في حال الإحرام ، { وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } .

(1) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وأبن المنذر انظر الدر المنثور للسيوطي 1 / 492 وتفسير الطبري 3 / 556 .

[190] { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ، أي : في طاعة اللّه { الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ } ، كان في ابتداء الإسلام أمر اللّه تعالى رسول اللّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم - بالكف عن قتال المشركين ، ثم لمّا هاجر إلى المدينة أمره بقتال من قاتله منهم بهذه الآية ، وقال الربيع بن أنس : هذه أول آية نزلتْ في القتال ، ثم أمره بقتال المشركين كافّة ، قاتلوا أو لم يقاتلوا بقوله : (اقتلوا المشركين) ، فصارت هذه الآية منسوخة بها ، وقيل : نسخ بقوله : (اقتلوا المشركين) قريب من سبعين آية . وقوله : { وَلَا تَعْتَدُوا } ، أي لا تبدؤوهم بالقتال ، وقيل : هذه الآية محكمة غير منسوخة ، أمر النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم - بقتال المقاتلين ، ومعنى قوله : وَلَا تَعْتَدُوا ، أي : لا تقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير والرهبان ، ولا من ألقى إليكم السلام (ولاَ تَعتَدُوا) فتبدءوا بالقتال في الحرم محرمين ، { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ }

[191] { وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ } قيل : نسخت الآية الأولى بهذه الآية ، وأصل الثقافة الحِذْقُ والبصر بالأمر ، ومعناه : واقتلوهم حيث أبصرتم مقاتلتهم وتمكنتم من قتلهم ، { وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ } ، وذلك أنهم أخرجوا المسلمين من مكة ، فقال : أخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم, { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } ، يعني : شركهم باللّه - عزّ وجلّ - أشد وأعظم من قتلكم إياهم في الحرم والإحرام ، { وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ } كان هذا في ابتداء الإسلام ، كان لا يَحِلُّ بدايتهم بالقتال في البلد الحرام ، ثم صار منسوخًا بقوله تعالى : { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ } هذا قول قتادة ، وقال مقاتل بن حيان : قوله : (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ) ، أي : حيث أدركتموهم في الحِلّ والحرم ، صارت هذه الآية

منسوخة بقوله تعالى : (وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) ، ثم نسختها آية السيف في براءة ، فهي ناسخة منسوخة ، وقال مجاهد وجماعة : هذه

الآية محكمة ولا يجوز الابتداء بالقتال في الحرم ، { كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ } .
[192] { فَإِنِ انْتَهَوْا } عن القتال والكفر { فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } ، أي غفور لِما سلَفَ رحيم بالعباد .

[193] { وَقَاتِلُوهُمْ } ، يعني : المشركين ، { حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ } ، أي شرك ، يعني قاتلوهم حتى يسلموا فلا يقبل من الوثني إلّا الإسلام فإن أبى قُتل ، { وَيَكُونَ الدِّينُ } ، أي : الطاعة والعبادة { لِلَّهِ } وحده فلا يُعبد شيء دونه { فَإِنِ انْتَهَوْا } : عن الكفر وأسلموا, { فَلَا عُدْوَانَ } فلا سبيل { إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ } ، قاله ابن عباس ، يدل عليه قوله تعالى : { أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ } ، أي : فلا سبيل علي ، وقال أهل المعاني : العدوان : الظلم ، أي : فإن أسلموا فلا نهب ولا أسر ولا قتل ، إلا عَلى الظالمين الذين بقوا على الشرك ، وما يفعل بأهل الشرك من هذه الأشياء لا يكون ظلمًا ، وسماه عدوانًا على طريق المجازات والمقابلة ، كما قال : { فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ } ، وكقوله تعالى : { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا } ، وسُمي الكافر ظالمًا لأنه يضع العبادة في غير موضعها .

[194] { الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ } نزلت هذه الآية في عُمْرَةِ القضاء ، وذلك أنّ النبي - صلى الله عليه وسلم - خرج معتمرًا في ذي القعدة فصده المشركون عن البيت بالحديبية, فصالح أهل مكة على أن ينصرف عامه ذلك ويرجع العام المقبل فيقضي عمرته ، فانصرف رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم - عامه ذلك ، ورجع في العام القابل في ذي القعدة ، وقضى عمرته سنة سبع من الهجرة ، فذلك معنى قوله تعالى : (الشَّهْرُ الْحَرَامُ) ، يعني ذا القعدة الذي دخلتم فيه مكة ، وقضيتم فيه عُمرتكم سنة سبع, بالشهر الحرام ، يعني : ذا القعدة الذي صُددتم فيه عن البيت سنة ست { وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ } : جمع حرمة ، وإنما جمعها لأنه أراد حرمة الشهر الحرام والبلد الحرام ، وحرمة الإحرام والقصاص : المساواة والمماثلة ، وهو أن يُفعل بالفاعل مثل ما فعل ، وقيل : هذا في أمر القتال ، معناه إن بدءوكم بالقتال في الشهر الحرام فقاتلوهم فيه ، فإنه قصاص بما فعلوا فيه ، { فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ } وقاتلوه { بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ } ، سُمي الجزاء باسم الابتداء على ازدواج الكلام ، كقوله تعالى : {

وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا } { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ }

[195] قوله تعالى : { وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ، أراد به الجهاد وكل خير هو في سبيل اللّه ، ولكنّ إطلاقه ينصرف إلى الجهاد ، { وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ } ، قيل : الباء في قوله تعالى : { بِأيديكُم } زائدة ، يُريد : ولا تلقوا أيديكم ، أي : أنفسكم إلى التهلكة عبّر عن الأنفس بالأيدي ، كقوله تعالى : { فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } أي : بما كسبتم ، وقيل : الباء في موضعها ، وفيه ، حذف ، أي : ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة ، أي الهلاك ، وقيل : التهلكة كل شيء يصير عاقبته إلى الهلاك ، أي : ولا تأخذوا في ذلك ، وقيل التهلكة ما يمكن الاحتراز عنه ، والهلاك ما لا يمكن الاحتراز عنه ، والعرب لا تقول للإنسان : ألقَى بيده إلا في الشر ، واختلفوا في تأويل هذه الآية ، فقال بعضهم : هذا

في البخل وترك الإنفاق ، يقول : ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بترك الإنفاق في سبيل اللّه ، وهو قول حذيفة والحسن وقتادة وعكرمة وعطاء ، وقال ابن عباس في هذه الآية : أنفقْ في سبيل اللّه وإنْ لم يكن لك إلا سهم أو مِشْقَص ، ولا يقولنّ أحدُكم : إني لا أجد شيئًا ، وقال السدي فيها : أنفقْ في سبيل

اللّه ولو عقالًا ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، ولا تقلْ : ليس عندي شيء ، وقال سعيد بن المسيب ومقاتل بن حيان : لمّا أمر اللّه تعالى بالإنفاق قال رجال : أمرنا بالنفقة في سبيل اللّه ، ولو أنفقنا أموالنا بقينا فقراء ، فأنزل اللّه هذه الآية ، وقال مجاهد فيها : لا يمنعكم من نفقة في حق خِيفةَ العيلة ، وقال زيد بن أسلم : كان رجال يخرجون في البعوث بغير نفقة ، فإما أن يُقطع بهم وإما أن يكونوا عيالًا ، فأمرهم اللّه تعالى بالإنفاق على أنفسهم في سبيل اللّه ، ومن لم يكن عنده شيء ينفقه ، فلا يخرج بغير نفقة ولا قوت فيُلقي بيده إلى التهلكة ، فالتهلكة : أن يهلك من الجوع والعطش أو بالمشي ، وقيل : نزلت الآية في ترك الجهاد ، قال أبو أيوب الأنصاري : نزلت فينا معشر الأنصار ، وذلك أن اللّه تعالى لمّا أعزّ ونصر رسوله ، قلنا فيما بيننا : إنا قد تركنا أهلنا وأموالنا حتى فشا الإسلام ونصر اللّه نبيَّه فلو رجعنا إلى أهلنا وأموالنا فأقمنا فيها فأصلحنا ما ضاع منها ، فأنزل اللّه تعالى : { وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ } ، فالتهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك

الجهاد ، فما زال أبو أيوب يجاهد في سبيل اللّه حتى كان آخر غزوة غزاها بقسطنطينية في زمن معاوية ، فتوفي هناك وقال محمد بن سيرين وعبيدة السلماني : الإلقاء إلى التهلكة هو القنوط من رحمة اللّه تعالى ، قال أبو قلابة : هو الرجل يصيب الذنب فيقول قد هلكت ليس لي توبة ، فييأس من رحمة اللّه وينهمك في المعاصي ، فنهاهم اللّه تعالى عن ذلك قال اللّه تعالى : { إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } ، { وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }

[196] قوله عزّ وجلّ : { وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ } اختلفوا في إتمامها فقال بعضهم : هو أن يُتمَّهُمَا بمنَاسِكِهما وحدودِهما وسننهما ، وهو قول ابن عباس وعلقمة وإبراهيم النخعي ومجاهد ، وأركان الحج خمسة : الإحرام ، والوقوف بعرفة ، وطواف الزيارة ، والسعي بين الصفا والمروة ، وحلق الرأس أو التقصير ، وقال سعيد بن جبير وطاوس : تمام الحج والعمرة أن تُحرم بهما مُفردَين مستأنَفَين من دُوَيْرِية أهلك وقال قتادة : تمام العُمرة أن تعمر في غير أشهر الحج ، فإن كانت في أشهر الحج ثم أقام حتى حج فهي تمتعه ، وعليه فيه الهَدي إن وجدَه أو الصيام إنْ لم يجِد الهَدْي ، وتمام الحج أن يُؤتي بمناسكه كلها حتى لا يلزمه عمّا تَركَ دم بسبب قِرَانٍ ولا متْعَةِ ، وقال الضحاك : إتمامهما أن تكون النفقة حلالًا وينتهي عما نهى اللّه عنه ، وقال سفيان الثوري : إتمامهما أن تخرج من أهلك لهما ، ولا تخرج لتجارة ولا لحاجة أخرى . وقوله تعالى : { فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ } اختلف العلماء في الإحصار الذي يبيح للمحرم التحلل من إحرامه ، فذهب جماعة إلى أن كل مانع يمنعه عن الوصول إلى البيت الحرام والمضي في إحرامه من عدو أو

مرض أو جرح أو ذهاب نفقة أو ضلال راحلة يُبيح له التحلل ، وبه قال ابن مسعود ، وإبراهيم النخعي والحسن ومجاهد وعطاء وقتادة وعروة بن الزبير ، وإليه ذهب سفيان الثوري وأهل العراق ، واحتجوا بما روي عن الحجاج بن

عمرو الأنصاري قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : « من كُسر أو عرج فقد حلّ وعليه الحج من قابل » (1) وذهب جماعة إلى أنه لا يباح له التحليل إلّا بحبس العدو ، وهو قول ابن عباس ، وقال : لا حصر إلا حصر العدو ، وإليه ذهب الشافعي وأحمد وإسحاق . ثم المحصر يتحلل بذبح الهدي وحلق الرأس ، والهدي بشاة وهو المراد من قوله تعالى : { فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ } ومحل ذبحه حيث أحصر عند أكثر أهل العلم ، لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - ذبح الهدي عام الحديبية بها ، وذهب قوم إلى أن المحصر يقيم على إحرامه ويبعث بهديه إلى الحَرَم ويُواعد من يذبحه هناك ثم يحل ، وهو قول أهل العراق . ومعنى قوله تعالى : فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، أي : فعليه ما تيسر من الهدي ، ومحله رفع ، وقيل : (مَا) في محل النصب ، أي : فاهد ما استيسر ، والهدي جمع هدية وهي اسم لكل ما يُهدَى إلى بيت اللّه تقربًا إليه ، وما استيسر

____

(1) رواه أبو داود في المناسك باب الإحصار 2 / 368 ، والترمذي في كتب الحج (96) ، باب ما جاء في الذي يُهل بالحج فيكسر أو يعرج ، وأحمد 3 / 450 ، والمصنف في شرح السنة 7 / 288 .

من الهدي شاة ، قاله علي بن أبي طالب وابن عباس لأنه أقرب إلى اليسر ، وقال الحسن وقتادة أعلاه بدنة وأوسطه بقرة وأدناه شاة .

قوله تعالى : { وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ } ، اختلفوا في المحل الذيَ يحل المحصر ببلوغ هديه إليه ، فقال بعضهم : هو ذبحه بالموضع الذي أحصر فيه سواء كان في الحل أو في الحَرم ، ومعنى (محلّه) حيث يحل ذبحه فيه وقال بعضهم : محل هدي المحصر : الحَرَم ، فإن كان حاجًّا فمحله يوم النحر ، وان كان معتمرًا فمحله يوم يبلغ هديه الحرم .

قوله تعالى : { فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ } ، معناه لا تحلقوا رؤوسكم في حال الإحرام إلا أن تضطروا إلى حلقه لمرض أو لأذًى في الرأس من هوام أو صُداع { فَفِدْيَةٌ } ، فيه إضمار ، أي : فحلق فعليه فدية يُطعم فَرْقًا بين ستة مساكين ، أو يهدي شاة أو يصوم ثلاثة أيام .

قوله تعالى : { فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ } ، أي ثلاثة أيام ، { أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ } ، أي ثلاثة آصع على ستة مساكين ، لكل مسكين نصف صاع ، أَوْ نُسُكٍ ، واحدتها نسيكة ، أي : ذبيحة أعلاها بدنة وأوسطها بقرة وأدناها شاة ، أيتها شاءَ ذبحَ ، فهذه الفدية على التخيير والتقدير ، ويتخير بين أن يذبح أو يصوم أو يتصدق ، وكل هدي أو طعام يلزم المحرم يكون بمكة ويتصدق به على مساكين الحرم ، إلا هديًا يلزم المحصر فإنه يذبحه حيث أحصر ، وأما الصوم فله أن يصوم حيث يشاء ، قوله تعالى : { فَإِذَا }{ أَمِنْتُمْ } ، أي : من خوفكم وبرأتم من مرضكم ، { فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ } ، اختلفوا في هذه المتعة فذهب عبد اللّه بن الزبير إلى أن معناه : فمن أحصر حتى فاته الحج ولم يتحلّل فقدم مكة يخرج من إحرام بعمل عُمرة واستمتع بإحلاله ذلك ، فتلك العمرة إلى السنة المقبلة ثم حج ، فيكون متمتعًا بذلك الإحلال إلى إحرامه الثاني في العام القابل ، وقال بعضهم : معناه فإذا أمنتم وقد حللتم من إحرامكم بعد الإحصار ، ولم تقضوا عمرتكم وأخرتم العمرة إلى السنة القابلة فاعتمرتم في أشهر

الحج ثم حللتم فاستمتعتم بإحلالكم إلى الحج ثم أحرمتم بالحج ، فعليكم ما استيسر من الهدي ، وهو قول علقمة وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ، وقال ابن عباس وعطاء وجماعة : هو الرجل يقدم معتمرًا من أفق الآفاق في أشهر الحج ، فقضى عمرته وأقام حلالًا بمكة حتى أنشأ منها الحج ، فحج من عامه ذلك فيكون مستمتعًا بالإحلال من العمرة إلى إحرامه بالحج ، فمعنى التمتع : هو الاستمتاع بعد الخروج من العمرة بما كان محظورًا عليه في الإحرام إلى إحرامه بالحج .

{ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ } الهدي { فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ } ، أي : صوموا ثلاثة أيام يصوم يومًا قبل التروية ويوم التروية ويوم عرفة ، ولو صام قبله بعدما أحرم بالحج جاز ، ولا يجوز يوم النحر ولا أيام التشريق عند أكثر أهل العلم ، وذهب بعضهم إلى جواز صوم الثلاثة في أيام التشريق ، يُروى ذلك عن عائشة وابن عمر وابن الزبير ، وهو قول مالك والأوزاعي وأحمد وإسحاق ، قوله تعالى : { وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ } ، أي صوموا سبعة أيام إذا رجعتم إلى أهليكم وبلدكم ، فلو صام السبعة قبل الرجوع إلى أهله لا يجوز ، وهو قول أكثر أهل العلم ، روي ذلك عن ابن عمر وابن عباس ، وقيل : يجوز أن يصومها بعد الفراغ من أعمال الحج ، وهو المراد من الرجوع المذكور في الآية ، قوله تعالى : { تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ } : ذكرها على وجه التأكيد وهذا لأن العرب ما كانوا يهتدون إلى الحساب فكانوا يحتاجون إلى فضل شرح وزيادة بيان ، وقيل : فيه تقديم وتأخير ، يعني : فصيام عشرة أيام ثلاثة في الحج وسبعة إذا رجعتم ، فهي عشرة كاملة ، وقيل : كاملة في الثواب والأجر ، وقيل : كاملة فيما أريد به من إقامة الصوم بدل الهدي ، وقيل كاملة

شروطها وحدودها ، وقيل : لفظه خبر ومعناه أمر ، أي : فأكملوها ولا تنقصوها ، { ذَلِكَ } أي : هذا الحكم ، { لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } ، واختلفوا في حاضري المسجد الحرام ، فذهب قوم إلى أنهم أهل مكة ، وهو قول مالك ، وقيل هم أهل الحرم ، وبه قال طاوس ، وقال ابن جُريج : أهل عرفة والرجيع وضجنان ، وقال الشافعي كل من كان وطنه من مكة على أقل من مسافة القصر ، فهو من حاضري المسجد الحرام ، وقال عكرمة : هم من دون الميقات ، وقيل : هم أهل الميقات فما دونه ، وهو قول أصحاب الرأي ، ودَمُ القِران كدم التمتع ، والمكي إذا قَرَن أو تمتع فلا هدي عليه { وَاتَّقُوا اللَّهَ } : في أداء الأوامر ، { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } ، على ارتكاب المناهي .

[197] قوله تعالى : { الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ } ، أي : وقت الحج أشهر معلومات ، وهي : شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر ، ويُروى عن ابن عمر : شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة ، وكل واحد من اللفظين صحيح غير مختلف فيه ، فمن قال : عشر عبّر به عن الليالي ، ومن قال تسع عبّر به عن الأيام ، فإن آخر أيامها يوم عرفة وهو يوم التاسع ، وإنما قال : (أشهُر) بلفظ الجمع وهي شهران وبعض الثالث لأنها وقت ، والعرب تسمي الوقتَ تامًّا بقليله وكثيره ، فيقول أتيتك يوم الخميس ، وإنما أتاه في ساعة منه وقال عروة بن الزبير وغيره : أراد بالأشهر شوالًا وذا القعدة وذا الحجة كمالًا لأنه يبقى على الحاج أمور بعد عرفة يجب عليه فعلها مثل الرمي والذبح والحلق وطواف الزيارة والبيتوتة بمنى ، فكانت في حكم الحج ، { فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ } ، أي : فمن أوجب على نفسه الحج بالإحرام والتلبية { فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ } اختلفوا في الرفث ، قال ابن مسعود وابن

عباس وابن عمر : هو الجماع ، وهو قول الحسن ومجاهد وعمرو بن دينار وقتادة وعكرمة والربيع وإبراهيم النخعي ، وقال علي بن أبي طلحة عن

ابن عباس : الرفث غشيان النساء والتقبيل والغمز وأن يعرض لها بالفحش من الكلام قال طاوس : الرفث التعريض للنساء بالجماع وذكره بين أيديهن ، وقال عطاء : الرفث قول الرجل للمرأة في حال الإحرام إذا حللت أصبتك ، وقيل : الرفث الفحش والقول القبيح ، أما الفسوق فقد قال ابن عباس : هو المعاصي كلها ، وهو قول طاوس والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والزهري والربيع والقرظي ، وقال ابن عمر : هو ما نهي عنه المحرم في حال الإحرام من قتل الصيد وتقليم الأظفار وأخذ الأشعار وما أشبههما ، وقال إبراهيم وعطاء ومجاهد : هو السباب وقال الضحاك هو التنابز بالألقاب { وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ } ، قال ابن مسعود وابن عباس : الجدال أن يماري صاحبه ويخاصمه حتى يغضبه ، وهو قول عمرو بن دينار وسعيد بن جبير وعكرمة والزهري وعطاء وقتادة ، وقال القاسم بن محمد هو أن يقول بعضهم : الحج اليومَ ويقول بعضهم : الحج غدًا ، وقال القرظي : كانت قريش إذا اجتمعت بمنى قال هؤلاء : حجنا أتمّ من حجكم ، وقال هؤلاء : حجنا أتمّ من حجكم ، وقال مقاتل : هو أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لهم في حَجّة الوداع وقد أحرموا بالحج : « اجعلوا إهلالكم بالحج عمرة إلا

مَنْ قلّد الهدي » ، قالوا : كيف نجعله عُمرة وقد سمينا الحج؟ فهذا جدالهم . وقال ابن زيد : كانوا يقفون مواقف مختلفة كلهم يزعم أن موقفه موقف إبراهيم ، فكانوا يجادلون فيه ، وقيل : هو ما كان عليه أهل الجاهلية كان بعضهم يقف بعرفة وبعضهم بالمزدلفة وكان بعضهم يحج في ذي القعدة وكان بعضهم يحج في ذي الحجة ، فكل يقول : ما فعلته فهو الصواب ، فقال جلّ ذكره : (وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ) أي استقر أمر الحج على ما فعله رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم - فلا اختلاف فيه من بعد ذلك { وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ } ، أي : لا يخفى عليه فيجازيكم به ، قوله تعالى : { وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى } ، نزلت في ناس من أهل اليمن كانوا يخرجون إلى الحج بغير زاد ويقولون : نحن متوكلون ، ويقولون : نحن نحج بيت اللّه فلا يطعمنا ، فإذا قدموا مكة سألوا الناس ، وربما يُفضي بهم الحال إلى النهب والغصب ، فقال اللّه جل ذكره : (وَتَزَوَّدُوا) أي : ما تتبلغون به وتكفون به وجوهكم ، قال أهل التفسير . الكعك والزبيب والسويق والتمر ونحوها ، { فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى } من السؤال

والنهب ، { وَاتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبَابِ } : يا ذوي العقول .

[198] قوله تعالى : { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ } ، يعني : التجارة في مواسم الحج { فَإِذَا أَفَضْتُمْ } : دفعتم ، والإفاضة : دفع بكثرة ، وأصله من قول العرب : أفاض الرجل ماءَه ، أي : صبّه ، { مِنْ عَرَفَاتٍ } ، هي جمع عرفة ، جُمعت عرفة بما حولها وإن كانت بقعة واحدة ، كقولهم : ثوب أخلاق { فَاذْكُرُوا اللَّهَ } : بالدعاء والتلبية ، { عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ } ، وهو ما بين جبلي المزدلفة من مَرْمَى عرفة إلى المُحسر ، وليس المأزمان ولا المحسّر من المشعر الحرام ، وسُمي مشعرًا من الشعار ، وهي العلامة لأنه من معالم الحج ، وأصل الحرام من المنع ، فهو ممنوع أن يفعل فيه ما لم يُؤذن فيه ، وسُمي المزدلفة جمعًا لأنه يُجمع فيه بين صلاة المغرب والعشاء ،

والإفاضة من عرفات تكون بعد غروب الشمس ، ومن جمع قبل طلوعها من يوم النحر { وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ } ، أي : واذكروه بالتوحيد والتعظيم ، كما ذكركم بالهداية ، فهداكم لدينه ومناسك حجه ، { وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ } ، أي وقد كنتم ، وقيل : وما كنتم من قبله إلا من الضالين ، كقوله تعالى :

{ وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ } ، أي : وما نظنك إلا من الكاذبين ، والهاء في قوله : (مِن قَبلِه) راجعة إلى الهُدى ، وقيل إلى رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم - كناية عن غير مذكور .
[199] قوله تعالى : { ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ } ، قال أهل التفسير كانت قريش وحلفاؤها ومن دَانَ بدينها وهم الحُمس ، يقعون بالمزدلفة ويقولون : نحن أهل اللّه وقُطّان حرمه ، فلا نخلف الحرم ولا نخرج منه ويتعظمون أن يقفوا مع سائر العرب بعرفات ، وسائر الناس كانوا يقفون بعرفات ، فإذا أفاض الناس من عرفات أفاض الحُمس من المزدلفة ، فأمرهم اللّه أن يقفوا بعرفات ويفيضوا منها إلى جمع مع سائر الناس ، وأخبرهم أنه سنة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام { وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }

[200] قوله تعالى : { فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ } ، أي : فرغتم من حجكم وذبحتم نَسَائِكَكُم ، أي : ذبائحكم ، يقال : نسك الرجل ينسك نَسْكًا إذا ذبح نسيكته ، وذلك بعد رمي جمرة العقبة والاستقرار بمنى ، { فَاذْكُرُوا اللَّهَ } : بالتكبير والتحميد والثناء عليه ، { كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ } ، وذلك أن العرب كانت إذا فرغت من الحج وقفت عند البيت فذكرت مفاخر آبائها ، فأمرهم اللّه بذكره ، وقال : (فَاذْكُرُونِي) فأنا الذي فعلت ذلك بكم وبآبائكم وأحسنت إليكم وإليهم ، قال ابن عباس وعطاء : معناه فاذكروا اللّه كذكر الصبيان الصغار الآباء ، وذلك أن الصبي أول ما يتكلم يلهج بذكر أبيه لا يذكر غيره ، فيقول اللّه : فاذكروا اللّه لا غير ، كذكر الصبي أباه ، { أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا } ، وسئل ابن عباس عن قوله : { فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ } فقيل : قد يأتي على الرجل اليوم لا يذكر فيه أباه ، قال ابن عباس : ليس كذلك ولكن أن تغضب للّه إذا عُصِيَ أشد من غضبك لوالديك إذا شُتِمَا ، وقوله تعالى : { أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا } ، يعني : بل أشد ، أي : وأكبر ذكرًا ، { فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا

آتِنَا فِي الدُّنْيَا } ، أراد به المشركين كانوا لا يسألون اللّه تعالى في الحج إلا الدنيا { وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ } : من حظ ونصيب .
[201] { وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا }{ حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } ، يعني : المؤمنين ، واختلفوا في معنى الحسنتين ، قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه : في الدنيا حسنة امرأة صالحة ، وفي الآخرة حسنة الجنة والحور العين ، وقال الحسن : في الدنيا حسنة العلم والعبادة ، وفي الآخرة حسنة الجنة والنظر .
وقال السدي وابن حيان : في الدنيا حسنة رزقًا حلالًا وعملًا صالحًا ، وفي الآخرة حسنة المغفرة والثواب ، وقال قتادة : في الدنيا عافية وفي الآخرة عافية ، وقال عوف : في هذه الآية من آتاه اللّه الإسلام والقرآن وأهلًا ومالًا فقد أوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة .

[202] قوله تعالى : { أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ } : حظ { مِمَّا كَسَبُوا } : من الخير والدعاء بالثواب والجزاء ، { وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } ، يعني : إذا حاسب عبده

فحسابه سريع لا يحتاج إلى عقد يد ، ولا وَعْي صدورٍ ولا إلى رُؤيةٍ ولا فكر ، قال الحسن : أسرع من لمح البصر ، وقيل : معناه إتيانُ القيامة قريب لأن ما هو آت لا محالة فهو قريب .

[203] قوله تعالى : { وَاذْكُرُوا اللَّهَ } ، يعني التكبيرات أدبار الصلاة وعند الجمرات ، يكبر مع كل حصاة وغيرها من الأوقات ، { فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ } الأيام المعدودات هي أيام التشريق وهي أيام منى ورمي الجمار ، سميت معدودات لقلتهن ، كقوله : { دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ } ، والأيام المعلومات : عشر ذي الحجة آخرهن يوم النحر ، هذا قول أكثر أهل العلم ، ورُوي عن ابن عباس : المعلومات يوم النحر ، ويومان بعده والمعدودات أيام التشريق ، وعن علي قال : المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده ، وقال عطاء عن ابن عباس : المعلومات يوم عرفة ، ويوم النحر وأيام التشريق ، وقال محمد بن كعب : هما شيء واحد وهي أيام التشريق والتكبير أدبار الصلاة مشروع في هذه الأيام في حق الحاج وغير الحاج عند عامة العلماء { فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ } ، أراد من نَفْرِ الحاج في اليوم الثاني من أيام التشريق ، فلا إثم عليه ، وذلك أنه على الحاج أن يبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من أيام التشريق ، ويرمي كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة ، عند كل جمرة بسبع حصيات ، ورخص في ترك البيتوتة لرعاة الإبل وأهل سقاية

الحاج ، ثم كل من يرمي اليوم الثاني من أيام التشريق وأراد أن ينفر فيدع البيتوتة الليلة الثالثة ، ورمي يومها فذلك له واسع ، لقوله تعالى : (فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ) ومن لم ينفر حتى غربت الشمس فعليه أن يبيت حتى يرمي اليوم الثالث ثم ينفر ، وقوله : { وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ } ، يعني : لا إثم على من تعجل فنفر في اليوم الثاني في تعجيله ، ومن تأخر حتى ينفر في اليوم الثالث فلا إثم عليه في تأخيره ، وقيل معناه : فمن تعجّل فقد ترخّص فلا إثم عليه بالترخص ، ومن تأخر فلا إثم عليه بترك الترخص ، وقيل معناه : رجع مغفورًا له لا ذنب عليه تعجل أو تأخر { لِمَنِ اتَّقَى } , أي : لمن اتقى أن يصيب في حجه شيئًا نهاه اللّه عنها ، كما قال : « من حج فلم يرفث ولم يفسق » ، قال ابن مسعود : إنما جُعلت مغفرة الذنوب لمن اتقى اللّه تعالى في حجه ، وفي رواية الكلبي عن ابن عباس معناه : لمن اتقى الصيد ، لا يحل له أن يقتل صيدًا حتى تنقضي أيام التشريق ، وقال أبو العالية : ذهب أئمة أن اتقى فيما بقي من عمره ، { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } : تجمعون

في الآخرة يجزيكم بأعمالكم .

[204] قوله تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ، قال الكلبي ومقاتل وعطاء : نزلت في الأخنس بن شُريق الثقفي حليف بني زهرة ، واسمه أُبي ، وسمي الأخنس لأنه خنّس يوم بدر بثلاثمائة رجل من بني زهرة عن قتال رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم - كان رجلا حلو الكلام حلو المنظر ، وكان يأتي رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم - فيجالسه ويُظهر الإسلام ، ويقول إني لأحبك ويحلف باللّه على ذلك ، وكان منافقًا فكان رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم - يدني مجلسه ، فنزل قوله تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ، أي : تستحسنه ويعظم في قلبك ، ويُقال في الاستحسان : أعجبني كذا ، وفي الكراهية والإنكار : عجبتُ من كذا ، { وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ } ، يعني : قول الأخنس المنافق : واللّه إني بك مؤمن

ولك محب { وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ } ، أي : شديد الخصومة ، يقال : لددتَ يا هذا وأنت تَلدّ لددًا ولَدَادةً ، فإذا أردت أنه غلب على خصمه قلت : لدّه يلدّه لدًّا وتأويله : أنه في أيِّ وجه أخذ من يمين أو شمال ، في أبواب الخصومة غلب

، والخِصام : مصدر خاصمه خصامًا ومخاصمةً ، قاله أبو عبيدة ، وقال الزجاج : وهو جمع خصم ، يقال : خصم وخصام وخُصوم : مثل : بحر وبحار وبُحور ، قال الحسن : ألد الخصام ، أي : كاذب القول ، قال قتادة : شديد القسوة في المعصية ، جدل بالباطل يتكلم بالحكمة ، ويعمل بالخطيئة .
[205] { وَإِذَا تَوَلَّى } ، أي : أدبر وأعرض عنك ، { سَعَى فِي الْأَرْضِ } ، أي : عمل فيها ، وقيل : سار فيها ومشى ، { لِيُفْسِدَ فِيهَا } ، قال ابن جريج : قطع الرحم وسفك دماء المسلمين ، { وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ } ، وذلك أن الأخنس كان بينه وبين ثقيف خصومة فبيتهم ليلة فأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم ، والنسل : نسل كل دابة ، والناس منهم ، وقال الضحاك : وَإِذَا تَوَلَّى ، أي : ملك الأمر وصار واليًا سعَى في الأرض ، قال مجاهد في قوله عزَّ وجلّ : (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ) قال : إذا ولي يعمل بالعدوان والظلم ، فأمسك اللّه المطر وأهلك الحرث والنسل ، { وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ } ، أي : لا يرضى بالفساد .

[206] قوله : { وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ } ، أي : خَف اللّه ، { أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ } ، أي : حملته العزة ، حمية الجاهلية على الفعل بالإثم ، أي : بالظلم والعزة والتكبر والمنعة ، وقيل معناه : أخذته العزة للإثم الذي في قلبه ، فأقام الباء مقام اللام ، قوله : { فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ } ، أي كافيه ، { وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ } ، أي : الفراش ، قال عبد اللّه بن مسعود : إن من أكبر الذنب عند اللّه أن يقال للعبد : اتق اللّه فيقول : عليك بنفسك .
[207] قوله تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ } ، أي : لطلب رضا اللّه تعالى ، { وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ }

[208] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً } نزلت هذه الآية في مؤمني أهل الكتاب ، عبد اللّه بن سلام النضيري وأصحابه ، وذلك أنهم كانوا يعظّمون السبت ويكرهون لحوم الإبل وألبانها بعد ما أسلموا وقالوا : يا رسول اللّه إن التوراة كتاب اللّه فدعنا فَلْنَقُمْ بها في صلاتنا بالليل ، فأنزل اللّه تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً } ، أي : في الإسلام ، قال مجاهد : في أحكام أهل الإسلام وأعمالهم كافة أي : جميعًا ، وقيل : ادخلوا في الإسلام إلى منتهى شرائعه كافّين عن المجاوزة إلى غيره ، وأصل السلم من الاستلام والانقياد ، ولذلك قيل : للصلح سلم ، قال حذيفة بن اليمان في هذه الآية : الإسلام ثمانية أسهم فعدّ الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقال : قد خاب من لا سهم له ، { وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ } ، أي : آثاره فيما زيّن لكم من تحريم السبت ولحوم الإبل وغيره ، { إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ }

[209] { فَإِنْ زَلَلْتُمْ } ، ضللتم ، وقيل : مِلتم ، يقال : زلت قدمه تزل زلًا وزَلَلًا إذا دحضت ، قال ابن عباس : يعني الشرك ، قال قتادة : قد علم اللّه أنه سيزل زالّون من الناس ، فتقدم في ذلك وأوعد فيه ليكون لديه الحجة عليهم ، { مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ } ، أي : الدّلَالاتِ الواضحات ، { فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ } : في نقمته ، { حَكِيمٌ } : في أمره ، فالعزيز : هو الغالب الذي لا يفوته شيء ، والحكيم ذُو الإصابة في الأمر .

[210] قوله تعالى : { هَلْ يَنْظُرُونَ } ، أي : هل ينتظرون ، التاركون الدخولَ في السلم والمتّبِعون خطوات الشيطان ، يقال نظرته وانتظرته بمعنى واحد ، فإذا كان النظر مقرونًا بذكر اللّه أو بذكر الوجه أو إلى ، لم يكن إلا بمعنى الرؤية ، { إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ } ، جمع ظُلة ، { مِنَ الْغَمَامِ } ، وهو السحاب الأبيض الرقيق سُمي غمامًا لأنه يغم ، أي يستر ، وقال مجاهد : هو غير السحاب ، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم ، وقال مقاتل : كهيئة الضبابة أبيض ، قال الحسن : في سترة من الغمام ، فلا ينظر إليهم أهل الأرض ، قوله : { وَالْمَلَائِكَةُ } قرأ أبو جعفر بالخفض عطفًا على الغمام ، تقديره مع الملائكة ، تقول العرب : أقبل الأمير في العسكر ، أي : مع العسكر ، وقرأ الباقون الرفع على معنى إلا أن يأتيهم اللّه والملائكة في ظُلل من الغمام ، والأولى في هذه الآية وفيما شاكلها أن يؤمن الإنسان بظاهرها ويكل علمها إلى اللّه تعالى ، أو يعتقد أن اللّه عزّ اسمه منزه عن سمات الحدث ، على ذلك مضت أئمة السلف وعلماء السنة ، قال الكلبي : هذا من المكتوم الذي لا يُفسر ، وكان مكحول والزهري والأوزاعي

ومالك وابن المبارك وسفيان الثوري والليث بن سعد وأحمد وإسحاق ، يقولون فيه وفي أمثاله : أمرها كما جاءت بلا كيف ، قال سفيان بن عُيينة : كلما وصف الله به نفسَه في كتابه فتفسيره : قراءتُه والسكوتُ عليه ، ليس لأحد أن يفسره إلا اللّه تعالى ورسوله . وقوله تعالى : { وَقُضِيَ الْأَمْرُ } ، أي : وجب العذاب وفُرغ من الحساب ، وذلك فصل الله القضاء بالحق بين الخلق يوم القيامة ، { وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } ، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم ، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الجيم .

[211] قوله تعالى : { سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ } ، أي : سل يا محمد يهود المدينة : { كَمْ آتَيْنَاهُمْ } : أعطينا آباءهم وأسلافهم ، { مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ } دَلَالةٍ واضحة على نبوة موسى عليه السلام ، مثل العصا واليد البيضاء وفلق البحر وغيرها ، وقيل : معناه الدلالات التي آتاهم اللّه في التوراة والإنجيل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، { وَمَنْ يُبَدِّلْ } ، يعني : يُغير { نِعْمَةَ اللَّهِ } : كتاب اللّه ، وقيل : عهد اللّه ، وقيل : من يُنكر الدّلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، { مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ }{ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }

[212] { زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } ، الأكثرون على أن المُزَين هو اللّه تعالى ، والتزيين من اللّه تعالى هو : أنه خلق الأشياء الحسنة والمناظر العجيبة ، فنظر الخلق بأكثر من قدرها فأعجبهم حسنها فَفُتنوا بها ، وقال الزجاج : زين لهم الشيطان ، قيل : نزلت هذه الآية في مشركي العرب أبي جهل وأصحابه ، كانوا يتنعمون بما بسط اللّه لهم في الدنيا من المال ويكذّبون بالمعاد ، { وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا } ، أي : يستهزؤون بالفقراء من المؤمنين ، قال ابن عباس : أراد بالذين آمنوا عبد اللّه بن مسعود وعمار بن يا سر وصهيبًا وبلالًا وخبابًا وأمثالهم ، وقال مقاتل : نزلت في المنافقين عبد اللّه بن أبي وأصحابه كانوا يتنعمون في الدنيا ويسخرون من ضعفاء المؤمنين وفقراء المهاجرين ، ويقولون : انظروا إلى هؤلاء الذي يزعم محمد أنه يغلب بهم ، وقال عطاء : نزلت في رؤساء اليهود من بني قريظة والنضير وبني قينقاع ، سخروا من فقراء المهاجرين ، فوعدهم اللّه أن يعطيهم أموال بني قريظة والنضير بغير قتال ، ويسخرون من الذين آمنوا لفقرهم ، { وَالَّذِينَ اتَّقَوْا } ، يعني : هؤلاء الفقراء ، {

فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } لأنهم في أعلى عليين وهم في أسفل السافلين { وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } ، يعني : كثيرًا بغير مقدار ، لأن كل ما دخل عليه الحساب فهو قليل ، يريد يوسع على من يشاء ويبسط لمن يشاء من عباده ، وقال الضحاك : يعني : من غير تبعة يرزقه في الدنيا ولا يحاسبه في الآخرة ، وقيل : هذا يرجع إلى اللّه ، معناه : يقتّر على من يشاء ويبسط لمن يشاء ، ولا يعطي لكل أحد بقدر حاجته بل يعطي الكثير مَنْ لا يحتاج إليه ولا يُعطي القليل مَنْ يحتاج إليه ، فلا يُعتَرض عليه ولا يُحاسَب فيما يرزق ، ولا يُقال : لِمَ أعطيت هذا وحرمت هذا ، ولمَ أعطيت هذا أكثر مما أعطيت ذاك ، وقيل : معناه لا يخاف نَفَاذَ خزائنه ، فيحتاج إلى حساب ما يخرج منها لأن الحساب من المعطي إنما يكون بما يخاف من نفاذ خزائنه .

[213] قوله تعالى : { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً } : على دين واحد ، قال مجاهد : أراد آدم وحده كان أمة واحدة ، قال : سُمي الواحد بلفظ الجمع ، لأنه أصل النسل وأبو البشر ، ثم خلق اللّه تعالى منه حواء ونشر منهما الناس فانتشروا ، وكانوا مسلمين إلى أن قتل هابيل فاختلفوا ، { فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ } قال الحسن وعطاء : كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح أمة واحدة على ملة الكفر أمثال البهائم فبعث اللّه نوحًا وغيره من النبيين ، وقال قتادة وعكرمة : كان الناس من وقت آدم إلى مبعث نوح ، وكان بينهما عشرة قرون ، كلهم على شريعة واحدة من الحق والهدى ، ثم اختلفوا في زمن نوح ، فبعث اللّه إليهم نوحًا فكان أول نبي بُعث ، ثم بَعث بعده النبيين ، وقال الكلبي : هم أهل سفينة نوح كانوا مؤمنين ، ثم اختلفوا بعد وفاة نوح ، ورُوي عن ابن عباس قال : كان الناس على عهد إبراهيم عليه السلام أمة واحدة كفارًا كلهم فبعث اللّه إبراهيم وغيره من النبيين ، وقيل : كان العرب على دين إبراهيم إلى أن غيره عمرو بن لحي لعنة اللّه عليه ، ورُوي عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال : كان الناس حين عُرضوا على آدم وأخرجوا من

ظهره ، وأقروا بالعبودية للّه تعالى أمةً واحدة مسلمين كلهم ، ولم يكونوا أمةً واحدة قط غير ذلك اليوم ، ثم اختلفوا بعد آدم ، نظيره في سورة يونس [آية 19] ، { وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ }{ مُبَشِّرِينَ } : بالثواب من آمن وأطاع ، { وَمُنْذِرِينَ } ، محذرين بالعقاب من كفر وعصى ، { وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ } ، أي : الكتب ، تقديره : وأنزل مع كل واحد منهم الكتاب ، { بِالْحَقِّ } : بالعدل والصدق ، { لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ } ، قرأ أبو جعفر (ليحكم) بضم الياء وفتح الكاف هاهنا ، وفي أول آل عمران وفي النور موضعين ، لأن الكتاب لا يحكم في الحقيقة إنما يُحكم به ، وقراءة العامة بفتح الياء وضم الكاف ، أي : ليحكم الكتاب ، ذكره على سعة الكلام ، كقوله تعالى : { هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ } [الجاثية : 29] ، وقيل معناه ليحكم كل نبي بكتابه ، { فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ } ، أي : في الكتاب { إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ } ، أي : أعطوا الكتاب ، { مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ } ، يعني : أحكام

التوراة والإنجيل ، قال الفراء : ولاختلافهم معنيان : أحدهما كفر بعضهم بكتاب بعض ، قال اللّه تعالى : { وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ } [النساء : 150] ، والآخر : تحريفهم كتاب اللّه قال اللّه : { يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ } [النساء : 46] وقيل : الآية راجعة إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - وكتابه ، اختلف فيه أهل الكتاب { مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ } ، صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - في كتبهم ، { بَغْيًا } ظلمًا وحسدًا { بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ

الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ } ، أي : إلى ما اختلفوا فيه ، { مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ } ، بعلمه وإرادته فيهم ، قال ابن زيد في هذه الآية : اختلفوا في القبلة فمنهم من يصلي إلى المشرق ومنهم من يصلي إلى المغرب ، ومنهم من يصلي إلى بيت المقدس ، فهدانا اللّه إلى الكعبة ، واختلفوا في الصيام فهدانا اللّه لشهر رمضان ، واختلفوا في الأيام ، فأخذت اليهود السبت ، والنصارى الأحد ، فهدانا اللّه للجمعة ، واختلفوا في إبراهيم عليه السلام ، فقالت اليهود : كان يهوديًّا ، وقالت النصارى : كان نصرانيًّا ،

فهدانا اللّه للحق من ذلك ، واختلفوا في عيسى فجعلته اليهود الفِرية ، وجعلته النصارى إلهًا ، وهدانا اللّه للحق فيه ، { وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

[214] قوله تعالى : { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ } ، قال قتادة والسدي : نزلت هذه الآية في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد وشدة الخوف والبرد وضيق العيش وأنواع الأذى ، كما قال اللّه تعالى : { وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ } [الأحزاب : 10] ، وقيل : نزلت في حرب أُحد ، وقال عطاء : لما دخل رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه المدينة ، اشتد عليهم الضر لأنهم خرجوا بلا مالٍ وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين ، وآثروا رضا اللّه ورسوله ، وأظهرت اليهود العداوة لرسول اللّه - صلى الله عليه وسلم - وأسرّ قوم النفاق ، فأنزل اللّه تعالى تطييبًا لقلوبهم (أم حَسِبتُم) ، معناه أحسبتم والميم صلة قاله الفراء ، وقال الزجاج : بل حسبتم ، ومعنى الآية : أظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة ، { وَلَمَّا يَأْتِكُمْ } ، أي : ولم يأتكم و(ما) صلة { مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا } ، شبه الذين مضوا ، { مِنْ قَبْلِكُمْ } : من النبيين والمؤمنين ، { مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ } : الفقر والشدة والبلاء ، { وَالضَّرَّاءُ } : المرض والزَّمَانة ، { وَزُلْزِلُوا } ، أي : حُركوا بأنواع

البلايا والرزايا وخُوّفوا ، { حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ } ، ما زال البلاء بهم حتى استبطأوا النصر ، قال اللّه تعالى : { أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } ، قرأ نافع (حتى يَقُولَ الرَّسُولُ) بالرفع ، معناه : حتى قال الرسول .
[215] قوله تعالى : { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ }« نزلت في عمرو بن الجموح وكان شيخًا كبيرًا ذا مال فقال : يا رسول اللّه بماذا نتصدق وعلى من ننفق؟ فأنزل اللّه تعالى : { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ }» ، وفي قوله : (مَاذَا) وجهان من الإعراب ، أحدهما : أن يكون محله نصبًا بقوله : (يُنفِقُونَ) ، تقديره أي شيء ينفقون ، والآخر : أن يكون رفعًا بـ (مَا) ومعناه : ما الذي ينفقون { قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ } ، أي : من مال ، { فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ } ، يُجازيكم به قال أهل التفسير : كان هذا قبل فرض الزكاة فنسخت بالزكاة .

[216] قوله تعالى : { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ } ، أي : فُرض عليكم الجهاد ، واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال عطاء : الجهادُ تطوع ، والمراد من الآية أصحاب رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم - دون غيرهم ، وإليه ذهب الثوري ، واحتج من ذهب إلى هذا بقوله تعالى : { فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى } [النساء : 95] ولو كان القاعد تاركًا فرضًا لم يكن بعده الحُسنى ، وجرى بعضهم على ظاهر الآية وقال : الجهاد فرض على كافة المسلمين إلى قيام الساعة وقال

قوم وعليه الجمهور : إن الجهاد فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، مثل صلاة الجنازة ورَدِّ السلام ، قال الزهري والأوزاعي : كتب اللّه الجهاد على الناس غَزُوا أو قعدوا ، فمن غزا فبها ونعمت ، ومن قعد فهو عدّة إن استُعين به أعان وإن استُنفر نَفَر وإن استُغني عنه قَعَد ، قوله تعالى : { وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ } ، أي : شاق عليكم ، قال بعض أهل المعاني : هذا الكره من حيث نفورُ الطبع عنه ، لما فيه من مؤنة المال ومشقة النفس وخطر الروح ، لا أنهم كرهوا أمر

اللّه تعالى ، وقال عكرمة : نسخها قوله تعالى : { سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } ، يعني : أنهم كرهوا ثم أحبوه ، فقالوا : سمعنا وأطعنا ، قال اللّه تعالى : { وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } ، لأنّ في الغزو إحدي الحُسنيين إمّا الظفر والغنيمة وإمّا الشهادة والجنة ، { وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا } ، يعني : القعود عن الغزو ، { وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ } : لما فيه من فوات الغنيمة والأجر ، { وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }

[217] قوله تعالى : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ } ؟ يعني : رجبًا ، وسُمي بذلك لتحريم القتال فيه ، قوله تعالى : { قِتَالٍ فِيهِ } ، أي : عن قتال فيه { قُلْ } ، يا محمد : { قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ } : عظيم ، تمّ الكلام هاهنا ثم ابتدأ فقال : { وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ، وصدكم المسلمين عن الإسلام { وَكُفْرٌ بِهِ } ، أي : كفركم بالله ، { وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } ، أي : بالمسجد الحرام ، وقيل : صدكم عن المسجد الحرام ، { وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ } ، أي : إخراج أهل المسجد { مِنْهُ أَكْبَرُ } : أعظم وزرًا { عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ } ، أي : الشرك الذي أنتم عليه ، { أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ } ، أي : أعظم من القتل في الشهر الحرام { وَلَا يَزَالُونَ } ، يعني : مشركي مكة { يُقَاتِلُونَكُمْ } ، يا معشر المؤمنين ، { حَتَّى يَرُدُّوكُمْ } : يصرفوكم ، { عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ } : بطلت { أَعْمَالُهُمْ } : حسناتهم { فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ } .

[218] { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا } ، فارقوا عشائرهم ومنازلهم وأموالهم { وَجَاهَدُوا } ، المشركين { فِي سَبِيلِ اللَّهِ } طاعة الله { أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ } ، أخبر أنهم على رجاء الرحمة { وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }

[219] قوله تعالى : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ } ، الآية نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار أتوا إلى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول اللّه أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مذهبة للعقل مَسْلبة للمال ، فأنزل اللّه هذه الآية ، وجملة القول في تحريم الخمر على ما قاله المفسرون : إن اللّه أنزل في الخمر أربع آيات نزلت بمكة وهي : { وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا } فكان المسلمون يشربونها وهي حلال يومئذ ، ثم نزلت هذه الآية في مسألة عمر ومعاذ بن جبل { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ } فتركها قوم لقوله { إِثْمٌ كَبِيرٌ } ، وشربها أقوام لقوله : { وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ } ثم أنزل اللّه تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ } [النساء : 43] ، فحرّم السكر في أوقات الصلاة ، فلما نزلت هذه الآية تركها

قوم وقالوا : لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة ، وتركها قوم في أوقات الصلاة وشربوها في غير

حين الصلاةَ فقال عمر : اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فأنزل اللّه تعالى تحريم الخمر في سورة المائدة إلى قوله تعالى : { فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ } ، فقال عمر رضي الله عنه : انتهينا يا رب . قوله تعالى : (والمَيسِر) ، يعني : القمار والمراد من الآية أنواع القمار كلها ، قال طاوس وعطاء ومجاهد : كل شيء فيه قمار فهو من الميسر ، حتى لُعب الصبيان بالجَوز والكعاب ، ورُوِي عن علي - رضي الله عنه - في النرد والشطرنج أنهما من الميسر ، (قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ) : وزر عظيم من المخاصمة والمشاتمة وقول الفُحش (ومَنَافع للنّاس) ، فمنفعة الخمر اللذة عند شربها والفرح واسْتمرَاء الطعام ، وما يصيبون من الربح بالتجارة فيها ، ومنفعة الميسر إصابة المال من غير كَدّ ولا تعب ، وارتفاق الفقراء به ، والإثم فيه أنه إذا ذهب ماله عن غير عوض ساءه ذلك فعادى صاحبه فقصده بالسوء ، { وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا } ، قال الضحاك وغيره : إثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبل التحريم ، هو ما يحصل به من العداوة والبغضاء . قوله تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ } ؟ وذلك أن رسول اللّه -

صلى الله عليه وسلم - حثّهم على الصدقة ، فقالوا : ماذا نُنفق؟ فقال : { قُلِ الْعَفْوَ } ، قرأ أبو عمرو والحسن وقتادة وابن أبي إسحاق (العَفو) بالرفع ، معناه أي : الذي ينفقون هو العفو ، وقرأ الآخرون بالنصب على معنى : قل : أنفقوا العفو, واختلفوا في معنى العفو ، فقال قتادة وعطاء والسدي : هو ما فَضُلَ عن الحاجة ، وكانت الصحابة يكتسبون المال ويمسكون قدر النفقة ويتصدقون بالفَضْل بحكم هذه الآية ، ثم نُسخ بآية الزكاة ، وقال مجاهد : معناه التصدق عن ظهر غنى حتى لا يبقى كَلًّا على الناس ، وقال عمرو بن دينار : الوسط من غير إسراف ولا إقتار وقال طاوس : ما يَسُرَ ، والعفو اليُسر من كل شيء { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ }

[220] { فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ } ، قيل : معناه يبين اللّه لكم الآيات في أمر النفقة لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة ، فتحسبون من أموالكم ما يُصلحكم في معاش الدنيا ، وتنفقون الباقي فيما ينفعكم في العُقبَى ، وقال أكثر المفسرين معناها : هكذا يُبين اللّه لكم الآيات في أمر الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون ، وقيل : معناه يُبيّن اللّه لكم الآيات في أمر النفقة لعلكم تتفكرون في زوال الدنيا وفنائها فتزهدوا فيها ، وفي إقبال الآخرة وبقائها فترغبوا فيها . قوله تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ } ، أي : الإصلاح لأموالهم من غير أجرة ولا أخذ عِوض خير وأعظم أجرًا لمالكم في ذلك من الثواب ، وخير لهم لما في ذلك من توفر أموالهم عليهم ، قال مجاهد : يُوسع عليه من طعام نفسه ولا يوسع من طعام اليتيم ، { وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ } ، هذه إباحة المخالطة ، أي : إن تشاركوهم في أموالهم ، وتخلطوا بأموالهم في نفقاتكم ومساكنكم وخدمكم ودَوَابكم ، فتُصيبوا من أموالهم عوضًا عن قيامكم بأمورهم أو تكافئوهم على ما تصيبون من أموالهم ، { فَإِخْوَانُكُمْ } ، أي : فهم إخوانكم ، والإخوان يُعين

بعضهم بعضا ويُصيب بعضهم من أموال بعض على وجه الإصلاح والرضا ، { وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ } : لأموالهم { مِنَ الْمُصْلِحِ } : لها ، يعني : الذي يقصد بالمخالطة الخيانة وإفساد مال اليتيم وأكله بغير حق من الذي يقصد الإصلاح {

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ } ، أي : لضيق عليكم وما أباح لكم مخالطتهم ، وقال ابن عباس : ولو شاء اللّه لجعل ما أصبتم من أموال اليتامى موبقًا لكم ، وأصل العنت : الشدة والمشقة ، ومعناه : كلفكم في كل شيء ما يشق عليكم ، { إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ } ، أي : عزيز في سُلطانه وقدرته على الإعنات { حَكِيمٌ } فيما صنع من تدبيره وترك الإعنات .

[221] قوله تعالى : { وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ } قيل : الآية منسوخة في حق الكتابيات ، لقوله تعالى : { وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ } [المائدة : 5] ، وبخبر رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم - وبإجماع الأمة ، روى الحسن عن جابر بن عبد اللّه - رضي اللّه عنهما - قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : « نتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا » فإن قيل : كيف أطلقتم اسم الشرك على من لم ينكر إلا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال أبو الحسن بن فارس : لأن من يقول القرآن كلام غير اللّه فقد أشرك مع اللّه غيره ، وقال قتادة وسعيد بن جبير : أراد بالمشركات الوثنيات ، فإن عثمان تزوج نائلة بنت فَرَافِصَةَ وكانت نصرانية فأسلمت تحته ، وتزوج طلحة بن عبد اللّه نصرانية { وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ } : بجمالها ومالها ، { وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا } ، هذا إجماع لا يجوز للمسلمة أن تنكح المشرك ، { وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ } ، يعني المشركين {

يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ } ، أي : إلى الأعمال الموجبة للنار ، { وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ } ، أي : بقضائه وقدره وإراداته ، { وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ } ، أي : أوامره ونواهيه ، { لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } : يتعظون .

[222] قوله تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ } ، أي : عن الحيض ، وهو مصدر حاضت المرأة تحيض حيضًا ومحيضا ، كالسير والمسير ، وأصل الحيض الانفجار والسيلان ، وقوله : { قُلْ هُوَ أَذًى } ، أي : قذر ، والأذى كل ما يُكره من كل شيء ، { فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ } أراد بالاعتزال ترك الوطء ، { وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ } ، أي : لا تجامعوهنّ ، أما الملامسة والمضاجعة معها فجائزة { حَتَّى يَطْهُرْنَ } ، قرأ عاصم برواية أبي بكر وحمزة والكسائي بتشديد الطاء والهاء ، حتى يغتسلن ، وقرأ الآخرون بسكون الطاء وضم الهاء مخفف ، ومعناه : حتى يطهرن من الحيض وينقطع دمهن ، { فَإِذَا تَطَهَّرْنَ } ، يعني : اغتسلن { فَأْتُوهُنَّ } ، أي : فجامعوهن ، { مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ } ، أي : من حيث أمركم أن تعتزلوهن منه وهو الفرج ، قال مجاهد وقتادة وعكرمة وقال ابن عباس : طؤوهنّ في الفرج ولا تعدوه إلى غيره ، أي : اتقوا الأدبار ، وقيل : من حيث بمعنى في حيث أمركم اللّه تعالى وهو الفرج ، وقيل : فأتوهن من الوجه الذي أمركم اللّه أن تأتوهن وهو الطهر ، وقال ابن الحنفية مِنْ قَبَل الحلال دون الفجور ، وقيل :

لا تأتوهن صائمات ولا معتكفات ولا محرمات وأتوهن وغشيانهن لكم حلال { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } ، قال عطاء ومقاتل بن سليمان والكلبي : يحب التوابين من الذنوب ويحب المتطهرين بالماء من الأحداث والنجاسات ، وقال مقاتل بن حيان : يحب التوابين من الذنوب والمتطهرين من الشرك ، وقال سعيد بن جبير : التوابين من الشرك والمتطهرين من الذنوب ، وقال مجاهد : التوابين من الذنوب لا يعودون فيها والمتطهرين منها لم يصيبوها

، والتواب الذي كلما أذنب تاب ، نظيره قوله تعالى : { فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا } .

[223] قوله تعالى : { نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ } مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، و (أنى) حرف استفهام يكون سؤالًا عن الحال والمحل ، معناه : كيف شئتم وحيث شئتم بعد أن يكون في صمام واحد ، وقال عكرمة أنى شئتم : إنما هو الفرج ، ومثله لكم أي : مزرع لكم ومنبت الولد بمنزلة الأرض التي تزرع ، وفيه دليل على تحريم الأدبار ، لأن محل الحرث والزرع هو القُبل لا الدبر { وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ } ، قال عطاء : التسمية عند الجماع ، قال مجاهد : وقدموا لأنفسكم ، يعني : إذا أتى أهله فليدْع وقيل : قدّموا لأنفسكم ، يعني : طلب الولد وقيل : هو التزوج بالعفائف ليكون الولد صالحًا وقال الكلبي والسدي : وقدّموا لأنفسكم ، يعني : الخير والعمل الصالح بدليل سياق الآية { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ } : صائرون إليه فيجزيكم بأعمالكم ، { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ }

[224] قوله تعالى : { وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ } ، أي : لا تجعلوا الحلف باللّه سببًا مانعًا لكم من البرِّ والتقوى ، يُدعى أحدكم إلى صلة رحم أو برٍ ، فيقول : حلفتُ باللّه أن لا أفعله فيعتل بيمينه في ترك البر ، { أَنْ تَبَرُّوا } ، معناه : أنْ لا تبروا ، كقوله تعالى : { يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا } أي : لئلا تضلوا ، { وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }

[225] قوله تعالى : { لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ } اللغو كل ساقطٍ مُطّرَح من الكلام لا يُعتد به ، وأختلف أهل العلم في لغو اليمين المذكورة في الآية ، فقال قوم : هو ما يسبق إلى اللسان على عجلة لصلة الكلام من غير عقدٍ وقصد ، كقول القائل لا واللّه وبلى واللّه وكلّا واللّه ، ويُروى عن عائشة أيمان اللغو : ما كانت في الهزل والمراءِ والخُصومة ، والحديث الذي لا يعقد عليه القلب ، وقال قوم : هو أن يحلف عن شيء يرى أنه صادق فيه ، ثم يتبيّن له خلاف ذلك ، وقال عليّ : الغضب ، وقال سعيد بن جبير : هو اليمين في المعصية لا يؤاخذه اللّه بالحنث فيها ، وقال زيد بن أسلم : هو دعاء الرجل على نفسه ، كقول الإنسان : أعمى اللّه بصري أن أفعل كذا ، فهذا كله لغو لا يؤاخذه اللّه به ، ولو آخذهم به لعجّل لهم العقوبة { وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ } ، أي عزمتم وقصدتم إلى اليمين ، وكسب القلب : العقد والنيّة ، { وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ } ، واعلم أن اليمين لا تنعقد إلا باللّه أو باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته فاليمين باللّه أن يقول : والذي أعبده والذي أصلي له والذي نفسي

بيده ، ونحو ذلك ، واليمين بأسمائه كقوله : واللّه والرحمن ونحوه ، واليمين بصفاته كقوله : وعزة اللّه وعظمة اللّه وجلال اللّه وقدرة اللّه ونحوهما ، فإذا حلف بشيء منها على أمر في المستقبل ، فحنثَ يجب عليه الكفارة ، وإذا حلف على أمر ماضٍ أنه كان ولم يكن ، أو على أنه لم يكن وقد كان ، إنْ كان عالمًا به حالة ما حلفَ فهو اليمين الغموس وهو من الكبائر وإن كان جاهلًا فهو يمين اللغو عندهم .

[226] قوله تعالى : { لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ } أي : يحلفون ، والآلية : اليمين ، والمراد من الآية اليمين على ترك وطءِ المرأة قال

سعيد بن المسيب : كان ذلك من ضرار أهل الجاهلية ، وكان الرجل لا يحب امرأته ولا يريد أن يتزوج بها غيره ، فيحلف أن لا يقربها أبدًا فيتركها لا أيّمًا ولا ذات بعل ، وكانوا عليه في ابتداء الإسلام ، فضرب اللّه له أجلًا في الإسلام قوله تعالى : { تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ } ؛ أي : انتظار أربعة أشهر ، والتربص : التثبت والتوقف ، { فَإِنْ فَاءُوا } : رجعوا عن اليمين بالوطء ، { فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } ، وإذا وطئ في الفرج عن الإيلاء ، وتجب عليه كفارة اليمين عند أكثر أهل العلم ، وقال الحسن وإبراهيم النخعي وقتادة : لا كفارة عليه لأن اللّه تعالى وعد بالمغفرة ، فقال : { فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } ، وذلك عند الأكثرين في سقوط العقوبة لا في الكفارة .

[227] { وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ } ، أي : حققوه بالإيقاع ، { فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } : لقولهم ، عَلِيمٌ : بنياتهم ، وفيه دليل على أنها لا تطلق بعد مضي المدة ما لم يطلقها زوجها ، لأنّه شرطَ فيه العزم ، وقال : { فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } ، فدل على أنه يقضي مسموعًا ، والقول هو الذي يسمع .

[228] قوله تعالى : { وَالْمُطَلَّقَاتُ } ، أي : المخليات من حبال أزواجهن ، { يَتَرَبَّصْنَ } : ينتظرن { بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ } ، فلا يتزوجن ، والقروء : جمع قَرء مثل قرع ، وجمعه القليل : أقرؤ ، والجمع الكثير : أقراء ، واختلف أهل العلم في القَرء فذهب جماعة إلى أنها الحيض ، وهو قول عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس ، وبه قال الحسن ومجاهد ، وإليه ذهب الأوزاعي والثوري وأصحاب الرأي ، واحتجوا بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال للمستحاضة : « دعي الصلاة أيام أقرائك » ، وإنما تدع المرأة الصلاة أيام حيضها ، وذهب جماعة إلى أنّها الأطهار ، وهو قول زيد بن ثابت وعبد اللّه بن عمر وعائشة ، وهو قول الفقهاء السبعة والزهري ، وبه قال ربيعة ومالك والشافعي ، واحتجوا بأن ابن عمر - رضي اللّه عنه - لمّا طلق امرأته وهي حائض قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لعمر : « مُرْهُ فليراجعها حتى تطهر ، ثم إن شاء أمسك وان شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة التي أمر اللّه أن يُطلق لها النساء » (1) فأخبر أن زمان العدة هو الطهر { وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ } ، قال عكرمة :

---

(1) رواه البخاري في الطلاق 9 / 345 ومسلم في الطلاق رقم (1471) 2 / 1093والمصنف في شرح السنة 9 / 202 .

يعني الحيض وهو أن يريد الرجل مراجعتها ، فتقول قد حضت الثلاثة ، وقال ابن عباس وقتادة : يعني الحمل ، ومعنى الآية : لا يحل للمرأة كتمان ما خلق اللّه في رحمها من الحيض والحمل لتبطل حق الزوج من الرجعة والولد . { إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } ، معناه : أن هذا من فعل المؤمنات ، وإن كانت المؤمنة والكافرة في هذا الحكم سواء ، كما تقول : أدِّ حقي إن كنتَ مؤمنًا ، يعني : أداء الحقوق من فعل المؤمنين { وَبُعُولَتُهُنَّ } ، يعني : أزواجهن جمع بعل ، كالفحولة جمع فحل ، سُمى الزوج بعلًا لقيامه بأمور زوجته ، وأصل البعل السيد والمالك { أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ } : أولى برجعتهن إليهم ، { فِي ذَلِكَ } ، أي : في حال العدة ، { إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا } ، أي : إن أرادوا بالرجعة الصلاح وحُسن العشرة لا الإضرار ، كما كانوا يفعلونه في الجاهلية كالرجل يطلق امرأته ، فإذا قرب انقضاء عدتها راجعها ، ثم تركها مدة ثم طلقها ، فإذا قَرُب انقضاء عدتها

راجعها ، ثم بعد مدة طلقها يقصد بذلك تطويل العدة عليها ، { وَلَهُنَّ } ، أي : للنساء على الأزواج { مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ } للأزواج {

بِالْمَعْرُوفِ } ، قال ابن عباس في معناه : إني أحب أن أتزين لامرأتي كما تحب امرأتي أن تتزين لي ، لأن اللّه تعالى قال : (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ) { وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ } ، قال ابن عباس : لما ساق إليها من المهر وأنفق عليها من المال وقال قتادة : بالجهاد ، وقيل : بالعقل ، وقيل : بالشهادة ، وقيل : بالميراث ، وقيل : بالدية ، وقيل : بالطلاق ، لأن الطلاق بيد الرجال ، وقيل : بالرجعة ، وقال سفيان وزيد بن أسلم : بالإمارة ، وقال القتيبي : (وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) معناه : فضيلة في الحق ، { وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }

[229] قوله تعالى : { الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ } ، روي عن عروة بن الزبير قال : كان الناس في الابتداء يطلقون من غير حصر ولا عدد ، وكان الرجل يطلق امرأته ، فإذا قاربت انقضاء عدتها راجعها ، ثم طلقها كذلك ثم راجعها ، بقصد مضارتها ، فنزلت هذه الآية : { الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ } , يعني : الطلاق الذي يملك الرجعة عقيبة مرتان ، فإذا طلق ثلاثًا فلا تحل له إلا بعد نكاح زوج آخر ، قوله تعالى : { فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ } ، قيل : أراد بالإمساك الرجعة بعد الثانية ، والصحيح أن المراد منه بعد الرجعة ، يعني : إذا راجعها بعد الطلقة الثانية فعليه أن يمسكها بالمعروف ، والمعروف كل ما يعرف في الشرع من أداءِ حقوق النكاح وحُسن الصحبة ، { أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ } ، وهو أن يتركها بعد الطلاق حتى تنقضي عدتها { وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا } : أعطيتموهنّ شيئًا من المهور وغيرها ، ثم استثنى الخلع ، فقال : { إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ } : نزلت في جميلة بنت عبد اللّه بن أبي أوفى ، ويقال في حبيبة بنت سهل ، كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس ، وكانت تبغضه وهو

يُحبّها أتت رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم - فشكت إليه زوجها وقالت . يا رسول اللّه لا أنا ولا هو ، فأرسل رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم - إلى ثابت بن قيس ، قال ثابت : يا رسول اللّه قد أعطيتها حديقة فقل لها تردها عليّ وأخلي سبيلها ، فقال لها : تردين عليه حديقته وتملكين أمرك ، قالت : نعم ، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : « يا ثابتُ خُذْ منها ما أعطيتها ، وخلّ سبيلَها » ففعل (1) قوله تعالى : (إِلَّا أَنْ يَخَافَا) ، أي : يعلما أن لا يقيما حدود اللّه ، قرأ أبو جعفر وحمزة ويعقوب (إِلَّا أن يخَافَا) بضم الياء ، أي : يعلم ذلك منهما ، يعني : يعلم القاضي والوالي ذلك من الزوجين ، بدليل قوله تعالى : { فَإِنْ خِفْتُمْ } ، فجعل الخوف لغير الزوجين ، ولم يقل : فإن خافا ، وقرأ الآخرون (يَخَافَا) بفتح الياء ، أي : يعلم الزوجان من أنفسهما أنْ لا يُقيما حدود اللّه ، تخاف المرأة أن تعصي اللّه في أمر زوجها ، ويخاف الزوج إذا لم تطعه امرأته أن يعتدي عليها فنهى اللّه الرجلَ أن يأخذ من امرأته شيئًا مما آتاها إلا يكون النشوز من قبلها ، فقالت : لا أطيع لك أمرًا ولا أطأ لك مضجعا ونحو ذلك ، قال اللّه تعالى

____
(1) رواه مختصرًا أبو داود في الطلاق 3 / 143 ، والنسائي في الطلاق 6 / 186 وابن جرير في التفسير 4 / 554 .

: { فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ } ، أي : فيما افتدتْ به المرأة نفسها منه ، قال الفراء : أراد بقوله : (عَلَيْهِمَا) الزوج دون

المرأة ، فذكرهما جميعًا لاقترانهما ، كقوله تعالى : { نَسِيَا حُوتَهُمَا } وإنما الناسي فتى موسى دون موسى ، وقيل : أراد أنه لا جناح عليهما جميعًا ، لا جناح على المرأة في النشوز إذا خشيت الهلاك والمعصية ، ولا فيما افتدت به وأعطت به المال لأنها ممنوعة من إتلاف المال بغير حق ، وعلى الزوج فيما أخذ منها من المال إذا أعطته طائعة ، وذهب أكثر أهل العلم إلى أن الخلع جائز على أكثر مما أعطاها ، وقال الزهري : لا يجوز بأكثر ممّا أعطاها من المهر ، وقال سعيد بن المسيب : لا يأخذ منها جميع ما أعطاها بل يترك شيئًا ، ويجوز الخلع على غير حال النشوز ، غير أنه يُكره لما فيه من قَطع الوصلة بلا سبب .
قوله تعالى : { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ } ، أي : هذه أوامر اللّه ونواهيه ، وحدود اللّه ما منع الشرع من المجاوزة عنه ، { فَلَا تَعْتَدُوهَا } ، فلا تجاوزوها ، { وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

}
[230] قوله تعالى : { فَإِنْ طَلَّقَهَا } ، يعني : الطلقة الثالثة ، { فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ } ، أي : من بعد الطلقة الثالثة ، { حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ } ، أي : غير المطلق فيجامعها ، والنكاح يتناول الوطء والعقد جميعًا قوله تعالى : { فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا } ، يعني : فإن طلقها الزوج الثاني بعدما جامعها فلا جُناح عليهما ، يعني : على المرأة وعلى الزوج الأول أن يتراجعا ، يعني : بنكاح جديد { إِنْ ظَنَّا } ، أي : عَلِما ، وقيل : رجوا ، لأن أحدًا لا يعلم ما هو كائن إلا اللّه عزّ وجلّ ، { أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ } ، أي : يكون بينهما الصلاح وحُسن الصحبة ، وقال مجاهد : معناه إن علما أن نكاحهما على غير دلسة ، وأراد بالدلسة : التحليل ، وذهب جماعة إلى أنه إذا لم يُشترط في النكاح مع الثاني أنه يفارقها ، فالنكاح صحيح ويحصل به التحليل ، ولها صداق مثلها غير أنه يكره إذا كان في عزمها ذلك { وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } ، يعني يعلمون ما أمرهم اللّه تعالى به .

[231] قوله تعالى : { وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ } ، أي : أشرفْنَ على أن تبين بانقضاء العدة ، ولم يرد حقيقة انقضاء العدة لأن العدة إذا انقضت لم يكن للزوج إمساكها ، فالبلوغ هاهنا بلوغ مقاربة ، وفي قوله تعالى بعد هذا : { فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ } ، حقيقة انقضاء العدة والبلوغ يتناول المعنيين ، يقال : بلغت المدينة إذا قربت منها إذا دخلتها ، { فَأَمْسِكُوهُنَّ } ، أي : راجعوهن ، { بِمَعْرُوفٍ } قيل : المراجعة بالمعروف أن يشهد على رجعتها وأن يراجعها بالقول لا بالوطء ، { أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ } ، أي : اتركوهن حتى تنقضي عِدَّتهنَّ فيكن أملك لأنفسهن ، { وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا } ، أي : لا تقصدوا بالرجعة المضارة بتطويل الحبس ، { وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ } ، أي : أضر بنفسه بمخالفة أمر اللّه تعالى ، { وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا } قال الكلبي : يعني قوله تعالى . { فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ } ، وكل من خالف أمر الشرع فهو متخذ آيات اللّه هزوًا ، وقال أبو الدرداء : هو

أن الرجل كان يطلق امرأته ثم يقول كنتُ لَاعبًا ، ويعتق ويقول مثل ذلك ، وينكح ويقول مثل ذلك { وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } : بالإيمان { وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ } ، يعني : القرآن ، { وَالْحِكْمَةِ } ، يعني : السنة ، وقيل : مواعظ القرآن { يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }

[232] { وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ } ، أي : انقضت عدتهن { فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ } ، أي : لا تمنعوهن عن النكاح ، والعضل : المنع ، وأصله الضيق والشدة ، يقال : عضلت المرأة : إذا نشب ولدها في بطنها فضاق عليه الخروج ، والداء العضال الذي لا يُطاق علاجه { إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ } ، بعقد حلال ومهر جائز ، { ذَلِكَ } ، أي : الذي ذُكر من النهي { يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } ، وإنما قال ذلك موحدًا والخطاب للأولياء ، لأن الأصل في مخاطبة الجمع ذلكم { ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ } ، أي : خير لكم ، { وَأَطْهَرُ } : لقلوبكم من الريبة وذلك أنه كان في نفس كل واحد منهما علاقة حيث لم يؤمن أن يتجاوز ذلك إلى غير ما أحل اللّه لهما ، ولم يؤمن من الأولياء أن يسبق إلى قلوبهم منهما ما لعلهما أن يكونا بريئين من ذلك فيأثمون ، { وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } ، أي : يعلم من حب كل واحد منهما لصاحبه ما لا تعلمون أنتم .

[233] قوله تعالى : { وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ } ، أي : المطلقات اللاتي لهن أولاد من أزواجهن (يُرْضِعْنَ) خبر بمعنى الأمر وهو أمر استحباب لا أمر إيجاب ، لأنه لا يجب عليهن الإرضاع إذا كان يوجد من يرضع الولد ، لقوله تعالى في سورة الطلاق : { فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ } فإن رغبت الأم في الإرضاع فهي أولى من غيرها ، { حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ } ، أي : سنتين ، وذكر الكمال للتأكيد ، كقوله تعالى : { تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ } وقيل . إنما قال كاملين لأن العرب قد تسمي بعض الحول حولًا وبعض الشهر شهرًا ، كما قال اللّه تعالى : { الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ } ، وإنّما هي شهران وبعض الثالث ، وقال : { فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ } ، وإنما يتعجل في يوم وبعض يوم ويقال أقام فلان بموضع كذا حولين ، وإنما أقام به حولًا وبعض آخر ، فبين اللّه تعالى أنهما حولان كاملان أربعة وعشرون شهرًا ، { لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ } ، أي هذا منتهى الرضاعة ، وليس فيها دون ذلك حدّ محدود ، وإنما هو على مقدار صلاح الصبي وما يعيش به . { وَعَلَى

الْمَوْلُودِ لَهُ } ، يعني : الأب ، { رِزْقُهُنَّ } : طعامهن ، { وَكِسْوَتُهُنَّ } : لباسهن ، { بِالْمَعْرُوفِ } أي : على قدر الميسرة ، { لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا } ، أي : طاقتها ، { لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا } فينزع الولد منها إلى غيرها بعد أن رضيت بإرضاعه ، { وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ } ، أي : لا تلقيه المرأة إلى أبيه بعدما ألفها تُضاره بذلك ، وقيل : معناه لا تضار والدة فتكره على إرضاعه إذا كرهت إرضاعه ، وقَبِلَ الصبي من غيرها ، لأن ذلك ليس بواجب عليها ، ولا مولود له بولده ، فيحتمل أن يعطي الأم أكثر مما يجب لها إذا لم يرتضع الولد من غيرها وعلى هذه الأقوال يرجع الضرار إلى الوالدين ، يضار كل واحد منهما صاحبه بسبب الولد ، ويجوز أن يكون الضرار راجعًا إلى الصبي ، أي : لا يضار كل واحد منهما الصبي ، ولا تُرضعه الأم حتى يموت ، أو لا يُنفق الأبُ ، أو ينتزعه من الأم حتى يضرّ بالصبي ، فعلى هذا تكون الباء زائدة ، ومعناه : لا تضار والدة ولدَها ، ولا أبّ ولدَه ، وكل هذه الأقاويل مروية عن المفسرين .

قوله تعالى : { وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ } ، اختلفوا في هذا الوارث ، فقال قوم : هو وارث الصبي ، معناه : وعلى وارث الصبي الذي لو مات الصبي وله مال ورثه مثل الذي كان على أبيه في حال حياته وذهب جماعة إلى أن المراد بالوارث هو الصبي نفسه الذي هو وارث أبيه المتوفى ، يكون أجرة رضاعه ونفقته في ماله ، فإن لم يكن له مال فعلى الأم ، ولا يجبر على نفقة الصبي إلا

الوالدان ، وهو قول مالك والشافعي رحمهما الله ، وقيل : هو الباقي من والدي المولود, بعد وفاة الآخر عليه, مثل ما كان على الأب من أجرة الرضاع والنفقة والكسوة, وقيل : ليس المراد منه النفقة بل معناه وعلى الوارث ترك المضارة, وبه قال الشعبي والزهري , { فَإِنْ أَرَادَا } , يعني : الوالدين, { فِصَالًا } : فطاما قبل الحولين { عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا } , أي : اتفاق الوالدين, { وَتَشَاوُرٍ } ,أي : يشاورون أهل العلم به حتى يخبروا أن الفطام في ذلك الوقت لا يضر بالوالد, والمشاورة استخراج الرأي, { فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا } , أي : لا حرج عليهما في الفطام قبل الحولين, { وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ } , أي : لأولادكم مراضع غير

أمهاتهم إذا أبت أمهاتهم إرضاعهم, أو تعذر لعلة بهن أو انقطاع لبن أردن النكاح, { فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ } , إلى أمهاتهم, { مَا آتَيْتُمْ } , ما سميتم لهن من أجرة الرضاع ، بقدر ما أرضعن ، وقيل : إذا سلمتم أجور المراضع إليهن ، { بِالْمَعْرُوفِ } ، قرأ ابن كثير (ما أتيتم) وفي الروم { وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا } بقصر الألف ، ومعناه : ما فعلتم ، يقال : أتيت جميلا إذا فعلته ، فعلى هذه القراءة يكون التسليم بمعنى الطاعة والانقياد ، لا بمعنى تسليم الأجرة ، يعني إذا سلمتم لأمره وانقدتم لحكمه، وقيل : إذا سلمتم للاسترضاع عن تراض واتفاق دون الضرار ، { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }

[234] قوله تعالى : { وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ } ، أي : يموتون ويتوفى آجالهم ، وتوفى واستوفى بمعنى واحد ، ومعنى التوفي : أخذ الشيء وافيا ، { وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا } : يتركون أزواجا ، { يَتَرَبَّصْنَ } : ينتظرن ، { بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا } ، أي : يعتدون بترك الزينة والطيب والنقلة على فراق أزواجهن هذه المدة ، إلا أن يكن حوامل فعدتهن بوضع الحمل ، وكانت عدة الوفاة في الابتداء حولا كاملا لقوله تعالى : { وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ } ، ثم نسخت بأربعة أشهر وعشرا وإنما قال عشرا بلفظ المؤنث لأنه أراد الليالي ، لأن العرب إذا أبهمت العدد بين الليالي والأيام غلّبت عليها الليالي ، فيقولون صمنا عشرا ، والصوم لا يكون إلا بالنهار ، وقال المبرد : إنما أنث العشر لأنه أراد المدة ، أي : عشر مدد ، كل مدة يوم وليلة ، وإذا كان المتوفى عنها زوجها حاملا فعدتها بوضع الحمل عند أكثر أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم ، وروي عن علي وابن عباس رضي الله عنهم . أنها تنتظر آخر الأجلين من وضع

الحمل أو أربعة أشهر وعشرا . قوله تعالى : { فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ } ، أي : انقضت عدتهن { فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ } ، خطاب للأولياء ، { فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ } ، أي : من اختيار الأزواج دون العقد فإن العقد إلى الولي، وقيل : فيما فعلن من التزين للرجال زينة لا ينكرها الشرع { بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } ، والإحداد واجب على المرأة في عدة الوفاة ، أما المعتدة عن الطلاق ففيها نظر ، فإن كانت رجعية لا إحداد عليها في العدة ، لأن لها أن تضع ما يشوق قلب الزوج إليها ليراجعها ، وفي البائنة بالخلع والطلقات الثلاث قولان ، أحدهما : الإحداد كالمتوفى عنها زوجها ، وهو قول سعيد بن المسيب ، وبه قال أبو حنيفة ، والثاني : لا إحداد عليها ، وهو قول عطاء ، وبه قال مالك .

[235] قوله تعالى : { وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ } ، أي : النساء المعتدات ، وأصل التعريض : هو التلويح بالشيء ، والتعويض في

الكلام بما يفهم به السامع مراده من غير تصريح والتعريض بالخطبة مباح في العدة, وهو أن يقول : رب راغب فيك ، من يجد مثلك ، إنك لجميلة ، وإنك لصالحة ، وإنك علي لكريمة ، وإني فيك لراغب ، وإن من غرضي أن أتزوج ، وإن جمع الله بيني وبينك بالحلال أعجبني ، ولئن تزوجتك لأحسنن إليك ، ونحو ذلك من الكلام من غير أن يقول أنكحيني ، والمرأة تجيبه بمثله إن رغبت فيه والتعريض بالخطبة جائز في عدة الوفاة ، آما المعتدة عن فرقة الحياة ينظر إن كانت ممن لا يحل لمن بانت من نكاحها كالمطلقة ثلاثا ، والمبانة باللعان والرضاع ، فإنه يجوز خطبتها تعريضا ، وإن كانت ممن يحل للزوج نكاحها كالمختلعة والمفسوخ نكاحها ، يجوز لزوجها خطبتها تعريضا وتصريحا ، وهل يجوز للغير تعريضا؟ فيه قولان ، أحدهما : يجوز كالمطلقة ثلاثا ، والثاني لا يجوز لأن المعاودة ثابتة لصاحب العدة كالرجعية لا يجوز للغير تعريضا بالخطبة ، وهو قوله تعالى : (مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ) التماس

النكاح وهي مصدر خطب الرجل المرأة يخطب خطبة ، وقال الأخفش : الخطبة الذكر والخطبة التشهد ، فيكون معناه فيما عرضتم به من ذكر النساء عندهن { أَوْ أَكْنَنْتُمْ } : أضمرتم ، { فِي أَنْفُسِكُمْ } ، من نكاحهن ، يقال : أكننت الشيء وكننته لغتان ، وقال ثعلب : أكننت الشيء ، أي : أخفيته في نفسي وكننتُه سترتُه ، قال السدي : هو أن يدخل فيسلم ويهدي إن شاء ولا يتكلم بشيء ، { عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ } : بقلوبكم ، { وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا } ، اختلفوا في السر المنهي عنه ، فقال قوم : هو الزنا ، قال زيد بن أسلم : أي : لا ينكحها سرًّا فيمسكها فإذا حلّتْ أظهر ذلك ، وقال مجاهد : هو قول الرجل لا تفوتيني بنفسك فإني ناكحك ، وقال الشعبي والسدي : لا يؤخذ ميثاقها أن لا تنكح غيره ، وقال عكرمة : لا ينكحها ولا يخطبها في العدة ، قال الشافعي : السر هو الجماع ، وقال الكلبي : أي لا تصفوا أنفسكم لهن بكثرة الجماع ، فيقول : آتيك الأربعة والخمسة ، وأشباه ذلك قوله تعالى : { إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا } ، هو ما ذكرنا من التعريض بالخطبة . قوله تعالى : { وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ

النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ } ، أي : لا تحققوا العزم على عقد النكاح في العدة حتى يبلغ الكتاب أجله ، أي : حتى تنقضي العدة ، وسماها الله : كتابا ، لأنها فرض من الله ، كقوله تعالى : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ) أي : فرض عليكم { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ } ، أي : فخافوا الله { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ } لا يعجل بالعقوبة .

[236] وقوله تعالى : { لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً } ، أي : ولم تمسوهن ولم تفرضوا ، نزلت في رجل من الأنصار تزوج امرأة من بني حنيفة ولم يسم لها مهرا ، ثم طلقها قبل أن يمسَّها ، فنزلت هذه الآية (أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً) أي : توجبوا لهن صداقا ، فإن قيل : فما الوجه في نفي الجناح عن المطلق؟ قيل : الطلاق قطع سبب الوصلة ، وجاء في الحديث : « أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق » ، فنفي الجناح عنه إذا كان الفراق أروح من الإمساك ، وقيل : معناه لا سبيل للنساء عليكم إن طلقتموهن من قبل المسيس ، والفرض بصداق ولا نفقة ، وقيل : لا جناح عليكم في تطليقهن قبل المسيس في أي وقت شئتم حائضا كانت المرأة أو طاهرا لأنه لا سنة ولا بدعة في طلاقهن قبل الدخول بها ، بخلاف المدخول بها ، فإنه لا يجوز تطليقها في حال الحيض ، { وَمَتِّعُوهُنَّ } ، أي : أعطوهن من

مالكم ما يتمتعن به ، والمتعة والمتاع : ما يُتبلَّغ به من الزاد ، { عَلَى الْمُوسِعِ } ، أي : على الغني ، { قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ } ، أي : الفقير ، { قَدَرُهُ } ، أي :

إمكانه وطاقته (متاعا) نُصب على المصدر ، أي : متعوهن ، { مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ } ، أي : بما أمركم الله به من غير ظلم ، { حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ } .

[237] وقوله تعالى : { وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ } ، هذا في المطلقة بعد الفرض قبل المسيس ، فلها نصف المفروض وإن مات أحدهما قبل المسيس فلها كمال المهر المفروض ، والمراد بالمس المذكور في الآية : الجماع وقوله تعالى : (وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً) أي : سميتم لهن مهرا فنصف ما فرضتم ، أي : لها نصف المهر المسمّى ، { إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ } ، يعني : النساء ، أي : إلا أن تترك المرأة نصيبها فيعود جميع الصداق إلى الزوج ، قوله تعالى : { أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ } ، اختلفوا فيه فذهب بعضهم : إلى أن الذي بيده عقدة النكاح هو الولي ، معناه : أن لا تعفو المرأة بترك نصيبها الزوج إن كانت ثيبا من أهل العفو أو يعفو وليها ، فيترك نصيبها إن كانت المرأة بكرا ، أو غير جائزة العفو فيجوز عفو وليها ، وذهب بعضهم إلى أنه إنما يجوز عفو الولي إذا كانت المرأة بكرا ، فإن كانت ثيبا فلا يجوز عفو وليها ، وقال بعضهم : الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج وقالوا : لا يجوز لوليها ترك الشيء من الصداق بكرا

كانت أو ثيبا كما لا يجوز له ذلك قبل الطلاق بالاتفاق ، كما لا يجوز له أن يهب شيئا من مالها ، وقالوا : معنى الآية أن لا تعفو المرأة بترك نصيبها فيعود جميع الصداق إلى الزوج ، أو يعفو الزوج بترك نصيبه فيكون لها جميع الصداق ، فعلى هذا التأويل وجه الآية : الذي بيده عقدة النكاح نكاح نفسه في كل حال قبل الطلاق أو بعده ، { وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى } ، أي : والعفو أقرب للتقوى أي : إلى التقوى ، والخطاب للرجال والنساء جميعا ، لأن المذكر والمؤنث إذا اجتمعا ، كانت الغلبة للمذكر ، معناه ، وعفو بعضكم عن بعض أقرب للتقوى { وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ } ، أي : إفضال بعضكم على بعض بإعطاء الرجل تمام الصداق أو ترك المرأة نصيبها ، حثهما جميعا على الإحسان ، { إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }

[238] قوله تعالى : { حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى } ، أي : واظبوا وداوموا على الصلوات المكتوبات بمواقيتها وحدودها ، وإتمام أركانها ، ثم خص من بينها الصلاة الوسطى بالمحافظة عليها دلالة على فضلها ، ووسطى تأنيث الأوسط ، ووسط الشيء : خيره وأعدله ، واختلف العلماء من الصحابة ومن بعدهم في الصلاة الوسطى فقال قوم : هي صلاة الفجر وذهب قوم إلى أنها صلاة الظهر وذهب الأكثرون إلى أنها صلاة العصر ، رواه جماعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال قبيصة بن ذؤيب : هي صلاة المغرب لأنها وسط ليس بأقلها ولا أكثرها ، وقال بعضهم : إنها صلاة العشاء ، وقال بعضهم : هي إحدى الصلوات الخمس لا بعينها أبهمها الله تعالى تحريضا للعباد على المحافظة على أداء جميعها ، كما أخفى ليلة القدر في شهر رمضان وساعة إجابة الدعوة في يوم الجمعة ، وأخفى الاسم الأعظم في الأسماء ليحافظوا على جميعها . قوله تعالى : { وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } ، أي : مطيعين ، والقنوت : الطاعة ، وقيل : القنوت السكوت عما لا يجوز التكلم به في الصلاة

وقال مجاهد : خاشعين ، وقال : من القنوت طول الركوع ، وغض البصر ، والركود وخفض

الجناح وقيل : المراد من القنوت طول القيام وقيل : قانتين أي : داعين وقيل : معناه مصليين .
[239] قوله تعالى : { فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا } ، معناه : إن لم يمكنكم أن تصلوا قانتين موفين للصلاة حقها لخوف ، فصلوا مشاة على أرجلكم أو ركبانا على ظهور دوابكم ، وهذا في حال المقاتلة والمسايفة يصلي حيث كان وجهه ، راجلا أو راكبا مستقبل القبلة ، وغير مستقبلها ، ويومئ بالركوع والسجود ، ويجعل السجود أخفض من الركوع ، وكذلك إذا قصده سَبُع أو غشيه سيل يخاف منه على نفسه فعدا أمامه مصليا بالإيماء يجوز ، والصلاة في حال الخوف على أقسام ، فهذه أحد أقسام شدة صلاة الخوف { فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ } ، أي : فصلوا الصلوات الخمس تامة بحقوقها ، { كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } .

[240] قوله تعالى : { وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ } : يا معشر الرجال ، { وَيَذَرُونَ } ، أي : يتركون { أَزْوَاجًا } ، أي : زوجات ، { وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ } ، قرأ أهل البصرة وَصِيَّةً بالنصب على معنى : فليوصوا وصية ، وقرأ الباقون بالرفع ، أي : كتب عليكم الوصية { مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ } ، متاعا نصب على المصدر ، أي : متعوهن متاعا ، وقيل : جعل الله ذلك لهن متاعا ، والمتاع : نفقة سنة لطعامها وكسوتها وسكنها وما تحتاج إليه ، { غَيْرَ إِخْرَاجٍ } ، نصب على الحال وقيل : بنزع حرف على الصفة ، أي : من غير إخراج وكانت عدة الوفاة في ابتداء الإسلام حولا كاملا وكان يحرم على الوارث إخراجها من البيت قبل تمام الحول ، وكانت نفقتها وسكنها واجبة في مال زوجها تلك السنة ما لم تخرج ، لم يكن لها الميراث ، فإن خرجت من بيت زوجها سقطت نفقتها ، وكان على الرجل أن يوصي بها ، فكان كذلك حتى نزلت آية الميراث ، فنسخ الله تعالى نفقة الحول بالربع والثمن ، ونسخ عدة الحول بأربعة أشهر وعشرا . قوله تعالى : { فَإِنْ خَرَجْنَ } ، يعني : من قبل أنفسهن قبل الحول من غير إخراج الورثة ، { فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ } يا

أولياء الميت ، { فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ } ، يعني : التزين للنكاح ، ولرفع الجناح عن الرجال وجهان ، أحدهما : لا جناح عليكم في قطع النفقة عنهن إذا خرجن قبل انقضاء الحول والآخر : لا جناح عليكم في ترك منعهن من الخروج ، لأن مقامها في بيت زوجها حولا غير واجب عليها ، خيّرها الله تعالى بين أن تقيم حولا ولها النفقة والسكنى ، وبين أن تخرج فلا نفقة ولا سكنى ، إلى أن نسخه بأربعة أشهر وعشرا ، { وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } .

[241] { وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ } ، إنما أعاد ذكر المتعة هاهنا لزيادة معنى وذلك أن في غيرها بيان حكم غير الممسوسة ، وفي هذه الآية بيان حكم جميع المطلقات في المتعة ، وقيل : إنه لما نزل قوله تعالى : { وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ } إلى قوله : { حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ } قال رجل من المسلمين : إن أحسنت فعلت وإن لم أر ذلك لم أفعل ، فقال الله تعالى : (وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ) ، جعل المتعة لهن بلام التمليك ، وقال : (حقا على المتقين) يعني : المؤمنين المتقين الشرك .
[242] { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }

[243] قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ } (ألم تر) أي : ألم تعلم بإعلامي إياك ، وهو من رؤية القلب ، وقال أهل المعاني : هو تعجيب يقول : هل رأيت مثلهم كما تقول ألم تر إلى ما يصنع فلان { وَهُمْ أُلُوفٌ } ، جمع ألف ، وقيل : مؤتلفة قلوبهم جمع آلف ، مثل قاعد وقعود ، والصحيح : أن المراد منه العدد ، { حَذَرَ الْمَوْتِ } ، أي : خوف الموت ، { فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا } ، أمر تحويل ، كقوله تعالى : { كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } ، { ثُمَّ أَحْيَاهُمْ } ، بعد موتهم { إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ } ، قيل هو على العموم في حق الكافة ، وقيل على الخصوص في حق المؤمنين ، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } ، أما الكفار فلم يشكروا ، وأما المؤمنون فلم يبلغوا غاية الشكر .

[244] { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ، أي : في طاعة الله أعداء الله { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } ، قال أكثر أهل التفسير : هذا خطاب للذين أحيوا ، أمروا بالقتال في سبيل الله فخرجوا من ديارهم فرارا من الجهاد فأماتهم الله ثم أحياهم وأمرهم أن يجاهدوا ، وقيل : الخطاب لهذه الأمة أمرهم بالجهاد .

[245] قوله تعالى : { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا } ، القرض : اسم لكل ما يعطيه الإنسان ليجازَى عليه ، فسمّى الله تعالى عمل المؤمنين له على رجاء ما عد لهم من الثواب قرضا ، لأنهم يعملونه لطلب ثوابه ، قال الكسائي : القرض ما أسلفت من عمل صالح أو سيئ ، وأصل القرض في اللغة : القطع ، سمي به القرض لأنه يقطع به من ماله شيئا يعطيه ليرجع إليه مثله ، وقيل في الآية اختصار مجازه : من ذا الذي يقرض عباد الله والمحتاجين من خلقه وقوله عز وجل : (يقرض الله) أي : ينفق في طاعة الله قرضا حسنا ، قال الحسين بن علي الواقدي ، يعني : محتسبا طيبة به نفسه . قال ابن المبارك : من مال حلال ، وقال لا يمن به ولا يؤذي { فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً } قال السدي : هذا التضعيف لا يعلمه إلا الله - عز وجل - وقيل سبعمائة ضعف ، { وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ } قيل : يقبض بإمساك الرزق والنفس والتقتير ، ويبسط بالتوسيع وقيل : يقبض بقبول التوبة والصدقة ، ويبسط بالخلف والثواب ، وقيل : هو الإحياء والإماتة فمن أماته فقد قبضه ومن مد له في عمره فقد بسط له ، وقيل هذا في القلوب لما أمرهم الله تعالى

بالصدقة أخبر أنهم لا يمكنهم ذلك إلا بتوفيقه ، قال يقبض بعض القلوب فلا ينشط بالخير ويبسط بعضها فيقدم لنفسه خيرا { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } ، أي : إلى الله تعودون فيجزيكم بأعمالكم ، وقال قتادة ، الهاء راجعة إلى التراب كناية من غير مذكور أي : من التراب خلقهم واليه يعودون .

[246] قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ } ، والملأ من القوم : وجوههم وأشرافهم ، وأصل الملأ : الجماعة من الناس ، ولا واحد له من لفظه ، كالقوم والرهط والإبل والخيل والجيش ، وجمعه أملاء ، { مِنْ بَعْدِ مُوسَى } ، أي : من بعد موت موسى ، { إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ } ، واختلفوا في ذلك النبي ، فقال قتادة : هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليه السلام ، وقال السدي : اسمه شمعون ، وقال سائر المفسرين هو أشمويل وهو بالعبرانية إسماعيل ، قال وهب بن منبه : بعث الله تعالى أشمويل نبيا فلبثوا أربعين سنة بأحسن حال ، ثم كان من آمر جالوت والعمالقة ما كان ، فقالوا لأشمويل : { ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ، جزم على جواب الأمر ، فلما قالوا له ذلك ، { قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ } ، استفهام شك ، يقول : لعلكم { إِنْ كُتِبَ } :

فُرض { عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ } ، من ذلك الملك ، { أَلَّا تُقَاتِلُوا } ، أن لا تفوا بما تقولون ولا تقاتلوا معه ، { قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ، قال الكسائي : معناه وما لنا في أن لا تقاتل ؛ فحذف في ،

وقال الفراء : أي : وما يمنعنا أن لا نقاتل في سبيل الله ، وقال الأخفش : أن هاهنا زائدة معناه : وما لنا لا نقاتل في سبيل الله ، { وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا } ، أي : أخرج من غلب عليهم من ديارهم ظاهر الكلام العموم وباطنه الخصوص ، لأن الذين قالوا لنبيهم : ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله كانوا في ديارهم وأوطانهم ، وإنما أخرج من أسر منهم ، ومعنى الآية : أنهم قالوا مجيبين لنبيهم : إنما كنا نزهد في الجهاد إذ كنا ممنوعين في بلادنا لا يظهر علينا عدونا ، فأما إذا بلغ ذلك منا فنطيع ربنا في الجهاد ، ونمنع نساءنا وأولادنا ، قال الله تعالى : { فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا } : أعرضوا عن الجهاد وضيعوا أمر الله ، { إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ } ، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت واقتصروا على الغرفة ، على ما سيأتي إن شاء الله تعالى ، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ }

[247] { وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا } ، وذلك أن أشمويل سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكا فكان كذلك ، ثم قال لبني إسرائيل : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، { قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا } ، أي : من أين يكون له الملك علينا؟ { وَنَحْنُ أَحَقُّ } : أولى { بِالْمُلْكِ مِنْهُ } ؟ إنما قالوا ذلك لأنه كان في بني إسرائيل سبطان ، سبط النبوة وسبط المملكة ولم يكن طالوت من أحدهما ، إنما كان من سبط بنيامين بن يعقوب فلما قال لهم نبيهم ذلك ، أنكروا عليه لأنه لم يكن من سبط المملكة ، ومع ذلك قالوا : هو فقير ، { وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ } : اختاره { عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً } : فضيلة وسعة { فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ } ، وذلك أنه كان أعلم بني إسرائيل في وقته ، وقيل : إنه أتاه الوحي حين أوتي الملك ، وقال الكلبي : (وَزَادَهُ بَسْطَةً) فضيلة وسعة في العلم بالحرب ، وفي الجسم بالطول ، وقيل : الجسم بالجمال ، وكان طالوت أجمل رجل في بني إسرائيل وأعلمهم ، { وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ

وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } ، قيل : الواسع ذو السعة وهو الذي يعطي عن غنى ، والعليم العالم ، وقيل : العالم بما كان ، والعليم بما يكون ، فقالوا له : فما آية ملكه فقال لهم نبيهم : إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت .

[248] فذلك قوله تعالى : { وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ } ، وكانت قصة التابوت أن الله تعالى أنزل تابوتا على آدم فيه صورة الأنبياء عليهم السلام فكان عند آدم إلى أن مات ثم تداولته أنبياء بني إسرائيل ، وكان فيه ما ذكر الله تعالى : { فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ } ، اختلفوا في السكينة ما هي؟ فقيل هي ريح خجوج هفافة وقيل : شيء يشبه الهرة له رأس كرأس الهرة فكانوا إذا سمعوا صوته تيقنوا بالنصرة وقيل : هي طشت من ذهب من الجنة وقيل : هي روح من الله يتكلم إذا اختلفوا في شيء يخبرهم ببيان ما يريدون وقيل : هي ما يعرفون من الآيات فيسكنون إليها ، وقيل : طمأنينة من ربكم ، ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا ، { وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ } ، يعني : موسى وهارون نفسهما ، كان فيه لوحان من التوراة ورضاض الألواح التي تكسرت ، وكان فيه عصا موسى ونعلاه ، وعمامة هارون وعصاه ، وقفير من المنّ الذي كان ينزل على بني إسرائيل ، فكان

التابوت عند بني إسرائيل وكانوا إذا اختلفوا في شيء تكلم وحكم بينهم ، وإذا حضروا القتال قدّموه بين أيديهم

فيستفتحون به على عدوهم ، فلما عصوا وأفسدوا سلّط الله عليهم العمالقة فغلبهم على التابوت ، { تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ } ، أي : تسوقه ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت ، وقال الحسن : كان التابوت مع الملائكة في السماء فلما ولي طالوت الملك حملته الملائكة ووضعته بينهم ، وقال قتادة : بل كان التابوت في التيه خلفه موسى فحملته الملائكة حتى وضعته في دار طالوت فأقروا بملكه ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً } : لعبرة ، { لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن التابوت وعصا موسى في بحيرة طبرية ، وإنهما يخرجان قبل يوم القيامة .

[249] قوله تعالى : { فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ } , أي : خرج بهم ، وأصل الفصل : القطع ، يعني قطع مستقره شاخصا إلى غيره ، فخرج طالوت من بيت المقدس بالجنود وهم يومئذ سبعون ألف مقاتل ، وقيل : ثمانون ألفا وكان في حر شديد فشكوا قلة الماء بينهم وبين عدوهم ، فقالوا : إن المياه قليلة لا تحملنا فادع الله أن يجري لنا نهرا ، { قَالَ } طالوت : { إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ } : مختبركم ليرى طاعتكم وهو أعلم ، (بِنَهَرٍ) قال ابن عباس والسدي : هو نهر فلسطين ، وقال قتادة : نهر بين الأردن وفلسطين عذب ، { فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي } ، أي : من أهل ديني وطاعتي ، { وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ } : لم يشربه { فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ } الغرفة بالضم الذي يحصل في الكف من الماء إذا غرف ، والغرفة بالفتح : الاغتراف ، فالضم اسم والفتح مصدر ، { فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ } لما وصلوا إلى النهر وقد ألقى الله عليهم العطش شرب منه الكل إلا القليل ، فمن اغترف غرفة كما أمر الله قوي قلبه وصح إيمانه ، وعبر النهر سالما وكفته تلك الغرفة الواحدة لشربه

وحمله ودوابه ، والذين شربوا وخالفوا أمر الله اسودت شفاههم وغلبهم العطش ، فلم يحضر القتال إلا الذين لم يشربوا ، { فَلَمَّا جَاوَزَهُ } ، يعني : النهر { هُوَ } ، يعني : طالوت ، { وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ } ، يعني : القليل ، { قَالُوا } ، يعني : الذين شربوا وخالفوا أمر الله وكانوا أهل شك ونفاق ، { لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ } , قال ابن عباس - رضي الله عنهما - والسدي : فانحرفوا ولم يجاوزوا ، { قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ } : يستيقنون { أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ } ، وهم الذين ثبتوا مع طالوت { كَمْ مِنْ فِئَةٍ } : جماعة ، وهي جمع لا واحد له من لفظه ، وجمعها فئات وفؤن ، في الرفع ، وفئين في الخفض والنصب ، { قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ } : بقضائه وقدره وإرادته ، { وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } : بالنصر والمعونة .

[250] { وَلَمَّا بَرَزُوا } ، يعني : طالوت وجنوده ، يعني : المؤمنين ، { لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ } المشركين ، ومعنى برزوا : صاروا بالبراز من الأرض وهو ما ظهر واستوى منها ، { قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا } : أنزل واصبب { صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا } : قو قلوبنا ، { وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }

[251] { فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ } ، أي : بعلم الله تعالى ، { وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ } قال الكلبي والضحاك : ملك داود بعد قتل طالوت سبع سنين ولم يجتمع بنو

إسرائيل على ملك واحد إلا على داود . فذلك قوله تعالى : { وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ } ، يعني : النبوة ، جمع الله لداود بين الملك والنبوة ، ولم يكن كذلك من قبل كان الملك في سبط والنبوة في سبط ، وقيل : الملك والحكمة هو : العلم مع العمل ، قوله تعالى : { وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ } ، قال الكلبي وغيره : يعني صنعة الدروع ، وكان يصنعها ويبيعها وكان لا يأكل إلا من عمل يده ، وقيل : منطق الطير وكلام الجعل والنمل والذر وما أشبهها مما لا صوت لها ، وقيل : هو الزبور ، وقيل : هو الصوت الطيب والألحان { وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ } ، قال ابن عباس ومجاهد : ولولا دفع الله الناس بجنود المسلمين لغلب المشركون على الأرض فقتلوا المؤمنين وخرّبوا المساجد والبلاد ، وقال سائر المفسرين : لولا دفع الله بالمؤمنين والأبرار عن الكفار والفجار لهلكت الأرض بمن فيها ولكن الله يدفع بالمؤمن عن الكافر ، وبالصالح عن الفاجر .

[252] { تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ }
[253] { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ } ، أي : كلمه الله تعالى ، يعني : موسى عليه السلام ، { وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ } ، يعني : محمدا صلى الله عليه وسلم ، { وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ } ، أي : من بعد الرسل ، { مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ } ، ثبت على إيمانه بفضل الله ، { وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ } ، بخذلانه ، { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا } ، أعاده تأكيدا ، { وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } ، يوفق من يشاء فضلا ويخذل من يشاء عدلا .

[254] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ } ، قال السدي : أراد به الزكاة المفروضة ، وقال غيره : أراد به صدقة التطوع والنفقة في الخير ، { مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ } ، أي : لا فداء فيه ، سمي بيعا لأن الفداء شراء نفسه ، { وَلَا خُلَّةٌ } ، ولا صداقة { وَلَا شَفَاعَةٌ } ، إلا بإذن الله { وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ } ، لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها .

[255] قوله عز وجل : { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } الباقي الدائم على الا بد وهو من له الحياة ، والحياة صفة الله تعالى القيوم قال مجاهد : القيوم القائم على كل شيء ، قال الكلبي : القائم على كل نفس ، وقيل : هو القائم بالأمور ، وقال أبو عبيدة : الذي لا يزول { لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ } ، السنة النعاس ، وهو النوم الخفيف ، الوسنان بين النائم واليقظان ، يقال منه وسن يسن وسنا وسنة ، والنوم هو : الثقل المزيل للقوة والعقل نفى الله تعالى عن نفسه النوم لأنه آفة وهو منزه عن الآفات ، ولأنه تُغير ولا يجوز عليه التغير { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } ، ملكا وخلقا ، { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } ، بأمره { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } ، قال مجاهد وعطاء والسدي : ما بين أيديهم من أمر الدنيا وما خلفهم من أمر الآخرة ، وقال الكلبي : ما بين أيديهم ، يعني : الآخرة لأنهم يقدمون عليها ، وما خلفهم من الدنيا لأنهم يخلّفونها وراء ظهورهم ، وقال ابن جريج : ما بين أيديهم : ما مضى أمامهم ، وما خلفهم : ما يكون بعدهم ،

وقال مقاتل : ما بين أيديهم ما كان قبل الملائكة وما خلفهم ، أي : ما كان بعد خلقهم ، وقيل : ما بين أيديهم أي : ما قدموه من خير وشر ، وما خلفهم ما هم فاعلوه { وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ } ، أي : من علم الله { إِلَّا بِمَا شَاءَ } ،

أن يطلعهم عليه ، يعني : لا يحيطون بشيء من علم الغيب إلا بما شاء مما أخبر به الرسل ، كما قال الله تعالى : { فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا }{ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ } ، ومعنى قوله : { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } ، أي : سعته مثل سعة السماوات والأرض { وَلَا يَئُودُهُ } ، أي : لا يثقله ولا يشق عليه ، يقال : آدني الشيء أي أثقلني ، { حِفْظُهُمَا } , أي : حفظ السماوات والأرض ، { وَهُوَ الْعَلِيُّ } : الرفيع فوق خلقه ، والمتعالي عن الأشياء والأنداد ، وقيل : العلي بالملك والسلطنة ، { الْعَظِيمُ } : الكبير الذي لا شيء أعظم منه .

[256] قوله تعالى : { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ } لما أجليت بنو النضير كان فيهم عدد من أولاد الأنصار فأرادت الأنصار استردادهم ، وقالوا : هم أبناؤنا وإخواننا ، فنزلت هذه الآية لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيروا أصحابكم فإن اختاروكم فهم منكم وان اختاروهم فأجلوهم معهم » (1) وقال مجاهد : كان ناس مسترضعين في اليهود من الأوس فلما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإجلاء بني النضير ، قال الذين كانوا مسترضعين فيهم : لنذهبن معهم ولندينن بدينهم ، فمنعهم أهلوهم ، فنزلت الآية { قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } ، أي : الإيمان من الكفر والحق من الباطل ، { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ } ، يعني بالشيطان ، وقيل : كل ما عبد من دون الله تعالى فهو طاغوت ، وقيل : ما يُطغي الإنسان فاعول ، من الطغيان زيدت التاء فيه بدلا من لام الفعل كقولهم : حانوت وتابوت ، فالتاء فيها مبدل من هاء التأنيث ، { وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } ، أي : تمسك واعتصم بالعقد الوثيق المحكم في الدين ، والوثقى : تأنيث الأوثق ، وقيل : العروة الوثقى السبب الذي يوصل

____
(1) أخرجه الطبري في التفسير 5 / 409 ، والبيهقي في السنن 9 / 186 .

إلى رضا الله تعالى ، { لَا انْفِصَامَ لَهَا } : لا انقطاع لها { وَاللَّهُ سَمِيعٌ } : لدعائك إياهم إلى الإسلام ، { عَلِيمٌ } : بحرصك على إيمانهم .
[257] قوله تعالى : { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا } : ناصرهم ومعينهم ، وقيل : محبهم ، وقيل : متولي أمورهم لا يكلهم إلى غيره ، وقال الحسن : ولي هدايتهم ، { يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } ، أي : من الكفر إلى الإيمان ، قال الواقدي : كل ما في القرآن من الظلمات والنور فالمراد منه : الكفر والإيمان غير التي في سورة الأنعام : { وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } فالمراد منه : الليل والنهار ، سُمي الكفر ظلمة لالتباس طريقه ، وسمي الإسلام نورا لوضوح طريقه ، { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ } ، قال مقاتل : يعني : كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وسائر رؤوس الضلالة ، { يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ } ، يدعونهم من النور إلى الظلمات ، والطاغوت يكون مذكرا ومؤنثا وواحدا وجمعا { أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

[258] قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ } ، معناه : هل انتهى إليك يا محمد خبر الذي حاج إبراهيم ، أي خاصم وجادل ، وهو نمرود ، وهو أول من وضع التاج على رأسه وتجبر في الأرض وادعى الربوبية؟ { أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ } ، أي : لأن آتاه الله الملك فطغى أي : كانت تلك المحاجة من بطر الملك وطغيانه واختلفوا في وقت هذه المناظرة ، قال مقاتل : لما كسر إبراهيم الأصنام سجنه نمرود ، ثم أخرجه ليحرقه بالنار ، فقال له : من ربك

الذي تدعونا إليه؟ فقال : (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) ، وقال آخرون : كان هذا بعد إلقائه في النار وذلك أن الناس قحطوا على عهد نمرود ، وكان الناس يمتارون من عنده الطعام ، فكان إذا أتاه الرجل في طلب الطعام سأله من ربك؟ فإن قال أنت باع منه الطعام ، فأتاه إبراهيم فيمن أتاه ، فقال له نمرود : من ربك؟ قال : (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) فاشتغل بالمحاجة ولم يعطه شيئا قال الله تعالى : { إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ }{ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ } ، وهذا جواب سؤال غير مذكور تقديره : قال له من ربك؟ قال إبراهيم : رَبِّيَ الَّذِي

يُحْيِي وَيُمِيتُ ، { قَالَ } نمرود { أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ } قال أكثر المفسرين : دعا نمرود برجلين فقتل أحدهما واستحيا الآخر فجعل القتل إماتة ، وترك القتل إحياء ، فانتقل إبراهيم إلى حجة أخرى ليعجزه ، فإن حجته كانت لازمة لأنه أراد بالإحياء إحياء الميت فكان له أن يقول فأحيي من أمت إن كنت صادقا ، فانتقل إلى حجة أخرى أوضح من الأولى { قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ } ، أي : تحير ودهش وانقطعت حجته { وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }

[259] قوله تعالى : { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ } ، وهذه الآية مسوقة على الآية الأولى ، تقديره : ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ، وهل رأيت كالذي مر على قرية؟ وقيل : تقديره : هل رأيت كالذي حاج إبراهيم في ربه ، وهل رأيت كالذي مر على قرية؟ واختلفوا في ذلك المار ، فقال قتادة وعكرمة والضحاك : هو عزير بن شرخيا ، وقال وهب بن منبه : هو أرميا بن حلقيا ، وكان من سبط هارون وهو الخضر ، وقال مجاهد : هو كافر شك في البعث ، واختلفوا في تلك القرية فقال وهب وعكرمة وقتادة : هي بيت المقدس ، وقال الضحاك : هي الأرض المقدسة وقيل : هي الأرض التي أهلك الله فيها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ، وقيل : هي قرية العنب وهي على فرسخين من بيت المقدس ، { وَهِيَ خَاوِيَةٌ } : ساقطة ، يقال : خوي البيت بكسر الواو يخوي ، خوى مقصورا إذا سقط وخوى البيت بالفتح خواء ممدودا إذا خلا ، { عَلَى عُرُوشِهَا } : سقوفها ، واحدها عرش ، وقيل : كل بناء عرش ، ومعناه أن السقوف سقطت ثم وقعت الحيطان عليها ، { قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا } , { فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ } ، أي :

أحياه ، { قَالَ كَمْ لَبِثْتَ } ، أي : كم مكثت؟ يقال : لما أحياه الله بعث إليه ملكا فسأله : كم لبثت { قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا } ، وذلك أن الله تعالى أماته ضحى في أول النهار وأحياه بعد مائة عام في آخر النهار قبل غيبوبة الشمس ، فقال كم لبثت ؟ قال : لبثت يوما وهو يرى أن الشمس قد غربت ، ثم التفت فرأى بقية من الشمس ، فقال : { أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } ، بل بعض يوم ، { قَالَ } له الملك : { بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ } ، يعني : التين ، { وَشَرَابِكَ } ، يعني العصير ، { لَمْ يَتَسَنَّهْ } ، أي : لم يتغير ، فكان التين كأنه قطف من ساعته ، والعصير كأنه عصر من ساعته ، قال الكسائي : كأنه لم تأت عليه السنون ، وإنما قال : (لَمْ يَتَسَنَّهْ) ولم يثنه مع أنه أخبر عن شيئين ردا للمتغير إلى أقرب اللفظين به ، وهو الشراب ، واكتفى بذكر أحد المذكورين ، لأنه في معنى الآخر ، { وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ } ، فنظر فإذا هو عظام بيض ، فركب الله تعالى العظام بعضها على بعض فكساه اللحم والجلد وأحياه وهو ينظر ، { وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ } معناه : ولنجعلك آية : عبرة ودلالة على البعث بعد

الموت ، قاله أكثر المفسرين ، وقال الضحاك وغيره : إنه عاد إلى قريته شابا وأولاده وأولاد أولاده شيوخ وعجائز ، وهو أسود الرأس واللحية ، قوله تعالى : { وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا } ، قرأ أهل الحجاز والبصرة : (ننشرها) بالراء ، معناه : نحييها ، يقال : أنشر الله الميت إنشارا وأنشره نشورا ، قال الله تعالى : { ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ } ، وقال في اللازم { وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } ، وقال الآخرون بالزاي ، أي نرفعها من الأرض ونركب بعضها على بعض ، وإنشاز الشيء : رفعه وإزعاجه قال : أنشزته فنشز ، أي : رفعته فارتفع ، واختلفوا في معنى الآية ، فقال الأكثرون : أراد به عظام حماره { ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا } ، ثم كسي العظام لحما فصار حمارا وقال قوم : أراد به عظام هذا الرجل ، ذلك أن الله تعالى لم يمت حماره بل أماته هو : فأحيا الله عينيه ، ورأسه وسائر جسده ميت ، ثم قال : انظر إلى حمارك فنظر فرأى حماره قائما واقفا كهيئة يوم ربطه حيا لم يطعم ولم يشرب مائة عام ، ونظر إلى الرمة في عنقه جديدة لم تتغير ، وتقدير الآية : وانظر إلى حمارك وانظر إلى عظامك كيف ننشزها { فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ }

ذلك عيانا ، { قَالَ أَعْلَمُ } ، قرأ حمزة والكسائي مجزوما موصولا على الأمر على معنى قال الله تعالى له : اعلم ، وقرأ الآخرون (أعلم) بقطع الألف ورفع الميم على الخبر عن عزيز أنه قال لما رأى ذلك : أعلم ، { أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

[260] قوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى } لأعاين فأزداد يقينا فعاتبه الله تعالى ، { قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى } يا رب علمت وآمنت ، { وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } ، أي : ليسكن قلبي إلى المعاينة والمشاهدة ، أراد أن يصير له علم اليقين عين اليقين ، لأن الخبر ليس كالمعاينة { قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ } ، قرأ أبو جعفر وحمزة (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) بكسر الصاد ، أي : قطعهن ومزقهن ، يقال : صار يصير صيرا ، إذا قطع ، وانصار الشيء انصيارا إذا انقطع ، وقرأ الآخرون (فَصُرْهُنَّ) بضم الصاد ، ومعناه : أملهن إليك ووجههن وقال عطاء معناه : اجمعهن واضممهن إليك { ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا } أراد بعض الجبال ، قال المفسرون : أمر الله إبراهيم أن يذبح تلك الطيور ، وينتف ريشها ويقطعها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها بعضها ببعض ، ففعل ثم أمره أن يجعل أجزاءها على الجبال ثم دعاهن فقال : تعالين بإذن الله فذلك قوله تعالى : { ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا } ، قيل : المراد بالسعي الإسراع والعدو

، وقيل : المراد به المشي دون الطيران وقيل : السعي بمعنى : الطيران ، { وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }

[261] قوله تعالى : { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ، فيه إضمار تقديره : مثل صدقات الذين ينفقون أموالهم ، { كَمَثَلِ } ، زارع { حَبَّةٍ } وأراد بسبيل الله : الجهاد ، وقيل : جميع أبواب الخير ، { أَنْبَتَتْ } : أخرجت ، { سَبْعَ سَنَابِلَ } ، جمع : سنبلة ، { فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ } ، قيل : معناه يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء ، وقيل : معناه يضاعف على هذا ويزيد لمن يشاء { وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } ، غني يعطي عن سعة ، عَلِيمٌ بنية من ينفق ماله .

[262] قوله تعالى : { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } : أي : في طاعة الله { ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا } وهو أن يمن عليه بعطائه ، فيقول : أعطيتك كذا ، ويعد نعمه عليه فيكدرها عليه { وَلَا أَذًى } ، هو أن يعيره فيقول : إلى كم تسأل وكم تؤذيني؟ وقيل : من الأذى : وهو أن يذكر إنفاقه عليه عند من لا يحبّ وقوفه عليه ، وقال سفيان : { مَنًّا وَلَا أَذًى } ، هو : أن يقول قد أعطيتك فما شكرت { لَهُمْ أَجْرُهُمْ } ، أي : ثوابهم ، { عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } .

[263] { قَوْلٌ مَعْرُوفٌ } ، أي : كلام حسن ورد على السائل جميل ، وقيل ، عدة حسنة ، وقال الكلبي : دعاء صالح يدعو لأخيه بظهر الغيب { وَمَغْفِرَةٌ } ، أي : تستر عليه خلته ولا تهتك عليه ستره ، وقال الكلبي والضحاك : يتجاوز عن ظالمه ، وقيل : يتجاوز عن الفقير إذا استطال عليه عند رده ، { خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ } يدفعها إليه ، { يَتْبَعُهَا أَذًى } ، أي : من وتعيير للسائل أو قول يؤذيه ، { وَاللَّهُ غَنِيٌّ } ، أي مستغن عن صدقة العباد { حَلِيمٌ } لا يُعجّل بالعقوبة على من يمن ويؤذي بالصدقة .

[264] ، قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ } ، أي : أجور صدقاتكم ، { بِالْمَنِّ } ، على السائل ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : بالمن على الله تعالى ، { وَالْأَذَى } ، لصاحبها ثم ضرب لذلك مثلا فقال : { كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ } ، أي : كإبطال الذي ينفق ماله { رِئَاءَ النَّاسِ }، أي : مراءاة وسمعة ليروا نفقته ويقولوا : إنه كريم سخي ، { وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } ، يريد أن الرياء يبطل الصدقة ، ولا تكون النفقة مع الرياء من فعل المؤمنين ، وهذا للمنافقين لأن الكافر معلن بكفره غير مرائي ، { فَمَثَلُهُ } ، أي : مثل هذا المرائي ، { كَمَثَلِ صَفْوَانٍ } ، وهو الحجر الأملس { عَلَيْهِ } ، أي على الصفوان ، { تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ } ، وهو المطر الشديد العظيم القطر ، { فَتَرَكَهُ صَلْدًا } ، أي : أملس ، والصلد : الحجر الصلب الأملس الذي لا شيء عليه ، فهذا مثل ضربه الله تعالى لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن الذي يمن بصدقته ويؤذي ، ويري الناس في الظاهر أن لهؤلاء أعمالا كما يرى التراب على هذا الصفوان ، فإذا كان يوم القيامة بطل كله

واضمحل لأنه لم يكن لله ، كما أذهب الوابل ما على الصفوان من التراب فتركه صلدا ، { لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا } ، أي : على ثواب شيء مما كسبوا وعملوا في الدنيا { وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }

[265] وقوله تعالى : { وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ } ، أي : طلب رضا الله تعالى ، { وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ } ، قال قتادة : احتسابا ، وقال الشعبي والكلبي تصديقا من أنفسهم ، أي يخرجون الزكاة طيبة بها أنفسهم على يقين بالثواب ، وتصديق بوعد الله ، ويعلمون أنّ ما أخرجوا خير لهم مما تركوا ، وقيل : على يقين بإخلاف الله عليهم { كَمَثَلِ جَنَّةٍ } ، أي : بستان ، { بِرَبْوَةٍ } هي المكان المرتفع المستوي الذي تجري فيه الأنهار فلا يعلوه الماء ولا يعلو عن الماء ، وإنما جعلها بربوة لأن النبات عليها أحسن وأزكى ، { أَصَابَهَا وَابِلٌ } مطر شديد كثير ، { فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ } ، أي : أضعفت في الحمل ، قال عطاء : حملت في سنة من الريع ما يحمل غيرها في سنتين ، وقال عكرمة : حملت في السنة مرتين ، { فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ } ، أي : فطش وهو المطر الضعيف الخفيف ، ويكون دائما قال السدي : هو الندى ، وهذا مثل

ضربه الله تعالى لعمل المؤمن المخلص ، فيقول : كما أن هذه الجنة تربع في كل حال ولا تخلف سواء قل المطر أو كثر ، كذلك يضعف الله صدقة

المؤمن المخلص الذي لا يمن ولا يؤذي سواء قلت نفقته أو كثرت ، وذلك أن الطل إذا كان يدوم يعمل عمل الوابل الشديد ، { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }

[266] { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ }{ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } ، يعني : أيحب أحدكم أن تكون له جنة أي : بستان ، من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار؟ { لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ } ، أولاد صغار ضعاف عجزة ، { فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ } ، وهو الريح العاصف التي ترتفع إلى السماء كأنها عمود وجمعه أعاصير ، { فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ } هذا مثل ضربه الله لعمل المنافق والمرائي ، يقول : عمله في حسنه كحسن الجنة ينتفع به كما ينتفع صاحب الجنة بالجنة ، فإذا كبر أو ضعف وصار له أولاد ضعاف أصاب جنته إعصار فيه نار فاحترقت ، فصار أحوج ما يكون إليها وضعف عن إصلاحها لكبره وضعف أولاده عن إصلاحها لصغرهم ، ولم يجد هو ما يعود به على أولاده ولا أولاده ما يعودون به عليه ، فبقوا جميعا متحيرين عجزة لا حيلة بأيديهم ، كذلك يبطل الله عمل هذا المنافق والمرائي حين لا مغيث لهما ولا توبة ولا إقالة { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ }

[267] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ } : من خيار { مَا كَسَبْتُمْ } ، بالتجارة والصناعة وفيه دلالة على إباحة الكسب ، وأنه ينقسم إلى طيب وخبيث { وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ } ، قيل : هذا أمر بإخراج العشور من الثمار والحبوب { وَلَا تَيَمَّمُوا } معناه : لا تقصدوا ، { الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ } قال الحسن ومجاهد والضحاك : كانوا يتصدقون بشرار ثمارهم ورزالة أموالهم ويعملون الجيد ناحية لأنفسهم ، فأنزل الله تعالى : { وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ } الرديء { مِنْهُ تُنْفِقُونَ }{ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ } ، يعني الخبيث ، { إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ } الإغماض : غض البصر ، وأراد هاهنا : التجويز والمساهلة ، معناه : لو كان لأحدكم على رجل حق فجاءه بهذا لم يأخذه إلا وهو يرى أنه قد أغمض له عن حقه وتركه ، قال الحسن وقتادة : لو وجدتموه يباع في السوق ما أخذتموه بسعر الجيد ، وروي عن البراء قال : لو أهدي ذلك لكم ما أخذتموه إلا على استحياء من صاحبه وغيظ ، فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ } عن صدقاتكم ، { حَمِيدٌ } ، محمود

في أفعاله .
[268] { الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ } ، أي يخوفكم بالفقر ، والفقر سوء الحال وقلة ذات اليد ، ومعنى الآية : أن الشيطان يخوفكم بالفقر ، ويقول للرجل : أمسك عليك مالك فإنك إذا تصدقت به افتقرت ، { وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ } ، أي : بالبخل ومنع الزكاة ، وقال الكلبي : كل الفحشاء في القرآن فهو الزنا إلا هذا ، { وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ } ، أي : لذنوبكم ، { وَفَضْلًا } ، أي : رزقا وخلفا ، { وَاللَّهُ وَاسِعٌ } ، غني { عَلِيمٌ }

[269] قوله تعالى : { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ } ، قال السدي : هي النبوة ، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - وقتادة : علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله ، وقال الضحاك : القرآن والفهم فيه ، وروى ابن أبي نجيح عنه : الإصابة في القول والفعل ،

وقال إبراهيم النخعي : معرفة معاني الأشياء وفهمها { وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ } حُكي عن الحسن قال : الورع في دين الله { فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا } قال الحسن : من أعطي القرآن فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لم يوح إليه (1) . { وَمَا يَذَّكَّرُ } : يتعظ { إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } ذوو العقول .
[270] قوله تعالى : { وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ } فيما فرض الله عليكم { أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ } ، أي : ما أوجبتموه أنتم على أنفسكم في طاعة الله فوفيتم به { فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ } يحفظه حتى يجازيكم { وَمَا لِلظَّالِمِينَ } الواضعين الصدقة في غير موضعها بالرياء ويتصدقون من الحرام { مِنْ أَنْصَارٍ } من أعوان أن يدفعون عذاب الله عنهم ، وهي جمع نصير ، مثل شريف أشراف .

---

(1) روى الحاكم في المستدرك بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : «من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه » ، الحديث .

[271] قوله تعالى { إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ } ، أي : تظهروها { فَنِعِمَّا هِيَ } , أي : نعمت الخصلة هي { وَإِنْ تُخْفُوهَا } ، تسروها, { وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ } ، أي : تؤتوها الفقراء في السرّ { فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } ، وأفضل وكل مقبول إذا كانت النية صادقة ، ولكن صدقة السر أفضل وقيل : الآية في صدقة التطوع ، أما الزكاة المفروضة فالإظهار فيها أفضل حتى يقتدي به الناس ، كالصلاة المكتوبة في الجماعة أفضل ، والنافلة في البيت أفضل ، وقيل : الآية في الزكاة المفروضة كان الإخفاء فيها خيرا على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أما في زماننا فالإظهار أفضل حتى لا يساء به الظن . قوله تعالى { وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ } أي : ويكفر الله وقوله : { مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ } قيل : { مِنْ } صلة ، تقديره : نكفر عنكم سيئاتكم ، وقيل : هو للتحقيق والتبعيض ، يعني : نكفر الصغائر من الذنوب { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } .

[272] { لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ } فتمنعهم الصدقة ليدخلوا في الإسلام حاجة منهم إليها { وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } , وأراد به هداية التوفيق { وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ } ، أي : مال { فَلِأَنْفُسِكُمْ } ، أي : تنفقونه لأنفسكم { وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ } معناه نهي ، أي : لا تنفقوا إلا ابتعاء وجه الله { وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ } ، شرط كالأول, ولذلك حذف النون منهم { يُوَفَّ إِلَيْكُمْ } , أي يوفر لكم جزاؤه ، ومعناه : يؤدي إليكم ، ولذلك دخل فيه إلى, { وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } , لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئا ، وهذا في صدقة التطوع أباح الله تعالى أن توضع في أهل الإسلام وأهل الذمة ، فأما الصدقة المفروضة فلا يجوز وضعها إلا في المسلمين .

[273] قوله تعالى : { لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } اختلفوا في موضع هذه اللام ، قيل : هي مردودة على موضع اللام من قوله : { فَلِأَنْفُسِكُمْ } كأنه قال : وما تنفقوا من خير فللفقراء ، وإنما تنفقون لأنفسكم ، وقيل : معناها الصدقات التي سبق ذكرها ، وقيل : خبر محذوف تقديره : للفقراء الذين صفتهم كذا حق واجب وهم للفقراء المهاجرين ، كانوا نحوا من أربعمائة رجل لم يكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر ، وكانوا في المسجد يتعلمون القرآن ، وكانوا يخرجون في كل سرية يبعثها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم أصحاب الصفة ، فحث الله تعالى عليهم الناس فكان من عنده فضل أتاهم به إذا أمسى ، { الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ، فيه أقاويل ، قال

قتادة : هم هؤلاء حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله ، { لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ } ، لا يتفرغون للتجارة وطلب المعاش ، وهم أهل الصفة الذين ذكرناهم ، وقيل : حبسوا أنفسهم على طاعة الله ، وقيل : معناه حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد في سبيل الله ، وقيل : هؤلاء قوم أصابتهم جراحات مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الجهاد

في سبيل الله فصاروا زَمْنَى أحصرهم المرض والزمانة عن الضرب في سبيل الله للجهاد ، وقيل : من كثرة ما جاهدوا صارت الأرض كلها حربا لهم فلا يستطيعون ضربا في الأرض من كثرة أعدائهم ، { يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ } ، بحالهم ، { أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ } , أي : من تعففهم عن السؤال وقناعتهم يظن من لا يعرف حالهم أنهم أغنياء ، والتعفف التفعل من العفة وهي الترك ، يقال : عف عن الشيء إذا كف عنه ، وتعفف إذا تكلف في الإمساك , { تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ } , السيماء والسيمياء والسمة : العلامة التي يعرف بها الشيء ، واختلفوا في معناها هاهنا ، فقال مجاهد : هي التخشع والتواضع ، وقال السدي : أثر الجهد من الحاجة والفقر ، وقال الضحاك : صفرة ألوانهم من الجوع والضر ، وقيل : رثاثة ثيابهم ، { لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا } , قال عطاء : إذا كان عندهم غداء لا يسألون عشاء ، وإذا كان عندهم عشاء لا يسألون غداء ، وقيل : معناه : لا يسألون الناس إلحافا أصلا ، لأنه قال : { مِنَ التَّعَفُّفِ } والتعفف : ترك السؤال ، ولأنه قال { تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ } ، ولو كانت المسألة من شأنهم لما كانت إلى معرفتهم بالعلامة

حاجة ، فمعنى الآية : ليس لهم سؤال فيقع فيه إلحاف ، والإلحاف : الإلحاح واللجاج { وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ } , من مال { فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ } , وعليه مجاز .

[274] { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ } : قال الأخفش : جعل جواب الخبر بالفاء ، لأن الذين بمعنى (من) وجوابها بالفاء في الخبر ، أو معنى الآية : من أنفق كذا فله أجره عند ربه ، { وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } .

[275] قوله تعالى : { الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا } ، أي : الذين يعاملون به ، وإنما خص الأكل لأنه معظم المقصود من المال { لَا يَقُومُونَ } , يعني يوم القيامة من قبورهم { إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ } , أي يصرعه { الشَّيْطَانُ } أصل الخبط : الضرب والوطء ، وهو ضرب على غير استواء ، يقال : ناقة خبوط للتي تطأ الناس وتضرب الأرض بقوائمه { مِنَ الْمَسِّ } , أي : الجنون ، يقال : مس الرجل فهو ممسوس إذا كان مجنونا ، ومعناه : أن آكل الربا يبعث يوم القيامة كمثل المصروع { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا } ، أي : ذلك الذي نزل بهم لقولهم هذا واستحلالهم إياه وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حل ماله على غريمه فطالبه فيقول الغريم لصاحب الحق : زدني في الأجل حتى أزيدك في المال ، فيفعلان ذلك ويقولون : سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند المحل لأجل التأخير ، فكذبهم الله تعالى وقال : { وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا } ، واعلم أن الربا في اللغة : الزيادة ، والربا نوعان : ربا الفضل وربا النساء ، فإذا باع مال الربا بجنسه مثلا بمثل بأن

باع أحد النقدين بجنسه ، أو باع مطعوما بجنسه ، كالحنطة بالحنطة ونحوها يثبت فيه كلا نوعي الربا ، حتى لا يجوز إلا متساويين في معيار الشرع ، فإن

كان موزونا كالدراهم والدنانير فيشترط المساواة في الوزن ، وان كان مكيلا كالحنطة والشعير بيع بجنسه ، فيشترط المساواة في الكيل ويشترط التقابض في مجلس العقد ، وإذا باع مال الربا بغير جنسه نظر إن باع بما لا يوافقه في وصف الربا مثل : إن باع مطعوما بأحد النقدين فلا ربا فيه, كما لو باعه بغير مال الربا ، وإن باعه بما يوافقه في الوصف مثل : إن باع الدراهم بالدنانير أو باع الحنطة بالشعير أو باع مطعوما بمطعوم آخر من غير جنسه فلا يثبت فيه ربا الفضل حتى يجوز متفاضلا أو جزافا وثبت فيه ربا النسأ حتى يشترط التقابض في المجلس { فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ } : تذكير وتخويف ، وإنما ذكر الفعل ردا إلى الوعظ ، { فَانْتَهَى } ، عن أكل الربا, { فَلَهُ مَا سَلَفَ } ، أي : ما مضى من ذنبه ، قبل النهي مغفور له, { وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ } , بعد النهي إن شاء عصمه حيث يثبت على الانتهاء ، وإن شاء خذله حتى يعود ، وقيل : أمره إلى الله فيما يأمره وينهاه ويحل له ويحرم

عليه, وليس إليه من أمر نفسه شئ { وَمَنْ عَادَ } بعد التحريم إلى أكل الربا مستحلا له, { فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

[276] قوله تعالى : { يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا } ، أي ينقصه ويهلكه ويذهب ببركته ، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما : يمحق الله الربا . يعني : لا يقبل منه صدقة ولا جهادا ولا حجا ولا صلة, { وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ } ، أي : يثمرها ويبارك فيها في الدنيا ويضاعف بها الأجر والثواب في العقبى ، { وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ } ، بتحريم الربا ، { أَثِيمٍ } ، فاجر بأكله .
[277] { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } .
[278] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا }{ بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } .

[279] { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا } ، أي : إذا لم تذروا ما بقي من الربا, { فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } , قرأ حمزة وعاصم برواية أبي بكر (فآذِنوا) بالمد ، على وزن آمنوا ، أي : فأعلموا غيركم أنكم حرب لله ورسوله ، وأصله من الأذن ، أي : وقعوا في الأذان وقرأ الآخرون : { فَأْذَنُوا } مقصورا بفتح الذال ، أي : فاعلموا أنتم وأيقنوا بحرب من الله ورسوله { وَإِنْ تُبْتُمْ } , أي : تركتم استحلال الربا ورجعتم عنه { فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ } ، بطلب الزيادة { وَلَا تُظْلَمُونَ } ، بالنقصان عن رأس المال .
[280] { وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ } ، يعني : وإن كان الذي عليه الدين مُعسرًا { فَنَظِرَةٌ } أمر في صيغة الخبر ، تقديره : فعليه نظرة, { إِلَى مَيْسَرَةٍ } قرأ نافع (ميسُرة) بضم السين ، وقرأ الآخرون بفتحها ، وقرأ مجاهد (مَيسُرة) بضم السين مضافا ، ومعناه : اليسار والسعة ، { وَأَنْ تَصَدَّقُوا } ، أي : تتركوا رؤوس أموالكم إلى المعسر ، { خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ }

[281] قوله تعالى : { وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ } ، قرأ أهل البصرة بفتح التاء ، أي : تصيرون إلى الله ، وقرأ الآخرون بضم التاء وفتح الجيم ، أي : تردّون إلى الله تعالى ، { ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } قال ابن عباس رضي الله عنهما : هذه آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[282] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لمّا حرم الله الربا أباح السَّلم ، وقال أشهد أن السَّلم المضمون إلى أجل مسمى قد أحله الله تعالى في كتابه وأذن فيه ، ثم قرأ هذه الآية .

قوله : { إِذَا تَدَايَنْتُمْ } أي : تعاملتم بالدين ، يقال : داينته إذا عاملته بالدين { إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى } ، الأجل مدة معلومة الأول والآخر ، والأجل يلزم في الثمن والمبيع في السَّلم حتى لا يكون لصاحب الحق الطلب قبل محله ، وفي القرض لا يلزم الأجل عند أكثر أهل العلم ، { فَاكْتُبُوهُ } أي : اكتبوا الذي تداينتم به بيعا كان أو سلما أو قرضا ، واختلفوا في هذه الكتابة فقال بعضهم : هي واجبة ، والأكثرون على أنه أمر استحباب ، فإن ترك فلا بأس كقوله تعالى : { فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ } ، وقال بعضهم : كانت كتابة الدين ،والإشهاد والرهن فرضا ثم نسخ الكل بقوله : { فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ } وهو قول الشعبي ، ثم بين كيفية الكتابة فقال جل ذكره : { وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ } ، أي : ليكتب كتاب الدين بين الطالب والمطلوب كاتب بالعدل ، أي : بالحق من غير زيادة ولا نقصان ولا تقديم أجل ولا تأخير ، { وَلَا يَأْبَ } ، أي لا يمتنع ، { كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ } ، واختلفوا في وجوب الكتابة على الكاتب وتحمّل الشهادة

على الشاهد ، فذهب قوم إلى وجوبها إذا طولب ، وهو قول مجاهد ، وقال الحسن : يجب إذا لم يكن كاتب غيره ، وقال قوم : هو على الندب والاستحباب ، وقال الضحاك : كانت عريمة واجبة على الكاتب والشاهد ، فنسخها قوله تعالى : { وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ } ، { كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ } ، أي : كما شرعه الله وأمره ، { فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ } ، يعني : المطلوب يُقرّ على نفسه بلسانه ليعلم ما عليه ، والإملال والإملاء لغتان فصيحتان معناهما واحد جاء بهما القرآن ، فالإملال هنا, والإملاء قوله تعالى : { فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } ، { وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ } ، يعني المملي ، { وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا } وأي : ولا ينقص منه أي من الحق الذي عليه شيئا { فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا } ، أي : جاهلا بالإملاء ، قاله مجاهد ، وقال الضحاك والسدي : طفلا صغيرا ، وقال الشافعي : السفيه المبذر : المفسد لما له أو في دينه ، قوله : { أَوْ ضَعِيفًا } ، أي : شيخا كبيرا ، وقيل : هو ضعيف العقل لعته أو جنون { أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ }

لخرس أو عمى أو عجمة أو حبس أو غيبة لا يمكنه حصول الكتابة أو جهل بما له وعليه ، { فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ } : أي : قيّمه ، { بِالْعَدْلِ } ، أي : بالصدق والحق ، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - ومقاتل : أراد بالولي صاحب الحق ، يعني إن عجز من عليه الحق من الإملال فيملل ولي الحق وصاحب الدين بالعدل لأنه أعلم بالحق { وَاسْتَشْهِدُوا } ، أي : وأشهدوا ، { شَهِيدَيْنِ } ، أي : شاهدين { مِنْ رِجَالِكُمْ } ، يعني : الأحرار المسلمين دون العبيد والصبيان ، وهو قول أكثر أهل العلم ، وأجاز شريح وابن سيرين شهادة العبيد ، { فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ } ، أي : لم يكن الشاهدان رجلين ، { فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ } ، أي : فليشهد رجل وامرأتان ، وأجمع الفقهاء على أن شهادة النساء جائزة مع الرجال في الأموال ، واختلفوا في غير الأموال ، واتفقوا على أن شهادة النساء غير جائزة في العقوبات . قوله تعالى : { مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ } ، يعني : من كان

مرضيا في ديانته وأمانته ، وشرائط قبول الشهادة سبعة : الإسلام ، والحرية ، والعقل ، والبلوغ ، والعدالة ، والمروءة ، وانتفاء التهمة { أَنْ تَضِلَّ

إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ } معنى الآية فرجل وامرأتان كي تذكر { إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى } ، ومعنى تضل أي : تنسى ، يريد إذا نسيت إحداهما شهادتها فتذكرها الأخرى ، فتقول : ألسنا حضرنا مجلس كذا ، وسمعنا كذا ، (وذكر) و (واذكر) بمعنى واحد ، وهما متعديان ، من الذكر الذي هو ضد النسيان { وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا } ، قيل أراد به ما دعوا لتحمل الشهادة ، سماهم شهداء على معنى أنهم يكونون شهداء ، وهو أمر إيجاب عند بعضهم ، وقال قوم : تجب الإجابة إذا لم يكن غيرهم ، فإن وجد غيرهم فهم مخيرون ، وهو قول الحسن ، وقال قوم : هو أمر ندب وهو مخير في جميع الأحوال وقال بعضهم : هذا في إقامة الشهادة وأدائها ، فمعنى الآية : ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا لأداء الشهادة التي تحمّلوها قال الشعبي : الشاهد بالخيار ما لم يشهد { وَلَا تَسْأَمُوا } ، أي : ولا تملّوا { أَنْ تَكْتُبُوهُ } ، الهاء راجعة إلى الحق ، { صَغِيرًا } كان الحق ، { أَوْ كَبِيرًا } ، قليلا كان أو كثيرا ، { إِلَى أَجَلِهِ } ، إلى محل الحق ، { ذَلِكُمْ } ، أي : الكتاب ، { أَقْسَطُ } ، أعدل { عند الله } ، لأنه أمر به ، واتباع أمره أعدل من

تركه ، { وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ } لأن الكتابة تذكر الشهود ، { وَأَدْنَى } وأحرى وأقرب إلى ، { أَلَّا تَرْتَابُوا } تشكوا في الشهادة { إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ } تقديره : إلا أن تكون تجارة حاضرة دائرة بينكم ، ومعنى الآية : إلا أن تكون تجارة حاضرة يدا بيد تديرونها بينكم ليس فيها أجل { فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا } ، يعني : التجارة . { وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ } ، قال الضحاك : هو عزم من الله تعالى ، والإشهاد واجب في صغير الحق وكبيره ونقده ونسئه وقال الآخرون : هو أمر ندب . قوله تعالى : { وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ } ، هذا نهي للغائب ، وأصله : يضارر ، فأدغمت إحدى الرائين في الأخرى ونصبت ، لحق التضعيف لالتقاء الساكنين ، واختلفوا فيه ، فمنهم من قال : أصله يضارر بكسر الراء الأولى ، وجعل الفعل للكاتب والشهيد ، معناه : لا يضارر الكاتب فيأبى أن يكتب ولا الشهيد فيأبى أن يشهد ، ولا يضار الكاتب فيزيد أو ينقص أو يحرف ما أملي عليه ولا الشهيد فيشهد بما لم يستشهد عليه ، وهذا قول طاوس والحسن وقتادة ، وقال قوم : أصله يضارر

بفتح الراء على الفعل المجهول ، وجعلوا الكاتب والشهيد مفعولين ، ومعناه : أن يدعو الرجل الكاتب أو الشاهد وهما على شغل مهم فيقولان نحن على شغل مهم فاطلب غيرنا ، فيقول الداعي إن الله أمركما أن تجيبا ويلح عليهما فيشغلهما عن حاجتهما فنهى عن ذلك ، وأمر بطلب غيرهما ، { وَإِنْ تَفْعَلُوا } ما نهيتكم عنه من الضرار ، { فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ } ، أي : معصية وخروج عن الأمر ، { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } .

[283] ، { وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ } ، أي : وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً الآن فارتهنوا ممن تداينونه رهونا لتكون وثيقة بأموالكم ، واتفقوا على أن الرهن لا يتم إلا بالقبض { فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا } ، يعني : فإن كان الذي عليه الحق أمينا عند صاحب الحق فلم يرتهن منه شيئا لحسن ظنه به { فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ } ، أي : فليقضه على الأمانة ، { وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ } في أداء الحق ، ثم رجع إلى خطاب الشهود فقال : { وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ } ، إذا دعيتم إلى إقامتها ، نهى عن كتمان الشهادة وأوعد عليه

فقال : { وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ } ، أي : فاجر قلبه ، قيل : ما وعد على شيء كإيعاده على كتمان الشهادة قال : { فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ } وأراد به مسخ القلب نعوذ بالله من ذلك ، { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ } من بيان الشهادة وكتمانها { عَلِيمٌ } .

[284] ، { لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } ملكا وأهلها له عبيد وهو مالكهم ، { وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } ، اختلف العلماء في هذه الآية فقال قوم : هي خاصة ثم اختلفوا في وجه خصوصها ، فقال بعضهم : هي متصلة بالآية الأولى نزلت في كتمان الشهادة ، معناه : وإن تبدوا ما في أنفسكم أيها الشهود من كتمان الشهادة أو تخفوا الكتمان يحاسبكم به الله ، وهو قول الشعبي وعكرمة ، وقال بعضهم : نزلت فيمن يتولى الكافرين من دون المؤمنين ، يعني : وإن تعلنوا ما في أنفسكم من ولاية الكفار أو تسروه يحاسبكم به الله ، وذهب الأكثرون إلى أن الآية عامة ثم اختلفوا فيها فقال قوم : هي منسوخة بالآية التي بعدها وقال بعضهم : الآية غير منسوخة لأن النسخ لا يرد على الأخبار ، إنما يرد على الأمر والنهي ، وقوله : { يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ } خبر لا يرد عليه النسخ ، ثم اختلفوا في تأويلها فقال قوم : قد أثبت الله تعالى للقلب كسبا فقال : { بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ } فليس لله

عبدا أسرّ عملا أو أعلنه من حركة من جوارحه أو همّة في قلبه إلا يخبره الله به ويحاسبه عليه ، ثم يغفر ما يشاء ويعذب بما يشاء . وقال الآخرون : معنى الآية ، إن الله - عز وجل - يحاسب خلقه بجميع ما أبدوا من أعمالهم أو أخفوه ويعاقبهم عليه ، غير أن معاقبته على ما أخفوه مما لم يعملوه بما يحدث لهم في الدنيا من النوائب والمصائب ، والأمور التي يحزنون عليها وقال بعضهم : { وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ } ، يعني : ما في قلوبكم مما عزمتم عليه أو تخفوه يحاسبكم به الله ، ولا تبدوه وأنتم عازمون عليه يحاسبكم به الله فأمّا ما حدثت به أنفسكم مما لم تعزموا فإن ذلك مما لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها ولا يؤاخذكم به وقيل : معنى المحاسبة: الإخبار والتعريف ، ومعنى الآية : { وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ } فتعملوا به أو تخفوه مما أضمرتم ونويتم ، يحاسبكم به الله ويخبركم به ويعرفكم إياه ، ثم يغفر للمؤمنين إظهارا لفضله ، ويعذب الكافرين إظهارا لعدله قوله تعالى : { فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ } فيغفر لمن يشاء الذنب العظيم ، ويعذب من يشاء على الذنب الصغير لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون {

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .
[285] قوله تعالى : { آمَنَ الرَّسُولُ } ، أي : صدق { بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ } ، يعني : كل واحد منهم ، ولذلك وحد الفعل ، { وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ } فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى ، وفيه إضمار تقديره : يقولون لا نفرق ، وقرأ يعقوب : لا يفرق ، بالياء فيكون خبرا عن الرسول ، أو معناه : لا يفرق الكل ، وإنما قال : { بَيْنَ أَحَدٍ } ، ولم يقل بين آحاد ، لأن الأحد يكون للواحد والجمع ، قال الله تعالى : { فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ } ، { وَقَالُوا سَمِعْنَا } ، قولك { وَأَطَعْنَا } أمرك ، روي عن حكيم عن جابر - رضى الله عنهما - أن جبريل - عليه السلام - قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - حين نزلت هذه الآية : إن الله قد أثنى عليك وعلى أمتك ، فسل تعطه ، فسأل

بتلقين الله تعالى فقال : { غُفْرَانَكَ } ، وهو نصب على المصدر ، أي : اغفر غفرانك ، أو على المفعول به ، أي : نسألك غفرانك { رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } .

[286] ، { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } ظاهر الآية قضاء لحاجة ، وفيها إضمار السؤال كأنه قال : وقالوا لا تكلفنا إلا وسعنا ، وأجاب : أي : لا يكلف الله نفسا إلا وسعها أي : طاقتها ، والوسع : اسم لما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ، واختلفوا في تأويله ، فذهب ابن عباس - رضي الله عنه - وعطاء وأكثر المفسرين إلى أنه أراد به حديث النفس الذي ذكر في قوله : { وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ } كما ذكرنا ، وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال : هم المؤمنون خاصة وسَّع عليهم أمر دينهم ولم يكلفهم فيه إلا ما يستطيعون ، كما قال الله تعالى : { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } ، وقال الله تعالى : { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } ، وسئل سفيان بن عيينة عن قوله عزّ وجلّ : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } قال إلا يسرها ولم يكلفها فوق طاقتها ، وهذا قوله حسن ، لأن الوسع ، ما دون الطاقة . قوله تعالى : { لَهَا مَا كَسَبَتْ } ، أي : للنفس ما عملت من الخير لها أجره وثوابه { وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } من

الشر وعليها وزره { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا } ، أي : لا تعاقبنا { إِنْ نَسِينَا } ، جعله بعضهم من النسيان الذي هو السهو ، أمر الله المؤمنين أن يسألوه ترك مؤاخذتهم بذلك ، وقيل : هو من النسيان الذي هو الترك كقوله تعالي : { نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ } ، قوله تعالى : { أَوْ أَخْطَأْنَا } قيل : معناه القصد والعمد ، يقال : أخطأ فلان إذا تعمد ، قال الله تعالى : { إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا } قال عطاء : إن نسينا أو أخطأنا ، يعني : إن جهلنا أو تعمدنا ، وجعله الأكثرون : من الخطأ الذي هو الجهل والسهو ، لأن ما كان عمدا من الذنب فغير معفو عنه بل هو في مشيئة الله ، والخطأ معفو عنه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » (1) " . قوله تعالى : { رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا } ، أي : عهدا ثقيلا وميثاقا ولا نستطيع القيام به فتعذبنا بنقضه وتركه ، { كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا } ، يعني : اليهود ، فلم يقوموا به فعذبتهم ، وقيل معناه : لا تُشدّد ولا تُغلظ الأمر علينا كما شددت على من قبلنا من اليهود ، وذلك أن الله فرض عليهم

____

(1) وفي رواية لابن ماجه بلفظ . «إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان » ، الحديث / كتاب الطلاق / 16 / انظر إرواء الغليل (1 / 123) .

خمسين صلاة وأمرهم بأداء ربع أموالهم من الزكاة ، ومن أصاب ثوبه نجاسة قطعها ، ومن أصاب ذنبا أصبح ذنبه مكتوبا على بابه ، ونحوها من الأثقال والأغلال يدل عليه قوله تعالى : { وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ } ، وقيل : الإصر ذنب لا توبة له ، معناه : اعصمنا من مثله ، والأصل فيه العقل والإحكام .

قوله تعالى : { رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ } ، أي : لا تكلفنا من الأعمال ما لا نطيقه ، وقيل : هو حديث النفس والوسوسة ، حكي عن مكحول أنه قال : هو الغلمة ، قيل : الغلمة : شدة الشهوة ، وعن إبراهيم قال : هو الحب ، وعن محمد بن عبد الوهاب قال : العشق ، وقال ابن جريج : وهو مسخ القردة والخنازير ، وقيل : هو شماتة الأعداء ، وقيل : هو الفرقة والقطيعة نعوذ بالله

منها ، قوله تعالى : { وَاعْفُ عَنَّا } ، أي : تجاوز وامح عنا ذنوبنا ، { وَاغْفِرْ لَنَا } ، أي : استر علينا ذنوبنا ولا تفضحنا ، { وَارْحَمْنَا } فإننا لا ننال العمل إلا بطاعتك ، ولا نترك معصيتك إلا برحمتك ، { أَنْتَ مَوْلَانَا } ناصرنا وحافظنا وولينا ، { فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } .

(3) سورة آل عمران

[1, 2] قوله تعالى : { الم }{ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } . قوله تعالى : { اللَّهُ } ابتداء وما بعده خبره ، و { الْحَيُّ الْقَيُّومُ } نعت له .
[3] { نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ } ، أي : القرآن ، { بِالْحَقِّ } ، بالصدق ، { مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ } ، لما قبله من الكتب في التوحيد والنبوة والأخبار وبعض الشرائع ، { وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ } .
[4] { مِنْ قَبْلُ } ، وإنما قال : { وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ } لأن التوراة والإنجيل أنزلا جملة واحدة ، وقال في القرآن { نَزَّلَ } لأنه نزل مفصلا ، والتنزيل : للتكثير ، { هُدًى لِلنَّاسِ } ، هاديا لمن تبعه ، ولم يثنّه لأنه مصدر ، { وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ } المفرق بين الحق والباطل { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } .
[5] { إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ } .

[6] { هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ } ، من الصور المختلفة ذكرا أو أنثى أبيض أو أسود حسنا أو قبيحا تاما أو ناقصا . { لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ، وهذا رد على وفد نجران من النصارى حيث قالوا عيسى ولد الله ، وكأنه يقول : كيف يكون ولدا وقد صوره الله تعالى في الرحم ؟

[7] قوله تعالى : { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ } مبينات مفصلات سميت محكمات من الإحكام كأنه أحكمها فمنع الخلق من التصرف فيها لظهورها ووضوح معناها ، { هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ } ، أي : أصله الذي يعول عليه في الأحكام ، وإنما قال : { هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ } ، ولم يقل : أمهات الكتاب لأن الآيات كلها في تكاملها واجتماعها كالآية الواحدة ، وكلام الله تعالى واحد ، وقيل معناه : كل آية منهن أم الكتاب ، كما قال : (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) ، أي : كل واحد منهما آية ، { وَأُخَرُ } ، جمع أخرى ، ولم يصرفه لأنه معدول عن الآخر مثل : عمر وزفر ، { مُتَشَابِهَاتٌ } ، فإن قيل : كيف فرق هاهنا بين المحكم والمتشابه وقد جعل الله كل القرآن محكما في مواضع أخر فقال : { الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ } ، وجعل كله متشابها فقال : { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا } ؟ قيل : حيث جعل الكل محكما أراد أن الكل حق ليس فيه عبث ولا هزل ، وحيث جعل الكل متشابها أراد أن بعضه يشبه بعضا في الحق والصدق وفي الحسن ، وجعل هاهنا بعضه محكما وبعضه متشابها . واختلف العلماء

فيهما فقال ابن عباس رضي الله عنهما : المحكمات هن الآيات الثلاث في سورة الأنعام : { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ } ، ونظيرها في بني إسرائيل : { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } ، الآيات . وعنه أنه قال : المتشابهات حروف التهجي في أوائل السور . وقال مجاهد وعكرمة : المحكم ما فيه من الحلال والحرام ، وما سوى ذلك متشابه يشبه بعضه بعضا في الحق ويصدق بعضه بعضا ، وقال قتادة والضحاك والسدي : المحكم الناسخ الذي يُعمل به ، والمتشابه المنسوخ الذي يؤمن به ولا يعمل به . وروى علي بن أبي

طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : محكمات القرآن : ناسخه ، وحلاله ، وحرامه ، وحدوده ، وفرائضه ، وما يؤمن به ، ويعمل به والمتشابهات : منسوخه ، ومقدِّمه ، ومؤخره ، وأمثاله ، وأقسامه ، وما يؤمن به ولا يعمل به . وقيل : المحكمات ما أوقف الله الخلق على معناه ، والمتشابه ما استأثر الله تعالى بعلمه ، ولا سبيل لأحد إلى علمه ، نحو الخبر عن أشراط الساعة ، وخروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام ، وطلوع الشمس من مغربها ، وقيام الساعة ، وفناء الدنيا . قال أحمد بن جعفر بن الزبير : المحكم

ما لا يحتمل من التأويل غير وجه واحد ، والمتشابه ما يحتمل أوجها . وقيل : المحكم ما يعرف معناه وتكون حجته واضحة ، ودلائله لائحة لا يُشتبه ، والمتشابه هو الذي يدرك علمه بالنظر ، ولا يعرف العوام تفصيل الحق فيه من الباطل . وقال بعضهم : المحكم ما يستقل بنفسه في المعنى ، والمتشابه ما لا يستقل بنفسه إلا بردّه إلى غيره . { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ } ، أي : ميل عن الحق ، وقيل : شك ، { فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ } ، واختلفوا في المعنى بهذه الآية ، قال الربيع : هم وفد نجران خاصموا النبي - صلى الله عليه وسلم - في عيسى عليه السلام ، وقالوا له : ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟ قال : بلى ، قالوا : حسبنا ذلك ، فأنزل الله هذه الآية . وقال الكلبي : هم اليهود طلبوا علم أجل هذه الأمة واستخراجه بحساب الجمل . وقال ابن جريج : هم المنافقون . وقال الحسن : هم الخوارج . وكان قتادة إذا قرأ هذه الآية { فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ } قال : إن لم يكونوا الحرورية

والسبئية فلا أدري من هم؟ وقيل : هم جميع المبتدعة . قوله تعالى : { ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ } : طلب الشرك ، قاله الربيع والسدي ، وقال مجاهد : ابتغاء الشبهات واللبس ليضلوا بها جهالهم ، { وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ } : تفسيره وعلمه ، دليله قوله تعالى : { سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } ، وقيل : ابتغاء عاقبته ، وطلب أجل هذه الأمة من حساب الجمل ، دليله قوله تعالى : { ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } ، أي : عاقبة . قوله تعالى : { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ } ، اختلف العلماء في نظم هذه الآية فقال قوم الواو في قوله : { وَالرَّاسِخُونَ } واو العطف ، يعني : أن تأويل المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخون في العلم وهم مع علمهم : { يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ } ، وهذا قول مجاهد والربيع ، وعلى هذا يكون قوله : { يَقُولُونَ } حالا معناه : والراسخون في العلم مع علمهم قائلين آمنا به ، وذهب الأكثرون إلى أن الواو في قوله : { وَالرَّاسِخُونَ } واو الاستئناف وتم الكلام عند قوله : { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ } ، وقالوا

: لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله ، ويجوز أن يكون في القرآن تأويل استأثر الله بعلمه ولم يُطلع عليه أحدا من خلقه ، كما استأثر بعلم الساعة ، ووقت طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدجال ، ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام ، ونحوها .

والخلق متعبدون في المتشابه بالإيمان به ، وفي المحكم بالإيمان به والعمل ، ومما يصدق ذلك قراءة عبد الله إن تأويله إلا عند الله ، { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ } ، وقال عمر بن عبد العزيز في هذه الآية : انتهى علم الراسخين في العلم بتأويل القرآن إلى أن قالوا : آمنا به كل من عند ربنا .

وهذا القول أقيس في العربية وأشبه بظاهر الآية . قوله تعالى : { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ } ، أي : الداخلون في العلم هم الذين أتقنوا علمهم بحيث لا يدخل في معرفتهم شك ، وأصله من رسوخ الشيء في الشيء وهو ثبوته ، يقال : رسخ الإيمان في قلب فلان ، يرسخ رسخا ورسوخا ، وقيل : الراسخون في العلم مؤمنوا أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه ، دليله قوله تعالى : { لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ } ، يعني : الدارسون علم التوراة والإنجيل ، وسئل مالك بن أنس - رضي الله عنه - عن الراسخين في العلم ، قال : العالم العامل بما علم المتبع لما علم . وقيل : الراسخ في العلم من وجد في علمه أربعة أشياء : التقوى بينه وبين الله ، والتواضع بينه وبين الخلق ، والزهد بينه وبين الدنيا ، والمجاهدة بينه

وبين نفسه . وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - ومجاهد والسدي : بقولهم آمنا به سمّاهم الله تعالى راسخين في العلم ، فرسوخهم في العلم قولهم آمنا به ، أي : بالمتشابه ، { كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا } : المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ ، وما علمنا وما لم نعلم ، { وَمَا يَذَّكَّرُ } : ما يتعظ بما في القرآن { إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } ، ذوو العقول .
[8] ، قوله تعالى : { رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا } ، أي : ويقول الراسخون ربنا لا تزغ قلوبنا ، أي : لا تملها عن الحق والهدى كما أزغت قلوب الذين في قلوبهم زيغ ، { بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا } ، وفقتنا لدينك والإيمان بالمحكم والمتشابه من كتابك ، { وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ } : أعطنا من عندك ، { رَحْمَةً } ، توثيقا وتثبيتا للذي نحن عليه من الإيمان والهدى . وقال الضحاك : تجاوزا ومغفرة ، { إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ } .

[9] قوله تعالى : { رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ } : أي : لانقضاء يوم ، وقيل : اللام بمعنى : في يوم ، { لَا رَيْبَ فِيهِ } ، أي : لا شك فيه ، وهو يوم القيامة ، { إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ } ، وهو مفعال ، من الوعد .
[10] قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ } : لن تنفع ولن تدفع ، { عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ } ، قال الكلبي : من عذاب الله ، وقال أبو عبيدة : من بمعنى عند ، أي : عند الله { شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ } .

[11] { كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ } ، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - وعكرمة ومجاهد : كفعل آل فرعون وصنيعهم في الكفر والتكذيب . وقال عطاء والكسائي وأبو عبيدة : كسنة آل فرعون . وقال الأخفش : كأمر آل فرعون وشأنهم . وقال النضر بن شميل : كعادة آل فرعون ، يريد عادة هؤلاء الكفار في تكذيب الرسل وجحود الحق كعادة آل فرعون ، { وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } : كفار الأمم الماضية مثل عاد وثمود وغيرهم ، { كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ } ، فعاقبهم الله ، { بِذُنُوبِهِمْ } وقيل : نظم الآية : إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم عند حلول النقمة والعقوبة ، مثل آل فرعون وكفار الأمم الخالية ، أخذناهم فلن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئا ، { وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ } .

[12] قوله تعالى : { قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ } قرأ حمزة والكسائي بالياء فيهما ، أي : أنهم يغلبون ويحشرون ، وقرأ الآخرون بالتاء فيهما على الخطاب ، أي : قل لهم أنكم ستغلبون وتحشرون ، قال مقاتل : أراد مشركي مكة ، معناه : قل لكفار مكة ستغلبون يوم بدر ، وتحشرون إلى .

جهنم في الآخرة ، وقال بعضهم : المراد بهذه الآية اليهود { سَتُغْلَبُونَ } تهزمون في الدنيا في قتالكم محمدا { وَتُحْشَرُونَ } في الآخرة { إِلَى جَهَنَّمَ } ، { وَبِئْسَ الْمِهَادُ } ، أي : الفراش ، أي : بئس ما مهد لهم ، يعني : النار .

[13] قوله تعالى : { قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ } ، ولم يقل كانت ، والآية مؤنثة لأنه ردها إلى البيان ، أي : قد كان بيان ، فذهب إلى المعنى ، وقال الفراء : إنما ذكر لأنه حالت الصفة بين الفعل والاسم المؤنث فذكر الفعل ، وكل ما جاء من هذا النحو فهذا وجهه ، فمعنى الآية : { قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ } أي : عبرة ودلالة على صدق ما أقول إنكم ستغلبون ، { فِي فِئَتَيْنِ } : فرقتين ، وأصلها فيء الحرب ، لأن بعضهم يفيء إلى بعض ، { الْتَقَتَا } ، يوم بدر ، { فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ، طاعة الله ، وهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه وهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، سبعة وسبعون رجلا من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون رجلا من الأنصار ، قوله تعالى : { وَأُخْرَى كَافِرَةٌ } ، أي : فرقة أخرى كافرة ، وهم مشركو مكة وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا من المقاتلة ، يرأسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وفيهم مائة فرس ، وكانت حرب بدر أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، { يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ } ، قرأ أهل المدينة ويعقوب بالتاء ، يعني : ترون يا معشر اليهود أهل مكة مثل عدد المسلمين ، وذلك أن

جماعة من اليهود كانوا حضروا قتال بدر لينظروا على من تكون الدائرة فرأوا المشركين مثلي عدد المسلمين ورأوا النصر مع ذلك للمسلمين ، فكان ذلك معجزة وآية ، وقرأ الآخرون بالياء ، واختلفوا في وجهه ، فجعل بعضهم الرؤية للمسلمين ، ثم له تأويلان ، أحدهما : يرى المسلمون المشركين مثليهم كما هم ، فإن قيل : كيف قال { مِثْلَيْهِمْ } وهم كانوا ثلاثة أمثال؟ قيل : هذا مثل قول الرجل وعنده درهم : أنا أحتاج إلى مثلي هذا الدرهم ، يعني : إلى مثليه سواء ، فيكون ثلاثة دراهم . والتأويل الثاني وهو الأصح : كان المسلمون يرون المشركين مثلي عدد أنفسهم قللهم الله تعالى في أعينهم حتى رأوهم ستمائة وستة وعشرين ، ثم قللهم الله في أعينهم في حالة أخرى ، حتى رأوهم مثل عدد أنفسهم ، ثم قللهم الله تعالى أيضا في أعينهم حتى رأوهم عددا يسيرا أقل من أنفسهم ، وقال بعضهم : الرؤية راجعة إلى المشركين ، يعني : يرى المشركون المسلمين مثليهم ، قللهم الله قبل القتال في أعين المشركين ليجترئ المشركون عليهم ، ولا ينصرفوا ، فلما أخذوا في القتال كثرهم في أعين المشركين ، ليجبنوا ، وقللهم في أعين المؤمنين ليجترؤوا ، فذلك قوله تعالى : (وإذا

يريكموهم - إذ التقيتم- في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم) . قوله تعالى : { رَأْيَ الْعَيْنِ } ، أي : في رأي العين ، نصب بنزع حرف الصفة { وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ } ، الذي ذكرت ، { لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ } ، لذوي العقول وقيل : لمن أبصر الجمعين .

[14] قوله تعالى : { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ } ، جمع شهوة ، وهي ما تدعو النفس إليه ، { مِنَ النِّسَاءِ } ، بدأ بهن لأنهن حبائل الشيطان ، { وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ } ، جمع قنطار ، واختلفوا فيه ، فقال الربيع بن أنس : القنطار المال الكثير بعضه على بعض ، وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : القنطار ألف ومائتا أوقية ، لكل أوقية أربعون درهما . وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -

والضحاك : ألف ومائتا مثقال ، وقال أبو نصرة : ملء مسك ثور ذهبا أو فضة . وسمي قنطارا من الإحكام ، يقال : قنطرت الشيء إذا أحكمته ، ومنه سميت القنطرة . قوله تعالى : { الْمُقَنْطَرَةِ } ، قال الضحاك : المحصنة المحكمة ، وقال قتادة : هي الكثيرة المنضدة بعضها فوق بعض . وقال يمان : هي المدفونة . وقال السدي : هي المضروبة المنقوشة حتى صارت دراهم ودنانير . وقال الفراء : المضعفة . فالقناطير ثلاثة ، والمقنطرة تسعة ، { مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ } ، قيل : سمي الذهب ذهبا لأنه يذهب ولا يبقى ، والفضة فضة لأنها تنفض ، أي : تتفرق ، { وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ } : الخيل جمع لا واحد له من لفظه ، واحدها فرس ، كالقوم والنساء

ونحوهما ، و { الْمُسَوَّمَةِ } قال مجاهد : هي المطهمة الحسان ، وقال عكرمة : تسويمها حسنها ، وقال سعيد بن جبير : هي الراعية ، يقال : أسام الخيل وسومها ، وقال الحسن وأبو عبيدة : هي المعلمة من السيماء العلامة ، ثم منهم من قال : سيماها الشبه واللون ، وهو قول قتادة ، وقيل : الكي ، { وَالْأَنْعَامِ } ، جمع النعم ، وهي الإبل والبقر والغنم ، جمع لا واحد له من لفظه ، { وَالْحَرْثِ } ، يعني : الزرع ، { ذَلِكَ } ، الذي ذكرت ، { مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ، يشير إلى أنها متاع يفنى ، { وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ } ، أي : المرجع ، فيه إشارة إلى التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة .
[15]قوله تعالى : { قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ } ، أي : أخبركم { بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } .

[16] ، { الَّذِينَ يَقُولُونَ } ، إن شئت جعلت محل { الَّذِينَ } خفضا ردا على قوله : { لِلَّذِينَ اتَّقَوْا } ، وإن شئت جعلته رفعا على الابتداء ، ويحتمل أن يكون نصبا تقديره : أعني الذين يقولون : { رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا } ، صدقنا ، { فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا } : استرها علينا وتجاوز عنا ، { وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } .
[17] ، { الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ } ، إن شئت نصبتها على المدح ، وإن شئت خفضتها على النعت ، يعني : الصابرين في أداء الأوامر ، وعن ارتكاب النهي ، وعن البأساء والضراء وحين البأس والصادقين في إيمانهم ، قال قتادة : هم قوم صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وألسنتهم فصدقوا في السر والعلانية ، { وَالْقَانِتِينَ } : المطيعين المصلين ، { وَالْمُنْفِقِينَ } أموالهم في طاعة الله ، { وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ } ، قال مجاهد وقتادة والكلبي : يعني المصلين بالأسحار ، وعن زيد بن أسلم أنه قال : هم الذين يصلون الصبح في الجماعة ، وقيل : بالسحر لقربه من الصبح ، وقال الحسن : مدوا الصلاة إلى السحر ، ثم استغفروا .

[18] قوله تعالى : { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } ، قيل : نزلت هذه الآية في نصارى نجران . وقال الكلبي : قدم حبران من أحبار الشام على النبي - صلى الله عليه وسلم - فلما أبصر المدينة قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي يخرج في آخر الزمان ، فلما دخلا عليه عرفاه بالصفة ، فقالا له : أنت محمد ؟ قال : نعم ، قالا له : وأنت أحمد ؟ قال : أنا محمد وأحمد ، قالا له : فإنا نسألك عن شيء فإن أخبرتنا به آمنا بك وصدقناك ، فقال : نعم ، قالا : فأخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله عز وجل ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فأسلم الرجلان . قوله : { شَهِدَ اللَّهُ } أي بين الله ، لأن الشهادة تبيين ، وقال مجاهد : حكم الله ،

وقيل : علم الله أنه لا إله إلا هو . وقوله : { وَالْمَلَائِكَةُ } ، أي : وشهدت الملائكة ، قيل : معنى شهادة الله : الإخبار والإعلام ، ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين الإقرار ، { وَأُولُو الْعِلْمِ } ، يعني : الأنبياء عليهم السلام ، وقال ابن كيسان : يعني المهاجرين والأنصار . وقال مقاتل : علماء مؤمني أهل الكتاب ، عبد الله بن سلام

وأصحابه . قال السدي والكلبي : يعني جميع علماء المؤمنين . { قَائِمًا بِالْقِسْطِ } ، أي : بالعدل ، وقيل معنى قوله : { قَائِمًا بِالْقِسْطِ } أي : قائما بتدبير الخلق ، كما يقال : فلان قائم أمر فلان أي : مدبر له ومتعهد لأسبابه ، وفلان قائم بحق فلان أي : مجاز له ، فالله تعالى مدبر ورازق ومجاز بالأعمال ، { لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } .

[19] { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } يعني : الدين المرضي الصحيح ، كما قال : { وَرَضِيتُ لَكُمُ }{ الْإِسْلَامَ دِينًا } ، وقال : { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ } ، وفتح الكسائي الألف من { إِنَّ الدِّينَ } ردا على أن الأولى ، تقديره : شهد الله أنه لا إله إلا هو ، وشهد أن الدين عند الله الإسلام ، أو شهد الله أن الدين عند الله الإسلام بأنه لا إله إلا هو ، وكسر الباقون الألف على الابتداء ، والإسلام : هو الدخول في السِّلم ، وهو الانقياد والطاعة ، يقال : أسلم ، أي : دخل في السلم ، واستسلم ، قال قتادة في قوله تعالى : { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } ، قال : شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله تعالى ، وهو دين الله الذي شرع لنفسه وبعث به رسله ودل عليه أولياءه ، فلا يقبل غيره ، ولا يجزي إلا به . قوله تعالى : { وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } قال الكلبي : نزلت في اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام ، أي : وما اختلف الذين أوتوا الكتاب في نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - { إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَهُمُ الْعِلْمُ } ، يعني : بيان نعته في كتبهم ، وقال الربيع بن أنس : إن موسى عليه السلام لما حضره الموت دعا سبعين رجلا من أحبار بني إسرائيل فاستودعهم التوراة واستخلف يوشع بن نون ، فلما مضى القرن الأول والثاني والثالث وقعت الفرقة بينهم وهم الذين أوتوا الكتاب من أبناء أولئك السبعين ، حتى أهرقوا بينهم الدماء ، ووقع الشر والاختلاف وذلك من بعد ما جاءهم العلم ، يعني بيان ما في التوراة ، { بَغْيًا بَيْنَهُمْ } ، أي : طلبا للملك والرياسة فسلط الله عليهم الجبابرة ، وقال محمد بن جعفر بن الزبير : نزلت في نصارى نجران ومعناها : وما اختلف الذين أوتوا الكتاب ، يعني : الإنجيل في أمر عيسى عليه السلام ، وفرقوا القول فيه ، إلا من بعد ما جاءهم العلم بأن الله واحد ، وأن عيسى عبده ورسوله ، بغيا بينهم أي : للمعاداة والمخالفة ، { وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } .

[20] قوله تعالى : { فَإِنْ حَاجُّوكَ } ، أي : خاصموك يا محمد في الدين ، وذلك أن اليهود والنصارى قالوا : ألسنا ما سميتنا به يا محمد إنما اليهودية والنصرانية نسب ، والدين هو الإسلام ونحن عليه؟ فقال الله تعالى : { فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ } ، أي : انقدت لله وحده بقلبي ولساني وجميع جوارحي ، وإنما خص الوجه لأنه أكرم الجوارح للإنسان ، وفيه بهاؤه فإذا خضع وجهه للشيء فقد خضع له جميع جوارحه . وقال الفراء : معناه أخلصت عملي لله ، { وَمَنِ اتَّبَعَنِ } ، أي : ومن اتبعني فأسلم كما أسلمت { وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ } ، يعني : العرب { أَأَسْلَمْتُمْ } ، لفظه استفهام ومعناه أمر أي : وأسلموا ، كما قال : { فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ } أي : انتهوا ، { فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا } فقرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية فقال أهل الكتاب : أسلمنا ، فقال لليهود : أتشهدون أن عزيرا عبده ورسوله؟ فقالوا : معاذ الله أن يكون عزير عليه السلام عبدا ، وقال للنصارى : أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله؟ قالوا : معاذ الله أن يكون عيسى عبدا ، فقال الله عز وجل

: { وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ } ، أي : تبليغ الرسالة ، وليس عليك الهداية ، { وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } ، عالم بمن يؤمن وبمن لا يؤمن .

[21] ، قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ } ، يجحدون بآيات الله ، يعني : القرآن ، وهم اليهود والنصارى ، { وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ }« عن أبي عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه - قال : قلت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أي الناس أشد عذابا يوم القيامة؟ قال : رجل قتل نبيا أو رجلا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : { وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ }» ، أخبرهم { بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } ، وجيع .
[22] { أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } ، وبطلان العمل في الدنيا أن لا يقبل ، وفي الآخرة أن لا يجازى عليه .

[23] قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ } ، يعني : اليهود ، { يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ } ، اختلفوا في هذا الكتاب ، فقال قتادة : هم اليهود دعوا إلى حكم القرآن فأعرضوا عنه ، وقال الآخرون : هو التوراة ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لنعيم والحارث : هلموا هلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم ، فأبيا عليه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : { لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ } .
[24] { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ } ، والغرور : هو الإطماع فيما لا يحصل منه شيء ، { مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } ، والافتراء : اختلاق الكذب .

[25] قوله تعالى : { فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ } ، أي : فكيف حالهم أو كيف يصنعون إذا جمعناهم ، { لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ } ، وهو يوم القيامة { وَوُفِّيَتْ } ، ووفرت { كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ } ، أي : جزاء ما كسبت من خير أو شر { وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } ، أي : لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم .

[26] قوله تعالى : { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ }{ قُلِ اللَّهُمَّ } قيل : معناه يا الله ، فلما حذف حرف النداء زيد الميم في آخره ، وقال قوم : للميم فيه معنى ، ومعناها اللهم أمنا بخير ، أي : أقصدنا ، حذف منه حرف النداء ، كقولهم : هلم إلينا ، كان أصله هل أم إلينا ، ثم كثرت في الكلام فحذفت الهمزة استخفافا وربما خففوا أيضا فقالوا لا هم ، قوله : { مَالِكَ الْمُلْكِ } ، يعني : يا مالك الملك ، أي : مالك العباد وما ملكوا ، وقيل : يا ملك السماوات والأرض ، { تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ } ، قال مجاهد وسعيد بن جبير : يعني ملك النبوة ، وقال الكلبي : تؤتي الملك من تشاء محمدا وأصحابه ، { وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ

تَشَاءُ } ، أبي جهل وصناديد قريش ، وقيل : تؤتي الملك من تشاء : العرب ، وتنزع الملك ممن تشاء : فارس والروم ، وقال السدي : تؤتي الملك من تشاء ، أتى الله الأنبياء عليهم السلام الملك وأمر العباد بطاعتهم ، وتنزع الملك ممن تشاء ، نزعه من الجبارين ، وأمر العباد بخلافهم ، وقيل : تؤتي الملك من تشاء : آدم وولده ، وتنزع الملك ممن تشاء : إبليس وجنوده ، وقوله تعالى : { وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ

وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ } ، قال عطاء : تعز من تشاء : المهاجرين والأنصار ، وتذل من تشاء : فارس والروم ، وقيل : تعز من تشاء : محمدا - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، حتى دخلوا مكة في عشرة آلاف ظاهرين عليها ، وتذل من تشاء أبا جهل وأصحابه ، حتى جزت رؤوسهم وألقوا في القليب ، وقيل : تعز من تشاء : بالإيمان والهداية . وتذل من تشاء : بالكفر والضلالة ، وقيل : تعز من تشاء بالطاعة ، وتذل من تشاء بالمعصية ، وقيل تعز من تشاء بالنصر, وتذل من تشاء بالقهر ، وقيل : تعز من تشاء بالغنى ، وتذل من تشاء بالفقر ، وقيل : تعز من تشاء بالقناعة والرضى ، وتذل من تشاء بالحرص والطمع ، { بِيَدِكَ الْخَيْرُ } ، أي : بيدك الخير والشر فاكتفى بذكر أحدهما ، { إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .

[27] قوله تعالى : { تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ } ، أي تدخل الليل في النهار ، حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة ، والليل تسع ساعات ، { وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ } ، حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة ، والنهار تسع ساعات ، فما نقص من أحدهما زاد في الآخر ، { وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ } ، قال ابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة : معنى الآية يخرج الحيوان من النطفة وهي ميتة ، ويخرج النطفة من الحيوان ، وقال عكرمة والكلبي : تخرج الحي من الميت ، أي : الفرخ من البيضة ، وتخرج البيض من الطير ، وقال الحسن وعطاء : يخرج المؤمن من الكافر ، ويخرج الكافر من المؤمن ، وقال الزجاج : يخرج النبات الغض الطري من الحب اليابس ، ويخرج الحب اليابس من النبات الحي النامي ، { وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } ، من غير تضييق ولا تقتير .

[28] قوله عز وجل : { لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } ، قال ابن عباس رضي الله عنه : كان الحجاج بن عمرو وابن أبي الحقيق وقيس بن زيد يبطنون بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم ، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء اليهود لا يفتنونكم عن دينكم ، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقال مقاتل : نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره ، وكانوا يظهرون المودة لكفار مكة ، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت في المنافقين : عبد الله بن أبي وأصحابه كانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالأخبار ، ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله هذه الآية ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم ، قوله تعالى : { وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ } ، أي : موالاة الكفار في نقل الأخبار إليهم وإظهارهم على عورة المسلمين ، { فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ } ، أي ليس من دين الله في شيء ، ثم استثنى فقال : { إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً } ، يعني : إلا أن تخافوا

منهم مخافة ، ومعنى الآية : إن الله تعالى نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم ، إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان ، وقلبه مطمئن بالإيمان دفعا عن نفسه من غير أن يستحل دما حراما أو مالا حراما أو يظهر الكفار على عورة المسلمين ، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل وسلامة النية ، قال الله تعالى : { إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ } ، ثم هذا رخصة ، فلو صبر حتى قتل فله أجر عظيم { وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ } على موالاة الكفار وارتكاب المنهي ومخالفة المأمور ، { وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } .

[29] { قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ } ، قلوبكم من مودة الكفار ، { أَوْ تُبْدُوهُ } من موالاتهم ، قولا وفعلا ، { يَعْلَمْهُ اللَّهُ } ، قال الكلبي : إن تسروا ما في قلوبكم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - من التكذيب ، أو تظهروه بحربه وقتاله ، يعلمه الله ويحفظه عليكم حتى يجازيكم به ، ثم قال : { وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } ، يعني : إذا كان لا يخفى عليه شيء في السماوات ولا في الأرض؟ فكيف يخفى عليه موالاتكم الكفار وميلكم إليهم بالقلب؟ { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .

[30] قوله تعالى : { يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ } ، نصب { يَوْمَ } بنزع حرف الصفة أي : في يوم ، وقيل : بإضمار فعل أي اذكروا واتقوا يوم تجد كل نفس ، { مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا } لم يبخس منه شيء كما قال الله تعالى : { وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا }{ وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ } ، جعل بعضهم خيرا في موضع النصب ، أي تجد محضرا ما عملت من الخير والشر ، فتسر بما عملت من الخير ، وجعل بعضهم خيرا مستأنفا ، ودليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود رضي الله عنهما : (وما عملت من سوء ودت لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) قوله تعالى : { تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا } ، أي : بين النفس { وَبَيْنَهُ } ، يعني وبين السوء { أَمَدًا بَعِيدًا } قال السدي : مكانا بعيدا ، وقال مقاتل : كما بين المشرق والمغرب والأمد الأجل ، والغاية التي ينتهي إليها ، وقال الحسن : يسر أحدهم ألا يلقى عمله أبدا ، وقيل : يود أنه لم يعمله { وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ } .

[31] { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } نزلت في اليهود والنصارى حيث قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، حب المؤمنين لله اتباعهم أمره وإيثار طاعته ، وابتغاء مرضاته ، وحب الله للمؤمنين ثناؤه عليهم وثوابه لهم وعفوه عنهم ، فذلك قوله تعالى : { وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } ، قيل : لما نزلت هذه الآية قال عبد الله بن أبي لأصحابه : إن محمدا يجعل طاعته كطاعة الله ويأمرنا أن نحبه كما أحبت النصارى عيسى ابن مريم ، فنزل قوله تعالى :
[32] { قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا } : أعرضوا عن طاعتهما ، { فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ } عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى" ، قالوا : ومن يأبى ؟ قال : "من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى » (1) " .

---
(1) أخرجه البخاري في الاعتصام 13 / 249 ، والمصنف في شرح السنة 1 / 192 .

[33] قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا } الآية ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : قالت اليهود نحن من أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ونحن على دينهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، يعني : إن الله اصطفى هؤلاء بالإسلام ، وأنتم على غير دين الإسلام . اصطفى : اختار ، افتعل من الصفوة ، وهي الخالص من كل شيء ، آدم أبا البشر ونوحا ، { وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ } ، قيل : أراد بآل إبراهيم وآل عمران ، إبراهيم عليه السلام وعمران أنفسهما ، كقوله تعالى : { وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ } ، يعني : موسى وهارون ، وقال آخرون : آل إبراهيم : إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وكان محمد - صلى الله عليه وسلم - من آل إبراهيم عليه السلام ، وأما آل عمران فقد قال مقاتل : هو عمران بن يصهر بن فاهت بن لاوي بن يعقوب عليه السلام ، وآله : موسى وهارون ، وقال الحسن ووهب : هو عمران بن أشهم بن عمون من ولد سليمان بن داود عليهما السلام ، وآله : مريم وعيسى ، وقيل : عمران بن ماثان ، وإنما خص هؤلاء بالذكر لأن الأنبياء والرسل كلهم من نسلهم ، { عَلَى الْعَالَمِينَ } .

[34] { ذُرِّيَّةً } ، اشتقاقها من ذرا بمعنى خلق ، وقيل : من الذر لأنه استخرجهم من صلب آدم كالذر ، ويسمى الأولاد والآباء ذرية ، فالأولاد ذرية ، لأنه ذراهم ، والآباء ذرية لأنه ذرا الأبناء منهم ، قال الله تعالى : { وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ } ، أي : آباءهم ، { ذُرِّيَّةً } نصب على معنى : واصطفى ذرية { بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ } ، أي : بعضها من ولد بعض ، وقيل : بعضها من بعض في التناصر ، وقيل : بعضها على دين بعض ، { وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } .

[35] { إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ } ، وهي حنة بنت فاقوذا أم مريم ، وعمران : هو عمران بن ماثان ، وليس بعمران أبي موسى عليه السلام ، لأن بينهما ألفا وثمانمائة سنة ، وقيل كان بين إبراهيم وموسى عليهما السلام ألف سنة ، وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألفا سنة ، وكان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم ، وقيل : عمران بن أشهم ، قوله تعالى : { رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا } , أي : جعلت لك الذي في بطني محررا نذرا مني لك ، { فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } ، والنذر ما يوجبه الإنسان على نفسه محررا ، أي : عتيقا خالصا لله مفرغا لعبادة الله ولخدمة الكنيسة ، لا أشغله بشيء من الدنيا ، وكل ما أخلص فهو محرر ، يقال : حررت العبد إذا أعتقته وخلصته من الرق .

[36] { فَلَمَّا وَضَعَتْهَا } ، أي : ولدتها ، إذا هي جارية ، والهاء في قوله : { وَضَعَتْهَا } راجعة إلى النذيرة لا إلى (ما) ولذلك أنث ، { قَالَتْ } حنة وكانت ترجو أن يكون غلاما ، { رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى } اعتذارا إلى الله عز وجل ، { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ } ، بجزم التاء إخبارا عن الله تعالى عز وجل ، { وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى } في خدمة الكنيسة والعباد الذين فيها للينها وضعفها وما يعتريها من الحيض والنفاس, { وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ } ، وهي بلغتهم العابدة والخادمة ، وكانت مريم من أجمل النساء في وقتها وأفضلهن ، { وَإِنِّي أُعِيذُهَا } أمنعها وأجيرها ، { بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا } ، أولادها { مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } ، والشيطان الطريد اللعين والرجيم المرمى بالشهب .

[37] قوله : { فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ } ، أي : قبل الله مريم من حنة ، مكان المحرر ، وتقبل بمعنى : قبل ورضي ، والقبول : مصدر قبل يقبل قبولا ،

مثل الولوغ والوزوغ ، ولم يأت غير هذه الثلاثة ، وقيل معنى التقبل : التكفل في التربية والقيام بشأنها ، { وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا } ، معناه : وأنبتها فنبتت نباتا حسنا ، { وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا } ، قال أهل الأخبار : أخذت حنة مريم حين ولدتها ، فلفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد فوضعتها عند الأحبار أبناء هارون ، وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجبة من الكعبة ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ، فتنافس فيها الأحبار لأنها كانت بنت أمامهم وصاحب قربانهم ، فقال لهم زكريا : أنا أحقكم بها ، عندي خالتها وكان رأس الأحبار ونبيهم ، فذلك قوله تعالى : { وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا } ، قرأ حمزة وعاصم والكسائي (وكفَّلها) بتشديد الفاء ، فيكون زكريا في محل النصب أي : ضمنها الله وضمها إليه بالقرعة ، وقرأ الآخرون بتخفيف فيكون زكريا في محل الرفع ، أي : ضمها زكريا إلى نفسه وقام بأمرها ، وهو زكريا بن أذن بن مسلم بن صدوق من أولاد سليمان بن داود عليهما

السلام ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم زكريا مقصورا ، والآخرون يمدونه ، فلما ضم زكريا مريم إلى نفسه بنى لها بيتا واسترضع لها ، وقال محمد بن إسحاق ضمها إلى خالتها أم يحيى حتى إذا شبت وبلغت مبلغ النساء ، بنى لها محرابا في المسجد وجعل بابه في وسطها لا يرقى إليها إلا بالسلم مثل باب الكعبة لا يصعد إليها غيره ، وكان يأتيها بطعامها وشرابها ودهنها كل يوم ، { كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ } ، وأراد بالمحراب الغرفة ، والمحراب أشرف المجالس ومقدمها ، وكذلك هو من المسجد ، ويقال للمسجد أيضا محراب ، وقال المبرد : لا يكون المحراب إلا أن يُرتقى إليه بدرجة ، وقال الربيع بن أنس : كان زكريا إذا خرج يغلق عليها سبعة أبواب ، فإذا دخل عليها فتحها ، { وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا } ، أي : فاكهة في غير حينها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ، { قَالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا } ، قال أبو عبيدة معناه : من أين لك هذا ، وأنكر بعضهم عليه وقال : معناه من أي جهة لك هذا لأن (أنى) للسؤال عن الجهة ، (وأين) للسؤال عن المكان ، { قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } ، أي : من قطف الجنة ،

وقال أبو الحسن : إن مريم من حين ولدت لم تلقم ثديها قط بل كان يأتيها رزقها من الجنة ، فيقول لها زكريا أنى لك هذا؟ فتقول : { هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } ، تكلمت وهي صغيرة ، { إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } ، قال أهل الأخبار : فلما رأى ذلك زكريا قال : إن الذي قدر على أن يأتي مريم بالفاكهة في غير حينها من غير سبب لقادر على أن يصلح زوجتي ويهب لي ولدا في غير حينه على الكبر ، فطمع في الولد وذلك أن أهل بيته كانوا قد انقرضوا ، وكان زكريا قد شاخ وأيس من الولد .

[38] قال تعالى : { هُنَالِكَ } ، أي : عند ذلك . { دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ } ، فدخل المحراب وغلق الأبواب وناجى ربه { قَالَ رَبِّ } ، أي : يا رب ، { هَبْ لِي } ، أعطني { مِنْ لَدُنْكَ } ، أي : من عندك ، { ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً } ، أي : ولدا مباركا تقيا صالحا رضيا ، والذرية تكون واحدا أو جمعا ذكرا وأنثى ، وهو هاهنا واحد بدليل قوله عز وجل : { فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا } ، وإنما قال : طيبة لتأنيث لفظ الذرية ، { إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ } ، أي : سامعه ، وقيل : مجيبه ، كقوله تعالى : { إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ } أي : فأجيبوني .

[39] { فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ } أراد بالملائكة هاهنا جبريل عليه السلام وحده ، كقوله تعالى في سورة النحل . { يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ } ، يعني جبريل بالروح والوحي ، ويجوز في العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع ، كقولهم . سمعت هذا الخبر من الناس وإنما سمع من واحد ، نظيره قوله تعالى : { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ } ، يعني : نعيم بن مسعود ، { إِنَّ }{ النَّاسُ } ، يعني : أبا سفيان بن حرب ، وقال المفضل بن سلمة : إذا كان القائل رئيسا يجوز الإخبار عنه بالجمع ، لاجتماع أصحابه معه ، وكان جبريل - عليه السلام - رئيس الملائكة، وقل ما يبعث إلا ومعه جمع ، فجرى على ذلك ، قوله تعالى : { وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ } ، أي : في المسجد ، وذلك أن زكريا كان الحبر الكبير الذي يقرب القربان فيفتح باب المذبح ، فلا يدخلون حتى يأذن لهم في الدخول ، فبينما هو قائم يصلي في المحراب ، يعني : في المسجد عند المذبح يصلي والناس ينتظرون أن يأذن لهم في الدخول ، فإذا هو برجل شاب عليه ثياب بيض تلمع ففزع منه ، فناداه وهو جبريل عليه السلام : يا زكريا { أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى } هو الاسم لا

يجر لمعرفته ، وللزائد في أوله ، واختلفوا في أنه لم سمي يحيى ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : لأن الله أحيا به عقر أمه ، قال قتادة : لأن الله تعالى أحيا به قلبه بالإيمان ، وقيل : سمي يحيى لأنه أستشهد ، والشهداء أحياء ، وقيل : معناه يموت ، وقيل : لأن الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يعص ولم يهم بمعصية ، { مُصَدِّقًا } نصب على الحال ، { بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ } يعني : عيسى عليه السلام ، سمي عيسى كلمة الله ، لأن الله تعالى قال له كن من غير أب فكان ، فوقع عليه اسم الكلمة ، وقيل : سمي كلمة لأنه يهتدى به كما يهتدى بكلام الله تعالى ، وقيل : هي بشارة الله تعالى لمريم بعيسى عليه السلام ، بكلامه على لسان جبريل عليه السلام ، وقيل : لأن الله تعالى أخبر الأنبياء بكلامه في كتبه أنه يخلق نبيا بلا أب ، فسماه كلمة لحصوله بذلك الوعد ، وكان يحيى عليه السلام أول من آمن بعيسى عليه السلام وصدقه ، وكان يحيى عليه السلام أكبر من عيسى بستة أشهر وكانا ابني خالة ، ثم قتل يحيى قبل أن يرفع عيسى عليه السلام ، وقال أبو عبيدة : بكلمة من الله ، أي : بكتاب من الله وآياته ، تقول العرب : أنشدني كلمة فلان ، أي : قصيدته :

قوله تعالى : { وَسَيِّدًا } هو فعيل من ساد يسود ، وهو الرئيس الذي يتبع وينتهي إلى قوله ، قال المفضل : أراد سيدا في الدين ، قال الضحاك : السيد : الحسن الخلق ، قال سعيد بن جبير : السيد الذي يطيع ربه عز وجل ، وقال سعيد بن المسيب : السيد الفقيه العالم ، وقال قتادة : سيد في العلم والعبادة والورع ، وقيل : الحليم الذي لا يغضبه شيء ، قال مجاهد : الكريم على الله تعالى ، وقيل : السيد التقي قاله الضحاك ، قال سفيان الثوري : الذي لا يحسد ، وقيل : الذي يفوق قومه في جميع خصال الخير ، وقيل : هو القانع بما قسم الله له ، وقيل : هو السخي ، قوله تعالى : { وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ } ، والحصور : أصله من الحسر وهو الحبس ، والحصور في قول ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة رضي الله عنهم ، وعطاء والحسن الذي لا يأتي النساء ولا يقربهن ، وهو على هذا القول : فعول بمعنى فاعل ، يعني : أنه يحصر نفسه عن الشهوات ، وقال سعيد بن المسيب ، هو العنين الذي لا ماء له فيكون الحصور بمعنى المحصور ، يعني : الممنوع من النساء ، قال سعيد بن المسيب : كان له مثل هدبة الثوب ، وقد تزوج مع ذلك ليكون أغض لبصره ، وفيه

قول آخر : أن الحصور الممتنع من الوطء مع القدرة عليه ، واختار قوم هذا القول لوجهين أحدهما لأن الكلام خرج مخرج الثناء ، وهذا أقرب إلى استحقاق الثناء ، والثاني أنه أبعد من إلحاق الآفة بالأنبياء .
[40] قوله تعالى : { قَالَ رَبِّ } ، أي : يا سيدي ، قال لجبريل عليه السلام ، هذا قول الكلبي وجماعة ، وقيل : قاله لله عز وجل : { أَنَّى يَكُونُ } ، يعني : أين يكون ، { لِي غُلَامٌ } ، أي : أين { وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ } ، هذا من المقلوب ، أي : وقد بلغت الكبر وشخت ، كما تقول : بلغني الجهد ، أي : أنا في الجهد ، وقيل معناه وقد نالني الكبر وأدركني وأضعفني ، قال الكلبي : كان زكريا يوم بشر بالولد ابن اثنتين وتسعين سنة ، وقيل : ابن تسع وتسعين سنة ، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما : كان ابن عشرين ومائة سنة ، وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة ، فذلك قوله تعالى : { وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ } ، أي : عقيم لا تلد ، ويقال : رجل عاقر وامرأة عاقر ، وقد عقر بضم القاف يعقر عقرا وعقارة ، { قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } .

[41] قوله تعالى : { قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً } ، أي : علامة أعلم بها وقت حمل امرأتي فأزيد في العبادة شكرا لك ، { قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ } ، أي : تكف عن الكلام ، { ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ } ، وتقبل بكليتك على عبادتي لا أنه يحبس لسانه عن الكلام ، ولكنه نهي عن الكلام ، وهو صحيح سوي كما قال في سورة مريم { أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا } يدل على قوله تعالى : { وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ } ، فأمره بالذكر ونهاه عن كلام الناس ، وقال أكثر المفسرين : عقل لسانه عن الكلام مع الناس ثلاثة أيام ، وقال قتادة : أمسك لسانه عن الكلام عقوبة لسؤاله الآية ، بعد مشافهة الملائكة إياه ، فلم يقدر على الكلام ثلاثة أيام .
وقوله : { إِلَّا رَمْزًا } أي : إشارة والإشارة قد تكون باللسان وبالعين واليد ، وكانت إشارته بالأصبع المسبحة ، قال الفراء : قد يكون الرمز باللسان من غير أن يبين ، وهو الصوت الخفي شبه الهمس ، وقال عطاء : أراد به صوم ثلاثة أيام لأنهم كانوا إذا صاموا لم يتكلموا إلا رمزا ، { وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ } قيل :

المراد بالتسبيح : الصلاة والعشي ما بين زوال الشمس إلى غروب الشمس ، ومنه سميت صلاة الظهر والعصر صلاتي العشي ، والإبكار ما بين صلاة الفجر إلى الضحى .
[42] قوله تعالى : { وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ } ، يعني : جبريل ، { يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ } ، اختارك { وَطَهَّرَكِ } ، قيل : من مسيس الرجال ، وقيل : من الحيض والنفاس ، قال السدي : كانت مريم لا تحيض ، وقيل : من الذنوب ، { وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ } ، قيل : على عالمي زمانها ، وقيل : على جميع نساء العالمين في أنها ولدت بلا أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء وقيل : بالتحرير في المسجد ولم تحرر أنثى .

[43] قوله تعالى : { يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ } ، قالت لها الملائكة شفاها أي : أطيعي ربك وقال مجاهد : أطيلي القيام في الصلاة لربك ، والقنوت : الطاعة ، وقيل : القنوت طول القيام ، قال الأوزاعي : لما قالت لها الملائكة ذلك قامت في الصلاة حتى ورمت قدماها وسالت دما وقيحا { وَاسْجُدِي وَارْكَعِي } ، قيل : إنما قدم السجود على الركوع لأنه كان كذلك في شريعتهم ، وقيل : بل كان الركوع قبل السجود في الشرائع كلها ، وليس الواو للترتيب بل للجمع ، { مَعَ

الرَّاكِعِينَ } ، ولم يقل مع الراكعات ليكون أعم وأشمل ، فإنه يدخل فيه الرجال والنساء ، وقيل : معناه مع المصلين في الجماعة .

[44] قوله تعالى : { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ } ، يقول لمحمد صلى الله عليه وسلم : ذلك الذي ذكرت من حديث زكريا ويحيى ومريم وعيسى ، على نبينا وعليهم السلام ، من أنباء الغيب ، أي : من أخبار الغيب نوحيه إليك رد الكناية إلى ذلك فلذلك ذكره ، { وَمَا كُنْتَ } ، يا محمد ، { لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ } سهامهم في الماء للاقتراع { أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ } ، يحضنها ويربيها ، { وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } ، في كفالتها .

[45] قوله تعالى : { إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ } ، إنما قال اسمه ، ورد الكناية إلى عيسى ، واختلفوا في أنه لم سمي مسيحا ، فمنهم من قال : هو فعيل بمعنى المفعول ، يعني : أنه مسح من الأقذار وطهر من الذنوب ، وقيل : إنه مسح بالبركة ، وقيل : لأنه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن ، وقيل : مسحه جبريل بجناحه حتى لم يكن للشيطان عليه سبيل ، وقيل : لأنه كان مسيح القدم لا أخمص له ، وسمي الدجال مسيحا لأنه كان ممسوح إحدى العينين ، وقال بعضهم هو فعيل بمعنى الفاعل ، مثل عليم وعالم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : سمي عيسى - عليه السلام - مسيحا لأنه ما مسح ذا عاهة إلا برأ ، وقيل : سمي بذلك لأنه كان يسيح في الأرض ولا يقيم في مكان ، وقال إبراهيم النخعي : المسيح الصديق ، ويكون المسيح بمعنى : الكذاب ، وبه سمي الدجال .
والحرف من الأضداد ، { وَجِيهًا } ، أي شريفا رفيعا ذا جاه وقدر ، { فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ } ، عند الله .

[46] { وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ } صغيرا قبل أوان الكلام ، { وَكَهْلًا } ، قال مقاتل : يعني إذا اجتمعت قوته قبل أن يرفع إلى السماء ، وقال الحسين بن الفضل : وكهلا بعد نزوله من السماء ، وقيل : أخبرها أنه يبقى حتى يكتهل ، وكلامه بعد الكهولة إخبار عن الأشياء المعجزة ، وقيل : وكهلا نبيا بشرها بنبوة عيسى عليه السلام ، وكلامه في المهد معجزة وفي الكهولة دعوة ، وقال مجاهد : وكهلا أي : حليما ، والعرب تمدح الكهولة ، لأنها الحالة الوسطى في احتناك السن واستحكام العقل وجودة الرأي والتجربة ، { وَمِنَ الصَّالِحِينَ } ، أي : هو من العباد الصالحين .
[47] { قَالَتْ رَبِّ } يا سيدي ، تقوله لجبريل ، وقيل : تقول لله عز وجل ، { أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ } ولم يصبني رجل ، قالت ذلك تعجبا إذ لم تكن جرت العادة بأن يولد ولد لا أب له ، { قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا } ، أراد كون الشيء ، { فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } ، كما يريد .

[48] { وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ } ، أي : الكتابة والخط ، { وَالْحِكْمَةَ } ، العلم والفقه { وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ } علمه الله التوراة والإنجيل .

[49] { وَرَسُولًا } ، أي : ونجعله رسولا { إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ } ، قيل : كان رسولا في حال الصبا ، وقيل : إنما كان رسولا بعد البلوغ ، وكان أول أنبياء بني إسرائيل يوسف وآخرهم عيسى عليهما السلام ، فلما بعث قال : { أَنِّي } ، قال الكسائي إنما فتح لأنه أوقع الرسالة عليه ، وقيل : معناه بأني { قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ } ، علامة ، { مِنْ رَبِّكُمْ } ، تصدق قولي ، وإنما قال بآية وقد أتى بآيات

لأن الكل دل على شيء واحد وهو صدقه في الرسالة ، فلما قال ذلك عيسى عليه السلام لبني إسرائيل قالوا : وما هي قال : { أَنِّي أَخْلُقُ } ، أي : أصور وأقدر ، { لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ } ، قرأ أبو جعفر (كهيئة الطائر) ، هاهنا وفي المائدة ، والهيئة الصورة المهيأة من قولهم : هيأت الشيء إذا قدرته وأصلحته ، { فَأَنْفُخُ فِيهِ } ، أي : في الطير { فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ } ، قراءة الأكثرين بالجمع ، لأنه خلق طيرا كثيرا ، وقرأ أهل المدينة ويعقوب (فيكون طائرا) على الواحد هاهنا وفي سورة المائدة ، ذهبوا إلى نوع واحد من الطير ، لأنه لم يخلق غير الخفاش ، وإنما خص الخفاش لأنه أكمل الطير خلقا ؛

لأن له ثديا وأسنانا ، وهي تحيض ، قال وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز فعل الخلق من فعل الخالق ، وليعلم أن الكمال لله عز وجل ، قوله تعالى : { وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ } ، أي : أشفيهما وأصححهما ، واختلفوا في الأكمه ، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - وقتادة : هو الذي ولد أعمى ، وقال الحسن والسدي : هو الأعمى ، وقال عكرمة : هو الأعمش ، وقال مجاهد : هو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل ، والأبرص هو الذي به وضح ، وإنما خص هذين لأنهما داءان عياءان ، وكان الغالب في زمن عيسى - عليه السلام - الطب ، فأراهم الله المعجزة من جنس ذلك ، قوله تعالى : { وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ } ، قال ابن عباس : قد أحيا أربعة أنفس عازر وابن العجوز وابنة العاشر وسام بن نوح ، فأما عازر فكان صديقا له فأرسلت أخته إلى عيسى - عليه السلام - أن أخاك عازر يموت وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام فأتاه هو وأصحابه فوجدوه وقد مات منذ ثلاثة أيام ، فقال لأخته : انطلقي بنا إلى قبره ، فانطلقت معهم إلى قبره ، فدعا الله تعالى فقام عازر ودكه يقطر فخرج من قبره وبقي وولد له ،

وأما ابن العجوز فإنه مُرّ به ميتا على عيسى - عليه السلام - على سرير يحمل فدعا الله عيسى فجلس على سريره ، ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله فبقي وولد له ، وأما ابنة العاشر فكان والدها رجلا يأخذ العشور ، ماتت له بنت بالأمس ، فدعا الله - عز وجل - فأحياها ، وبقيت وولدت ، وأما سام بن نوح عليه السلام فإن عيسى - عليه السلام - جاء إلى قبره فدعا باسم الله الأعظم فخرج من قبره ، وقد شاب نصف رأسه خوفا من قيام الساعة ، ولم يكونوا يشيبون في ذلك الزمان ، فقال قد قامت القيامة؟ قال : لا ولكن دعوتك باسم الله الأعظم ، ثم قال له : مت ، قال : بشرط أن يعيذني الله من سكرات الموت ، فدعا الله ففعل . قوله تعالى : { وَأُنَبِّئُكُمْ } ، أخبركم { بِمَا تَأْكُلُونَ } , مما لم أعاينه ، { وَمَا تَدَّخِرُونَ } ، ترفعونه ، { فِي بُيُوتِكُمْ } ، حتى تأكلوه ، وقيل : كان يخبر الرجل بما أكل البارحة وبما يأكل اليوم وبما ادخره للعشاء . قوله تعالى : { إِنَّ فِي ذَلِكَ } ، الذي ذكرت ، { لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } .

[50] { وَمُصَدِّقًا } عطف على قوله { وَرَسُولًا } { لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ } ، من اللحوم والشحوم ، وقال أبو عبيدة : أراد بالبعض الكل ، يعني : كل الذي حرم عليكم ، وقد ذكر البعض ويراد به الكل ، قوله تعالى : { وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ } ، يعني : ما ذكر من الآيات ، وإنما وحدها لأنها كلها جنس واحد في الدلالة على رسالته ، { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ } .
[51] { إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ } .

[52] { فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى } ، أي : وجد ، قاله الفراء ، وقال أبو عبيدة : عرف ، وقال مقاتل : رأى ، { مِنْهُمُ الْكُفْرَ } ، وأرادوا قتله استنصر عليهم ، { قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ } ، قال السدي وابن جريج : مع الله تعالى ، تقول العرب : الذود إلى الذود إبل ، أي : مع الذود ، كما قال الله تعالى : { وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ } ، أي : مع أموالكم ، وقال الحسن وأبو عبيدة (إِلَى) بمعنى في ، أي : من أعواني في الله ، أي : في ذات الله ، وسبيله ، وقيل : (إِلَى) في موضعها معناه : من يضم نصرته إلى نصرة الله لي ، واختلفوا في الحواريين ، قال مجاهد والسدي : كانوا صيادين يصطادون السمك ، سموا حواريين لبياض ثيابهم ، وقيل : كانوا ملاحين ، وقال الحسن : كانوا قصارين ، سموا بذلك لأنهم كانوا يحورون الثياب ، أي : يبيضونها ، وقال الضحاك : سموا حواريين لصفاء قلوبهم ، وقال ابن المبارك : سموا به لما عليهم من أثر العبادة ونورها ، وأصل الحور عند العرب : شدة البياض ، يقال : رجل أحور وامرأة حوراء أي : شديدة بياض العين ، وقال الكلبي وعكرمة : الحواريون هم الأصفياء ، وهم كانوا

أصفياء عيسى عليه السلام ، وكانوا اثني عشر رجلا ، قال روح بن أبي القاسم : سألت قتادة عن الحواريين ، قال : هم الذين تصلح لهم الخلافة ، وعنه أيضا أنه قال : الحواريون هم الوزراء ، وقال الحسن : الحواريون الأنصار ، والحواري الناصر ، والحواري في كلام العرب خاصة : الرجل الذي يستعين به فيما ينويه { قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ } ، أعوان دين الله ورسوله { آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ } ، يا عيسى ، { بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } .
[53] { رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ } ، من كتابك ، { وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ } ، عيسى ، { فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ } ، الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق ، وقال عطاء مع النبيين لأن كل نبي شاهد أمته ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : مع محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ، لأنهم يشهدون للرسل بالبلاغ .

[54] قوله تعالى : { وَمَكَرُوا } ، يعني : كفار بني إسرائيل الذي أحس عيسى منهم الكفر ، دبروا في قتل عيسى عليه السلام ، بعد إخراج قومه إياه وأمه عاد إليهم مع الحواريين ، وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله وتواطئوا على الفتك به فذلك مكرهم ، قال الله تعالى : { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } ، فالمكر من المخلوقين الخبث والخديعة والحيلة ، والمكر من الله استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يعلم ، كما قال : { سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ } ، ومكر الله تعالى بهم في هذه الآية هو إلقاؤه الشبه على صاحبهم الذي أراد قتل عيسى عليه السلام ، حتى قتل .

[55] { إِذْ قَالَ اللَّهُ يا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ } ، اختلفوا في بعض التوفي هاهنا ، قال الحسن والكلبي وابن جريج : إني قابضك ورافعك في الدنيا إلي من غير موت ، يدل عليه قوله تعالى { فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي } أي : قبضتني إلى السماء وأنا حي, لأن قومه إنما تنصروا بعد رفعه لا بعد موته ، فعلى هذا للتوفي تأويلان أحدهما : إني رافعك إلي وافيا لم ينالوا منك شيئا ، من قولهم : توفيت من كذا وكذا وأستوفيه إذا أخذته تامًّا ، والآخر : إني متسلمك ، من قولهم توفيت منه كذا ، أي : تسلمته ، وقال الربيع بن أنس : المراد بالتوفي النوم ، وكان عيسى قد نام فرفعه الله نائما إلى السماء ، معناه إني منيمك ورافعك إلي ، كما قال الله تعالى : { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ } أي : ينيمكم بالليل ، وقال بعضهم : المراد بالتوفي الموت ، وروى علي بن طلحة عن ابن

عباس رضي الله عنهما أن معناه : إني مميتك يدل عليه قوله تعالى : { قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ } ، فعلى هذا له تأويلان أحدهما ما قاله وهب : توفى الله عيسى ثلاث ساعات من النهار ثم أحياه ثم رفعه الله إليه ، وقال محمد بن إسحاق

: إن النصارى يزعمون أن الله تعالى توفاه سبع ساعات من النهار ، ثم أحياه ورفعه إليه ، والآخر : ما قاله الضحاك وجماعة : إن في هذه الآية تقديمًا وتأخيرًا معناه : إني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك من السماء . قوله تعالى : { وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا } أي : مخرجك من بينهم ومنجيك منهم { وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } ، قال قتادة والربيع والشعبي ومقاتل والكلبي : هم أهل الإسلام الذين صدقوه واتبعوا دينه في التوحيد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهم فوق الذين كفروا ظاهرين قاهرين بالعزة والمنعة والحجة ، وقال الضحاك : يعني الحواريين فوق الذين كفروا ، وقيل : هم أهل الروم ، وقيل : أراد بهم النصارى ، أي : فهم فوق اليهود إلى يوم القيامة ، فإن اليهود قد ذهب ملكهم ، وملك النصارى دائم إلى قريب من قيام الساعة ، فعلى هذا يكون الاتباع بمعنى الادعاء والمحبة ، لا اتباع الدين ، { ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ } ، في الآخرة ، { فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } ، من الدين وأمر عيسى .

[56] { فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا } ، بالقتل والسبي والجزية والذلة ، { وَالْآخِرَةِ } أي : وفي الآخرة بالنار ، { وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } .
[57] { وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ } أي : يوفيهم أجور أعمالهم ، { وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } ، أي : لا يرحم الكافرين ولا يثني عليهم بالجميل .
[58] { ذَلِكَ } أي : هذا الذي ذكرته لك من الخبر عن عيسى ومريم والحواريين { نَتْلُوهُ عَلَيْكَ } ، يعني : نخبرك به بتلاوة جبريل عليك ، { مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ } ، يعني القرآن والذكر ذي الحكمة ، وقال مقاتل : الذكر الحكيم ، أي : المحكم الممنوع من الباطل ، وقيل : الذكر الحكيم : هو اللوح المحفوظ ، وهو معلق بالعرش من درة بيضاء ، وقيل : من الآيات أي من العلامات الدالة على نبوتك لأنها أخبار لا يعلمها إلا قارئ كتاب الله أو من يوحى إليه وأنت أمي لا تقرأ .

[59] { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ } الآية نزلت في وفد نجران ، وذلك أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما لك تشتم صاحبنا ، قال : وما أقول ؟ قالوا : تقول إنه عبد الله ، قال : " أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول " ، فغضبوا وقالوا : هل رأيت إنسانًا قط من غير أب ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ } في كونه خلقه من غير أب { كَمَثَلِ آدَمَ } لأنه خلق من غير أب وأم ، { خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ } ، يعني : لعيسى عليه السلام ، { كُنْ فَيَكُونُ } ، يعني : فكان ، فإن قيل : ما معنى قوله : { خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } خلقًا ، ولا تكوين بعد الخلق ، قيل : معناه خلقه ثم أخبركم أني قلت له كن فكان من غير ترتيب في الخلق كما يكون في الولادة ، وهو مثل قول الرجل : أعطيتك اليوم درهمًا ثم أعطيتك أمس درهمًا أي : ثم أخبرك أني أعطيتك أمس درهمًا ،

وفيما سبق من التمثيل دليل على جواز القياس ، لأن القياس هو رد فرع إلى أصل بنوع شبه ، وقد رد الله تعالى خلق عيسى إلى آدم عليهم السلام بنوع

شبه .
[60] قوله تعالى : { الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ } أي : هو الحق ، وقيل : جاءك الحق من ربك ، { فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } أي : الشاكين ، الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد أمته .

[61] قوله عز وجل : { فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ } أي : جادلك في أمر عيسى وفي الحق ، { مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ } بأن عيسى عبد الله ورسوله ، { فَقُلْ تَعَالَوْا } ، أصله تعاليوا تفاعلوا من العلو فاستثقلت الضمة على الياء فحذفت ، قال الفراء : بمعنى تعال كأنه يقول ارتفع ، { نَدْعُ } جزم لجواب الأمر ، وعلامة الجزم سقوط الواو ، { أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ } ، قيل : أبناءنا الحسن والحسين ، ونساءنا فاطمة وأنفسنا عنى نفسه وعليًّا رضي الله عنه ، والعرب تسمي ابن عم الرجل نفسه ، كما قال الله تعالى : { وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ } يريد إخوانكم ، وقيل : هو على العموم لجماعة أهل الدين ، { ثُمَّ نَبْتَهِلْ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي نتضرع في الدعاء ، وقال الكلبي : نجتهد ونبالغ في الدعاء ، وقال الكسائي وأبو عبيدة : نَبْتَهِلْ، والابتهال الالتعان ، يقال عليه بهلة الله ، أي : لعنته { فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ } ، منا ومنكم في أمر عيسى .

[62] قال الله تعالى : { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ } النبأ الحق ، { وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ } و(مِنْ) صلة تقديره : وما إله إلا الله ، { وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } .
[63] { فَإِنْ تَوَلَّوْا } ، أعرضوا عن الإيمان { فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ } ، الذين يعبدون غير الله ويدعون الناس إلى عبادة غير الله .

[64] { قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ } والعرب تسمي كل قصة لها شرح (كلمة) ومنه سميت القصيدة (كلمة) { سَوَاءٍ } عدل { بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ } مستوية أي أمر مستو ، يقال دعا فلان إلى السواء ، أي إلى النصفة ، وسواء كل شيء وسطه ، ومنه قوله تعالى : { فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ } وإنما قيل : للنصفة سواء؛ لأن أعدل الأمور أفضلها وأوسطها ، سواء نعت لكلمة إلا أنه مصدر ، والمصدر لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث فإذا فتحت السين مددت ، وإذا كسرت أو ضمت قصرت ، كقوله تعالى : { مَكَانًا سُوًى } ، ثم فسر الكلمة فقال . { أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ } ومحل (أن) رفع على إضمار (هي) ، وقال الزجاج : رفع بالابتداء ، وقيل : محله نصب بنزع حرف الصلة ، معناه بأن لا نعبد إلا الله ، وقيل : محله خفض بدلًا من الكلمة ؛ أي : تعالوا إلى كلمة أن لا نعبد إلا الله ، { وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ } كما فعلت اليهود والنصارى ، قال الله تعالى : { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ } ، وقال عكرمة : هو سجود

بعضهم لبعض أي لا نسجد لغير الله وقيل : معناه لا نطيع أحدا في معصية الله { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا } أي فقولوا أنتم يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم لهم : اشهدوا { بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } مخلصون بالتوحيد .
[65] قوله تعالى : { يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ } تزعمون أنه كان

على دينكم ، وإنما دينكم اليهودية والنصرانية وقد حدثت اليهودية بعد نزول التوراة ، والنصرانية بعد نزول الإنجيل ، { وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ } ، أي : بعد إبراهيم بزمان طويل وكان بين إبراهيم وموسى ألف سنة وبين موسى وعيسى ألفا سنة { أَفَلَا تَعْقِلُونَ } بطلان قولكم .

[66] قوله تعالى : { هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ } أصله أولاء دخلت عليه هاء التنبيه ، وهو موضع النداء يعني : يا هؤلاء أنتم ، { حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ } ، يعني في أمر موسى وعيسى ، وادعيتم أنكم على دينهما ، وقد أنزلت التوراة والإنجيل عليكم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم وليس في كتابكم أنه كان يهوديًّا أو نصرانيًّا ، وقيل : حاججتم فيما لكم به علم يعني : في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنهم وجدوا نعته في كتابهم ، فجادلوا فيه بالباطل ، فلم تحاجون في إبراهيم ، وليس في كتابكم ولا علم لكم به ، { وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } ، ثم برأ الله تعالى إبراهيم عما قالوا ، فقال :
[67] { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } ، والحنيف المائل عن الأديان إلى الدين المستقيم ، وقيل : الحنيف الذي يوحد ويحج ويضحي ويختتن ويستقبل الكعبة وهو أسهل الأديان وأحبها إلى الله عز وجل .

[68] قوله تعالى : { إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ } أي من اتبعه في زمانه وملته بعده { وَهَذَا النَّبِيُّ } يعني محمدًا صلى الله عليه وسلم ، { وَالَّذِينَ آمَنُوا } يعني : من هذه الأمة { وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ } .
[69] قوله عز وجل : { وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } ، نزلت في معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمار بن يا سر حين دعاهم اليهود إلى دينهم ، فنزلت { وَدَّتْ طَائِفَةٌ } أي : تمنت جماعة من أهل الكتاب يعني اليهود ، { لَوْ يُضِلُّونَكُمْ } يستزيلونكم عن دينكم ويردونكم إلى الكفر ، { وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ }
[70] { يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ } يعني : القرآن وبيان نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، { وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ } أن نعته في التوراة والإنجيل مذكور .

[71] { يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ } تخلطون الإسلام باليهودية والنصرانية ، وقيل : لم تخلطون الإيمان بعيسى عليه السلام وهو الحق ، بالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الباطل . وقيل : لِمَ تخلطون التوراة التي أنزلت على موسى بالباطل الذي حرفتموه وكتبتموه بأيديكم ، { وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } أن محمدًا صلى الله عليه وسلم ودينه حق .

[72] { وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ } أوله ، سمي وجهًا لأنه أحسنه وأول ما يواجه الناظر فيراه ، { وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } ، فيشكون ويرجعون عن دينهم .

[73] { وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ } هذا متصل بالأول من قول اليهود بعضهم لبعض ، وَلَا تُؤْمِنُوا أي : ولا تصدقوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ، أي : وافق ملتكم ، واللام في (من) صلة أي : لا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم اليهودية ، كقوله تعالى : { قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ } أي : ردفكم . { قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى

اللَّهِ } ، هذا خبر من الله تعالى أن البيان بيانه ، ثم اختلفوا فيه فمنهم من قال : هذا كلام معترض بين كلامين وما بعده متصل بالكلام الأول إخبار عن قول اليهود لبعض ، ومعناه : وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ وَلَا تُؤْمِنُوا { أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ } من العلم والكتاب والحكمة والآيات من المن والسلوى وفلق البحر وغيرها من الكرامات ، وَلَا تُؤْمِنُوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنكم أصح دينًا منهم ، وهذا معنى قول مجاهد ، وقيل : إن اليهود قالت لسفلتهم ، وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ، أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ من العلم ، أي لئلا يؤتى أحد ، و(لا) فيه مضمرة ، كقوله تعالى : { يُبَيِّنُ اللَّهُ

لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا } أي : لئلا تضلوا ، يقولون : لا تصدقوهم لئلا يعلمون مثل ما علمتم فيكون لكم الفضل عليهم في العلم ، أو لئلا يحاجوكم عند ربكم فيقولوا عرفتم أن ديننا حق ، وهذا معنى قول ابن جريج ، وقرأ الحسن والأعمش (إن يؤتى) بكسر الألف ، فيكون قول اليهود تاما عند قوله : إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ، وما بعده من قول الله تعالى ، يقول : قل يا محمد (إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ) أن يؤتى (أن) بمعنى : الجحد ، أي : ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، { أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ } يعني : إلا أن يجادلكم اليهود بالباطل فيقولوا : نحن أفضل منكم ، فقوله عز وجل : (عند ربكم) ، أي : عند فعل ربكم بكم ، وهذا معنى قول سعيد بن جبير والحسن والكلبي ومقاتل ، وقال الفراء ويجوز أن يكون (أو) بمعنى حتى كما يقال : تعلق به أو يعطيك حقك ، ومعنى الآية : ما أعطي أحد مثل ما أعطيتم يا أمة محمد من الدين والحجة حتى يحاجوكم عند ربكم! وقرأ ابن كثير (آن يؤتى) بالمد على الاستفهام ، وحينئذ يكون فيه اختصار تقديره : أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا معشر اليهود من الكتاب والحكمة

تحسدونه ولا تؤمنون به ، هذا قول قتادة والربيع ، قالا : هذا من قول الله تعالى ، يقول : قل لهم يا محمد إن الهدى هدى الله بأن أنزل كتابا مثل كتابكم وبعث نبيا حسدتموه وكفرتم به ، { قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } ، قوله : (أَوْ يُحَاجُّوكُمْ) على هذه القراءة رجوع إلى خطاب المؤمنين ، وتكون (أو) بمعنى (أن) لأنهما حرفا شرط وجزاء يوضع أحدهما موضع الآخر ، أي : وإن يحاجوكم يا معشر المؤمنين عند ربكم ، فقل يا محمد إن الهدى هدى الله ونحن عليه ، ويجوز أن يكون الجميع خطابا للمؤمنين ، ويكون نظم الآية : أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا معشر المؤمنين حسدوكم ، فقل : إن الفضل بيد الله ، وإن حاجوكم ، فقل : (إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ) ويجوز أن يكون الخبر عن اليهود قد تم عند قوله { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } وقوله تعالى : (وَلَا تُؤْمِنُوا) من كلام الله يثبت به قلوب المؤمنين لئلا يشكوا عند تلبيس اليهود وتزويرهم في دينهم ، ويقول : لا تصدقوا يا معشر المؤمنين إلا لمن اتبع دينكم ، ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من العلم والدين والفضل ، ولا تصدقوا

أن يحاجوكم في دينكم عند ربكم أي : يقدروا على ذلك ، فإن الهدى هدى الله ، وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ، فتكون الآية كلها خطاب الله للمؤمنين عند تلبيس اليهود لئلا يرتابوا .

[74] قوله : { يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ } أي : بنبوته { مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } .

[75] قوله تعالى : { وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ } الآية ، نزلت في اليهود أخبر الله تعالى أن فيهم أمانة وخيانة ، والقنطار عبارة عن المال الكثير ، والدينار عبارة عن المال القليل ، يقول : منهم من يؤدي الأمانة وإن كثرت ، ومنهم من لا يؤديها وإن قلت ، قال مقاتل : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ هم مؤمنو أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام ، وأصحابه ، { وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ } يعني : كفار اليهود ، ككعب بن الأشرف وأصحابه ، وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في قوله عز وجل : (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ) يعني : عبد الله بن سلام ، أودعه رجل ألفًا ومائتي أوقية من ذهب فأداها إليه ، (وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ) يعني : فنحاص بن عازوراء ، استودعه رجل من قريش دينارًا فخانه ، { إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا } ، قال ابن عباس ملحًّا ، يريد يقوم عليه يطالبه بالإلحاح ، وقال الضحاك

: مواظبًا أي تواظب عليه بالاقتضاء ، وقيل : أراد أودعته ثم استرجعته وأنت قائم على رأسه ولم تفارقه رده إليك ، فإن فارقته وأخرته أنكره ولم يؤده ، { ذَلِكَ } أي : ذلك الاستحلال والخيانة ، { بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ } أي : في مال العرب إثم وحرج ، كقوله تعالى : { مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ } ، وذلك بأن اليهود قالوا : أموال العرب حلال لنا ، لأنهم ليسوا على ديننا ولا حرمة لهم في كتابنا ، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم في دينهم ، وقال الكلبي : قالت اليهود إن الأموال كلها كانت لنا فيما في يد العرب منها فهو لنا ، وإنما ظلمونا وغصبونا فلا سبيل علينا في أخذنا إياه منهم ، وقال الحسن وابن جريج ومقاتل : بايع اليهود رجالا من المسلمين في الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم بقية أموالهم فقالوا : ليس لكم علينا حق ، ولا عندنا قضاء لأنكم تركتم دينكم وانقطع العهد بيننا وبينكم ، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتبهم ، فكذبهم الله عز وجل وقال عز من قائل : { وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } ، ثم قال ردًّا عليهم :

[76] { بَلَى } أي : ليس كما قالوا بل عليهم سبيل ، ثم ابتدأ فقال : { مَنْ أَوْفَى } أي : ولكن من أوفى { بِعَهْدِهِ } أي : بعهد الله الذي عهد إليه في التوراة من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وأداء الأمانة ، وقيل : الهاء في عهده راجعة إلى الموفي { وَاتَّقَى } الكفر والخيانة ونقض العهد ، { فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } .

[77] قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا } قال عكرمة : نزلت في رؤوس اليهود كتموا ما عهد الله إليهم في التوراة في شأن محمد صلى الله عليه وسلم وبدلوه وكتبوا بأيديهم غيره وحلفوا أنه من عند الله لئلا يفوتهم المآكل والرشا التي كانت لهم من أتباعهم . (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ) أي : يستبدلون بعهد الله ، وأراد الأمانة ، وَأَيْمَانِهِمْ الكاذبة ثمنًا قليلا أي : شيئا قليلا من حطام الدنيا ، { أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ } ، لا نصيب لهم { فِي الْآخِرَةِ } ، ونعيمها { وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ } كلامًا ينفعهم ويسرهم ، وقيل : هو بمعنى الغضب ، كما يقول الرجل : إني لا أكلم فلانا إذا كان غضب عليه ، { وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ، أي : لا يرحمهم ولا يحسن إليهم ولا ينيلهم خيرًا ، { وَلَا يُزَكِّيهِمْ } ، أي : لا يثني عليهم بالجميل ولا يطهرهم من الذنوب ، { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } .

[78] قوله تعالى : { وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا } يعني : من أهل الكتاب لَفَرِيقًا أي : طائفة ، وهم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيي بن أخطب وأبو يا سر وشعبة بن عمرو الشاعر ، { يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ } أي : يعطفون ألسنتهم بالتحريف والتغيير ، وهو ما غيروا من صفة النبي صلى الله عليه وسلم وآية الرجم وغير ذلك ، يقال : لوى لسانه عن كذا أي : غيره ، { لِتَحْسَبُوهُ } أي : لتظنوا ما حرفوا { مِنَ الْكِتَابِ } ، الذي أنزله الله تعالى ، { وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } ، عمدًا ، { وَهُمْ يَعْلَمُونَ } ، أنهم كاذبون ، وقال الضحاك عن ابن عباس : إن الآية نزلت في اليهود والنصارى جميعًا ، وذلك أنهم حرفوا التوراة والإنجيل وألحقوا بكتاب الله ما ليس منه .

[79] قوله تعالى : { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ } الآية ، قال مقاتل والضحاك : { مَا كَانَ لِبَشَرٍ } يعني : عيسى عليه السلام ، وذلك أن نصارى نجران كانوا يقولون : إن عيسى أمرهم أن يتخذوه ربًّا فقال تعالى : مَا كَانَ لِبَشَرٍ يعني : عيسى { أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ } أي الإنجيل ، وقال ابن عباس وعطاء : { مَا كَانَ لِبَشَرٍ } يعني محمدًا { أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ } أي القرآن ، وذلك أن أبا رافع القرظي من اليهود ، والرئيس من نصارى أهل نجران قالا : يا محمد تريد أن نعبدك ونتخذك ربًّا فقال : معاذ الله أن آمر بعبادة غير الله ، وما بذلك أمرني الله ، وما بذلك بعثني ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : { مَا كَانَ لِبَشَرٍ } أي ما ينبغي لبشر ، كقوله تعالى : { مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا } أي ما ينبغي لنا ، والبشر : جميع بني آدم لا واحد له من لفظه ، كالقوم والجيش ، ويوضع موضع الواحد والجمع ، { أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ } ، الفهم والعلم ، وقيل : إمضاء الحكم عن الله عز وجل ، { وَالنُّبُوَّةَ } ، المنزلة الرفيعة بالإنباء ، {

ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا } أي : ولكن يقول كونوا ، { رَبَّانِيِّينَ } ، اختلفوا فيه ، قال علي وابن عباس والحسن : كونوا فقهاء علماء ، وقال قتادة : حكماء وعلماء ، وقال سعيد بن جبير : العالم الذي يعمل بعلمه ، وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس : فقهاء معلمين ، وقيل : الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره ، وقال عطاء : حكماء وعلماء ونصحاء لله في خلقه ، قال أبو عبيدة : سمعت رجلًا عالمًا يقول : الرباني العالم بالحلال والحرام والأمر والنهي العارف بأنباء الأمة ما كان وما يكون ، وقيل : الربانيون فوق الأحبار ، والأحبار فوق العلماء ، والربانيون الذين جمعوا مع العلم البصائر بسياسة الناس ، قال المؤرج : كونوا ربانيين تدينون لربكم ، من الربوبية ، كان في الأصل ربي فأدخلت الألف للتفخيم ، ثم أدخلت النون لسكون الألف ، كما قيل : صنعاني وبهراني ، وقال المبرد : هم أرباب العلم سموا به لأنهم يربون العلم ، ويقومون به ويربون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها ، وكل من قام بإصلاح الشيء وإتمامه فقد ربه يربه ، واحدها : ربان كما قالوا : ربان وعطشان وشبعان ،

ثم ضمت إليه يا ء النسبة ، كما يقال : الحياني ورقباني ، وحكي عن علي رضي الله عنه أنه قال : هو الذي يربي علمه بعمله ، قال محمد ابن الحنفية يوم مات ابن عباس : اليوم مات رباني هذه الأمة ، { بِمَا كُنْتُمْ } أي : بما أنتم كقوله تعالى : { مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا } ، أي : من هو في المهد { تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ } ، قرأ ابن عامر وعاصم والكسائي تُعَلِّمُونَ بالتشديد من التعليم ، وقرأ

الآخرون (تعلمون) بالتخفيف من العلم ، كقوله : { وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } أي : تقرؤون .

[80] قوله : { وَلَا يَأْمُرَكُمْ } ، قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب بنصب الراء عطفا على قوله : (ثم يقول) ، فيكون مردودا على البشر ، أي : ولا يأمر ذلك البشر ، وقيل : على إضمار (أن) أي : ولا أن يأمركم ذلك البشر ، وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف ، معناه : ولا يأمركم الله ، وقال ابن جريج وجماعة : ولا يأمركم محمد ، { أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا } ، كفعل قريش والصابئين حيث قالوا : الملائكة بنات الله واليهود والنصارى حيث قالوا في المسيح وعزير ما قالوا ، { أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } ، قالوا له على طريق التعجب والإنكار ، يعني : لا يقوله هذا .

[81] قوله عز وجل : { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ } قرأ حمزة لما بكسر اللام ، وقرأ الآخرون بفتحها ، فمن كسر اللام فهي لام الإضافة دخلت على ما الموصولة ، ومعناه : إن الذي يريد للذي آتيتكم ، أي : أخذ ميثاق النبيين لأجل الذي آتاهم من الكتاب والحكمة وأنهم أصحاب الشرائع ، ومن فتح اللام فمعناه : للذي آتيتكم ، بمعنى الخبر ، وقيل : بمعنى الجزاء ، أي لئن آتيتكم ومهما آتيتكم ، وجواب الجزاء ، قوله : (لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ) قوله (لَمَا آتَيْتُكُمْ) قرأ نافع وأهل المدينة (آتيناكم) على التعظيم كما قال : { وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا }{ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا } وقرأ الآخرون بالتاء لموافقة الخط ، ولقوله ، (وإنا معكم) واختلفوا في المعنى بهذه الآية فذهب قوم إلى أن الله تعالى أخذ الميثاق على النبيين خاصة أن يبلغوا كتاب الله ورسالته إلى عباده ، وأن يصدق بعضهم بعضا ، وأخذ العهود على كل نبي أن يؤمن بمن يأتي بعده من الأنبياء ، وينصره إن أدركه ، فإن لم يدركه أن يأمر قومه بنصرته إن (أدركوه) ، فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى ، ومن عيسى أن

يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقال الآخرون : بما أخذ الله الميثاق منهم في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، فعلى هذا اختلفوا فمنهم من قال : إنما أخذ الميثاق على أهل الكتاب الذين أرسل منهم النبيين ، وهذا قول مجاهد والربيع ، ألا ترى إلى قوله : { ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ } ، وإنما كان محمد صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى أهل الكتاب دون النبيين يدل عليه أن في قراءة عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } ، وإنما القراءة المعروفة { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ } فأراد : أن الله أخذ ميثاق النبيين أن يأخذوا الميثاق إلى أممهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ويصدقوه وينصروه ، إن أدركوه ، وقال بعضهم : أراد أخذ الله الميثاق على النبيين ، وأممهم جميعا في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، فاكتفى بذكر الأنبياء لأن العهد على المتبوع عهد على الأتباع ، وهذا معنى قول ابن عباس ، وقال علي بن أبي طالب : لم يبعث الله نبيا آدم فمن بعده إلا أخذ عليه الميثاق والعهد في أمر محمد ، وأخذ

العهد على قومه ليؤمنن به ، ولئن بعث وهم أحياء لينصرنه ، قوله : (ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ) ، يعني : محمدًا صلى الله عليه وسلم (لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ) قال : يقول الله تعالى للأنبياء حين استخرج الذرية من صلب آدم عليه السلام والأنبياء فيهم كالمصابيح والسرج ، وأخذ عليهم الميثاق في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، { قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي } ، أي

: قبلتم على ذلكم عهدي ، والإصر : العهد الثقيل ، { قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ } ، الله تعالى { فَاشْهَدُوا } أي : فاشهدوا أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم ، { وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } ، عليكم وعليهم ، وقال ابن عباس : فاشهدوا ، أي فاعلموا ، وقال سعيد بن المسيب : قال الله تعالى للملائكة فاشهدوا عليهم كناية عن غير مذكور .
[82] { فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ } ، الإقرار ، { فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } ، العاصون الخارجون عن الإيمان .

[83] قوله عز وجل : { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ } ، وذلك « أن أهل الكتاب اختلفوا فادعى كل واحد أنه على دين إبراهيم عليه السلام واختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم عليه السلام " ، فغضبوا وقالوا : لا نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك » ، فأنزل الله تعالى : { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ } ، خضع وانقاد ، { مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا } ، فالطوع : الانقياد والاتباع بسهولة ، والكره : ما كان بمشقة وإباء من النفس ، واختلفوا في قوله : (طوعًا وكرهًا) قال الحسن : أسلم أهل السموات طوعًا وأسلم من في الأرض بعضهم طوعًا وبعضهم كرهًا خوفًا من السيف والسبي ، وقال مجاهد : طوعًا المؤمن ، وكرهًا ذلك الكافر ، وقيل : هذا يوم الميثاق حين قال لهم { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى } ، فقال بعضهم : طوعًا وبعضهم : كرهًا ، وقال قتادة : المؤمن من أسلم طوعًا فنفعه الإيمان ، والكافر أسلم كرهًا في وقت اليأس فلم ينفعه الإسلام ، وقال الشعبي : هو استعاذتهم به عند اضطرارهم ، كما قال الله تعالى :

{ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } وقال الكلبي : طوعًا الذي ولد في الإسلام ، وكرهًا الذين أجبروا على الإسلام ممن يسبى منهم فيجاء بهم في السلاسل ، { وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } لأن مرجع جميع الخلق إلى الله عز وجل .
[84] قوله تعالى : { قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } ، ذكر الملل والأديان واضطراب الناس فيها ، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : آمنا بالله الآية .

[85] قوله : { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ } ، نزلت في اثني عشر رجلا ارتدوا عن الإسلام وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفارا ، منهم الحارث بن سويد الأنصاري ، فنزلت فيهم { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } .
[86] { كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ } ، لفظه استفهام ومعناه جحد ، أي : لا يهدي الله ، وقيل معناه : كيف يهديهم الله في الآخرة إلى الجنة والثواب { وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } .
[87] { أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } .
[88] { خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ } ، وذلك أن الحارث بن سويد لما لحق بالكفار ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لي من توبة ففعلوا ذلك ، فأنزل الله تعالى :

[89] { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } ، لما كان منه ، فحملها إليه رجل من قومه وقرأها عليه فقال الحارث : إنك والله فيما علمت لصدوق وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصدق منك وإن الله عز وجل لأصدق الثلاثة ، فرجع الحارث إلى المدينة وأسلم وحسن إسلامه .

[90] قوله عز وجل : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا } قال قتادة والحسن : نزلت في اليهود كفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل بعد إيمانهم بأنبيائهم ثم ازدادوا كفرًا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، وقال أبو العالية . نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم لما رأوه بعد إيمانهم بنعته وصفته في كتبهم ، ثم ازدادوا كفرا ، يعني : ذنوبًا في حال كفرهم ، قال مجاهد : نزلت في جميع الكفار أشركوا بعد إقرارهم بأن الله خالقهم ، قم ازدادوا كفرا أي : أقاموا على كفرهم حتى هلكوا عليه ، قال الحسن : ثم ازدادوا كفرًا كلما نزلت آية كفروا بها ، فازدادوا كفرًا وقيل : ثم ازدادوا كفرًا بقولهم : نتربص بمحمد ريب المنون ، قال الكلبي : نزلت في أحد عشر من أصحاب الحارث بن سويد ، لما رجع الحارث إلى الإسلام أقاموا هم على الكفر بمكة وقالوا نقيم على الكفر ما بدا لنا فمتى أردنا الرجعة نزل فينا ما نزل في الحارث ، فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فمن دخل منهم في الإسلام قبلت توبته ، ونزل فيمن مات منهم كافرا { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ }

الآية ، فإن قيل : قد وعد الله قبول توبة من تاب ، فما معنى قوله : { لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ } ، قيل : لن تقبل توبتهم إذا رجعوا في حال المعاينة ، كما قال : { وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ } ، وقيل : هذا في أصحاب الحارث بن سويد حيث أعرضوا عن الإسلام ، وقالوا نتربص بمحمد ريب المنون ، فإن ساعده الزمان نرجع إلى دينه ، (لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ) ، لن يقبل ذلك لأنهم متربصون غير محققين ، { وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ } .
[91] قوله عز وجل : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ } ، أي : قدر ما يملأ الأرض من شرقها إلى غربها ، { ذَهَبًا } ، نصب على التفسير ، كقولهم : عشرون درهما . { وَلَوِ افْتَدَى بِهِ } ، قيل : معناه لو افتدى به ، والواو زائدة مقحمة ، { أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } .

[92] قوله تعالى : { لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ } يعني : الجنة ، قاله ابن عباس وابن مسعود ومجاهد ، وقال مقاتل بن حيان : التقوى ، وقيل : الطاعة ، وقيل : الخير ، وقال الحسن : لن تكونوا أبرارا ، { حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ } أي : من أحب أموالكم إليكم ، روى الضحاك عن ابن عباس : أن المراد منه أداء الزكاة ، وقال مجاهد والكلبي : هذه الآية نسختها آية الزكاة ، وقال الحسن : كل إنفاق يبتغي به المسلم وجه الله حتى الثمرة ينال به هذا البر ، وقال عطاء : لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ أي : شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاء أشحاء . { وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ } ، أي : يعلمه ويجازي به .

[93] قوله تعالى : { كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ } ، سبب نزول هذه الآية : « أن اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك تزعم أنك على ملة إبراهيم وكان

إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل وألبانها وأنت تأكلها ، فلست على ملته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كان ذلك حلالا لإبراهيم عليه السلام " ، فقالوا : كل ما نحرمه اليوم كان ذلك حراما على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا » ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، يعني : ليس الأمر على ما قالوا من حرمة لحوم الإبل وألبانها على إبراهيم ، بل كان الكل حلالًا له ولبني إسرائيل ، وإنما حرمها إسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة ، يعني : ليست في التوراة حرمتها ، وقال الضحاك : لم يكن شيء من ذلك حرامًا عليهم ولا حرمه الله في التوراة ، وإنما حرموه على أنفسهم اتباعًا لأبيهم ، ثم أضافوا تحريمه إلى الله ، فكذبهم الله عز وجل ، فقال : { قُلْ } يا محمد { فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا } ، حتى يتبين لكم أنه كما قلت ، { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } ، فلم

يأتوا ، فقال الله عز وجل :
[94] { فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } .
[95] { قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } ، وإنما دعاهم إلى اتباع ملة إبراهيم لأن في اتباع ملة إبراهيم اتباعه صلى الله عليه وسلم .
[96] قوله تعالى : { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ } ، سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للمسلمين : بيت المقدس قبلتنا وهو أفضل من الكعبة وأقدم وهو مهاجر الأنبياء ، وقال المسلمون الكعبة أفضل ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

[97] { فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا } ، وليس شيء من هذه الفضائل لبيت المقدس ، واختلف العلماء في قوله تعالى : { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ } ، فقال بعضهم : هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض ، خلقه قبل الأرض بألفي عام ، وكان زبدة بيضاء على الماء ، وقال بعضهم : هو أول بيت بني في الأرض ، ويروى عن ابن عباس أنه قال : أراد به أنه أول بيت بناه آدم في الأرض ، وقيل : هو أول بيت مبارك وضع هدى للناس يعبد الله فيه ويحج إليه ، وقيل : هو أول بيت جعل قبلة للناس ، وقال الحسن والكلبي : معناه أنه أول مسجد ومتعبد وضع للناس ، وقيل : أول بيت وضع للناس يعبد الله فيه ، قوله تعالى : { لَلَّذِي بِبَكَّةَ } قال جماعة : هي مكة نفسها ، وقال الآخرون : بكة موضع البيت في مكة ، ومكة اسم البلد كله وقيل : بكة موضع البيت والمطاف ، سميت بكة : لأن الناس يتباكون فيها ، أي يزدحمون يبك بعضهم بعضا ويمر بعضهم بين يدي بعض ، { مُبَارَكًا } نصب على الحال أي : ذا بركة وهدى للعالمين ، لأنه قبلة للمؤمنين فيه آيات بينات ، قرأ ابن عباس (آية

بينة) على الواحد ، وأراد مقام إبراهيم وحده ، وقرأ الآخرون آيات بينات ، بالجمع ، فذكر منها مقام إبراهيم وهو الحجر الذي قام عليه إبراهيم ، وكان أثر قدميه فيه ، ومن تلك الآيات في البيت الحجر الأسود والحطيم وزمزم والمشاعر كلها ، وقيل : مقام إبراهيم جميع الحرم ، قوله عز وجل : { وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا } من أن يهاج فيه ، وذلك بدعاء إبراهيم عليه السلام حيث قال : { رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا } ، وقيل : هو خبر بمعنى الأمر تقديره : ومن دخله فأمنوه ، وقيل : معناه ومن دخله معظما له متقربا إلى الله عز وجل كان آمنا يوم القيامة من العذاب . قوله عز وجل : { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } ، أي : ولله فرض واجب على الناس حج البيت ، والحج

أحد أركان الإسلام ، والاستطاعة نوعان ، أحدهما : أن يكون قادرا مستطيعا بنفسه ، والآخر : أن يكون مستطيعا بغيره ، أما الاستطاعة بنفسه ، فأن يكون قادرا بنفسه على الذهاب ووجد الزاد والراحلة ، أما الاستطاعة بالغير فهي أن يكون الرجل عاجزا بنفسه ، بأن كان زمنا أو به مرض غير مرجو الزوال ، لكن له مال يمكنه أن يستأجر به

من يحج عنه ، يجب عليه أن يستأجر ، أو لم يكن له مال بل بذل له ولده أو أجنبي الطاعة في أن يحج عنه ، يلزمه أن يأمره إذا كان يعتمد صدقه ، لأن وجوب الحج يتعلق بالاستطاعة ، قوله تعالى : { وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } ، قال ابن عباس والحسن وعطاء : جحد فرض الحج ، وقال مجاهد : من كفر بالله واليوم الآخر ، وقال سعيد بن المسيب : نزلت في اليهود حيث قالوا : الحج إلى مكة غير واجب ، وقال السدي : هو من وجد ما يحج به ثم لم يحج حتى مات فهو كفر به .
[98] قوله تعالى : { قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ } .

[99] { قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } أي : لم تصرفون عن دين الله ، { مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا } ، تطلبونها ، { عِوَجًا } زيغا وميلا ، يعني : لم تصدون عن سبيل الله باغين لها عوجا ؟ قال أبو عبيدة : العوج - بالكسر- في الدين والقول والعمل ، والعوج - بالفتح - في الجدار ، وكل شخص قائم ، { وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } ، أن في التوراة مكتوبا نعت محمد صلى الله عليه وسلم دين الله الذي لا يقبل غيره هو الإسلام .

[100] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } يعني : مرشاسًا وأصحابه ، { يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ } قال جابر : فما رأيت قط يومًا أقبح ، أو لا أحسن من ذلك اليوم ، ثم قال الله تعالى على وجه التعجب : [101] { وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ } يعني : ولم تكفرون ؟ { وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ } ، القرآن { وَفِيكُمْ رَسُولُهُ } ، محمد صلى الله عليه وسلم ، قال قتادة : في هذه الآية علمان بينان : كتاب الله ونبي الله ، أما نبي الله فقد مضى ، وأما كتاب الله فقد أبقاه بين أظهركم رحمة من الله ونعمة ، { وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ } أي : يمتنع بالله ويستمسك بدينه وطاعته ، { فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } ، طريق واضح ، وقال ابن جريج ومن يعتصم بالله أي : يؤمن بالله ، وأصل العصمة : المنع ، فكل مانع شيئا فهو عاصم له .

[102] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ } . قال مقاتل بن حيان : كان بين الأوس والخزرج عداوة في الجاهلية وقتال حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فأصلح بينهم فافتخر بعده منهم رجلان فغضبا وأنشدا الأشعار وتفاخرا ، فجاء الأوس والخزرج ومعهم السلاح ، فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس : هو أن يطاع فلا يعصى ، وقال مجاهد : أن تجاهدوا في سبيل الله حق جهاده ولا تأخذكم في الله لومة لائم ، وتقوموا لله بالقسط ولو على أنفسكم وآبائكم وأبنائكم ، قال أهل التفسير : لما نزلت هذه الآية شق ذلك عليهم ، فقالوا : يا رسول الله ومن يقوى على هذا ، فأنزل الله تعالى : { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } فنسخت هذه الآية { وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

} أي مؤمنون ، وقيل : مخلصون مفوضون أموركم إلى الله عز وجل ، وقال الفضيل : محسنون الظن بالله .

[103] قوله عز وجل : { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ }{ جَمِيعًا } ، الحبل : السبب الذي يتوصل به إلى البغية ، وسمي الإيمان حبلا لأنه سبب يتوصل به إلى زوال الخوف ، واختلفوا في معناه ههنا ، قال ابن عباس : معناه تمسكوا بدين الله ، وقال ابن مسعود : هو الجماعة ، وقال : عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به ، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة . وقال مجاهد وعطاء : بعهد الله ، وقال قتادة والسدي : هو القرآن ، وقال مقاتل بن حيان : بحبل الله أي : بأمر الله وطاعته ، { وَلَا تَفَرَّقُوا } ، كما افترقت اليهود والنصارى ، { وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ } جمع الله أهل المدينة أوسها وخزرجها بالإسلام وأصلح ذات بينهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، (واذكروا نعمة الله عليكم) يا معشر الأنصار (إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً) قبل الإسلام (فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ) بالإسلام ، { فَأَصْبَحْتُمْ } أي : فصرتم ، { بِنِعْمَتِهِ } برحمته وبدينه الإسلام ، { إِخْوَانًا } في الدين والولاية بينكم . { وَكُنْتُمْ } يا معشر الأوس

والخزرج { عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ } ، أي على طرف حفرة مثل شفا البئر ، معناه : وكنتم على طرف حفرة من النار ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلا أن تموتوا على كفركم ، { فَأَنْقَذَكُمْ } الله { مِنْهَا } بالإيمان ، { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } .
[104] { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ } ، أي : ولتكونوا أمة ، (من) صلة ليست للتبعيض ، كقوله تعالى : { فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ } لم يرد اجتناب بعض الأوثان بل أراد فاجتنبوا الأوثان ، واللام في قوله وَلْتَكُنْ لام الأمر ، { يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ } ، إلى الإسلام ، { وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } .
[105] { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } ، قال أكثر المفسرين : هم اليهود والنصارى ، وقال بعضهم : المبتدعة من هذه الأمة .

[106] { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ } ، (يوم) نصب على الظرف ، أي : في يوم ، وانتصاب الظرف على التشبيه بالمفعول ، يريد : تبيض وجوه المؤمنين وتسود وجوه الكافرين ، وقيل : تبيض وجوه المخلصين وتسود وجوه المنافقين ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة ، { فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ } ، معناه : يقال لهم أكفرتم بعد إيمانكم ، { فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } ، فإن قيل كيف قال أكفرتم بعد إيمانكم ، وهم لم يكونوا مؤمنين ؟ قيل : أراد به الإيمان يوم الميثاق ، حيز قال لهم ربهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . وقال الحسن : هم المنافقون تكلموا بالإيمان بألسنتهم ، وأنكروا بقلوبهم ، وقال عكرمة : إنهم أهل الكتاب آمنوا بأنبيائهم وبمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث ، فلما بعث كفروا به ، وقال قوم : هم من أهل قبلتنا ، وقال أبو أمامة : هم الخوارج ، وقال قتادة : هم أهل البدع .

[107] قوله تعالى { وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ } ، هؤلاء أهل الطاعة ، { فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ } ، ففي جنة الله . { هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } .

[108] { تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ } .
[109] { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } .

[110] { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } قال عكرمة ومقاتل : نزلت في ابن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة ، رضي الله عنهم ، وذلك أن مالك بن الصيف ووهب بن يهود اليهوديين قالا لهم : نحن أفضل منكم وديننا خير مما تدعوننا إليه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } هم الذين هاجروا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وقال جويبر عن الضحاك : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم خاصة الرواة والدعاة الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم وقال الآخرون : جميع المؤمنين من هذه الأمة ، وقوله (كنتم) أي : أنتم ، كقوله تعالى : { وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا } ، وقال في موضع آخر : { وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ } ، وقيل : معناه كنتم خير أمة عند الله في اللوح المحفوظ ، وقال قوم : قوله (للناس) صلة قوله : (خَيْرَ أُمَّةٍ) أي : أنتم خير أمة للناس . قال أبو هريرة معناه : كنتم خير الناس للناس ، تجيئون بهم في السلاسل فتدخلونهم في الإسلام ، وقيل : للناس صلة قوله (أُخْرِجَتْ) معناه :

ما أخرج الله للناس أمة خيرا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . قوله تعالى : { تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } أي : الكافرون .
[111] قوله تعالى : { لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى } ، قال مقاتل : إن رؤوس اليهود عمدوا إلى من آمن منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه ، فآذوهم فأنزل الله تعالى هذه الآية ، لن يضركم أيها المؤمنون هؤلاء الجهود إلا أذى باللسان وعيدًا وطغيانًا ، وقيل : كلمة كفر تتأذون بها { وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ } ، منهزمين ، { ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ } ، بل يكون لكم النصر .

[112] { ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا } ، حيث ما وجدوا { إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ } يعني : أينما وجدوا استضعفوا وقتلوا أو سبوا فلا يأمنون إلا بحبل : عهد من الله تعالى بأن يسلموا ، { وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ } من المؤمنين ببذل جزية أو أمان ، يعني : إلا أن يعصموا بحبل الله فيأمنوا ، قوله تعالى : { وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ} ، رجعوا به { وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } .

[113] قوله تعالى : { لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ } قال ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل : لما آمن عبد الله بن سلام وأصحابه ، قالت أحبار اليهود : ما آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم إلا شرارنا ولولا ذلك لما تركوا دين آبائهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، واختلفوا في وجهها فقال قوم : فيه اختصار تقديره : ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة وأخرى غير قائمة ، فترك الأخرى اكتفاء بذكر أحد الفريقين ، وقال الآخرون : تمام الكلام عند قوله (لَيْسُوا سَوَاءً) وهو وقف لأنه قد جرى ذكر الفريقين من أهل الكتاب في قوله تعالى : { مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } ثم قال : (لَيْسُوا سَوَاءً) يعني : المؤمنين والفاسقين ، ثم وصف الفاسقين ، فقال : { لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى } ووصف المؤمنين بقوله (أُمَّةٌ قَائِمَةٌ) وقيل : قوله (من أهل الكتاب) ابتداء كلام آخر ، لأن ذكر الفريقين قد جرى ، ثم قال : ليس هذان الفريقان

سواء ، ثم ابتدأ فقال : من أهل الكتاب ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : لا يستوي اليهود وأمة محمد صلى الله عليه وسلم القائمة بأمر الله الثابتة على

الحق المستقيمة ، وقوله تعالى : (أُمَّةٌ قَائِمَةٌ) قال ابن عباس : أي مهتدية قائمة على أمر الله لم يضيعوه ولم يتركوه . وقال مجاهد : عادلة . وقال السدي : مطيعة قائمة على كتاب الله وحده . وقيل قائمة في الصلاة . وقيل : الأمة الطريقة . ومعنى الآية : أي ذوو أمة ، أي : ذوو طريقة مستقيمة .
{ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ } ، يقرؤون كتاب الله ، وقال مجاهد : يتبعون ، { آنَاءَ اللَّيْلِ } ساعاته ، { وَهُمْ يَسْجُدُونَ } أي : يصلون ، لأن التلاوة لا تكون في السجود ، ! واختلفوا في معناها ، فقال بعضهم : هي قيام الليل ، وقال ابن مسعود صلاة العتمة يصلونها ولا يصليها من سواهم من أهل الكتاب .
[114] قوله تعالى : { يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ } .

[115] { وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ } ، قرأ حمزة والكسائي وحفص بالياء فيهما إخبار عن ، الأمة القائمة ، وقرأ الآخرون بالتاء فيهما ، لقوله { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ } ، وأبو عمرو يرى القراءتين جميعًا ، ومعنى هذه الآية : وما تفعلوا من خير فلن تعدموا ثوابه بل يشكر لكم وتجازون عليه ، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ } ، بالمؤمنين .

[116] { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا } ، أي : لا تدفع أموالهم بالفدية وأولادهم بالنصرة من الله شيئا ، أي : من . عذاب الله ، وخصهما بالذكر لأن الإنسان يدفع عن ، نفسه تارة بفداء المال وتارة بالاستعانة بالأولاد ، { وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } ، وإنما جعلهم من أصحابها لأنهم أهلها لا يخرجون منها ولا يفارقونها ، كصاحب الرجل لا يفارقه .

[117] { مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ، قيل : أراد نفقات أبي سفيان وأصحابه ببدر وأحد على عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال مقاتل : أراد نفقة اليهود على علمائهم ، قال مجاهد : يعني جميع نفقات الكفار في الدنيا وصدقاتهم ، وقيل : أراد إنفاق المرائي الذي لا يبتغي به وجه الله تعالى ، { كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ } ، حكي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنها السموم الحارة التي تقتل ، وقيل فيها صر أي : صوت ، وأكثر المفسرين قالوا : فيها برد شديد ، { أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ } زرع قوم ، { ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ } ، بالكفر والمعصية ومنع حق الله تعالى ، { فَأَهْلَكَتْهُ } ، فمعنى الآية : مثل نفقات الكفار وذهابها وقت الحاجة إليها كمثل زرع أصابته ريح باردة فأهلكته أو نار فأحرقته فلم ينتفع أصحابه منه بشيء ، { وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ } ، بذلك ، { وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } ، بالكفر والمعصية .

[118] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ } الآية ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان رجال من المسلمين يواصلون اليهود لما بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ينهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة عليهم ، وقال مجاهد : نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين فنهاهم الله تعالى عن ذلك ، فقال : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ } أي : أولياء أصفياء من غير

أهل ملتكم ، وبطانة الرجل : خاصته ، تشبيها ببطانة الثوب التي تلي بطنه ، لأنهم يستبطنون أمره ويطلعون منه على ما لا يطلع عليه غيرهم ، ثم بين العلة في النهي عن مباطنتهم فقال جل ذكره : { لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا } ، أي لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد ، والخبال : الشر والفساد ، ونصب (خبالا) على المفعول الثاني ، لأن (يألو) يتعدى إلى مفعولين ، وقيل : بنزع الخافض ، أي بالخبال ، كما يقال أوجعته ضربا { وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ } ، أي يودون ما يشق عليكم من الضر والشر والهلاك ، والعنت المشقة ، { قَدْ

بَدَتِ الْبَغْضَاءُ } أي : البغض ، معناه ظهرت أمارة العداوة ، { مِنْ أَفْوَاهِهِمْ } ، بالشتيمة والوقيعة في المسلمين ، وقيل : بإطلاع المشركين على أسرار المسلمين ، { وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ } ، من العداوة والغيظ ، { أَكْبَرُ } ، أعظم ، { قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } .

[119] { هَا أَنْتُمْ } تنبيه وأنتم كناية للمخاطبين من الذكور ، { أُولَاءِ } اسم للمشار إليه ، يريد أنتم أيها المؤمنون ، { تُحِبُّونَهُمْ } أي : تحبون هؤلاء اليهود الذين نهيتكم عن مباطنتهم للأسباب التي بينكم من القرابة والرضاع والمصاهرة ، { وَلَا يُحِبُّونَكُمْ } ، لما بينكم من مخالفة الدين ، وقال مقاتل هم المنافقون يحبهم المؤمنون لما أظهروا من الإيمان ، ولا يعلمون ما في قلوبهم ، { وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ } ، يعني بالكتب كلها وهم لا يؤمنون بكتابكم ، { وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا } ، وكان بعضهم مع بعض { عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ } ، يعني : أطراف الأصابع واحدتها أنملة بضم الميم وفتحها ، من الغيظ ، لما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم ، وعض الأنامل عبارة عن شدة الغيظ وهذا من مجاز الأمثال ، وإن لم يكن ثم عض ، { قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ } ، أي : ابقوا إلى الممات بغيظكم ، { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } ، أي : بما في القلوب من خير وشر .

[120] وقوله تعالى : { إِنْ تَمْسَسْكُمْ } أي : تصبكم أيها المؤمنون { حَسَنَةٌ } بظهوركم على عدوكم وغنيمة تنالونها منهم ، وتتابع الناس في الدخول في دينكم ، وخصب في معايشكم { تَسُؤْهُمْ } ، تحزنهم ، { وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ } ، مساءة بإخفاق سرية لكم أو إصابة عدو منكم ، واختلاف يكون بينكم أو جدب أو نكبة ، { يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا } ، على أذاهم { وَتَتَّقُوا } ، تخافوا ربكم { لَا يَضُرُّكُمْ } ، أي : لا ينقصكم ، { كَيْدُهُمْ شَيْئًا } ، قرأ ابن عامر وابن كثير ونافع وأهل البصرة (لا يضركم) بكسر الضاد خفيفة ، يقال : ضار يضير ضيرا ، وهو جزم على جواب الجزاء ، وقرأ الباقون بضم الضاد وتشديد الراء من ضر يضر ضرا مثل رد يرد ردا وفي رفعه وجهان . أحدهما : أنه أراد الجزم ، وأصله يضرركم فأدغمت الراء في الراء ، ونقلت ضمة الراء الأولى إلى الضاد وضمت الثانية اتباعا ، والثاني : أن تكون لا بمعنى ليس ويضمر فيه الفاء ، تقديره : وإن تصبروا وتتقوا فليس يضركم كيدهم شيئا ، { إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } ، أي : عالم .

[121] قوله تعالى : { وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ } ، قال الحسن : هو يوم بدر ، وقال مقاتل : يوم الأحزاب ، وقال سائر المفسرين : هو يوم أحد ، وقال مجاهد والكلبي والواقدي : « غدا رسول الله صلى الله عليه وسلم من منزل عائشة رضي الله عنها يمشي على رجليه إلى أحد فجعل يصف أصحابه للقتال كما يقوم القدح » . فكان من حرب أحد ما كان ، فذلك

قوله تعالى : (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ) تنزل المؤمنين (مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ) أي : مواطن ، ومواضع للقتال ، يقال : بوأت القوم إذا وطنتهم ، وتبوءوا هم إذا توطؤوا ، قال الله تعالى : (وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ) ، وقال : (أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا) وقيل : تتخذ معسكرًا ، { وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } .

[122] { إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا } أي : تجبنا وتضعفا وتتخلفا ، والطائفتان بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس ، وكانتا جناحي العسكر ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد في ألف رجل ، وقيل : في تسعمائة وخمسين رجلًا ، فلما بلغوا الشوط اتخذ عبد الله بن أبي بثلث الناس ورجع في ثلاثمائة وقال علام نقتل أنفسنا وأولادنا ؟ فتبعهم أبو جابر السلمي فقال : أنشدكم بالله في نبيكم وفي أنفسكم ، فقال عبد الله بن أبي : لو نعلم قتالًا لاتبعناكم ، وهمت بنو سلمة وبنو حارثة بالانصراف مع عبد الله بن أبي ، فعصمهم الله فلم ينصرفوا فذكرهم الله عظيم نعمته ، فقال عز وجل { إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا } ناصرهما وحافظهما ، { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } .

[123] قوله تعالى : { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ } ، وبدر موضع بين مكة والمدينة وهو اسم لموضع ، وعليه الأكثرون ، وقيل : اسم لبئر هناك ، وقيل : كانت بدر بئرًا لرجل يقال له بدر ، { وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ } ، جمع : ذليل ، وأراد به قلة العدد فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا فنصرهم الله مع قلة عددهم وعددهم ، { فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } .
[124] { إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ } ، اختلفوا في هذه الآية فقال قتادة : كان يوم بدر أمدهم الله تعالى بألف من الملائكة كما قال : { فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ } [الأنفال : 9] ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف كما ذكر هاهنا ، { بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ } .

[125] { بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ } فصبروا يوم بدر واتقوا فأمدهم الله بخمسة آلاف من الملائكة كما وعد ، قال الحسن : وهؤلاء الخمسة آلاف ردء المؤمنين إلى يوم القيامة ، قال ابن عباس ومجاهد : لم تقاتل الملائكة في المعركة إلا يوم بدر فيما سوى ذلك يشهدون القتال ولا يقاتلون ، وإنما يكونون عددا ومددا ، وقال الآخرون : إنما وعد الله تعالى المسلمين يوم بدر إن صبروا على طاعته واتقوا محارمه أن يمدهم أيضا في حروبهم كلها ، فلم يصبروا إلا يوم الأحزاب ، فأمدهم حين حاصروا قريظة والنضير ، وقال الضحاك وعكرمة : كان هذا يوم أحد وعدهم الله المدد إن صبروا فلم يصبروا فلم يمدوا . قوله تعالى : { أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ } الإمداد : إعانة الجيش ، وقيل : ما كان على جهة القوة والإعانة ، يقال فيه : أمده إمدادا ، وما كان على جهة الزيادة ، ويقال فيه : مده مددا ، منه قوله تعالى : { وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ } وقيل : المد في الشر ، والإمداد في الخير ، يدل عليه قوله تعالى : { وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ

} وقال في الخير { وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ } . قوله تعالى : { بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ } قرأ ابن عامر تشديد الزاي على التكثير لقوله تعالى : { وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ } ، وقرأ الآخرون بالتخفيف دليله قوله تعالى : { لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ } . وقوله : { وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا } ، ثم قال

{ بَلَى } نمدكم { إِنْ تَصْبِرُوا } لعدوكم { وَتَتَّقُوا } مخالفة نبيكم { وَيَأْتُوكُمْ } يعني المشركين { مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا } قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والحسن وأكثر المفسرين : من وجههم هذا ، وقال مجاهد والضحاك : من غضبهم هذا لأنهم إنما رجعوا للحرب يوم أحد من غضبهم ليوم بدر ، { يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ } لم يرد خمسة آلاف سوى ما ذكر من ثلاثة آلاف ، بل أراد معهم ، وقوله { مُسَوِّمِينَ } أي : معلمين ، واختلفوا في تلك العلامة ، فقال عروة بن الزبير : كانت الملائكة على خيل بلق عليهم عمائم صفر ، وقال علي وابن عباس رضي الله عنهم : عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم ،

وقال هشام بن عروة والكلبي : عليهم عمائم صفر مرخاة على أكتافهم ، وقال الضحاك وقتادة : كانوا قد أعلموا بالعهن في نواصي الخيل وأذنابها .
[126] قوله تعالى : { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ } يعني هذا الوعد والمدد ، { إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ } أي : بشارة لتستبشروا به { وَلِتَطْمَئِنَّ } ولتسكن { قُلُوبُكُمْ بِهِ } فلا تجزعوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم ، { وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } يعني : لا تحيلوا بالنصر على الملائكة والجند ، فإن النصر من الله تعالى فاستعينوا به وتوكلوا عليه ، لأن العز والحكم له .

[127] قوله تعالى : { لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، يقول لقد نصركم الله ليقطع طرفا أي : لكي يهلك طائفة من الذين كفروا ، وقال السدي : معناه ليهدم ركنا من أركان الشرك بالقتل والأسر ، { أَوْ يَكْبِتَهُمْ } قال الكلبي : يهزمهم ، وقال يمان : يصرعهم لوجوههم ، قال السدي : يلعنهم ، وقال أبو عبيدة : يهلكهم ، وقيل : يحزنهم ، والمكبوت : الحزين ، وقيل : يكبدهم أي : يصب الحزن والغيظ أكبادهم ، والتاء والدال يتعاقبان كما يقال سبت رأسه وسبده إذا حلقه ، وقيل : يكبتهم بالخيبة ، { فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ } ، لم ينالوا شيئا مما كانوا يرجون من الظفر بكم .

[128] قوله تعالى : { لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ } ، أي : ليس إليك ، فاللام بمعنى (إلى) كقوله تعالى : { رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ } ، أي : إلى الإيمان ، وقوله تعالى : { أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ } ، قال بعضهم : معناه حتى يتوب عليهم : أو إلا أن يتوب عليهم ، وقيل : هو نسق على قوله : { لِيَقْطَعَ طَرَفًا } ، وقوله : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) اعتراض بين الكلامين ، ونظم الآية : ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليهم { أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ } ، ليس لك من الأمر شيء ، بل الأمر أمري في ذلك كله .
[129] ثم قال : { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } .
[130] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً } ، أراد به ما كانوا يفعلونه عند طول أجل الدين من زيادة المال وتأخير الطلب ، { وَاتَّقُوا اللَّهَ } في أمر الربا فلا تأكلوه ، { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } .

[131] ثم خوفهم فقال : { وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } .
[132] { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ، لكي ترحموا .

[133] { وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ } ، بادروا وسابقوا إلى الأعمال التي توجب المغفرة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : إلى الإسلام ، وروي عنه :

إلى التوبة ، وبه قال عكرمة ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إلى أداء الفرائض ، وقال أبو العالية : إلى الهجرة ، وقال الضحاك : إلى الجهاد ، وقال مقاتل : إلى الأعمال الصالحة . وروي عن أنس بن مالك أنها التكبيرة الأولى ، { وَجَنَّةٍ } أي وإلى جنة { عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ } أي : عرضها كعرض السماوات والأرض ، كما قال في سورة الحديد : { وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } أي : سعتها ، وإنما ذكر العرض على المبالغة لأن طول كل شيء في الأكثر والأغلب أكثر من عرضه ، يقول هذه صفة عرضها فكيف طولها ؟ قال الزهري : إنما وصف عرضها فأما طولها فلا يعلمه إلا الله ، وهذا على التمثيل لا أنها كالسماوات والأرض لا غير ، معناه كعرض السماوات السبع والأرضين السبع عند ظنكم ، { أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ } .

[134] { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ } ، أي : في اليسر والعسر ، فأول ما ذكر من أخلاقهم الموجبة للجنة ذكر السخاوة ، { وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ } أي : الجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه ، والكظم : حبس الشيء عند امتلائه ، وكظم الغيظ أن يمتلئ غيظا فيرده في جوفه ولا يظهره . ومنه قوله تعالى : { إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ }{ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ } ، قال الكلبي عن المملوكين سوء الأدب ، وقال زيد بن أسلم ومقاتل : عمن ظلمهم وأساء إليهم { وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } ، عن الثوري : الإحسان أن تحسن إلى المسيء ، فإن الإحسان إلى المحسن تجارة .

[135] قوله تعالى : { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً } يعني : قبيحة خارجة عما أذن الله تعالى فيه ، وأصل الفحش القبح والخروج عن الحد ، قال جابر : الفاحشة الزنا { أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ } ، ما دون الزنا من القبلة والمعانقة والنظر واللمس ، وقال مقاتل والكلبي : الفاحشة ما دون الزنا من قبلة أو لمسة أو نظرة فيما لا يحل ، أو ظلموا أنفسهم بالمعصية ، وقيل : فعلوا فاحشة الكبائر ، أو ظلموا أنفسهم بالصغائر . وقيل : فعلوا فاحشة فعلا أو ظلموا أنفسهم قولا { ذَكَرُوا اللَّهَ } أي : ذكروا وعيد الله ، والله سائلهم ، وقال مقاتل بن حيان : ذكروا الله باللسان عند الذنوب ، { فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ } أي وهل يغفر الذنوب إلا الله ، { وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا } أي : لم يقيموا ولم يثبتوا عليه ، ولكن تابوا وأنابوا واستغفروا ، وأصل الإصرار : الثبات على الشيء ، قال الحسن : إتيان العبد ذنبا عمدا إصرار حتى يتوب . وقال السدي : الإصرار : السكوت وترك الاستغفار { وَهُمْ يَعْلَمُونَ } ، قال ابن عباس والحسن ومقاتل والكلبي : وهم يعلمون أنها معصية ، وقيل :

وهم يعلمون أن الإصرار ضار ، وقال الضحاك : وهم يعلمون أن الله يملك مغفرة الذنوب ، وقال الحسن بن الفضل : أن لهم ربا يغفر الذنوب ، وقيل : وهم يعلمون أن الله لا يتعاظمه العفو عن الذنوب وإن كثرت وقيل : وهم يعلمون أنهم إن استغفروا غفر لهم .
[136] { أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } .

[137] قوله تعالى : { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ } ، قال عطاء : شرائع وقال الكلبي : مضت لكل أمة سنة ومنهاج إذا اتبعوها رضي الله عنهم ، وقال مجاهد : قد خلت من قبلكم سنن بالهلاك فيمن كذب قبلكم ، وقيل : سنن أي : أمم ،

والسنة : الأمة ، وقيل معناه : أهل السنن ، والسنة : الطريقة المتبعة في الخير والشر ، يقال : سن فلان سنة حسنة ، وسنة سيئة إذا عمل عملا اقتدى به فيه من خير وشر ، ومعنى الآية : قد مضت وسلفت مني سنن فيمن كان قبلكم من الأمم الماضية الكافرة ، بإمهالي واستدراجي إياهم حتى يبلغ الكتاب فيهم أجلي الذي أجلته لإهلاكهم ، وإدالة أنبيائي عليهم { فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } ، أي : آخرنا من المكذبين ، وهذا في حرب أحد ، يقول الله عز وجل : فأنا أمهلهم وأستدرجهم حتى يبلغ أجلي الذي أجلته في نصرة النبي صلى الله عليه وسلم وأوليائه وإهلاك أعدائه .
[138] { هَذَا } أي : هذا القرآن ، { بَيَانٌ لِلنَّاسِ } ، عامة ، { وَهُدًى } ، من الضلالة ، { وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ } ، خاصة .

[139] قوله تعالى : { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا } ، هذا حث لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على الجهاد والصبر على ما أصابهم من القتل والجرح يوم أحد ، يقول الله تعالى : (ولا تهنوا) أي : لا تضعفوا ولا تجبنوا عن جهاد أعدائكم بما نالكم من القتل والجرح ، وكان قد قتل يومئذ من المهاجرين خمسة منهم : حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير ، وقتل من الأنصار سبعون رجلا ، { وَلَا تَحْزَنُوا } أي : على ما فاتكم ، { وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ } بأن يكون لكم العاقبة بالنصر والظفر على أعدائكم ، { إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } يعني إذا كنتم ، أي : لأنكم مؤمنون ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : « انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب فأقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم لا يعلوه علينا ، اللهم لا قوة لنا إلا بك ، وثاب نفر من المسلمين رماة فصعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزموها » ، فذلك قوله تعالى : { وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ } وقال الكلبي : نزلت هذه الآية بعد يوم أحد حين أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بطلب القوم بعدما أصابهم

من الحرج ، فاشتد ذلك على المسلمين فأنزل الله تعالى هذه الآية ، دليله قوله تعالى : { وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ } .
[140] { إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ } قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر (قرح) بضم القاف حيث جاء ، وقرأ الآخرون بالفتح وهما لغتان معناهما واحد كالجهد والجهد ، وقال الفراء : بالفتح اسم للجراحة ، وبالضم اسم لألم الجراحة ، هذا خطاب مع المسلمين حيث انصرفوا من أحد مع الكآبة والحزن ، يقول الله تعالى : (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ) يوم أحد ، { فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ } ، يوم بدر { وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ } ، فيوم لهم ويوم عليهم ، أديل المسلمون من المشركين يوم بدر حتى قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين ، وأديل المشركون من المسلمين يوم أحد حتى جرحوا منهم سبعين وقتلوا خمسا وسبعين . { وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا } يعني . إنما كانت هذه المداولة ليعلم ؛ أي : ليرى الله الذين آمنوا فيميز المؤمن من المنافق ، { وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ } ، يكرم أقواما بالشهادة { وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } .

[141] { وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا } أي : يطهركم من الذنوب ، { وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ } ، يفنيهم ويهلكهم ، معناه : أنهم إن قتلوكم فهو تطهير لكم ، وإن قتلتموهم فهو محقهم واستئصالهم .
[142] { أَمْ حَسِبْتُمْ } أي : أحسبتم ؟ { أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ } أي : ولم يعلم الله ، { الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ } .

[143] { وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ } ، وذلك أن قوما من المسلمين تمنوا يوما كيوم بدر ليقاتلوا ويستشهدوا فأراهم الله يوم أحد ، وقوله : (تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ) أي : سبب الموت وهو الجهاد من قبل أن تلقوه ، { فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ } يعني : أسبابه ، { وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } ، فإن قيل : ما معنى قوله : (وأنتم تنظرون) ، بعد قوله : (فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ) ؟ قيل : ذكره تأكيدا ، وقيل : الرؤية قد تكون بمعنى العلم ، فقال : (وأنتم تنظرون) ليعلم ، أن المراد بالرؤية النظر ، وقيل : معناه وأنتم تنظرون إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

[144] قوله عز وجل : { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ } . محمد هو المستغرق لجميع المحامد ، لأن الحمد لا يستوجبه إلا الكامل ، والتحميد فوق الحمد ، فلا يستحقه إلا المستولي على الأمر في الكمال ، وأكرم الله نبيه وصفيه باسمين مشتقين من اسمه جل جلاله (محمد وأحمد) ، قوله تعالى : { أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ } أي : رجعتم إلى دينكم الأول ، { وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ } ، ويرتد عن دينه ، { فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا } ، بارتداده وإنما ضر نفسه ، { وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ } .

[145] { وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ } ، قال الأخفش : اللام في (لنفس) منقولة من تموت تقديره : وما كان نفس لتموت ، { إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } ، بقضائه وقدره ، وقيل : بعلمه ، وقيل : بأمره ، { كِتَابًا مُؤَجَّلًا } أي : كتب لكل نفس أجلا لا يقدر أحد على تغييره وتأخيره ، ونصب كتابا على المصدر ، أي : كتب كتابا ، { وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا } يعني : من يرد بطاعته الدنيا ويعمل لها نؤته منها ما يكون جزاء لعمله ، يريد نؤته منها ما يشاء مما قدرناه له ، كما قال : { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ } ، نزلت في الذين تركوا المركز يوم أحد طلبا للغنيمة ، { وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا } ، أي أراد بعمله الآخرة ، قيل : أراد الذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جبير حتى قتلوا ، { وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ } ، أي المؤمنين المطيعين .

[146] قوله تعالى : { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ } معناه : وكم ، وهي كاف التشبيه ضمت إلى أي الاستفهامية ، ولم يقع التنوين صورة في الخط إلا في هذا الحرف خاصة ، (قاتل) قرأ ابن كثير ونافع وأهل البصرة بضم القاف ، وقرأ الآخرون (قاتل) فمن قرأ (قاتل) فلقوله : (فَمَا وَهَنُوا) ويستحيل وصفهم بأنهم لم يهنوا بعدما قتلوا ، لقول سعيد بن جبير : ما سمعنا أن نبيا قتل في القتال ، ولأن (قاتل) أعم ، قال أبو عبيدة : إن الله تعالى إذا حمد من قاتل كان من قتل داخلا فيه ، وإذا حمد من قتل لم يدخل فيه غيرهم ، فكان (قاتل) أعم ، ومن قرأ (قتل) فله ثلاثة أوجه ، أحدها : أن يكون القتل راجعا إلى النبي وحده ، فيكون تمام الكلام عند قوله (قتل) ، ويكون في الآية إضمار معناه : ومعه ربيون كثير ، كما يقال : قتل فلان معه جيش كثير ، أي : ومعه ، والوجه الثاني : أن يكون القتل نال النبي ومن معه من الربيين ، ويكون المراد : بعض من معه ، تقول العرب قتلنا بني فلان ، وإنما قتلوا بعضهم ، ويكون قوله : { فَمَا وَهَنُوا } راجعا إلى الباقين ، والوجه الثالث : أن يكون القتل للربيين لا غير ، وقوله : (

رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : جموع كثيرة ، وقال ابن مسعود : الربيون الألوف ، وقال الكلبي الربية الواحدة : عشرة آلاف ، وقال الضحاك :

الربية الواحدة : ألف ، وقال الحسن : فقهاء علماء وقيل : هم الأتباع ، والربانيون والربيون الولاة والرعية ، وقيل : منسوب إلى الرب وهم الذين يعبدون الرب ، (فَمَا وَهَنُوا) أي : فما جبنوا ، { فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا } ، عن الجهاد بما نالهم من ألم الجراح ، وقتل الأصحاب . { وَمَا اسْتَكَانُوا } ، قال مقاتل : وما استسلموا وما خضعوا لعدوهم ، وقال السدي : وما ذلوا ، وقال عطاء : وما تضرعوا ، وقال أبو العالية : وما جبنوا ولكن صبروا على أمر ربهم وطاعة نبيهم وجهاد عدوهم ، { وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ } .

[147] قوله تعالى : { وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ } ، نصب على خبر كان ، والاسم في أن قالوا ، ومعناه : وما كان قولهم عند قتل نبيهم ، { إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا } أي : الصغائر ، { وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا } ، أي : الكبائر ، { وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا } ، كي لا تزول ، { وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } ، فيقول : فهلا فعلتم وقلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .
[148] { فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا } ، النصرة والغنيمة ، { وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ } ، أي الأجر والجنة ، { وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } .

[149] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا } ، يعني اليهود والنصارى ، وقال علي رضي الله عنه ، يعني المنافقين في قولهم : للمؤمنين عند الهزيمة : ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم ، { يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ } ، يرجعوكم إلى أول أمركم من الشرك بالله ، { فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ } ، مغبونين .
[150] ثم قال : { بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ } ، ناصركم وحافظكم على دينكم الإسلام ، { وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ } .

[151] { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ } وذلك أن أبا سفيان والمشركين لما ارتحلوا يوم أحد متوجهين نحو مكة انطلقوا حتى إذا بلغوا بعض الطريق ، ندموا وقالوا : بئس ما صنعنا قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم ، ارجعوا فاستأصلوهم ، فلما عزموا على ذلك قذف الله في قلوبهم الرعب ، حتى رجعوا عما هموا به ، فذلك قوله تعالى (سنلقي) أي : سنقذف في قلوب الذين كفروا الرعب، الخوف { بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا } حجة وبرهانا ، { وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ } ، مقام الكافرين .

[152] قوله تعالى : { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ } قال محمد بن كعب القرظي : لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة من أحد ، قد أصابهم ما أصابهم ، قال ناس من أصحابه : من أين أصابنا هذا ؟ وقد وعدنا الله النصر ، فأنزل الله تعالى : { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ } ، وذلك أن الظفر كان للمسلمين في الابتداء ، { إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ } ، وذلك « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل أحدا خلف ظهره واستقبل المدينة وجعل عينين وهو جبل عن يساره وأقام عليه الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير ، وقال لهم : احموا ظهورنا فإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وأقبل المشركون فأخذوا في القتال فجعل الرماة يرشقون خيل المشركين بالنبل ، والمسلمون يضربونهم بالسيوف ، حتى ولوا هاربين » فذلك قوله تعالى : (إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ) أي تقتلونهم قتلا ذريعا بقضاء الله ، قال أبو عبيدة

: (الحس) : الاستئصال بالقتل { حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ } أي إن جبنتم ، وقيل : معناه فلما فشلتم ، { وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ } ، فالواو زائدة في

(وَتَنَازَعْتُمْ) يعني : إذا فشلتم تنازعتم ، وقيل : فيه تقديم وتأخير ، تقديره : حتى إذا تنازعتم في الأمر وعصيتم فشلتم ، ومعنى التنازع الاختلاف ، وكان اختلافهم أن الرماة اختلفوا حين انهزم المشركون ، فقال بعضهم : انهزم القوم فما مقامنا ؟ وأقبلوا على الغنيمة ، وقال بعضهم : لا تجاوزوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثبت عبد الله بن جبير في نفر يسير دون العشرة ، فلما رأى خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ذلك حملوا على الرماة فقتلوا عبد الله بن جبير وأصحابه ، وأقبلوا على المسلمين وجاءت الريح فصارت دبورا بعد ما كانت صبا ، وانقضت صفوف المسلمين واختلطوا فجعلوا يقتلون على غير شعار يضرب بعضهم بعضا ما يشعرون من الدهش ، ونادى إبليس أن محمدًا قد قتل ، فكان ذلك سبب هزيمة المسلمين ، قوله تعالى : { وَعَصَيْتُمْ } يعني : الرسول صلى الله عليه وسلم وخالفتم أمره { مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ } ، الله { مَا تُحِبُّونَ } يا معشر المسلمين من الظفر والغنيمة ، { مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا } ، يعني : الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب ، { وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ } ، يعني : الذين ثبتوا مع

عبد الله بن جبير حتى قتلوا ، قال عبد الله بن مسعود : ما شعرت أن أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا حتى كان يوم أحد ، ونزلت هذه الآية { ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ } ، أي ردكم عنهم بالهزيمة ، { لِيَبْتَلِيَكُمْ } ليمتحنكم ، وقيل : لينزل البلاء عليكم { وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ } فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة منكم لأمر نبيكم ، { وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } .

[153] { إِذْ تُصْعِدُونَ } يعني : ولقد عفا عنكم إذ تصعدون هاربين والإصعاد : السير في مستوى الأرض ، والصعود : الارتفاع على الجبال والسطوح ، قال أبو حاتم : يقال أصعدت إذا مضيت حيال وجهك ، وصعدت إذا ارتقيت في جبل أو غيره ، وقال المبرد : أصعد إذا أبعد في الذهاب { وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ } أي : لا تعرجون ولا تقيمون على أحد ، لا يلتفت بعضكم إلى بعض { وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ } أي : في آخركم ومن ورائكم إلي عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة ، { فَأَثَابَكُمْ } ، فجازاكم ، جعل الإثابة بمعنى العقاب ، وأصلها في الحسنات لأنه وضعها موضع الثواب ، كقوله تعالى : { فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } جعل البشارة في العذاب ، ومعناه : جعل مكان الثواب الذين كنتم ترجون { غَمًّا بِغَمٍّ } ، وقيل : الباء بمعنى على ، أي : غما على غم ، وقيل : غما متصلا بغم ، فالغم الأول : ما فاتهم من الظفر والغنيمة ، والغم الثاني : ما نالوا من القتل والهزيمة ، وقيل : الغم الأول ما أصابهم من القتل والجراح ، والغم الثاني : أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد قتل فأنساهم الغم الأول ، وقيل الغم الأول : إشراف

خالد بن الوليد عليهم بخيل المشركين ، والغم الثاني : حين أشرف عليهم أبو سفيان ، وأصحابه ، حتى وقفوا بباب الشعب ، فلما نظر المسلمون إليهم همهم ذلك وظنوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم فأنساهم هذا ما نالهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس لهم أن يعلونا اللهم إن تقتل هذه العصابة لا تعبد في الأرض » ، ثم ندب أصحابه فرموهم بالحجارة حتى أنزلوهم . وقيل : إنهم غموا الرسول بمخالفة أمره ، فجازاهم الله بذلك الغم غم القتل

والهزيمة ، قوله تعالى : { لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ } ، من الفتح والغنيمة ، { وَلَا مَا أَصَابَكُمْ } أي : ولا على ما أصابكم من القتل والهزيمة ، { وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } .

[154] { ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ } ، يا معشر المسلمين ، { مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً } يعني : أمنا ، والأمن والأمنة بمعنى واحد ، وقيل : الأمن يكون مع زوال سبب الخوف ، والأمنة مع بقاء سبب الخوف ، وكان سبب الخوف هنا قائما ، { نُعَاسًا } ، بدل من الأمنة { يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ } قرأ حمزة والكسائي (تغشى) بالتاء ردا إلى الأمنة ، وقرأ الآخرون بالياء ردا إلى النعاس ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : أمنهم يومئذ بنعاس يغشاهم ، هانما ينعس من يأمن ، والخائف لا ينام (يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ) يعني : المؤمنين ، { وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ } يعني المنافقين : قيل : أراد تمييز المنافقين من المؤمنين ، فأوقع النعاس على المؤمنين حتى أمنوا ، ولم يوقع على المنافقين ، فبقوا في الخوف قد أهمتهم أنفسهم ، أي : حملتهم على الهم يقال : أمر مهم { يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ } أي : لا ينصر محمدا ، وقيل : ظنوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد قتل ، { ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ } أي : كظن أهل الجاهلية والشرك ، { يَقُولُونَ هَلْ لَنَا } : ما لنا ، لفظه استفهام ومعناه : جحد ، { مِنَ

الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ } يعني : النصر ، { قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ } ، قرأ أهل البصرة برفع اللام على الابتداء وخبره في (لله) وقرأ الآخرون بالنصب على البدل ، وقيل : على النعت ، { يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا } ، وذلك أن المنافقين ، قال بعضهم لبعض : لو كان لنا عقول لم نخرج مع محمد إلى قتال أهل مكة ولم يقتل رؤساؤنا ، وقيل : لو كنا على الحق ما قتلنا ههنا ، قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما : يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يعني : التكذيب بالقدر ، وهو قولهم : (لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا) ، { قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ } ، قضي ، { عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ } مصارعهم ، { وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ } ، وليمتحن الله ، { مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ } ، يخرج ويظهر { مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } ، بما في القلوب من خير وشر .

[155] { إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا } ، انهزموا ، { مِنْكُمْ } ، يا معشر المسلمين ، { يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ } ، جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أحد ، وكان قد انهزم أكثر المسلمين ولم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة عشر رجلا ستة من المهاجرين : وهم أبو بكر وعمر وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم ، قوله تعالى : { إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ } أي : طلب زلتهم ، كما يقال : أستعجلت فلانا إذا طلبت عجلته ، وقيل : حملهم الزلة وهي الخطيئة ، وقيل : أزل واستزل بمعنى واحد ، { بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا } ، أي : بشؤم ذنوبهم ، قال بعضهم : بتركهم المركز ، وقال الحسن : ما كسبوا هو قبولهم من الشيطان ما وسوس إليهم من الهزيمة ، { وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ } .

[156] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا } ، يعني : المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه ، { وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ } ، في النفاق والكفر ، وقيل : في النسب ، { إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ } أي : سافروا فيها لتجارة أو غيرها ، { أَوْ كَانُوا غُزًّى } أي : غزاة جمع غاز فقتلوا ، { لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا

لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ } يعني قولهم وظنهم ، { حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (يعملون) بالياء ، وقرأ الآخرون بالتاء .

[157] { وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ } ، قرأ نافع وحمزة والكسائي (متم) بكسر الميم ، وقرأ الآخرون بالضم ، فمن ضمه فهو من مات يموت ، كقولك : من قال يقول قلت : بضم القاف ، ومن كسره فهو من مات يمات ، كقولك من خاف يخاف : خفت ، { لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ } ، في العاقبة ، { وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } ، من الغنائم ، قراءة العامة (تجمعون) بالتاء ، لقوله : (وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ) وقرأ حفص عن عاصم (يجمعون) بالياء ، يعني : خير مما يجمع الناس .

[158] { وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ } ، في العاقبة .

[159] قوله تعالى : { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ } أي : فبرحمة من الله ، و (ما) صلة ، كقوله (فبما نقضهم) { لِنْتَ لَهُمْ } أي : سهلت لهم أخلاقك ، وكثرة احتمالك ، ولم تسرع إليهم بالغضب فيما كان منهم يوم أحد ، { وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا } يعني : جافيا سيئ الخلق قليل الاحتمال ، { غَلِيظَ الْقَلْبِ } ، قال الكلبي : فظا في القول غليظ القلب في الفعل ، { لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ } ، أي : نفروا وتفرقوا عنك يقال : فضضتهم فانفضوا ، أي : فرقتهم فتفرقوا { فَاعْفُ عَنْهُمْ } ، تجاوز عنهم ما أتوا يوم أحد عاله { وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ } حتى أشفعك فيهم ، { وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ } أي : استخرج آراءهم واعلم ما عندهم ، من قول العرب : شرت الدابة ، وشروتها ، إذا استخرجت جريها ، وشرت العسل وأشرته إذا أخذته من موضعه ، واستخرجته ، واختلفوا في المعنى الذي لأجله أمر الله نبيه و!سه بالمشاورة مع كمال عقله وجزالة رأيه ونزول الوحي عليه ، ووجوب طاعته على الخلق فيما أحبوا أو كرهوا ، فقال بعضهم : هو خاص في المعنى ، أي : وشاورهم فيما لبس عندك فيه من الله تعالى عهد ، وقال الكلبي : يعني ناظرهم في لقاء العدو ومكايد

الحرب عند الغزو ، وقال مقاتل وقتادة : أمر الله تعالى بمشاورتهم تطييبا لقلوبهم ، فإن ذلك أعطف لهم عليه وأذهب لأضغانهم ، فإن سادات العرب كانوا إذا لم يشاوروا في الأمر شق ذلك عليهم ، وقال الحسن : قد علم الله عز وجل أنه ما به إلى مشاورتهم حاجة ولكنه أراد أن يستن به من بعده ، { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } لا على مشاورتهم ، أي : قم بأمر الله وثق به واستعنه ، { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } .
[160] { إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ } ، يعينكم الله ويمنعكم من عدوكم ، { فَلَا غَالِبَ لَكُمْ } ، مثل يوم بدر ، { وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ } ، يترككم فلم ينصركم كما كان بأحد ، والخذلان : القعود عن النصرة ، والإسلام للهلكة { فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ } ، أي : من بعد خذلانه ، { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } ، قيل : التوكل ألا تعصي الله من أجل رزقك ، وقيل : ألا تطلب لنفسك ناصرا غير الله ولا لرزقك خازنا غيره ولا لعملك شاهدا غيره .

[161] قوله عز وجل : { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ } قرأ ابن كثير وأهل البصرة وعاصم (يَغُلَّ) بفتح الياء وضم الغين ، معناه : أن يخون ، والمراد منه الأمة : وقيل : اللام فيه منقولة معناه : ما كان النبي ليغل ، وقيل : معناه ما كان يظن

به ذلك ولا يأتي به ، وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الغين ، وله وجهان ، أحدهما : أن تكون من الغلول أيضا ، أي : ما كان لنبي أن يخان ، يعني : أن تخونه أمته ، والوجه الآخر : أن يكون من الأغلال ، معناه : ما كان لنبي أن يغل : أن يخون ، أي : ينسب إلى الخيانة ، { وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ، قال الكلبي : يمثل له ذلك الشيء في النار ثم يقال له : انزل فخذه فينزل فيحمله على ظهره فإذا بلغ موضعه وقع إلى النار ، ثم يكلف أن ينزل إليه ، فيخرجه فيفعل ذلك به { ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } .
[162] { أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ } ، فترك الغلول ، { كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ } ، فعل ، { وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } .

[163] { هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ } يعني : ذو درجات عند الله ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني من اتبع رضوان الله ومن باء بسخط من الله مختلفو المنازل عند الله ، فلمن اتبع رضوان الله الثواب العظيم ، ولمن باء بسخط من الله العذاب الأليم . { وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } .
[164] { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ } ، قيل : أراد به العرب لأنه ليس حي من أحياء العرب إلا وله فيهم من نسب إلا بني تغلب ، دليله قوله تعالى : { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ } وقال الآخرون : أراد به جميع المؤمنين ومعنى قوله تعالى : (من أنفسهم) أي : بالإيمان والشفقة لا بالنسب ، دليله قوله تعالى : { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ } ، { يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا } ، وقد كانوا ، { مِنْ قَبْلُ } أي : من قبل بعثه { لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } .

[165] { أَوَلَمَّا } أي : حين { أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ } ، بأحد ، { قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا } ، ببدر ، وذلك أن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعين وقتل المسلمون منهم ببدر سبعين وأسروا سبعين ، { قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا } ، من أين لنا هذا القتل والهزيمة ونحن مسلمون ورسول الله صلى الله عليه وسلم فينا ؟ { قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ } ، روى عبيدة السلماني عن علي رضي الله عنه قال : « جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الفداء من الأسارى ، وقد أمرك أن تخيرهم بين أن يقدموا فتضرب أعناقهم ، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم ، فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس فقالوا : يا رسول الله عشائرنا وإخواننا ، لا بل تأخذ منهم فداءهم ، فنقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم ، فقتل منهم يوم أحد سبعون عدد أسارى أهل بدر » ، فهذا معنى قوله تعالى : { قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ } ، أي بأخذكم الفداء واختياركم القتل ، { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .

[166] { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ } ، بأحد من القتل والجرح والهزيمة ، { فَبِإِذْنِ اللَّهِ } ، أي : بقضاء الله وقدره ، { وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ } ، أي : وليميز ، وقيل ليرى .
[167] { وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ، أي : لأجل دين الله وطاعته ، { أَوِ ادْفَعُوا } ، عن أهلكم وحريمكم ، وقال السدي : أي : كثروا سواد المسلمين واربطوا إن لم تقاتلوا يكون ذلك دفعا وقمعا للعدو ، { قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ } ، وهو عبد الله بن أبي وأصحابه الذين انصرفوا عن أحد وكانوا ثلاثمائة ، قال الله تعالى : { هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ } أي : إلى الكفر يومئذ أقرب { مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ } أي : إلى الإيمان ، { يَقُولُونَ

بِأَفْوَاهِهِمْ } ، يعني : كلمة الإيمان { مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ } .

[168] { الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ } ، في النسب لا في الدين وهم شهداء أحد { وَقَعَدُوا } يعني : قعد هؤلاء القائلون عن الجهاد { لَوْ أَطَاعُونَا } ، وانصرفوا عن محمد صلى الله عليه وسلم وقعدوا في بيوتهم { مَا قُتِلُوا قُلْ } ، لهم يا محمد ، { فَادْرَءُوا } ، فادفعوا ، { عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } ، أن الحذر يغني عن القدر .

[169] قوله تعالى : { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا } الآية ، قيل : نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلا ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين ، وقال الآخرون : نزلت في شهداء أحد وكانوا سبعين رجلا ، وقال قوم : نزلت هذه الآية لمحي شهداء بئر معونة ، وقيل : إن أولياء الشهداء كانوا أصابتهم نعمة تحسروا على الشهداء ، وقالوا : نحن في النعمة وآباؤنا وأبناؤنا وإخواننا في القبور ، فأنزل الله تعالى تنفيسا عنهم وإخبارا عن حال قتلاهم : (ولا تحسبن) ولا تظنن (الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) قرأ ابن عامر (قتلوا) بالتشديد ، والآخرون بالتخفيف (أمواتا) كأموات من لم يقتل في سبيل الله { بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ } ، قيل : أحياء في الدين ، وقيل : في الذكر ، وقيل : لأنهم يرزقون ويأكلون ويتمتعون كالأحياء ، وقيل : لأن أرواحهم تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة ، وقيل : لأن الشهيد لا يبلى في القبر ، ولا تأكله الأرض ، { يُرْزَقُونَ } ، من ثمار الجنة وتحفها .

[170] { فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } ، رزقه وثوابه ، { وَيَسْتَبْشِرُونَ } ، ويفرحون ، { بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ } ، من إخوانهم الذين تركوهم أحياء في الدنيا على مناهج الإيمان والجهاد لعلمهم أنهم إذا استشهدوا ولحقوا بهم ونالوا من الكرامة ما نالوا ، فهم لذلك مستبشرون ، { أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } .
[171] { يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ } أي : وبأن الله ، وقرأ الكسائي بكسر الألف على الاستئناف ، { لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ } .
[172] قوله تعالى : { الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ } أي أجابوا ، ومحل (الذين) خفض على صفة المؤمنين تقديره : إن الله لا يضيع أجر المؤمنين المستجيبين الذين استجابوا لله والرسول ، { مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ } ، أي : نالهم الجرح في أحد ، وتم الكلام هاهنا ثم ابتدأ فقال : { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ } بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجابته إلى الغزو ، { وَاتَّقَوْا } ، معصيته { أَجْرٌ عَظِيمٌ } .

[173] { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ } يعني أبا سفيان وأصحابه ، { فَاخْشَوْهُمْ } ، فخافوهم واحذروهم ، فإنه لا طاقة لكم بهم ، { فَزَادَهُمْ إِيمَانًا } تصديقا ويقينا وقوله : { وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ } أي : كافينا الله ، { وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } ، أي : الموكل إليه الأمور ، فعيل بمعنى مفعول .

[174] { فَانْقَلَبُوا } ، فانصرفوا ، { بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ } بعافية لم يلقوا عدوا { وَفَضْلٍ } تجارة وربح ، { لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ } لم يصبهم أذى ولا مكروه ، { وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ } في طاعة الله وطاعة رسوله ، وذلك أنهم قالوا : هل يكون هذا غزو فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضي عنهم ، { وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ

عَظِيمٍ } .
[175] قوله تعالى : { إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ } ، يعني : ذلك الذي قال لكم : { إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ } ، من فعل الشيطان ألقي في أفواههم لترهبوهم وتجبنوا عنهم ، { يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ } ، أي يخوفكم بأوليائه ، وكذلك هو في قراءة أبي بن كعب يعني : يخوف المؤمنين بالكافرين ، قال السدي : يعظم أولياءه في صدورهم ليخافوهم ، يدل عليه قراءة عبد الله بن مسعود (يخوفكم أولياءه) ، { فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ } ، في ترك أمري { إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } ، مصدقين بوعدي لأني متكفل لكم بالنصر والظفر .

[176] قوله عز وجل : { وَلَا يَحْزُنْكَ } ، قرأ نافع (يحزنك) بضم الياء وكسر الزاي ، وكذلك في جميع القرآن إلا قوله : { لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ } ، ضده أبو جعفر ، وهما لغتان : حزن يحزن وأحزن يحزن ، إلا أن اللغة الغالبة حزن يحزن ، { الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ } ، قال الضحاك : هم كفار قريش ، وقال غيره : المنافقون يسارعون في الكفر بمظاهرة الكفار . { إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا } ، بمسارعتهم في الكفر ، { يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ } ، نصيبا في ثواب الآخرة ، فلذلك خذلهم حتى سارعوا في الكفر ، { وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } .
[177] { إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا } ، استبدلوا { الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا } ، بمسارعتهم في الكفر وإنما يضرون أنفسهم ، { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } .

[178] { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، قرأ حمزة هذا والذي بعده بالتاء فيهما ، وقرأ الآخرون بالياء ، فمن قرأ بالياء (فالذين) في محل الرفع على الفاعل وتقديره : لا يحسبن الكفار إملاءنا لهم خيرا ، ومن قرأ بالتاء يعني : ولا تحسبن يا محمد الذين كفروا ، وإنما نصب على البدل من الذين ، { أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ } ، والإملاء الإمهال والتأخير ، يقال : عشت طويلا وتمليت حينا ، ومنه قوله تعالى : (واهجرني مليا) أي : حينا طويلا ، ثم ابتدأ فقال : { إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ } ، نمهلهم { لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ } ، قال مقاتل : نزلت في مشركي مكة ، وقال عطاء : في قريظة والنضير .

[179] قوله تعالى : { مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ } اختلفوا في حكم الآية ونظمها ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك ومقاتل والكلبي وأكثر المفسرين : الخطاب للكفار والمنافقين ، يعني : { مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ } يا معشر الكفار والمنافقين من الكفر والنفاق { حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ } ، وقال قوم : الخطاب للمؤمنين الذين أخبر عنهم ، معناه : ما كان الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من التباس المؤمن بالمنافق ، فرجع من الخبر إلى الخطاب ، (حتى يميز الخبيث من الطيب) ، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب بضم الياء وتشديدها وكذلك التي في الأنفال ، وقرأ الباقون بالتخفيف ، يقال : ماز الشيء يميزه ميزا وميزه تمييزا إذا فرقه فامتاز ، هانما هو بنفسه ، قال أبو معاذ إذا فرقت بين شيئين ، قلت : مزت ميزا فإذا كانت أشياء قلت : ميزتها تمييزا ، وكذلك إذا جعلت الشيء الواحد شيئين قلت : فرقت بالتخفيف ، ومنه فرقت الشعر ، فإن جعلته أشياء ، قلت : فرقته تفريقا ، ومعنى

الآية : حتى يميز المنافق من المخلص ، فميز الله المؤمنين من المنافقين يوم أحد حيث أظهروا النفاق فتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال

قتادة : حتى يميز الكافر من المؤمن بالهجرة والجهاد ، وقال الضحاك : (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه) في أصلاب الرجال وأرحام النساء يا معشر المنافقين والمشركين حتى يفرق بينكم وبين من في أصلابكم وأرحام نسائكم من المؤمنين ، وقيل : (حتى يميز الخبيث) وهو المذنب (من الطيب) وهو المؤمن ، يعني : حتى تحط الأوزار عن المؤمن بما يصيبه من نكبة ومحنة ومصيبة ، { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ } ، لأنه لا يعلم الغيب أحد غير الله ، { وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ } فيطلعه على بعض علم الغيب ، نظيره قوله تعالى : { عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا }{ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ } ، وقال السدي : معناه وما كان الله ليطلع محمدا صلى الله عليه وسلم على الغيب ولكن الله اجتباه ، { فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ } .

[180] { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ } ، أي : ولا يحسبن الباخلون البخل خيرا لهم ، { بَلْ هُوَ } ، يعني : البخل ، { شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ } ، أي : سوف يطوقون ، { مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ، يعني : يجعل ما منعه من الزكاة حية تطوق في عنقه يوم القيامة تنهشه من فوقه إلى قدمه ، هذا قول ابن مسعود وابن عباس ، وقال إبراهيم النخعي : معنى الآية يجعل يوم القيامة في أعناقهم طوقا من النار ، قال مجاهد : يكلفون يوم القيامة أن يأتوا بما بخلوا به في الدنيا من أموالهم . وروى عطية عن ابن عباس : أن هذه الآية نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته ، وأراد بالبخل كتمان العلم كما قال في سورة النساء { الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } ومعنى قوله (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) أي : يحملون وزره وإثمه ، كقوله تعالى : { يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ } . { وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، يعني

: أنه الباقي الدائم بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم فيموتون ويرثهم ، نظيره قوله تعالى : { إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا } ، { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } ، قرأ أهل البصرة ومكة بالياء ، وقرأ الآخرون بالتاء .

[181] قوله تعالى : { لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ } ، قال الحسن ومجاهد : لما نزلت : { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا } قالت اليهود : إن الله فقير يستقرض منا ونحن أغنياء ، { سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا } ، من الإفك والفرية على الله فنجازيهم به ، وقال مقاتل : سنحفظ عليهم ، وقال الواقدي : سنأمر الحفظة بالكتابة ، نظيره قوله تعالى : { وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ } . { وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } ، قرأ حمزة (سيكتب) بضم الياء ، (وقتلهم) برفع اللام (ويقول) بالياء ، و (ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) أي : النار ، وهو بمعنى المحرق ، كما يقال : (لهم عذاب أليم) ، أي : مؤلم .
[182] { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } ، فيعذب بغير ذنب .

[183] قوله تعالى : { الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا } ، الآية ، قال الكلبي : نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهوذا وزيد بن التابوت وفنحاص بن عازوراء وحيي بن أخطب أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا :

يا محمد تزعم أن الله تعالى بعثك إلينا رسولا وأنزل عليك الكتاب وأن الله تعالى قد عهد إلينا في التوراة { أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ } ، يزعم أنه من عند الله ، { حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ } ، فإن جئتنا به صدقناك ؟ فأنزل الله تعالى : (الذين قالوا) أي : سمع الله قول الذين قالوا ، ومحل (الذين) خفض ردا على الذين الأول ، (إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا) أي : أمرنا وأوصانا في كتبه أن لا نؤمن برسول ، أي : لا نصدق رسولا يزعم أنه جاء من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار أضار فيكون دليلا على صدقه ، والقربان ، كل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من نسيكة وصدقة ملأ وعمل صالح ، وهو فعلان من القربة ، وكانت القرابين والغنائم لا تحل لبني إسرائيل ، وكانوا إذا قربوا قربانا أو غنموا غنيمة جاءت نار بيضاء من السماء لا دخان لها ، ولها دوي وحفيف ،

فتأكله وتحرق ذلك القربان وتلك الغنيمة فيكون ذلك علامة القبول ، وإذا لم يقبل بقيت على حالها ، وقال السدي : إن الله تعالى أمر بني إسرائيل من جاءكم يزعم أنه رسول الله فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار حتى يأتيكم المسيح ومحمد ، فإذا أتياكم فآمنوا بهما ، فإنهما يأتيان بغير قربان ، قال الله تعالى إقامة للحجة عليهم ، { قُلْ } ، يا محمد { قَدْ جَاءَكُمْ } ، يا معشر اليهود ، { رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ } ، من القربان { فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ } ؟ يعني : زكريا ويحيى وسائر من قتلوا من الأنبياء ، وأراد بذلك أسلافهم فخاطبهم بذلك لأنهم رضوا بفعل أسلافهم { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } ، معناه تكذيبهم إياك مع علمهم بصدقك ، كقتل آبائهم الأنبياء ، مع الإتيان بالقربان والمعجزات ، ثم قال معزيا لنبيه صلى الله عليه وسلم .
[184] { فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ } ، قرأ ابن عامر : (وبالزبر) أي : بالكتب المزبورة ، يعني : المكتوبة ، واحدها مثل : رسول ورسل ، { وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ } ، الواضح المضيء .

[185] قوله عز وجل : { كُلُّ نَفْسٍ } ، منفوسة { ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ } ، توفون جزاء أعمالكم ، { يَوْمَ الْقِيَامَةِ } إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، { فَمَنْ زُحْزِحَ } ، نحي وأزيل ، { عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } ، يعني منفعة ومتعة كالفأس والقدر والقصعة ، ثم يزول ولا يبقى ، وقال الحسن : كخضرة النبات ولعب البنات لا حاصل له ، قال قتادة : هي متاع متروكة يوشك أن تضمحل بأهلها ، فخذوا من هذا المتاع بطاعة الله ما استطعتم ، والغرور الباطل .

[186] { لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ } (لَتُبْلَوُنَّ) لتختبرن ، اللام للتأكيد ، وفيه معنى القسم ، والنون لتأكيد القسم (فِي أَمْوَالِكُمْ) بالجوائح والعاهات والخسران (وأنفسكم) بالأمراض ، وقيل : بمصائب الأقارب والعشائر ، قال عطاء : هم المهاجرون أخذ المشركون أموالهم ورباعهم وعذبوهم ، وقال الحسن : هو ما فرض عليهم من أموالهم وأنفسهم من الحقوق ، كالصلاة والصيام والحج والجهاد والزكاة ، { وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ } يعني : اليهود والنصارى ، { وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا } ، يعني : مشركي العرب ، { أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا } ، على أذاهم { وَتَتَّقُوا } ، الله ، { فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } ، من حق الأمور وخيرها ، وقال عطاء : من حقيقة الإيمان .

[187] { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ } ، قرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر بالياء فيهما ، لقوله تعالى : (فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ

ظُهُورِهِمْ) ، وقرأ الآخرون بالتاء فيها على إضمار القول ، { فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ } ، أي طرحوه وضيعوه وتركوا العمل به ، { وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا } ، يعني المآكل والرشا { فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ } ، قال قتادة : هذا ميثاق أخذه الله تعالى على أهل العلم فمن علم شيئا فليعلمه ، وإياكم وكتمان العلم فإنه هلكة ، وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه : لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشيء ، ثم تلا هذه الآية .

[188] { لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا } ، قرأ عاصم وحمزة والكسائي (لا تحسبن) بالتاء ، أي : لا تحسبن يا محمد الفارحين ، وقرأ الآخرون بالياء لا تحسبن الفارحون في فرحهم منجيا لهم من العذاب ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (فلا يحسبنهم) بالياء وضم الياء خبرا عن الفارحين ، أي فلا يحسبن أنفسهم ، وقرأ الآخرون بالتاء وفتح الباء ، أي : فلا تحسبنهم يا محمد ، وأعاد قوله (فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ) تأكيدا قال عكرمة : نزلت في فنحاص وأسيبع وغيرهما من الأحبار يفرحون بإضلالهم الناس بنسبة الناس إياهم إلى العلم وليسوا بأهل العلم ، وقال مجاهد : هم اليهود فرحوا بإعجاب الناس بتبديلهم الكتاب وحمدهم إياهم عليه ، وقال سعيد بن جبير : هم اليهود فرحوا بما أعطى الله آل إبراهيم وهم برآء من ذلك ، وقال قتادة ومقاتل : أتت يهود خيبر نبي الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : نحن نعرفك ونصدقك هانا على رأيك ونحن لك ردء ، وليس ذلك في قلوبهم ، فلما خرجوا قال لهم المسلمون : ما صنعتم ؟ قالوا : عرفناه وصدقناه ، فقال لهم المسلمون : أحسنتم هكذا فافعلوا ، فحمدوهم ودعوا لهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقال : (يفرحون

بما أتوا) قال الفراء بما فعلوا ، كما قال الله تعالى : { لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا } أي : فعلت ، { وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ } بمناجاة { مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }
[189] { وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، يصرفها كيف يشاء ، { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[190] { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } ذوي العقول ، ثم وصفهم فقال :

[191] { الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ } ، قال علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم والنخعي وقتادة : هذا في الصلاة يصلي قائما فإن لم يستطع قاعدا فإن لم يستطع فعلى جنب ، وقال سائر المفسرين أراد به المداومة على الذكر في عموم الأحوال لأن الإنسان قلما يخلو من إحدى هذه الحالات الثلاث ، نظيره في سورة النساء { فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ } ، { وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، وما أبدع فيهما ليدلهم ذلك على قدرة الله ويعرفوا أن لها صانعا قادرا مدبرا حكيما ، قال ابن عون : الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النماء ، وما جليت القلوب بمثل الأحزان ، ولا استنارت بمثل الفكرة ، { رَبَّنَا } أي : ويقولون ربنا { مَا خَلَقْتَ هَذَا } رده إلى الخلق فلذلك لم يقل هذه ، { بَاطِلًا } ، أي : عبثا وهزلا بل خلقته لأمر عظيم ، وانتصب (باطلا) بنزع الخافض ، أي : بالباطل ، { سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } .

[192] { رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ } أي : أهنته ، وقيل : أهلكته ، وقيل : فضحته ، لقوله تعالى : { وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي } فإن قيل : قد قال

الله تعالى : { يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ } ، ومن أهل الإيمان من يدخل النار ، وقد قال : (رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ) ، فكيف الجمع ؟ قيل : قال أنس وقتادة معناه : إنك من تخلده في النار فقد أخزيته ، وقال سعيد بن المسيب هذه خاصة لمن لا يخرج منها ، فقد روى أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يدخل قوما النار ثم يخرجون منها » . { وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ } .

[193] ، { رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا } يعني : محمدا صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما ، وأكثر الناس ، وقال القرظي : يعني القرآن ، فليس كل واحد يلقى النبي صلى الله عليه وسلم ، { يُنَادِي لِلْإِيمَانِ } إلى الإيمان ، { أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ } أي : في جملة الأبرار .

[194] { رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ } أي : على ألسنة رسلك ، { وَلَا تُخْزِنَا } ، ولا تعذبنا ولا تهلكنا ولا تفضحنا ولا تهنا ، { يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ } ، فإن قيل : ما وجه قولهم : (رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ) ، وقد علموا أن الله لا يخلف الميعاد ؟ قيل : لفظه دعاء ومعناه خبر ، أي : لتؤتينا ما وعدتنا على رسلك ، تقديره : { فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا } (وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ، لتؤتينا ما وعدتنا على رسلك من الفضل والرحمة ، وقيل .
معناه ربنا واجلعنا ممن يستحقون ثوابك وتؤتيهم ما وعدتهم على ألسنة رسلك لأنهم لم يتيقنوا استحقاقهم لتلك الكرامة ، فسألوه أن يجعلهم مستحقين لها ، وقيل : إنما سألوه تعجيل ما وعدهم من النصر على الأعداء ، وقالوا : قد علمنا أنك لا تخلف وعدك من النصر ، ولكن لا صبر لنا على حلمك فعجل خزيهم وانصرنا عليهم .

[195] ، قوله تعالى : { فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي } أي : بأني : { لَا أُضِيعُ } لا أحبط ، { عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ } ، أيها المؤمنون { مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى } قال مجاهد : « قالت أم سلمة يا رسول الله إني أسمع الله يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء ، فأنزل الله تعالى هذه الآية » ، { بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ } ، قال الكلبي : في الدين والنصرة والموالاة ، وقيل : كلكم من آدم وحواء ، وقال الضحاك : رجالكم شكل نسائكم ونساؤكم شكل رجالكم في الطاعة ، كما قال : { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ } ، { فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي } ، أي : في طاعتي وديني ، وهم المهاجرون الذين أخرجهم المشركون من مكة ، { وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا } قرأ ابن عامر وابن كثير (قتلوا) بالتشديد ، وقال الحسن : يعني أنهم قطعوا في المعركة ، والآخرون بالتخفيف ، وقرأ أكثر القراء : (وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا) يريد أنهم قاتلوا العدو ثم أنهم قتلوا ، وقرأ حمزة والكسائي (قتلوا وقاتلوا) وله وجهان ، أحدهما : معناه وقاتل من بقي منهم ، ومعنى قوله

(وقتلوا) أي : قتل بعضهم ، تقول العرب قتلنا بني فلان وإنما قتلوا بعضهم ، والوجه الآخر (وقتلوا) وقد قاتلوا ، { لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } ، نصب على القطع قاله الكسائي ، وقال المبرد : مصدر ، أي : لأثيبنهم ثوابا ، { وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ }
[196] ، قوله عز وجل : { لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ } ، نزلت في المشركين ، وذلك أنهم كانوا في رخاء ولين من العيش يتجرون ويتنعمون ،

فقال بعض المؤمنين : إن أعداء الله تعالى فيما نرى من الخير ، ونحن في الجهد ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية { لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ } ، وضربهم في الأرض وتصرفهم في البلاد للتجارات وأنواع المكاسب ، فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد منه غيره .
[197] ، { مَتَاعٌ قَلِيلٌ } ، أي : هو متاع قليل ، بلغة فانية ومتعة زائلة ، { ثُمَّ مَأْوَاهُمْ } ، مصيرهم ، { جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } . الفراش .

[198] { لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا } ، جزاء وثوابا ، { مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } ، نصب على التفسير ، وقيل : جعل ذلك نزلا ، { وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ } من متاع الدنيا .

[199] ، قوله عز وجل : { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ } هو الآية ، قال ابن عباس وجابر وأنس وقتادة : نزلت في النجاشي ملك الحبشة ، وقال عطاء : نزلت في أهل نجران أربعين رجلا اثنان وثلاثون من أرض الحبشة وثمانية من الروم ، كانوا على دين عيسى عليه السلام ، فآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن جريج : نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه ، وقال مجاهد : نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلهم ، { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ } يعني : القرآن ، { وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ } يعني : التوراة والإنجيل ، { خَاشِعِينَ لِلَّهِ } خاضعين متواضعين لله ، { لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا } يعني : لا يحرفون كتبهم ولا يكتمون صفة محمد صلى الله عليه وسلم لأجل الرياسة والمأكلة ، كفعل غيرهم من رؤساء اليهود ، { أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }

[200] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا } ، قال الحسن : اصبروا على دينكم ولا ندعوه لشدة ولا رخاء ، وقال قتادة : اصبروا على طاعة أدته ، وقال الضحاك ومقاتل بن سليمان : على أمر الله ، وقال مقاتل بن حيان : على أداء فرائض الله تعالى ، وقال زيد بن أسلم : على الجهاد ، وقال الكلبي . على البلاء ، وصابروا يعني : على قتال الكفار ، ورابطوا يعني المشركين ، قال أبو عبيدة : أي دافعوا واثبتوا ، والربط الشد ، وأصل الرباط أن يربط خيولهم ، وهؤلاء خيولهم ، ثم قيل : ذلك لكم مقيم في ثغر يدفع عمن وراءه ، وإن لم يكن له مركب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، ولروحة يروحها العبد في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها » ، وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : لم يكن في زمان النبي صلى الله عليه وسلم غزو يرابط فيه ، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة ، ودليل هذا التأويل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على

المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط فذلكم الرباط »{ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } ، قال بعض أرباب اللسان : اصبروا على النعماء وصابروا على البأساء والضراء ورابطوا في دار الأعداء واتقوا إله الأرض والسماء لعلكم تفلحون في دار البقاء .

(4) سورة النساء
[1] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ } ،

يعني : آدم عليه السلام ، { وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا } يعني : حواء ، { وَبَثَّ مِنْهُمَا } ، نشر وأظهر ، { رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ } أي : تتساءلون به { وَالْأَرْحَامَ } ، قراءة العامة بالنصب ، أي : واتقوا الأرحام أن تقطعوها ، وقرأ حمزة بالخفض ، أي : به وبالأرحام كما يقال : سألتك بالله والأرحام ، والقراءة الأولى أفصح لأن العرب لا تكاد تنسق بظاهر على مكنى إلا بعد أن تعيد الخافض فتقول : مررت به وبزيد ، إلا أنه جائز مع قلته ، { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } ، أي : حافظا .

[2] قوله تعالى : { وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ } ، قوله : { وَآتُوا } خطاب للأولياء والأوصياء ، واليتامى : جمع يتيم ، واليتيم : اسم لصغير لا أب له ولا جد ، وإنما يدفع المال إليهم بعد البلوغ ، وسماهم يتامى هاهنا على معنى أنهم كانوا يتامى ، { وَلَا تَتَبَدَّلُوا } ، لا تستبدلوا ، { الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ } ، أي : مالهم الذي هو حرام عليكم بالحلال من أموالكم ، واختلفوا في هذا التبديل ، قال سعيد بن المسيب والنخعي والزهري والسدي : كان أولياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم ويجعلون مكانه الرديء ، فربما كان أحد يأخذ الشاة السمينة من مال اليتيم ويجعل مكانها المهزولة ، ويأخذ الدرهم الجيد ويجعل مكانه الزيف ، ويقول : درهم بدرهم ، فنهوا عن ذلك ، وقيل : كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والصبيان ويأخذ الأكبر الميراث ، فنصيبه من الميراث طيب ، وهذا الذي يأخذه من نصيب غيره خبيث ، وقال مجاهد : لا تتعجل الرزق الحرام قبل أن يأتيك الحلال . { وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ } ، أي مع أموالكم ، كقوله تعالى : { مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ } : مع الله ، { إِنَّهُ كَانَ حُوبًا

كَبِيرًا } ، إثما عظيما .

[3] وقوله تعالى : { وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ } ، اختلفوا في تأويلهم ، فقال بعضهم : معناه إن خفتم يا أولياء اليتامى ألا تعدلوا فيهن إذا نكحتموهن فانكحوا غيرهن من الغرائب مثنى وثلاث ورباع وقال الحسن : كان الرجل من أهل الجاهلية تكون عنده الأيتام وفيهن من يحل له نكاحها فيتزوجها لأجل مالها وهي لا تعجبه كراهية أن يدخل غريب فيشاركه في مالها ، ثم يسيء صحبتها ويتربص أن تموت ويرثها ، فعاب الله تعالى ذلك ، وأنزل الله هذه الآية ، وقال عكرمة : كان الرجل من قريش يتزوج العشر من النساء والأكثر فإذا صار معدما من مؤن نسائه مال إلى مال يتيمته التي في حجره فأنفقه ، فقيل لهم : لا تزيدوا على أربع حتى لا يحوجكم إلى أخذ أموال اليتامى ، وهذه رواية طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال بعضهم : كانوا يتحرجون عن أموال اليتامى ويترخصون في النساء ، فيتزوجون ما شاءوا وربما عدلوا وربما لم يعدلوا فلما أنزل الله تعالى في أموال اليتامى { وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ } أنزل هذه الآية { وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا

تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى } ، يقول كما خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فكذلك خافوا في النساء ألا تعدلوا فيهن فلا تتزوجوا أكثر مما يمكنكم القيام بحقوقهن ، لأن النساء في الضعف كاليتامى ، وهذا قول سعيد بن جبير وقتادة والضحاك والسدي ، ثم رخص في نكاح أربع فقال : { فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً } وقال مجاهد : معناه إن تحرجتم من ولاية اليتامى وأموالهم إيمانا فكذلك تحرجوا من الزنا فانكحوا

النساء الحلال نكاحا طيبا ثم بين لهم عددا ، وكانوا يتزوجون ما شاءوا من غير عدد ، فنزل قوله تعالى : (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) أي : من طاب ، والعرب تضع (من) و (ما) كل واحدة موضع الأخرى ، وطاب أي : حل لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، معدولات عن اثنين وثلاث وأربع ، ولذلك لا يصرفن ، وإن الواو بمعنى أو ، للتخيير ، كقوله تعالى : { أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى } وهذا إجماع أن أحدا من الأمة لا يجوز له أن يزيد على أربع نسوة (فإن خفتم) ، خشيتم ، وقيل : علمتم ، (ألا تعدلوا) ، بين الأزواج الأربع ، (

فَوَاحِدَةً) أي : فانكحوا واحدة . وقرأ أبو جعفر (فواحدة) بالرفع ، { أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } ، يعني : السراري لأنه لا يلزم فيهن من الحقوق ما يلزم في الحرائر ، ولا قسم لهن ولا وقف في عددهن ، { ذَلِكَ أَدْنَى } ، أقرب { أَلَّا تَعُولُوا } أي : لا تجوروا ولا تميلوا ، يقال : ميزان عائل ، أي : جائر مائل ، هذا قول أكثر المفسرين ، وقال مجاهد : ألا تضلوا ، وقال الفراء : ألا تجاوزوا ما فرض الله عليكم ، وأصل العول : المجاوزة ، ومنه عول الفرائض ، وقال الشافعي رحمه الله : ألا تكثر عيالكم ، وما قاله أحد ، إنما يقال : أعال يعيل إعالة إذا كثر عياله . وقال أبو حاتم : كان الشافعي رضي الله عنه أعلم بلسان العرب منا فله بلغة ، ويقال : هي لغة حمير ، وقرأ طلحة بن مصرف (أن لا تعيلوا) وهي حجة لقول الشافعي رضوان الله عليه .

[4] { وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً } قال الكلبي ومجاهد : هذا الخطاب للأولياء ، وذلك أن ولي المرأة كان إذا تزوجها لم يعطها من مهرها قليلا ولا كثيرا ، وقال الآخرون : الخطاب للأزواج أمروا بإيتاء نسائهم الصداق ، وهذا أصح ، لأن الخطاب فيما قبل مع الناكحين ، والصدقات : المهور ، واحدها صدقة ، نحلة قال قتادة : فريضة ، وقال ابن جريج : فريضة مسماة ، قال أبو عبيدة : ولا تكون النحلة إلا مسماة معلومة ، وقال الكلبي : عطية وهبة ، وقال أبو عبيدة : عن طيب نفس ، وقال الزجاج : تدينا ، { فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا } ، يعني : فإن طابت نفوسهن بشيء من ذلك فوهبن منكم ، { فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا } ، سائغا طيبا ، يقال هنأني الطعام يهنئني بفتح النون في الماضي وكسرها في الغابر ، وقيل : الهنيء : الطيب المساغ الذي لا ينغصه شيء ، والمريء " المحمود العاقبة التام الهضم الذي لا يضر .

[5] قوله تعالى : { وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا } ، اختلفوا في هؤلاء السفهاء فقال قوم : هم النساء ، وقال الضحاك : النساء من أسفه السفهاء ، وقال مجاهد : نهى الرجال أن يؤتوا النساء أموالهم وهن سفهاء سواء كن أزواجا أو بنات أو أمهات ، وقال الآخرون : هم الأولاد ، قال الزهري : يقول لا تعط ولدك السفيه مالك الذي هو قيامك بعد الله تعالى فيفسده ، وقال بعضهم : هم النساء والصبيان ، وقال الحسن : هي امرأتك السفيهة وابنتك السفيهة ، وقال ابن عباس : لا تعمد إلى مالك الذي خولك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك وبنيك فيكونوا هم الذين يقومون عليك ، ثم تنظر إلى ما في أيديهم ، ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذي تنفق عليهم في رزقهم ومؤنتهم ، قال الكلبي : إذا علم الرجل أن امرأته سفيهة مفسدة وأن ولده سفيه مفسد فلا ينبغي له أن يسلط واحدا منهما على ماله فيفسده . وقال سعيد بن جبير وعكرمة : هو مال اليتيم يكون عندك ، يقول لا تؤته إياه وأنفقه عليه حتى يبلغ ، وإنما أضاف إلى الأولياء فقال : (أموالكم) لأنهم قوامها ومدبروها ، والسفيه الذي لا يجوز لوليه أن يؤتيه ماله

هو المستحق الحجر عليه ، وهو أن يكون مبذرا في ماله أو مفسدا في دينه ، فقال جل ذكره : (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ) ، أي : الجهال بموضع الحق (أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا) ، أصله : قواما ، فانقلبت الواو يا ء لانكسار ما قبلها ، وهو ملاك الأمر وما يقوم به الأمر . وأراد هاهنا قوام عيشكم الذي تعيشون به . قال الضحاك : به يقام الحج والجهاد وأعمال البر وبه فكاك الرقاب من النار . { وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا } أي : أطعموهم ، { وَاكْسُوهُمْ } ، لمن يجب عليكم رزقه ومؤنته ، وإنما قال (فيها) ولم يقل : منها ، لأنه أراد أنهم جعلوا لهم فيها رزقا فإن الرزق من الله العطية من غير حد ، ومن العباد أجر موقت محدود ، { وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا } عدة جميلة ، وقال عطاء : إذا ربحت أعطيتك وإن غنمت فلك فيه حظ ، وقيل : هو الدعاء ، وقال ابن زيد : إن لم يكن ممن يجب عليك نفقته ، فقل له : عافانا الله وإياك بارك الله فيك ، وقيل : قولا تطيب به أنفسهم .

[6] قوله تعالى : { وَابْتَلُوا الْيَتَامَى } أي : اختبروهم في عقولهم وأديانهم وحفظهم أموالهم ، { حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ } ، أي : مبلغ الرجال والنساء ، { فَإِنْ آنَسْتُمْ } ، أبصرتم ، { مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ } ، فقال المفسرون يعني : عقلا وصلاحا في الدين وحفظا للمال وعلما بما يصلحه . وقال سعيد بن جبير ومجاهد والشعبي : لا يدفع إليه ماله وإن كان شيخا حتى يؤنس منه رشده ، والابتلاء يختلف باختلاف أحوالهم فإن كان ممن يتصرف في السوق فيدفع الولي إليه شيئا يسيرا من المال وينظر في تصرفه وإن كان ممن لا يتصرف في السوق فيختبره في نفقة داره ، والإنفاق على عبيده وأجرائه ، وتختبر المرأة في أمر بيتها وحفظ متاعها ، فإذا رأى حسن تدبير ، وتصرف في الأمور مرارا يغلب على القلب رشده ، دفع المال إليه . واعلم أن الله تعالى علق زوال الحجر عن الصغير وجواز دفع المال إليه بشيئين : بالبلوغ والرشد ، والبلوغ يكون بأحد أشياء أربعة ، اثنان يشترك فيهما الرجال والنساء ، واثنان مختصان بالنساء ، أحدهما السن ، والثاني الاحتلام ، أما السن فإذا استكمل المولود خمس عشرة سنة حكم ببلوغه

غلاما كان أو جارية ، وأما الاحتلام فنعني به نزول المني سواء كان بالاحتلام أو بالجماع ، أو غيرهما ، فإذا وجدت ذلك بعد استكمال تسع سنين من أيهما كان حكم ببلوغه ، أما ما يختص بالنساء فالحيض والحبل ، فإذا حاضت المرأة بعد استكمال تسع سنين يحكم ببلوغها ، وكذلك إذا ولدت يحكم ببلوغها قبل الوضع بستة أشهر لأنها أقل مدة الحمل . وأما الرشد فهو أن يكون مصلحا في دينه وماله ، والصلاح في الدين هو أن يكون مجتنبا عن الفواحش والمعاصي التي تسقط العدالة ، والصلاح في المال هو ألا يكون مبذرا ، والتبذير : هو أن ينفق ماله فيما لا يكون فيه محمدة دنيوية ولا مثوبة أخروية ، أو لا يحسن التصرف فيها ، فيغبن في البيوع ، قوله تعالى : { وَلَا تَأْكُلُوهَا } ، يا معشر الأولياء { إِسْرَافًا } ، بغير حق ، { وَبِدَارًا } أي : مبادرة ، { أَنْ يَكْبَرُوا } و (أن) في محل النصب ، يعني : لا تبادروا كبرهم ورشدهم حذرا من أن يبلغوا فيلزمكم تسليمها إليهم ، ثم بين ما يحل لهم ومن مالهم فقال : { وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ } ، أي ليمتنع من مال اليتيم فلا يرزؤه قليلا ولا كثيرا ، والعفة الامتناع مما لا يحل ، { وَمَنْ كَانَ

فَقِيرًا } ، محتاجا إلى مال اليتيم وهو يحفظه ويتعهده ، { فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ } ، واختلفوا في أنه هل يلزمه القضاء ، فذهب بعضهم إلى أن يقضي إذا أيسر

وهو المراد من قوله : (فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) ، فالمعروف القرض ، أي : يستقرض من مال اليتيم إذا احتاج إليه ، فإذا أيسر قضاه ، وقال قوم : لا قضاء عليه ، { فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ } ، هذا أمر وإرشاد ، وليس بواجب ، أمر الولي بالإشهاد على دفع المال إلى اليتيم بعدما بلغ لتزول عنه التهمة وتنقطع الخصومة { وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا } ، محاسبا ومجازيا وشاهدا .

[7] قوله تعالى : { لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ } يعني : للذكور من أولاد الميت وأقربائه (نصيب) حظ { مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ } من الميراث ، { وَلِلنِّسَاءِ } ، وللإناث منهم ، { نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ } أي من المال ، { أَوْ كَثُرَ } منه , { نَصِيبًا مَفْرُوضًا } , نصب على القطع ، وقيل : جعل ذلك نصيبا فأثبت لهن الميراث ، ولم يبين كم هو حتى أنزل الله تعالى : { يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ } .

[8] قوله تعالى : { وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ } ، يعني : قسمة المواريث ، { أُولُو الْقُرْبَى } ، الذين لا يرثون ، { وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ } ، أي : فارضخوا لهم من المال قبل القسمة ، { وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا } اختلف العلماء في حكم هذه الآية ، فقال قوم : هي منسوخة ، وقال سعيد بن جبير والضحاك : كانت هذه قبل آية الميراث ، فجعلت المواريث لأهلها ، ونسخت هذه الآية . وقال الآخرون : هي محكمة ، وهو قول ابن عباس والشعبي والنخعي والزهري ، وقال مجاهد : هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم ، وقال بعضهم : وهو أولى الأقاويل : إن هذا على الندب والاستحباب ، لا على الحتم والإيجاب .

[9] قوله تعالى : { وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا } ، أولادا صغارا ، { خَافُوا عَلَيْهِمْ } ، الفقر ، هذا في الرجل يحضره الموت ، فيقول من بحضرته ، انظر لنفسك فإن أولادك وورثتك لا يغنون عنك شيئا ، قدم لنفسك ، اعتق وتصدق وأعط فلانا كذا وفلانا كذا ، حتى يأتي على عامة ماله ، فنهاهم الله تعالى عن ذلك ، وأمرهم أن يأمروه أن ينظر لولده ولا يزيد في وصيته على الثلث ، ولا يجحف بورثته كما أنه لو كان هذا القائل هو الموصي لسره أن يحثه من بحضرته على حفظ ماله لولده ، ولا يدعهم عالة مع ضعفهم وعجزهم . وقال الكلبي : هذا الخطاب لولاة اليتامى يقول : من كان في حجره يتيم فليحسن إليه وليأت في حقه ما يجب أن يفعل بذريته من بعده ، قوله تعالى : { فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا } ، أي : عدلا ، والسديد : العدل ، والصواب من القول ، وهو أن يأمره بأن يتصدق بما دون الثلث ويخلف الباقي لورثته .

[10] قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا } أي : حراما بغير حق ، { إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا } أخبر عن ماله ، أي عاقبته تكون كذلك ، { وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا } قراءة العامة بفتح الياء ، أي : يدخلونه ، يقال : صلى النار يصلوها صليا وصلاء ، قال الله تعالى : { إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ } ، وقرأ ابن عامر وأبو بكر بضم الياء ، أي : يدخلون النار ويحرقون ، نظيره قوله تعالى : { فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا }{ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ } .

[11] قوله تعالى : { يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ } الآية ، اعلم أن الوراثة كانت في الجاهلية بالذكورة والقوة فكانوا يورثون الرجال دون النساء والصبيان ، فأبطل الله ذلك بقوله : { لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَالْأَقْرَبُونَ } الآية ، وكانت أيضا في الجاهلية وابتداء الإسلام بالمحالفة ، قال الله تعالى : { وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ } ثم صارت الوراثة بالهجرة ، قال الله تعالى : { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا } فنسخ ذلك كله وصارت الوراثة بأحد الأمور الثلاثة بالنسب والنكاح أو الولاء ، والمعني بالنسب أن القرابة يرث بعضهم من بعض ، لقوله تعالى : { وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ } ، والمعني بالنكاح : أن أحد الزوجين يرث صاحبه ، وبالولاء : أن المعتق وعصباته يرثون المعتق ، قوله عز وجل : (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ) أي : يعهد إليكم ويفرض عليكم في أولادكم أي : في أمر أولادكم إذا متم ،

لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ . { فَإِنْ كُنَّ } يعني : المتروكات من الأولاد ، { نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ } ، أي : اثنتين فصاعدا (فوق) صلة ، كقوله تعالى : { فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ } ، { فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ } يعني : البنت ، { وَاحِدَةً } قراءة العامة على خبر كان ، رفعها أهل المدينة على معنى إن وقعت واحدة ، { فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ } يعني لأبوي الميت كناية عن غير مذكور ، { لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ } أراد أن الأب والأم يكون لكل واحد منهما سدس الميراث عند وجود الولد أو ولد الابن ، والأب يكون صاحب فرض { فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ } ، اثنان أو أكثر ذكورا وإناثا { فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ } ، والباقي يكون للأب إن كان معها أب ، والإخوة لا ميراث لهم مع الأب ، ولكنهم يحجبون الأم من الثلث إلى السدس ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لا يحجب الإخوة الأم من الثلث إلى السدس إلا أن يكونوا ثلاثة لأن الله تعالى قال : (فَإِنْ

كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ) ، ولا يقال للاثنين إخوة ، فنقول اسم الجمع قد يقع على التثنية لأن الجمع ضم شيء إلى شيء فهو موجود في الاثنين ، قوله تعالى : { مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ } ، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر (يوصي) فتح الصاد على ما لم يسم فاعله ، وكذلك الثانية ووافق حفص في الثانية ، وقرأ الآخرون بكسر الصاد لأنه جرى ذكر لميت من قبل ، بدليل قوله تعالى : { يُوصِينَ } ، و { تُوصُونَ } قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إنكم تقرؤون الوصية قبل الدين ، وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدين قبل الوصية ، وهذا إجماع أن الدين مقدم على الوصية . ومعنى الآية الجمع لا الترتيب ، وبيان أن الميراث مؤخر عن الدين والوصية جميعا من بعد وصية إن كانت أو دين إن كان ، والإرث مؤخر عن كل واحد منهما ، { آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ } ، يعني : الذين يرثونكم آباؤكم وأبناؤكم ، { لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا } أي : لا تعلمون أنهم أنفع لكم في الدين والدنيا فمنكم من يظن أن الأب أنفع له ، فيكون الابن أنفع له ، ومنكم من يظن أن الابن أنفع له فيكون الأب أنفع له

، وأنا العالم بمن هو أنفع لكم ، وقد دبر أمركم على ما فيه المصلحة فاتبعوه ، { فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ } أي : ما قدر الله من المواريث ، { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا } ، بأمور العباد ، { حَكِيمًا } ، بنصب الأحكام .

[12] قوله تعالى : { وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ } هذا ميراث الأزواج ، { وَلَهُنَّ الرُّبُعُ } ، يعني : الزوجات الربع { مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ

بِهَا أَوْ دَيْنٍ } هذا ميراث الزوجات وإذا كان للرجل أربع نسوة فهن يشتركن في الربع والثمن . قوله تعالى : { وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ } تورث كلالة ، ونظم الآية : وإن كان رجل أو امرأة يورث كلالة وهو نصب على المصدر ، وقيل : على خبر ما لم يسم فاعله ، وتقديره : وإن كان رجل يورث ماله كلالة ، واختلفوا في الكلالة فذهب أكثر الصحابة إلى أن الكلالة من لا ولد له ولا والد له ، وذهب طاوس إلى أن الكلالة من لا ولد له ، وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما ، واحتج من ذهب إلى هذا بقول الله تعالى : { قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ

هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ } ، وبيانه عند العامة مأخوذ من حديث جابر بن عبد الله ، لأن الآية نزلت فيه ولم يكن له يوم نزولها أب ولا ابن ، لأن أباه عبد الله بن حزام قتل يوم أحد ، وآية الكلالة نزلت في آخر عمر النبي صلى الله عليه وسلم ، فصار شأن جابر بيانا لمراد الآية لنزولها فيه ، واختلفوا في أن الكلالة اسم لمن ؟ فمنهم من قال : اسم للميت ، وهو قول علي وابن مسعود رضي الله عنهما ، لأنه مات عن ذهاب طرفيه ، فكل عمود نسبه ، ومنهم من قال : اسم للورثة ، وهو قول سعيد بن جبير ، لأنهم يتكللون الميت من جوانبه ، وليس في عمود نسبه أحد ، كالإكليل يحيط بالرأس ووسط الرأس منه خال ، وعليه يدل حديث جابر رضي الله عنه حيث قال : إنما يرثني كلالة ، أي : يرثني ورثة ليسوا بولد ولا والد ، وقال النضر بن شميل : الكلالة اسم للمال قوله تعالى : { وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ } ، أراد به الأخ والأخت من الأم بالاتفاق ، قرأ سعد بن أبي وقاص (وله أخ أو أخت من أم) ولم يقل لهما من ذكر الرجل والمرأة من قبل ، على عادة العرب إذا ذكرت اسمين ثم أخبرت عنهما ، وكانا في الحكم سواء ربما أضافت إلى أحدهما

، وربما أضافت إليهما { فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ } فيه إجماع أن أبناء الأم إذا كانوا اثنين فصاعدا يشتركون في الثلث ذكرهم وأنثاهم ، { مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ } أي : غير مدخل الضرر على الورثة بمجاوزة الثلث في الوصية ، { وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ } قال قتادة : كره الله الضرار في الحياة وعند الموت ، ونهى عنه وقدم فيه .
[13] ، { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ } يعني : ما ذكر من الفرائض المحدودة ، { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }
[14] ، { وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ } قرأ أهل المدينة وابن عامر (ندخله جنات ، وندخله نارا) ، وفي سورة الفتح (ندخله) و (نُعَذِّبْهُ) وفي سورة التغابن (نكفر) و (ندخله) وفي سورة الطلاق (ندخله) بالنون فيهن ، وقرأ الآخرون بالياء .

[15] ، قوله عز وجل : { وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ } ، يعني : الزنا ، { مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ } ، يعني : من المسلمين ، وهذا خطاب للحكام ، أي : فاطلبوا عليهن أربعة من الشهود ، فيه بيان أن الزنا لا يثبت إلا بأربعة من الشهود . { فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ } ، فاحبسوهن ، { فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا } ، وهذا كان في أول الإسلام قبل نزول الحدود ، كانت المرأة إذا زنت حبست في البيت حتى تموت ، ثم نسخ ذلك في حق البكر بالجلد والتغريب ، وفي حق الثيب بالرجم .

[16] ، قوله تعالى : { وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ } يعني الرجل والمرأة ، والهاء راجعة إلى الفاحشة { فَآذُوهُمَا } قال عطاء وقتادة : يعني فعيروهما باللسان : أما خفت الله ؟ أما استحييت من الله حيث زنيت ؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما : سبوهما واشتموهما ، قال ابن عباس : هو باللسان واليد يؤذى بالتعيير وضرب النعال ، فإن قيل : ذكر الحبس في الآية الأولى وذكر في هذه الآية الإيذاء ، فكيف وجه الجمع ؟ قيل : الآية الأولى في النساء وهذه في الرجال ، وهو قول مجاهد ، وقيل : الآية الأولى في الثيب وهذه في البكر ، { فَإِنْ تَابَا } ، من الفاحشة { وَأَصْلَحَا } ، العمل فيما بعد ، { فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا } ، فلا تؤذوهما ، { إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا } وهذا كله كان قبل نزول الحدود ، فنسخت بالجلد والرجم ، الجلد في القرآن قال الله تعالى : { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ } [سورة النور آية : 2] والرجم في السنة في « الرجلين اللذين اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما : اقض يا رسول الله بيننا بكتاب الله ، وقال الآخر وكان أفقههما

: أجل يا رسول الله فاقض بيننا بكتاب الله ، وائذن لي أن أتكلم ، قال : تكلم ، قال : إن ابني كان عسيفا ، أي : أجيرا على هذا ، فزنى بامرأته فأخبروني أن على ابني الرجم ، فافتديت منه بمائة شاة وبجارية لي ، ثم إني سألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام ، وإنما الرجم على امرأته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله ، أما غنمك وجاريتك فرد عليك ، وأما ابنك فعليه جلد مائة وتغريب عام ، واغد يا أنيس على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها ، فغدا عليها فاعترفت ، فرجمها » .

[17] ، قوله تعالى : { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ } قال الحسن : يعني التوبة التي يقبلها ، فيكون على بمعنى عند ، وقيل : من الله ، { لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ } ، قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله جميعهم على أن كل ما عصي به الله فهو جهالة عمدا كان أو لم يكن ، وكل من عصى الله فهو جاهل . وقال مجاهد : المراد من الآية : العمد ، قال الكلبي : لم يجهل أنه ذنب لكنه جهل عقوبته ، وقيل : معنى الجهالة : اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية . { ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ } ، قيل : معناه قبل أن يحيط السوء بحسناته فيحبطها ، وقال السدي والكلبي : القريب أن يتوب في صحته قبل مرض موته ، وقال عكرمة : قبل الموت ، وقال الضحاك : قبل معاينة ملك الموت ، قوله تعالى { فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا }

[18] ، { وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ } يعني : المعاصي ماله { حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ } ووقع النزاع ، { قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ } وهي حالة السوق حتى يساق بروحه ، لا يقبل من كافر إيمان ولا من عاص توبة ، قال الله تعالى . { فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا } ، ولذلك لم ينفع إيمان فرعون حين أدركه الغرق . { وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا } ، أي : هيأنا وأعتدنا ، { لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا }

[19] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا } قال الفراء : الكره بالفتح ما أكره عليه ، وبالضم ما كان من قبل نفسه من المشقة ، { وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ } أي : لا تمنعوهن من الأزواج ليضجرن فيفتدين ببعض مالهن قيل : هذا خطاب لأولياء الميت ، والصحيح أنه خطاب

للأزواج ، قال ابن عباس رضي الله عنهما . هذا في الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها ولها عليه مهر فيضارها لتفتدي وترد إليه ما ساق إليها من المهر ، فنهى الله تعالى عن ذلك ، ثم قال : { إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ } فحينئذ يحل لكم إضرارهن ليفتدين منكم ، واختلفوا في الفاحشة ، قال ابن مسعود وقتادة : هي النشوز ، وقال بعضهم وهو قول الحسن : هي الزنا ، يعني : المرأة إذا نشزت ، أو زنت حل للزوج أن يسألها الخلع ، وقال عطاء : كان الرجل إذا أصابت امرأته فاحشة أخذ منها ما ساق إليها وأخرجها ، فنسخ ذلك في الحدود ، (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) ، قال الحسن : راجع إلى أول الكلام ، يعني : { وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً } ، {

وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ } والمعاشرة بالمعروف : هي الإجمال في القول والمبيت والنفقة ، وقيل : هي أن يصنع لها كما تصنع له ، { فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا } قيل : هو ولد صالح ، أو يعطفه الله عليها .

[20] { وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ } أراد بالزوج الزوجة إذا لم يكن من قبلها نشوز ولا فاحشة ، { وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا } وهو المال الكثير صداقا ، { فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ } من القنطار ، { شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ } استفهام بمعنى التوبيخ ، { بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا } انتصابهما من وجهين أحدهما بنزع الخافض ، والثاني بالإضمار تقديره : تصيبون في أخذه بهتانا وإثما ثم قال :

[21] { وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ } على طريق الاستعظام ، { وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ } أراد به المجامعة ، ولكن الله حيي يكني ، وأصل الإفضاء : الوصول إلى الشيء من غير واسطة ، { وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا } ، قال الحسن وابن سيرين والضحاك وقتادة . وهو قول الولي عند العقد : زوجتكها على ما أخذ الله للنساء على الرجال من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، وقال الشعبي وعكرمة : هو ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله تعالى واستحللتم فروجهن بكلمة الله تعالى » (1) ، قوله عز وجل : { وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ } ، كان أهل الجاهلية ينكحون أزواج آبائهم ، قال الأشعث بن سوار : توفي أبو قيس وكان من صالحي الأنصار فخطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت : إني اتخذتك ولدا وأنت من صالحي قومك ، ولكني آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم أستأمره ، فأتته فأخبرته ، فأنزل الله تعالى :

---

(1) رواه مسلم في كتاب الحج / 147 ، وأبو داود في المناسك / 56 ، وابن ماجه في المناسك / 84 ، والدارمي في المناسك / 34 ، والإمام أحمد في مسنده ج 5 / 73 .

[22] ، { وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ } قيل : بعد ما سلف ، وقيل : معناه لكن ما سلف ، أي : ما مضى في الجاهلية فهو معفو عنه ، { إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً } أي : إنه فاحشة ، (وكان) فيه صلة ، و (الفاحشة) أقبح المعاصي ، { وَمَقْتًا } أي : يورث مقت الله ، والمقت . أشد البغض ، { وَسَاءَ سَبِيلًا } ، وبئس ذلك طريقا وكانت العرب تقول لولد الرجل من امرأة أبيه (مقيت) .

[23] ، قوله تعالى : { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ } الآية ، بين الله تعالى في هذه الآية المحرمات بسبب الوصلة ، وجملة المحرمات في كتاب الله تعالى أربع عشرة : سبع بالنسب ، وسبع بالسبب ، فأما السبع بالسبب فمنها اثنتان بالرضاع وأربع بالصهرية والسابعة المحصنات ، وهن ذوات الأزواج ، وأما السبع بالنسب فقوله تعالى : { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ } وهي جمع أم ويدخل فيه الجدات وإن علون من قبل الأم ومن قبل الأب ، { وَبَنَاتُكُمْ } وهي جمع : البنت ، ويدخل فيهن بنات الأولاد وإن سفلن ، { وَأَخَوَاتُكُمْ } جمع الأخت سواء كانت من قبل الأب والأم أو من قبل أحدهما ، { وَعَمَّاتُكُمْ } جمع العمة ، ويدخل فيهن جميع أخوات آبائك وأجدادك وإن علوا ، { وَخَالَاتُكُمْ } جمع خالة ، ويدخل فيهن أخوات أمهاتك وجداتك ، { وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ } ، ويدخل فيهن بنات أولاد الأخ والأخت وإن سفلن ، جملته : أنه يحرم على الرجل أصوله وفصوله وفصول أوله وأول الرجل أصوله وفصوله وفصول أول أصوله وأول فصل من كل أصل بعده ، والأصول هي الأمهات والجدات ، والفصول البنات وبنات الأولاد ، وفصول أول أصوله هي

الأخوات وبنات الإخوة والأخوات ، وأول فصل من كل أصل بعده هن العمات والخالات وإن علون ، وأما المحرمات بالرضاع فقوله تعالى : { وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ }{ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ } وجملته : أنه يحرم من والرضاعة ما يحرم من النسب ، وأما المحرمات بالصهرية فقوله : { وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ } وجملته أن كل من عقد النكاح على امرأة فتحرم على الناكح أمهات المنكوحة وجداتها وإن علون من الرضاعة والنسب بنفس العقد ، { وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ } الربائب جمع : ربيبة ، وهي بنت المرأة ، سميت ربيبة لتربيته أياها ، وقوله : (فِي حُجُورِكُمْ) أي : في تربيتكم ، يقال : فلان في حجر فلان إذا كان في تربيته ، (دَخَلْتُمْ بِهِنَّ) أي : جامعتموهن ، ويحرم عليه أيضا بنات المنكوحة وبنات أولادها ، وإن سفلن من الرضاع والنسب بعد الدخول بالمنكوحة ، حتى لو فارق المنكوحة قبل الدخول بها أو ماتت جاز له أن ينكح بنتها ، ولا يجوز له أن ينكح أمها لأن الله تعالى أطلق تحريم الأمهات وقال في تحريم الربائب ، { فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ

بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ } يعني : في نكاح بناتهن إذا فارقتموهن أو متن ، وقال علي رضي الله عنه : أم المرأة لا تحرم إلا بالدخول بالبنت كالربيبة ، { وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ } ، يعني : ما أزواج أبنائكم ، واحدتها : حليلة ، والذكر حليل ، سميا بذلك لأن كل واحد منها حلال لصاحبه ، وقيل : سميا بذلك لأن كل واحد منهما يحل حيث يحل صاحبه من الحلول وهو النزول ، وقيل : إن كل واحد منهما يحل إزار صاحبه من الحل وهو ضد العقل ، وجملته : أنه يحرم على الرجل حلائل أبنائه وأبناء أولاده وإن سفلوا من الرضاع والنسب ، بنفس العقد ، إنما قال : (مِنْ أَصْلَابِكُمْ) ليعلم أن حليلة المتبني لا تحرم على الرجل الذي تبناه ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج امرأة زيد بن حارثة ، وكان زيد قد تبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والرابع من المحرمات بالصهرية حليلة الأب والجد وإن علا ، فيحرم على الولد وولد الولد بنفس العقد سواء كان الأب من الرضاع أو من النسب ، لقوله تعالى { وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ } ، وقد سبق ذكره ، وكل امرأة تحرم عليك بعقد النكاح تحرم بالوطء في ملك اليمين ، قوله تعالى : { وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ } ، لا يجوز للرجل أن يجمع بين الأختين في النكاح سواء

كانت الإخوة بينهما بالنسب أو بالرضاع ، فإذا نكح امرأة ثم طلقها بائنا جاز له نكاح أختها ، وكذلك لو ملك أختين بملك اليمين لم يجز له أن يجمع بينهما في الوطء ، فإذا وطئ إحداهما لم يحل له وطء الأخرى حتى يحرم الأولى على نفسه ، وكذلك لا يجوز أن يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها { إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ } يعني : لكن ما مضى فهو معفو عنه ، لأنهم كانوا يفعلونه قبل الإسلام ، وقال عطاء والسدي : إلا ما كان من يعقوب عليه السلام فإنه يجمع بين ليا أم يهوذا وراحيل أم يوسف ، وكانتا أختين { إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا }

[24] ، قوله تعالى : { وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } يعني : ذوات الأزواج ، لا يحل للغير نكاحهن قبل مفارقة الأزواج ، وهذه السابعة من النساء اللاتي حرمن بالسبب ثم استثنى فقال : (إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) ، يعني : السبايا اللواتي سبين ولهن أزواج في دار الحرب فيحل لمالكهن وطؤهن بعد الاستبراء ، لأن بالسبي يرتفع النكاح بينها وبين زوجها ، قال أبو سعيد الخدري : « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين جيشا إلى أوطاس فأصابوا سبايا لهن أزواج من المشركين ، فكرهوا غشيانهن » ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقال عطاء : أراد بقوله (إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) أن تكون أمة في نكاح عبده فيجوز أن ينزعها منه ، وقال ابن مسعود : أراد أن يبيع الجارية المزوجة فتقع الفرقة بينهما وبين زوجها ، ويكون بيعها طلاقا فيحل للمشتري وطؤها ، قوله تعالى : { كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } ، نصب على المصدر ، أي : كتب الله عليكم ، وقيل : نصب على الإغراء ، أي : الزموا ما كتب الله عليكم ، أي فرض الله تعالى ، { وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ } ، أي : ما سوى ذلكم

الذي ذكرت من المحرمات ، { أَنْ تَبْتَغُوا } تطلبوا { بِأَمْوَالِكُمْ } ، أن تنكحوا بصداق أو تشتروا بثمن ، { مُحْصِنِينَ } ، أي : متزوجين أو متعففين { غَيْرَ مُسَافِحِينَ } ، أي : غير زانين ، مأخوذ من سفح الماء وصبه وهو المني ، { فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ } ، اختلفوا في معناه ، فقال الحسن ومجاهد : أراد ما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح ، { فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ } ، أي : مهورهن ، وقال آخرون : هو نكاح المتعة وهو أن تنكح امرأة إلى مدة فإذا انقضت تلك المدة بانت منه بلا طلاق ، ويستبرئ رحمها وليس بينهما ميراث ، وكان ذلك مباحا في ابتداء الإسلام ، ثم نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء ، وإن الله تعالى قد حرم ذلك إلى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا » وإلى هذا ذهب عامة أهل العلم أن نكاح المتعة حرام ، والآية منسوخة . وكان ابن عباس رضي الله عنهما يذهب إلى أن الآية محكمة ، وترخص في نكاح المتعة وقيل : إن ابن عباس رضي الله عنهما رجع عن ذلك ، وروى سالم عن عبد

الله بن عمر أن عمر بن الخطاب صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : ما بال رجال ينكحون هذه المتعة ؟ وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها ، لا أجد رجلا نكحها إلا رجمته بالحجارة ، قوله تعالى : فآتوهن أجورهن أي : مهورهن ، { فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ } فمن حل ما قبله على نكاح المتعة أرادوا أنهما إذا عقد إلى أجل بمال فإذا تم الأجل فإن شاءت المرأة زادت في الأجل وزاد الرجل في المال ، وإن لم يتراضيا فارقها ، ومن حمل الآية على الاستمتاع بالنكاح الصحيح . قال المراد بقوله :

(وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ) من الإبراء عن المهر والافتداء والاعتياض . { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } .

[25] قوله تعالى : { وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا } أي : فضلا وسعة ، { أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ } الحرائر { الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ } إمائكم ، { الْمُؤْمِنَاتِ } أي : من لم يقدر على مهر الحرة المؤمنة ، فليتزوج الأمة المؤمنة ، وفيه دليل على أنه لا يجوز للحر نكاح الأمة إلا بشرطين ، أحدهما : ألا يجد مهر حرة ، والثاني أن يكون خائفا على نفسه من العنت ، وهو الزنا ، لقوله تعالى في آخر الآية : { ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ } وفي الآية دليل على أنه لا يجوز للمسلم نكاح الأمة الكتابية لأنه قال : (فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ) ،جوز نكاح الأمة بشرط أن تكون مؤمنة ، وقال في موضع آخر : { وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } أي : الحرائر جوز نكاح الكتابية ، بشرط أن تكون حرة ، وجوز أصحاب الرأي للمسلم نكاح الأمة الكتابية ، وبالاتفاق يجوز وطؤها بملك اليمين {

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ } أي : لا تتعرضوا للباطن في الإيمان وخذوا بالظاهر فإن الله أعلم بإيمانكم ، { بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ } قيل : بعضكم إخوة لبعض ، وقيل : كلكم من نفس واحدة فلا تستنكفوا من نكاح الإماء ، { فَانْكِحُوهُنَّ } ، يعني : الإماء { بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ } ، أي : مواليهن ، { وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ } مهورهن ، { بِالْمَعْرُوفِ } من غير مطل وضرار ، { مُحْصَنَاتٍ } ، عفائف بالنكاح ، { غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ } ، أي : غير زانيات ، { وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ } ، أي : أحباب تزنون بهن في السر ، قال الحسن : المسافحة هي أن كل من دعاها تبعته ، وذات خدن أي : تختص بواحد لا تزني إلا معه ، والعرب كانت تحرم الأولى وتجوز الثانية ، { فَإِذَا أُحْصِنَّ } ، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بفتح الألف والصاد ، أي : حفظن فروجهن ، وقال ابن مسعود : أسلمن ، وقرأ الآخرون : (أحصن) بضم الألف وكسر الصاد ، أي تزويجهن ، { فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ } ، يعني : الزنا ، { فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ } ، أي : ما على الحرائر الأبكار إذا زنين ، { مِنَ الْعَذَابِ } يعني : الحد فيجلد

الرقيق إذا زنى خمسين جلدة ، وهل يغرب ؟ فيه قولان ، فإن قلنا يغرب فيغرب نصف سنة على القول الأصح ولا رجم على العبد قوله تعالى : { ذَلِكَ } ، يعني : نكاح الأمة عند عدم الطول ، { لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ } ، يعني : الزنا ، يريد المشقة بغلبة الشهوة ، { وَأَنْ تَصْبِرُوا } ، عن نكاح الإماء متعففين ، { خَيْرٌ لَكُمْ } ، لئلا يخلق الولد رقيقا { وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } .

[26]، قوله تعالى : { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ } ، أي : أن يبين لكم ، كقوله تعالى : { وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ } أي : أن أعدل ومعنى الآية : يريد الله أن يبين لكم ، أي : يوضح لكم شرائع دينكم ومصالح أموركم ، قال عطاء : يبين لكم ما يقربكم منه ، قال الكلبي : يبين لكم أن الصبر عن نكاح الإماء خير لكم ، { وَيَهْدِيَكُمْ } ويرشدكم ، { سُنَنَ } ، شرائع ، { الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ } في تحريم الأمهات والبنات والأخوات ، فإنها كانت محرمة على من قبلكم ، وقيل : ويهديكم الملة الحنيفية وهي ملة إبراهيم عليه السلام ، { وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ } ، ويتجاوز عنكم ما أصبتم قبل أن يبين لكم ، وقيل : يرجع بكم من المعصية التي

كنتم عليها إلى طاعته ، وقيل : يوفقكم التوبة { وَاللَّهُ عَلِيمٌ } بمصالح عباده في أمر دينهم ودنياهم ، { حَكِيمٌ } ، فيما دبر من أمورهم .

[27] { وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ } ، إن وقع منكم تقصير في أمر دينكم { وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا } عن الحق ، { مَيْلًا عَظِيمًا } بإتيانكم ما حرم عليكم ، واختلفوا في الموصوفين باتباع الشهوات ، فقال السدي : هم اليهود والنصارى ، وقال بعضهم : هم المجوس لأنهم يحلون نكاح الأخوات وبنات الأخ والأخت ، وقال مجاهد : هم الزناة يريدون أن تميلوا عن الحق فتزنون كما يزنون ، وقيل : هم كما يزنون ، وقيل : هم جميع أهل الباطل .

[28] ، { يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ } يسهل عليكم في أحكام الشرع ، وقد سهل كما قال جل ذكره : { وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ } وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بعثت بالدين الحنيفية السمحة السهلة » ، { وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا } قال طاوس والكلبي وغيرهما في أمر النساء : لا يصبر عنهن ، وقال ابن كيسان : خُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا يستميله هواه وشهوته ، وقال الحسن : هو أنه خلق من ماء مهين ، بيانه قوله تعالى : { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ } .

[29] ، قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ } ، بالحرام ، يعني : بالربا والقمار والغصب والسرقة والخيانة ونحوها ، وقيل : هو العقود الفاسدة { إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً } قرأ أهل الكوفة (تجارة) نصب على خبر كان ، أي : إلا أن تكون الأموال تجارة ، وقرأ الآخرون بالرفع ، أي : إلا أن تقع تجارة { عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ } أي بطيبة نفس كل واحد منكم ، وقيل : هو أن يجيز كل واحد من المتبايعين صاحبه بعد البيع ، فيلزم وإلا فلهما الخيار ما لم لتيفرقا { وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } قال أبو عبيدة : أي لا تهلكوها ، كما قال : { وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ } ، وقيل : لا تقتلوا أنفسكم بأكل المال بالباطل ، وقيل : أراد به قتل المسلم نفسه ، وقال الحسن : (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) يعني : إخوانكم ، أي : لا يقتل بعضكم بعضا ، { إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } .

[30] ، { وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ } يعني : ما سبق ذكره من المحرمات ، { عُدْوَانًا وَظُلْمًا } ، فالعدوان مجاوزة الحد ، والظلم وضع الشيء في غير موضعه ، { فَسَوْفَ نُصْلِيهِ } ندخله في الآخرة ، { نَارًا } ، يصلى فيها ، { وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا } هينا .

[31] قوله تعالى : { إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ } ، اختلفوا في الكبائر التي جعل الله اجتنابها تكفيرا للصغائر ، ففي حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » ، وفي آخر « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ " قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : " الإشراك بالله عز وجل ، وعقوق الوالدين ، وجلس وكان متكئا فقال : ألا وقول الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » ، وفي آخر قال : « اجتنبوا السبع الموبقات " ، قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : " الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » . وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أكبر الكبائر : الإشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله . وعن سعيد بن جبير : أن رجلا سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن

الكبائر : أسبع هي ؟ قال : هي إلى السبعمائة أقرب إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار ، وقال : كل

شيء عصي الله به فهو كبيرة ، فمن عمل شيئا منها فليستغفر فإن الله لا يخلد في النار من هذه الأمة إلا راجعا عن الإسلام أو جاحدا فريضة أو مكذبا بقدر . وقال عبد الله بن مسعود : ما نهى الله تعالى عنه في هذه السورة إلى قوله : (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ) ، فهو كبيرة . وقال علي بن أبي طالب : هي كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب . وقال الضحاك : ما أوعد الله عليه حدا في الدنيا أو عذابا في الآخرة . وقال الحسن بن الفضل : ما سماه الله في القرآن كبيرا أو عظيما نحو قوله تعالى : { إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا } ، { إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا } ، { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } ، { إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } ، { سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } ، { إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا } . قال سفيان الثوري : الكبائر ما كان فيه المظالم بينك وبين عباد الله تعالى ، والصغائر ما كان بينك وبين الله تعالى ، لأن الله كريم يعفو ، وقال مالك بن مغول : الكبائر ذنوب أهل البدع ، والسيئات ذنوب أهل السنة ، وقيل : الكبائر ذنوب العمد والسيئات الخطأ

والنسيان وما أكره عليه ، وحديث النفس المرفوع عن هذه الأمة ، وقيل : الكبائر ذنوب المستحلين مثل ذنب إبليس والصغائر ذنوب المستغفرين مثل ذنب آدم عليه السلام ، وقال السدي : الكبائر ما نهى الله عنه من الذنوب الكبائر ، والسيئات مقدماتها وتوابعها مما يجمع فيه الصالح والفاسق ، مثل النظرة واللمسة والقبلة وأشباهها ، وقيل : الكبائر ما يستحقره العباد ، والصغائر ما يستعظمونه فيخافون مواقعته : وقيل : الكبائر الشرك ، وما يؤدي إليه ، وما دون الشرك فهو من السيئات ، قال الله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } ، قوله تعالى : { وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا } أي : حسنا وهو الجنة ، قرأ أهل المدينة (مدخلا) بفتح الميم هاهنا وفي الحج ، وهو موضع الدخول ، وقرأ الباقون بالضم على المصدر بمعنى الإدخال .

[32] ، قوله تعالى : { وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ } الآية ، قال مجاهد : قالت أم سلمة : يا رسول الله إن الرجال يغزون ولا نغزو ولهم ضعف ما لنا من الميراث ، فلو كنا رجالا غزونا كما غزوا وأخذنا من الميراث مثل ما أخذوا . فنزلت هذه الآية . وقيل : لما جعل الله عز وجل للذكر مثل حظ الأنثيين في الميراث ، قالت النساء : نحن أحق وأحوج إلى الزيادة من الرجال ، لأنا ضعيفات وهم أقوى وأقدر على طلب المعاش ، فأنزل الله تعالى : (وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ) ، وقال قتادة والسدي لما أنزل الله قوله : { لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ } قال الرجل إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة فيكون أجرنا على الضعف من أجر النساء كما فضلنا عليهن في الميراث فقال الله تعالى : { لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا } من الأجر { وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ } معناه : أن الرجال والنساء في الأجر في الآخرة سواء ، وذلك أن الحسنة تكون بعشرة أمثالها يستوي فيها الرجال والنساء ، وإن فضل الرجال في الدنيا على النساء ،

وقيل : معناه للرجال نصيب مما اكتسبوا من أمر الجهاد وللنساء نصيب مما اكتسبن من طاعة الأزواج وحفظ الفروج . قوله تعالى : { وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ } نهى الله تعالى عن التمني لما فيه من دواعي الحسد ، والحسد أن

يتمنى الرجل زوال النعمة عن صاحبه سواء تمناها لنفسه أم لا ، وهو حرام ، والغبطة أن يتمنى لنفسه مثل ما لصاحبه وهو جائز . قال الكلبي : لا يتمنى الرجل مال أخيه ولا امرأته ولا خادمه ، ولكن ليقل اللهم ارزقني مثله ، وهو كذلك في التوراة وذلك في القرآن . وقوله : (وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ) أي من رزقه ، قال سعيد بن جبير : من عبادته ، فهو سؤال التوفيق للعبادة ، قال سفيان بن عيينة : لم يأمر بالمسألة إلا ليعطي . { إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا }

[33] ، { وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ } أي : ولكل واحد من الرجال والنساء جعلنا موالي ، أي : عصبة يعطون { مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ } ، الوالدان والأقربون هم المورثون ، وقيل : معناه ولكل جعلنا موالي أي : ورثة مما ترك أي : من الذين تركوهم ويكون (ما) بمعنى : (من) ، ثم فسر { الْمَوَالِيَ } فقال : الوالدان والأقربون ، أي : هم الوالدان والأقربون ، فعلى هذا القول : الوالدان والأقربون ، هم الوارثون ، { وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ } ، قرأ أهل الكوفة (عقدت) بلا ألف ، أي : عقدت لهم أيمانكم ، وقرأ الآخرون (عاقدت أيمانكم) والمعاقدة : المحالفة والمعاهدة ، والأيمان جمع يمين من اليد والقسم ، وذلك أنهم كانوا عند المحالفة يأخذ بعضهم بيد بعض على الوفاء ، والتمسك بالعهد . ومحالفتهم أن الرجل كان في الجاهلية يعاقد الرجل فيقول : دمي دمك وثأري ثأرك وحربي حربك وسلمي سلمك وترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك وتعقل عني وأعقل عنك (فيكون للحليف السدس من مال الحليف ، وكان ذلك في ابتداء الإسلام فذلك قوله تعالى : { فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ } أي : أعطوهم حظهم من الميراث ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى

: { وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ } ، وقال إبراهيم ومجاهد : أراد فآتوهم نصيبهم من النصر والرفد ولا ميراث لهم ، وعلى هذا تكون هذه الآية غير منسوخة لقوله تعالى : { أَوْفُوا بِالْعُقُودِ } ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أنزلت هذه الآية في الذين آخى بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار حين قدموا المدينة وكانوا يتوارثون بتلك المؤاخاة دون الرحم ، فلما نزلت (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ) نسخت ، ثم قال : (وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ) من النصر والرفادة والنصيحة ، وقد ذهب الميراث فيوصي له . وقال سعيد بن المسيب : كانوا يتوارثون بالتبني وهذه الآية فيه ثم نسخ . { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا } .

[34] { الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ } ، الآية نزلت في سعد بن الربيع وكان من النقباء وفي امرأته وذلك أنها نشزت عليه فلطمها ، فانطلق أبوها معها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أفرشته كريمتي فلطمها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لتقتص من زوجها " فانصرفت مع أبيها لتقتص منه فجاء جبريل عليه السلام فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ارجعوا هذا جبريل أتاني بشيء " فأنزل الله هذه الآية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أردنا أمرا وأراد الله أمرا ، والذي أراد الله خير " ، ورفع القصاص (1) قوله تعالى : (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) أي : مسلطون على تأديبهن ، والقوام والقيم بمعنى واحد ، والقوام أبلغ وهو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب ، { بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ } يعني : فضل الرجال على النساء بزيادة العقل والدين والولاية ، وقيل : بالشهادة لقوله تعالى : { فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ } وقيل : بالجهاد ، وقيل : بالعبادات من الجمعة والجماعة ، وقيل :

هو أن الرجل ينكح أربعا ولا يحل للمرأة إلا زوج واحد ، وقيل : بأن الطلاق

(1) روى قريبًا من هذا الخبر الإمام الطبري في تفسيره 5 / 37 ، 38 .

بيده ، وقيل : بالميراث ، وقيل : بالدية ، وقيل : بالنبوة ، { وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ } ، يعني : إعطاء المهر والنفقة ، قوله تعالى : { فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ } أي : مطيعات { حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ } أي : حافظات للفروج في غيبة الأزواج ، وقيل : حافظات لسرهم { بِمَا حَفِظَ اللَّهُ } ، قرأ أبو جعفر (بما حفظ الله) بالنصب ، أي : يحفظن الله في الطاعة ، وقراءة العامة بالرفع ، أي بما يحفظن الله بإيصاء الأزواج بحقهن وأمرهم بأداء المهر والنفقة . وقيل : حافظات للغيب بحفظ الله { وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ } ، عصيانهن وأصل النشوز : التكبر والارتفاع ، ومنه النشز للموضع المرتفع ، { فَعِظُوهُنَّ } ، بالتخويف من الله والوعظ بالقول ، { وَاهْجُرُوهُنَّ } ، يعني : إن لم ينزعن عن ذلك بالقول فاهجروهن { فِي الْمَضَاجِعِ } ، قال ابن عباس : يوليها ظهره في الفراش ولا يكلمها ، وقال غيره : يعتزل عنها إلى فراش آخر ، { وَاضْرِبُوهُنَّ } يعني : إن لم ينزعن الهجران فاضربوهن ضربا غير مبرح ولا شائن ، وقال عطاء : ضربا بالسواك { فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا } ، أي : لا

تجنوا عليهن الذنوب ، وقال ابن عيينة : لا تكلفوهن محبتكم فإن القلب ليس بأيديهن . { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا } ، متعاليا من أن يكلف العباد ما لا يطيقونه ، وظاهر الآية يدل على أن الزوج يجمع عليها بين الوعظ والهجران والضرب ، فذهب بعضهم إلى ظاهرها وقال : إذا ظهر النشوز جمع بين هذه الأفعال ، وحمل الخوف في قوله : (وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ) ، على العلم كقوله تعالى : { فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا } أي : علم ، ومنهم من حمل الخوف على الخشية لا على حقيقة العلم ، كقوله تعالى : { وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً } ، وقال : هذه ا لأفعال على ترتيب الجرائم ، فإن خاف نشوزها بأن ظهرت أمارته منها من المخاشنة وسوء الخلق وعظها ، فإن أبدت النشوز هجرها ، فإن أصرت على ذلك ضربها .

[35] ، قوله تعالى : { وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا } ، يعني : خلافا بين الزوجين ، والخوف بمعنى اليقين ، وقيل : هو بمعنى الظن يعني : إن ظننتم شقاق بينهما ، وجملته إنه إذا ظهر بين الزوجين شقاق واشتبه حالهما فلم يفعل الزوج الصفح ولا الفرقة ولا المرأة تأدية الحق ولا الفدية وخرجا إلى ما لا يحل قولا وفعلا بعث الإمام حكما من أهله إليه وحكما من أهلها إليها رجلين حرين عدلين ليستطلع كل واحد من الحكمين رأي من بعث إليه إن كانت رغبته في الصلح أو في الفرقة ثم يجتمع الحكمان فينفذان ما يجتمع عليه رأيهما من الصلاح ، فذلك قوله عز وجل : { فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا } ، يعني : الحكمين ، { يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا } ، يعني : بين الزوجين ، وقيل : بين الحكمين ، { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا } اختلف القول في جواز بعث الحكمين من غير رضا الزوجين ، وأصح القولين أنه لا يجوز إلا برضاهما ، وليس لحكم الزوج أن يطلق إلا بإذنه ، ولا لحكم المرأة أن يخلع على ما لها إلا بإذنها ، وهو قول أصحاب الرأي ، والقول الثاني : يجوز بعث الحكمين دون رضاهما

، فيجوز لحكم الزوج أدن يطلق دون رضاه ولحكم المرأة أن يختلع دون رضاها ، إذا رأيا الصلاح ، كالحاكم يحكم بين الخصمين وإن لم يكن على وفق مرادهما ، وبه قال مالك .

[36] ، قوله تعالى : { وَاعْبُدُوا اللَّهَ } أي : وحدوه وأطيعوه ، { وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا } عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : « كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هل تدري يا معاذ ما حق الله على الناس ؟ قال قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، أتدري يا معاذ ما حق الناس على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن حق الناس على الله ألا يعذبهم ، قال قلت : يا رسول الله أفلا أبشر الناس ؟ قال : دعهم يعملون » . قوله تعالى : { وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا } برا بهما وعطفا عليهما ، { وَبِذِي الْقُرْبَى } أي : أحسنوا بذي القربى ، { وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى } أي : ذي القرابة ، { وَالْجَارِ الْجُنُبِ } ، أي : البعيد الذي ليس بينك وبينه قرابة { وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ } يعني : الرفيق في السفر ، قال ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة وعكرمة وقتادة ، وقال علي وعبد الله والنخعي : هو المرأة تكون معه إلى جنبه ، وقال ابن جريج وابن زيد : هو الذي يصحبك رجاء نفعك ، { وَابْنِ السَّبِيلِ } ، قيل : هو المسافر لأنه

ملازم السبيل ، والأكثرون : على أنه الضيف ، { وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } ، أي : المماليك أحسنوا إليهم { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا } المختال ، المتكبر ، والفخور : الذي يفخر على الناس بغير الحق تكبرا ، ذكر هذا بعدما ذكر من الحقوق ، لأن المتكبر يمنع الحق تكبرا .

[37] ، { الَّذِينَ يَبْخَلُونَ } البخل في كلام العرب : منع السائل من فضل ما لديه ، وفي الشرع : منع الواجب ، { وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ } ، قرأ حمزة والكسائي (بالبخل) بفتح الباء والخاء ، وكذلك في سورة الحديد ، وقرأ الآخرون بضم الباء وسكون الخاء ، نزلت في اليهود بخلوا ببيان صفة محمد صلى الله عليه وسلم وكتموها ، وقال سعيد بن جبير هذا في كتمان العلم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وابن زيد نزلت في كردم بن زيد وحيي بن أخطب ورفاعة بن التابوت و أسامة بن حبيب ونافع بن أبي نافع وبحر بن عمرو كانوا يأتون رجالا من الأنصار ويخالطونهم فيقولون لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر ولا تدرون ما يكون فأنزل الله تعالى هذه الآية .
{ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } ، يعني : المال ، وقيل : يبخلون بالصدقة { وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا }

[38] { وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ } نزلت في اليهود ، وقال السدي : في المنافقين ، وقيل : مشركي مكة المنفقين على عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم . { وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا } صاحبا وخليلا { فَسَاءَ قَرِينًا } أي : فبئس الشيطان قرينا وهو نصب على التفسير ، وقيل : على القطع بإلغاء الألف واللام كما تقول : نعم رجلا عبد الله .
[39] ، { وَمَاذَا عَلَيْهِمْ } أي : ما الذي عليهم وأي شيء عليهم ؟ { لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا }

[40] { إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ } ، ونظمه : وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا فإن الله لا يظلم أي : لا يبخس ولا ينقص أحدا من ثواب عمله مثقال ذرة ، والذرة : هي النملة الحمراء الصغيرة ، وقيل : الذر أجزاء الهباء في الكون وكل جزء منها ذرة ولا يكون لها وزن ، وهذا مثل يريد أن الله لا يظلم شيئا كما قاله في آية أخرى : إن الله لا يظلم الناس شيئا ، وقيل : إن الله لا يظلم مثقال ذرة للخصم على الخصم بل أخذ له منه ولا يظلم مثقال ذرة تبقى له بل يثيبه عليها ويضعفها له ، فذاك قوله تعالى : { وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا } قرأ أهل الحجاز (حسنة) بالرفع ، أي وإن توجد حسنة ، وقرأ الآخرون بالنصب على معنى : وإن تك زنة الذرة حسنة يضاعفها ، أي : يجعلها أضعافا كثيرة . { وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا } ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : إذا قال الله تعالى أجرا عظيما فمن يقدر قدره ؟ .

[41] ، قوله تعالى : { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ } ، أي : فكيف الحال وكيف يصنعون إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، يعني : بنبيها يشهد عليهم بما عملوا ، { وَجِئْنَا بِكَ } ، يا محمد ، { عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا } شاهدا يشهد على جميع الأمة على من رآه ومن لم يره .

[42] ، قوله عز وجل : { يَوْمَئِذٍ } ، يوم القيامة ، { يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ } قرأ أهل المدينة وابن عامر (تسوى) بفتح التاء وتشديد السين على معنى تتسوى ، فأدغمت التاء الثانية في السين ، وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء وتخفيف السين على حذف تاء التفعل كقوله تعالى : { لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ } ، وقرأ الآخرون بضم التاء وتخفيف السين على المجهول ، أي : لو سويت بهم الأرض وصاروا هم والأرض شيئا واحدا . قال قتادة وأبو عبيدة : يعني لو تخرقت الأرض فساخوا فيها وعادوا إليها كما خرجوا منها ثم تسوى بهم ، أي : عليهم الأرض ، وقيل : ودوا لو أنهم لم يبعثوا لأنهم إنما نقلوا من التراب ، وكانت الأرض مستوية عليهم ، وقال الكلبي : يقول الله عز وجل للبهائم والوحوش والطيور والسباع : كونوا ترابا فتسوى بهم الأرض ، فعند ذلك يتمنى الكافر أن لو كان ترابا كما قال الله تعالى : { وَيَقُولُ الْكَافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا } ، { وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا } قال عطاء : ودوا لو تسوى بهم الأرض وأنهم لم يكونوا كتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم

ولا نعته . وقال الآخرون : بل هو كلام مستأنف ، يعني : ولا يكتمون الله حديثا لأن ما عملوه لا يخفى على الله ولا يقدرون على كتمانه- وقال الكلبي وجماعة : (وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا) لأن جوارحهم تشهد عليهم .

[43] قوله عز وجل : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى } الآية ، والمراد من السكر : السكر من الخمر عند الأكثرين ، وذلك أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه صنع طعاما ودعا ناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأتاهم بخمر فشربوها قبل تحريم الخمر وسكروا فحضرت صلاة المغرب فقدموا رجلا ليصلي بهم فقرأ { قُلْ يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ } أعبد ما تعبدون ، بحذف (لا) هكذا إلى آخر السورة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وكانوا بعد نزول هذه الآية يجتنبون السكر أوقات الصلاة حتى نزل تحريم الخمر . وقال الضحاك بن مزاحم : أراد به سكر النوم ، نهى عن الصلاة عند غلبة النوم ، { حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا } نصب على الحال ، يعني : ولا تقربوا الصلاة جنب ، يقال : رجل جنب وامرأة جنب ، ورجال جنب ونساء جنب ،

وأصل الجنب : البعد ، وسمي جنبا لأنه يتجنب موضع الصلاة ، أو لمجانبته الناس وبعده منهم ، حتى يغتسل . قوله تعالى : { إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا } ، واختلفوا في معناه فقالوا : إلا أن تكونوا مسافرين ولا تجدوا الماء فتيمموا ، منع الجنب من

الصلاة حتى يغتسل إلا أن يكون في سفر ولا يجد ماء فيصلي بالتيمم ، وهذا قول علي وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد رضي الله عنهم ، وقال الآخرون : بل المراد من الصلاة موضع الصلاة ، كقوله تعالى : { وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ } ومعناه : لا تقربوا المسجد وأنتم جنب إلا مجتازين فيه للخروج منه ، مثل أن ينام في المسجد فيجنب أو يصيبه جنابة والماء في المسجد أو يكون طريقه عليه ، فيمر به ولا يقيم ، وهذا قول عبد الله بن مسعود وسعيد بن المسيب والضحاك والحسن وعكرمة والنخعي والزهري ، وذلك أن قوما من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد فتصيبهم الجنابة ولا ماء عندهم ولا ممر لهم إلا في المسجد ، فرخص لهم في العبور ، قوله تعالى : { وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى } ، جمع مريض ، وأراد به مرضا يضره إمساس الماء مثل الجدري ونحوه ، أو كان على موضع الطهارة جراحة يخاف من استعمال الماء فيها التلف أو زيادة الوجع ، فإنه يصلي بالتيمم وإن كان الماء موجودا وإن كان بعض أعضاء طهارته صحيحا والبعض جريحا غسل الصحيح منها وتيمم للجريح ، قوله تعالى : { أَوْ عَلَى سَفَرٍ } ، أراد أنه إذا كان في سفر طويلا كان أو قصيرا ، وعدم الماء فإنه يصلي بالتيمم ولا

إعادة عليه ، لما روي عن أبي ذر ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الصعيد الطيب وضوء المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين ، فإذا وجد الماء فليمسه بشره فإن ذلك خير » (1) ، أما إذا لم يكن الرجل مريضا ولا في سفر لكنه عدم الماء في موضع لا يعدم فيه الماء غالبا بأن كان في قرية انقطع ماؤها فإنه يصلي بالتيمم ثم يعيد إذا قدر على رش الماء عند الشافعي ، وعند مالك والأوزاعي لا إعادة عليه ، وعند أبي حنيفة رضي الله عنهما يؤخر الصلاة حتى يجد الماء . قوله تعالى : { أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ } أراد به إذا أحدث ، والغائط اسم للمطمئن من الأرض ، وكانت عادة العرب إتيان الغائط للحدث فكني عن الحدث بالغائط ، { أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ } قرأ حمزة والكسائي (لمستم) ههنا وفي المائدة ، وقرأ الباقون (لامستم النساء) واختلفوا في معنى اللمس والملامسة ، فقال قوم : هو المجامعة ، وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة ، وكني باللمس عن الجماع لأن الجماع لا يحصل إلا باللمس ، وقال قوم : هما التقاء البشرتين سواء كان بجماع أو غير جماع ، وهو قول ابن مسعود وابن عمر والشعبي والنخعي ، واختلف الفقهاء في حكم

---

(1) رواه أبو داود في كتاب الطهارة / 123 ، والترمذي في الطهارة / 92 ، والنسائي في الطهارة / 203 ، والإمام أحمد ج 5 / 146 ، 147 ، 155 ، 180 . وله شاهد من حديث أبي هريرة .

هذه الآية ، فذهب جماعة إلى أنه إذا أفضى الرجل بشيء من بدنه إلى شيء من بدن المرأة ولا حائل بينهما ، ينتقض وضوؤهما ، وهو قول ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما ، وبه قال الزهري والأوزاعي والشافعي رضي الله عنهم ، وقال مالك والليث بن سعد وأحمد وإسحاق : إن كان اللمس بشهوة نقض الطهر ، وإن لم يكن بشهوة فلا ينتقض ، وقال قوم : لا ينتقض الوضوء باللمس

بحال ، وهو قول ابن عباس وبه قال الحسن والثوري ، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه لا ينتقض إلا إذا حدث الانتشار ، { فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا } ، اعلم أن التيمم من خصائص هذه الأمة ، روى حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدا وجعلت تربتها لنا طهورا إذا لم نجد الماء » (1) ، (فتيمموا) ، أي : اقصدوا ، { صَعِيدًا طَيِّبًا } ، أي : ترابا طيبا طاهرا نظيفا قال ابن عباس رضي الله عنهما : الصعيد هو التراب ، واختلف أهل العلم فيما يجوز به التيمم ، فذهب الشافعي رحمه الله تعالى إلى أنه يختص بما يقع عليه اسم التراب مما يعلق باليد منه غبار ، لأن النبي صلى الله

---

(1) قال الحافظ ابن حجر في « تلخيص الحبير ج 1 / 148 » : « مسلم من حديث أبي مالك الأشجعي . . . وابن أبي شيبة في مسنده ، وابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحيهما . . . » .

عليه وسلم قال : « وجعلت تربتها لنا طهورًا » (1) ، وجوز أصحاب الرأي التيمم بالزرنيخ والجص والنورة وغيرها من طبقات الأرض ، حتى قالوا : لو ضرب يديه على صخرة لا غبار عليها أو على التراب ثم نفخ فيه حتى زال التراب كله فمسح به وجهه ويديه صح تيممه ، وقالوا : الصعيد وجه الأرض ، لما روي عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا » (2) وهذا مجمل ، وحديث حذيفة في تخصيص التراب مفسر والمفسر من الحديث يقضي على المجمل ، وجوز بعضهم بكل ما هو متصل بالأرض من شجر ونبات ، ونحوهما وقال : إن الصعيد اسم لما تصاعد على وجه الأرض ، والقصد إلى التراب ، شرط لصحة التيمم ، لأن الله تعالى قال : (فتيمموا) ، والتيمم : القصد ، حتى لو وقف في مهب الريح فأصاب الغبار وجهه ونوى لم يصح . قوله تعالى : { فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا } اعلم أن مسح الوجه واليدين واجب في التيمم ، واختلفوا في كيفيته فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه يمسح الوجه واليدين مع المرفقين ، بضربتين يضرب كفيه على التراب فيمسح بهما جميع وجهه ، ولا يجب إيصال التراب إلى ما تحت الشعور

---

(1) تقدم ذكر من خرجه في الحديث السابق .
(2) رواه الإمام أحمد في مسنده ج 2 / 222 .

، ثم يضرب ضربة أخرى فيمسح يديه إلى المرفقين ، وذهب الزهري إلى أنه يمسح اليدين إلى المنكبين ، لما روي عن عمار أنه قال : « تيممنا إلى المناكب » . وذلك حكاية فعله لم ينقله عن النبي صلى الله عليه وسلم كما روي أنه قال : « أجنبت فتمكعت في التراب ، فلما سأل النبي صلى الله عليه وسلم أمره بالوجه والكفين » . وذهب جماعة إلى أن التيمم ضربة واحدة للوجه والكفين وهو قول علي وابن عباس رضي الله عنهم ، وبه قال الشعبي وعطاء بن أبي رباح ومكحول ، وإليه ذهب الأوزاعي وأحمد وإسحاق .
[44] ، قوله عز وجل : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ } ، يعني : يهود المدينة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت في رفاعة بن زيد ومالك بن دخشم ، كانا إذا تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم لويا لسانهما وعاباه

فأنزل الله تعالى هذه الآية ، { يَشْتَرُونَ } ، يستبدلون ، { الضَّلَالَةَ } يعني : بالهدى ، { وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ } أي : عن السبيل يا معشر المؤمنين .

[45] { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ } ، منكم ، فلا تستنصحوهم فإنهم أعداؤكم ، { وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا } ، قال الزجاج : اكتفوا بالله وليا واكتفوا بالله نصيرا .

[46] ، { مِنَ الَّذِينَ هَادُوا } ، قيل : هي متصلة بقوله { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ } (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا) وقيل : هي مستأنفة ، معناه : من الذين هادوا من يحرفون ، كقوله تعالى : { وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ } أي : ممن له منزلة معلومة ، يريد فريق ، { يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ } ، يغيرون الكلم { عَنْ مَوَاضِعِهِ } يعني : صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : كانت اليهود يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسألونه عن الأمر فيخبرهم فيرى أنهم يأخذون بقوله فإذا انصرفوا من عنده حرفوا كلامه ، { وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا } قولك ، { وَعَصَيْنَا } أمرك ، { وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ } أي : اسمع منا ولا نسمع منك ، (غَيْرَ مُسْمَعٍ) أي : غير مقبول منك ، وقيل : كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم : اسمع ، ثم يقولون في أنفسهم : لا سمعت ، { وَرَاعِنَا } أي : ويقولون راعنا يريدون به النسبة إلى الرعونة ، { لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ } تحريفا ، { وَطَعْنًا } قدحا { فِي الدِّينِ } ، لأن قولهم : راعنا من المراعاة ، وهم يحرفونه ،

يريدون به الرعونة ، { وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا } ، أي : انظر إلينا مكان قولهم راعنا ، { لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ } أي أعدل وأصوب ، { وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا } إلا نفرا قليلا منهم وهو عبد الله بن سلام ومن أسلم معه منهم .

[47] ، قوله عز وجل : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } ، يخاطب اليهود ، { آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا } يعني : القرآن ، { مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ } ، يعني : التوراة ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كلم أحبار اليهود عبد الله بن صوريا وكعب بن الأشرف ، فقال : « يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به لحق » ، قالوا : ما نعرف ذلك ، وأصروا على الكفر ، وأنزلت هذه الآية ، { مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا } قال ابن عباس : نجعلها كخف البعير ، وقال قتادة والضحاك : نعميها ، والمراد بالوجه العين ، { فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا } أي : نطمس الوجوه فنردها على القفا ، وقيل : نجعل الوجوه منابت الشعر كوجوه القردة ، لأن منابت شعور الآدميين في أدبارهم دون وجوههم ، وقيل : معناه نمحو آثارها وما فيها من أنف وعين وفم وحاجب ونجعلها كالأقفاء . وقيل : نجعل عينيه على القفاء فيمشي قهقرى ، فإن قيل : قد أوعدهم الله بالطمس إن لم يؤمنوا ثم لم يؤمنوا ولم يفعل بهم ذلك ؟ قيل : هذا الوعيد باق ، ويكون طمس ومسخ في اليهودية قبل قيام الساعة ، وقيل : هذا كان وعيد بشرط فلما

أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه دفع ذلك عن الباقين ، وقيل : أراد به في القيامة ، وقال مجاهد أراد بقوله : (نَطْمِسَ وُجُوهًا) أي : نتركهم في الضلالة فيكون المراد طمس وجه القلب ، والرد عن بصائر الهدى على أدبارها في الكفر والضلالة ، وأصل الطمس : المحو والإفساد والتحويل ، وقال ابن زيد :

نمحو آثارهم من وجوههم ونواصيهم التي هم بها فنردها على أدبارها حتى يعودوا إلى حيث جاؤوا منه وهو الشام ، وقال : قد مضى ذلك وتأوله في إجلاء بني النضير إلى أذرعات وأريحاء من الشام { أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ } ، فنجعلهم قردة وخنازير { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا } .

[48] ، { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } قال الكلبي : نزلت في وحشي بن حرب وأصحابه وذلك أنه لما قتل حمزة كان قد جعل له على قتله أن يعتق فلم يوف له بذلك ، فلما قدم مكة ندم على صنيعه هو وأصحابه فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا قد ندمنا على الذي صنعنا وأنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلا أنا سمعناك تقول وأنت بمكة { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ } ، الآيات وقد دعونا مع الله إلها آخر وقتلنا النفس التي حرم الله وزنينا ، فلولا هذه الآيات لاتبعناك ، فنزلت { إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا } الآيتين ، فبعث بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فلما قرؤوا كتبوا إليه : إن هذا شرط شديد نخاف ألا نعمل صالحا ، فنزل : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } ، فبعث بها إليهم فبعثوا إليه : إنا نخاف ألا نكون من أهل المشيئة فنزلت : { قُلْ يا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ } ، فبعث بها إليهم

فدخلوا في الإسلام ورجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقبل منهم ، ثم قال لوحشي : « أخبرني كيف قتلت حمزة ؟ فلما أخبره ، قال : " ويحك غيب وجهك عني » ، فلحق وحشي بالشام فكان بها إلى أن مات { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى } ، اختلق ، { إِثْمًا عَظِيمًا }

[49] قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ } الآية ، قال الكلبي : نزلت في رجال من اليهود منهم بحري بن عمر والنعمان بن أوفى ومرحب بن زيد ، أتوا بأطفالهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد هل على هؤلاء من ذنب ؟ فقال : لا ، قالوا : وما نحن إلا كهيئتهم ، ما عملنا بالنهار يكفر عنا بالليل ، وما عملنا بالليل يكفر عنا بالنهار ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .
وقال مجاهد وعكرمة : كانوا يقدمون أطفالهم في الصلاة يزعمون أنهم لا ذنوب لهم فتلك التزكية ، وقال الحسن والضحاك وقتادة ومقاتل : نزلت في اليهود والنصارى حين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى } ، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : هو تزكية بعضهم لبعض ، قوله تعالى : { بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي } أي : يطهر ويبرئ من الذنوب ويصلح ، { مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا } وهو اسم لما في شق النواة ، والقطمير اسم للقشرة التي على النواة ، والنقير اسم للنقرة التي على ظهر النواة ، وقيل : الفتيل من الفتل وهو ما يجعل بين الأصبعين من الوسخ

عند الفتل .
[50] قوله تعالى : { انْظُرْ } يا محمد ، { كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ } ، يختلفون على الله ، { الْكَذِبَ } في تغييرهم كتابه ، { وَكَفَى بِهِ } ، بالكذب { إِثْمًا مُبِينًا }

[51] ، قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ } ، اختلفوا فيهما فقال عكرمة : هما صنمان كان المشركون يعبدونهما من دون الله ، وقال أبو عبيدة : هما كل معبود يعبد من دون الله .

قال الله تعالى : { أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } ، وقال عمر : الجبت : السحر ، والطاغوت : الشيطان . وهو قول الشعبي ومجاهد . وقيل : الجبت : الأوثان ، والطاغوت : شياطين الأوثان . ولكل صنم شيطان ، يعبر عنه ، فيغتر به الناس . وقال محمد بن سيرين ومكحول : الجبت : الكاهن ، والطاغوت : الساحر . وقال سعيد بن جبير وأبو العالية : الجبت : الساحر بلسان الحبشة ، والطاغوت : الكاهن . وروي عن عكرمة : الجبت بلسان الحبشة : شيطان . وقال الضحاك : الجبت : حيي بن أخطب ، والطاغوت كعب بن الأشرف . دليله قوله تعالى . { يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ } ، وقيل . الجبت كل ما حرم الله ، والطاغوت كل ما يطغي الإنسان . { وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا } ، قال المفسرون : خرج كعب بن الأشرف

في سبعين راكبا من اليهود إلى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أهل مكة : إنكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ولا نأمن أن يكون هذا مكرا منكم فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين وآمنوا بهما ففعلوا ذلك ، فذلك قوله تعالى : (يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ) ، ثم قال أبو سفيان لكعب : إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم ، فأينا أهدى طريقة ، نحن أم محمد ؟ فقال كعب . أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد وأصحابه ، فأنزل الله تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ) يعني : كعبا وأصحابه (يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ) ، يعني : الصنمين (وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) : أبي سفيان وأصحابه (هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم سبيلا ودينا .

[52] { أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا }
[53] { أَمْ لَهُمْ } يعني ألهم والميم صلة { نَصِيبٌ } حظ { مِنَ الْمُلْكِ } وهذا على جهة الإنكار ، يعني : ليس لهم من الملك شيء ، ولو كان لهم من الملك شيء ، { فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا } لحسدهم وبخلهم ، النقير : النقطة التي تكون في ظهر النواة ومنها تنبت النخلة ، وقال أبو العالية : هو نقر الرجل الشيء بطرف أصبعه كما ينقر الدرهم :

[54] { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ } ، يعني : اليهود ، ويحسدون الناس قال قتادة : المراد بالناس العرب حسدهم اليهود على النبوة ، وما أكرمهم الله تعالى بمحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : أراد محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وجماعة : المراد بالناس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ، حسدوه على ما أحل الله له من النساء ، وقالوا . ما له هم إلا النكاح ، وهو المراد من قوله : { عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } وقيل : حسدوه على النبوة وهو المراد من الفضل المذكور في الآية . { فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } أراد بآل إبراهيم داود وسليمان وبالكتاب ما أنزل الله إليهم وبالحكمة النبوة { وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا } فمن فسر الفضل بكثرة النساء فسر الملك العظيم في حق داود وسليمان عليهما السلام بكثرة النساء ، فإنه كان لسليمان ألف امرأة ثلاثمائة حرة وسبعمائة سرية ، وكان لداود مائة امرأة ، ولم يكن يومئذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تسع نسوة ، فلما قال لهم ذلك سكتوا .

[55] قال الله تعالى : { فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ } يعني : بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهم عبد الله بن سلام وأصحابه { وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ } ، أعرض عنه ولم يؤمن به ، { وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا } ، وقودا ، وقيل : الملك العظيم : ملك سليمان . وقال السدي : الهاء في قوله : (من آمن به وصد عنه) راجعة إلى إبراهيم ، وذلك أن إبراهيم زرع ذات سنة ، وزرع الناس فهلك زرع الناس وزكا زرع إبراهيم عليه السلام ، فاحتاج إليه الناس فكان يقول : من آمن بي أعطيته فمن آمن به أعطاه ، ومن لم يؤمن به منعه .

[56] قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا } ، ندخلهم نارا ، { كُلَّمَا نَضِجَتْ } احترقت ، { جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا } غير الجلود المحترقة ، فإن قيل : كيف تعذب جلود لم تكن في الدنيا ولم تعصه ؟ قيل : يعاد الجلد الأول في كل مرة . وإنما قال : { جُلُودًا غَيْرَهَا } لتبديل صفتها ، كما تقول صنعت من خاتمي خاتما غيره ، فالخاتم الثاني هو الأول إلا أن الصناعة والصفة تبدلت ، قوله تعالى : { لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا } .
[57] { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا } ، كنينا لا تنسخه الشمس ولا يؤذيهم حر ولا برد .

[58] قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا } نزلت في عثمان بن طلحة الحجبي من بني عبد الدار ، وكان سادن الكعبة ، فلما دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب البيت وصعد السطح فطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم المفتاح ، فقيل : إنه مع عثمان فطلبه منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : لو علمت أنه رسول الله لم أمنع المفتاح فلوى علي رضي الله عنه يده فأخذ منه المفتاح وفتح الباب فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت وصلى فيه ركعتين ، فلما خرج سأله العباس المفتاح أن يعطيه ويجمع له بين السقاية والسدانة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه ، ففعل ذلك علي رضي الله عنه ، فقال له عثمان : أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق ، فقال علي : لقد أنزل الله تعالى في شأنك قرآنًا وقرأ عليه الآية ، فقال عثمان : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، وكان المفتاح معه ، فلما مات دفعه إلى أخيه شيبة ، فالمفتاح والسدانة في أولادهم إلى يوم القيامة . وقيل : المراد من الآية جميع

الأمانات ، قوله تعالى : { وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } أي : بالقسط ، { إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا } أي نعم الشيء الذي { يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } .

[59] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ } اختلفوا في (أولي الأمر) ، قال ابن عباس وجابر رضي الله عنهم : هم الفقهاء والعلماء الذين يعلمون الناس معالم دينهم ، وهو قول الحسن والضحاك ومجاهد ، ودليله قوله تعالى : { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ } ، وقال أبو هريرة . هم الأمراء والولاة ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عه . حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدي الأمانة فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا ، وقيل : المراد أمراء السرايا ، وقال عكرمة : أراد بأولي الأمر أبا بكر وعمر

رضي الله عنهما ، وقال عطاء : هم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان بدليل قوله تعالى : { وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ } الآية ، قوله عز وجل : { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ } أي : اختلفتم ، { فِي شَيْءٍ } من أمر دينكم ، والتنازع : اختلاف الآراء وأصله من النزع فكان المتنازعان يتجاذبان ويتمانعان ، { فَرُدُّوهُ إِلَى

اللَّهِ وَالرَّسُولِ } أي : إلى كتاب الله وإلى رسوله ما دام حيا وبعد وفاته إلى سنته ، والرد إلى الكتاب والسنة واجب إن وجد فيهما ، فإن لم يوجد فسبيله الاجتهاد . وقيل : الرد إلى الله تعالى والرسول أن يقول لما لا يعلم : الله ورسوله أعلم . { إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ } أي : الرد إلى الله والرسول ، { خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } أي : أحسن مآلا وعاقبة .

[60] قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ } الآية قال الشعبي : كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة فقال اليهودي : نتحاكم إلى محمد لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة ولا يميل في الحكم ، وقال المنافق : نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة ويميلون في الحكم ، فاتفقا على أن يأتيا كاهنا في جهينة فيتحاكما إليه ، فنزلت هذه الآية ، { وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا } .
[61] { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا } أي : يعرضون عنك إعراضا .

[62] { فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ } ، هذا وعيد ، أي : فكيف يصنعون إذا أصابتهم مصيبة ، { بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ } يعني : عقوبة صدودهم ، وقيل : هي كل مصيبة تصيب جميع المنافقين في الدنيا والآخرة وتم الكلام هاهنا ، ثم عاد الكلام إلى ما سبق ، يخبر عن فعلهم فقال : { ثُمَّ جَاءُوكَ } ، يعني : يتحاكمون إلى الطاغوت ، { ثُمَّ جَاءُوكَ } أي : يجيئونك يحلفون { يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا } ، ما أردنا بالعدل عنه في المحاكمة { إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا } ، قال الكلبي : إلا إحسانا في القول ، وتوفيقا : صوابا ، وقال ابن كيسان : حقًّا وعدلًا ، نظيره : { وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى } ، وقيل : هو إحسان بعضهم إلى بعض ، وقيل : هو تقريب الأمر من الحق ، لا القضاء على أمر الحكم ، والتوفيق : هو موافقة الحق ، وقيل : هو التأليف والجمع بين الخصمين .

[63] { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ } ، من النفاق ، أي : علم أن ما في قلوبهم خلاف ما في ألسنتهم ، { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } ، أي : عن عقوبتهم . وقيل : هو التخويف بالله ، وقيل : أن يوعدهم بالقتل إن لم يتوبوا ، قال الحسن : القول البليغ أن يقول لهم : إن أظهرتم ما في قلوبكم من النفاق قتلتم لأنه يبلغ من نفوسكم كل مبلغ ، وقال الضحاك : { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } في الملأ { وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا } في السر والخلاء ، وقال : قيل هذا منسوخ بآية القتال .
[64] قوله عز وجل : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ } ، أي : بأمر الله لأن طاعة الرسول وجبت بأمر الله ، قال الزجاج : ليطاع بإذن الله لأن الله قد أذن فيه وأمر به ، وقيل : إِلَّا لِيُطَاعَ كلام تام كاف ، بِإِذْنِ اللَّهِ تعالى أي : بعلم الله وقضائه ، أي : وقوع طاعته يكون بإذن الله ، { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ

ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ } ، لتحاكمهم إلى الطاغوت { جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا }

[65] قوله تعالى : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ } (فلا) أي : ليس الأمر كما يزعمون أنهم مؤمنون ثم لا يرضون بحكمك ، ثم استأنف القسم (وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ) ويجوز أن يكون (لا) في قوله (فلا) صلة ، كما في قوله (فلا أقسم) ، حتى يحكموك : أي يجعلوك حكما ، { فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ } ، أي : اختلف واختلط من أمورهم والتبس عليهم حكمه ، ومنه الشجر لالتفاف أغصانه بعضها ببعض ، { ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا } قال مجاهد : شكا ، وقال غيره : ضيقا ، { مِمَّا قَضَيْتَ } وقال الضحاك : إنما ، أي : يأثمون بإنكارهم ما قضيت ، { وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } أي : ينقادوا لأمرك انقيادا .

[66] قوله تعالى : { وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا } أي : فرضنا وأوجبنا { عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } كما أمرنا بني إسرائيل { أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ } ، كما أمرنا بني إسرائيل بالخروج من مصر ، { مَا فَعَلُوهُ } ، معناه : ما كتبنا عليهم إلا طاعة الرسول والرضى بحكمه ، ولو كتبنا عليهم القتل والخروج عن الدور ما كان يفعله ، { إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ } ، نزلت في ثابت بن قيس وهو من القليل الذي استثنى الله . قال الحسن ومقاتل لما نزلت هذه الآية قال عمر وعمار بن يا سر وعبد الله بن مسعود وناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم القليل ، والله لو أمرنا لفعلنا والحمد لله الذي عافانا ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « إن من أمتي لرجالا الإيمان في قلوبهم أثبت من الجبال الرواسي » ، قرأ ابن عامر وأهل الشام (إلا قليلا) بالنصف على الاستثناء ، وكذلك هو في مصحف أهل الشام ، وقيل : فيه إضمار ، تقديره : إلا أن يكون قليلا منهم ، وقرأ الآخرون قليل بالرفع على الضمير الفاعل في قوله : (فعلوا) تقديره : إلا نفر قليل فعلوه ، { وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ } يؤمرون به من

طاعة الرسول والرضى بحكمه ، { لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا } تحقيقا أو تصديقا لإيمانهم .
[67] { وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا } ثوابا وافرا .
[68] { وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا } ، أي : إلى الصراط المستقيم .

[69] قوله تعالى : { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ } أي : (ومن يطع الله) في أداء الفرائض ، (والرسول) في السنن (فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ) أي : لا تفوتهم رؤية الأنبياء ومجالستهم لأنهم يرفعون إلى درجة الأنبياء ، { وَالصِّدِّيقِينَ } ، وهم أفاضل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، والصديق المبالغ في الصدق ، { وَالشُّهَدَاءِ } ، قيل : هم الذين استشهدوا في يوم أحد ، وقيل : الذين استشهدوا في سبيل الله ، وقال عكرمة : النبيون هاهنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والصديق أبو بكر ، والشهداء عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، { وَالصَّالِحِينَ } ، سائر الصحابة رضي الله عنهم ، { وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } يعني : رفقاء الجنة ، والعرب تضع الواحد موضع الجمع ، كقوله تعالى : { ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا } أي : أطفالا { وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ } أي : الأدبار .

[70] { ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا } أي : بثواب الآخرة ، وقيل : من أطاع رسول الله وأحبه ، وفيه بيان أنهم لن ينالوا تلك الدرجة بطاعتهم ، وإنما نالوها بفضل الله عز وجل .
[71] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ } ، من عدوكم ، أي : من عدتكم وآلتكم من السلاح ، والحَذَر والحِذْر واحد كالمثل والمثل والشبه والشبه ، { فَانْفِرُوا } اخرجوا { ثُبَاتٍ } أي : سرايا متفرقين سرية بعد سرية ، والثبات جماعات في تفرقة واحدتها ثبة ، { أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا } أي مجتمعين كلكم مع النبي صلى الله عليه وسلم .

[72] قوله تعالى : { وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ } ، نزلت في المنافقين ، وإنما قال : (منكم) لاجتماعهم مع أهل الإيمان في الجنسية والنسب وإظهار الإسلام ، لا في حقيقة الإيمان ، (لَيُبَطِّئَنَّ) أي : ليتأخرن ، وليتثاقلن عن الجهاد ، وهو عبد الله بن أبي المنافق ، واللام في (لَيُبَطِّئَنَّ) لام القسم ، والتبطئة : التأخر عن الأمر ، يقال : ما أبطأ بك ؟ أي : ما أخرك عنا ؟ ويقال : إبطاء وبطأ يبطئ تبطئة . { فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ } أي : قتل وهزيمة ، { قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ } بالقعود ، { إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا } ، أي : حاضرا في تلك الغزاة فيصيبني ما أصابهم .

[73] { وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ } ، فتح وغنيمة ، { لَيَقُولَنَّ } هذا المنافق ، وفيه تقديم وتأخير ، وقوله { كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ } متصل بقوله { فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ } تقديره : فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا ، (كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ) أي : معرفة ، قرأ ابن كثير وحفص ويعقوب (تكن) بالتاء ، والباقون بالياء ، أي : ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن : { يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ } ، في تلك الغزاة ، { فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا } أي : آخذ نصيبا وافرا من الغنيمة ، وقوله (فَأَفُوزَ) نصب على جواب التمني بالفاء ، كما تقول : وددت أن أقوم فيتبعني الناس .

[74] قوله تعالى : { فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ } قيل : نزلت في المنافقين ، ومعنى يشرون أي : يشترون ، يعني الذين يختارون الدنيا على الآخرة ، معناه : آمنوا ثم قاتلوا ، وقيل : نزلت في المؤمنين المخلصين ، معناه فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون أي : يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة ويختارون الآخرة { وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ } يعني يستشهد ، { أَوْ يَغْلِبْ } ، يظفر { فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ } ، في كلا الوجهين { أَجْرًا عَظِيمًا } .

[75] قوله تعالى : { وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ } لا تجاهدون { فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ، في طاعة الله يعاتبهم على ترك الجهاد ، { وَالْمُسْتَضْعَفِينَ } أي : عن المستضعفين ، وقال ابن شهاب : في سبيل المستضعفين لتخليصهم ، وقيل : في تخليص المستضعفين ، من أيدي المشركين ، وكان بمكة جماعة ، { مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ } ، يلقون من المشركين أذى كثيرا ، { الَّذِينَ } يدعون و { يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا } يعني : مكة ، الظالم أي : المشرك ، أهلها يعني القرية التي من صفتها أن أهلها مشركين ، وإنما خفض (الظالم) لأنه نعت للأهل ، فلما عاد الأهل إلى القرية صار الفعل لها ، كما يقال مررت برجل حسنة عينه . { وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا } ، أي : من يلي أمرنا لدنك ، { وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا } أي : من يمنع العدو عنا ،

فاستجاب الله دعوتهم ، فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ولى عليهم عتاب بن أسيد وجعله الله لهم نصيرا ينصف المؤمنين المظلومين من الظالمين .

[76] ، قوله تعالى : { الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ، أي : في طاعته ، { وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ } أي : في طاعة الشيطان ، { فَقَاتِلُوا } أيها المؤمنون { أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ } أي : حزبه وجنوده الكفار ، { إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ } ، مكره ، { كَانَ ضَعِيفًا } ، كما فعل يوم بدر لما رأى الملائكة خاف أن يأخذوه فهرب وخذلهم .

[77] ، قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ } الآية ، قال الكلبي : نزلت في جماعة كانوا يلقون من المشركين بمكة أذى كثيرا قبل أن يهاجروا ، ويقولون : يا رسول الله ائذن لنا في قتالهم فإنهم قد آذونا ، فيقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفوا أيديكم فإني لم أؤمر بقتالهم » ، { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ } ، فلما هاجروا إلى المدينة وأمرهم الله بقتال المشركين شق ذلك على بعضهم ، قال الله تعالى : { فَلَمَّا كُتِبَ } فرض ، { عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ } يعني يخشون مشركي مكة ، { كَخَشْيَةِ اللَّهِ } أي : كخشيتهم من الله ، { أَوْ أَشَدَّ } أكبر ، { خَشْيَةً } ، وقيل : معناه وأشد خشية ، { وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ } ، الجهاد ، { لَوْلَا } هلا ، { أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ } ، يعني : الموت ، أي : هلا تركتنا حتى نموت بآجالنا ؟ واختلفوا في هؤلاء الذين قالوا ذلك ، فقيل : قاله قوم من المنافقين لأن قوله : (لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا القتال) ، لا يليق بالمؤمنين ، وقيل :

قاله جماعة من المؤمنين لم يكونوا راسخين في العلم قالوه خوفا وجبنا لا اعتقادا ثم تابوا ، وأهل الإيمان يتفاضلون في الإيمان ، وقيل : هم قوم كانوا مؤمنين فلما فرض عليهم القتال نافقوا من الجبن وتخلفوا عن الجهاد ، { قُلْ } يا محمد ، { مَتَاعُ الدُّنْيَا } أي : منفعتها والاستمتاع بها { قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ } ، أفضل ، { خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى } ، الشرك ومعصية الرسول ، { وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا }

[78] قوله عز وجل : { أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ } أي : ينزل بكم الموت ، نزلت في المنافقين الذين قالوا في قتلى أحد : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا فرد الله عليهم بقوله : { أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ } ، { وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ } والبروج : الحصون والقلاع ، والمشيدة : المرفوعة المطولة ، { وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ } ، نزلت في اليهود والمنافقين ، وذلك أنهم قالوا لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة : ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه ، قال الله تعالى : (وإن تصبهم) يعني : اليهود (حسنة) أي خصب ورخص في السعر ، { يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } لنا ، { وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ } يعني : الجدب وغلاء الأسعار { يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ } أي : من شؤم محمد وأصحابه ، وقيل : المراد بالحسنة الظفر والغنيمة يوم بدر ، وبالسيئة القتل والهزيمة يوم أحد ، يقولوا هذه من عندك أي : أنت الذي حملتنا عليه يا محمد ، فعلى هذا يكون من قول المنافقين { قُلْ } لهم يا محمد ، { كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ }

أي : الحسنة والسيئة كلها من عند الله ، ثم عيرهم بالجهل فقال : { فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ } يعني : المنافقين واليهود ، { لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا } أي : لا يفقهون قولا ، وقيل : الحديث ههنا هو القران أي : لا يفقهون معاني القرآن قوله : (فَمَالِ هَؤُلَاءِ) قال الفراء : كثرت في الكلام هذه الكلمة حتى توهموا أن اللام متصلة بها وأنهما حرف واحد ، ففصلوا اللام بما بعدها في بعضه ، ووصلوها في بعضه ، والقراءة الاتصال ، ولا يجوز الوقف على اللام لأنها لام خافضة .

[79] ، قوله عز وجل : { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ } خير ونعمة { فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ } ، بلية أو أمر تكرهه ، { فَمِنْ نَفْسِكَ } ، أي : بذنوبك ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم المراد غيره ، نظيره قوله تعالى : { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } وتعلق أهل القدر بظاهر هذه الآية ، فقالوا : نفى الله تعالى السيئة عن نفسه ونسبها إلى العبد ، فقال : (وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) ، ولا متعلق لهم فيه ، لأنه ليس المراد من الآية حسنات الكسب ولا سيئاته من الطاعات والمعاصي ، بل المراد منهم ما يصيبهم من النعم والمحن ، وذلك ليس من فعلهم بدليل أنه نسبها إلى غيرهم ولم ينسبها إليهم ، فقال : (ما أصابك) ولا يقال في الطاعة والمعصية أصابني ، إنما يقال : أصبتها ، ويقال في المحن : أصابني ، بدليل أنه لم يذكر عليه ثوابا ولا عقابا ، فهو كقوله تعالى : { فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ } ، فلما ذكر حسنات الكسب وسيئاته نسبها إليه ، ووعد عليها الثواب

والعقاب ، فقال : { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا } ، وقيل معنى الآية : ما أصابك من حسنة من النصر والظفر يوم بدر فمن الله أي : من فضل الله ، وما أصابك من سيئة من القتل والهزيمة يوم أحد فمن نفسك ، أي : يعني فبذنوب أصحابك ، وهو مخالفتهم لك ، فإن قيل : كيف وجه الجمع بين قوله { قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } وبين قوله (فَمِنْ نَفْسِكَ) ؟ قيل : قوله { قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } أي : الخصب والجدب والنصر والهزيمة كلها من عند الله ، وقوله : { فَمِنْ نَفْسِكَ } أي : وما أصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك , كما قال الله تعالى : { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } يدل عليها ما روى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه قرأ (وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأنا كتبتها عليك) . وقال بعضهم : هذه اللام متصلة بما قبلها , والقول فيه مضمر تقديره : فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا , يقولون : (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ

نَفْسِكَ) , { قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } . { وَأَرْسَلْنَاكَ } يا محمد , { لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } على إرسالك وصدقك , وقيل : كفى بالله شهيدا على أن الحسنة والسيئة كلها من الله تعالى .

[80] قوله تعالى : { مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ } , وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : " من أطاعني فقد أطاع الله ومن أحبني فقد أحب الله " فقال بعض المنافقين : ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه ربًّا كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم ربًّا , فأنزل الله تعالى : { مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ } أي : من يطع الرسول فيما أمر به فقد أطاع الله { وَمَنْ تَوَلَّى }

عن طاعته , { فَمَا أَرْسَلْنَاكَ } يا محمد , { عَلَيْهِمْ حَفِيظًا } , أي : حافظا ورقيبا على كل أمورهم , وقيل : نسخ الله عز وجل هذا بآية السيف , وأمره بقتال من خالف الله ورسوله .

[81] { وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ } , يعني : المنافقين يقولون باللسان للرسول صلى الله عليه وسلم : إنا آمنا بك فمرنا فأمرك طاعة , قال النحويون : أي أمرنا وشأننا أن نطيعك , { فَإِذَا بَرَزُوا } خرجوا , { مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ } , قال قتادة والكلبي : بيَّت أي : غيَّر وبدل الذي عهد إليهم النبي صلى الله عليه وسلم , ويكون التبييت بمعنى التبديل , وقال أبو عبيدة والقتيبي : معناه قالوا وقدروا ليلا غير ما أعطوك نهارا وكل ما قدر بليل فهو مبيت , وقال أبو الحسن الأخفش : تقول العرب للشيء إذا قدر : بيت , يشبهونه بتقدير بيوت الشعر , { وَاللَّهُ يَكْتُبُ } أي يثبت ويحفظ ، { مَا يُبَيِّتُونَ } ما يزورون ويغيرون ويقدرون ، وقال الضحاك عن ابن عباس : يعني ما يسرون من النفاق ، { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } يا محمد ولا تعاقبهم ، وقيل : لا تخبر بأسمائهم ، مُنع الرسول صلى الله عليه وسلم من الإخبار بأسماء المنافقين ، { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } أي : اتخذه وكيلا وكفى بالله وكيلا وناصرا .

[82] قوله تعالى : { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ } , يعني أفلا يتفكرون في القرآن ، والتدبر هو النظر في آخر الأمر ، ودبر كل شيء آخره . { وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } أي تفاوتا وتناقضا كثيرا ، قاله ابن عباس ، وقيل : لوجدوا فيه أي : في الإخبار عن الغيب بما كان وبما يكون اختلافا كثيرا ، أفلا يتفكرون فيه فيعرفوا بعدم التناقض فيه وصدق ما يخبر أنه كلام الله تعالى لأن ما لا يكون من عند الله لا يخلو عن تناقض واختلاف .

[83] قوله تعالى : { وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ } وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبعث السرايا فإذا غلبوا أو غُلِبُوا بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم ، فيفشون ويحدثون به قبل أن يحدث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيضعفون به قلوب المؤمنين فأنزل الله تعالى (وَإِذَا جَاءَهُمْ) يعني : المنافقين (أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ) أي : الفتح والغنيمة (أَوِ الْخَوْفِ) القتل والهزيمة (أَذَاعُوا بِهِ) أشاعوه وأفشوه ، { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ } إلى رأيه ولم يحدثوا به حتى يكون النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي يحدث به ، { وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ } ، أي : ذوي الرأي من الصحابة مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، { لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ } أي : يستخرجونه وهم العلماء ، أي : علموا ما ينبغي أن يكتم وما ينبغي أن يفشى ، والاستنباط : الاستخراج ، يقال : استنبط الماء إذا استخرجه ، وقال عكرمة : يستنبطونه أي : يحرصون عليه ويسألون عنه ، وقال الضحاك : يتبعونه ، يريد الذين سمعوا تلك الأخبار من المؤمنين والمنافقين

، لو ردوه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى ذوي الرأي والعلم ، لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، أي : يحبون أن يعلموه على حقيقته كما هو ، { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ } كلكم ، { إِلَّا قَلِيلًا } فإن قيل : كيف استثنى القليل ولولا فضله لاتبع الكل الشيطان ؟ قيل : هو راجع إلى ما قبله ، قيل : معناه أذاعوا به إلا قليلا لم يفشه ، وعنى بالقليل المؤمنين ، وهذا قول الكلبي واختيار الفراء ، وقال : لأن علم السر إذا ظهر علمه المستنبط

وغيره ، والإذاعة قد تكون في بعض دون بعض ، وقيل : لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلا ، ثم قوله : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ) كلام تام ، وقيل : فضل الله : الإسلام ، ورحمته : القرآن ، يقول : لولا ذلك لاتبعتم الشيطان إلا قليلا ، وهم قوم اهتدوا قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن ، مثل زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وجماعة سواهما ، وفي الآية دليل على جواز القياس ، فإن من العلم ما يدرك بالتلاوة والرواية وهو النص ، ومنه ما يدرك بالاستنباط وهو القياس على المعاني

المودعة في النصوص .
[84] قوله تعالى : { فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ } وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم واعد أبا سفيان بعد حرب أُحُد موسم بدر الصغرى في ذي القعدة فلما بلغ الميعاد دعا الناس إلى الخروج فكرهه بعضهم ، فأنزل الله عز وجل : { فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ } أي : لا تدع جهاد العدو والاستنصار للمستضعفين من المؤمنين ولو وحدك ، فإن الله قد وعدك النصرة وعاقبهم على ترك القتال ، والفاء في قوله تعالى : (فَقَاتِلْ) جواب عن قوله { وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } فَقَاتِلْ، { وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ } أي : حضهم على الجهاد ورغبهم في الثواب ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين راكبا فكفاهم الله القتال ، فقال جل ذكره : { عَسَى اللَّهُ } أي : لعل الله ، { أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، أي : قتال المشركين و (عسى) من الله واجب ، { وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا } أي : أشد صولة وأعظم سلطانا ، { وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا } أي : عقوبة .

[85] قوله عز وجل : { مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا } أي نصيب منها ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : الشفاعة الحسنة هي الإصلاح بين الناس ، والشفاعة السيئة هي المشي بالنميمة بين الناس ، وقيل : الشفاعة الحسنة هي حسن القول في الناس ينال به الثواب والخير ، والسيئة هي : الغيبة وإساءة القول في الناس ينال به الشر ، وقوله (كِفْلٌ مِنْهَا) أي : من وزرها ، وقال مجاهد : على شفاعة الناس بعضهم لبعض ، ويؤجر الشفيع على شفاعته وإن لم يشفع قوله تعالى : { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا } قال ابن عباس رضي الله عنهما : مقتدرا أو مجازيا ، وقال مجاهد : شاهدا , وقال قتادة : حافظا ، وقيل : معناه على كل حيوان مقيتا أي : يوصل القوت إليه ، وجاء في الحديث : « كفى بالمرء إثما أن يضيّع من يقوت ويقيت » (1) .

____

(1) رواه أبو داود في سننه في كتاب الزكاة / 45 ، والإمام أحمد في مسنده ج 2 / 160 ط 193 ، 195 .

[86] قوله تعالى : { وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا } , التحية : دعاء بطول الحياة ، والمراد بالتحية هنا السلام ، يقول : إذا سلم عليكم مُسلم فأجيبوا بأحسن منها أو رُدُّوها كما سلّم ، فإذا قال : السلام عليكم ، فقل : وعليكم السلام ورحمة الله ، وإذا قال : السلام عليكم ورحمة الله ، فقل : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، وإذا قال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فردَّ مثله ، وقيل : (فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا) ، معناه أي إذا كان الذي سلّم مُسْلِمًا ، (أَوْ رُدُّوهَا) بمثلها إذا لم يكن مسلما ، قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ

كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا } أي : على كل شيء من رَدِّ السلام بمثله أو بأحسن منه ، حسيبا أي : محاسبا مجازيا ، وقال مجاهد : حفيظا ، وقال أبو عبيدة : كافيا ، يقال : حسبي هذا أي كفاني .

[87] قوله تعالى : { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ } اللام ، لام القسم تقديره : والله ليجمعنكم في الموت وفي القبور ، { إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } ، وسميت القيامة قيامة لأن الناس يقومون من قبورهم , قال الله تعالى : { يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا } وقيل : لقيامهم إلى الحساب ، قال الله تعالى : { يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } ، { لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا } أي : قولا ووعدا ، وقرأ حمزة والكسائي (أصدق) ، وكل صاد ساكنة بعدها دال بإشمام الزاي .

[88] { فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ } اختلفوا في سبب نزولها فقال قوم : نزلت في الذين تخلفوا يوم أُحُد من المنافقين ، فلما رجعوا قال بعض الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اقتلهم فإنهم منافقون ، وقال بعضهم : اعف عنهم فإنهم تكلموا بالإسلام ، وقال بعضهم : نزلت في ناس من قريش قدموا المدينة وأسلموا ثم ندموا على ذلك ، ثم إنهم خرجوا في تجارة لهم نحو الشام فبلغ ذلك المسلمين ، فقال بعضهم : نخرج إليهم فنقتلهم ونأخذ ما معهم لأنهم رغبوا عن ديننا ، وقالت طائفة : كيف تقتلون قوما على دينكم إن لم يذروا ديارهم ، وكان هذا بعين النبي صلى الله عليه وسلم وهو ساكت لا ينهى واحدا من الفريقين ، فنزلت هذه الآية ، وقال بعضهم : هم قوم أسلموا بمكة ثم لم يهاجروا وكانوا يظاهرون المشركين ، فنزلت : (فما لكم) يا معشر المؤمنين (فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ) أي : صرتم فيهم فئتين أي : فرقتين { وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ } أي : نكَّسهم وردَّهم إلى الكفر { بِمَا كَسَبُوا } بأعمالهم غير الزاكية { أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا } ، أي : ترشدوا { مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ } وقيل : معناه أتقولون إن

هؤلاء مهتدون وقد أضلهم الله ، { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ } أي : وكما كفروا يضلل الله عن الهدى ، { فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا } أي : طريقا إلى الحق .

[89] قوله تعالى : { وَدُّوا } تمنَّوا ، يعني أولئك الذين رجعوا عن الدين تمنوا { لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً } في الكفر ، وقوله (فَتَكُونُونَ) لم يرد به جواب التمني لأن جواب التمني بالفاء منصوب ، إنما أراد النسق ، أي : ودوا لو تكفرون وودوا لو تكونون سواء ، مثل قوله : { وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ } أي : ودوا لو تدهن وودوا لو تدهنون ، { فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ } ، منع عن موالاتهم ، { حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } معكم ، قال عكرمة : هي هجرة أخرى والهجرة على ثلاثة أوجه : هجرة المؤمنين في أول الإسلام ، وهي قوله تعالى { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ } وقوله : { وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ } ، ونحوهما من الآيات ، وهجرة المؤمنين : وهي الخروج في سبيل الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صابرين محتسبين ، كما حكي هاهنا ، وفي هذه الآية منع موالاة المؤمنين من موالاة المنافقين حتى يهاجروا في سبيل الله ، وهجرة سائر المؤمنين ما نهى الله عنه ، وهي ما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « المهاجر من هجر ما نهى

الله عنه » (1) . قوله تعالى : { فَإِنْ تَوَلَّوْا } أعرضوا عن التوحيد والهجرة ، { فَخُذُوهُمْ } أي خذوهم أسارى ، ومنه يقال للأسير أخيذ ، { وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ } في الحل والحرم ، { وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } , ثم استثنى طائفة منهم فقال :

______

(1) رواه البخاري في كتاب الإيمان / 4 .

[90] { إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ } وهذا الاستثناء يرجع إلى القتل لا إلى الموالاة ، لأن موالاة الكفار والمنافقين لا تجوز بحال ، ومعنى (يصلون) أي : ينتسبون إليهم ويتصلون بهم ويدخلون فيهم بالحِلْف والجوار ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما يريدون ويلجأون إلى قوم ، { بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ } أي : عهد ، وهم الأسلميون وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وادع هلال بن عويمر الأسلمي قبل خروجه إلى مكة على ألا يعينه ولا يعين عليه ، ومن وصل إلى هلال من قومه وغيرهم ولجأ إليه فلهم من الجوار مثل ما لهلال ، وقال الضحاك عن ابن عباس : أراد بالقوم الذين بينكم وبينهم ميثاق بني بكر بن زيد بن مناة كانوا في الصلح والهدنة ، وقال مقاتل : هم خزاعة ، وقوله : { أَوْ جَاءُوكُمْ } أي : يتصلون بقوم جاؤوكم ، { حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ } أي : ضاقت صدورهم ، قرأ الحسن ويعقوب (حصرة) منصوبة منونة أي : ضيقة صدورهم ، يعني القوم الذين جاءوكم وهم بنو مدلج ، كانوا عاهدوا قريشا ألا يقاتلوا المسلمين وعاهدوا قريشا ألا يقاتلوهم ، حصرت : ضاقت صدورهم ، { أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ } أي : عن قتالكم للعهد الذي بينكم ، {

أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ } يعني : من أمن منهم ، ويجوز أن يكون معناه أنهم لا يقاتلونكم مع قومهم ولا يقاتلون قومهم معكم ، يعني قريشا قد ضاقت صدورهم لذلك ، وقال بعضهم : أو بمعنى الواو ، كأنه يقول : إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ، أي : حصرت صدورهم عن قتالهم والقتال معكم ، وهم قوم هلال الأسلميون وبنو بكر ، نهى الله سبحانه عن قتال هؤلاء المرتدين إذا اتصلوا بأهل عهد للمسلمين ، لأن من انضم إلى قوم ذوي عهد فله حكمهم في حقن الدماء . قوله تعالى : { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ } . يذكر مِنَّتَهُ على المسلمين بكف بأس المعاهدين ، يقول : إن ضيق صدورهم عن قتالكم لما ألقى الله في قلوبهم من الرعب وكفهم عن قتالكم ، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم مع قومهم ، { فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ } أي : اعتزلوا قتالكم ، { فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ } ومن اتصل بهم ، ويقال : يوم فتح مكة يقاتلوكم مع قومهم ، { وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ } أي : الصلح فانقادوا واستسلموا { فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا } أي :

طريقا بالقتل والقتال .

[91] قوله تعالى : { سَتَجِدُونَ آخَرِينَ } عن ابن عباس رضي الله عنهما : هم أسد وغطفان كانوا حاضري المدينة تكلموا بالإسلام رياء وهم غير مسلمين ، وكان الرجل منهم يقول له قومه بماذا أسلمت ؟ فيقول : آمنت بهذا القرد وبهذا العقرب والخنفساء وإذا لقوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : إنا على دينكم ، يريدون بذلك الأمن في الفريقين ، وقال الضحاك عن ابن عباس : هم بنو عبد الدار كانوا بهذه الصفة { يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ } ، فلا تتعرضوا لهم ، { وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ } فلا يتعرضوا لهم ، { كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ }

أي : دعوا إلى الشرك { أُرْكِسُوا فِيهَا } أي : رجعوا وعادوا إلى الشرك ، { فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ } أي : فإن لم يكفوا عن قتالكم حتى تسيروا إلى مكة ، { وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ } أي : المفادة والصلح , { وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ } ولم يقبضوا أيديهم عن قتالكم ، { فَخُذُوهُمْ } ، أسراء ، { وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ } أي : وجدتموهم ، { وَأُولَئِكُمْ } أي : أهل هذه الصفة ، { جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا } أي : حجة بينة ظاهرة

بالقتل والقتال .

[92] قوله تعالى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً } , وهذا نهي عن قتل المؤمن كقوله تعالى : { وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ } ، (إِلَّا خَطَأً) استثناء منقطع معناه : لكن إن وقع خطأ ، { وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ } أي : فعليه إعتاق رقبة مؤمنة كفارة ، { وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ } كاملة ، { إِلَى أَهْلِهِ } أي : إلى أهل القتيل الذين يرثونه ، { إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا } أي : يتصدقوا بالدية فيعفوا ويتركوا الدية ، { فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ } أراد به إذا كان الرجل مسلما في دار الحرب منفردا مع الكفار فقتله من لم يعلم بإسلامه فلا دية عليه ، وعليه الكفارة ، وقيل : المراد منه إذا كان المقتول مسلما في دار الإسلام وهو من نسب قوم كفار ، وقرابته في دار الحرب حرب للمسلمين ففيه الكفارة ولا دية لأهله ، وكان الحارث بن زيد من قوم كفار حرب للمسلمين وكان فيه تحرير رقبة ولم يكن فيه دية لأنه لم يكن بين قومه وبين المسلمين عهد . قوله تعالى : { وَإِنْ كَانَ مِنْ

قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ } أراد به إذا كان المقتول كافرا ذميا أو معاهدا فيجب فيه الدية والكفارة ، والكفارة تكون بإعتاق رقبة مؤمنة سواء كان المقتول مسلما أو معاهدا رجلا كان أو امرأة حرا كان أو عبدا وتكون في مال القاتل ، { فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ } ، والقاتل إن كان واجدا للرقبة أو قادرا على تحصيلها بوجود ثمنها فاضلا عن نفقته ونفقة عياله وحاجته من مسكن ونحوه فعليه الإعتاق ، ولا يجوز أن ينتقل إلى الصوم فإن عجز عن تحصيلها فعليه صوم شهرين متتابعين ، { تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ } أي : جعل الله ذلك توبة القاتل الخطأ { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا } بمن قتل خطأ { حَكِيمًا } فيما حكم به عليكم .

[93] قوله تعالى : { وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا } الآية ، نزلت في مقيس بن صبابة الكندي ، وكان قد أسلم هو وأخوه هشام فوجد أخاه هشاما قتيلا في بني النجار فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فأرسل له رسول الله صلى الله عليه وسلم معه رجلا من بني فهر إلى بني النجار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم إن علمتم قاتل هشام بن صبابة أن تدفعوه إلى مقيس فيقتص منه وإن لم تعلموا أن تدفعوا إليه ديته ، فأبلغهم الفهري ذلك فقالوا : سمعا وطاعة لله ولرسوله ، والله ما نعلم له قاتلا ولكنا نؤدي ديته فأعطوه مائة من الإبل ، ثم انصرفا راجعين نحو المدينة فيأتي الشيطان مقيسا فوسوس إليه ، فقال : تقبل دية أخيك فتكون عليك مسبة ، اقتل الذي معك فتكون نفس مكان نفس وفضل الدية ، فتغفل الفهري فرماه بصخرة فقتله ، ثم ركب بعيرا وساق بقيتها راجعا إلى مكة كافرا فنزل فيه : { وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا } بكفره وارتداده ، هو الذي استثناه النبي

صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ، عمن أمنه فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة ، قوله تعالى : { وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ

وَلَعَنَهُ } أي : طرده عن الرحمة ، { وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا } .

[94] قوله عز وجل : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا } عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مر رجل من بني سليم على نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومعه غنم له فسلم عليهم ، قالوا : ما سلم عليكم إلا ليتعوذ منكم فقاموا وقتلوه وأخذوا غنمه فأتوا بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } يعني إذا سافرتم في سبيل الله ، يعني : الجهاد , { فَتَبَيَّنُوا } قرأ حمزة والكسائي هاهنا في موضعين وفي سورة الحجرات بالتاء والثاء من التثبت ، أي : قفوا حتى تعرفوا المؤمن من الكافر ، وقرأ الآخرون بالياء والنون من التبين ، يقال : تبينت الأمر إذا تأملته ، { وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ } هكذا قرأ أهل المدينة وابن عامر وحمزة ، أي : المعاذة وهو قول " لا إله إلا الله محمد رسول الله " ، وقرأ الآخرون السلام وهو السلام الذي هو تحية المسلمين لأنه كان قد سلم عليهم وقيل : السلم والسلام واحد ، أي : لا تقولوا لمن سلم عليكم لست مؤمنا ، فذلك قوله تعالى : {

لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } يعني : تطلبون الغنم والغنيمة ، (عرض الحياة الدنيا) منافعها ومتاعها { فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ } أي : غنائم { كَثِيرَةٌ } وقيل : ثواب كثير لمن اتقى قتل المؤمن { كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ } قال سعيد بن جبير : كذلك كنتم تكتمون إيمانكم من المشركين { فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ } بإظهار الإسلام ، وقال قتادة : كنتم ضلالا من قبل فمن الله عليكم بالهداية ، وقيل معناه : كذلك كنتم من قبل تأمنون في قومكم بلا إله إلا الله قبل الهجرة فلا تخيفوا من قالها فمن الله عليكم بالهجرة ، { فَتَبَيَّنُوا } أن تقتلوا مؤمنا ، { إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } إذا رأى الغزاة في بلد أو قرية شعار الإسلام فعليهم أن يكفوا عنهم ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا غزا قوما فإن سمع أذانا كف عنهم ، وإن لم يسمع أغار عليهم .

[95] قوله تعالى : { لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } عن الجهاد { غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ } قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي بنصب الراء أي : إلا أولي الضرر ، وقرأ الآخرون برفع الراء على نعت (القاعدين) يريد : لا يستوي القاعدون الذين هم غير أولي الضرر ، أي : غير أولي الزمانة والضعف في البدن والبصر ، { وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ } أي : ليس المؤمنون القاعدون عن الجهاد من غير عذر والمؤمنون والمجاهدون سواء ، غير أولي الضرر فإنهم يساوون المجاهدين ، لأن العذر أقعدهم ، قوله تعالى : { فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً } أي : فضيلة ، وقيل : أراد بالقاعد هاهنا أولي الضرر ، فضل الله المجاهدين عليهم درجة لأن المجاهد باشر الجهاد مع النية وأولي الضرر كانت لهم نية ولكنهم لم يباشروا ، فنزلوا عنهم بدرجة ، { وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى } يعني : الجنة بإيمانهم ، وقال مقاتل : يعني المجاهد والقاعد المعذور ، { وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا }

يعني : على القاعدين من غير عذر .
[96] { دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } قيل : هي سبعون درجة متفاوتة , وقيل : الدرجات هي الإسلام والجهاد والهجرة والشهادة فاز بها المجاهدون .

[97] قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ } الآية نزلت في ناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يهاجروا فلما خرج المشركون إلى بدر خرجوا معهم فقتلوا مع الكفار فقال الله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ } أراد به ملك الموت وأعوانه أو أراد ملك الموت وحده ، كما قال تعالى : { قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ } ، والعرب قد تخاطب الواحد بلفظ الجمع { ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ } بالشرك ، وهو نصب على الحال أي : في حال ظلمهم , قيل : أي المقام في دار الشرك لأن الله تعالى لم يقبل الإسلام بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلا بالهجرة ، ثم نسخ بعد فتح مكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا هجرة بعد الفتح » (1) ، وهؤلاء قتلوا يوم بدر وضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم ، وقالوا لهم : فيما كنتم ؟ فذلك قوله تعالى : { قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ } أي : في ماذا كنتم أو في أي الفريقين كنتم ؟ أفي المسلمين ؟ أم في المشركين ؟ سؤال توبيخ وتعيير فاعتذروا بالضعف عن مقاومة أهل الشرك ، { قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ } عاجزين , { فِي

---
(1) متفق عليه .

الْأَرْضِ } يعني أرض مكة ، { قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا } ؟ يعني إلى المدينة وتخرجوا من مكة من بين أهل الشرك ؟ فأكذبهم الله تعالى وأعلمنا بكذبهم ، وقال : { فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ } منزلهم , { جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } أي : بئس المصير إلى جهنم ، ثم استثنى أهل العذر منهم ، فقال :
[98] { إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً } لا يقدرون على حيلة ولا على نفقة ولا على قوة الخروج منها ، { وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا } أي : لا يعرفون طريقا إلى الخروج . وقال مجاهد : لا يعرفون طريق المدينة .
[99] قوله تعالى : { فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ } يتجاوز عنهم ، وعسى من الله واجب ، لأنه للإطماع ، والله تعالى إذا أطمع عبدا وصله إليه ، { وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : كنت أنا وأمي ممن عذر الله ، يعني المستضعفين , وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو لهؤلاء المستضعفين في الصلاة .

[100] قوله تعالى : { وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً } عن ابن عباس رضي الله عنهما : (مُرَاغَمًا) أي : متحوَّلا يتحول إليه ، وقال مجاهد : متزحزحا عما يكره ، وقال أبو عبيدة : المراغم : المهاجر ، قيل : سميت المهاجرة مراغمة لأن من يهاجر يراغم قومه ، وسعة أي : في الرزق ، وقيل : سعة من الضلالة إلى الهدى { وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ } أي : قبل بلوغه إلى مهاجره ، { فَقَدْ وَقَعَ } أي : وجب { أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } بإيجابه على نفسه فضلا منه ، { وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } .
[101] قوله عز وجل : { وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ } أي : سافرتم ، { فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ } أي : حرج وإثم { أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ } يعني من أربعة

ركعات إلى ركعتين ، وذلك في صلاة الظهر والعصر والعشاء ، { إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ } أي : يغتالكم ويقتلكم { الَّذِينَ كَفَرُوا } في الصلاة { إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا } أي : ظاهر العداوة .

[102] قوله تعالى : { وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ } روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وجابر رضي الله عنهم أن المشركين لما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا إلى الظهر يصلون جميعا ندموا إلا كانوا أكبوا عليهم ، فقال بعضهم لبعض : دعوهم فإن لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم يعني صلاة العصر ، فإذا قاموا فيها فشدوا عليهم فاقتلوهم ، فنزل جبريل عليه السلام فعلمه صلاة الخوف ، وجملته أن العدو إذا كانوا في معسكرهم في غير ناحية القبلة فيجعل الإمام القوم فرقتين فتقف طائفة وجاه العدو تحرسهم ، ويشرع الإمام مع طائفة في الصلاة ، فإذا صلى بهم ركعة قام وثبت قائما حتى أتموا صلاتهم ، وذهبوا إلى وجاه العدو ثم أتت الطائفة الثانية فصلى بهم الركعة الثانية وثبت جالسا حتى أتموا لأنفسهم الصلاة ، ثم يسلم بهم ، وهذه رواية سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى كذلك بذات الرقاع ، قوله تعالى : (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ) أي : شهيدا معهم فأقمت لهم الصلاة ، { فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ } أي : فلتقف { وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا

سَجَدُوا } أي : صلوا ، { فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ } يريد مكان الذين هم وجاه العدو ، { وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا } ، وهم الذين كانوا في وجه العدو { فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ } قيل : هؤلاء الذين أتوا ، وقيل : هم الذين صلوا ، { وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا } يتمنى الكفار ، { لَوْ تَغْفُلُونَ } أي : وجدوكم غافلين ، { عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً } فيقصدونكم ويحملون عليكم حملة واحدة ، { وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ } ، رخص في وضع السلاح في حال المطر والمرض ، لأن السلاح يثقل حمله في هاتين الحالتين ، { وَخُذُوا حِذْرَكُمْ } أي : راقبوا العدو كيلا يتغفلوكم ، والحذر ما يتقى به من العدو , { إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا } يهانون فيه ، والجُناح : الإثم ، من جنحت إذا عدلت عن القصد .

[103] { فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ } يعني صلاة الخوف ، أي فرغتم منها ، { فَاذْكُرُوا اللَّهَ } أي : صلوا لله { قِيَامًا } في حال الصحة ، { وَقُعُودًا } في حال المرض ، { وَعَلَى جُنُوبِكُمْ } عند الجرح والزمانة ، وقيل : اذكروا الله بالتسبيح والتحميد والتهليل والتمجيد على كل حال ، { فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ } أي : سكنتم وآمنتم ، { فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ } أي : أتموها أربعا بأركانها ، { إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا } قيل : واجبا مفروضا مقدرا في الحضر أربع ركعات وفي السفر ركعتان ، وقال مجاهد : أي فرضا مؤقتا وقته الله عليهم .

[104] قوله تعالى : { وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ } الآية ، سبب نزولها أن أبا سفيان رضي الله عنه وأصحابه لما رجعوا يوم أحد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم طائفة في آثارهم فشكوا ألم الجراحات ، فقال الله تعالى : { وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ } أي : تضعفوا في ابتغاء القوم في طلب القوم أبي سفيان وأصحابه ، { إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ } تتوجعون من الجراح ، { فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ } أي : يتوجعون ، يعني الكفار { كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا

يَرْجُونَ } أي : وأنتم مع ذلك تأملون من الأجر والثواب في الآخرة والنصر في الدنيا ما لا يرجون , { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } .

[105] قوله تعالى : { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ } الآية , عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق من بني ظفر بن الحارث سرق درعا من جار له يقال له قتادة بن النعمان , وكانت الدرع في جراب له فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى الدار , ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين , فالتمست الدرع عند طعمة فحلف بالله ما أخذها وما له بها من علم , فقال أصحاب الدرع : لقد رأينا أثر الدقيق حتى دخل داره , فلما حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق إلى منزل اليهودي فأخذوه منه , فقال اليهودي دفعها إلي طعمة بن أبيرق , فجاء بنو ظفر وهم قوم طعمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه أن يجادل عن صاحبهم ، وقالوا له : إنك إن لم تفعل افتضح صاحبنا ، فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاقب اليهودي فأنزل الله تعالى هذه الآية فقال : { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ } بالأمر والنهي والفصل ، { لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ } بما علمك الله وأوحى إليك

، { وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ } طعمة ، { خَصِيمًا } معينا مدافعا عنه .

[106] { وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ } مما هممت به من معاقبة اليهودي ، وقال مقاتل : واستغفر الله من جدالك عن طعمة { إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا } .
[107] { وَلَا تُجَادِلْ } لا تخاصم ، { عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ } أي : يظلمون أنفسهم بالخيانة والسرقة ، { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا } خائنا ، { أَثِيمًا } بسرقة الدرع ، أثيما في رميه اليهودي , قيل : إنه خطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد به غيره ، والاستغفار في حق الأنبياء بعد النبوة على أحد الوجوه الثلاثة : إما لذنب تقدم على النبوة أو لذنوب أمته وقرابته ، أو لمباح جاء الشرع بتحريمه فيتركه بالاستغفار ، فالاستغفار يكون معناه السمع والطاعة لحكم الشرع .

[108] { يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ } أي : يستترون ويستحيون من الناس ، يريد بني ظفر بن الحارث ، { وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ } أي : لا يستترون ولا يستحيون من الله ، { وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ } يتقولون ويؤلفون ، والتبييت : تدبير الفعل ليلا ، { مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ } وذلك أن قوم طعمة قالوا فيما بينهم : نرفع الأمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يسمع قوله ويمينه لأنه مسلم ولا يسمع من اليهودي فإنه كافر ، فلم يرض الله ذلك منهم ، { وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا } ثم يقول لقوم طعمة :

[109] { هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ } , أي : يا هؤلاء , { جَادَلْتُمْ } أي : خاصمتم ، { عَنْهُمْ } يعني : عن طعمة ، { فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } والجدال : شدة المخاصمة من الجدل ، وهو شدة القتل ، فهو يريد قتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج ، وقيل : الجدال من الجدالة ، وهي الأرض ، فكان كل واحد من الخصمين يروم قهر صاحبه وصرعه على الجدال ، { فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ } ، يعني : عن طعمة ، { يَوْمَ الْقِيَامَةِ } إذا أخذه الله بعذابه ، { أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا } كفيلا ، أي : من الذي يذب عنهم ، ويتولى أمرهم يوم القيامة ، ثم استأنف فقال

:
[110] { وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا } يعني السرقة ، { أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ } برميه البريء ، وقيل : ومن يعمل سوءا أي : شركا أو يظلم نفسه : يعني إثما دون الشرك ، { ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ } أي : يتب إليه ويستغفره ، { يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا } يعرض التوبة على طعمة في هذه الآية .

[111] { وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا } يعني : يمين طعمة بالباطل ، أي : ما سرقته إنما سرقه اليهودي { فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ } فإنما يضر به نفسه ، { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا } بسارق الدرع { حَكِيمًا } حكم بالقطع على السارق .
[112] { وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً } أي : سرقة الدرع ، { أَوْ إِثْمًا } بيمينه الكاذبة ، { ثُمَّ يَرْمِ بِهِ } أي : يقذف بما جنى { بَرِيئًا } منه وهو نسبة السرقة إلى اليهودي { فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا } البهتان : هو البهت ، وهو الكذب الذي يتحير في عظمه ، { وَإِثْمًا مُبِينًا } ، أي : ذنبا بينا ، وقوله (ثُمَّ يَرْمِ بِهِ) ولم يقل بهما بعد ذكر الخطيئة والإثم ، رد الكناية إلى الإثم أو جعل الخطيئة والإثم كالشيء الواحد .

[113] قوله تعالى : { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ } يقول للنبي صلى الله عليه وسلم : { لَهَمَّتْ} لقد همت أي : أضمرت ، { طَائِفَةٌ مِنْهُمْ } يعني : قوم طعمة ، { أَنْ يُضِلُّوكَ } يخطئوك في الحكم ويلبسوا عليك الأمر حتى تدافع عن طعمة ، { وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ } يعني يرجع وباله عليها ، { وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ } يريد أن ضرره يرجع إليهم ، { وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ } يعني : القرآن ، { وَالْحِكْمَةَ } يعني : القضاء بالوحي {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ } من الأحكام ، وقيل : من علم الغيب { وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا } .

[114] قوله تعالى : { لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ } يعني : قوم طعمة ، وقال مجاهد : الآية عامة في حق جميع الناس ، والنجوى : هي الإسرار في التدبير ، وقيل : النجوى ما يتفرد بتدبيره قوم سرا كان أو جهرا ، فمعنى الآية : لا خير في كثير مما يدبرونه بينهم ، { إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ } أي : إلا في نجوى من أمر بصدقة ، فالنجوى تكون فعلا ، وقيل : هذا استثناء منقطع ، يعني : لكن من أمر بصدقة ، وقيل النجوى هاهنا : الرجال المتناجون ، كما قال تعالى : { وَإِذْ هُمْ نَجْوَى } [الإسراء : 47] . (إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ) أي : حث عليها ، { أَوْ مَعْرُوفٍ } أي : بطاعة الله وما يعرفه الشرع ، وأعمال البر كلها معروف ، لأن العقول تعرفها ، { أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ } فعن أم كلثوم بنت عقبة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس الكذاب من أصلح بين الناس فقال خيرا أو نمى خيرا » . قوله تعالى : { وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ } أي : هذه الأشياء التي ذكرها ، { ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ } أي : طلب رضاه ، { فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ } في الآخرة ، { أَجْرًا عَظِيمًا } ، قرأ أبو عمرو

وحمزة (يؤتيه) بالياء ، يعني يؤتيه الله ، وقرأ الآخرون بالنون .
[115] قوله تعالى : { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ } نزلت في طعمة بن أبيرق وذلك أنه لما ظهرت عليه السرقة خاف على نفسه من قطع اليد والفضيحة ، فهرب إلى مكة وارتد عن الدين ، فقال تعالى : { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ } أي : يخالفه ، { مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى } من التوحيد والحدود ، { وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ } أي : غير طريق المؤمنين ، { نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى } أي : نكله في الآخرة إلى ما تولى في الدنيا ، { وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } .

[116] { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } أي : ذهب عن الطريق وحُرم الخير كله ، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما : إن هذه الآية نزلت في شيخ من الأعراب جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله إني شيخ منهمك في الذنوب ، إلا أني لم أشرك بالله شيئا منذ عرفته وآمنت به ، ولم أتخذ من دونه وليا ولم أواقع المعاصي جرأة على الله ، وما توهمت طرفة عين أني أعجز الله هربا وإني لنادم تائب مستغفر فماذا حالي ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

[117] قوله تعالى : { إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا } نزلت في أهل مكة ، أي : ما يعبدون ، كقوله تعالى : { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي } أي : اعبدوني ، بدليل قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي } ، قوله : (من دونه) أي : من دون الله ، (إِلَّا إِنَاثًا) أراد بالإناث الأوثان لأنهم كانوا يسمونها باسم الإناث ، فيقولون : اللات والعزى ومناة ، وكانوا يقولون لصنم كل قبيلة : أنثى بني فلان فكان في كل واحدة منهن شيطان يتراءى للسدنة والكهنة ويكلمهم ، ولذلك قال : { وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا } ، هذا قول أكثر المفسرين يدل على صحة التأويل : وأن المراد بالإناث الأوثان قراءة ابن عباس رضي الله عنه (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أُثُنًا) جمع الوثن فصير الواو همزة ، وقال الحسن وقتادة : إلا إناثا أي : مواتا لا روح فيه ، لأن أصنامهم كانت من الجمادات سماها إناثا لأنه يخبر عن الموات ، كما يخبر عن الإناث ، ولأن الإناث أدون الجنسين كما أن الموات أرذل من الحيوان ، وقال الضحاك : أراد بالإناث الملائكة وكان بعضهم يعبدون الملائكة ويقولون : الملائكة

إناث ، كما قال الله تعالى : { وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا } ، (وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا) ، أي : وما يعبدون إلا شيطانا مريدا لأنهم إذا عبدوا الأصنام فقد أطاعوا الشيطان ، والمريد : المارد ، وهو المتمرد العاتي الخارج عن الطاعة ، وأراد : إبليس .

[118] { لَعَنَهُ اللَّهُ } أي : أبعده الله من رحمته ، { وَقَالَ } يعني : قال إبليس ، { لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا } أي : حقا معلوما ، فما أطيع فيه إبليس فهو مفروضه وأصل الفرض في اللغة : القطع ، ومنه الفرضة في النهر وهي الثلمة تكون فيه ، وفرض القوس والشراك : للشق الذي يكون فيه الوتر والخيط الذي يشد به الشراك .

[119] { وَلَأُضِلَّنَّهُمْ } يعني : عن الحق ، أي : لأغوينهم ، يقوله إبليس ، وأراد به التزيين ، وإلا فليس إليه من الإضلال شيء ، كما قال : { لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ }{ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ } ، قيل : أمنينهم ركوب الأهواء ، وقيل : أمنينهم أن لا جنة ولا نار ولا بعث ، وقيل : أمنينهم إدراك الآخرة مع ركوب المعاصي { وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد وقتادة وسعيد بن المسيب والضحاك : يعني دين الله ، نظيره قوله تعالى : { لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } أي : لدين الله ، يريد وضع الله في الدين بتحليل الحرام وتحريم الحلال ، وقال عكرمة وجماعة من المفسرين فليغيرن خلق الله بالخصاء والوشم وقطع الآذان حتى حرّم بعضهم الخصاء وجوزه بعضهم في البهائم ، لأن فيه غرضا ظاهرا ، وقيل : تغيير خلق الله هو أن الله تعالى خلق الأنعام للركوب والأكل فحرموها ، وخلق

الشمس والقمر والأحجار لمنفعة العباد فعبدوها من دون الله ، { وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ } أي : ربا يطيعه

، { فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا } .
[120] { يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ } فوعده وتمنيته ما يوقعه في قلب الإنسان من طول العمر ونيل الدنيا ، وقد يكون بالتخويف بالفقر فيمنعه من الإنفاق وصلة الرحم كما قال الله تعالى : { الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ } ويمنيهم بأن لا بعث ولا جنة ولا نار { وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا } أي : باطلا .
[121] { أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا } أي : مفرا ومعدلا عنها .

[122] قوله تعالى : { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } أي : من تحت الغرف والمساكن ، { خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا } .

[123] قوله تعالى : { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ } الآية ، قال مسروق وقتادة والضحاك : أراد ليس أمانيكم أيها المسلمون ولا أماني أهل الكتاب يعني اليهود والنصارى ، وذلك أنهم افتخروا ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : نبينا خاتم الأنبياء وكتابنا يقضي على الكتب ، وقد آمنا بكتابكم ولم تؤمنوا بكتابنا فنحن أولى . وقال مجاهد : أراد بقوله { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ } يا مشركي أهل الكتاب ، وذلك أنهم قالوا : لا بعث ولا حساب ، وقال أهل الكتاب : { لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً } ، و { لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى } ، فأنزل الله تعالى : { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ } أي : ليس الأمر بالأماني وإنما الأمر بالعمل الصالح ، { مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ } ، قال ابن عباس وسعيد بن جبير وجماعة : الآية عامة في حق كل عامل { وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } .

[124] قوله تعالى : { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا } أي : مقدار النقير ، وهو النقرة التي تكون في ظهر النواة .
[125] { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا } أحكم دينا { مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ } أي : أخلص عمله لله ، وقيل : فوض أمره إلى الله ، { وَهُوَ مُحْسِنٌ } أي : موحد ، { وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ } يعني : دين إبراهيم عليه السلام ، { حَنِيفًا } أي : مسلما مخلصا ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ومن دين إبراهيم الصلاة إلى الكعبة والطواف بها ومناسك الحج ، وإنما خُصَّ بها إبراهيم لأنه كان مقبولا عند الأمم أجمع ، وقيل : لأنه بُعث على ملة إبراهيم وزيدت له أشياء . { وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } صفيا ، والخلة : صفاء المودة ، قال الزجاج : معنى الخليل الذي ليس في محبته خلل ، والخلة : الصداقة ، فسمي خليلا لأن الله أحبه واصطفاه .

[126] قوله عز وجل : { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا } أي : أحاط علمه بجميع الأشياء .

[127] قوله تعالى : { وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ } الآية , قالت عائشة رضي الله عنها : هي اليتيمة تكون في حجر الرجل ، وهو وليها فيرغب في نكاحها إذا كانت ذات جمال ومال بأقل من سنّة صداقها ، وإذا كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركها ، وفي رواية هي اليتيمة تكون في حجر الرجل قد شركته في ماله فيرغب أن يتزوجها لدمامتها ويكره أن يزوجها غيره فيدخل عليه في ماله فيحبسها حتى تموت فيرثها ، فنهاهم الله عن ذلك , قوله عز وجل : (وَيَسْتَفْتُونَكَ) أي : يستخبرونك في النساء ، (قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ) ، { وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ } ، قيل : معناه ويفتيكم فيما يتلى عليكم ، وقيل : يريد الله أن يفتيكم فيهن وكتابه يفتيكم فيهن ، وهو قوله عز وجل : { وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ } ، قوله : { فِي يَتَامَى النِّسَاءِ } هذا إضافة الشيء إلى نفسه لأنه أراد باليتامى النساء ، { اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ } أي : لا تعطونهن ، { مَا كُتِبَ لَهُنَّ } من صداقهن , { وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ } أي : في نكاحهن لمالهن وجمالهن بأقل من

صداقهن ، وقال الحسن وجماعة : أراد لا تؤتونهن حقهن من الميراث لأنهم كانوا لا يورثون النساء ، وترغبون أن تنكحوهن ، أي : عن نكاحهن لدمامتهن ، { وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ } يريد : ويفتيكم في المستضعفين من الولدان وهم الصغار ، أن تعطوهم حقوقهم لأنهم كانوا لا يُوَرِّثون الصغار ، يريد ما يتلى عليكم في باب اليتامى من قوله { وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ } يعني بإعطاء حقوق الصغار ، { وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ } أي : ويفتيكم في أن تقوموا لليتامى بالقسط بالعدل في مهورهن ومواريثهن ، { وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا } يجازيكم عليه .

[128] { وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ } ، أي : علمت { مِنْ بَعْلِهَا } أي : من زوجها { نُشُوزًا } أي : بغضا ، قال الكلبي : يعني ترك مضاجعتها ، { أَوْ إِعْرَاضًا } بوجهه عنها وقلة مجالستها ، { فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا } أي : على الزوج والمرأة ، (أَنْ يَصَّالَحَا) أي يتصالحا ، وقرأ أهل الكوفة { أَنْ يُصْلِحَا } من أصلح ، { بَيْنَهُمَا صُلْحًا } ، يعني : في القِسْم والنفقة ، وهو أن يقول الزوج لها ، إنك قد دخلت في السن وإني أريد أن أتزوج امرأة شابة جميلة أوثرها عليك في القسمة ليلا ونهارا فإن رضيتِ بهذا فأقيمي وإن كرهت خلّيتُ سبيلك ، فإن رضيتْ كانت هي المحسنة ولا تُجبر على ذلك ، وإن لم ترض بدون حقها كان على الزوج أن يوفّيها حقها من القسم والنفقة أو يسرحها بإحسان ، فإن أمسكها ووفاها حقها مع كراهية فهو محسن وقال مقاتل بن حيان في هذه الآية : هو أن الرجل يكون تحته المرأة الكبيرة فيتزوج عليها الشابة ، فيقول للكبيرة : أعطيتك من مالي نصيبا على أن أقسم لهذه الشابة أكثر مما أقسم لك فترضى بما اصطلحا عليه ، فإن أبت أن ترضى فعليه أن يعدل بينهما في القسم . وعن علي رضي الله عنه في هذه الآية قال : تكون

المرأة عند الرجل فتنبو عينه عنها من دمامة أو كبر فتكره فرقته ، فإن أعطته من مالها فهو له حل وإن أعطته من أيامها فهو حل له ، { وَالصُّلْحُ خَيْرٌ } يعني : إقامتها بعد تخييره إياها والمصالحة على ترك بعض حقها من القسم والنفقة خير من الفرقة { وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ } ، يريد شح كل واحد من الزوجين بنصيبه من الآخر ، والشح : أقبح البخل ، وحقيقته : الحرص على منع الخير ، { وَإِنْ تُحْسِنُوا } ، أي : تصلحوا { وَتَتَّقُوا } الجور ، وقيل : هذا خطاب مع

الأزواج ، أي : تحسنوا بالإقامة معها على الكراهة وتتقوا ظلمها { فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } فيجزيكم بأعمالكم .

[129] قوله تعالى : { وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ } أي : لن تقدروا أن تسووا بين النساء في الحب وميل القلب ، { وَلَوْ حَرَصْتُمْ } على العدل ، { فَلَا تَمِيلُوا } أي : إلى التي تحبونها ، { كُلَّ الْمَيْلِ } في القسم والنفقة ، أي : لا تُتبعوا أهواءكم أفعالكم ، { فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ } ، أي : فتدعوا الأخرى كالمعلقة لا أيِّمًا ولا ذات بعل . وقال قتادة : كالمحبوسة ، وفي قراءة أبي بن كعب : كأنها مسجونة . وروي عن أبي قلابة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول : " اللهم هذا قَسْمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك " (1) , { وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا } الجور ، { فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا } .

---

(1) رواه أبو داود في كتاب النكاح / 38 ، والنسائي في كتاب عشرة النساء / 2 ، وابن ماجه في كتاب النكاح / 47 ، والدارمي في كتاب النكاح / 25 ، وهو معل .

[130] { وَإِنْ يَتَفَرَّقَا } يعني : الزوج والمرأة بالطلاق ، { يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ } من رزقه ، يعني : المرأة بزوج آخر والزوج بامرأة أخرى ، { وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا } واسع الفضل والرحمة حكيما فيما أمر به ونهى عنه ، وجملة حُكم الآية : أن الرجل إذا كانت تحته امرأتان أو أكثر فإنه يجب عليه التسوية بينهن في القسم ، فإن ترك التسوية بينهن في فعل القسم عصى الله تعالى ، وعليه القضاء للمظلومة والتسوية شرط في البيتوتة ، أما في الجماع فلا ، لأنه يدور على النشاط وليس ذلك إليه .

[131] قوله تعالى : { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } عبيدا ومُلكا { وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ } يعني : أهل التوراة والإنجيل وسائر الأمم المتقدمة في كتبهم , { وَإِيَّاكُمْ } يا أهل القرآن في القرآن ، { أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ } أي : وحدوا الله وأطيعوه ، { وَإِنْ تَكْفُرُوا } بما أوصاكم الله به { فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } ، قيل : فإن لله ملائكة في السماوات والأرض هي أطوع له منكم ، { وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا } عن جميع خلقه غير محتاج إلى طاعتهم ، { حَمِيدًا } محمودا على نعمه .

[132] { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } ، قال عكرمة عن ابن عباس : يعني شهيدا أن فيها عبيدا ، وقيل : دافعا ومُجيرا ، فإن قيل : فأي فائدة في تكرار قوله تعالى : (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) ؟ قيل : لكل واحد منهما وجه ، أما الأول : فمعناه لله ما في السماوات وما في الأرض وهو يوصيكم بالتقوى فاقبلوا وصيته ، وأما الثاني فيقول : { فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا } أي : هو الغني وله الملك فاطلبوا منه ما تطلبون ، وأما الثالث فيقول : { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } أي : له الملك فاتخذوه وكيلا ولا تتوكلوا على غيره .
[133] قوله تعالى : { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ } يهلككم { أَيُّهَا النَّاسُ } يعني : الكفار ، { وَيَأْتِ بِآخَرِينَ } يقول بغيركم خير منكم وأطوع ، { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا } قادرا .

[134] { مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ } يريد من كان يريد بعمله عَرَضًا من الدنيا ولا يريد بها الله عز وجل آتاه الله من عَرَض الدنيا أو دفع عنه فيها ما أراد الله ، وليس له في الآخرة من ثواب ، ومن أراد بعمله ثواب الآخرة آتاه الله من الدنيا ما أحب وجزاه الجنة في الآخرة . قوله تعالى : { وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا } .

[135] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ } يعني : كونوا قائمين بالشهادة بالقسط ، أي : بالعدل لله ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كونوا قوامين بالعدل في الشهادة على من كانت له ، { وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ } في الرحم ، أي : قولوا الحق ولو على أنفسكم بالإقرار أو الوالدين والأقربين ، فأقيموها عليهم لله ، ولا تُحابوا غنيا لغناه ولا ترحموا فقيرا لفقره ، فذلك قوله تعالى : { إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا } منكم ، أي : أقيموا على المشهود عليه وإن كان غنيا وللمشهود له وإن كان فقيرا فالله أولى بهما منكم ، أي : كِلوا أمرهما إلى الله . وقال الحسن : معناه الله أعلم بهما ، { فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا } أي : ولا تجوروا وتميلوا إلى الباطل من الحق ، وقيل : معناه لا تتبعوا الهوى لتعدلوا ، أي : لتكونوا عادلين كما يقال : لا تتبع الهوى لترضي ربك . { وَإِنْ تَلْوُوا } أي : تحرفوا الشهادة لتبطلوا الحق { أَوْ تُعْرِضُوا } عنها فتكتموها ولا تقيموها ، يقال : تلووا أي تدافعوا في

إقامة الشهادة ، يقال : لَوَيْتَه حقه إذا دفعتَه وأبطلتَه ، وقيل : هذا خطاب مع الحكام في ليِّهم الأشداق ، يقول : وإن تلووا أي تميلوا إلى أحد الخصمين أو تعرضوا عنه ، قرأ ابن عامر وحمزة (تَلُوا) بضم اللام ، قيل : أصله تلووا ، فحذفت إحدى الواوين تخفيفا ، وقيل : معناه : وإن تلوا القيام بأداء الشهادة أو تعرضوا فتتركوا أداءها { فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } .

[136] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } الآية , عن ابن عباس : نزلت هذه الآية في « عبد الله بن سلام وأسد وأسيد بني كعب ، وثعلبة بن قيس وسلام بن أخت عبد الله بن سلام ، وسلمة ابن أخيه ويامين بن يا مين فهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " بل آمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، والقرآن وبكل كتاب كان قبله » ، فأنزل الله هذه الآية (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وبموسى عليه السلام والتوراة (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) محمد صلى الله عليه وسلم ، { وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ } يعني القرآن ، { وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ } من التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب ، { وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } ، فلما نزلت هذه الآية قالوا : فإنا نؤمن بالله ورسوله

والقرآن وبكل رسول وكتاب كان قبل القرآن ، والملائكة واليوم الآخر لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، وقال الضحاك : أراد بهم اليهود والنصارى ، وقيل : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) بموسى وعيسى (آمنوا) بمحمد والقرآن ، وقال مجاهد : أراد بهم المنافقين ، يقول : (يا أيها الذين آمنوا) باللسان (آمنوا) بالقلب . وقال أبو العالية وجماعة : هذا خطاب للمؤمنين ، يقول : (يا أيها

الذين آمنوا) آمنوا أي أقيموا واثبتوا على الإيمان ، كما يقال للقائم : قم حتى أرجع إليك ، أي اثبت قائما ، وقيل : المراد به أهل الشرك ، يعني : (يا أيها الذين آمنوا) باللات والعزى (آمنوا) بالله ورسوله .

[137] قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا } قال قتادة : هم اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا من بعد بعبادتهم العجل ، ثم آمنوا بالتوراة ثم كفروا بعيسى عليه السلام ، ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : هو في جميع أهل الكتاب آمنوا بنبيهم ثم كفروا به ، وآمنوا بالكتاب الذي نزل عليه ثم كفروا به ، وكفرهم به تركهم إياه ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : هذا في قوم مرتدين آمنوا ثم ارتدوا ثم آمنوا ثم ارتدوا ثم آمنوا ثم ارتدوا , وقال مجاهد : ثم ازدادوا كفرا أي ماتوا عليه ، { لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ } ، ما أقاموا على ذلك ، { وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا } أي طريقا إلى الحق ، فإن قيل : ما معنى قوله : (لم يكن الله ليغفر لهم) ، ومعلوم أنه لا يغفر الشرك إن كان أول مرة ؟ قيل : معناه أن الكافر إذا أسلم أول مرة ودام عليه يغفر له كفره السابق ، فإن أسلم ثم كفر ثم أسلم ثم كفر لا يغفر له كفره السابق الذي كان ، يغفر له لو أنه دام على الإسلام .

[138] { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ } أخبرهم يا محمد { بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } ، والبشارة : كل خبر يتغير به بشرة الوجه سارًّا كان أو غير سارّ ، وقال الزجاج : معناه اجعل في موضع بشارتك لهم العذاب ، كما تقول العرب : تحيتك الضرب وعتابك السيف ، أي : بدلا لك من التحية ، ثم وصف المنافقين فقال :
[139] { الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ } يعني يتخذون اليهود أولياء وأنصارا أو بطانة { مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ } ، أي المعونة والظهور على محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه , وقيل : أيطلبون عندهم القوة ، { فَإِنَّ الْعِزَّةَ } أي : الغلبة والقوة والقدرة ، { لِلَّهِ جَمِيعًا } .

[140] { وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ } ، قرأ عاصم ويعقوب (نزل) بفتح النون والزاي ، أي : نزل الله ، وقرأ الآخرون (نزل) بضم النون وكسر الزاي ، أي : عليكم يا معشر المسلمين { أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ } يعني القرآن { يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ } يعني : مع الذين يستهزؤون ، { حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ } ، أي : يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، وهذا إشارة إلى ما أنزل الله في سورة الأنعام { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ } ، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما : دخل في هذه الآية كل محدث في الدين وكل مبتدع إلى يوم القيامة ، { إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ } أي : إن قعدتم عندهم وهم يخوضون ويستهزءون ورضيتم به فأنتم كفار مثلهم ، وإن خاضوا في حديث غيره فلا بأس بالقعود معهم مع الكراهة ، وقال الحسن : لا يجوز القعود معهم وإن خاضوا في حديث غيره ، لقوله تعالى : { وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ

الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } ، والأكثرون على الأول . وآية الأنعام مكية وهذه مدنية والمتأخر أولى . قوله : { إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا } .

[141] { الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ } ينتظرون بكم الدوائر ، يعني : المنافقين ، { فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ } ، يعني : ظفر وغنيمة ، { قَالُوا } لكم { أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ } على دينكم في الجهاد كنا معكم فاجعلوا لنا نصيبا من الغنيمة ، { وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ } ، يعني دولة وظهور على المسلمين ، { قَالُوا } يعني : المنافقين للكافرين ، { أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ } والاستحواذ : هو الاستيلاء والغلبة ، قال تعالى : { اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ } أي : استولى وغلب ، يقول : ألم نخبركم بعورة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونطلعكم على سرهم ؟ قال المبرد : يقول المنافقون للكفار ألم نغلبكم على رأيكم { وَنَمْنَعْكُمْ } ونصرفكم ، { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } ، أي : عن الدخول في جملتهم ، وقيل : معناه ألم نستول عليكم بالنصرة لكم ونمنعكم من المؤمنين ، أي ندفع عنكم صولة المؤمنين بتخذيلهم عنكم ومراسلتنا إياكم بأخبارهم وأمورهم ، ومراد المنافقين بهذا الكلام إظهار المنة على الكافرين { فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } يعني : بين أهل الإيمان وأهل

النفاق ، { وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا } ، قال علي : في الآخرة ، وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم : أي حجة ، وقيل : ظهورا على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

[142] { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ } أي يعاملونه معاملة المخادعين وهو خادعهم ، أي : مجازيهم على خداعهم وذلك أنهم يعطون نورا يوم القيامة كما للمؤمنين فيمضي المؤمنين بنورهم على الصراط ، ويطفأ نور المنافقين ، { وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ } يعني : المنافقين { قَامُوا كُسَالَى } أي : متثاقلين لا يريدون بها الله فإن رآهم أحد صلوا وإلا انصرفوا فلا يصلون ، { يُرَاءُونَ النَّاسَ } أي : يفعلون ذلك مراءاة للناس لا اتباعا لأمر الله ، { وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن : إنما قال ذلك لأنهم يفعلونها رياء وسمعة ، ولو أرادوا بذلك القليل وجه الله تعالى لكان كثيرا ، وقال قتادة : إنما قَلَّ ذكر المنافقين لأن الله تعالى لم يقبله وكل ما قبل الله فهو كثير .

[143] { مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ } أي : مترددين متحيرين بين الكفر والإيمان ، { لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ } أي : ليسوا من المؤمنين فيجب لهم ما يجب للمؤمنين ، وليسوا من الكفار فيؤخذ منهم ما يؤخذ من الكفار ، { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا } ، أي : طريقا إلى الهدى .

[144] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } ، نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار ، وقال : { أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا } أي حجة بينة في عذابكم ، ثم ذكر منازل المنافقين ، فقال جل ذكره :

[145] { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ } ، قرأ أهل الكوفة (في الدَّرْك) بسكون الراء والباقون بفتحها وهما لغتان كالظعْن والظعَن والنهْر والنهَر ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : { فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ } في توابيت من حديد مقفلة في النار ، وقال أبو هريرة : بيت مقفل عليهم تتوقد فيه النار من فوقهم ومن تحتهم ، { وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا } مانعا من العذاب .

[146] { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا } من النفاق وآمنوا { وَأَصْلَحُوا } عملهم { وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ } وثقوا بالله { وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ } أراد الإخلاص بالقلب ، لأن النفاق كفر القلب ، فزواله يكون بإخلاص القلب ، { فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ } قال

الفراء : من المؤمنين { وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ } في الآخرة { أَجْرًا عَظِيمًا } يعني : الجنة ، وحذفت الياء من (يؤت) في الخط لسقوطها في اللفظ ، وسقوطها في اللفظ لسكون اللام في (الله) .

[147] قوله تعالى : { مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ } أي : إن شكرتم نعماءه { وَآمَنْتُمْ } به ، فيه تقديم وتأخير ، تقديره : إن آمنتم وشكرتم ، لأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان ، وهذا استفهام بمعنى التقرير معناه إنه لا يعذب المؤمن الشاكر ، فإن تعذيبه عباده لا يزيد في ملكه ، وتركه عقوبتهم على فعلهم لا ينقص من سلطانه ، والشكر : ضد الكفر والكفر ستر النعمة ، والشكر إظهارها ، { وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا } فالشكر من الله تعالى هو الرضى بالقليل من عباده وإضعاف الثواب عليه ، والشكر من العبد الطاعة ، ومن الله : الثواب .

[148] قوله : { لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ } يعني : لا يحب الله الجهر بالقبح من القول إلا من ظلم ، فيجوز للمظلوم أن يخبر عن الظالم وأن يدعو عليه ، قال الله تعالى : { وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ } ، قال الحسن : دعاؤه عليه أن يقول : اللهم أعني عليه اللهم استخرج حقي منه ، وقيل : إن شتم جاز أن يشتم بمثله لا يزيد عليه وقرأ الضحاك بن مزاحم وزيد بن أسلم : (إلا من ظلم) بفتح الظاء واللام ، معناه : لكن الظالم اجهروا له بالسوء من القول ، وقيل معناه : لا يحب الله الجهر بالسوء من القول لكن يجهره من ظلم ، والقراءة هي المعروفة ، { وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا } لدعاء المظلوم ، { عَلِيمًا } بعقاب الظالم .

[149] قوله تعالى : { إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا } يعني : حسنة فيعمل بها كتبت له عشرا ، وإن همَّ بها ولم يعملها كتبت له حسنة واحدة ، وهو قوله : { أَوْ تُخْفُوهُ } ، وقيل المراد من الخير : المال ، يريد : إن تبدوا صدقة تعطونها جهرا أو تخفوها فتعطوها سرًّا ، { أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ } أي : عن مظلمة ، { فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا } فهو أولى بالتجاوز عنكم يوم القيامة .
[150] قوله عز وجل : { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ } الآية ، نزلت في اليهود وذلك أنهم آمنوا بموسى عليه السلام والتوراة وعُزير ، وكفروا بعيسى والإنجيل وبمحمد والقرآن ، { وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا } أي : دينا بين اليهودية والإسلام ومذهباً يذهبون إليه .
[151] { أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا } حقق كفرهم ليعلم أن الكفر ببعضهم كالكفر بجميعهم { وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا } .

[152] { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ } كلهم { وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ } ، يعني : بين الرسل وهم المؤمنون ، يقولون : لا نفرق بين أحد من رسله ، { أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ } ، بإيمانهم بالله وكتبه ورسله ، قرأ حفص عن عاصم (يؤتيهم) بالياء ، أي : يؤتيهم الله ، والباقون بالنون ، { وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } .

[153] قوله تعالى : { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ } الآية ، وذلك أن كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازوراء من اليهود قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كنت نبيا فأتنا بكتاب جملة من السماء كما أتى به موسى عليه السلام ، فأنزل

الله عليه : { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ } ، وكان هذا السؤال منهم سؤال تحكم واقتراح ، لا سؤال انقياد ، والله تعالى لا ينزل الآيات على اقتراح العباد . قوله : { فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ } أي : أعظم من ذلك ، يعني : السبعين الذي خرج بهم موسى عليه السلام إلى الجبل ، { فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً } أي : عيانا ، قال أبو عبيدة : معناه قالوا جهرة أرنا الله ، { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ } يعني إلها ، { مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ } ، ولم نستأصلهم ، قيل : هذا استدعاء إلى التوبة ، معناه : أن أولئك الذين أجرموا تابوا فعفونا عنهم ، فتوبوا أنتم حتى نعفو عنكم ، { وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا } أي : حجة بينة من

المعجزات ، وهي الآيات التسع .
[154] { وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ } قرأ أهل المدينة بتشديد الدال وفتح العين نافع برواية ورش ويجزمها الآخرون ، ومعناه : لا تعتدوا ولا تظلموا باصطياد الحيتان فيه ، { وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا } .

[155] قوله تعالى : { فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ } أي : فبنقضهم ، و (ما) صلة كقوله تعالى : { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ } ونحوها ، { وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ } أي : ختم عليها ، { فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا }{ قَلِيلًا } ، يعني : ممن كذب الرسل لا ممن طبع على قلبه ، لأن من طبع الله على قلبه لا يؤمن أبدا ، وأراد بالقليل : عبد الله بن سلام وأصحابه ، وقيل : معناه لا يؤمنون قليلا ولا كثيرا .
[156] { وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا } حين رموها بالزنا .

[157] { وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ } وذلك أن الله تعالى ألقى شبه عيسى عليه السلام على الذي دل اليهود عليه ، وقيل : إنهم حبسوا عيسى عليه السلام في بيت وجعلوا عليه رقيبا فألقى الله تعالى شبه عيسى عليه السلام على الرقيب فقتلوه ، وقيل غير ذلك ، كما ذكرنا في سورة آل عمران . قوله تبارك وتعالى : { وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ } في قتله ، { لَفِي شَكٍّ مِنْهُ } ، أي : في قتله ، قال الكلبي : اختلافهم فيه هو أن اليهود قالت : نحن قتلناه ، وقالت طائفة من النصارى : نحن قتلناه ، وقالت طائفة منهم : ما قتله هؤلاء ولا هؤلاء بل رفعه الله إلى السماء ، ونحن ننظر إليه ، قال السدي : اختلافهم من حيث إنهم قالوا : إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ قال الله تعالى : { مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ } ، من حقيقة أنه قتل أو لم يقتل ، { إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ } لكنهم يتبعون الظن في قتله . قال الله جل جلاله : { وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا } ، أي : ما قتلوا عيسى يقينا .

[158] { بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ } وقيل : قوله { يَقِينًا } ترجع إلى ما بعده وقوله { وَمَا قَتَلُوهُ } كلام تام تقديره : بل رفعه الله إليه يقينا ، والهاء في (ما قتلوه) كناية عن عيسى عليه السلام ، وقال الفراء رحمه الله : معناه وما قتلوا الذين ظنوا أنه عيسى يقينا ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما معناه : وما قتلوا ظنهم يقينا ، { وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا } منيعا بالنقمة من اليهود ، { حَكِيمًا } حكم باللعنة والغضب عليهم .

[159] قوله تعالى : { وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ } ، أي : وما من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام ، هذا قول أكثر المفسرين وأهل العلم ، وقوله { قَبْلَ مَوْتِهِ } اختلفوا في هذه الكناية ، فقال عكرمة ومجاهد والضحاك والسدي : إنها كناية عن الكتابي ، ومعناه : وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام قبل موته ، إذا وقع في اليأس حين لا ينفعه إيمانه سواء احترق أو غرق أو تردى في بئر أو سقط عليه جدار أو أكله سبع أو مات فجأة ، وهذه رواية عن ابن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهم . قال : فقيل لابن عباس رضي الله عنهما : أرأيت أن من خر من فوق بيت ؟ قال : يتكلم به في الهواء , قال : فقيل أرأيت إن ضرب عنق أحدهم ؟ قال : يتلجلج به لسانه ، وذهب قوم إلى أن الهاء في (موته) كناية عن عيسى عليه السلام ، معناه : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى عليه السلام ، وذلك عند نزوله من السماء في آخر الزمان فلا يبقى أحد إلا آمن به حتى تكون الملة واحدة ، ملة الإسلام . وروينا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يوشك أن ينزل

فيكم ابن مريم حكما عدلا يكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، ويهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويقتل الدجال فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون » (1) ، وقال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : { وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ } قبل موت عيسى ابن مريم ، ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات . وروي عن عكرمة : أن الهاء في قوله { لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ } كناية عن محمد صلى الله عليه وسلم , يقول : لا يموت كتابي حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : هي راجعة إلى الله عز وجل يقول : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمن بالله عز وجل ، قبل موته عند المعاينة حين لا ينفعه إيمانه ، قوله تعالى : { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ } ، يعني : عيسى عليه السلام ، { عَلَيْهِمْ شَهِيدًا } أنه قد بلغهم رسالة ربه ، وأقر بالعبودية على نفسه ، كما قال تعالى مخبرا عنه { وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ } وكل نبي شاهد على أمته قال الله تعالى : { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى

(1) متفق عليه .

هَؤُلَاءِ شَهِيدًا } .

[160] قوله عز وجل { فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا } وهو ما تقدم ذكره من نقضهم الميثاق وكفرهم بآيات الله وبهتانهم على مريم ، وقولهم : إنا قتلنا المسيح { حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ } وهي ما ذكر في سورة الأنعام ، فقال : { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ } ، ونظم الآية : فبظلم من الذين هادوا وهو ما ذكرنا ، { وَبِصَدِّهِمْ } وبصرفهم أنفسهم وغيرهم ، { عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا } أي : عن دين الله صدا كثيرا .

[161] { وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ } في التوراة { وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ } من الرشا في الحكم والمآكل التي يصيبونها من عوامهم ، عاقبناهم بأن حرمنا عليهم طيبات ، وكانوا كلما ارتكبوا كبيرة حُرِّم عليهم شيء من الطيبات التي كانت حلالا لهم ، قال الله تعالى : { ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } ، { وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } .

[162] { لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ } ، يعني : ليس كل أهل الكتاب بهذه الصفة ، لكن الراسخون المبالغون في العلم منهم أولو البصائر ، وأراد به الذين أسلموا من علماء اليهود مثل عبد الله بن سلام وأصحابه ، { وَالْمُؤْمِنُونَ } يعني : المهاجرون والأنصار ، { يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ } يعني : القرآن ، { وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ } يعني : سائر الكتب المنزلة ، { وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ } اختلفوا في وجه انتصابه ، فقيل : هو نصب على المدح ، وقيل : نصب على إضمار فعل تقديره : أعني المقيمين الصلاة وهم المؤتون الزكاة ، وقيل : موضعه خفض ، واختلفوا في وجهه ، فقال بعضهم : معناه لكن الراسخون في العلم منهم ومن المقيمين الصلاة ، وقيل : معناه يؤمنون بما أنزل إليك وإلى المقيمين الصلاة ، ثم قوله : { وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } رجوع إلى النسق الأول ، { وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا } .

[163] قوله تعالى : { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } هذا بناء على ما سبق من قوله : { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ } ، فلما ذكر الله عيوبهم وذنوبهم غضبوا وجحدوا كل ما أنزل الله عز وجل ، وقالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فنزل : { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ } , وأنزل : { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } ، { كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ } فذكر عدة من الرسل الذين أوحى إليهم ، وبدأ بذكر نوح عليه السلام لأنه كان أبا البشر مثل آدم عليه السلام ، قال الله تعالى : { وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ } ولأنه أول نبي من أنبياء الشريعة ، وأول نذير على الشرك ، وأول من عذبت أمته لردهم دعوته ، وأهلك أهل الأرض جميعا بدعائه وكان أطول الأنبياء عمرا وجعلت معجزته في نفسه ، لأنه عمّر ألف سنة فلم تسقط له سن ولم تشب له شعرة ولم ينتقص له قوة ، ولم يصبر نبي على أذى قومه ما صبر هو على طول عمره . قوله تعالى : { وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ } وهم أولاد يعقوب ، { وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا } ، قرأ الأعمش وحمزة (زُبُورا) والزُّبور بضم الزاي حيث كان ، بمعنى : جمع زبور ، أي آتينا داود كتبا وصحفا مزبورة ، أي : مكتوبة ، وقرأ الآخرون بفتح الزاي وهو اسم الكتاب الذي أنزل الله تعالى على داود عليه السلام ، وكان فيه التحميد والتمجيد والثناء على الله عز وجل .

[164] قوله تعالى : { وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ } أي : وكما أوحينا إلى نوح وإلى الرسل ، (رسلا) نصب بنزع حرف الصفة ، وقيل : معناه وقصصنا عليك رسلا ، وفي قراءة أبي (ورسل قد قصصناهم عليك من قبل) ، { وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } قال الفراء : العرب تسمي ما يوصل إلى الإنسان كلاما بأي طريق وصل ، ولكن لا تحققه بالمصدر فإذا حقق بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام كالإرادة يقال : أراد فلان إرادة ، يريد حقيقة الإرادة ، ويقال : أراد الجدار ، ولا يقال أراد الجدار إرادة لأنه مجاز غير حقيقة .

[165] قوله تعالى : { رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } فيقولوا : ما أرسلت إلينا رسولا وما أنزلت إلينا كتابا ، وفيه دليل على أن الله تعالى لا يعذب الخلق قبل بعثة الرسول ، قال الله تعالى : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } ، { وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } .

[166] قوله تعالى : { لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ } قال ابن عباس رضي

الله عنهما « أن رؤساء مكة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد سألنا عنك اليهود وعن صفتك في كتابهم فزعموا أنهم لا يعرفونك ، ودخل عليه جماعة من اليهود فقال لهم : إني والله أعلم أنكم لتعلمن أني رسول الله ، فقالوا : ما نعلم ذلك والله ، فأنزل الله عز وجل : { لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ } إن جحدوك وكذبوك ، { أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا }» .

[167] { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } بكتمان نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، { قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا } .
[168] { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا } , قيل : إنما قال (وظلموا) أتبع ظلمهم بكفرهم تأكيدا ، وقيل : معناه كفروا بالله وظلموا محمدا صلى الله عليه وسلم بكتمان نعته ، { لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا } يعني : دين الإسلام .
[169] { إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ } يعني : اليهودية { خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا } ، وهذا في حق من سبق حكمه فيهم أنهم لا يؤمنون .
[170] { يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ } ، تقديره : فآمنوا يكن الإيمان خيرا لكم ، { وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } .

[171] { يا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ } نزلت في النصارى وهم أصناف أربعة : اليعقوبية والملكانية والنسطورية والمرقسية ، فقالت اليعقوبية : عيسى هو الله ، وكذلك الملكانية ، وقالت النسطورية : عيسى هو ابن الله ، وقالت المرقسية ثالث ثلاثة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، ويقال الملكانية يقولون : عيسى هو الله ، واليعقوبية يقولون : ابن الله والنسطورية يقولون : ثالث ثلاثة عليهم رجل من اليهود يقال له بولس ، سيأتي في سورة التوبة إن شاء الله تعالى . وقال الحسن يجوز أن تكون نزلت في اليهود والنصارى فإنهم جميعا غلوا في أمر عيسى ، فاليهود بالتقصير ، والنصارى مجاوزة الحد ، وأصل الغلو مجاوزة الحد ، وهو في الدين حرام ، قال الله تعالى : (لا تغلوا في دينكم) لا تشددوا في دينكم فتفتروا على الله الكذب { وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ } لا تقولوا أن له شريكا وولدا { إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ } وهي قوله (كن) فكان بشرا من غير أب ، وقيل غيره ، { أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ } أي أعلمها وأخبرها بها ، كما يقال : ألقيت إليك كلمة حسنة ، {

وَرُوحٌ مِنْهُ } ، قيل : هو روح كسائر الأرواح إلا أن الله تعالى أضافه إلى نفسه تشريفا ، وقيل : الروح هو النفخ الذي نفخه جبريل عليه السلام في درع مريم فحملته بإذن الله تعالى ، سمي النفخ روحا لأنه ريح يخرج من الروح وأضافه إلى نفسه لأنه كان بأمره ، وقيل : روح منه أي ورحمة ، فكان عيسى عليه السلام رحمة لمن تبعه وآمن به ، وقيل : الروح الوحي أوحى إلى مريم بالبشارة وإلى جبريل عليه السلام أن كن فكان كما قال الله تعالى : { يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ } يعني : بالوحي ، وقيل : أراد بالروح جبريل عليه السلام ، معناه كلمته ألقاها إلى مريم ، وألقاها أيضا روح منه بأمره وهو جبريل عليه السلام ، كما قال : { تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ } يعني : جبريل فيها ، وقال : { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا } ، يعني : جبريل . { فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ } أي : ولا تقولوا هم ثلاثة ، وكانت النصارى تقول أب وابن وروح القدس ،

{ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ } تقديره : انتهوا يكن الانتهاء خيرا لكم ، { إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ

وَلَدٌ } واعلم أن التبني لا يجوز لله تعالى ، لأن التبني إنما يجوز لمن يتصور له ولد ، { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } .

[172] قوله تعالى : { لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ } وذلك « أن وفد نجران قالوا : يا محمد إنك تعيب صاحبنا فتقول إنه عبد الله ورسوله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنه ليس بعار لعيسى عليه السلام أن يكون عبد الله " , فنزل : { لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ }» لن يأنف ولن يتعظم ، والاستنكاف : التكبر مع الأنفة ، { وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ } وهم حملة العرش ، لا يأنفون أن يكونوا عبيدا لله ، ويستدل بهذه الآية من يقول بتفضيل الملائكة على البشر ، لأن الله تعالى ارتقى من عيسى إلى الملائكة ولا يُرتقى إلا إلى الأعلى ، لا يقال : لا يستنكف فلان من هذا ولا عبده ، إنما يقال : فلان لا يستنكف من هذا ولا مولاه ، ولا حجة لهم فيه لأنه لم يقل ذلك رفعا لمقامهم على مقام البشر ، بل ردًّا على الذين يقولون الملائكة آلهة ، كما رد على النصارى قولهم المسيح ابن الله ، وقال ردًّا على النصارى بزعمهم ، فإنهم يقولون بتفضيل الملائكة .

قوله تعالى : { وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا } ، قيل : الاستنكاف هو التكبر مع الأنفة ، والاستكبار هو العلو والتكبر من غير أنفة .

[173] { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ } من تضعيف ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، { وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا } عن عبادته { فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } .
[174] قوله عز وجل : { يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ } يعني : محمدا صلى الله عليه وسلم ، هذا قول أكثر المفسرين ، وقيل : هو القرآن ، والبرهان : الحجة ، { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا } بيِّنًا يعني القرآن .

[175] { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ } امتنعوا به من زيغ الشيطان ، { فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ } يعني الجنة ، { وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا }{ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }

[176] قوله تعالى : { يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ } نزلت في جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، قال : عادني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لا أعقل ، وتوضأ وصب علي من وضوئه ، فعقلتُ فقلت : يا رسول الله لمن الميراث إنما يرثني كلالة ؟ فنزلت { يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ } , وقد ذكرنا معنى الكلالة وحكم الآية في أول السورة ، وفي هذه الآية بيان حكم ميراث الإخوة للأب والأم وللأب ، قوله { يَسْتَفْتُونَكَ } أي : يستخبرونك ويسألونك ، { قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ } ، { إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا } يعني إذا ماتت الأخت فجميع ميراثها للأخ ،

{ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ } فإن كان لها ابن فلا شيء للأخ ، وإن كان ولدها أنثى فللأخ ما فضل عن فرض البنات ، { فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ } أراد اثنتين فصاعدا وهو أن من مات وله أخوات فلهن الثلثان ، { وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ

الْأُنْثَيَيْنِ } ، { يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا } , قال الفراء رحمة الله عليه وأبو عبيدة : معناه أن لا تضلوا ، وقيل : معناه يبين الله لكم كراهة أن تضلوا ، { وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } .

(5) سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم [1] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ } أي : بالعهود ، قال الزجاج : هي أوكد العهود ، يقال : عاقدتُ فلانا وعقدتُ عليه أي : ألزمتُه ذلك باستيثاق ، وأصله من عقد الشيء بغيره ووصله به ، كما يُعقد الحبل بالحبل إذا وُصل ، واختلفوا في هذه العقود ، قال ابن جريج : هذا خطاب لأهل الكتاب ، يعني : يا أيها الذين آمنوا بالكتب المتقدمة أوفوا بالعهود التي عهدتُها إليكم في شأن محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله : { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ } ، وقال الآخرون : هو عام ، قال قتادة : أراد بها الحلف الذي تعاقدوا عليه في الجاهلية ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : هي عهود الإيمان والقرآن ، وقيل : هي العقود التي يتعاقدها الناس بينهم ، { أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ } , قال الحسن وقتادة : هي الأنعام كلها ، وهي الإبل والبقر والغنم ، وأراد تحليل ما حرّم أهل الجاهلية على أنفسهم من الأنعام . وروى أبو ظبيان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بهيمة الأنعام هي الأجنّة ، ومثله عن الشعبي قال : هي

الأجنّة التي توجد ميتة في بطون أمهاتها إذا ذُبحت أو نحرت ، فذهب أكثر أهل العلم إلى تحليله ، فعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ذكاة الجنين ذكاة أمه » (1) . وشرط بعضهم الإشعار ، قال ابن عمر : ذكاة ما في بطنها في ذكاتها إذا تم خلقُه ونبت شعرُه ، ومثله عن سعيد بن المسيب ، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه لا يحل أكل الجنين إذا خرج ميتا بعد ذكاة الأم . وقال الكلبي : بهيمة الأنعام وَحْشِيُّها وهي الظباء وبقر الوحش وحُمر الوحش , سميت بهيمة لأنها أبهمت عن التمييز , وقيل : لأنها لا نطق لها ، { إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ } أي : ما ذُكر في قوله : { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ } إلى قوله : { وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ } ، { غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ } ، وهو نصب على الحال ، أي : لا مُحلّي الصيد ، ومعنى الآية : أحلت لكم بهيمة الأنعام كلها إلا ما كان منها وحشيا فإنه صيد لا يحل لكم في حال الإحرام ، فلذلك قال تعالى : { وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ } .

---

(1) رواه أبو داود في سننه في كتاب الأضاحي باب ما جاء في ذكاة الجنين 4 / 119 , والترمذي في كتاب الصيد / 10 , وابن ماجه في الذبائح / 15 , والدارمي في الأضاحي / 17 , والإمام أحمد ج 3 / 31 ، 39 , 45 ، 53 . والمصنف في شرح السنة 11 / 229 , قال المنذري في إسناده عبد الله بن أبي زياد المكي القداح وفيه مقال ، وقال الهيثمي : فيه حماد بن شعيب وهو ضعيف , وصححه الألباني في إرواء الغليل 8 / 172 لشواهده .

[2] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ } قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد : هي مناسك الحج ، وكان المشركون يحجون ويهدون ، فأراد المسلمون أن يُغِيروا عليهم فنهاهم الله عن ذلك . وقال أبو عبيدة : شعائر الله هي الهدايا المُشْعَرة ، والإشعار من الشعار ، وهي العلامة ، وأشعارها : أعلامها بما يُعرف أنها هَدْي ، والإشعار هاهنا : أن يطعن في صفحة سنام البعير بحديدة حتى يسيل الدم ، فيكون ذلك علامة أنها هدي ، وهي سنة في الهدايا إذا كانت من الإبل ، وقال عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما : لا تحلوا شعائر الله هي أن تصيد وأنت محرم ، بدليل قوله تعالى : { وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا } ، وقال السدي : أراد حرم الله ، وقيل : المراد منه النهي عن القتل في الحرم ، وقال عطاء : شعائر الله حرمات الله واجتناب سخطه واتباع الطاعة ، وقوله : { وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ } أي : بالقتال فيه ، وقال ابن زيد : هو النسيء ، وذلك أنهم كانوا يُحِلّونه عاما ويُحرّمونه عاما ، { وَلَا الْهَدْيَ } هو كل ما يُهدى إلى بيت الله من بعير أو بقرة أو شاة ، { وَلَا الْقَلَائِدَ } أي : الهدايا المقلدة ،

يريد ذوات القلائد ، وقال عطاء : أراد أصحاب القلائد ، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا أرادوا الخروج من الحرم قلّدوا أنفسهم وإبلهم بشيء من لِحاء شجر الحرم كيلا يُتعرّض لهم ، فنهى الشرع عن استحلال شيء منها . وقال مطرف بن الشخير : هي القلائد نفسها وذلك أن المشركين كانوا يأخذون من لِحاء شجر مكة ويُتقلدونها فنهوا عن نزع شجرها . قوله تعالى : { وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ } أي : قاصدين البيت الحرام ، يعني : الكعبة فلا تتعرضوا لهم ، { يَبْتَغُونَ } يطلبون { فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ } يعني الرزق بالتجارة ، { وَرِضْوَانًا } أي : على زعمهم ، لأن الكافرين لا نصيب لهم في الرضوان ، وقال قتادة : هو أن يصلح معايشهم في الدنيا ولا يعجل لهم العقوبة فيها , وقيل ابتغاء الفضل للمؤمنين والمشركين عامة ، وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصة ، لأن المسلمين والمشركين كانوا يحجون ، وهذه الآية إلى هاهنا منسوخة بقوله : { فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ } وبقوله : { فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا } ، فلا يجوز أن يحج مشرك ولا أن يأمن كافر بالهدي والقلائد . قوله عز وجل :

{ وَإِذَا حَلَلْتُمْ } أي : من إحرامكم ، { فَاصْطَادُوا } أمر إباحة ، أباح للحلال أخذ الصيد ، كقوله تعالى : { فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ } ، { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة : لا يحملنكم ، يقال : جرمني فلان على أن صنعت كذا ، أي حملني ، وقال الفراء : لا يكسبنكم ، يقال : جرم أي : كسب ، وفلان جريمة أهله ، أي : كاسبهم ، وقيل : لا يدعونّكم ، { شَنَآنُ قَوْمٍ } أي : بغضهم وعداوتهم وهو مصدر شنئت { أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } ، قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الألف على الاستئناف ، وقرأ الآخرون بفتح الألف ، أي : لأن صدوكم ، ومعنى الآية : ولا يحملنكم عداوة قوم على الاعتداء لأنهم صدوكم . وقال محمد بن جرير : لأن هذه السورة نزلت بعد قضية الحديبية ، وكان الصد قد تقدم ، { أَنْ تَعْتَدُوا } عليهم بالقتل وأخذ الأموال ، { وَتَعَاوَنُوا } أي : ليعنْ بعضكم بعضا ، { عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى } قيل : البر متابعة الأمر ، والتقوى مجانبة النهي ، وقيل : البر : الإسلام ، والتقوى : السنّة ، { وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ

وَالْعُدْوَانِ } ، قيل : الإثم : الكفر ، والعدوان : الظلم ، وقيل : الإثم : المعصية ، والعدوان : البدعة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " البر حسن الخلق

، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس " (1) , { وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } .

____
(1) أخرجه مسلم في البر والصلة باب تفسير البر والإثم رقم (2553) 4 / 1980 , والمصنف في شرح السنة 13 / 76 .

[3] { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ } أي : ما ذُكر على ذبحه اسم غير اسم الله تعالى ، { وَالْمُنْخَنِقَةُ } وهي التي تخنق فتموت ، قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة حتى إذا ماتت أكلوها ، { وَالْمَوْقُوذَةُ } هي المقتولة بالخشب ، قال قتادة : كانوا يضربونها بالعصا فإذا ماتت أكلوها , { وَالْمُتَرَدِّيَةُ } هي التي تتردى من مكان عال أو في بئر فتموت ، { وَالنَّطِيحَةُ } هي التي تنطحها أخرى فتموت { وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ } يريد ما بقي مما أكل السبع ، وكان أهل الجاهلية يأكلونه ، { إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ } ، يعني إلا ما أدركتم ذكاته من هذه الأشياء ، وأصل التذكية الإتمام ، يقال : ذكّيتُ النارَ إذا أتممتُ اشتعالها ، والمراد هنا : إتمام فري الأوداج وإنهار الدم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكل غير السن والظفر » (1) , { وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ } ، قيل : النصب جمع ، واحده نصاب ، وقيل : هو واحد وجمعه أنصاب مثل عنق وأعناق ، وهو الشيء المنصوب , واختلفوا فيه ، فقال مجاهد وقتادة : كانت

____
(1) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد باب ما أنهر الدم 9 / 631 ، ومسلم في الأضاحي باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم رقم (1968) 3 / 1558 .

حول البيت ثلاثمائة وستون حجرا منصوبة ، كان أهل الجاهلية يعبدونها ويُعظّمونها ويذبحون لها ، وليست هي بأصنام إنما الأصنام هي المُصوّرة المنقوشة ، وقال الآخرون : هي الأصنام المنصوبة ، ومعناه : وما ذبح على اسم النُّصب ، قال ابن زيد : { وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ } ما أهل لغير الله به : هما واحد ، قال قطرب : على بمعنى اللام أي : وما ذُبح لأجل النُّصب ، { وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ } أي : وحرّم عليكم الاستقسام بالأزلام ، والاستقسام هو طلب القسم والحكم من الأزلام ، والأزلام هي : القداح التي لا ريش لها ولا نَصْل ، واحدها : زَلْم , وزُلْم ، بفتح الزاي وضمها { ذَلِكُمْ فِسْقٌ } قال سعيد بن جبير : الأزلام حصى بيض كانوا يضربون بها ، وقال مجاهد : هي كعاب فارس والروم التي يتقامرون بها ، وقال الشعبي وغيره : الأزلام للعرب ، والكعاب للعجم ، وقال سفيان بن وكيع : هي الشطرنج { الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ } يعني : أن ترجعوا إلى دينهم كفارا ، وذلك أن الكفار كانوا يطمعون في عَوْد المسلمين إلى دينهم فلما قوي الإسلام يئسوا ، ويئس وأيس بمعنى واحد ، { فَلَا تَخْشَوْهُمْ

وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } ، نزلت هذه الآية يوم الجمعة يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع ، والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العضباء ، فكادت عضد الناقة تندق من ثقلها فبركت ، وكانت هذه الآية نعي النبي صلى الله عليه وسلم وعاش بعدها إحدى وثمانين يوما . قوله عز وجل : { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ } يعني : يوم نزول هذه الآية أكملت لكم دينكم ، يعني الفرائض والسنن والحدود والجهاد والأحكام والحلال والحرام ، فلم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا

حرام ، ولا شيء من الفرائض والسنن والحدود والأحكام هذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما ، ويروى عنه أن آية الربا نزلت بعدها ، وقال سعيد بن جبير وقتادة : أكملت لكم دينكم فلم يحج معكم مشرك ، وقيل : أظهرت دينكم وأمّنتكم من العدو ، وقوله عز وجل : { وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي } ، يعني : وأنجزت وعدي في قوله : { وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ } ، فكان من تمام نعمته أن دخلوا مكة آمنين وعليها ظاهرين ، وحجوا مطمئنين لم يخالطهم أحد من المشركين

، { وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } , قوله عز وجل : { فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ } أي : أجهد في مجاعة ، والمخمصة خلو البطن من الغذاء ، يقال : رجل خميص البطن إذا كان طاويا خاويا ، { غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ } أي : مائل إلى إثم ، وهو أن يأكل فوق الشبع ، وقال قتادة : غير متعرض لمعصية في مقصده ، { فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } , وفيه إضمار , أي : فأكله فإن الله غفور رحيم .

[4] قوله : { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ } الآية ، قال سعيد بن جبير : نزلت هذه الآية في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله زيد الخير ، قالا : يا رسول الله إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة فماذا يحل لنا منها ؟ فنزلت هذه الآية ، وقيل : سبب نزولها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر بقتل الكلاب قالوا : يا رسول الله ماذا يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها ؟ فنزلت هذه الآية ، فلما نزلت أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في اقتناء الكلاب التي ينتفع بها ، ونهى عن إمساك ما لا نفع فيه منها والأول أصح في سبب نزول الآية : { قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ } يعني : الذبائح على اسم الله تعالى ، وقيل : كل ما تستطيبه العرب وتستلذه من غير أن يرد بتحريمه نص من كتاب أو سنة { وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ } يعني وأحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح ، واختلفوا في هذه الجوارح ، فقال الضحاك والسدي : هي الكلاب دون غيرها ، ولا يحل ما صاده غير الكلب إلا أن تدرك ذكاتَه ، وهذا غير معمول به ، بل عامة أهل العلم على أن المراد من الجوارح الكواسب من سباع البهائم كالفهد

والنمر والكلب ، ومن سباع الطير كالبازي والعُقاب والصقر ونحوها مما يقبل التعليم ، فيحل صيدُ جميعها ، سميت جارحة : لجرحها لأربابها أقواتهم من الصيد ، أي : كسبها ، يقال : فلان جارحة أهله ، أي : كاسبهم ، { مُكَلِّبِينَ } والمكلب الذي يغري الكلاب على الصيد ، ويقال للذي يعلمها أيضا : مكلب ، والكلّاب : صاحب الكلاب ، ويقال للصائد بها أيضا : كلاب ، ونصب مكلبين على الحال ، أي : في حال تكليبكم هذه الجوارح أي إغرائكم إياها على الصيد ، وذكر الكلاب لأنها أكثر وأعم ، والمراد جميع جوارح الصيد { تُعَلِّمُونَهُنَّ } ، تؤدبونهن آداب أخذ الصيد ، { مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ } أي : من العلم الذي علمكم الله ، قال السدي : أي كما علمكم الله ، (من) بمعنى الكاف ، { فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ } أراد أن الجارحة المعلمة إذا خرجت بإرسال صاحبها فأخذت الصيد وقتلته كان حلالا ، والتعليم هو أن يوجد فيها ثلاثة أشياء : إذا أشليتْ استشلتْ ، وإذا زُجرتْ انزجرتْ ، وإذا أخذت الصيد أمسكت ولم تأكل ، وإذا وجد ذلك منه مرارا - وأقلها بثلاث مرات - كانت معلّمة ، يحل قتلها إذا خرجت

بإرسال صاحبها { وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } فيه بيان أن ذكر اسم الله عز وجل على الذبيحة شرط حالةَ ما يُذبح ، وفي الصيد حالة ما يرسل الجارحة أو السهم .

[5] قوله عز وجل : { الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ } ، يعني : الذبائح على اسم الله عز وجل ، { وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ } يريد ذبائح اليهود والنصارى ومن دخل في دينهم من سائر الأمم ، قوله عز وجل : { وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ } ، فإن قيل : كيف شرع لهم حل طعامنا وهم كفار ليسوا من أهل الشرع ؟ قال الزجاج : معناه حلال لكم أن تطعموهم فيكون خطاب الحِل مع المسلمين ، وقيل : لأنه ذكر عقيبه حكم النساء ، ولم يذكر حل المسلمات لهم فكأنه قال : حلال لكم أن تطعموهم ، حرام عليكم أن تزوجوهم ، قوله عز وجل { وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ } ، هذا راجع إلى الأول منقطع عن قوله : { وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ } اختلفوا في معنى المحصنات فذهب أكثر العلماء إلى أن المراد منهن الحرائر ، وأجازوا نكاح كل حرة مؤمنة كانت أو كتابية فاجرة كانت أو عفيفة ، وهو قول مجاهد ، وقال هؤلاء : لا يجوز للمسلم نكاح الأمة الكتابية لقوله تعالى : { مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ } جوز نكاح الأمة بشرط

أن تكون الأمة مؤمنة وذهب قوم إلى أن المراد من المحصنات في الآية : العفائف من الفريقين حرائر كن أو إماء وأجازوا نكاح الأمة الكتابية ، وحرّموا البغايا من المؤمنات والكتابيات ، وهو قول الحسن ، وقال الشعبي : إحصان الكتابية أن تستعف من الزنا وتغتسل من الجنابة ، { إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ } غير معالنين بالزنا , { وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ } أي : غير مسرّين تسرونهن بالزنا ، قال الزجاج : حرّم الله الجماع على جهة السفاح وعلى جهة اتخاذ الصديقة ، وأحله على جهة الإحصان وهو التزوج { وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } قال مقاتل بن حيان : يقول ليس إحصان المسلمين إياهن بالذي يخرجهن من الكفر أو يغني عنهن شيئا وهي للناس عامة { وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } قال ابن عباس ومجاهد في معنى قوله تعالى : { وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ } أي : بالله الذي يجب الإيمان به ، وقال الكلبي : بالإيمان أي : بكلمة التوحيد وهي شهادة أن لا إله إلا الله ،

وقال مقاتل : بما أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن ، وقيل : من يكفر بالإيمان أي : يستحل الحرام ويحرم الحلال فقد حبط عمله ، وهو في الآخرة من الخاسرين ، قال ابن عباس : خسر الثواب .

[6] قوله عز وجل : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ } أي : إذا أردتم القيام إلى الصلاة ، وظاهر الآية يقتضي وجوب الوضوء عند كل مرة يريد القيام إلى الصلاة ، لكن علمنا ببيان السنة وفعل النبي صلى الله عليه وسلم أن المراد من الآية : { إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ } وأنتم على غير طُهر ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » (1) . وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق بين أربع صلوات بوضوء واحد ، وقال زيد بن أسلم : معنى الآية إذا قمتم إلى الصلاة من النوم ، وقال بعضهم : هو أمر على طريق الندب ، ندب من قام إلى الصلاة أن يجدد لها طهارته وإن كان على طهر ، قوله عز وجل : { فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ } وحدّ

الوجه من منابت شعر الرأس إلى منتهى الذقن طولا وما بين الأذنين عرضا يجب غسل جميعه في الوضوء ، قوله تعالى : { وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ } ، أي : مع المرافق ، كما قال الله تعالى : { وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ } أي : مع أموالكم ، وقال : { مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ } أي : مع الله ، قوله تعالى : {

---

(1) رواه البخاري في كتاب الحيل باب في الصلاة 12 / 329 ، ومسلم في الطهارة باب وجوب الطهارة للصلاة رقم (225) 1 / 204 .

وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ } اختلف العلماء في قدر الواجب من مسح الرأس فقال مالك : يجب مسح جميع الرأس كما يجب مسح جميع الوجه في التيمم ، وقال أبو حنيفة : يجب مسح ربع الرأس ، وعند الشافعي رحمه الله : يجب قدر ما يطلق عليه اسم المسح ، قوله عز وجل : { وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ } قرأ نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب وحفص { وَأَرْجُلَكُمْ } بنصب اللام ، وقرأ الآخرون وَأَرْجُلِكُمْ بالخفض ، فمن قرأ وَأَرْجُلَكُمْ بالنصب فيكون عطفا على قوله { فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ } أي : واغسلوا أرجلكم ، ومن قرأ بالخفض فقد ذهب قليل من أهل العلم إلى أنه يمسح على الرجلين ، وذهب جماعة أهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم إلى وجوب غسل الرجلين ، وقالوا : خفض اللام في الأرجل على مجاورة اللفظ لا على موافقة الحكم ، كما قال تبارك وتعالى : { عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ } ، فالأليم صفة العذاب ، ولكنه أخذ إعراب اليوم للمجاورة ، وكقولهم : جحر ضب خرب ، فالخراب نعت الجحر ، وأخذ إعراب الضب للمجاورة ، وقال بعضهم : أراد بقوله وأرجلكم المسح على الخفين . قوله تعالى : { إِلَى الْكَعْبَيْنِ } فالكعبان هما العظمان

الناتئان من جانبي القدمين ، وهما مجمع مفصل الساق والقدم ، فيجب غسلهما مع القدمين كما ذكرنا في المرفقين . قوله عز وجل : { وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا } أي : اغتسلوا ، قوله تعالى : { وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ } فيه دليل على أنه يجب مسح الوجه واليدين بالصعيد وهو التراب ، { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ } بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم , { مِنْ حَرَجٍ } ضيق ، { وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ } من الأحداث والجنابات والذنوب , { وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } قال محمد بن كعب القرظي : إتمام النعمة تكفير الخطايا بالوضوء كما قال الله تعالى : { لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ } ، فجعل تمام نعمته غفران ذنوبه .

[7] قوله تعالى : { وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } يعني : النعم كلها ، { وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ } عهده الذي عاهدكم به أيها المؤمنون ، { إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } وذلك حين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فيما أحبوا وكرهوا ، وهو قول أكثر المفسرين ، وقال مجاهد ومقاتل : يعني الميثاق الذي أخذ عليهم حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام ، { وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } بما في القلوب من خير وشر .
[8] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ } أي : كونوا له قائمين بالعدل قوّالين بالصدق ، أمرهم بالعدل والصدق في أعمالهم وأقوالهم ، { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ } ولا يحملنكم ، { شَنَآنُ قَوْمٍ } بغض قوم ، { عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا } أي : على ترك العدل فيهم لعداوتهم ، ثم قال : { اعْدِلُوا } يعني :

في أوليائكم وأعدائكم ، { هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى } ، يعني : إلى التقوى ، { وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } .

[9] { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ } ، وهذا في موضع النصب ، لأن فعل الوعد واقع على المغفرة ، ورفعها على تقدير أي : وقال لهم مغفرة وأجر عظيم .

[10] { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } .
[11] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } بالدفع عنكم ، { إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ } بالقتل { فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } .

[12] { وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا } وذلك أن الله عز وجل وعد موسى عليه السلام أن يورثه وقومه الأرض المقدسة وهي الشام ، وكان يسكنها الكنعانيون الجبارون ، فلما استقرت لبني إسرائيل الدار بمصر أمرهم الله تعالى بالسير إلى أريحاء من أرض الشام وهي الأرض المقدسة { وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ } ناصركم على عدوكم , ثم ابتدأ الكلام فقال : { لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ } يا معشر بني إسرائيل , { وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ } نصرتموهم , وقيل : وقّرتموهم وعظمتموهم , { وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا } , قيل : هو إخراج الزكاة , وقيل : هو النفقة على الأهل , { لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ } لأمحون عنكم سيئاتكم , { وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } أي : أخطأ قصد السبيل ، يريد طريق الحق ، وسواء كل شيء : وسطه .

[13] { فَبِمَا نَقْضِهِمْ } أي : فبنقضهم ، و (ما) صلة ، { مِيثَاقَهُمْ } ، قال قتادة : نقضوه من وجوه لأنهم كذبوا الرسل الذين جاؤوا بعد موسى وقتلوا أنبياء الله ونبذوا كتابه وضيعوا فرائضه ، { لَعَنَّاهُمْ } قال عطاء : أبعدناهم من رحمتنا ، قال الحسن ومقاتل : عذبناهم بالمسخ ، { وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً } ، قرأ حمزة والكسائي قسية بتشديد الياء من غير ألف ، وهما لغتان مثل الذاكية والذكية ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قاسية أي : يا بسة ، وقيل : غليظة لا تلين ، وقيل معناه : إن قلوبهم ليست بخالصة للإيمان بل إيمانهم مشوب بالكفر والنفاق ، ومنه الدراهم القاسية وهي الردية المغشوشة { يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ } قيل : هو تبديلهم نعت النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : تحريفهم بسوء التأويل ، { وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ } أي : وتركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبيان نعته ، { وَلَا تَزَالُ } ، يا محمد ، { تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ } أي : على خيانة ، فاعلة بمعنى المصدر كالكاذبة واللاغية ، وقيل : هو بمعنى الفاعل والهاء

للمبالغة مثل روّاية ونسابة وعلّامة وحسّابة ، وقيل : على فرقة خائنة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : على خائنة أي : على معصية ، وكانت خيانتهم نقضهم العهد ومظاهرتهم المشركين على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهمهم بقتله وسمه ، ونحوهما من خياناتهم التي ظهرت منهم ، { إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ } لم يخونوا ولم ينقضوا العهد وهم الذين أسلموا من أهل الكتاب ،

{ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ } أي : أعرض عنهم ولا تتعرض لهم ، { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } ، وهذا منسوخ بآية السيف .

[14] قوله عز وجل : { وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ } ، قيل : أراد بهم اليهود والنصارى فاكتفى بذكر أحدهما ، والصحيح أن الآية في النصارى خاصة لأنه قد تقدم ذكر اليهود ، وقال الحسن : فيه دليل على أنهم نصارى بتسميتهم لا بتسمية الله تعالى ، أخذنا ميثاقهم في التوحيد والنبوة ، { فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } بالأهواء المختلفة والجدال في الدين ، قال مجاهد وقتادة : يعني بين اليهود والنصارى ، وقال الربيع : هم النصارى وحدهم صاروا فرقا منهم اليعقوبية والنسطورية والملكانية وكل فرقة تكفّر الأخرى ، { وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } في الآخرة .

[15] قوله عز وجل : { يا أَهْلَ الْكِتَابِ } يريد : يا أهل الكتابين ، { قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ } ، أي : من التوراة والإنجيل مثل صفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم وغير ذلك ، { وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } ، أي : يعرض عن كثير مما أخفيتم فلا يتعرض له ولا يؤاخذكم به , { قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ } يعني : محمدا صلى الله عليه وسلم ، وقيل : الإسلام ، { وَكِتَابٌ مُبِينٌ } أي : بيّن ، وقيل : مبين وهو القرآن .
[16] { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ } رضاه ، { سُبُلَ السَّلَامِ } قيل : السلام هو الله عز وجل وسبيله دينه الذي شرع لعباده ، وبعث به رسله ، وقيل : السلام هو السلامة , كاللذاذ واللذاذة بمعنى واحد ، والمراد به طرق السلامة ، { وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } أي : من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، { بِإِذْنِهِ } بتوفيقه وهدايته ، { وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } وهو الإسلام .

[17] قوله تبارك وتعالى : { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ } ، وهم اليعقوبية من النصارى يقولون المسيح هو الله تعالى ، { قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا } أي : من يقدر أن يدفع من أمر الله شيئا إذا قضاه ؟ { إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .

[18] { وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ } ، قيل : أرادوا أن الله تعالى لنا كالأب في الحنو والعطف ، ونحن كالأبناء له في القرب والمنزلة ، وقال إبراهيم النخغي : إن اليهود وجدوا في التوراة يا أبناء أحباري فبدلوا يا أبناء أبكاري فمن ذلك قالوا : نحن أبناء الله ، وقيل : معناه نحن أبناء الله يعني أبناء رسل الله . قوله تعالى : { قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ } يريد إن كان الأمر كما زعمتم أنكم أبناؤه وأحباؤه فإن الأب لا يعذب ولده ، والحبيب لا يعذب حبيبه ، وأنتم مقرون أنه معذبكم ؟ وقيل : فلِمَ يعذبكم أي : لِمَ عذب من قبلكم بذنوبهم فمسخهم قردة وخنازير ؟ { بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ } كسائر بني آدم مجزيون بالإساءة والإحسان ، { يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ } فضلا , { وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ } عدلا ، { وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ } .

[19] { يا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا } محمد صلى الله عليه وسلم , { يُبَيِّنُ لَكُمْ } أعلام الهدى وشرائع الدين ، { عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ } أي انقطاع من الرسل ، واختلفوا في مدة الفترة بين عيسى عليه السلام ومحمد

صلى الله عليه وسلم ، قال أبو عثمان النهدي : ستمائة سنة ، وقال قتادة : خمسمائة وستون سنة ، وقال معمر والكلبي : خمسمائة وأربعون سنة ، وسميت فترة لأن الرسل كانت تترى بعد موسى عليه السلام من غير انقطاع إلى زمن عيسى عليه السلام ، ولم يكن بعد عيسى عليه السلام سوى رسولنا صلى الله عليه وسلم . { أَنْ تَقُولُوا } كيلا تقولوا ، { مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .

[20] قوله عز وجل : { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ } ، أي : منكم أنبياء ، أي : منكم أنبياء , { وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا } أي : فيكم ملوكا ، قال ابن عباس رضي الله عنهما ، يعني أصحاب خدم وحشم ، قال قتادة : كانوا أول من ملك الخدم ولم يكن لمن قبلهم خدم ، قال السدي : وجعلكم ملوكا أحرارا تملكون أمر أنفسكم بعدما كنتم في أيدي القبط يستعبدونكم ، وقال الضحاك : كانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية فمن كان مسكنه واسعا وفيه نهر جار فهو ملك { وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ } يعني عالمي زمانكم ، قال مجاهد : يعني المن والسلوى والحجر وتظليل الغمام .

[21] قوله تعالى : { يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ } اختلفوا في الأرض المقدسة , قال مجاهد : هي الطور وما حوله ، وقال الضحاك : إيليا وبيت المقدس ، وقال عكرمة والسدي : هي أريحاء ، وقال الكلبي : هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن ، وقال قتادة : هي الشام كلها ، قال كعب : وجدت في كتاب الله المنزل أن الشام كنز الله في أرضه وبها أكثر عباده ، قوله عز وجل : { كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ } يعني : كتب في اللوح المحفوظ أنها مساكن لكم ، وقال ابن إسحاق : وهب الله لكم ، وقيل : جعلها لكم ، قال السدي : أمركم الله بدخولها ، وقال قتادة : أمروا بها كما أمروا بالصلاة ، أي : فرض عليكم . { وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ } أعقابكم بخلاف أمر الله ، { فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ } قال الكلبي : صعد إبراهيم عليه السلام جبل لبنان فقيل له : انظر فما أدركه بصرك فهو مقدس وهو ميراث لذريتك .

[22] { قَالُوا يا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ } ، وذلك أن النقباء الذين خرجوا يتجسسون الأخبار لما رجعوا إلى موسى وأخبروه بما عاينوا ، قال لهم موسى : اكتموا شأنهم ولا تخبروا به أحدا من أهل العسكر فيفشلوا ، فأخبر كل رجل منهم قريبه وابن عمه إلا رجلين وفّيا بما قال لهما موسى فعلمت جماعة من بني إسرائيل ذلك ورفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا يا ليتنا في أرض مصر ، أو ليتنا نموت في هذه البرية ولا يدخلنا الله أرضهم فتكون نساؤنا وأولادنا وأثقالنا غنيمة لهم ، وجعل الرجل يقول لصاحبه : تعال نجعل علينا رأسا وننصرف إلى مصر ، فذلك قوله تعالى إخبارا عنهم { قَالُوا يا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ } ، أصل الجبار : المتعظم الممتنع عن القهر ، يقال : نخلة جبارة إذا كانت طويلة ممتنعة عن وصول الأيدي إليها ، وسمي أولئك القوم جبارين لامتناعهم بطولهم وقوة أجسادهم ، وكانوا من العمالقة وبقية قوم عاد ، فلما قال بنو إسرائيل ما قالوا وهموا بالانصراف إلى مصر خر موسى وهارون ساجدين ، وخرق يوشع وكالب

ثيابهما وهما اللذان أخبر الله تعالى عنهما في قوله :
[23] { قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ } أي : يخافون الله تعالى ، قرأ سعيد

بن جبير (يُخافون) بضم الياء ، وقال : الرجلان كانا من الجبارين فأسلما واتبعا موسى ، { أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا } بالتوفيق والعصمة قالا : { ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ } يعني : قرية الجبارين , { فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ } ، لأن الله منجز وعده ، وإنا رأيناهم فكانت أجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة ، فلا تخشوهم ، { وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } ، فأراد بنو إسرائيل أن يرجموهما بالحجارة وعصوهما .

[24] { قَالُوا يا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } فلما فعلت بنو إسرائيل ما فعلت من مخالفتهم أمر ربهم غضب موسى عليه السلام ودعا عليهم .
[25] { قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي } ، قيل معناه لا يملك إلا نفسه وقيل معناه لا يطيعني إلا نفسي وأخي ، { فَافْرُقْ } فافصل ، { بَيْنَنَا } قيل : فاقض بيننا ، { وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } العاصين .

[26] { قَالَ } الله تعالى { فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ } ، قيل : هاهنا تم الكلام معناه تلك البلد محرمة عليهم أبدا لم يرد به تحريم تعبد ، وإنما أراد تحريم منع ، فأوحى الله تعالى إلى موسى : لأحرمن عليهم دخول الأرض المقدسة غير عبدي يوشع وكالب ، ولأتيهنهم في هذه البرية { أَرْبَعِينَ سَنَةً } مكان كل يوم من الأيام التي تحبسون فيها سنة ولألقين جيفهم في هذه القفار ، وأما بنوهم الذين لم يعملوا الشر فيدخلونها ، فذلك قوله تعالى : { فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً } ، { يَتِيهُونَ } يتحيرون ، { فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } ، أي : لا تحزن على مثل هؤلاء القوم .

[27] قوله تعالى : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ } وهما هابيل وقابيل ، ويقال له قابين ، { إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا } يعني هابيل { وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ } يعني قابيل فنزلوا على الجبل وقد غضب قابيل لرد قربانه وكان يضمر الحسد في نفسه إلى أن أتى آدم مكة لزيارة البيت ، فلما غاب آدم أتى قابيل هابيل وهو في غنمه ، { قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ } قال : ولم ؟ قال : لأن الله تعالى قبل قربانك ورد قرباني ، وتنكح أختي الحسناء وأنكح أختك الدميمة , فيتحدث الناس أنك خير مني ويفتخر ولدك على ولدي , { قَالَ } هابيل : وما ذنبي ؟ { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } .

[28] { لَئِنْ بَسَطْتَ } أي : مددت ، { إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ } قال عبد الله بن عمر : وايم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج أن يبسط إلى أخيه يده ، وهذا في الشرع جائز لمن أريد قتله أن ينقاد ويستسلم طلبا للأجر كما فعل عثمان رضي الله عنه ، قال مجاهد : كتب الله في ذلك الوقت إذا أراد رجل قتل رجل أن لا يمتنع ويصبر .

[29] { إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ } ترجع ، وقيل تحمل { بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ } ، أي : بإثم قتلي إلى إثمك , أي : إثم معاصيك التي عملت من قبل ، هذا قول أكثر المفسرين . وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : معناه إني أريد أن يكون عليك خطيئتي التي عملتها أنا إذا قتلتني وإثمك فتبوء بخطيئتي ودمي جميعا ، وقيل : معناه أن ترجع بإثم قتلي وإثم معصيتك التي لم يتقبل لأجلها قربانك ، أو إثم حسدك ، فإن قيل : كيف قال إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك ، وإرادة

القتل والمعصية لا تجوز ؟ قيل : ليس ذلك بحقيقة إرادة ولكنه لما علم أنه يقتله لا محالة وطّن نفسه على الاستسلام طلبا للثواب فكأنه صار مريدا لقتله مجازا ، وإن لم يكن مريدا حقيقة ، وقيل : معناه إني أريد أن تبوء بعقاب قتلي فيكون إرادة صحيحة لأنها موافقة لحكم الله عز وجل فلا يكون هذا إرادة للقتل بل لموجب القتل من الإثم والعقاب ، { فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ } .

[30] قوله عز وجل : { فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ } أي : طاوعته وشايعته وعاونته ، { قَتْلَ أَخِيهِ } في قتل أخيه , وقال مجاهد : فشجعته ، وقال قتادة : فزينت له نفسه ، وقال يمان : سهلت له ذلك ، أي : جعلته سهلا ، تقديره : صورت له نفسه أن قتل أخيه طوع له أي سهل عليه ، فقتله ، قيل : قتل وهو مستسلم ، وقيل : اغتاله وهو في النوم فشدخ رأسه فقتله ، وذلك قوله تعالى : { فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ } ، وكان لهابيل يوم قُتل عشرون سنة فلما قتله تركه بالعراء ولم يدر ما يصنع به لأنه كان أول ميت على وجه الأرض من بني آدم فبعث الله غرابين فاقتتلا ، فقتل أحدهما صاحبه ثم حفر له بمنقاره وبرجله حتى مكن له ثم ألقاه في الحفرة ، وواراه ، وقابيل ينظر إليه ، فذلك قوله تعالى :

[31] { فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ } ، فلما رأى قابيل ذلك { قَالَ يا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي } أي : جيفته ، وقيل : عورته لأنه قد سلب ثيابه ، { فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ } على حمله على عاتقه لا على قتله ، وقيل : على فراق أخيه ، وقيل : ندم لقلة النفع بقتله فإنه أسخط والديه ، وما انتفع بقتله شيئا ولم يكن ندمه على القتل وركوب الذنب .

[32] قوله عز وجل : { مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ } أي : من جراء ذلك القاتل وجنايته ، يقال : أجل يأجل أجلا ، إذا جنى ، مثل أخذ يأخذ أخذا { كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ } ، قتلها فيقاد منه ، { أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ } ، يريد بغير نفس وبغير فساد في الأرض من كفر أو زنا أو قطع طريق ، أو نحو ذلك { فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا } اختلفوا في تأويله ، قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عكرمة : من قتل نبيا أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن شد عضد نبي أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعا ، قال مجاهد : من قتل نفسا محرمة يصلى النار بقتلها ، كما يصلى لو قتل الناس جميعا ، ومن أحياها من سلم من قتلها فقد سلم من قتل الناس جميعا ، قال قتادة : أعظم الله أجرها وعظّم وزرها ، معناه من استحل قتل مسلم بغير حقه فكأنما قتل الناس جميعا في الإثم لأنهم لا يسلمون منه { وَمَنْ أَحْيَاهَا } ، وتورع عن قتلها ، { فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا } في الثواب لسلامتهم منه ، قال الحسن : فكأنما قتل الناس جميعا يعني أنه يجب عليه من القصاص بقتلها مثل الذي يجب

عليه لو قتل الناس جميعا ، ومن أحياها أي عفا عمن وجب عليه القصاص له فلم يقتله فكأنما أحيا الناس جميعا ، قال سليمان بن علي : قلت للحسن : يا أبا سعيد أهي لنا كما كانت لبني إسرائيل ؟ قال : إي والذي لا إله غيره ما كانت دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا ، { وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ } .

[33] { إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا } وعقوبة المحاربين ما ذكر الله سبحانه وتعالى : { أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ } ، فذهب قوم إلى أن الإمام بالخيار في أمر المحاربين بين القتل والقطع والصلب والنفي كما هو ظاهر الآية ، وذهب الأكثرون إلى أن هذه العقوبات على ترتيب الجرائم لا على التخيير { ذَلِكَ } الذي ذكرت من الحدّ ، { لَهُمْ خِزْيٌ } عذاب وهوان وفضيحة { فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } .

[34] { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } ، فمن ذهب إلى أن الآية نزلت في الكفار ، قال معناه : إلا الذين تابوا من شركهم وأسلموا قبل القدرة عليهم فلا سبيل عليهم بشيء من الحدود ولا تبعة عليهم فيما أصابوا في حال الكفر من دم أو مال ، وأما المسلمون المحاربون فمن تاب منهم قبل القدرة عليهم - وهو قبل أن يظفر به الإمام - تسقط عنه كل عقوبة وجبت حقا لله ، ولا يسقط ما كان من حقوق العباد .
[35] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا } اطلبوا { إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ } أي : القربة ، فعيلة من توسل إلى فلان بكذا ، أي : تقرب إليه وجمعها وسائل ، { وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } .
[36] { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ } ، أخبر أن الكافر لو ملك الدنيا كلها ومثلها معها ثم فدى بذلك نفسه من العذاب لم يقبل منه ذلك الفداء ، { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } .

[37] { يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا } ، فيه وجهان أحدهما : أنهم يقصدون ويطلبون المخرج منها ، كما قال الله تعالى : (كلما أرادوا أن يخرجوا منها) , والثاني : أنهم يتمنون ذلك بقلوبهم ، كما قال الله تعالى إخبارا عنهم : { رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا } ، { وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ } .
[38] { وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا } أراد به أيمانهما ، وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود ، وجملة الحكم أن من سرق نصابا من المال من حرز لا شبهة له فيه تقطع يده اليمنى من الرسغ { جَزَاءً بِمَا كَسَبَا } نصب على الحال والقطع ، ومثله : { نَكَالًا } أي : عقوبة ، { مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } .

[39] { فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ } أي : سرقته ، { وَأَصْلَحَ } العمل ، { فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } ، هذا فيما بينهم وبين الله تعالى ، فأما القطع فلا يسقط عنه بالتوبة عند الأكثرين ، قال مجاهد : قطع السارق توبته فإذا قطع حصلت التوبة ، والصحيح أن القطع للجزاء على الجناية ، كما قال : { جَزَاءً بِمَا كَسَبَا } ، فلا بد من التوبة بعد ، وتوبته الندم على ما مضى والعزم على تركه في المستقبل ، وإذا قطع السارق يجب عليه غرم ما سرق من المال عند أكثر أهل العلم ، وقال سفيان الثوري وأصحاب الرأي : لا غرم عليه ، وبالاتفاق إن كان المسروق قائما عنده يسترد ، وتقطع يده لأن القطع حق الله تعالى والغرم حق العبد ، فلا يمنع أحدهما الآخر ، كاسترداد العين .

[40] { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد به الجميع ، وقيل : معناه ألم تعلم أيها الإنسان فيكون خطابا لكل واحد من الناس { يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ } ، قال السدي

والكلبي : يعذب من يشاء من مات على كفره ويغفر لمن يشاء من تاب من كفره ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يعذب من يشاء على الصغيرة ويغفر لمن يشاء على الكبيرة { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .

[41] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ } ، أي : في موالاة الكفار فإنهم لم يعجزوا الله ، { مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ } ، وهم المنافقون ، { وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا } يعني اليهود ، { سَمَّاعُونَ } أي : قوم سماعون ، { لِلْكَذِبِ } أي : قابلون للكذب ، كقول المصلي : سمع الله لمن حمده ، أي : قبل الله ، وقيل : معناه : سماعون لأجل الكذب ، أي : يسمعون منك ليكذبوا عليك ، وذلك أنهم كانوا يسمعون من الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يخرجون ويقولون سمعنا منه كذا ولم يسمعوا ذلك منه ، { سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ } أي هم جواسيس ، يعني : بني قريظة لقوم آخرين هم أهل خيبر قوله : { وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ } , قيل : اللام بمعنى إلى ، وقيل : هي لام كي ، أي : يسمعون لكي يكذبوا عليك ، واللام في قوله { لِقَوْمٍ } أي : لأجل قوم آخرين لم يأتوك وهم أهل خيبر { يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ } جمع كلمة ، { مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ } ، أي : من بعد وضعه مواضعه ، وإنما ذكر الكناية ردا

على لفظ الكلم ، { يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ } ، أي : إن أفتاكم محمد صلى الله عليه وسلم بالجلد والتحميم فاقبلوا ، { وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ } كفره وضلالته ، قال الضحاك : هلاكه ، وقال قتادة: عذابه ، { فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا } فلن تقدر على دفع أمر الله فيه { أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ } وفيه رد على من ينكر القدر { لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ } أي : للمنافقين واليهود ، فخزي المنافقين الفضيحة وهتك الستر بإظهار نفاقهم ، وخزي اليهود الجزية أو القتل أو السبي أو النفي ، ورؤيتهم من محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيهم ما يكرهون ، { وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } الخلود في النار .

[42] { سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ } , قرأ ابن كثير وأبو جعفر وأهل البصرة والكسائي (للسُّحُت) بضم الحاء ، والآخرون بسكونها ، وهو الحرام ، وأصله الهلاك والشدة ، وقال الله تعالى : { فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ } ، نزلت في حكام اليهود كعب بن الأشرف وأمثاله ، كانوا يرتشون ويقضون لمن رشاهم ، قال الحسن : كان الحاكم منهم إذا أتاه أحد برشوة جعلها في كمه فيريها إياه ويتكلم بحاجته فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه ، فيسمع الكذب ويأكل الرشوة ، وعنه أيضا قال : إنما ذلك في الحكم إذا رشوته ليحق لك باطلا أو يبطل عنك حقك ، فأما أن يعطي الرجل الوالي يخاف ظلمه ليدرأ به عن نفسه فلا بأس ، فالسحت هو الرشوة في الحكم على قول الحسن ومقاتل وقتادة والضحاك ، وقال ابن مسعود : هو الرشوة في كل شيء ، قال ابن مسعود : من يشفع شفاعة ليرد بها حقا أو يدفع بها ظلما فأهدي له فقبل فهو سحت ، فقيل له : يا أبا عبد الرحمن ما كنا نرى ذلك إلا الأخذ على الحكم ، فقال : الأخذ على الحكم كفر ، قال الله تعالى : { وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } والسحت كل كسب لا يحل . قوله عز وجل

{ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا } ، خيّر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في الحكم بينهم إن شاء حكم

وإن شاء ترك . قوله : { وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ } ، أي بالعدل ، { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } أي : العادلين .
[43] قوله تعالى : { وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ } هذا تعجيب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه اختصار ، أي : وكيف يجعلونك حكما بينهم فيرضون بحكمك وعندهم التوراة ؟ { فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ } وهو الرجم ، { ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ } أي : بمصدقين لك .

[44] قوله عز وجل : { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا } أي : أسلموا وانقادوا لأمر الله تعالى ، كما أخبر عن إبراهيم عليه السلام : { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } ، وكما قال : { وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا } ، وأراد بهم النبيين الذين بعثوا من بعد موسى عليه السلام ليحكموا بما في التوراة ، وقد أسلموا لحكم التوراة وحكموا بها ، فإن من النبيين من لم يؤمر بحكم التوراة منهم عيسى عليه السلام { لِلَّذِينَ هَادُوا } قيل : فيه تقديم وتأخير تقديره فيها هدى ونور للذين هادوا ثم قال يحكم بها النبيون الذين أسلموا والربانيون ، وقيل : هو على موضعه ، ومعناه : يحكم بها النبيون الذين أسلموا على الذين هادوا ، كما قال : { وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا } أي : فعليها ، وكما قال : { أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ } ، وقيل : فيه حذف كأنه قال : للذين هادوا وعلى الذين هادوا فحذف أحدهما اختصارا . { وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ } يعني العلماء ، واحدها حبر وحبر بفتح

الحاء وكسرها ، والكسر أفصح ، وهو العالم المحكم للشيء ، قال الكسائي وأبو عبيدة : هو من الحبر الذي يكتب به ، وقال قطرب : هو من الحبر الذي هو بمعنى الجمال بفتح الحاء وكسرها ومنه التحبير وهو التحسين ، فسمى العالم حبرا لما عليه من جمال العلم وبهائه ، وقيل : الربانيون هاهنا من النصارى ، والأحبار من اليهود ، قوله عز وجل : { بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ }{ اللَّهِ } ، أي : استودعوا من كتاب الله ، { وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ } أنه كذلك ، { فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } ، قال قتادة والضحاك : نزلت هذه الآيات الثلاث في اليهود دون من أساء من هذه الأمة . روي عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله : { وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } والظالمون والفاسقون كلها في الكافرين ، وقيل : هي على الناس كلهم ، وقال ابن عباس وطاوس : ليس بكفر ينقل عن الملة ، بل إذا فعله فهو به كافر ، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر ، قال عطاء : هو كفر

دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق ، وقال عكرمة : معناه : ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحدا به فقد كفر ، ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق . وسئل عبد العزيز بن يحيى الكناني عن هذه الآيات ، فقال : إنها تقع على جميع ما أنزل الله لا على بعضه ، وكل من لم يحكم بجميع ما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق ، فأما من حكم بما أنزل الله من التوحيد وترك الشرك ، ثم لم يحكم ببعض ما أنزل الله من الشرائع لم يستوجب حكم هذه الآيات ، وقال العلماء : هذا إذا رد نص حكم الله عيانا عمدا ، فأما من خفي عليه أو أخطأ في تأويل فلا .

[45] قوله تعالى : { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا } أي : أوجبنا على بني إسرائيل في التوراة ، { أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ } يعني : من نفس القاتل بنفس المقتول وفاء

يقتل به ، { وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ } تُفقأ بها { وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ } يُجدع به ، { وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ } تُقطع بها ، قال ابن عباس : أخبر الله تعالى بحكمه في التوراة وهو : أن النفس بالنفس واحدة بواحدة إلى آخرها ، فما بالهم يخالفون فيقتلون بالنفس النفسين ، ويفقؤون بالعين العينين { وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ } تقلع بها وسائر الجوارح قياس عليها في القصاص ، { وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ } فهذا تعميم بعد تخصيص ، لأنه ذكر العين والأنف والأذن والسن ، ثم قال : { وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ } أي : فيما يمكن الاقتصاص منه كاليد والرجل واللسان ونحوها ، وأما ما لا يمكن الاقتصاص منه من كسر عظم أو جرح لحم كالجائفة ونحوها فلا قصاص فيه ، لأنه لا يمكن الوقوف على نهايته { فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ } أي : بالقصاص { فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ } ، قيل : الهاء في له كناية عن المجروح وولي القتيل ، أي : كفارة للمصدق وهو قول عبد الله بن عمرو بن العاص والحسن والشعبي

وقتادة ، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تصدق من جسده بشيء كفر الله عنه بقدره من ذنوبه » (1) , وقال جماعة : هي كناية عن الجارح والقاتل ، يعني إذا عفا المجني عليه عن الجاني فعفوه كفارة لذنب الجاني لا يؤاخذ به في الآخرة ، كما أن القصاص كفارة له ، فأما أجر العافي فعلى الله عز وجل ، قال الله تعالى : { فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } ، روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وهو قول إبراهيم ومجاهد وزيد بن أسلم ، { وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } .

____
(1) أخرجه الترمذي في الديات 4 / 650 وقال غريب ، وابن ماجه في الديات رقم (2693) 2 / 898 , والإمام أحمد في المسند 5 / 316 , 6 / 448 , قال المنذري في الترغيب والترهيب 3 / 305 رجاله رجال الصحيح .

[46] { وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ } أي : على آثار النبيين الذين أسلموا ، { بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ } أي : في الإنجيل { هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا } ، يعني الإنجيل ، { لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ } .
[47] { وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ } ، قرأ الأعمش وحمزة (ولِيَحْكُمَ) بكسر اللام ونصب الميم ، أي : لكي يحكم ، وقرأ الآخرون بسكون اللام وجزم الميم على الأمر ، قال مقاتل بن حيان : أمر الله الربانيين والأحبار أن يحكموا بما أنزل الله في التوراة ، وأمر القسيسين والرهبان أن يحكموا بما في الإنجيل ، فكفروا وقالوا : عزير ابن الله والمسيح ابن الله ، { وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } الخارجون عن أمر الله عز وجل .

[48] قوله سبحانه وتعالى : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ } يا محمد { الْكِتَابَ } القرآن ، { بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ } أي : من الكتب المنزلة من قبل ، { وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ } عن ابن عباس رضي الله عنهما : أي شاهدا عليه ، وهو قول مجاهد وقتادة والسدي والكسائي ، قال حسان :

إن الكتاب مهيمن لنبينا ... والحق يعرفه ذوو الألباب

يريد : شاهدا ومصدقا , وقال عكرمة : دالّا ، وقال سعيد بن جبير وأبو عبيدة : مؤتمنا عليه ، وقال الحسن : أمينا ، وقيل : أصله مؤيمن مفيعل من أمين ، كما

قالوا : مُبيطر من البيطار ، فقلبت الهمزة هاء كما قالوا : أرقت الماء وهرقته ، وإيهات وهيهات ، ونحوها . ومعنى أمانة القرآن ما قال ابن جريج : القرآن أمين على ما قبله من الكتب ، فما أخبر أهل الكتاب عن كتابهم فإن كان في القرآن فصدقوا وإلا فكذبوا ، وقال سعيد بن المسيب والضحاك : قاضيا ، وقال الخليل : رقيبا وحافظا ، والمعاني متقاربة ، ومعنى الكل : أن كل كتاب يشهد بصدق القرآن فهو كتاب الله تعالى وإلا فلا { فَاحْكُمْ } يا محمد { بَيْنَهُمْ } بين أهل الكتاب إذا ترافعوا إليك ، { بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ } تعالى بالقرآن ، { وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ } أي : لا تعرض عما جاءك من الحق ولا تتبع أهواءهم ، { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } ، قال ابن عباس والحسن ومجاهد : أي سبيلا وسنة ، فالشرعة والمنهاج الطريق الواضح ، وكل ما شرعت فيه فهو شريعة وشرعة ، ومنه شرائع الإسلام لشروع أهلها فيها ، وأراد بهذا أن الشرائع

مختلفة ، ولكل أهل ملة شريعة ، قال قتادة : الخطاب للأمم الثلاث أمة موسى وأمة عيسى وأمة محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين ، فالتوراة شريعة والإنجيل شريعة والفرقان شريعة ، والدين واحد وهو التوحيد . { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } أي : على ملة واحدة ، { وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ } ليختبركم ، { فِي مَا آتَاكُمْ } من الكتب وبين لكم من الشرائع فيتبين المطيع من العاصي والموافق من المخالف ، { فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ } فبادروا إلى الأعمال الصالحة ، { إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } .

[49] قوله عز وجل : { وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ } إليك { وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : قال كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس من رؤساء اليهود بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه ، فأتوه فقالوا : يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم وإنا إن اتبعناك لم يخالفنا اليهود ، وإن بيننا وبين الناس خصومات فنحاكمهم إليك فاقض لنا عليهم نؤمن بك ، ويتبعنا غيرنا . ولم يكن قصدهم الإيمان ، وإنما كان قصدهم التلبيس ودعوته إلى الميل في الحكم فأنزل الله عز وجل الآية { فَإِنْ تَوَلَّوْا } أي : أعرضوا عن الإيمان والحكم بالقرآن ، { فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ } ، أي : فاعلم أن إعراضهم من أجل أن الله يريد أن يعجل لهم العقوبة في الدنيا ببعض ذنوبهم ، { وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ } يعني اليهود { لَفَاسِقُونَ } .

[50] { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ } قرأ ابن عامر تبغون وقرأ الآخرون بالياء ، أي : يطلبون ، { وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } .

[51] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ } اختلفوا في سبب نزول هذه الآية وإن كان حكمها عاما لجميع المؤمنين { بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ } في العون والنصرة ويدهم واحدة على المسلمين { وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ } فيوافقهم ويعينهم ، { فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } .

[52] { فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } أي : نفاق يعني عبد الله بن أُبي وأصحابه من المنافقين الذين يوالون اليهود ، { يُسَارِعُونَ فِيهِمْ } في معونتهم وموالاتهم ، { يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ } دولة ، يعني : أن يدول الدهر

دولته فنحتاج إلى نصرهم إيانا ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : معناه : نخشى ألا يتم أمر محمد فيدور الأمر علينا ، وقيل : نخشى أن يدور الدهر علينا بمكروه من جدب وقحط فلا يعطونا الميرة والقرض ، { فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ } ، قال قتادة ومقاتل : بالقضاء من نصر محمد صلى الله عليه وسلم على من خالفه ، وقال الكلبي والسدي : فتح مكة ، وقال الضحاك : فتح قرى اليهود مثل خيبر وفدك ، { أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ } ، قيل : بإتمام أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : عذاب لهم ، وقيل : إجلاء بني النضير ، { فَيُصْبِحُوا } يعني هؤلاء المنافقون ، { عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ } من موالاة اليهود ودس الأخبار إليهم { نَادِمِينَ } .

[53] (وَ) حينئذ ، (يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا) قرأ أهل الكوفة : { وَيَقُولُ } بالواو والرفع على الاستئناف , وقرأ أهل البصرة بالواو ونصب اللام عطفا على { أَنْ يَأْتِيَ } أي : وعسى أن يقول الذين آمنوا ، وقرأ الآخرون بحذف الواو ورفع اللام ، وكذلك هو في مصاحف أهل العالية ، استغناء عن حرف العطف لملابسة هذه الآية بما قبلها ، يعني يقول الذين آمنوا في وقت إظهار الله تعالى نفاق المنافقين { أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ } حلفوا بالله , { جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } أي : حلفوا بأغلظ الإيمان { إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ } أي : إنهم لمؤمنون ، يريد أن المؤمنين حينئذ يتعجبون من كذبهم وحلفهم بالباطل . قال الله تعالى : { حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ } بطل كل خير عملوه ، { فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ } خسروا الدنيا بافتضاحهم ، والآخرة بالعذاب وفوات الثواب .

[54] قوله عز وجل : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } قرأ أهل المدينة والشام (يرتدد) بدالين على إظهار التضعيف { عَنْ دِينِهِ } فيرجع إلى الكفر ، قال الحسن : علم الله تبارك وتعالى أن قوما يرجعون عن الإسلام بعد موت نبيهم صلى الله عليه وسلم فأخبر أنه سيأتي بقوم يحبهم الله ويحبونه ، واختلفوا في أولئك القوم من هم ؟ قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن وقتادة : هم أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة ومانعي الزكاة ، وقال قوم : المراد بقوله : { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } هم الأشعريون ، روي عن عياض بن غنم الأشعري قال : « لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هم قوم هذا " ، وأشار إلى أبي موسى الأشعري » (1) , وكانوا من اليمن . قوله عز وجل : { أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } يعني : أرقاء رحماء ، لقوله عز وجل : { وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ } ، ولم يرد به الهوان ، بل أراد أن جانبهم لين على المؤمنين . وقيل : هو الذل من

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك 2 / 313 وصححه على شرط مسلم ، والطبراني ورجاله رجال الصحيح كما في مجمع الزوائد 7 / 16 ، والطبري في التفسير 10 / 414 .

قولهم دابة ذلول ، يعني أنهم متواضعون . قال الله تعالى : { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا } { أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ } أي : أشداء غلاظ على الكفار يعادونهم ويغالبونهم ، من قولهم : عزه أي غلبه . قال عطاء : أذلة على المؤمنين : كالولد لوالده والعبد لسيده ، أعزة على الكافرين : كالسبع على فريسته ، نظيره قوله تعالى : { أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } . { يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ } يعني : لا يخافون في الله

لوم الناس ، وذلك أن المنافقين كانوا يراقبون الكفار ويخافون لومهم ، وروينا عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة وأن نقوم أو نقول بالحق حيث ما كنا لا نخاف في الله لومة لائم (1) . { ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ } أي : محبتهم لله ولين جانبهم للمسلمين ، وشدتهم على الكافرين ، من فضل الله عليهم ، { وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } .

____
(1) أخرجه البخاري في الأحكام 13 / 193 ، ومسلم في الإمارة برقم (1709) 3 / 1470 .

[55] { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا } روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي بن سلول حين تبرأ عبادة من اليهود ، وقال : أتولى الله ورسوله والذين آمنوا ، فنزل فيهم من قوله : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ } ، إلى قوله : { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا } يعني عبادة بن الصامت وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال جابر بن عبد الله : « جاء عبد الله بن سلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن قومنا قريظة والنضير قد هجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا ، فنزلت هذه الآية ، فقرأها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء » ، وعلى هذا التأويل أراد بقوله : { وَهُمْ رَاكِعُونَ } صلاة التطوع بالليل والنهار ، قاله ابن عباس ، وقال السدي : قوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ }{ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } أراد به : علي بن أبي طالب رضي

الله عنه ، مر به سائل وهو راكع في المسجد فأعطاه خاتمه (1) ، وقال جُويبر عن الضحاك في قوله { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا } قال : هم المؤمنون بعضهم أولياء بعض .
[56] { وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا } يعني : يتولى القيام بطاعة الله ونصرة رسوله والمؤمنين ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد المهاجرين والأنصار ، { فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ } يعني أنصار دين الله ، { هُمُ الْغَالِبُونَ } .

____
(1) أخرجه الطبري 10 / 425 .

[57] قوله عز وجل : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا } الآية , قال ابن عباس : كان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ثم نافقا , وكان رجال من المسلمين يوادّونهما فأنزل الله عز وجل هذه الآية : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا } بإظهار ذلك بألسنتهم قولا وهم مستبطنون الكفر ، { مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ } ، يعني : اليهود { وَالْكُفَّارَ } ، قرأ أهل البصرة والكسائي وَالْكُفَّارِ بخفض الراء ، يعني : ومن الكفار ، وقرأ الآخرون بالنصب ، أي : لا تتخذوا الكفار ، { أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } .

[58] { وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ } قال الكلبي : كان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها قالت اليهود : قد قاموا لا قاموا ، قاموا وصلوا لا صلوا ،

على طريق الاستهزاء ، وضحكوا ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية . وقال السدي : نزلت في رجل من النصارى بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول : أشهد أن محمدا رسول الله ، قال : حُرق الكاذب ، فدخل خادمه ذات ليلة بنار - وهو وأهله نيام - فتطايرت منها شرارة فاحترق البيت واحترق هو وأهله . وقال الآخرون : إن الكفار لما سمعوا الأذان حسدوا المسلمين فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : يا محمد لقد أبدعت شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأمم فإن كنت تدعي النبوة فقد خالفت فيما أحدثت الأنبياء قبلك , ولو كان فيه خير لكان أولى الناس به الأنبياء ، فمن أين لك صياح كصياح العير ؟ فما أقبح من صوت وما أسمج من أمر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : { وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ } الآية .

[59] قوله عز وجل : { قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا } قال ابن عباس : « أتى النبي صلى الله عليه وسلم نفر من اليهود ، أبو يا سر بن أخطب ورافع بن أبي رافع وغيرهما ، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل ، فقال : " أؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل " إلى قوله : { وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }» ، فلما ذكر عيسى عليه السلام جحدوا نبوته ، وقالوا : والله ما نعلم أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم ، ولا دينا شرا من دينكم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : { قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا } أي : تكرهون منا { إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ } أي : هل تكرهون منا إلا إيماننا وفسقكم ، أي : إنما كرهتم إيماننا وأنتم تعلمون أنا على حق ، لأنكم فسقتم بأن أقمتم على دينكم لحب الرياسة وحب الأموال ، ثم قال :

[60] { قُلْ } يا محمد ، { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ } أخبركم ، { بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ } الذي ذكرتم ، يعني قولهم : لم نر أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم ولا دينا شرا من دينكم ، فذكر الجواب بلفظ الابتداء ، وإن لم يكن الابتداء شرا لقوله تعالى : { أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ } ، { مَثُوبَةً } ثوابا وجزاء ، نُصب على التفسير ، { عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ } أي : هو من لعنه الله ، { وَغَضِبَ عَلَيْهِ } يعني : اليهود ، { وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ } فالقردة أصحاب السبت ، والخنازير كفار مائدة عيسى عليه السلام { وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ } أي : جعل منهم من عبد الطاغوت ، أي : أطاع الشيطان فيما سول له { أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ } عن طريق الحق .

[61] { وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا } يعني : هؤلاء المنافقين ، وقيل : هم الذين قالوا : { آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ } ، دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : { آمَنَّا } بك وصدقناك فيما قلت ، وهم يُسرّون الكفر ، { وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ } يعني : دخلوا كافرين وخرجوا كافرين { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ } .
[62] { وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ } يعني : من اليهود { يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } ، قيل : الإثم المعاصي والعدوان الظلم ، وقيل : الإثم ما كتموا من التوراة ، والعدوان ما زادوا فيها ، { وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ } الرشا ، { لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } .
[63] { لَوْلَا } هلّا ، { يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ } يعني : العلماء ، قيل : الربانيون علماء النصارى والأحبار علماء اليهود ، { عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } .

[64] { وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ } ، قال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة : إن الله تعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالا وأخصبهم ناحية فلما عصوا الله في محمد صلى الله عليه وسلم وكذبوا به كف الله عنهم ما بسط عليهم من السعة ، فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء : يد الله مغلولة ، أي : محبوسة مقبوضة من الرزق نسبوه إلى البخل ، قيل : إنما قال هذه المقالة فنحاص ، فلما لم ينهه الآخرون ورضوا بقوله أشركهم الله فيها . وقال الحسن : معناه يد الله مكفوفة عن عذابنا فليس يعذبنا إلا ما يبر به قسمه قدر ما عبد آباؤنا العجل ، والأول أولى لقوله : { يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ } ، { غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ } أي : أمسكت أيديهم عن الخيرات . وقال الزجاج : أجابهم الله تعالى فقال : أنا الجواد وهم البخلاء وأيديهم هي المغلولة الممسكة . وقيل : هو من الغل في النار يوم القيامة ، لقوله تعالى : { إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ } ، { وَلُعِنُوا } عُذّبوا { بِمَا قَالُوا } ، فمن لعنهم أنهم مُسخوا قردة وخنازير وضربت عليهم الذلة والمسكنة في الدنيا وفي الآخرة بالنار ، { بَلْ

يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } ، ويد الله صفة من صفات ذاته كالسمع ، والبصر , والوجه ، وقال جل ذكره : { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كلتا يديه يمين » (1) ، والله أعلم بصفاته ، فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم . وقال أئمة السلف من أهل السنة في هذه الصفات : " أمرّوها كما جاءت بلا كيف " ، { يُنْفِقُ } يرزق ، { كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا } أي : كلما أنزل آية كفروا بها فازدادوا طغيانا وكفرا ، { وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ } يعني : بين اليهود والنصارى ، قاله الحسن ومجاهد ، وقيل بين طوائف اليهود جعلهم الله مختلفين في دينهم متباغضين { إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ } يعني : اليهود أفسدوا وخالفوا حكم التوراة ، فبعث الله عليهم بختنصر ، ثم أفسدوا فبعث الله عليهم طيطوس الرومي ، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس ، ثم أفسدوا فبعث الله عليهم المسلمين ، وقيل : كلما أجمعوا أمرهم ليفسدوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأوقدوا نار

---

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة رقم (1827) 3 / 1458 .

المحاربة أطفأها الله ، فردهم وقهرهم ونصر نبيه ودينه ، هذا معنى قول الحسن ، وقال قتادة : هذا عام في كل حرب طلبته اليهود فلا تلقى اليهود في بلد إلا وجدتهم من أذل الناس ، { وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } .

[65] { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا } بمحمد صلى الله عليه وسلم ، { وَاتَّقَوْا } الكفر ، { لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ } .

[66] { وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ } يعني : أقاموا أحكامهما وحدودهما وعملوا بما فيهما ، { وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ } يعني : القرآن ، وقيل : كتب أنبياء بني إسرائيل ، { لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ } قيل : من فوقهم هو المطر ، ومن تحت أرجلهم نبات الأرض . قال ابن عباس رضي الله عنهما : لأنزلت عليهم القطر وأخرجت لهم من نبات الأرض . قال الفراء : أراد به التوسعة في الرزق كما يقال فلان في الخير من قرنه إلى قدمه { مِنْهُمْ أُمَّةٌ

مُقْتَصِدَةٌ } يعني : مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه ، مقتصدة أي عادلة غير غالية ، ولا مقصرة جافية . ومعنى الاقتصاد في اللغة : الاعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير ، { وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ } كعب بن الأشرف وأصحابه ، { سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ } بئس ما يعملون , بئس شيئا عملهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : عملوا بالقبيح مع التكذيب بالنبي صلى الله عليه وسلم .

[67] قوله عز وجل : { يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ } قالت عائشة : من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم كتم شيئا مما أنزل الله عليه فقد كذب ، وهو يقول : { يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ } (1) ، روى الحسن : أن الله تعالى لما بعث رسوله ضاق ذرعا وعرف أن من الناس من يكذبه ، فنزلت هذه الآية (2) ، وقيل : نزلت في عيب اليهود ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى الإسلام ، فقالوا : أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزؤون به ، فيقولون له : تريد أن نتخذك حنانا كما اتخذت النصارى عيسى حنانا ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك سكت فنزلت هذه الآية ، وأمره أن يقول لهم : { يا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ } الآية . وقيل : بلّغ ما أنزل إليك من الرجم والقصاص ، نزلت في قصة اليهود ، وقيل : نزلت في أمر زينب بنت جحش ونكاحها ، وقيل : في الجهاد ، وذلك أن المنافقين كرهوه ، كما قال الله تعالى : { فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ

____
(1) أخرجه البخاري في التفسير 8 / 275 ، ومسلم في الإيمان رقم (177) 1 / 159 .
(2) أسباب النزول للواحدي ص (232 - 233) , الدر المنثور (3 / 116-117) .

عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ } ، كرهه بعض المؤمنين قال الله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ } الآية . فكان النبي صلى الله عليه وسلم يمسك في بعض الأحايين عن الحث على الجهاد لما يعلم من كراهة بعضهم ، فأنزل الله هذه الآية . قوله تعالى : { وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ } قرأ أهل المدينة والشام وأبو بكر ويعقوب رِسَالاته على الجمع والباقون رسالته على التوحيد ، ومعنى الآية : إن لم تبلغ الجميع وتركت بعضه فما بلغت شيئا ، أي : جرمك في ترك تبليغ البعض كجرمك في ترك تبليغ الكل , وقيل : بلّغ ما أنزل إليك أي : أظهر تبليغه ، كقوله : { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ } وإن لم تفعل فإن لم تظهر تبليغه فما بلغت رسالته ، أمره بتبليغ ما أنزل إليه مجاهرا محتسبا صابرا ، غير خائف ، فإن أخفيتَ منه شيئا لخوف يلحقك فما بلغت رسالته ، { وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ } يحفظك ويمنعك من الناس ، فإن قيل : أليس قد شج رأسه وكسرت رباعيته وأوذي بضروب من الأذى ؟ قيل : معناه يعصمك من القتل فلا يصلون إلى قتلك . وقيل : نزلت هذه الآية بعد ما شج رأسه لأن سورة المائدة من آخر ما

نزل من القرآن . وقيل : والله يخصك بالعصمة من بين الناس ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم ، { إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } .
[68] قوله عز وجل : { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ } ، أي : تقيموا أحكامهما وما يجب عليكم فيهما ، { وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا

تَأْسَ } فلا تحزن ، { عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } .
[69] { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى } قوله : (إن الذين آمنوا) أي : باللسان . وقوله : { مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ } أي : بالقلب ، وقيل : الذين آمنوا على حقيقة الإيمان (من آمن بالله) ، أي : ثبت على الإيمان ، { وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } .

[70] قوله تعالى : { لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ } في التوحيد والنبوة ، { وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا } عيسى ومحمدا صلوات الله وسلامه عليهما ، { وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ } يحيى وزكريا .

[71] { وَحَسِبُوا } ظنوا ، { أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ } أي : عذاب وقتل ، وقيل : ابتلاء واختبار ، أي : ظنوا أن لا يُبتلوا ولا يُعذبهم الله , { فَعَمُوا } عن الحق فلم يبصروه ، { وَصَمُّوا } عنه فلم يسمعوه ، يعني عموا وصموا بعد موسى صلوات الله وسلامه عليه ، { ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ } ببعث عيسى عليه السلام ، { ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ } بالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم , { وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } .
[72] { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ } وهم الملكانية واليعقوبية منهم ، { وَقَالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي }{ وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ } .

[73] { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ } يعني : المرقوسية ، وفيه إضمار معناه : ثالث ثلاثة آلهة ، لأنهم يقولون : الإلهية مشتركة بين الله تعالى ومريم وعيسى ، وكل واحد من هؤلاء إله فهم ثلاثة آلهة ، يبين هذا قوله عز وجل للمسيح : { أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ } ؟ ثم قال ردا عليهم : { وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ } ليصيبن ، { الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } خص الذين كفروا لعلمه أن بعضهم يؤمنون .
[74] { أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ } قال الفراء : هذا أمر بلفظ الاستفهام كقوله تعالى : { فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ } أي : انتهوا ، والمعنى : أن الله يأمركم بالتوبة والاستغفار من هذا الذنب العظيم ، { وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } .

[75] { مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ } مضت , { مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ } أي : ليس هو بإله بل هو كالرسل الذين مضوا لم يكونوا آلهة ، { وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ } أي : كثيرة الصدق . وقيل : سميت صديقة لأنها صدقت بآيات الله ، كما قال عز وجل في وصفها : { وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا } ، { كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ } أي : كانا يعيشان بالطعام والغذاء كسائر الآدميين ، فكيف يكون إلها من لا يقيمه إلا أكل الطعام ؟! وقيل : هذا كناية عن الحدث . وذلك أن من أكل وشرب لا بد له من البول والغائط ، ومن هذه صفته كيف يكون إلها ؟ ثم قال : { انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } أي يصرفون عن الحق .
[76] { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } .

[77] { قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ } أي : لا تتجاوزوا الحد والغلو والتقصير كل واحد منهما مذموم في الدين ، وقوله : { غَيْرَ الْحَقِّ } أي : في دينكم المخالف للحق ، وذلك أنهم خالفوا الحق في دينهم ، ثم غلوا فيه بالإصرار عليه ، { وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ } والأهواء جمع الهوى وهو ما تدعو إليه شهوة النفس { قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ } يعني : رؤساء الضلالة من فريقي اليهود والنصارى ، والخطاب للذين كانوا في عصر النبي صلى الله عليه وسلم نهوا عن اتباع أسلافهم فيما ابتدعوه بأهوائهم ، { وَأَضَلُّوا كَثِيرًا } ، يعني : من اتبعهم على أهوائهم ، { وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ } عن قصد الطريق ، أي : بالإضلال ، فالضلال الأول من الضلالة ، والثاني بإضلال من اتبعهم .

[78] { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ } ، يعني : أهل أيلة لما اعتدوا في السبت ، وقال داود عليه السلام : اللهم العنهم واجعلهم آية ؛ فمسخوا قردة وخنازير ، { وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } أي : على لسان عيسى عليه السلام يعني كفار أصحاب المائدة ، لما لم يؤمنوا ، قال عيسى : اللهم العنهم واجعلهم آية ؛ فمسخوا خنازير ، { ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } .
[79] { كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ } أي : لا ينهى بعضهم بعضا { لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } .
[80] قوله تعالى : { تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ } قيل : من اليهود كعب بن الأشرف وأصحابه ، { يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا } مشركي مكة حين خرجوا إليهم يجيشون على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن عباس ومجاهد والحسن : منهم يعني من المنافقين يتولون اليهود ، { لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ } بئس ما قدموا من العمل لمعادهم في الآخرة ؟ { أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ } غضب الله عليهم ، { وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ } .

[81] { وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ } محمد صلى الله عليه وسلم , { وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ } يعني القرآن , { مَا اتَّخَذُوهُمْ } يعني الكفار , { أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ } أي : خارجون عن أمر الله سبحانه وتعالى .

[82] قوله عز وجل : { لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا } يعني مشركي العرب ، { وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى } لم يرد به جميع النصارى لأنهم في عداوتهم المسلمين كاليهود في قتلهم المسلمين وأسرهم وتخريب بلادهم وهدم مساجدهم وإحراق مصاحفهم ، لا ولا كرامة لهم ، بل الآية فيمن أسلم منهم مثل النجاشي وأصحابه ، وقيل : نزلت في جميع اليهود وجميع النصارى ، لأن اليهود أقسى قلبا والنصارى ألين قلبا منهم ، وكانوا أقل مظاهرة للمشركين من اليهود { ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ } أي : علماء ، قال قطرب : القس والقسيس العالم بلغة الروم , { وَرُهْبَانًا } الرهبان العبّاد أصحاب الصوامع واحدهم راهب ، مثل فارس وفرسان وراكب وركبان , وقد يكون واحدا وجمعه رهابين ، مثل قربان وقرابين ، { وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ } لا يتعظمون عن الإيمان والإذعان للحق .

[83] { وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ } محمد صلى الله عليه وسلم { تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ } تسيل ، { مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء : يريد النجاشي وأصحابه قرأ عليهم جعفر بالحبشة كهيعص ، فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة .

{ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ } يعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، دليله قوله تعالى : { لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ } .
[84] { وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ } وذلك أن اليهود عيّروهم وقالوا لهم : لِمَ آمنتم ؟ فأجابوهم بهذا ، { وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ } أي : في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، بيانه { أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } .

[85] { فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ } أعطاهم الله ، { بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا } ، وإنما أنجح قولهم وعلق الثواب بالقول لاقترانه بالإخلاص ، بدليل قوله : { وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ } يعني : الموحدين المؤمنين ، وقوله : { تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ } يدل على أن الإخلاص والمعرفة بالقلب مع القول يكون إيمانا .
[86] { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } .
[87] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ } يعني : اللذات التي تشتهيها النفوس مما أحل الله لكم من المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة ، { وَلَا تَعْتَدُوا } ولا تجاوزوا الحلال إلى الحرام , { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } .

[88] { وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا } قال عبد الله بن المبارك : الحلال ما أخذته من وجهه ، والطيب ما غذى وأنمى ، فأما الجوامد كالطين والتراب وما لا يغذي فمكروه إلا على وجه التداوي ، { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ } .

[89] قوله عز وجل : { لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ } قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر (عَقَدْتُمُ) بالتخفيف ، وقرأ ابن عامر (عاقدتم) بالألف , وقرأ الآخرون { عَقَّدْتُمُ } بالتشديد ، أي : وكّدتم ، والمراد من الآية قصدتم وتعمدتم { فَكَفَّارَتُهُ } أي : كفارة ما عقدتم الإيمان إذا حنثتم ، { إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ } أي : من خير قوت عيالكم ، وقال عبيدة السلماني : الأوسط الخبز والخل ، والأعلى الخبز واللحم ، والأدنى الخبز البحت والكل مُجْزٍ ، قوله تعالى : { أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ } كل من لزمته كفارة اليمين فهو فيها مخير : إن شاء أطعم عشرة من المساكين ، وإن شاء كساهم ، وإن شاء أعتق رقبة . قوله عز وجل : { فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ } إذا عجز الذي لزمته كفارة اليمين عن الطعام والكسوة وتحرير الرقبة ، يجب عليه صوم ثلاثة أيام ، والعجز أن لا يفضل من ماله عن قوته وقوت عياله وحاجته ما يطعم أو يكسو أو يعتق فإنه يصوم ثلاثة أيام ، وقال

بعضهم : إذا ملك ما يمكنه الإطعام وإن لم يفضل عن كفايته فليس له الصيام { ذَلِكَ } أي : ذلك الذي ذكرت ، { كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ } وحنثتم ، فإن الكفارة لا تجب إلا بعد الحنث . قوله عز وجل : { وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ } قيل : أراد به ترك الحلف ، أي : لا تحلفوا ، وقيل - وهو الأصح - : أراد به إذا حلفتم فلا تحنثوا ، فالمراد منه حفظ اليمين عن الحنث هذا إذا لم يكن يمينه على ترك مندوب أو فعل مكروه ، فإن حلف على فعل مكروه أو ترك مندوب فالأفضل أن يُحنث نفسه ويكفّر { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } .

[90] قوله عز وجل : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ } أي : القمار , { وَالْأَنْصَابُ } يعني : الأوثان ، وسميت بذلك لأنهم كانوا ينصبونها ، واحدها نصب بفتح النون وسكون الصاد ، ونصب بضم النون مخففا ومثقلا ، { وَالْأَزْلَامُ } يعني : القِداح التي يستقسمون بها واحدها زلم وزلم ، { رِجْسٌ } خبيث مستقذر ، { مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ } من تزيينه , { فَاجْتَنِبُوهُ } رد الكناية إلى الرجس ، { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } .

[91] { إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ } أما العداوة في الخمر فإن الشاربين إذا سكروا عربدوا وتشاجروا ، كما فعل الأنصاري الذي شج سعد بن أبي وقاص بلحي الجمل ، وأما العداوة في الميسر ، قال قتادة : كان الرجل يقامر على الأهل والمال ثم يبقى حزينا مسلوب الأهل والمال مغتاظا على حرفائه ، { وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ } وذلك أن من اشتغل بشرب الخمر والقمار ألهاه ذلك عن ذكر الله ، وشوش عليه صلاته كما فعل بأضياف عبد الرحمن بن عوف ، وتقدم رجل ليصلي بهم صلاة المغرب بعدما شربوا فقرأ { قُلْ يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ } ، أعبد ما تعبدون ، بحذف لا ، { فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ } أي : انتهوا , لفظه استفهام ومعناه أمر ، كقوله تعالى : { فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ } ؟
[92] { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا } المحارم والمناهي , { فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } .

[93] قوله عز وجل : { لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا } الآية ، سبب نزول هذه الآية أن الصحابة رضوان الله عليهم قالوا لما نزل تحريم الخمر : يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون من مال الميسر ؟ فأنزل الله تعالى : { لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا } وشربوا من الخمر وأكلوا من مال الميسر { إِذَا مَا اتَّقَوْا } الشرك ، { وَآمَنُوا } وصدّقوا ، { وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا } الخمر والميسر بعد تحريمهما ، { وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا } ما حرم الله عليهم أكله وشربه ، { وَأَحْسَنُوا }{ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } , وقيل : معنى الأول إذ ما اتقوا الشرك ، وآمنوا وصدقوا ثم اتقوا ، أي : داوموا على ذلك التقوى ، وآمنوا وازدادوا إيمانا ، ثم اتقوا المعاصي كلها وأحسنوا ، وقيل : أي : اتقوا بالإحسان وكل محسن متق ، والله يحب المحسنين .

[94] قوله عز وجل : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ } الآية ، نزلت عام الحديبية وكانوا محرمين ابتلاهم الله بالصيد ، وكانت الوحوش تغشى رحالهم من كثرتها فهمّوا بأخذها فنزلت : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ } ليختبرنكم الله ، وفائدة البلوى إظهار المطيع من العاصي وإلا فلا حاجة له إلى البلوى بشيء من الصيد ، وإنما بعَّض فقال { بِشَيْءٍ } لأنه ابتلاهم بصيد البر خاصة . { تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ } يعني : الفرخ والبيض وما لا يقدر أن يفر من صغار الصيد ، { وَرِمَاحُكُمْ } يعني : الكبار من الصيد ، { لِيَعْلَمَ اللَّهُ } ليرى الله لأنه قد علمه ، { مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ } أي : يخاف الله ولم يره ، كقوله تعالى : { الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ } أي : يخافه فلا يصطاد في حال الإحرام { فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ } أي : صاد بعد تحريمه ، { فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ } .

[95] قوله عز وجل : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ } أي : محرمون بالحج والعمرة ، وهو جمع حرام ، يقال : رجل حرام وامرأة حرام ،

وقد يكون من دخول الحرم ، يقال : أحرم الرجل إذا عقد الإحرام ، وأحرم إذا دخل الحرم { وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا } اختلفوا في هذا العمد فقال قوم : هو العمد لقتل الصيد مع نسيان الإحرام ، أما إذا قتله عمدا وهو ذاكر لإحرامه فلا حكم عليه ، وأمره إلى الله لأنه أعظم من أن يكون له كفارة ، هذا قول مجاهد والحسن ، وقال الآخرون : هو أن يعمد المحرم قتل الصيد ذاكرا لإحرامه فعليه الكفارة ، واختلفوا فيما لو قتله خطأ ، فذهب أكثر الفقهاء إلى أن العمد والخطأ سواء في لزوم الكفارة ، وقال الزهري : على المتعمد بالكتاب وعلى المخطئ بالسنة ، وقال سعيد بن جبير : لا تجب كفارة الصيد بقتل الخطأ ، بل يختص بالعمد . قوله عز وجل : { فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ } معناه أنه يجب عليه مثل ذلك الصيد من النعم ، وأراد به ما يقرب من الصيد المقتول شبها من حيث الخلقة لا من حيث القيمة ، { يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ } أي : يحكم

بالجزاء رجلان عدلان ، وينبغي أن يكونا فقيهين ينظران إلى أشبه الأشياء من النعم فيحكمان به { هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ } أي : يهدي تلك الكفارة إلى الكعبة ، فيذبحها بمكة ويتصدق بلحمها على مساكين الحرم ، { أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا } ، قال الفراء رحمه الله : العِدْل بالكسر : المثل من جنسه ، والعَدْل بالفتح : المثل من غير جنسه ، وأراد به أنه في جزاء الصيد مخير بين أن يذبح المثل من النعم فيتصدق بلحمه على مساكين الحرم ، وبين أن يقوّم المثل دراهم ، والدراهم طعاما فيتصدق بالطعام على مساكين الحرم ، أو يصوم عن كل مُدٍّ من الطعام يوما وله أن يصوم حيث شاء لأنه لا نفع فيه للمساكين . وقال مالك إن لم يخرج المثل يقوّم الصيد ثم يجعل القيمة طعاما فيتصدق به ، أو يصوم ، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه : لا يجب المثل من النَّعم بل يقوّم الصيد , فإن شاء صرف تلك القيمة إلى شيء من النَّعم ، وإن شاء إلى الطعام فيتصدق به ، وإن شاء صام عن كل نصف صاع من بر أو صاع من غيره يوما ، وقال الشعبي والنخعي جزاء الصيد على الترتيب ، والآية حجة لمن ذهب إلى التخيير . قوله تعالى : { لِيَذُوقَ

وَبَالَ أَمْرِهِ } أي : جزاء معصيته ، { عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ } يعني : قبل التحريم ونزول الآية، قال السدي : عفا الله عما سلف في الجاهلية ، { وَمَنْ عَادَ } { فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ } في الآخرة . { وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } ، وإذا تكرر من المحرم قتل الصيد فيتعدد عليه الجزاء عند عامة أهل العلم .

[96] قوله عز وجل : { أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ } والمراد بالبحر جميع المياه ، قال عمر رضي الله عنه : " صيده ما اصطيد وطعامه ما رمي به " . وعن ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة : طعامه ما قذفه الماء إلى الساحل ميتا . وقال قوم : هو المالح منه ، وهو قول سعيد بن جبير وعكرمة وسعيد بن المسيب وقتادة والنخعي ، وقال مجاهد : صيده : طريّه ، وطعامه : مالحه ، متاعا لكم أي : منفعة لكم ، وللسيارة يعني : المارّة . قوله تعالى { وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } ، صيد البحر حلال للمحرم ، كما هو حلال لغير المحرم ، أما صيد البر فحرام على المحرم وفي الحرم ، والصيد هو الحيوان الوحشي الذي يحل أكله ، أما ما لا يحل أكله فلا يحرم بسبب الإحرام ، وللمحرم أخذه وقتله .

[97] قوله عز وجل : { جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ } ، قال مجاهد : سميت كعبة لتربيعها والعرب تسمي كل بيت مربع كعبة ، قال مقاتل : سميت

كعبة لانفرادها من البناء ، وقيل : سميت كعبة لارتفاعها من الأرض ، وأصلها من الخروج والارتفاع ، وسمي الكعب كعبا لنتوئه وخروجه من جانبي القدم ، ومنه قيل للجارية إذا قاربت البلوغ وخرج ثديها : تكعبت ، وسمي البيت الحرام لأن الله تعالى حرمه وعظم حرمته . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض » (1) ، { قِيَامًا لِلنَّاسِ } ، قرأ ابن عامر (قيما) بلا ألف والآخرون قياما بالألف ، أي : قواما لهم في أمر دينهم ودنياهم ، أما الدين لأن به يقوم الحج والمناسك ، وأما الدنيا فيما يجبى إليه من الثمرات ، وكانوا يأمنون فيه من النهب والغارة فلا يتعرض لهم أحد في الحرم ، قال الله تعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ } ؟ { وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ } أراد به الأشهر الحرم ، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، أراد أنه جعل الأشهر الحرم قياما للناس يأمنون فيها القتال ،

---

(1) رواه البخاري في المغازي 8 / 26 , ومسلم (1353) بنحوه في الحج ، والمصنف في شرح السنة 7 / 294 .

{ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ } أراد أنهم كانوا يأمنون بتقليد الهدي ، فذلك القوام فيه ، { ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } ، فإن قيل : أي اتصال لهذا الكلام بما قبله ؟ قيل : أراد الله عز وجل جعل الكعبة قياما للناس لأن الله تعالى يعلم صلاح العباد كما يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، وقال الزجاج : قد سبق في هذه السورة الإخبار عن الغيوب والكشف عن الأسرار ، مثل قوله : { سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ} ومثل إخباره بتحريفهم الكتب ونحو ذلك ، فقوله : { ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } راجع إليه .
[98] { اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } .
[99] { مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ } التبليغ ، { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ } .

[100] { قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ } أي : الحلال والحرام ، { وَلَوْ أَعْجَبَكَ } سرَّك ، { كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ } ، ولا تتعرضوا للحجاج وإن كانوا مشركين { يا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } .
[101] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ } أي : إن تظهر لكم تسؤكم ، أي : إن أمرتم بالعمل بها { وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ } ، معناه صبرتم حتى ينزل القرآن بحكم من فرض أو نهي أو حكم ، وليس في ظاهره شرح ما بكم إليه حاجة ومست حاجتكم إليه ، فإذا سألتم عنها حينئذ تبد لكم ، { عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ } .
[102] { قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ } كما سألت ثمود صالحا الناقة وسأل قوم عيسى المائدة ، { ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ } فأهلكوا ، قال أبو ثعلبة الخشني : إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها وحد حدودا فلا تعتدوها ، وعفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها .

[103] { مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ } أي : ما أنزل الله ولا أمر به ، { وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ } قال ابن عباس : البحيرة هي الناقة التي كانت إذا ولدت خمسة أبطن بحروا أذنها ، أي : شقوها وتركوا الحمل عليها ولم يركبوها ، ولم يجزّوا وبرها , ولم يمنعوها الماء والكلأ ، وقال أبو عبيدة : السائبة البعير الذي

يسيب ، وذلك أن الرجل من أهل الجاهلية كان إذا مرض أو غاب له قريب نذر فقال : إن شفاني الله تعالى أو شُفي مريضي أو عاد غائبي فناقتي هذه سائبة ، ثم يسيبها فلا تحبس عن رعي ولا ماء ولا يركبها أحد فكانت بمنزلة البحيرة ، وأما الوصيلة : فمن الغنم كانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن نظروا فإن كان السابع ذكرا ذبحوه فأكل منه الرجال والنساء ، وإن كانت أنثى تركوها في الغنم ، وإن كان ذكرا وأنثى استحيوا الذكر من أجل الأنثى ، وقالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوه ، وكان لبن الأنثى حراما على النساء ، فإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء جميعا ، وأما الحام : فهو الفحل إذا رُكب ولد ولده ، ويقال : إذا نتج من صلبه عشرة أبطن ، قالوا : حُمي ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من كلأ ولا ماء ، فإذا

مات أكله الرجال والنساء { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } في قولهم الله أمرنا بها ، { وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } .

[104] { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ } في تحليل الحرث والأنعام وبيان الشرائع والأحكام ، { قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا } من الدِّين ، قال الله تعالى : { أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ } .

[105] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } ، وتضعونها في غير موضعها ولا تدرون ما هي ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا منكرا فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه » (1) , وفي رواية : « لتأمُرنَّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليسلطن الله سبحانه وتعالى عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب ، ثم ليدعون الله عز وجل خيارُكم فلا يستجاب لكم » (2) ، قال أبو عبيدة : خاف الصدّيق أن يتأول الناس الآية غير متأولها فيدعوهم إلى ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأعلمهم أنها ليست كذلك وأن الذي أذن في الإمساك عن تغييره من المنكر هو الشرك الذي ينطق به المعاهدون من أجل أنهم يتدينون به ، وقد صُولحوا عليه ، فأما الفسوق والعصيان والريب من أهل الإسلام فلا يدخل فيه , وقال مجاهد وسعيد بن جبير : الآية في اليهود والنصارى ، يعني :

____
(1) أخرجه أبو داود في الملاحم 6 / 187 ، والترمذي في الفتن 6 / 388 وقال حسن صحيح ، والمصنف في شرح السنة 14 / 344 ، وصححه ابن حبان ص 455 .
(2) ذكره الحافظ السيوطي في الجامع الصغير ، وقال : رواه البزار والطبراني في الأوسط عن أبي هريرة ، وأشار لحسنه ، وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد 13 / 92 .

عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل من أهل الكتاب فخذوا منهم الجزية واتركوهم ، وعن ابن عباس قال في هذه الآية : مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ما قبل منكم فإن رد عليكم فعليكم أنفسكم ، قوله عز وجل : { إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا } الضال والمهتدي ، { فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } .

[106] قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ } أي : ليشهد اثنان ، لفظه خبر ومعناه أمر ، وقيل : إن معناه : أن الشهادة فيما بينكم على الوصية عند الموت اثنان ، واختلفوا في هذين الاثنين ، فقال قوم : هما الشاهدان اللذان يشهدان على وصية الموصي ، وقال الآخرون : هما الوصيان ولا يلزم الشاهد يمين ، وجعل الوصي اثنين تأكيدا ، فعلى هذا تكون الشهادة بمعنى الحضور كقولك : شهدتُ وصية فلان ، بمعنى حضرت ، قال الله تعالى : { وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } يريد الحضور ، { ذَوَا عَدْلٍ } أي : أمانة وعقل ، { مِنْكُمْ } أي : من أهل دينكم يا معشر المؤمنين ، { أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ } أي : من غير دينكم وملتكم في قول أكثر المفسرين ثم اختلف هؤلاء في حكم الآية ، فقال النخعي وجماعة : هي منسوخة وكانت شهادة أهل الذمة مقبولة في الابتداء ثم نسخت ، وذهب قوم إلى أنها ثابتة ، وقالوا : إذا لم نجد مسلمين فنشهد كافرين ، وقال شريح : من كان بأرض غربة ولم يجد مسلما يُشهده على وصيته فأشهد كافرين على أي دين

كانا من دين أهل الكتاب أو عبدة الأوثان ، فشهادتهم جائزة ، ولا تجوز شهادة كافر على مسلم إلا على وصية في سفر ، وقال آخرون : قوله { ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ } أي : من حي الموصي أو آخران من غير حيّكم وعشيرتكم ، وهو قول الحسن والزهري وعكرمة ، وقالوا : لا تجوز شهادة كافر في شيء من الأحكام ، { إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ } سرتم وسافرتم ، { فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ } ، فأوصيتم إليهما ودفعتم إليهما مالكم فاتهمتهما بعض الورثة وادعوا عليهما خيانة فالحكم فيه أنْ { تَحْبِسُونَهُمَا } أي : تستوقفونهما ، { مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ } أي : بعد الصلاة ، و(من) صلة يريد بعد صلاة العصر لأن جميع أهل الأديان يعظمون ذلك الوقت ، ويجتنبون فيه الحلف الكاذب ، وقال السدي : من بعد صلاة أهل دينهما وملتهما لأنهما لا يباليان بصلاة العصر ، { فَيُقْسِمَانِ } يحلفان , { بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ } أي : شككتم ووقعت لكم الريبة في قول الشاهدين وصدقهما ، أي : في قول اللذين ليسا من أهل ملتكم ، فإن كانا مسلمين فلا يمين عليهما ، { لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا } أي : لا نحلف بالله كاذبين على عوض نأخذه أو مال

نذهب به أو حق نجحده ، { وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى } ولو كان المشهود له ذا قرابة منا ، { وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ } أضاف الشهادة إلى الله لأنه أمر بإقامتها ونهى عن كتمانها ، وقرأ يعقوب (شَهَادَةً) ، بتنوين ، (اللَّه) ممدود ، وجعل الاستفهام عوضا من حرف القسم ، ويروى عن أبي جعفر (شَهَادَةً) منونة (الله) بقطع الألف وكسر الهاء من غير استفهام على ابتداء اليمين ، أي : والله ، { إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ } ، أي : إن كتمناها كنا من الآثمين .

[107] { فَإِنْ عُثِرَ } أي : اطلع على خيانتهما ، وأصل العثور : الوقوع على الشيء ، { عَلَى أَنَّهُمَا } يعني : الوصيين { اسْتَحَقَّا } استوجبا , { إِثْمًا } بخيانتهما وبأيمانهما الكاذبة ، { فَآخَرَانِ } من أولياء الميت ، { يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا } يعني : مقام الوصيين ، { مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ } بضم التاء على المجهول ، هذا قراءة العامة ، يعني : الذين استحق ، { عَلَيْهِمُ } أي : فيهم ولأجلهم الإثم وهم ورثة الميت استحق الحالفان بسببهم الإثم , و(على) بمعنى في ، كما قال الله : { عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } ، وقرأ حفص { اسْتَحَقَّ } بفتح التاء والحاء ، وهي قراءة علي والحسن ، أي : حق ووجب عليهم الإثم ،

يقال : حق واستحق بمعنى واحد ، { الْأَوْلَيَانِ } نعت للآخران ، أي : فآخران الأوليان ، وإنما جاز ذلك و { الْأَوْلَيَانِ } معرفة والآخران نكرة لأنه لما وصف الآخران فقال (من الذين) صار كالمعرفة في المعنى و (الأوليان) تثنية الأولى ، والأولى هو الأقرب ، وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم ويعقوب (الْأَوَّلَيْنَ) بالجمع فيكون بدلا من الذين ، والمراد منهم أيضا أولياء الميت ، ومعنى الآية : إذا ظهرت

خيانة الحالفين يقوم اثنان آخران من أقارب الميت ، { فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا } ، يعني : يميننا أحق من يمينهما ، نظيره قوله تعالى في اللعان : { فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ } والمراد بها الأيمان ، فهو كقول القائل : أشهد بالله ، أي : أقسم بالله ، { وَمَا اعْتَدَيْنَا } في أيماننا وقولنا أن شهادتنا أحق من شهادتهما ، { إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ } والوصي إذا أخذ شيئا من مال الميت وقال : إنه أوصى لي به حلف الوارث إذا أنكر ذلك ، وكذلك لو ادعى رجل سلعة في يد رجل فاعترف ثم ادعى أنه اشتراها من المدعي ، حلف المدعي أنه لم يبعها منه .

[108] { ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا } ذلك الذي حكمنا به من رد اليمين أجدر وأحرى أن يأتي الوصيان بالشهادة على وجهها وسائر الناس أمثالهم ، أي : أقرب إلى الإتيان بالشهادة على ما كانت ، { أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ } أي : أقرب إلى أن يخافوا رد اليمين بعد يمينهم على المدعي ، فيحلفوا على خيانتهم وكذبهم فيفتضحوا ويغرموا فلا يحلفون كاذبين إذا خافوا هذا الحكم ، { وَاتَّقُوا اللَّهَ } أن تحلفوا أيمانا كاذبة أو تخونوا الأمانة , { وَاسْمَعُوا } الموعظة , { وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } .

[109] قوله عز وجل : { يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ } ، وهو يوم القيامة ، { فَيَقُولُ } لهم ، { مَاذَا أُجِبْتُمْ } أي : ما الذي أجابتكم أمتكم ؟ وما الذي رد عليكم قومكم حين دعوتموهم إلى توحيدي وطاعتي ؟ { قَالُوا } أي : فيقولون ، { لَا عِلْمَ لَنَا } ، قال ابن عباس معناه : لا علم لنا إلا العلم الذي أنت أعلم به منا ، وقيل : لا علم لنا بوجه الحكمة عن سؤالك إيانا عن أمر أنت أعلم به منا ، وقال ابن جريج : لا علم لنا بعاقبة أمرهم وبما أحدثوا من بعد ، دليله أنه قال : { إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } أي : أنت الذي تعلم ما غاب ونحن لا نعلم إلا ما نشاهد .

[110] قوله تعالى : { إِذْ قَالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ } ، قال الحسن : ذكر النعمة شكرها ، وأراد بقوله (نعمتي) أي : نعمي , لفظه واحد ومعناه جمع ، كقوله تعالى : { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا } ، { وَعَلَى وَالِدَتِكَ } مريم ، ثم ذكر النعم فقال : { إِذْ أَيَّدْتُكَ } قويتك ، { بِرُوحِ الْقُدُسِ } يعني جبريل عليه السلام ، { تُكَلِّمُ النَّاسَ } يعني : وتكلم الناس ، { فِي الْمَهْدِ } صبيا ، { وَكَهْلًا } نبيا , قال ابن عباس : أرسله الله وهو ابن ثلاثين سنة ، فمكث في رسالته ثلاثين شهرا ثم رفعه الله إليه ، { وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ } يعني الخط ، { وَالْحِكْمَةَ } يعني : العلم والفهم ، { وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ } تجعل وتصور ، { مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ } كصورة الطير ، { بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا } حيًّا يطير ، { بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ } وتصحح ، { الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى } من قبورهم أحياء ، { بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ } منعت وصرفت ، { بَنِي

إِسْرَائِيلَ } يعني اليهود , { عَنْكَ } حين همّوا بقتلك ، { إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ } , يعني : بالدلالات الواضحات والمعجزات ، وهي التي ذكرنا ، وسميت بالبينات لأنها مما يعجز عنها سائر الخلق الذين ليسوا بمرسلين ، { فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا } ما هذا ، { إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } يعني : ما جاءهم به من البينات ، قرأ حمزة والكسائي (ساحر مبين) هاهنا وفي سورة هود والصف ، فيكون راجعا إلى عيسى عليه السلام ، وفي هود يكون راجعا إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

[111] { وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ } ألهمتهم وقذفت في قلوبهم ، وقال أبو عبيدة : يعني أمرت و(إلى) صلة ، والحواريون خواص أصحاب عيسى عليه السلام ، { أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي } عيسى ، { قَالُوا } حين وفقتهم { آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ } .

[112] { إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ }{ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ } ، قرأ الكسائي (هل تستطيع) بالتاء ، (ربَّك) بنصب الباء وهو قراءة علي وعائشة وابن عباس ومجاهد ، أي : هل تستطيع أن تدعو وتسأل ربك ، وقرأ الآخرون (يستطيع) بالياء و (ربُّك) برفع الباء ، ولم يقولوه شاكين بقدرة الله عز وجل ولكن معناه هل ينزّل ربك أم لا ؟ كما يقول الرجل لصاحبه هل تستطيع أن تنهض معي ؟ وهو يعلم أنه يستطيع ، وإنما يريد هل يفعل ذلك أم لا ، وقيل : يستطيع بمعنى يطيع ، يقال : أطاع واستطاع بمعنى واحد ، كقوله : أجاب واستجاب ، معناه : هل يعطيك ربك بإجابة سؤالك ؟ وفي الآثار من أطاع الله أطاعه الله ، وأجرى بعضهم على الظاهر ، فقالوا : غلط القوم ، وقالوه قبل استحكام المعرفة وكانوا بشرا ، فقال لهم عيسى عليه السلام عند الغلط استعظاما لقولهم : { اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } ، أي : لا تشكّوا في قدرته ، { أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ } المائدة : الخوان الذي عليه الطعام ، وهي فاعلة من : مادَهُ يميده إذا أعطاه وأطعمه ، كقوله ماره يميره ، وامتار افتعل منه ،

والمائدة هي المطعمة للآكلين الطعام ، وسمي الطعام أيضا مائدة على الجواز ، لأنه يؤكل على المائدة ، وقال أهل الكوفة : سميت مائدة لأنها تميد بالآكلين ، أي : تميل ، وقال أهل البصرة : فاعلة بمعنى المفعولة ، يعني ميد بالآكلين إليها ، كقوله تعالى : { عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ } أي : مرضية ، { قَالَ } عيسى عليه السلام مجيبا لهم : " : { اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } فلا تشكّوا في قدرته ، وقيل : اتقوا الله أن تسألوه شيئا لم يسأله الأمم قبلكم ، فنهاهم عن اقتراح الآيات بعد الإيمان .

[113] { قَالُوا نُرِيدُ } أي : إنما سألنا لأنا نريد ، { أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا } أكل تبرك لا أكل حاجة فنستيقن قدرته ، { وَتَطْمَئِنَّ } وتسكن ، { قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا } بأنك رسول الله ، أي : نزداد إيمانا ويقينا ، وقيل : إن عيسى عليه السلام أمرهم أن يصوموا ثلاثين يوما فإذا فطروا لا يسألون الله شيئا إلا أعطاهم ، ففعلوا وسألوا المائدة ، وقالوا : ونعلم أن قد صدقتنا في قولك ، إنا إذا صمنا ثلاثين يوما لا نسأل الله تعالى شيئا إلا أعطانا ، { وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ } لله بالوحدانية والقدرة ، ولك بالنبوة والرسالة ، وقيل : ونكون من الشاهدين لك عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم .

[114] { قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ } عند ذلك ، { اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا } أي : عائدة من الله علينا حجة وبرهانا ، والعيد : يوم السرور ، سمي به للعود من الترح إلى الفرح ، وهو اسم لما اعتدته ويعود إليك ، وسمي يوم الفطر والأضحى عيدا لأنهما يعودان في كل سنة ، قال السدي : معناه نتخذ اليوم الذي أنزلت فيه عيدا لأولنا وآخرنا ، أي : نعظمه نحن ومن بعدنا ، وقال سفيان : نصلي فيه ، قوله (لأولنا) أي : لأهل زماننا , وآخرنا أي : لمن يجيء بعدنا ، وقال ابن عباس : يأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم ، { وَآيَةً مِنْكَ } دلالة وحجة ، { وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } .

[115] { قَالَ اللَّهُ } تعالى مجيبا لعيسى عليه السلام ، { إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ } يعني المائدة ، وقرأ أهل المدينة وابن عامر وعاصم (مُنَزِّلُهَا) بالتشديد لأنها نزلت مرات والتفعيل يدل على التكرير مرة بعد أخرى ، وقرأ الآخرون بالتخفيف لقوله أنزل علينا ، { فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ } أي : بعد نزول المائدة { فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا } أي : جنس عذاب ، { لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ } يعني : عالمي زمانه , فجحد القوم وكفروا بعد نزول المائدة فمُسخوا قردة وخنازير .

[116] قوله عز وجل : { وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ }{ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ } , واختلفوا في أن هذا القول متى يكون ، فقال السدي : قال الله تعالى هذا القول لعيسى عليه السلام حين رفعه إلى السماء لأن حرف (إذ) يكون للماضي ، وقال سائر المفسرين : إنما يقول الله له هذا القول يوم القيامة بدليل قوله من قبل : { يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ } ، وقال من بعد هذا : { يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ } ، وأراد بهما يوم القيامة ، وقد تجيء إذ بمعنى إذا كقوله عز وجل : { وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا } أي : إذا فزعوا يوم القيامة ، والقيامة وإن لم تكن بعد ولكنها كالكائنة لأنها آتية لا محالة ، قوله : { أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ } ؟ فإن قيل : فما وجه هذا السؤال عنه مع علم الله عز وجل أن عيسى لم يقله ؟ قيل هذا السؤال عنه لتوبيخ قومه وتعظيم أمر هذه المقالة ، كما يقول القائل لآخر : أفعلت كذا وكذا فيما يعلم أنه لم يفعله إعلاما واستعظاما لا استخبارا واستفهاما ، وأيضا أراد

الله عز وجل أن يقر عيسى عليه السلام عن نفسه بالعبودية ، فيسمع قومه منه ويظهر كذبهم عليه أنه أمرهم بذلك ، قال أبو روق : وإذا سمع عيسى عليه السلام هذا الخطاب أرعدت مفاصله ثم يقول مجيبا لله عز وجل : { قَالَ سُبْحَانَكَ } تنزيها وتعظيما لك , { مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } ، ما كان وما يكون .
[117] { مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ } وحّدوه ولا تشركوا به شيئا ، { وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ } وأقمت ، { فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي } قبضتني ورفعتني إليك ، { كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ } والحفيظ عليهم تحفظ أعمالهم ، { وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } .

[118] قوله تعالى : { إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ، فإن قيل كيف طلب المغفرة لهم وهم كفار ؟ وكيف قال : وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ، وهذا لا يليق بسؤال المغفرة ؟ قيل : أما

الأول فمعناه إن تعذبهم بإقامتهم على كفرهم وإن تغفر لهم بعد الإيمان وهذا يستقيم بعد الإيمان .
وقيل : هذا في الفريقين منهم معناه إن تعذب من كفر منهم وإن تغفر لمن آمن منهم .
وقيل : ليس هذا على وجه طلب المغفرة ولو كان كذلك لقال : فإنك أنت الغفور الرحيم ، ولكنه على تسليم الأمر وتفويضه إلى مراده .
وأما السؤال الثاني فكان ابن مسعود رضي الله عنه يقرأ وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم ، وكذلك هو في مصحفه ، وأما على القراءة المعروفة قيل فيه تقديم وتأخير تقديره : إن تغفر لهم فإنهم عبادك وإن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم .

وقيل : معناه إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز في الملك الحكيم في القضاء لا ينقص من عزك شيء ، ولا يخرج من حكمك شيء ، ويدخل في حكمته ومغفرته وسعة رحمته ومغفرته الكفار ، ولكنه أخبر أنه لا يغفر وهو لا يخلف خبره .

[119] { قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ } ، قرأ نافع (يوم) بنصب الميم ، يعني : تكون هذه الأشياء في يوم ، فحذف في فانتصب ، وقرأ الآخرون بالرفع على أنه خبر (هذا) ، أي : ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم في الآخرة ، ولو كذبوا ختم الله على أفواههم ونطقت به جوارحهم فافتضحوا ، وقيل : أراد بالصادقين النبيين ، وقال الكلبي : ينفع المؤمنين إيمانهم ، قال قتادة : متكلمان لا يخطئان يوم القيامة عيسى عليه السلام ، وهو ما قص الله ، وعدو الله إبليس ، وهو قوله : { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ } الآية . فصدق عدو الله يومئذ ، وكان قبل ذلك كاذبا فلم ينفعه صدقه ، وأما عيسى عليه السلام فكان صادقا في الدنيا والآخرة ، فنفعه صدقه ، وقال عطاء : هذا يوم من أيام الدنيا لأن الدار الآخرة دار جزاء لا دار عمل ، ثم بين ثوابهم فقال : { لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } .

[120] ثم عظّم نفسه فقال : { لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .

(6) سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم [1] { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } قال كعب الأحبار : هذه الآية أول آية في التوراة ، وآخر آية في التوراة قوله : { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا } الآية ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : افتتح الله الخلق بالحمد فقال : { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } ، وختمه بالحمد فقال : { وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ } ، أي : بين الخلائق ، وقيل : { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } . قوله : (الحمد لله) حمد الله نفسه تعليما لعباده ، أي : احمدوا الله الذي خلق السماوات والأرض ، خصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد وفيهما العبر والمنافع للعباد ، { وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } والجعل بمعنى الخلق ، وقال الواقدي : كل ما في القرآن من الظلمات والنور فهو الكفر والإيمان إلا في هذه الآية فإنه يريد بهما الليل والنهار ، وقال الحسن : وجعل الظلمات والنور يعني الكفر والإيمان ، وقيل :

أراد بالظلمات الجهل والنور العلم ، وقال قتادة : يعني الجنة والنار ، وقيل : معناه خلق الله السماوات

والأرض ، وقد جعل الظلمات والنور ، لأنه قد خلق الظلمة والنور قبل السماوات والأرض ، قال قتادة : خلق الله السماوات قبل الأرض ، وخلق الظلمة قبل النور ، والجنة قبل النار , { ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } أي : ثم الذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يعدلون ، أي : يشركون ، وأصله من مساواة الشيء بالشيء ، ومنه العدل ، أي : يعدلون بالله غير الله تعالى ، يقال : عدلت هذا بهذا إذا ساويته ، وبه قال النضر بن شميل ، الباء بمعنى عن ، أي عن ربهم ، يعدلون أي يميلون وينحرفون من العدول .

[2] قوله عز وجل : { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ } يعني آدم عليه السلام ، خاطبهم به إذ كانوا من ولده , { ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ } ، قال الحسن وقتادة والضحاك : الأجل الأول من الولادة إلى الموت ، والأجل الثاني من الموت إلى البعث ، وهو البرزخ ، وروي ذلك عن ابن عباس ، وقال : لكل أحد أجلان أجل من الولادة إلى الموت وأجل من الموت إلى البعث ، فإن كان برا تقيا وَصُولا للرحم زيد له من أجل البعث في أجل العمر ، وإن كان فاجرا قاطعا للرحم نقص من أجل العمر وزيد في أجل البعث ، وقال مجاهد وسعيد بن جبير : الأجل الأول أجل الدنيا ، والأجل الثاني أجل الآخرة ، وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما { ثُمَّ قَضَى أَجَلًا } يعني : النوم تقبض فيه الروح ثم ترجع عند اليقظة ، { وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ } هو أجل الموت ، وقيل : هما واحد معناه : ثم قضى أجلا يعني جعل لأعماركم مدة تنتهون إليها ، وأجل مسمى عنده يعني : وهو أجل مسمى عنده لا يعلمه غيره ، { ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ } تشكون في البعث .

[3] قوله عز وجل : { وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ } يعني : وهو إله السماوات والأرض ، كقوله : { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ } ، وقيل : هو المعبود في السماوات ، وقال محمد بن جرير : معناه وهو الله في السماوات يعلم سركم وجهركم في الأرض ، وقال الزجاج : فيه تقديم وتأخير وتقدير : وهو الله ، { يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ } في السماوات والأرض ، { وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ } تعملون من الخير والشر .
[4] { وَمَا تَأْتِيهِمْ } يعني : أهل مكة ، { مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ } مثل انشقاق القمر وغيره ، وقال عطاء : يريد من آيات القرآن ، { إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ } لها تاركين بها مكذبين .
[5] { فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ } بالقرآن ، وقيل : بمحمد صلى الله عليه وسلم ، { لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } أي : أخبار استهزائهم وجزاؤه ، أي : سيعلمون عاقبة استهزائهم إذا عُذِّبوا .

[6] قوله عز وجل : { أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ } ، يعني : الأمم الماضية ، والقرن : الجماعة من الناس ، وجمعه قرون ، وقيل : القرن مدة من الزمان ، يقال : ثمانون سنة ، وقيل : ستون سنة ، وقيل : أربعون سنة ، وقيل : ثلاثون سنة ، ويقال : مائة سنة ، لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن بسر المازني : « إنك تعيش قرنا » (1) . فعاش مائة سنة ، فيكون معناه على هذه الأقاويل من أهل قرن ، { مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ } أي : أعطيناهم ما لم نعطكم ، وقال ابن عباس : أمهلناهم في

العمر مثل قوم نوح وعاد وثمود ، يقال : مكنته ومكنت له ، { وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا } يعني : المطر ، مفعال من الدر ، قال ابن عباس : مدرارا أي : متتابعا في أوقات الحاجات ، وقوله : { مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ } من خطاب التلوين ، رجع من الخبر من قوله : (ألم يروا) إلى خطاب ، كقوله : { حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ } ، وقال أهل البصرة : أخبر عنهم بقوله (ألم يروا) وفيهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ثم خاطبهم معهم ،

---

(1) أخرجه البخاري في التاريخ الصغير ص 93 , وانظر الإصابة 4 / 23 وأسد الغابة 3 / 125 .

والعرب تقول : قلت لعبد الله ما أكرمه ، وقلت لعبد الله ما أكرمك ، { وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا } خلقنا وابتدأنا ، { مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ } .
[7] قوله عز وجل : { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ } الآية ، قال الكلبي ومقاتل : نزلت في النضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد ، قالوا : يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وأنك رسوله ، فأنزل الله عز وجل : { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ } مكتوبا من عنده ، { فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ } أي : عاينوه ومسّوه بأيديهم ، وذكر اللمس ولم يذكر المعاينة لأن اللمس أبلغ في إيقاع العلم من المعاينة ، فإن السحر يجري على المرئي ولا يجري على الملموس ، { لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } معناه : أنه لا ينفع معهم شيء لما سبق فيهم من علمي .

[8] { وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ } على محمد صلى الله عليه وسلم ، { مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ } ، أي : لوجب العذاب ، وفرغ من الأمر ، وهذا سنة الله في الكفار أنهم متى اقترحوا آية فأنزلت ثم لم يؤمنوا استؤصلوا بالعذاب ، { ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ } أي : لا يؤجلون ولا يمهلون ، وقال قتادة : لو أنزلنا ملكا ثم لم يؤمنوا لعُجّل لهم العذاب ولم يؤخروا طرفة عين ، وقال مجاهد : لقضي الأمر أي لقامت القيامة ، وقال الضحاك : لو أتاهم ملك في صورته لماتوا .

[9] { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا } يعني : لو أرسلنا إليهم ملكا ، { لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا } يعني في صورة رجل آدمي ، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة ، وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي ، وجاء الملكان إلى داود في صورة رجلين . قوله عز وجل : { وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ } أي : خلطنا عليهم ما يخلطون وشبهنا عليهم فلا يدرون أمَلَك هو أو آدمي ، وقيل معناه شبهوا على ضعفائهم فشبه عليهم ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : هم أهل الكتاب فرّقوا دينهم وحرّفوا الكلم عن مواضعه ، فلبس الله عليهم ما لبسوا على أنفسهم ، وقرأ الزهري (وَلَلَبَّسْنَا) بالتشديد على التكرير والتأكيد .
[10] { وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ } كما استهزئ بك يا محمد - يعزّي نبيه صلى الله عليه وسلم { فَحَاقَ } ، قال الربيع بن أنس : فنزل ، وقال عطاء : حل ، وقال الضحاك : أحاط ، { بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } أي : جزاء استهزائهم من العذاب والنقمة .

[11] { قُلْ } يا محمد لهؤلاء المكذبين المستهزئين ، { سِيرُوا فِي الْأَرْضِ } معتبرين ، يحتمل هذا : السير بالعقول والفكر ، ويحتمل السير بالأقدام ، { ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } أي : جزاء أمرهم وكيف أورثهم الكفر والتكذيب الهلاك ، يحذر كفار مكة عذاب الأمم الخالية .
[12] قوله عز وجل : { قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } فإن أجابوك وإلا فـ { قُلْ } أنت ، { لِلَّهِ } أمره بالجواب عقيب السؤال ليكون أبلغ في التأكيد وآكد في الحجة ، { كَتَبَ } أي : قضى ، { عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } هذا استعطاف منه تعالى للمتولين عنه إلى الإقبال عليه وإخبار بأنه رحيم بالعباد لا يعجل بالعقوبة ، ويقبل الإنابة والتوبة , { لَيَجْمَعَنَّكُمْ } اللام فيه لام القسم والنون نون التأكيد مجازه : والله ليجمعنّكم ، { إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } أي : في يوم القيامة ، وقيل : معناه ليجمعنكم في قبوركم إلى يوم القيامة ، { لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا } غبنوا { أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } .

[13] { وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } أي : استقر ، قيل : أراد ما سكن وما تحرك ، كقوله : { سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ } أي : الحر والبرد ، وقيل : إنما خص السكون بالذكر لأن النعمة فيه أكثر ، وقال محمد بن جرير : كل ما طلعت عليه الشمس وغربت فهو من ساكن الليل والنهار ، والمراد منه جميع ما في الأرض وقيل : معناه : وله ما يمر عليه الليل والنهار ، { وَهُوَ السَّمِيعُ } لأصواتهم ، { الْعَلِيمُ } بأسرارهم .

[14] قوله تعالى : { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا } ؟ وهذا حين دعي إلى دين آبائه ، فقال تعالى : قل يا محمد أغير الله أتخذ وليا ، ربا ومعبودا وناصرا ومعينا ؟ , { فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } أي : خالقهما ومبدعهما ومبتديهما ، { وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ } ، أي : وهو يَرزق ولا يُرزق ، كما قال : { مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ } . { قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ } يعني : من هذه الأمة ، والإسلام بمعنى الاستسلام لأمر الله ، وقيل : أسلم أخلص ، { وَلَا تَكُونَنَّ } يعني : وقيل لي ولا تكونن ، { مِنَ الْمُشْرِكِينَ } .
[15] { قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي } فعبدت غيره , { عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } يعني عذاب يوم القيامة .

[16] { مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ } يعني : من يُصرف العذاب عنه ، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب (يَصْرِف) بفتح الياء وكسر الراء ، أي : من يصرف الله عنه العذاب فقد رحمه ، وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الراء ، { يَوْمَئِذٍ } ، يعني : يوم القيامة ، { فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ } ، أي : النجاة البينة .

[17] قوله عز وجل : { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ } لا رافع ، { لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ } عافية ونعمة ، { فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } من الخير والضر . عن ابن عباس قال : « أهدي للنبي صلى الله عليه وسلم بغلة ، أهداها له كسرى فركبها بحبل من شعر ، ثم أردفني خلفه ، ثم سار بي مليا ثم التفت إليَّ فقال : يا غلام ، فقلت : لبيك يا رسول الله ، قال : " احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرّفْ إلى الله في الرخاء يعرفْك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد مضى القلم بما هو كائن ، فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بما لم يقضه الله تعالى لك لم يقدروا عليه ، ولو جهدوا أن يضروك بما لم يكتب الله تعالى عليك ، ما قدروا عليه ، فإن

استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل , فإن لم تستطع فاصبر فإن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ، وإن الفرج مع الكرب ، وإن مع العسر يسرا » (1) .

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في المسند 1 / 307 , والترمذي في القيامة 7 / 219 وقال حديث حسن صحيح .

[18] وهو { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } ، القاهر الغالب ، وفي القهر زيادة معنى على القدرة ، وهي منع غيره عن بلوغ المراد ، وقيل : هو المنفرد بالتدبير يجبر الخلق على مراده { وَهُوَ الْحَكِيمُ } ، في أمره ، { الْخَبِيرُ } بأعمال عباده .

[19] قوله عز وجل : { قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً } الآية ، قال الكلبي : أتى أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أرنا من يشهد أنك رسول الله فإنا لا نرى أحدا يصدقك ، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس عندهم ذكر ، فأنزل الله تعالى { قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً } فإن أجابوك ، وإلا { قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } على ما أقول ، ويشهد لي بالحق وعليكم بالباطل ، { وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ } ، لأخوفكم به يا أهل مكة ، { وَمَنْ بَلَغَ } ، ومن بلغه القرآن من العجم وغيرهم من الأمم إلى يوم القيامة .

عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » (1) . قال مقاتل : ومن بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له ، وقال محمد بن كعب القرظي : من بلغه القرآن فكأنما رأى محمدا صلى الله عليه وسلم وسمع منه ، { أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى } ولم يقل أخر لأن الجمع يلحقه التأنيث ، كقوله عز وجل : { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا } ، وقال : { فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى } ، { قُلْ } ، يا محمد إن شهدتم أنتم ، فـ { لَا أَشْهَدُ } ، أنا أن معه إلها { قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ } .

---

(1) أخرجه البخاري في الأنبياء 6 / 496 والمصنف في شرح السنة 1 / 243 .

[20] ، قوله تعالى : { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ } ، يعني : التوراة والإنجيل ، { يَعْرِفُونَهُ } يعني : محمدا صلى الله عليه وسلم بنعته وصفته ، { كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ } ، من بين الصبيان . { الَّذِينَ خَسِرُوا } ، غبنوا { أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } وذلك أن الله جعل لكل آدمي منزلا في الجنة ومنزلا في النار ، فإذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل أهل النار في الجنة ، ولأهل النار منازل أهل الجنة في النار ، وذلك الخسران .
[21] ، قوله تعالى : { وَمَنْ أَظْلَمُ } أكفر { مِمَّنِ افْتَرَى } ، اختلق { عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } ، فأشرك به غيره ، { أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ } ، يعني : القرآن ، { إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } ، الكافرون .
[22] ، { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا } ، أي : العابدين والمعبودين ، يعني : يوم القيامة ، قرأ يعقوب (يحشرهم) هنا ، وفي سبأ بالياء ، ووافق حفص في سبأ ، وقرأ الآخرون بالنون . { ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } ، أنها تشفع لكم عند ربكم .

[23] { ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ } ، قرأ حمزة والكسائي ويعقوب (يكن) بالياء لأن الفتنة بمعنى الافتتان ، فجاز تذكيره ، وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث الفتنة ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم (فِتْنَتُهُمْ) بالرفع جعلوه اسم كان ، وقرأ الآخرون بالنصب ، فجعلوا الاسم قوله : (أن قالوا) ، وفتنتهم الخبر ، ومعنى فتنتهم أي : قولهم وجوابهم ، وقال ابن عباس وقتادة : معذرتهم والفتنة التجربة ، فلما كان سؤالهم تجربة لإظهار ما في قلوبهم قيل له : فتنة ، وقال الزجاج في قوله { ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ } معنى لطيف وذلك مثل الرجل يفتتن بمحبوب ثم يصيبه فيه محنة فيتبرأ من محبوبه ، فيقال : لم تكن فتنتي إلا هذا ، كذلك الكفار فتنوا بمحبة الأصنام ولما رأوا العذاب تبرأوا منها ، يقول الله عز وجل : { ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ } في محبتهم للأصنام ، { إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } ، قرأ حمزة والكسائي (ربنا) بالنصب على نداء المضاف ، وقرأ الآخرون بالخفض على نعت والله ، وقيل : إنهم إذا رأوا يوم القيامة مغفرة الله تعالى وتجاوزه عن أهل التوحيد ، قالوا لبعضهم البعض :

تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجوا مع أهل التوحيد ، فيقولون : والله ربنا ما كنا مشركين ، فيختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالكفر .
[24] ، فقال عز وجل : { انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ } ، باعتذارهم بالباطل وتبريهم عن الشرك ، { وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } ، أي : زال وذهب عنهم ما كانوا يفترون من الأصنام ، وذلك أنهم كانوا يرجون شفاعتها ونصرتها ، فبطل كله في ذلك اليوم .

[25] ، قوله عز وجل : { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ } وإلى كلامك { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً } ، أغطية ، جمع كنان ، كالأعنة جمع عنان ، { أَنْ يَفْقَهُوهُ } ، أن يعلموه ، قيل : معناه أن لا يفقهوه ، وقيل : كراهة أن يفقهوه ، { وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا } ، صمما وثقلا ، وهذا دليل على أن الله تعالى يقلب القلوب فيشرح بعضها للهدى ، ويجعل بعضها في أكنة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن ، { وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ} ، من المعجزات والدلالات ، { لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } ، يعني أحاديثهم وأقاصيصهم ، والأساطير جمع : أسطورة ، وإسطارة ، وقيل : الأساطير هي الترهات والأباطيل ، وأصلها من سطرت ، أي : كتبت .

[26] ، { وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ } أي : ينهون الناس عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم { وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ } ، أي : يتباعدون عنه بأنفسهم ، نزلت في كفار مكة ، قاله محمد ابن الحنفية والسدي والضحاك ، وقال قتادة : ينهون عن القرآن وعن النبي صلى الله عليه وسلم ويتباعدون عنه ، وقال ابن عباس ومقاتل : نزلت في أبي طالب كان ينهى الناس عن أذى النبي صلى الله عليه وسلم ويمنعهم وينأى عن الإيمان به ، أي : يبعد { وَإِنْ يُهْلِكُونَ } ، أي : ما يهلكون ، { إِلَّا أَنْفُسَهُمْ } أي : لا يرجع وبال فعلهم إلا إليهم ، وأوزار الذين يصدونهم عليهم ، { وَمَا يَشْعُرُونَ } .

[27] ، قوله عز وجل : { وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ } ، يعني : في النار ، كقوله تعالى : { عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } أي : في ملك سليمان ، وقيل : عرضوا على النار ، وجواب (لو) محذوف معناه : لو تراهم في تلك الحالة لرأيت عجبا ، { فَقَالُوا يا لَيْتَنَا نُرَدُّ } ، يعني : إلى الدنيا : { وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } ، قراءة العامة كلها بالرفع على معنى . يا ليتنا نرد نحن ولا نكذب

ونكون من المؤمنين ، وقرأ حمزة وحفص ويعقوب { وَلَا نُكَذِّبَ } بنصب الباء والنون على جواب التمني ، أي : ليت ردنا وقع ، وأن لا نكذب ونكون ، والعرب تنصب جواب التمني بالواو كما تنصب بالفاء ، وقرأ ابن عامر (نكذب) بالرفع و(نكون) بالنصب لأنهم تمنوا أن يكونوا من المؤمنين ، وأخبروا عن أنفسهم أنهم لا يكذبون بآيات ربهم إن ردوا إلى الدنيا .

[28] ، { بَلْ بَدَا لَهُمْ } ، أي : ليس الأمر على ما قالوا إنهم لو ردوا لآمنوا بل بدا لهم : ظهر لهم ، { مَا كَانُوا يُخْفُونَ } ، يسرون ، { مِنْ قَبْلُ } ، في الدنيا من كفرهم ومعاصيهم ، وقيل : ما كانوا يخفون وهو قولهم { وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } ، فأخفوا شركهم وكتموا حتى شهدت عليهم جوارحهم بما كتموا وستروا ، لأنهم كانوا لا يخفون كفرهم في الدنيا ، إلا أن تجعل الآية في المنافقين ، وقال المبرد : بل بدا لهم جزاء ما كانوا يخفون ، وقال النضر بن شميل : بل بدا لهم بدا عنهم . ثم قال ، { وَلَوْ رُدُّوا } إلى الدنيا { لَعَادُوا لِمَا } يعني إلى ما ، { نُهُوا عَنْهُ } ، من الكفر { وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } ، في قولهم : لو رددنا إلى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين .
[29] ، { وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ } ، وهذا إخبار عن إنكارهم البعث ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، هذا من قولهم لو ردوا لقالوه .

[30] ، قوله تعالى : { وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ } ، أي : على حكمه وقضائه ومسألته ، وقيل : عرضوا على ربهم ، { قَالَ } ، لهم ، وقيل : تقول لهم الخزنة بأمر الله : { أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ } يعني : أليس هذا البعث والعذاب بالحق؟ { قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا } ، إنه حق ، قال ابن عباس : هذا في موقف ، وقولهم : والله ربنا ما كنا مشركين في موقف آخر ، وفي القيامة مواقف ، ففي موقف يقرون ، وفي موقف ينكرون . { قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } .

[31] { قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ } ، أي : خسروا أنفسهم بتكذيبهم المصير إلى الله والبعث بعد الموت ، { حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ } أي : القيامة { بَغْتَةً } ، أي : فجأة ، { قَالُوا يا حَسْرَتَنَا } ، ندامتنا ، ذكر على وجه النداء للمبالغة ، قال سيبويه : كأنه يقول : أيتها الحسرة هذا أوانك ، { عَلَى مَا فَرَّطْنَا } ، أي : قصرنا { فِيهَا } ، أي : في الطاعة ، وقيل : تركنا في الدنيا من عمل الآخرة ، وقال محمد بن جرير : الهاء راجعة إلى الصفقة ، وذلك أنه لما تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الآخرة بالدنيا قالوا : يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ، أي : في الصفقة ، فترك ذكر الصفقة اكتفاء بذكر قوله { قَدْ خَسِرَ } لأن الخسران إنما يكون في صفقة بيع ، والحسرة شدة الندم ، حتى يتحسر النادم ، كما يتحسر الذي تقوم به دابته في السفر البعيد ، { وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ } ، أثقالهم وآثامهم ، { عَلَى ظُهُورِهِمْ } ، قال السدي وغيره ، إن المؤمن إذ أخرج من قبره استقبله أحسن شيء صورة وأطيبه ريحا فيقول : هل تعرفني؟ فيقول : لا ، فيقول : أنا عملك الصالح فاركبني ، فقد طالما ركبتك

في الدنيا ، فذلك قوله عز وجل : { يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا } أي ركبانا ، وأما الكافر فيستقبله أقبح شيء صورة وأنتنه ريحا ، فيقول : هل تعرفني؟ فيقول : أنا عملك الخبيث طالما ركبتني في الدنيا فأنا اليوم أركبك ،

فهذا معنى قوله : { وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ } ، { أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ } ، يحملون قال ابن عباس . أي بئس الحمل حملوا .

[32] ، { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ } ، باطل وغرور لا بقاء لها { وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ } ، قرأ ابن عامر (ولدار الآخرة) مضافا أضاف الدار إلى الآخرة ، ويضاف الشيء إلى نفسه عند اختلاف اللفظين ، كقوله : (وحب الحصيد) ، وقولهم : ربيع الأول ومسجد الجامع ، سميت الدنيا لدنوها ، وقيل : لدناءتها ، وسميت الآخرة لأنها بعد الدنيا ، { خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ } الشرك ، { أَفَلَا تَعْقِلُونَ } ، أي : أن الآخرة أفضل من الدنيا ، قرأ أهل المدينة وابن عامر ويعقوب (أفلا تعقلون) بالتاء ها هنا وفي الأعراف وسورة يوسف ويس ، ووافق أبو بكر في سورة يوسف ، ووافق حفص إلا في سورة يس ، وقرأ الآخرون بالياء فيهن .

[33] ، قوله عز وجل : { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ } ، قال السدي : التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام ، فقال الأخنس لأبي جهل : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد بن عبد الله أصادق هو أم كاذب "؟ فإنه ليس ها هنا أحد يسمع كلامك غيري ، قال أبو جهل : والله إن محمدا لصادق وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية ، وقال ناجية بن كعب : قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم : لا نتهمك ولا نكذبك ولكنا نكذب الذي جئت به ، فأنزل الله تعالى { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ } (1) . بأنك كاذب ، { فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ } ، قرأ نافع والكسائي بالتخفيف ، وقرأ الآخرون بالتشديد من التكذيب ، والتكذيب هو أن تنسبه إلى الكذب ، وتقول له : كذبت ، والإكذاب هو أن تجده كاذبا ، تقول العرب : أجدبت الأرض وأخصبتها إذا وجدتها جدبة ومخصبة ، { وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } ، يقول : إنهم لا يكذبونك في السر لأنهم عرفوا صدقك فيما مضى ، وإنما يكذبون وحْيي ويجحدون

---

(1) أخرجه الترمذي في التفسير 8 / 437 والحاكم في المستدرك 2 / 315 وقال صحيح على شرط الشيخين .

آياتي ، كما قال : { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ } .
[34] ، { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ } ، كذبهم قومهم كما كذبتك قريش ، { فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا } ، بتعذيب من كذبهم ، { وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ } ، لا ناقض لما حكم به ، وقد حكم في كتابه بنصر أنبيائه عليهم السلام ، فقال : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ }{ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ }{ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ } ، وقال . { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا } وقال : { كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي } ، وقال الحسن بن الفضل : لا خلف لِعِدَتِه ، { وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ } ، و(من) صلة كما تقول : أصابنا من مطر .

[35] ، { وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ } أي : عظم عليك وشق أن أعرضوا عن الإيمان بك ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على إيمان قومه أشد الحرص ، وكانوا إذ سألوا آية أحب أن يريهم الله تعالى ذلك طمعا في إيمانهم ، فقال الله عز وجل : { فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا } ، تطلب وتتخذ نفقا سربا { فِي الْأَرْضِ } ومنه نافقاء اليربوع وهو أحد جحريه فتذهب

فيه ، { أَوْ سُلَّمًا } ، أي : درجا ومصعدا ، { فِي السَّمَاءِ } ، فتصعد فيه ، { فَتَأْتِيَهُمْ }{ بِآيَةٍ } فافعل { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى } ، فآمنوا كلهم ، { فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ } ، أي : بهذا الحرف ، وهو قوله : { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى } ، وأن من يكفر لسابق علم الله فيه .

[36] ، { إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ } ، يعني : المؤمنين الذين يسمعون الذكر فيتبعونه وينتفعون به دون من ختم الله على سمعه ، { وَالْمَوْتَى } ، يعني الكفار ، { يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } ، فيخزيهم بأعمالهم .
[37] ، قوله عز وجل : { وَقَالُوا } ، يعني : رؤساء قريش ، { لَوْلَا } هلا { نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } ما عليهم في إنزالها .

[38] ، قوله عز وجل : { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ } قيد الطيران بالجناح تأكيدا كما يقال نظرت بعيني وأخذت بيدي { إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ } ، قال مجاهد : أصناف مصنفة تعرف بأسمائها ، يريد أن كل جنس من الحيوان أمّة ، فالطير أمّة ، والهوام أمة ، والذباب أمّة ، والسباع أمّة ، تعرف بأسمائها مثل بني آدم ، يعرفون بأسمائهم, يقال : الإنس والناس ، وقيل : أمم أمثالكم يفقه بعضهم عن بعض ، وقيل : أمم أمثالكم في الخلق والموت والبعث ، وقال عطاء : أمم أمثالكم في التوحيد والمعرفة ، قال ابن قتيبة : أممٌ أمثالكم في الغذاء وابتغاء الرزق وتوقي المهالك ، { مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ } ، أي : في اللوح المحفوظ ، { مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ } ، قال ابن عباس والضحاك : حشرها موتها ، وقال أبو هريرة : يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير ، وكل شيء فيقتص للجمّاء من القرناء ، ثم يقول : كوني ترابا فحينئذ يتمنى الكافر ويقول يا ليتني كنت ترابا . عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لتردن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة

حتى يقاد للشاة الجماء من القرناء » (1) .
[39] قوله عز وجل : { وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ } ، لا يسمعون الخير ولا يتكلمون به ، { فِي الظُّلُمَاتِ } ، في ضلالات الكفر ، { مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } ، هو الإسلام .
[40] ، قوله تعالى . { قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ } ، هل رأيتم؟ والكاف فيه للتأكيد ، وقال الفراء رحمه الله : العرب تقول أرأيتك ، وهم يريدون أخبرنا ، كما يقول : أرأيتك إن فعلت كذا ماذا تفعل؟ أي : أخبرني ، وقرأ أهل المدينة (أرايتكم ، وأرايتم ، وأرايت) بتليين الهمزة الثانية ، والكسائي بحذفها ،قال ابن عباس : قل يا محمد لهؤلاء المشركين أرأيتكم ، { إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ } ، قبل الموت ، { أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ } يعني : يوم القيامة ، { أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ } ، في صرف العذاب عنكم ، { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } ، وأراد أن الكفار يدعون الله في أحوال الاضطرار كما أخبر الله عنهم : { وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } .

______

(1) أخرجه مسلم في البر والصلة (4 / 1997 / رقم 2582) .

[41]، ثم قال : { بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ } ، أي : تدعون الله ولا تدعون غيره ، { فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ } ، قيد الإجابة بالمشيئة والأمور كلها

بمشيئته ، { وَتَنْسَوْنَ } ، وتتركون ، { مَا تُشْرِكُونَ } .
[42] { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ } ، بالشدة والجوع ، { وَالضَّرَّاءِ } ، المرض والزمانة ، { لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ } ، أي : يتوبون ويخضعون ، والتضرع : السؤال بالتذلل .
[43] ، { فَلَوْلا } فهلا ، { إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا } ، عذابنا ، { تَضَرَّعُوا } ، آمنوا فيكشف عنهم ، أخبر الله عز وجل أنه قد أرسل إلى قوم بلغوا من القسوة إلى أنهم أخذوا بالشدة في أنفسهم وأموالهم فلم يخضعوا ولم يتضرعوا ، فذلك قوله : { وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ، من الكفر والمعاصي .

[44] ، { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ } ، تركوا ما وعظوا وأمروا به ، { فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ } ، قرأ أبو جعفر (فتَّحنا) بالتشديد في كل القرآن ، وقرأ ابن عامر كذلك إذا كان عقيبه جمعًا ، والباقون بالتخفيف . وهذا فتح استدراج ومكر ، أي : بدلنا مكان البلاء والشدة الرخاء والصحة ، { حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا } ، وهذا فرح بطر مثل فرح قارون بما أصاب من الدنيا ، { أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً } ، فجأة آمن ما كانوا وأعجب ما كانت الدنيا إليهم { فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ } ، آيسون من كل خير ، وقال أبو عبيدة : المبلس النادم الحزين ، وأصل الإبلاس : الأطراق من الحزن والندم ، روى عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت الله يعطي العبد ما يحب وهو مقيم على معصيته ، فإنما ذلك استدراج » (1) . " ثم تلا (فلما نسوا ما ذكروا به) الآية .

---

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده ج 4 / 145 وفيه رشدين بن سعد ، وهو ضعيف ، وانظر مجمع الزوائد (10 / 245) .

[45] ، { فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا } ، أي : آخرهم الذين بدبرهم ، يقال : دبر فلان القوم يدبرهم دبرا ودبورا إذا كان آخرهم ، ومعناه أنهم استؤصلوا بالعذاب فلم يبق منهم باقية ، { وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ، حمد الله نفسه على أن قطع دابرهم لأنه نعمة على رسله ، فذكر الحمد لله تعليما لهم ولمن آمن بهم ، أن يحمدوا الله على كفايته شر الظالمين ، وليحمد محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ربهم إذا أهلك المكذبين .

[46] ، قوله تعالى : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ } أيها المشركون ، { إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ } ، حتى لا تسمعوا شيئا أصلا { وَأَبْصَارَكُمْ } ، حتى لا تبصروا شيئا أصلا ، { وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ } ، حتى لا تفقهوا شيئا ولا تعرفوا من أمور الدنيا شيئا ، { مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ } ، ولم يقل بها مع أنه ذكر أشياء ، قيل : معناه يأتيكم بما أخذ منكم ، وقيل : الكناية ترجع إلى السمع الذي ذكر أولا ويندرج غيره تحته ، كقوله تعالى : { وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ } فالهاء راجعة إلى الله ، ورضا رسوله يندرج في رضا الله تعالى ، { انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ } ، أي : نبين لهم العلامات الدالة على التوحيد والنبوة ، { ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ } ، يعرضون عنها مكذبين .
[47] { قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً } فجأة ، { أَوْ جَهْرَةً } ، معاينة ترونه عند نزوله ، قال ابن عباس والحسن : ليلا أو نهارا ، { هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ } ، المشركون .

[48] ، قوله عز وجل : { وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ } العمل ، { فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ } ، حين يخاف أهل النار ، { وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } ، إذا حزنوا .
[49] ، { وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ } يصيبهم ، { الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } ، يكفرون .

[50] ، { قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ } ، نزل حين اقترحوا الآيات فأمره أن يقول لهم : { لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ } أي : خزائن رزقه فأعطيكم ما تريدون ، { وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ } ، فأخبركم بما غاب مما مضى ومما سيكون ، { وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ } ، قال ذلك لأن الملك يقدر على ما لا يقدر عليه الآدمي ويشاهد ما لا يشاهده الآدمي ، يريد لا أقول لكم شيئا من ذلك فتنكرون قولي وتجحدون أمري ، { إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ } ، أي : ما آتيكم به فمن وحي الله تعالى ، وذلك غير مستحيل في العقل مع قيام الدليل والحجج البالغة ، { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ } قال قتادة : الكافر والمؤمن ، وقال مجاهد : الضال والمهتدي ، وقيل : الجاهل والعالم ، { أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ } ، أي : أنهما لا يستويان .

[51] ، قوله عز وجل : { وَأَنْذِرْ بِهِ } ، خوف به أي : بالقرآن ، { الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا } ، يجمعوا ويبعثوا ، { إِلَى رَبِّهِمْ } ، وقيل : يخافون أي : يعلمون ، لأن خوفهم إنما كان من علمهم ، { لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ } من دون الله ، { وَلِيٌّ } قريب ينفعهم ، ماله { وَلَا شَفِيعٌ } ، يشفع لهم { لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } ، فينتهون عما نهوا عنه ، وإنما نفَى الشفاعة لغيره- مع أن الأنبياء والأولياء يشفعون- لأنهم لا يشفعون إلا بإذنه .

[52] { وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ } قرأ ابن عامر (بالغُدْوة) بضم الغين وسكون الدال وواو بعدها ها هنا وفي سورة الكهف ، وقرأ الآخرون بفتح الغين والدال وألف بعدها ، (بالغداة والعشي) يعني : صلاة الصبح وصلاة العصر . ويروى أن المراد منه الصلوات الخمس ، وذلك أن أناسا من الفقراء كانوا مع النبي عليه الصلاة والسلام ، فقال ناس من الأشراف : إذا صلينا فأخر هؤلاء فليصلوا خلفنا ، فنزلت هذه الآية ، وقال إبراهيم النخعي : يعني يذكرون ربهم ، وقيل المراد منه : حقيقة الدعاء ، { يُرِيدُونَ وَجْهَهُ } ، أي : يريدون الله بطاعتهم . قال ابن عباس رضي الله عنهما : يطلبون ثواب الله فقال : { مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ } ، أي : لا تكلف أمرهم ولا يتكلفون أمرك ، وقيل : ليس رزقهم عليك فتملهم { فَتَطْرُدَهُمْ } ، ولا رزقك عليهم ، قوله { فَتَطْرُدَهُمْ } ، جواب لقوله : { مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ } وقوله : { فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ } ، جواب لقوله (ولا تطرد) أحدهما جواب النفي والآخر جواب النهي .

[53] ، { وَكَذَلِكَ فَتَنَّا } ، أي ابتلينا ، { بَعْضَهُمْ }{ بِبَعْضٍ } أراد ابتلى الغني بالفقير والشريف بالوضيع ، وذلك أن الشريف إذا نظر إلى الوضيع قد سبقه بالإيمان امتنع من الإسلام بسببه فكان فتنة له فذلك قوله : { لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا } ، فقال الله تعالى : { أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ } ، فهو جواب لقوله : { أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا } ، فهو استفهام بمعنى التقرير ، أي : الله أعلم بمن شكر الإسلام إذ هداه الله عز وجل .

[54] ، { وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ } ، قال عكرمة : نزلت في الذين نهى الله عز وجل نبيه عن طردهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رآهم بدأهم بالسلام (1) . وقال عطاء : نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبلال وسالم وأبي عبيدة ومصعب بن عمير وحمزة وجعفر وعثمان بن مظعون وعمار بن يا سر والأرقم بن أبي الأرقم وأبي سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنهم أجمعين . { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } ، أي : قضى على نفسه الرحمة ، { أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ } ، قال مجاهد : لا يعلم حلالا من حرام فمن جهالته ركب الذنب ، وقيل : جاهل بما يورثه ذلك الذنب ، وقيل : جهالته من حيث إنه آثر المعصية على الطاعة والعاجل القليل على الآجل الكثير ، { ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ } ، رجع عن ذنبه ، { وَأَصْلَحَ } ، عمله ، وقيل : أخلص توبته ، { فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } ، قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب (أنه من عمل) (فأنه غفور رحيم) ، بفتح الألف فيهما بدلا من الرحمة ، أي : كتب على نفسه أنه من عمل منكم ، ثم جعل الثانية بدلا عن الأولى ، كقوله تعالى : {

____

(1) انظر أسباب النزول ص 252 والطبري 11 / 380 .

أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ } وفتح أهل المدينة الأولى منهما وكسر الثانية على الاستئناف وكسرهما الآخرون على الاستئناف .

[55] ، { وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ } ، أي : وهكذا ، وقيل : معناه وكما فصلنا لك في هذه السورة دلائلنا وإعلامنا على المشركين كذلك نفصل الآيات ، أي : نميز ونبين لك حجتنا في كل حق ينكره أهل الباطل ، { وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } ، أي : طريق المجرمين ، وقرأ أهل المدينة (ولتستبين) بالتاء (سبيل المجرمين) نصب على خطاب النبي صلى الله عليه وسلم ، أي : ولتعرف يا محمد سبيل المجرمين ، يقال : استبنت الشيء وتبينته إذا عرفته ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر (وليستبين) بالياء (سبيل) بالرفع ، وقرأ الآخرون (ولتستبين) بالتاء { سَبِيلُ } رفع : أي : ليظهر وليتضح السبيل ، يذكر ويؤنث ، فدليل التذكير قوله تعالى : { وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا } ، ودليل التأنيث قوله تعالى : { لِمَ }{ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا } .

[56] ، قوله عز وجل : { قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ } في عبادة الأوثان وطرد الفقراء ، { قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ } ، يعني : إن فعلت ذلك فقد تركت سبيل الحق وسلكت غير طريق الهدى .

[57] ، { قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ } ، أي : على بيان وبصيرة وبرهان { مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ } ، أي : ما جئت به ، { مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ } ، قيل : أراد به استعجالهم بالعذاب ، كانوا يقولون : { إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً } الآية ، وقيل . أراد به القيامة ، قال الله : { يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا } ، { إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ } ، وقرأ الآخرون (يقضي) بسكون القاف والضاد مكسورة ، من قضيت ، أي : يحكم بالحق بدليل أنه قال : { وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ } ، والفصل يكون في القضاء ، وإنما حذفوا الياء لاستثقال الألف واللام ، كقوله تعالى : (صال الجحيم) ونحوها ، ولم يقل بالحق لأن الحق صفة المصدر ، كأنه قال . يقضي القضاء الحق .

[58] ، { قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي } ، وبيدي ، { مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ } ، من العذاب ، { لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } ، أي : فرغ من العذاب وأهلكتم ، أي : لعجلته حتى أتخلص منكم ، { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ } .

[59] ، قوله تعالى : { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ } ، مفاتح الغيب خزائنه ، جمع مفتح ، واختلفوا في مفاتح الغيب . قال رسول الله : "مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما تغيض الأرحام أحد إلا الله تعالى ، ولا يعلم ما في الغد إلا الله عز وجل ، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت ، ولا يعلم متى تقوم الساعة أحد إلا الله " . وقال الضحاك ومقاتل . مفاتح الغيب خزائن الأرض ، وعلم نزول العذاب ، وقال عطاء : ما غاب عنكم من الثواب والعقاب ، وقيل : انقضاء الآجال ، وقيل : أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم ، وقيل : هي ما لم يكن بعد أنه يكون أم لا يكون ، وما يكون كيف يكون ، وما لا يكون أن لو كان كيف يكون؟ وقال ابن مسعود : أوتي نبيكم علم كل شيء إلا علم مفاتيح الغيب . { وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } ، قال مجاهد : البر : المفاوز والقفار ، والبحر : القرى والأمصار ، لا يحدث فيهما شيء إلا يعلمه ، وقيل : هو البر والبحر المعروف ، { وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا } يريد ساقطة وثابتة ، يعني : يعلم عدد

ما يسقط من ورق الشجر وما يبقى عليه ، وقيل : يعلم كم انقلبت ظهرا لبطن إلى أن سقطت على الأرض { وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ } ، قيل هو الحب المعروف في بطون الأرض ، وقيل : هو تحت الصخرة التي في أسفل الأرضين ، { وَلَا رَطْبٍ وَلَا يا بِسٍ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : الرطب الماء ، واليابس البادية ، وقال عطاء : يريد ما ينبت وما لا ينبت ، وقيل : ولا حي ولا ميت ، وقيل : هو عبارة عن كل شيء ، { إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } ، يعني أن الكل مكتوب في اللوح المحفوظ .

[60] ، قوله تعالى : { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ } ، أي : يقبض أرواحكم إذا نمتم بالليل ، { وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ } ، كسبتم ، { بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ } ، أي : يوقظكم في النهار ، { لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى } ، يعني : أجل الحياة إلى الممات ، يريد استيفاء العمر على التمام ، { ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ } ، في الآخرة { ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ } ، يخبركم ، { بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } .

[61] ، { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً } ، يعني : الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم ، وهو جمع حافظ ، نظيره { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ }{ كِرَامًا كَاتِبِينَ } , { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ } قرأ حمزة (توفيه) و(استهويه) بالياء وأمالهما ، { رُسُلُنَا } يعني : أعوان ملك الموت يقبضونه فيدفعونه إلى ملك الموت فيقبض روحه ، كما قال : { قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ } وقيل : الأعوان يتوفونه بأمر ملك الموت فكأن ملك الموت توفاه لأنهم يصدرون عن أمره ، وقيل : أراد بالرسل ملك الموت وحده ، فذكر الواحد بلفظ الجمع ، { وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ } ، لا يقصرون .

[62] ، { ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ } ، يعني : الملائكة ، وقيل : يعني العباد يردون بالموت إلى الله مولاهم الحق ، فإن قيل الآية في المؤمنين والكفار جميعا وقد قال في آية أخرى : { وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ } ، فكيف

وجه الجمع؟ فقيل : المولى في تلك الآية بمعنى الناصر ولا ناصر للكفار ، والمولى ها هنا بمعنى المالك الذي يتولى أمورهم والله عز وجل مالك الكل ومتولي الأمور ، وقيل : أراد هنا المؤمنين خاصة يردون إلى مولاهم ، والكفار فيه تبع ، { أَلَا لَهُ الْحُكْمُ } ، أي : القضاء دون خلقه ، { وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ } ، أي : إذا حاسب فحسابه سريع لأنه لا يحتاج إلى فكرة وروية وعقد يد .

[63] ، قوله تعالى : { قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ } ، قرأ يعقوب بالتخفيف ، وقرأ العامة بالتشديد ، { مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } ، أي : من شدائدهما وأهوالهما ، كانوا إذا سافروا في البر والبحر فضلوا الطريق وخافوا الهلاك ، دعوا الله مخلصين له الدين فينجيهم ، فذلك قوله تعالى : { تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً } ، أي : علانية وسرا ، قرأ أبو بكر عن عاصم (وخيفة) بكسر الخاء هنا وفي الأعراف ، وقرأ الآخرون بضمها وهما لغتان ، { لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا } ، أي : يقولون لئن أنجيتنا ، وقرأ أهل الكوفة : لئن أنجانا الله ، { مِنْ هَذِهِ } ، يعني : من هذه الظلمات ، { لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } ، والشكر : هو معرفة النعمة مع القيام بحقها .

[64] ، { قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا } ، قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر (ينجيكم) بالتشديد ، مثل قوله تعالى : (قل من ينجيكم) ، وقرأ الآخرون هذا بالتخفيف ، { وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ } ، والكرب غاية الغم الذي يأخذ النفس ، { ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ } ، يريد أنهم يقرون أن الذي يدعونه عند الشدة هو الذي ينجيهم ثم يشركون معه الأصنام التي قد علموا أنها لا تضر ولا تنفع .

[65] ، قوله عز وجل : { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ } قال الحسن وقتادة : نزلت الآية في أهل الإيمان ، وقال قوم نزلت في المشركين ، وقوله { عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ } يعني : الصيحة والحجارة والريح والطوفان ، كما فعل بعاد وثمود وقوم لوط وقوم نوح { أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ } ، يعني : الرجفة والخسف كما فعل بقوم شعيب وقارون ، وعن ابن عباس ومجاهد : { عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ } السلاطين الظلمة ، ومن تحت أرجلكم العبيد السوء ، وقال الضحاك : من فوقكم من قبل كباركم أو من تحت أرجلكم أي من أسفل منكم ، { أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا } ، أي يخلطكم فرقا ويبث فيكم الأهواء المختلفة ، { وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ } ، يعني السيوف المختلفة ، يقتل بعضكم بعضا . { انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ } .
[66] { وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ } ، أي : بالقرآن ، وقيل بالعذاب ، { وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ } ، برقيب ، وقيل : بمسلط ألزمكم الإسلام شئتم أو أبيتم ، وإنما أنا رسول .

[67] ، { لِكُلِّ نَبَإٍ } ، خبر من أخبار القرون ، { مُسْتَقَرٌّ } ، حقيقة ومنتهى ينتهي إليه فيتبين صدقه من كذبه وحقه من باطله ، إما في الدنيا وإما في الآخرة { وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } ، وقال مقاتل : لكل خبر يخبره الله وقت وقته ومكان يقع فيه من غير خلف ولا تأخير ، وقال الكلبي : لكل قول وفعل حقيقة ، إما في الدنيا وإما في الآخرة وسوف تعلمون ما كان في الدنيا فستعرفونه وما كان في الآخرة فسوف يبدو لكم .
[68] ، قوله عز وجل : { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا } ، يعني : في القرآن بالاستهزاء ، { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } ، فاتركهم ولا تجالسهم ، { حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ } ، قرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد السين وقرأ الآخرون بسكون النون وتخفيف السين ، { الشَّيْطَانُ } ، نَهْيَنا ،

{ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } ، يعني : إذا جلست معهم ناسيا فقم من عندهم بعدما تذكرت .

[69] { وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ } روي عن ابن عباس أنه قال : لما نزلت هذه الآية : { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } ، قال المسلمون : كيف نقعد في المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبدا؟ وفي رواية : قال المسلمون : فإنا نخاف الإثم حين نتركهم ولا ننهاهم ، فأنزل الله عز وجل { وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ } ، الخوض, { مِنْ حِسَابِهِمْ } أي : من إثم الخائضين { مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى } ، أي : ذكروهم وعظوهم بالقرآن ، والذكر والذكرى واحد ، يريد ذكروهم ذكرى ، فيكون في محل النصب { لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } ، الخوض إذا وعظتموهم فرخص في مجالستهم على الوعظ لعلهم يمنعهم من ذلك الخوض ، قيل : لعلهم يستحيون .

[70] ، قوله عز وجل : { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا } ، يعني الكفار الذين إذا سمعوا بآيات الله استهزءوا بها وتلاعبوا عند ذكرها ، وقيل : إن الله تعالى جعل لكل قوم عيدا فاتخذ كل قوم دينهم- أي : عيدهم- لعبا ولهوا وعيد المسلمين الصلاة وتكبيراتها وفعل الخير مثل الجمعة والفطر والنحر ، { وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ } أي : وعظ بالقرآن ، { أَنْ تُبْسَلَ } ، أي : لأن لا تبسل ، أي : لا تسلم ، { نَفْسٌ } للهلاك ، { بِمَا كَسَبَتْ } ، قال مجاهد وعكرمة والسدي - قال ابن عباس : تهلك ، وقال قتادة : أن تحبس ، وقال الضحاك : تحرق ، وقال ابن زيد : تؤخذ ، ومعناه . ذكرهم لأن يؤمنوا كيلا تهلك نفس بما كسبت ، وقال الأخفش : تبسل تجازى ، وقيل : تفضح ، وقال الفراء : ترتهن ، وأصل الإبسال التحريم ، والبسل الحرام ، ثم جعل نعتا لكل شدة تتقى وتترك { لَيْسَ لَهَا } ، لتلك النفس ، { مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ } ، قريب { وَلَا شَفِيعٌ } ، يشفع في الآخرة { وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ } ، أي : تفد كل فداء ، { لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا } ، هنا ، { أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا

} ، أسلموا للهلاك ، { بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ }

[71] ، { قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا } ، إن عبدناه ، { وَلَا يَضُرُّنَا } ، إن تركناه ، يعني : الأصنام ليس إليها نفع ولا ضر ، { وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا } ، إلى الشرك مرتدين ، { بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ } ، أي : يكون مثلنا كمثل الذي استهوته الشياطين ، أي : أضلته ، { فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ } ، قال ابن عباس : كالذي استهوته الغيلان في المهامة فأضلوه فهو حائر بائر ، والحيران : المتردد في الأمر لا يهتدي إلى مخرج منه ، { لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا } هذا مثل ضربه الله تعالى لمن يدعو إلى الآلهة ولمن يدعو إلى الله تعالى كمثل رجل في رفقة ضل به الغول عن الطريق يدعوه أصحابه من أهل الرفقة هلم إلى الطريق ، ويدعوه الغول فيبقى حيران لا يدري أين يذهب ، فإن أجاب الغول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة ، وإن أجاب من يدعوه إلى الطريق اهتدى ، { قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى } ، يزجر عن عبادة الأصنام ، كأنه يقول : لا تفعل ذلك فإن الهدى هدى الله لا يهدي غيره ، { وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ } ، أي : أن نسلم ، {

لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } ، والعرب تقول : أمرتك لتفعل وأن تفعل وبأن تفعل .
[72] ، { وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ } ، أي : وأمرنا بإقامة الصلاة والتقوى ، { وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } أي : تجمعون في الموقف للحساب .

[73] ، { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ } ، قيل : الباء بمعنى اللام ، أي : إظهارا للحق لأنه جعل صنعه دليلا على وحدانيته ، { وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ } ، قيل : هو راجع إلى خلق السماوات والأرض ، والخلق بمعنى : القضاء والتقدير ، أي : كل شيء قضاه وقدره قال له : كن فيكون . وقيل : يرجع إلى القيامة يدل على سرعة أمر البعث والساعة ، كأنه قال : ويوم يقول للخلق موتوا فيموتون ، وقوموا فيقومون ، { قَوْلُهُ الْحَقُّ } ، أي : الصدق الواقع لا محالة ، يريد أن ما وعده حق كائن ، { وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ } ، يعني ملك الملوك يومئذ زائل ، كقوله { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } ، وكما قال : { وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ } ، والأمر لله في كل وقت ، ولكن لا أمر في ذلك اليوم لأحد مع أمر الله ، والصور : قرن ينفخ فيه ، قال مجاهد : كهيئة البوق ، وقيل : هو بلغة أهل اليمن ، وقال أبو عبيدة : الصور هو الصور وهو جمع الصورة ، وهو قول الحسن ، والأول أصح ، والدليل عليه ما ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما

الصور؟ قال : "قرن ينفخ فيه » (1) . قوله تعالى : { عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } يعني : يعلم ما غاب عن العباد وما يشاهدونه لا يغيب عن علمه شيء ، { وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } .

---

(1) أخرجه الترمذي في القيامة 7 / 117 وقال حديث حسن صحيح ، والدارمي في الرقاق 2 / 325 ، وصححه الحاكم 2 / 506 ، والإمام أحمد في المسند 2 / 162 ، 192 .

[74] ، قوله عز وجل : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ } ، قرأ يعقوب (آزر) بالرفع ، يعني : (آزر) ، والقراءة المعروفة بالنصب ، وهو اسم أعجمي لا ينصرف فينصب في موضع الخفض ، قال محمد بن إسحاق والضحاك والكلبي . آزر اسم أبي إبراهيم وهو تارخ أيضا ، وقال مقاتل بن حيان وغيره : آزر لقب لأبي إبراهيم ، واسمه تارخ ، وقال سليمان التيمي : هو سب وعيب ، ومعناه في كلامهم المعوج ، وقيل : معناه الشيخ الهرم بالفارسية ، وقال سعيد بن المسيب ومجاهد : آزر اسم صنم ، فعلى هذا يكون في محل النصب تقديره { أَتَتَّخِذُ } آزر إلها قوله { أَصْنَامًا آلِهَةً } ، دون الله ، { إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } ، أي : في خطأ بين .

[75] ، { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ } أي : كما أريناه البصيرة في دينه ، والحق في خلاف قومه كذلك نريه { مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، والملكوت الملك زيدت فيه التاء للمبالغة كالجبروت والرحموت والرهبوت, قال ابن عباس : يعني خلق السماوات والأرض ، وقال مجاهد وسعيد بن جبير : يعني آيات السماوات والأرض ، وذلك أنه أقيم على صخر وكشف له عن ملكوت السماوات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين ونظر إلى مكانه في الجنة ، فذلك قوله تعالى : { وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا } يعني . أريناه مكانه في الجنة ، وقال قتادة : ملكوت السماوات . الشمس والقمر والنجوم ، وملكوت الأرض .

الجبال والشجر والبحار ، { وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } ، عطف على المعنى ، ومعناه : نريه ملكوت السماوات والأرض ، ليستدل به وليكون من الموقنين .

[76] ، { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ } أي : دخل الليل ، يقال : جن الليل وأجن الليل ، وجنه الليل ، وأجن عليه الليل يجن جنونا وجنانا إذا أظلم وغطى كل شيء ، وجنون الليل سواده ، { رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي } اختلفوا في قوله ذلك فأجراه بعضهم على الظاهر ، وقالوا : كان إبراهيم مسترشدا طالبا للتوحيد حتى وفقه الله وآتاه رشده فلم يضره ذلك في حال الاستدلال ، وأيضا كان ذلك في حال طفولته قبل قيام الحجة عليه ، فلم يكن كفرا ، وأنكر الآخرون هذا القول ، وقالوا : لا يجوز أن يكون لله رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله موحد وبه عارف ، ومن كل معبود سواه بريء ، وكيف يتوهم هذا على من عصمه الله وطهره واتاه رشده من قبل وأخبر عنه فقال : { إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } ، وقال : { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، أفتراه أراه الملكوت ليوقن فلما أيقن رأى كوكبا قال : هذا ربي معتقدا؟! فهذا ما لا يكون أبدا . { فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } . وما لا يدوم .

[77] ، { فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا } ، طالعا ، { قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي } ، وقيل : لئن لم يثبتني ربي على الهدى ، ليس أنه لم يكن مهتديا ، والأنبياء لم يزالوا يسألون الله تعالى الثبات على الإيمان { لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } أي : عن الهدى .
[78] ، { فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً } طالعة ، { قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ } أي : أكبر من الكوكب والقمر ، ولم يقل هذه مع أن الشمس مؤنثة لأنه أراد هذا الطالع ، أو رده إلى المعنى ، وهو الضياء والنور ، لأنه رآه أضوأ من النجوم والقمر ، { فَلَمَّا أَفَلَتْ } ، غربت ، { قَالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ }
[79] { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } .

[80] ، { وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ } أي : خاصمه وجادله قومه في دينه ، { قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ } يقول : أتجادلونني في توحيد الله { وَقَدْ هَدَانِي } للتوحيد والحق { وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ } ، وذلك أنهم قالوا له : احذر الأصنام فإنا نخاف أن تمسك بسوء من خبل أو جنون لعيبك إياها ، فقال لهم : ولا أخاف ما تشركون به ، { إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا } ، وليس هذا باستثناء من الأول بل هو استثناء منقطع ، معناه لكن إن يشأ ربي شيئا أي سوء فيكون ما شاء ، { وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا } ، أي : أحاط علمه بكل شيء { أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } .
[81] ، { وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ } ، يعني الأصنام وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع ، { وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا } ، حجة وبرهانا ، وهو القاهر القادر على كل شيء ، { فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ } ، أولى { بِالْأَمْنِ } أنا وأهل ديني أم أنتم ، { إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } فقال الله تعالى قاضيا بينهما :

[82] ، { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } لم يخلطوا إيمانهم بشرك , { أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ }

[83] ، قوله عز وجل : { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ } ، حتى خصمهم وغلبهم بالحجة { نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ } ، بالعلم . قرأ أهل الكوفة

ويعقوب (درجات) بالتنوين ها هنا وفي سورة يوسف ، أي : نرفع درجات من نشاء بالعلم والفهم والفضيلة والعقل ، كما رفعنا درجات إبراهيم حتى اهتدى وحاج قومه في التوحيد ، { إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } .
[84] ، { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا } ، ووفقنا وأرشدنا .

{ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ } أي : من قبل إبراهيم ، { وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ } ، أي : من ذرية نوح عليه السلام ، ولم يرد من ذرية إبراهيم ، لأنه ذكر في جملتهم يونس ولوطا ولم يكونا من ذرية إبراهيم ، دَاوُدَ ، هو داود بن أيشا ، وَسُلَيْمَانَ ، يعني ابنه وَأَيُّوبَ ، وهو أيوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم ، وَيُوسُفَ ، هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ، وَمُوسَى ، وهو موسى بن عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وَهَارُونَ ، هو أخو موسى أكبر منه بسنة ، { وَكَذَلِكَ } ، أي : كما جزينا إبراهيم على توحيده بأن رفعنا درجته ووهبنا له أولادا أنبياء أتقياء كذلك { نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } ، على إحسانهم ، وليس ذكرهم على ترتيب أزمانهم .

[85] ، وَزَكَرِيَّا ، هو زكريا بن اذن ، وَيَحْيَى ، وهو ابنه ، وَعِيسَى ، وهو ابن مريم بنت عمران ، وَإِلْيَاسَ ، واختلفوا فيه ، قال ابن مسعود : هو إدريس وله اسمان مثل يعقوب وإسرائيل ، والصحيح أنه غيره لأن الله تعالى ذكره في ولد نوح ، وإدريس جد أبي نوح ، وهو إلياس بن بشير ابن فنحاص بن عيزار بن هارون بن عمران { كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ } .
[86] ، { وَإِسْمَاعِيلَ } ، وهو ولد إبراهيم ، { وَالْيَسَعَ } ، وهو ابن أخطوب بن العجوز . وقرأ حمزة والكسائي (والليسع) بتشديد اللام وسكون الياء هنا وفي ص { وَيُونُسَ } وهو يونس بن متى ، { وَلُوطًا } ، وهو لوط بن هاران بن أخي إبراهيم ، { وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ } ، أي : عالمي زمانهم .
[87] { وَمِنْ آبَائِهِمْ } ، من فيه للتبعيض ، لأن آباء بعضهم كانوا مشركين ، { وَذُرِّيَّاتِهِمْ } ، أي : ومن ذرياتهم وأراد بعضهم ، لأن عيسى ويحيى لم يكن لهما ولد ، وكان في ذرية بعضهم من كان كافرا { وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ } ، اخترناهم واصطفيناهم ، { وَهَدَيْنَاهُمْ } ، أرشدناهم ، { إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

[88] ، { ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ } ، دين الله ، { يَهْدِي بِهِ } ، يرشد به ، { مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا } ، أي : هؤلاء الذين سميناهم ، { لَحَبِطَ } ، لبطل وذهب ، { عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[89] ، { أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ } ، أي : الكتب المنزلة- عليهم ، { وَالْحُكْمَ } يعني : العلم والفقه ، { وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ } ، يعني : أهل مكة ، { فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ } يعني : الأنصار وأهل المدينة قاله ابن عباس ومجاهد ، وقال قتادة : فإن يكفر بها هؤلاء الكفار فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين ، يعني : الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرهم الله ها هنا ، وقال أبو رجاء العطاردي : معناه : فإن يكفر بها أهل الأرض فقد وكلنا بها أهل السماء وهم الملائكة قوما ليسوا بها بكافرين .

[90] ، { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ } ، أي : هداهم الله ، { فَبِهُدَاهُمُ } ، فبسنتهم وسيرتهم ، { اقْتَدِهِ } ، الهاء فيها هاء الوقف ، وحذف حمزة والكسائي ويعقوب الهاء في الوصل ، والباقون بإثباتها وصلا ووقفا ، وقرأ ابن عامر :

(اقتده) بإشباع الهاء كسرا { قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ } ، ما هو ، { إِلَّا ذِكْرَى } ، أي : تذكرة وموعظة ، { لِلْعَالَمِينَ } .

[91] ، { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ } ، أي : ما عظموه حق عظمته ، وقيل : ما وصفوه حق وصفه ، { إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : « قالت اليهود : يا محمد أنزل الله عليك كتابا ، قال : نعم ، قالوا : والله ما أنزل الله من السماء كتابا ، فأنزل الله : { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ }»{ شَيْءٍ } ، قال الله تعالى : { قُلْ } ، لهم ، { مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ } ، يعني التوراة ، { تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا } ، أي : تكتبونه عنه دفاتر وكتبا مقطعة { تُبْدُونَهَا } ، أي : تبدون ما تحبون وتخفون كثيرا من نعت محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآية الرجم { وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا } ، الأكثرون على أنها خطاب لليهود ، يقول : علمتم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ما لم تعلموا { أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ } ، قال الحسن : جعل لهم علم ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فضيعوه ولم ينتفعوا

به ، وقال مجاهد : هذا خطاب للمسلمين يذكرهم النعمة فيما علمهم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، { قُلِ اللَّهُ } ، هذا راجع إلى قوله { قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى } ، فإن أجابوك وإلا فقل أنت . (الله) ، أي : قل أنزله الله ، { ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ }
[92] ، { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ } ، أي : القرآن كتاب مبارك أنزلناه { مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ } ، يا محمد ، قرأ أبو بكر عن عاصم (ولينذر) بالياء أي : ولينذر الكتاب ، { أُمَّ الْقُرَى } ، يعني : مكة سميت أم القرى لأن الأرض دحيت من تحتها ، فهي أصل الأرض كلها كالأم أصل النسل ، وأراد أهل أم القرى { وَمَنْ حَوْلَهَا } ، أي : أهل الأرض كلها شرقا وغربا ، { وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ } ، بالكتاب ، { وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ } ، يعني : الصلوات الخمس ، { يُحَافِظُونَ } ، يداومون ، يعني المؤمنين .

[93] ، قوله عز وجل : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى } ، اختلق { عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } ، فزعم أن الله تعالى بعثه نبيا ، { أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ } ، قال قتادة : نزلت في مسيلمة الكذاب ، وكان يسجع ويتكهن ، فادعى النبوة وزعم أن الله أوحى إليه ، وكان قد أرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لهما : « أتشهدان أن مسيلمة نبي؟ قالا : نعم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » (1) . { وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ } , قيل : نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان قد أسلم وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم وكان إذا أملى عليه سميعا بصيرا كتب عليما حكيما, وإذا قال : عليما حكيما كتب غفورا رحيما, فلما نزلت : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ } [المؤمنون : آية 12] أملاها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فعجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان , فقال : تبارك الله أحسن الخالقين, فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اكتبها فهكذا نزلت , فشك عبد الله , وقال :

---

(1) أخرجه البخاري في المغازي باب وفد بني حنيفة 8 / 89, ومسلم في الرؤيا رقم (2274) 4 / 1781, والمصنف في شرح السنة 12 / 252 .

لئن كان محمد صادقا فقد أوحي إلي كما أوحي إليه, فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين ، ثم رجع عبد الله إلى الإسلام قبل فتح مكة إذ نزل النبي صلى الله عليه وسلم بمر الظهران . وقال ابن عباس . قوله { وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ } ، يريد المستهزئين وهو جواب لقولهم : { لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا } . قوله عز وجل : { وَلَوْ تَرَى } ، يا محمد { إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ } سكراته وهي جمع غمرة وغمرة كل شيء معظمه وأصله الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها ، ثم وضعت في موضع الشدائد- والمكاره ، { وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ } ، بالعذاب والضرب يضربون وجوههم وأدبارهم ، وقيل . بقبض الأرواح ، { أَخْرِجُوا } ، أي : يقولون أخرجوا { أَنْفُسَكُمُ } ، أي : أرواحكم كرها لأن نفس المؤمن تنشط للقاء ربه ، والجواب محذوف ، يعني لو تراهم في هذه الحال لرأيت عجبا ، { الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ } ، أي : الهوان ، { بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ } ، تتعظمون عن الإيمان بالقرآن ولا تصدقونه .

[94] ، { وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى } ، هذا خبر من الله أنه يقول للكفار يوم القيامة : ولقد جئتمونا فرادى وحدانا ، لا مال معكم ولا ولد ولا خدم ، وفرادى جمع فردان ، مثل سكران وسكارى ، وكسلان وكسالى ، وقرأ الأعرج فردى بغير ألف مثل سكارى ، { كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } ، عراة حفاة غرلا, { وَتَرَكْتُمْ } ، وخلفتم { مَا خَوَّلْنَاكُمْ } ، أعطيناهم من الأموال والأولاد والخدم ، { وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ } ، في الدنيا ، { وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ } ، وذلك أن المشركين زعموا أنهم يعبدون الأصنام لأنهم شركاء الله وشفعاؤهم عنده ، { لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ } ، قرأ أهل المدينة والكسائي وحفص عن عاصم بنصب النون على معنى لقد تقطع ما بينكم من الوصل ، أو تقطع الأمر بينكم برفع النون ، أي : لقد تقطع وصلكم وذلك مثل قوله : { وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } ، أي : الوصلات والبين من الأضداد وصلا ويكون هجرا, { وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ }

[95] قوله عز وجل : { إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى } , الفلق الشق, قال الحسن وقتادة والسدي : معناه يشق الحبة عن السنبلة والنواة عن النخلة فيخرجها منها , والحب جمع الحبة ، وهي اسم لجميع البذور والحبوب من البر والشعير والذرة , وكل ما لم يكن له نوى , وقال الزجاج : يشق الحبة اليابسة والنواة اليابسة فيخرج منهما ورقا أخضر, وقال مجاهد : يعني الشقين اللذين فيهما, أي : يشق الحب عن النبات ويخرجه منه ويشق النوى عن النخل ويخرجها منه, والنوى جمع النواة وهي كل ما لم يكن له حب , كالتمر والمشمش والخوخ ونحوها, وقال الضحاك : فالق الحب والنوى يعني : خالق الحب والنوى, { يُخْرِجُ } , { الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } تصرفون عن الحق .

[96] { فَالِقُ الْإِصْبَاحِ } شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل وكاشفه ، وقال الضحاك : خالق النهار ، والإصباح مصدر كالإقبال والإدبار وهو الإضاءة وأراد به الصبح وهو أول ما يبدو من النهار ، يريد ومبدي الصبح وموضحه ، { وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا } ، يسكن فيه خلقه . وقرأ أهل الكوفة : (وجعل) على الماضي ، (الليل) ، نصب اتباعا للمصحف ، وقرأ إبراهيم النخعي (فلق الإصباح) ، { وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا } ، { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا } ، أي : جعل الشمس

والقمر بحساب معلوم لا يجاوزانه حتى ينتهيا إلى أقصى منازلهما ، والحسبان مصدر كالسحاب ، وقيل : جمع حساب ، { ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } .

[97] ، قوله عز وجل : { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ } أي : خلقها لكم ، { لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } ، والله تعالى خلق النجوم لفوائد ، أحدها : هذا وهو أن راكب السفينة والسائر في القفار يهتدي بها في الليالي إلى مقاصده ، والثاني : أنها زينة للسماء كما قال { وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ } ، ومنها رمي الشيطان ، كما قال : { وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ } ، { قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } .

[98] ، { وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ } ، خلقكم وابتدأكم { مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ } ، يعني : آدم عليه السلام ، { فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ } ، قرأ ابن كثير وأهل البصرة (فمستقر) بكسر القاف ، يعني : فمنكم مستقر ومنكم مستودع ، وقرأ الآخرون بفتح القاف ، أي : فلكم مستقر ومستودع ، واختلفوا في المستقر والمستودع فقال عبد الله بن مسعود : فمستقر في الرحم إلى أن يولد ، ومستودع في القبر إلى أن يبعث ، وقال سعيد بن جبير وعطاء : فمستقر في أرحام الأمهات ومستودع في أصلاب الآباء ، وهو رواية عكرمة عن ابن عباس ، قال سعيد بن جبير : قال لي ابن عباس : هل تزوجت؟ قلت : لا ، قال : أما إنه ما كان مستودعا في ظهرك فسيخرجه الله عز وجل . وروي عن أبي أنه قال : مستقر في أصلاب الآباء ، ومستودع في أرحام الأمهات ، وقيل : مستقر في الرحم ومستودع فوق الأرض ، قال الله تعالى : { وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ } وقال مجاهد : مستقر على ظهر الأرض في الدنيا ومستودع عند الله في الآخرة ، ويدل عليه قوله تعالى : { وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } ، وقال الحسن : المستقر في القبر والمستودع في الدنيا

، وكان يقول : يا ابن آدم أنت وديعة في أهلك ويوشك أن تلحق بصاحبك ، وقيل : المستودع القبر والمستقر الجنة والنار ، لقوله عز وجل في صفة أهل الجنة : { حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا } ، وفي صفة أهل النار : { سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا }{ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ } .

[99] ، { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ } ، أي : بالماء ، { نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ } ، من الماء ، وقيل : من النبات ، { خَضِرًا } ، يعني : أخضر ، مثل العور والأعور ، يعني : ما كان رطبا أخضر مما ينبت من القمح والشعير ونحوهما ، { نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا } ، أي : متراكبا بعضه على بعض ، مثل سنابل البر والشعير والأرز وسائر الحبوب ، { وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا } ، والطلع أول ما يخرج من ثمر النخل ، { قِنْوَانٌ } ، جمع قنو وهو العذق ، مثل صنو وصنوان ولا نظير لهما في الكلام ، { دَانِيَةٌ } ، أي : قريبة المتناول ينالها القائم والقاعد ، وقال مجاهد : متدلية ، وقال الضحاك : قصار ملتزمة بالأرض ، وفيه اختصار معناه : ومن النخل ما قنوانها دانية ومنها ما هي بعيدة ، فاكتفي بذكر القريبة عن البعيدة لسبقه إلى الأفهام ، كقوله تعالى : { سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ } يعني : الحر والبرد فاكتفي بذكر أحدهما ، { وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ } ، أي : وأخرجنا منه جنات ، وقرأ الأعمش عن عاصم (وجنات) بالرفع نسقا على قوله { قِنْوَانٌ } وعامة القراء

على خلافه ، { وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ } ، يعني : وشجر الزيتون وشجر الرمان ، { مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ } ، قال قتادة : معناه مشتبها ورقها مختلفا ثمرها ، لأن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان ، وقيل : مشتبه في المنظر مختلف في الطعم ، { انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ } ، قرأ حمزة والكسائي بضم الثاء والميم ، هذا وما بعده وفي يس على جمع الثمار ، وقرأ الآخرون بفتحهما على جمع الثمرة مثل بقرة وبقر ، { إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ } ، ونضجه وإدراكه ، { إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } .

[100] ، قوله عز وجل : { وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ } يعني : الكافرين جعلوا لله الجن شركاء ، { وَخَلَقَهُمْ } ، يعني : وهو خلق الجن ، قال الكلبي : نزلت في الزنادقة أثبتوا الشركة لإبليس في الخلق ، فقالوا : الله خالق النور والناس والدواب والأنعام ، وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب ، وهذا كقوله : { وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا } ، وإبليس من الجن ، { وَخَرَقُوا } بتشديد الراء على التكثير ، وقرأ الآخرون بالتخفيف ، أي : اختلقوا { لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ } ، وذلك مثل قول اليهود عزير ابن الله ، وقول النصارى المسيح ابن الله ، وقول كفار مكة الملائكة بنات الله ، ثم نزه نفسه فقال : { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ } ،
[101] { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } أي : مبدعهما لا على مثال سبق ، { أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ } أي : كيف يكون له ولد؟ { وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ } ، زوجة ، { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }

[102] ، { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ } ، فأطيعوه ، { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } بالحفظ له والتدبير .

[103] { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ } ، يتمسك أهل الاعتزال بظاهر هذه الآية في نفي رؤية الله عز وجل عيانا ، ومذهب أهل السنة إثبات رؤية الله عز وجل عيانا : قال الله تعالى : { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ } . { إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } ، وقال : { كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ } قال مالك رضي الله عنه : لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الله الكفار بالحجاب؟ وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم : { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } ، وفسره بالنظر إلى وجه الله عز وجل . وعن جرير بن عبد الله قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنكم سترون ربكم عيانا » (1) وأما قوله : { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ } ، فاعلم أن الإدراك غير الرؤية لأن الإدراك هو الوقوف على كنه الشيء والاحاطة به ، والرؤية : المعاينة ، وقد تكون الرؤية بلا إدراك ، قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام : { فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ } . { قَالَ كَلَّا } . وقال : { لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى } ، فنفي الإدراك

______

(1) أخرجه البخاري في التفسير 8 / 597 وفي التوحيد ، ومسلم في المساجد رقم (633) 1 / 439 والمصنف في شرح السنة 2 / 224 .

مع إثبات الرؤية ، فالله عز وجل يجوز أن يرى من غير إدراك وإحاطة كما يعرف في الدنيا ولا يحاط به ، قال الله تعالى : { وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا } ، فنفي الإحاطة مع ثبوت العلم ، قال سعيد بن المسيب : لا تحيط به الأبصار ، وقال عطاء : كلت أبصار المخلوقين عن الإحاطة به ، وقال ابن عباس ومقاتل

: لا تدركه الأبصار في الدنيا ، وهو يرى في الآخرة ، قوله : { وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ } ، أي : لا يخفي على الله شيء ولا يفوته ، { وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : اللطيف بأوليائه الخبير بهم ، وقال الزهري معنى (اللطيف) الرفيق بعباده ، وقيل : اللطيف الموصل الشيء باللين والرفق ، وقيل : اللطيف الذي ينسي العباد ذنوبهم لئلا يخجلوا ، وأصل اللطف دقة النظر في الأشياء .

[104] ، قوله عز وجل : { قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ } يعني : الحجج البينة التي تبصرون بها الهدي من الضلالة والحق من الباطل ، { فَمَنْ أَبْصَرَ } أي : فمن عرفها وآمن بها { فَلِنَفْسِهِ } ، عمله ونفعه له ، { وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا } ، أي : من عمي عنها فلم يعرفها ولم يصدقها فعليها ، أي : بنفسه ضر ، ووبال العمى عليه ، { وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ } ، برقيب أحصي عليكم أعمالكم ، وإنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربي وهو الحفيظ عليكم الذي لا يخفي عليه شيء من أفعالكم .

[105] { وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ } ، نفصلها ونبينها في كل وجه ، { وَلِيَقُولُوا } ، قيل : معناه لئلا يقولوا { دَرَسْتَ } ، وقيل : اللام لام العاقبة أي : عاقبة أمرهم أن يقولوا : درست ، أي قرأت على غيرك ، وقيل : قرأت كتب أهل الكتاب ، كقوله تعالى : { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا } ، ومعلوم أنهم لم يلتقطوه لذلك ، ولكن أراد أن عاقبة أمرهم أن كان عدوا لهم ، قال ابن عباس : (وليقولوا) يعني : أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن (دَرَسْتَ) أي : تعلمت من يسار وجبر كانا عبدين من سبي الروم ، ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله ، من قولهم درست الكتاب أدرس درسا ودراسة ، وقال الفراء رحمه الله : يقولون تعلمت من اليهود ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : (دارست) ، بالألف ، بفتح السين وسكون التاء ، أي : هذه الأخبار التي تتلوها علينا قديمة ، قد درست وانمحت ، من قولهم درس الأثر يدرس دروسا .
{ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } أي : القرآن ، وقيل : نصرف الآيات لقوم يعلمون ، قال ابن عباس : يريد أولياءه الذين هداهم إلى سبيل الرشاد ، وقيل : يعني أن تصريف الآيات ليشقى بها قوم

ويسعد بها قوم آخرون ، فمن قال درست فهو شقي ومن تبين له الحق فهو سعيد .
[106] ، { اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ } ، يعني : القرآن اعمل به ، { لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } ، فلا تجادلهم .
[107] ، { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا } أي : ولو شاء لجعلهم مؤمنين ، { وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا } ، رقيبا قال عطاء : وما جعلناك حفيظا تمنعهم مني ، أي : لم تبعث لتحفظ المشركين من العذاب إنما بعثت مبلغا { وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ } .

[108] { وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } الآية ، قال ابن عباس : لما نزلت : { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ } قال المشركون : يا محمد لتنتهين عن سبب آلهتنا أو لنهجون ربك ، فنهاهم الله تعالى أن يسبوا أوثانهم ، وقال قتادة : كان المسلمون يسبون أصنام الكفار ، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك ، لئلا يسبوا الله فإنهم قوم جهلة { وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } ، يعني : الأوثان ، { فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا } ، أي : اعتداء وظلما ،

{ بِغَيْرِ عِلْمٍ } ، قرأ يعقوب (عدوا) بضم العين والدال وتشديد الواو ، فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « لا تسبوا ربكم » ، فأمسك المسلمون عن سب آلهتهم . وظاهر الآية وإن كان نهيا عن سب الأصنام فحقيقته النهي عن سب الله تعالى ، لأنه سبب لذلك ، { كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ } ، أي : كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان ، كذلك زينا لكل أمة عملهم من الخير والشر والطاعة والمعصية ، { ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ

فَيُنَبِّئُهُمْ } , ويجازيهم { بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } .

[109] ، قوله عز وجل : { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } أي : حلفوا بالله جهد أيمانهم ، أي : بجهد أيمانهم ، يعني أوكد ما قدروا عليه من الإيمان وأشدها ، قال الكلبي ومجاهد : إذا حلف الرجل بالله فهو جهد يمينه ، { لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ } ، كما جاءت من قبلهم من الأمم ، { لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ } ، يا محمد ، { إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ } ، والله قادر على إنزالها ، { وَمَا يُشْعِرُكُمْ } ، وما يدريكم ، واختلفوا في المخاطبين بقوله { وَمَا يُشْعِرُكُمْ } ، فقال بعضهم : الخطاب للمشركين الذي أقسموا ، وقال بعضهم : الخطاب للمؤمنين ، وقوله تعالى : { أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ } ، قرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر عن عاصم (إنها) بكسر الألف على الابتداء ، وقالوا : تم الكلام عند قوله { وَمَا يُشْعِرُكُمْ } ، ثم من جعل الخطاب للمشركين قال معناه : وما يشعركم أيها المشركون أنها لو جاءت آمنتم؟ ومن جعل الخطاب للمؤمنين قال معناه : وما يشعركم أيها المؤمنون أنها لو جاءت آمنوا ؟ لأن المسلمين كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله حتى يريهم ما اقترحوا حتى

يؤمنوا فخاطبهم بقوله : { وَمَا يُشْعِرُكُمْ } ثم ابتدأ فقال جل ذكره : { أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ } ، وهذا في قوم مخصوصين حكم الله عليهم بأنهم لا يؤمنون ، وقرأ الآخرون أنها بفتح الألف وجعلوا الخطاب للمؤمنين ، واختلفوا في قوله : (لا يؤمنون) ، فقال الكسائي : (لا) صلة ، ومعنى الآية : وما يشعركم أيها المؤمنون إذا جاءت أن المشركين يؤمنون؟ كقوله : { وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } أي : يرجعون وقيل : إنها بمعنى لعل ، وكذلك هو في قراءة أبي ، تقول العرب : اذهب إلى السوق أنك تشتري شيئا ، أي : لعلك وقيل : فيه حذف وتقديره : وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون أو لا يؤمنون ؟ وقرأ ابن عامر وحمزة (لا يؤمنون) ، بالتاء على الخطاب للكفار واعتبروا بقراءة أبي : إذا جاءتكم لا تؤمنون ، وقرأ الآخرون بالياء على الخبر ، ودليلها قراءة الأعمش : أنها إذا جاءتهم لا يؤمنون .

[110] ، { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ } ، قال ابن عباس : يعني ونحول بينهم وبين الإيمان ، فلو جئناهم بالآيات التي سألوا ما آمنوا بها كما لم يؤمنوا به أول مرة ، أي : كما لم يؤمنوا بما قبلها من الآيات من انشقاق القمر وغيره ، وقيل : كما لم يؤمنوا به أول مرة ، يعني : معجزات موسى وغيره من الأنبياء عليهم السلام ، كقوله تعالى : { أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ } ، وفي الآية محذوف تقديره فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : المرة الأولى دار الدنيا ، يعني لو ردوا من الآخرة إلى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان كما لم يؤمنوا في الدنيا قبل مماتهم ، كما قال : { وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ } .

{ وَنَذَرُهُمْ فِي }{ طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } قال عطاء : نخذلهم وندعهم في ضلالتهم يتمادون .

[111] { وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ } ، فرأوهم عيانا { وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى } بإحيائنا إياهم فشهدوا لك بالنبوة كما سألوا ، { وَحَشَرْنَا } ، وجمعنا ، { عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا } ، قرأ أهل المدينة وابن عامر (قبلا) بكسر القاف وفتح الباء ، أي : معاينة ، وقرأ الآخرون بضم القاف والباء ، قيل : هو جمع قبيل ، وهو الكفيل ، مثل رغيف ورغف ، وقضيب وقضب ، أي : ضمناء وكفلاء ، وقيل : هو جمع قبيل وهو القبيلة ، أي : فوجا ، وقيل : هو بمعنى المقابلة والمواجهة ، من قولهم : أتيتك قبلا لا دبرا إذا أتاه من قبل وجهه . { مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } ، ذلك ، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ } .

[112] { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا } ، أي : أعداء . فيه تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم ، يعني كما ابتليناك بهؤلاء القوم ، فكذلك جعلنا لكل نبي قبلك أعداء ، ثم فسرها فقال : { شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ } ، قال عكرمة والضحاك والسدي والكلبي : معناه شياطين الإنس التي مع الإنس ، وشياطين الجن التي مع الجن ، وليس للإنس شياطين ، وذلك أن إبليس جعل جنده فريقين فبعث فريقا منهم إلى الإنس وفريقا منهم إلى الجن ، وكلا الفريقين أعداء للنبي صلى الله عليه وسلم ولأوليائه ، وهم يلتقون في كل حين ، فيقول شيطان الإنس لشيطان الجن : أضللت صاحبي بكذا فأضل صاحبك بمثله ، ويقول شياطين الجن لشياطين الإنس كذلك ، فذلك وحي بعضهم إلى بعض ، قال قتادة ومجاهد والحسن : إن من الإنس شياطين كما أن من الجن شياطين ، والشيطان : العاتي المتمرد من كل شيء ، قالوا : إن الشيطان إذا أعياه المؤمن وعجز من إغوائه ذهب إلى متمرد من الإنس وهو شيطان الإنس فأغراه بالمؤمن ليفتنه وقال مالك بن دينار : إن شياطين الإنس أشد عليّ من شياطين الجن ، وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب عني شياطين الجن ، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى

المعاصي عيانا . قوله تعالى : { يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ } ، أي : يلقي ، { زُخْرُفَ الْقَوْلِ } ، وهو قول مموه مزين مزخرف بالباطل لا معنى تحته ، { غُرُورًا } ، يعني : لهؤلاء الشياطين يزينون الأعمال القبيحة لبني آدم ، ويغرونهم غرورا ، والغرور : القول الباطل ، { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ } ، أي : ما ألقوه من الوسوسة في القلوب ، { فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } .
[113] { وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ } ، أي : تميل إليه ، والصغو : الميل ، يقال : صغو فلان معك ، أي : ميله ، والفعل منه : صغى يصغي صغا وصغى ويصغى ، ويصغو صغوا ، والهاء راجعة إلى زخرف القول ، { وَلِيَرْضَوْهُ }{ وَلِيَقْتَرِفُوا } ليكتسبوا ، { مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ } ، يقال : اقترف فلان مالا إذا اكتسبه ، وقال تعالى : { وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً } ، وقال الزجاج : أي : ليعملوا من الذنوب ما هم عاملون .

[114] قوله عز وجل : { أَفَغَيْرَ اللَّهِ } ، فيه إضمار أي : قل لهم يا محمد أفغير الله ، { أَبْتَغِي } ، أطلب { حَكَمًا } قاضيا بيني وبينكم ، وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم : اجعل بيننا وبينك حكما فأجابهم به ، { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا } ، مبينا فيه أمره ونهيه ، يعني : القرآن ، وقيل : مفصلا أي خمسا خمسا وعشرا عشرا ، كما قال : { لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ

} ، { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ } ، يعني : علماء اليهود والنصارى الذين آتيناهم التوراة والإنجيل ، وقيل : هم مؤمنو أهل الكتاب ، وقال عطاء : هم رءوس أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد من الكتاب هو القرآن ، { يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ } ، يعني : القرآن ، قرأ ابن عامر وحفص : (منزل) ، بالتشديد من التنزيل لأنه انزل نجوما متفرقة ، وقرأ الآخرون بالتخفيف من الإنزال ، لقوله تعالى : { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ } ، { مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } من الشاكين أنهم يعلمون ذلك .

[115] قوله عز وجل : { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ } ، قرأ أهل الكوفة ويعقوب (كلمة) على التوحيد ، وقرأ الآخرون (كلمات) بالجمع ، وأراد بالكلمات أمره ونهيه ووعده ووعيده ، { صِدْقًا وَعَدْلًا } ، أي : صدقا في الوعد والوعيد ، وعدلا في الأمر والنهي ، قال قتادة ومقاتل : صادقا فيما وعد وعدلا فيما حكم . { لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ } ، قال ابن عباس : لا راد لقضائه ولا مغير لحكمه ولا خلف لوعده ، { وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } ، قيل : أراد بالكلمات القرآن لا مبدل له ، يريد لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون .

[116] { وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ، عن دين الله ، وذلك أن أكثر أهل الأرض كانوا على الضلالة ، وقيل : أراد أنهم جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في أكل الميتة ، وقالوا : أتأكلون ما تقتلون ولا تأكلون ما قتله الله عز وجل؟ فقال : { وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ } ، أي : وإن تطعهم في أكل الميتة { يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ، { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ } ، يريد أن دينهم الذي هم عليه ظن وهوى لم يأخذوه عن بصيرة ، { وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } ، يكذبون .
[117] { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ } ، قيل : موضع (من) نصب بنزع حرف الصفة ، أي : بمن يضل ، وقال الزجاج : موضعه رفع بالابتداء ، ولفظها لفظ الاستفهام ، والمعنى : إن ربك هو أعلم أي الناس من يضل عن سبيله ، { وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } ، أخبر أنه أعلم بالفريقين الضالين والمهتدين فيجازي كلا بما يستحقون .

[118] قوله تعالى : { فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ } ، أي : كلوا مما ذبح على اسم الله ، { إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ } ، وذلك أنهم كانوا يحرمون أصنافا من النعم ويحلون الأموات ، فقيل لهم : أحلوا ما أحل الله وحرموا ما حرم الله .

[119] ثم قال : { وَمَا لَكُمْ } يعني : أي شيء لكم ، { أَلَّا تَأْكُلُوا } ، وما يمنعكم من أن تأكلوا { مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ } ، من الذبائح ، { وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ } ، قرأ أهل المدينة ويعقوب وحفص (فصل) ، و(حرم) بالفتح فيهما أي فصل الله ما حرمه عليكم ، لقوله (اسم الله) وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب وأبو عمرو بضم الفاء والحاء وكسر الصاد والراء على غير تسمية الفاعل ، لقوله (ذكر) وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالفتح (فصل) ، و(حرم) بالضم ، وأراد بتفصيل المحرمات ما ذكرت في قوله تعالى : { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ } ، { إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ } من هذه الأشياء فإنه حلال لكم عند الاضطرار ، { وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ } ، قرأ أهل الكوفة بضم الياء وكذلك قوله (ليضلوا) في سورة يونس ، لقوله تعالى : { يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ، وقيل : أراد به عمرو بن لحي فمن دونه من المشركين الذين اتخذوا

البحائر والسوائب ، وقرأ الآخرون بالفتح لقوله : (من يضل) ، { بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ } ، حين امتنعوا من أكل ما ذكر اسم

الله عليه ودعوا إلى أكل الميتة ، { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ } ، الذين يجاوزون الحلال إلى الحرام .
[120] { وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ } ، يعني : الذنوب كلها لأنها لا تخلو من هذين الوجهين ، قال قتادة : علانيته وسره ، وقال مجاهد : ظاهره ما يعمله الإنسان بالجوارح من الذنوب ، وباطنه ما ينويه ويقصده بقلبه كالمصر على الذنب القاصد له ، قال الكلبي : ظاهره الزنا وباطنه المخالفة ، وأكثر المفسرين على أن ظاهر الإثم الإعلان بالزنا ، وهم أصحاب الروايات ، وباطنه الاستمرار به ، وذلك أن العرب كانوا يحبون الزنا وكان الشريف منهم يتشرف فيسره ، وغير الشريف لا يبالي به فيظهره ، فحرمهما الله عز وجل ، وقال سعيد بن جبير : ظاهر الإثم نكاح المحارم وباطنه الزنا ، وقال ابن زيد : إن ظاهر الإثم التجرد من الثياب والتعري في الطواف والباطن الزنا ، وروى حيان عن الكلبي : ظاهر الإثم طواف الرجال بالبيت نهارا عراة ، وباطنه طواف النساء بالليل عراة ، { إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ } ، في الآخرة ، { بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ } ، يكتسبون في الدنيا .

[121] قوله عز وجل : { وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ } قال ابن عباس رضي الله عنهما : الآية في تحريم الميتات وما في معناها من المنخنقة وغيرها . وقال عطاء : الآية في تحريم الذبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الأصنام { وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ }، والفسق في ذكر اسم غير الله كما قال في آخر السورة { لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ } إلى قوله { أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ } ، { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ } ، أراد أن الشياطين ليوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوكم ، وذلك أن المشركين قالوا : يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها؟ فقال : الله قتلها ، قالوا أفتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال ، وما قتله الكلب والصقر والفهد حلال ، وما قتله الله حرام؟ فأنزل الله هذه الآية ، { وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ } ، في أكل الميتة ، { إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } ، قال الزجاج : وفيه دليل على أن من أحل شيئا مما حرم الله أو حرم ما أحل الله فهو مشرك .

[122] قوله : { أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ } ، قرأ نافع (ميتا) و(لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا) و(الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا) بالتشديد فيهن ، وقرأ الآخرون بالتخفيف (فأحييناه) أي : كان ضالا فهديناه ، كان ميتا بالكفر فأحييناه بالإيمان ، { وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا } ، يستضيء به ، { يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ } ، على قصد السبيل ، قيل : النور هو الإسلام ، لقوله تعالى { يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } ، وقال قتادة : هو كتاب الله بينة من الله مع المؤمن ، بها يعمل وبها يأخذ وإليها ينتهي ، ؟ { كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ } ، المثل صلة ، أي كمن هو في الظلمات ، { لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا } يعني : من ظلمة الكفر { كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ، من الكفر والمعصية . قال ابن عباس : يريد زين لهم الشيطان عبادة الأصنام .

[123] قوله عز وجل : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا } ، أي : كما أن فساق مكة أكابرها ، كذلك جعلنا فساق كل قرية أكابرها ، أي : عظماءها ، جمع أكبر ، مثل أفضل وأفاضل ، وأسود وأساود ، وذلك سنة الله

تعالى أنه جعل في كل قرية أتباع الرسل ضعفاءهم ، كما قال في قصة نوح عليه السلام : { أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ } ، وجعل فساقهم أكابرهم ، { لِيَمْكُرُوا فِيهَا } ، وذلك أنهم أجلسوا على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، يقولون لكل من يقدم : إياك وهذا الرجل فإنه كاهن ساحر كذاب ، { وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ } ، لأن وبال مكرهم يعود عليهم ، { وَمَا يَشْعُرُونَ } ، أنه كذلك .

[124] قوله تعالى : { وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ } ، يعني : مثل ما أوتي رسل الله من النبوة ، وذلك أن الوليد بن المغيرة قال : لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك ، لأني أكبر منك سنا وأكثر منك مالا فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقال مقاتل : نزلت في أبي جهل ، وذلك أنه قال : زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إنا صرنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يوحى إليه ، والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبدا إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه ، فأنزل الله عز وجل : { وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ } ، حجة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم قالوا : يعني أبا جهل ، { لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ } ، يعني محمدا صلى الله عليه وسلم . ثم قال الله تعالى : { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } ، قرأ ابن كثير وحفص (رسالته) على التوحيد ، وقرأ الآخرون (رسالاته) بالجمع ، يعني الله أعلم بمن هو أحق بالرسالة .
{ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ } وهوان ، { عِنْدَ اللَّهِ } ، أي : من عند الله ، { وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا

كَانُوا يَمْكُرُونَ } ، قيل : صغار في الدنيا وعذاب شديد في الآخرة .

[125] قوله عز وجل : { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ } ، أي : يفتح قلبه وينوره حتى يقبل الإسلام { وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا } ، قرأ ابن كثير (ضيقا) ، بالتخفيف ها هنا وفي الفرقان ، والباقون بالتشديد ، وهما لغتان مثل : هين وهين ولين ولين ، { حَرَجًا } ، قرأ أهل المدينة وأبو بكر بكسر الراء والباقون بفتحها ، وهما لغتان أيضا مثل : الدنف والدنف ، والمصدر كالطلب ومعناه ذا حرج ، وبالكسر الاسم وهو أشد الضيق ، يعنى يجعل قلبه ضيقا حتى لا يدخله الإيمان . وقال الكلبي : ليس للخير فيه منفذ . قال ابن عباس : إذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه ، وإذا ذكر شيء من عبادة الأصنام ارتاح إلى ذلك { كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ } ، وقرأ ابن كثير : (يصعد) بالتخفيف وسكون الصاد ، وقرأ أبو بكر عن عاصم (يصاعد) بالألف ، أي يتصاعد ، وقرأ الآخرون (يصعد) بتشديد الصاد والعين ، أي : يتصعد ، يعني : يشق عليه الإيمان كما يشق عليه صعود السماء . وأصل الصعود المشقة ، ومنه قوله تعالى : { سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا } أي : عقبة شاقة . { كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ } {

الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } قال ابن عباس : الرجس هو الشيطان ، أي : يسلط عليه ، وقال الكلبي : هو المأثم ، وقال مجاهد : الرجس ما لا خير فيه . وقال عطاء : الرجس العذاب مثل الرجز . وقيل : هو النجس . روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل الخلاء قال : « اللهم إني أعوذ بك من الرجس والنجس » (1) . وقال الزجاج : الرجس اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة .
[126] قوله عز وجل : { وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا } أي : هذا الذي بينا . وقيل : هذا الذي أنت عليه يا محمد طريق ربك ودينه الذي ارتضاه لنفسه

مستقيما لا عوج فيه وهو الإسلام . { قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ } .

---

(1) أخرجه ابن ماجه في الطهارة رقم (299) 1 / 109 وقال في الزوائد إسناده ضعيف والذي في الصحيحين (اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث) .

[127] { لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ } ، يعني : الجنة . قال أكثر المفسرين : السلام هو الله وداره الجنة وقيل : السلام هو السلامة ، أي : لهم دار السلامة من الآفات ، وهي الجنة . وسميت دار السلام لأن كل من دخلها سلم من البلايا والرزايا ، وقيل : سميت بذلك لأن جميع حالاتها مقرونة بالسلام ، فقال في الابتداء : { ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ } ، وقال : { وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ }{ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ } ، وقال : { لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا } . { إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا } ، وقال : { تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ } ، وقال : { سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ } . { وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ، قال الحسين بن الفضل : يتولاهم في الدنيا بالتوفيق وفي الآخرة بالجزاء .

[128] قوله عز وجل : { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ } ، قرأ حفص : (يحشرهم) ، بالياء { جَمِيعًا } ، يعني الجن والإنس يجمعهم في موقف القيامة فيقول : { يا مَعْشَرَ الْجِنِّ } ، والمراد بالجن : الشياطين ، { قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ } أي : استكثرتم من الإنس بالإضلال والإغواء أي : أضللتم كثيرا ، { وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ } يعني : أولياء الشياطين الذين أطاعوهم من الإنس ، { رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ } ، قال الكلبي : استمتاع الإنس بالجن هو أن الرجل كان إذا سافر ونزل بأرض قفر وخاف على نفسه من الجن قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه ، فيبيت في جوارهم ، وأما استمتاع الجن بالإنس : هو أنهم قالوا قد سدنا الإنس مع الجن ، حتى عاذوا بنا ، فيزدادون شرفا في قومهم وعظما في أنفسهم ، وهذا كقوله تعالى { وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا } وقيل : استمتاع الإنس بالجن ما كانوا يلقون إليهم من الأراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم لهم الأمور التي يهوونها ، حتى يسهل فعلها عليهم ، واستمتاع الجن بالإنس طاعة الإنس لهم

فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصي . قال محمد بن كعب : هو طاعة بعضهم بعضا وموافقة بعضهم لبعض ، { وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا } ، يعني : القيامة والبعث ، { قَالَ } الله تعالى : { النَّارُ مَثْوَاكُمْ } ، مقامكم ، { خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ } ، اختلفوا في هذا الاستثناء كما اختلفوا في قوله : { خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ } ، قيل : أراد إلا قدر مدة ما بين بعثهم إلى دخولهم جهنم ، يعني : خالدون في النار إلا هذا المقدار ، وقيل : الاستثناء يرجع إلى العذاب ، وهو قوله : { النَّارُ مَثْوَاكُمْ } ، أي : خالدين في النار سوى ما شاء الله من أنواع العذاب ، وقال ابن عباس : الاستثناء يرجع إلى قوم سبق فيهم علم الله أنهم يسلمون فيخرجون من النار و(ما) بمعنى (من) على هذا التأويل ، { إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } ، قيل : حكيم بمن استثنى عليم بما في قلوبهم من البر والتقوى .

[129] { وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } قيل : أي : كما خذلنا عصاة الجن والإنس حتى استمتع بعضهم ببعض نولي بعض الظالمين بعضا ، أي : نسلط بعض الظالمين على بعض ، فنأخذ من الظالم بالظالم ، كما

جاء : " من أعان ظالما سلطه الله عليه " (1) وقال قتادة : نجعل بعضهم أولياء بعض ، فالمؤمن ولي المؤمن أين كان ، والكافر ولي الكافر حيث كان . وروي عن معمر عن قتادة : نتبع بعضهم بعضا في النار ، من الموالاة . وقيل : معناه نولي ظلمة الإنس ظلمة الجن ، ونولي ظلمة الجن ظلمة الإنس ، أي : نكل بعضهم إلى بعض ، كقوله تعالى : { نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى } ، وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها هو أن الله تعالى إذا أراد بقوم خيرا ولى أمرهم خيارهم ، وإذا أراد بقوم شرا ولى أمرهم شرارهم .

---

(1) قال في المقاصد الحسنة رواه ابن عساكر في تاريخه وفيه ابن زكريا العدوي متهم بالوضع وأورده الديلمي في الفردوس بلا إسناد . انظر كشف الخفاء 2 / 297, فيض القدير 6 / 72, تمييز الطيب من الخبيث ص 177 .

[130] قوله عز وجل : { يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ } ، اختلفوا في أن الجن هل أرسل إليهم منهم رسول ، فسئل الضحاك عنه ، فقال : بلى ألم تسمع الله يقول (ألم يأتكم رسل منكم) ، يعني بذلك رسلا من الإنس ورسلا من الجن قال مجاهد : الرسل من الإنس والنذر من الجن ، ثم قرأ { وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ } ، وهم قوم يسمعون كلام الرسل فيبلغون الجن ما سمعوا ، وليس للجن رسل ، فعلى هذا قوله (رسل منكم) ينصرف إلى أحد الصنفين وهم الإنس ، كما قال : { يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ } ، وإنما يخرج من الملح دون العذب { يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ } ، أي : يقرءون عليكم ، { آيَاتِي } ، كتبي { وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا } وهو يوم القيامة ، { قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا } ، أنهم قد بلغوا ، قال مقاتل : وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر . قال الله عز وجل : { وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } ، حتى لم يؤمنوا ، { وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ } .

[131] { ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ } ، أي : ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل وعذاب من كذبهم لأنه لم يكن ربك مهلك القرى بظلم ، أي : لم يكن مهلكهم بظلم ، أي : بشرك من أشرك ، { وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } ، لم ينذروا حتى نبعث إليهم رسلا ينذرونهم . وقال الكلبي : لم يهلكهم بذنوبهم من قبل أن يأتيهم الرسل . وقيل : معناه لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل فيكون قد ظلمهم ، وذلك أن الله تعالى أجرى السنة أن لا يأخذ أحدا إلا بعد وجود الذنب ، وإنما يكون مذنبا إذا أمر فلم يأتمر أو نهي فلم ينته ، وذلك يكون بعد إنذار الرسل .

[132] { وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا } ، يعني في الثواب والعقاب على قدر أعمالهم في الدنيا ، فمنهم هو أشد عذابا ومنهم من هو أجزل ثوابا ، { وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } ، قرأ ابن عامر (تعملون) بالتاء والباقون بالياء .
[133] { وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ } ، عن خلقه ، { ذُو الرَّحْمَةِ } قال ابن عباس : بأوليائه وأهل طاعته ، وقال الحلبي : بخلقه ، ذو التجاوز ، { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ } ، يهلككم : وعيد لأهل مكة ، { وَيَسْتَخْلِفْ } ، ويخلف وينشئ ، { مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ } ، خلقا غيركم أمثل وأطوع . { كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ } ، أي : من نسل آبائهم الماضين قرنا بعد قرن .
[134] { إِنَّ مَا تُوعَدُونَ } أي : ما توعدون من مجيء الساعة والحشر ، { لَآتٍ } ، كائن ، { وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } ، أي : بفائتين ، يعني : يدرككم الموت حيث ما كنتم .

[135] { قُلْ } يا محمد { يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ } ، قرأ أبو بكر عن عاصم (مكاناتكم) بالجمع حيث كان أي : على تمكنكم ، قال عطاء : على حالاتكم التي أنتم عليها . قال الزجاج : اعملوا على ما أنتم عليه . يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حالة . على مكانتك يا فلان ، أي : اثبت على ما أنت عليه ، وهذا أمر وعيد على المبالغة يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل لهم اعملوا على ما أنتم عاملون ، { إِنِّي عَامِلٌ } ، ما أمرني به ربي عز وجل : { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ } ، أي : الجنة ، قرأ حمزة والكسائي : (يكون) بالياء هنا وفي القصص ، وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث العاقبة ، { إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } ، قال ابن عباس : معناه لا يسعد من كفر بي وأشرك . قال الضحاك : لا يفوز .

[136] قوله عز وجل : { وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا } الآية ، كان المشركون يجعلون لله من حروثهم وأنعامهم وثمارهم وسائر أموالهم نصيبا ، وللأوثان نصيبا ، فما جعلوه لله صرفوه إلى الضيفان والمساكين ، وما جعلوه للأصنام أنفقوه على الأصنام وخدمها ، فإن سقط شيء مما جعلوه لله تعالى في نصيب الأوثان تركوه وقالوا : إن الله غني عن هذا ، وإن سقط شيء من نصيب الأصنام فيما جعلوه لله ردوه إلى الأوثان ، وقالوا : إنها محتاجة ، وكان إذا هلك أو انتقص شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به ، وإذا هلك أو انتقص شيء مما جعلوا للأصنام جبروه بما جعلوه لله ، فذلك قوله تعالى : { وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ } خلق { مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا } ، وفيه اختصار مجازة : وجعلوا لله نصيبا ولشركائهم نصيبا . { فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ } ، قرأ الكسائي بزعمهم بضم الزاي ، والباقون بفتحها ، وهما لغتان ، وهو القول من غير حقيقة ، { وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا } ، يعني : الأوثان ، { فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ

إِلَى شُرَكَائِهِمْ } ، ومعناه : ما قلنا أنهم كانوا يتمون ما جعلوه للأوثان مما جعلوه لله ، ولا يتمون ما جعلوه لله مما جعلوه للأوثان . وقال قتادة : كانوا إذا أصابتهم سنة استعانوا بما جزءوا لله وأكلوا منه فوفروا ما جزءوا لشركائهم ولم يأكلوا منه { سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } أي : بئس ما يقضون .

[137] { وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } ، أي : كما زين لهم تحريم الحرث والأنعام كذلك زين لكثير من المشركين ، { قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ } ، قال مجاهد : شركاؤهم أي : شياطينهم زينوا أو حسنوا لهم وأد البنات خيفة العيلة ، سميت الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم في معصية الله وأضيف الشركاء إليهم لأنهم اتخذوها . وقال الحلبي : شركاؤهم سدنة آلهتهم الذين كانوا يزينون للكفار قتل الأولاد ، وكان الرجل منهم يحلف لئن ولد له كذا غلاما لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله وقرأ ابن عامر : (زين) بضم الزاي وكسر الياء ، (قتل) رفع (أولادهم) نصب ، (شركائهم) بالخفض على التقديم فأضيف الفعل وهو القتل إلى الشركاء وإن لم يتولوا ذلك ، لأنهم هم الذين زينوا ذلك ودعوا إليه ، فكأنهم فعلوه . قوله عز وجل : { لِيُرْدُوهُمْ } ، ليهلكوهم, { وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ } ليخلطوا عليهم { دِينَهُمْ } ، قال ابن عباس : ليدخلوا عليهم الشك في دينهم وكانوا على دين إسماعيل فرجعوا عنه بلبس الشياطين . { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ } ، أي : لوشاء الله لعصمهم حتى ما فعلوا ذلك من تحريم الحرث

والأنعام وقتل الأولاد ، { فَذَرْهُمْ } يا محمد ، { وَمَا يَفْتَرُونَ } ، يختلقون من الكذب ، فإن الله تعالى لهم بالمرصاد .

[138] { وَقَالُوا } يعني : المشركين, { هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ } ، أي : حرام ، يعني : ما جعلوا لله ولآلهتهم من الحرث والأنعام على ما مضى ذكره ، وقال مجاهد : يعني الأنعام البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، { لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ } ، يعنون الرجال دون النساء ، { وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا } يعني : الحوامي كانوا لا يركبونها ، { وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا } ، أي : يذبحونها باسم الأصنام لا باسم الله ، وقال أبو وائل : معناه لا يحجون عليها ولا يركبونها لفعل الخير ، لأنه لما جرت العادة بذكر اسم الله على فعل الخير عبر بذكر الله تعالى عن فعل الخير . { افْتِرَاءً عَلَيْهِ } ، يعني : أنهم يفعلون ذلك ويزعمون أن الله أمرهم به افتراء عليه { سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } .

[139] { وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا } ، أي : نسائنا . قال ابن عباس وقتادة والشعبي : أراد أجنة البحائر والسوائب فما ولد منها حيا فهو خالص للرجال دون النساء ، وما ولد ميتا أكله الرجال والنساء جميعا . وأدخل الهاء في (الخالصة) للتأكيد كالخاصة والعامة ، كقولهم : نسابة وعلامة ، وقال الفراء رحمه الله : أدخلت الهاء لتأنيثها . وقال الكسائي : خالص وخالصة واحد ، مثل وعظ وموعظة ، { وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً } ، قرأ ابن عامر وأبو جعفر : (تكن) بالتاء (ميتة) رفع ، ذكر الفعل بعلامة التأنيث ، لأن الميتة في اللفظ مؤنثة . وقرأ أبو بكر عن عاصم (تكن) بالتاء (ميتة) نصب ، أي : وإن تكن الأجنة ميتة ، وقرأ ابن كثير : (وإن يكن) بالياء (ميتة) رفع . لأن المراد بالميتة الميت ، أي : وان يقع ما في البطون ميتا ، وقرأ الآخرون (وإن يكن) بالياء (ميتة) نصب ، رده إلى (ما) أي : وان يكن ما في البطون ميتة ، يدل عليه أنه قال : { فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ } ، ولم يقل : فيها ، وأراد أن الرجال والنساء فيه شركاء . { سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ } ، أي : بوصفهم ، أو على

وصفهم الكذب على الله ، { إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } .
[140] { قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ } ، قرأ ابن عامر وابن كثير (قتلوا) بتشديد التاء على التكثير ، وقرأ الآخرون بالتخفيف . { سَفَهًا } ، جهلا . { بِغَيْرِ عِلْمٍ } ، نزلت في ربيعة ومضر وبعض العرب من غيرهم ، كانوا يدفنون البنات أحياء مخافة السبي والفقر ، وكان بنو كنانة لا يفعلون ذلك . { وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ } ، يعني : البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، { افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ } ، حيث قالوا : إن الله أمرهم بها ، { قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ }

[141] قوله تعالى : { وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ } ، بساتين ، { مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ } ، أي : مسموكات مرفوعات وغير مرفوعات . وقال ابن عباس : معروشات : ما انبسط على وجه الأرض ، وانتشر مما يعرش ، مثل : الكرم والقرع والبطيخ وغيرها ، وغير معروشات : ما قام على ساق وبسق ، مثل النخل والزرع وسائر الأشجار . وقال الضحاك : كلاهما الكرم خاصة منها ما عرش ومنها ما لم يعرش . { وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ } ، أي : وانشأ النخل والزرع ، { مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ } ، ثمره وطعمه منه الحلو والحامض والجيد والرديء ، { وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا } ، في النظر ، { وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ } ، في المطعم مثل الرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف ، { كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ } ، هذا أمر إباحة . { وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ } قرأ أهل البصرة وابن عامر وعاصم

(حصاده) بفتح الحاء ، وقرأ الآخرون بكسرها ، ومعناهما واحد ، كالصرام والصرام والجزاز والجزاز ، واختلفوا في هذا الحق فقال ابن عباس وطاوس والحسن وجابر بن زيد وسعيد بن المسيب : إنها الزكاة المفروضة من العشر ونصف العشر ، وقال علي

بن الحسين وعطاء ومجاهد وحماد والحكم : حق في المال سوى الزكاة أمر بإتيانه لأن الآية مكية وفرضت الزكاة بالمدينة . قال إبراهيم : هو الضغث . وقال الربيع : لقاط السنبل . وقال سعيد بن جبير : كان هذا حقا يؤمر بإتيانه في ابتداء الإسلام فصار منسوخا بإيجاب العشر . قال مقسم عن ابن عباس : نسخت الزكاة كل نفقة في القرآن . { وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } ، قيل : أراد بالإسراف إعطاء الكل . قال السدي : لا تسرفوا أي لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء . قال الزجاج : على هذا إذا أعطى الإنس كل ماله ولم يوصل إلى عياله شيئا فقد أسرف ، لأنه جاء في الخبر : « ابدأ بمن تعول . » (1) ، وقال سعيد بن المسيب : معناه لا تمنعوا الصدقة . فتأويل هذه الآية على هذا : لا تتجاوز الحد في البخل والإمساك حتى تمنعوا الواجب من الصدقة . وقال مقاتل : لا تشركوا الأصنام في الحرث والأنعام . وقال الزهري : لا تنفقوا في المعصية . وقال مجاهد : الإسراف ما قصرت به عن حق الله عز وجل ، وقال : لو كان أبو قبيس ذهبا لرجل فأنفقه في طاعة الله لم يكن مسرفا ولو أنفق درهما أو مدا في معصية الله كان مسرفا . وقال إياس بن معاوية : ما

____

(1) أخرجه البخاري في الزكاة باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى 3 / 294 ومسلم في الزكاة باب بيان أفضل الصدقة رقم (1034) 2 / 717 والمصنف في شرح السنة 5 / 178 .

جاوزت به أمر الله فهو سرف وإسراف . وروى ابن وهب عن أبي زيد ، قال الخطاب للسلاطين ، يقول : لا تأخذوا فوق حقكم .

[142] قوله عز وجل : { وَمِنَ الْأَنْعَامِ } ، أي : وأنشأ من الأنعام ، { حَمُولَةً } ، وهي كل ما يحمل عليها من الإبل ، { وَفَرْشًا } , وهي الصغار من الإبل التي تحمل { كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ } , لا تسلكوا طريقة وآثاره في تحريم الحرث والأنعام, { إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } . ثم بين الحمولة والفرش فقال :

[143] { ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ } , نصبها على البدل من الحمولة والفرش, أي : وأنشأ من الأنعام ثمانية أزواج أصناف, { مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ } , أي الذكر والأنثى , فالذكر زوج والأنثى زوج, والعرب تسمي الواحد زوجا إذا كان لا ينفك عن الآخرة, والضأن النعاج , وهي ذوات الصوف من الغنم, والواحد ضأن والأنثى ضائنة, والجمع ضوائن, والواحد ضأن والأنثى ضائنة , والجمع ضوائن, { وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ } قرأ ابن كثير وابن عامر وأهل البصرة (ومن المعز) بفتح العين, والباقون بسكونها, والمعز والمعزى جمع لا واحد له من لفظه ، وهي ذوات الشعر من الغنم ، وجمع الماعز معيز ، وجمع الماعزة مواعز ، { قُلْ } يا محمد { آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ } ، الله عليكم ، يعني ذكر الضأن والمعز ، { أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ } ، يعني أنثى الضأن والمعز ، { أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ } ، منهما فإنها لا تشتمل إلا على ذكر وأنثى ، { نَبِّئُونِي } وأخبروني ، { بِعِلْمٍ } ، قال

الزجاج : فسروا ما حرمتم بعلم ، { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } أن الله تعالى حرم هذا .

[144] { وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ } ، وذلك أنهم كانوا يقولون : { هَذِهِ أَنْعَامٌ } { وَحَرْثٌ حِجْرٌ } ، { وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا } ، وحرموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وكانوا يحرمون بعضها على الرجال والنساء وبعضها على النساء دون الرجال ، فلما قام الإسلام وثبتت الأحكام جادلوا النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك { أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ } ، قيل : أراد عمرو بن لحي ومن جاء بعده على طريقته ، { إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } . ثم بين أن التحريم والتحليل يكون بالوحي والتنزيل ، فقال :

[145] { قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا } أي : شيئا محرما ، وروي أنهم قالوا : فما المحرم إذا فنزل : ، { قُلْ } يا محمد { لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ } ، آكل يأكله ، { إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً } قرأ ابن عامر وأبو جعفر تكون بالتاء, ميتة رفع أي : إلا أن تقع ميتة ، وقرأ ابن كثير وحمزة تكون بالتاء (ميتة) نصب على تقدير اسم مؤنث ، أي : إلا أن تكون النفس ، أو الجثة ميتة ، وقرأ الباقون يكون بالياء (ميتة) نصب ، يعني إلا أن يكون المطعوم ميتة ، { أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا } أي : مهراقا سائلا ، قال ابن عباس : يريد ما خرج من الحيوان وهن أحياء وما خرج من الأرواح وما يخرج من الأوداج عند الذبح ، ولا يدخل فيه الكبد والطحال ، لأنهما جامدان . وقد جاء الشرع بإباحتهما ، ولا ما اختلط باللحم من الدم ، لأنه غير سائل { أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ } ، وهو ما ذبح على غير اسم الله تعالى . فذهب بعض أهل العلم إلى أن التحريم مقصور على هذه الأشياء . ويروى ذلك عن عائشة وابن عباس ، قالوا : ويدخل في

الميتة المنخنقة والموقوذة, وما ذكر في أول سورة المائدة وأكثر العلماء على أن التحريم لا يختص بهذه الأشياء بل المحرم بنص الكتاب ما ذكر هنا, ذلك معنى قوله تعالى : { قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا } وقد حرمت السنة أشياء يجب القول بها ، ومنها كل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطير { فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } ، أباح الله أكل هذه المحرمات عند الاضطرار في غير العدوان .

[146] قوله عز وجل : { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا } ، يعني اليهود ، { كُلَّ ذِي ظُفُرٍ } ، وهو ما لم يكن مشقوق الأصابع من البهائم والطير مثل البعير والنعامة والأوز والبط ، قال القتيبي : هو كل ذي مخلب من الطير وكل ذي حافر من الدواب وحكاه عن بعض المفسرين ، وقال : سمي الحافر ظفرا على الاستعارة ، { وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا } يعني شحوم الجوف ، وهي الثروب ، وشحم الكليتين ، { إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا } ، أي : إلا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما ، { أَوِ الْحَوَايَا } ، وهي المباعر واحدتها حاوية وحوية أي ما حملته الحوايا من الشحم . { أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ } يعني : شحم الآلية هذا كله داخل في الاستثناء ، والتحريم مختص بالثرب وشحم الكلية { ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ } ، أي : ذلك التحريم عقوبة لهم { بِبَغْيِهِمْ } ، أي :

بظلمهم من قتلهم الأنبياء وصدهم عن سبيل الله وأخذهم الربا واستحلال أموال الناس بالباطل ، { وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } في الإخبار عما حرمنا عليهم وعن بغيهم .

[147] { فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ } ، بتأخير العذاب عنكم ، { وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ } ، عذابه { عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } ، إذا جاء وقته .

[148] { سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا } ، لما لزمتهم الحجة وتيقنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم ما لم يحرمه الله قالوا { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا } { أَشْرَكْنَا } نحن ، { وَلَا آبَاؤُنَا } ، من قبل ، { وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ } ، من البحائر والسوائب وغيرهما ، أرادوا أن يجعلوا قوله : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) ، حجة لهم على إقامتهم على الشرك ، وقالوا إن الله تعالى قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه حتى لا نفعله ، فلولا أنه رضي بما نحن عليه وإراده منا وأمرنا به لحال بيننا وبين ذلك ، فقال الله تعالى تكذيبا لهم ، { كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } ، من كفار الأمم الخالية ، { حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا } ، عذابنا . ويستدل أهل القدر بهذه الآية ، يقولون : إنهم لما قالوا (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) كذبهم الله ورد عليهم ، فقال : (كذلك كذب الذين من قبلهم) ، قلنا . التكذيب ليس في قولهم (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) ، بل ذلك القول صدق ، ولكن في قولهم : إن الله تعالى أمرنا بها ورضي بما نحن عليه كما أخبر عنهم في سورة الأعراف : {

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا } ، فالرد عليهم في هذا كما قال تعالى : { قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ } والدليل على أن التكذيب ورد فيما قلنا لا في قولهم : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) ، قوله : (كذلك كذب الذين من قبلهم) ، بالتشديد ، ولو كان ذلك خبرا من الله عز وجل عن كذبهم في قولهم : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) ، لقال كذلك كذب الذين مع قبلهم بالتخفيف فكان ينسبهم إلى الكذب لا إلى التكذيب ، وقال الحسن بن الفضل لو ذكروا هذه المقالة ، تعظيما وإجلالا لله عز وجل ، ومعرفة منهم به لما عابهم بذلك ، لأن الله تعالى قال : { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا } وقال : { مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } ، والمؤمنون يقولون ذلك ، ولكنهم قالوه تكذيبا وتخرصا وجدلا من غير معرفة بالله وبما يقولون ، نظيره قوله عز وجل : { وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } ، قال الله تعالى : { مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } ، وقيل في معنى الآية : إنهم

كانوا يقولون الحق بهذه الكلمة إلا أنهم كانوا يعدونه عذرا لأنفسهم ويجعلونه حجة لأنفسهم في ترك الإيمان ، ورد عليهم في هذا لأن أمر الله بمعزل عن مشيئته وإرادته ، فإنه مريد لجميع الكائنات غير أمر بجميع ما يريد ، وعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته ، فإن مشيئته لا تكون عذرا لأحد .
{ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ } ، أي : كتاب وحجة من الله ، { فَتُخْرِجُوهُ لَنَا } ، حتى يظهر ما تدعون على الله تعالى من الشرك وتحريم ما حرمتموه ، { إِنْ تَتَّبِعُونَ } ما تتبعون فيما أنتم عليه ، { إِلَّا الظَّنَّ } ، من غير علم ويقين ، { وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ } ، تكذبون .
[149] { قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ } ، التامة على خلقه بالكتاب والرسول والبيان ، { فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } ، فهذا يدل على أنه لم يشأ إيمان الكافر ولو شاء لهداه .

[150] { قُلْ هَلُمَّ } ، يقال للواحد والاثنين والجمع ، { شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ } ، أي : ائتوا بشهدائكم الذين يشهدون ، { أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا } ، هذا راجع إلى ما تقدم من تحريمهم الأشياء على أنفسهم ودعواهم أن الله أمرهم به ، { فَإِنْ شَهِدُوا } ، وهم كاذبون ، { فَلَا تَشْهَدْ } ، أنت ، { مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } ، أي : يشركون .

[151] قول عز وجل : { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا } ، وذلك أن المشركين سألوا وقالوا : أي شيء الذي حرم الله تعالى؟ فقال عز وجل : { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ } أقرأ ما حرم ربكم عليكم حقا يقينا لا ظنا ولا كذبا كما تزعمون ، فإن قيل : ما معنى قوله : { حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا } ، والمحرم هو الشرك لا ترك الشرك؟ قيل : موضع (أن) رفع معناه هو أن لا تشركوا ، وقيل : محله نصب واختلفوا في وجه انتصابه ، قيل : معناه حرم عليكم أن تشركوا به و (لا) صلة كقوله تعالى (ما منعك أن لا تسجد) أي : منعك أن تسجد . وقيل : تم الكلام عند قوله { حَرَّمَ رَبُّكُمْ } ثم قال : عليكم أن لا تشركوا به شيئا على وجه الإغراء . قال الزجاج : يجوز أن يكون هذا محمولا على المعنى ، أي : أتل عليكم تحريم الشرك ، وجائز أن يكون على معنى : أوصيكم ألا تشركوا به شيئا { وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ } ، فقر ، { نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ } ، أي : لا تئدوا بناتكم خشية العيلة فإني رازقكم وإياهم

، { وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ } ، ما ظهر يعني العلانية وما بطن يعني السر ، وكان أهل الجاهلية يستقبحون الزنا في العلانية ولا يرون به بأسا في السر فحرم الله تعالى الزنا في العلانية والسر . وقال الضحاك : ما ظهر الخمر وما بطن : الزنا . { وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ } ، حرم الله تعالى قتل المؤمن والمعاهد إلا بالحق ، إلا بما يبيح قتله من ردة أو قصاص أو زنا يوجب الرجم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » (1) { ذَلِكُمْ } الذي ذكرت ، { وَصَّاكُمْ بِهِ } ، أمركم به ، { لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } .

---

(1) أخرجه البخاري في الديات 12 / 201 ومسلم في القسامة رقم (1676) 3 / 1302 والمصنف في شرح السنة 10 / 147 ،

[152] { وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } ، يعني : بما فيه صلاحه وتثميره . وقال مجاهد : هو التجارة فيه . وقال الضحاك : هو أن يبتغي له فيه ولا يأخذ من ربحه شيئا ، { حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ } ، قال الشعبي ومالك : الأشد : الحلم ، حتى يكتب له الحسنات وتكتب عليه السيئات . قال أبو العالية : حتى يعقل وتجتمع قوته . وقال الكلبي : الأشد ما بين الثمانية عشرة سنة إلى ثلاثين سنة . وقيل : إلى أربعين سنة . وقيل : إلى ستين سنة . وقال الضحاك : عشرون سنة . وقال السدي : ثلاثون سنة . وقال مجاهد : الأشد ثلاث وثلاثون سنة . والأشد جمع شد ، مثل قد وأقد ، وهو استحكام قوة شبابه وسنه ، ومنه شد النهار وهو ارتفاعه . وقيل : بلوغ الأشد أن يؤنس رشده بعد البلوغ ، وتقدير الآية : ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن على الأبد حتي يبلغ أشده ، فادفعوا إليه ماله إن كان رشيدا ، { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ }

بالعدل ، { لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } ، أي : طاقتها في إيفاء الكيل والميزان ، أي لم يكلف المعطى أكثر مما وجب عليه ولم يكلف صاحب الحق الرضا بأقل من

حقه حتى لا تضيق نفسه عنه ، بل أمر كل واحد منهما بما يسعه مما لا حرج عليه فيه ، { وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا } ، فاصدقوا في الحكم والشهادة ، { وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى } ، أي ولو كان المحكوم والمشهود عليه ذا قرابة ، { وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } ، تتعظون ، قرأ حمزة والكسائي وحفص تذكرون خفيفة الذال ، كل القرآن ، والآخرون بتشديدها قال ابن عباس : هذه الآيات محكمات في جميع الكتب ، لم ينسخهن شيء وهن محرمات على بني آدم كلهم ، وهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار .

[153] { وَأَنَّ هَذَا } ، أي : هذا الذي وصيتكم به في هاتين الآيتين ، { صِرَاطِي } ، طريقي وديني ، { مُسْتَقِيمًا } ، مستويا قويما ، { فَاتَّبِعُوهُ } ، قرأ حمزة والكسائي ، (وإن) بكسر الألف على الاستئناف وقرأ الآخرون بفتح الألف ، قال الفراء : والمعنى وأتل عليكم أن هذا صراطي مستقيما وقرأ ابن عامر ويعقوب بسكون النون . { وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ } ، أي : الطرق المختلفة التي عدا هذا الطريق ، مثل اليهودية والنصرانية وسائر الملل ، وقيل : الأهواء والبدع ، { فَتَفَرَّقَ } ، فتميل ، { بِكُمْ } ، وتشتت ، { عَنْ سَبِيلِهِ } ، عن طريقه ودينه الذي ارتضى ، وبه أوصى ، { ذَلِكُمْ } ، الذي ذكرت ، { وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } . عن أبي وائل عن عبد الله قال : « خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا ثم قال : "هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله ، وقال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه " ثم قرأ : { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ }» ، الآية (1) .

---

(1) أخرجه الدارمي في المقدمة 1 / 67 والطبري في تفسيره وصححه الحاكم 3 / 318 ووافقه الذهبي وأخرجه الآجري في الشريعة ص 10 والمصنف في شرح السنة 1 / 196 .

[154] قوله عز وجل : { ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } ، فإن قيل : لم قال : { ثُمَّ آتَيْنَا } وحرف (ثم) للتعقيب وإيتاء موسى الكتاب كان قبل مجيء القرآن؟ قيل : معناه ثم أخبركم أنا آتينا موسى الكتاب ، فأدخل ثم لتأخير الخبر لا لتأخير النزول . { تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ } ، اختلفوا فيه ، قيل : تماما على المحسنين من قومه ، فتكون الذي بمعنى من ، أي : على من أحسن من قومه ، وكان بينهم محسن ومسيء ، يدل عليه قراءة ابن مسعود : (على الذين أحسنوا) ، وقال أبو عبيدة : معناه على كل من أحسن ، أي : أتممنا فضيلة موسى بالكتاب على المحسنين ، يعني : أظهرنا فضله عليها ، والمحسنون هم الأنبياء والمؤمنون ، وقيل : الذي أحسن هو موسى ، والذي بمعنى من ، أي : على ما أحسن موسى ، تقديره آتيناه الكتاب يعني التوراة إتماما عليه للنعمة لإحسانه في الطاعة والعبادة وتبليغ الرسالة وأداء الأمر . وقيل : الإحسان بمعنى العلم ، وأحسن بمعنى علم ، ومعناه تماما على الذي أحسن موسى من العلم والحكمة ، أي آتيناه الكتاب زيادة على ذلك . وقيل : معناه تماما مني على إحساني إلى موسى . { وَتَفْصِيلًا } ، بيانا { لِكُلِّ شَيْءٍ } يحتاج

إليه من شرائع الدين ، { وَهُدًى وَرَحْمَةً } ، هذا في صفة التوراة ، { لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ } ، قال ابن عباس : كي يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعقاب .
[155] { وَهَذَا } ، يعني : القرآن ، { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ } ، إليك ، { مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ } ، فاعملوا بما فيه ، { وَاتَّقُوا } ، وأطيعوا ، { لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } .
[156] { أَنْ تَقُولُوا } ، يعني : لئلا تقولوا ، كقوله تعالى : { يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا } ، أي : لئلا تضلوا وقيل : معناه أنزلناه كراهة{ أَنْ تَقُولُوا } ، قال الكسائي : معناه اتقوا أن تقولوا يا أهل مكة ، { إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا } ، يعني : اليهود والنصارى ، { وَإِنْ كُنَّا } ، وقد كنا ، { عَنْ دِرَاسَتِهِمْ } ، قراءتهم ، { لَغَافِلِينَ } ، لا نعلم ما هي ، معناه أنزلنا عليكم القرآن لئلا تقولوا إن الكتاب أنزل على من قبلنا بلسانهم ولغتهم فلم نعرف ما فيه وغفلنا عن دراسته ، فتجعلونه عذرا لأنفسكم .

[157] { أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ } ، وقد كان جماعة من الكفار قالوا ذلك لو أنا أنزل علينا ما أنزل على اليهود والنصارى لكنا خيرا منهم ، قال الله تعالى : { فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ } ، حجة واضحة بلغة تعرفونها ، { وَهُدًى } ، بيان { وَرَحْمَةٌ } ، ونعمة لمن اتبعه ، { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ } ، أعرض ، { عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ } ، شدة العذاب ، { بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ } ، يعرضون .

[158] قوله تعالى . { هَلْ يَنْظُرُونَ } ، أي : هل ينتظرون بعد تكذيبهم الرسل وإنكارهم القرآن ، { إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ } ، لقبض أرواحهم ، وقيل : بالعذاب ، قرأ حمزة والكسائي يأتيهم بالياء ها هنا وفي النحل ، والباقون بالتاء ، { أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ } ، بلا كيف لفصل القضاء بين خلقه في موقف القيامة ، { أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ } ، يعني طلوع الشمس من مغربها ، عليه أكثر المفسرين ورواه أبو سعيد الخدري مرفوعا . { يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ } ، أي : لا ينفعهم الإيمان عند ظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان ، { أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا } ، يريد : لا يقبل إيمان كافر ولا توبة فاسق { قُلِ انْتَظِرُوا } ، يا أهل مكة ، { إِنَّا مُنْتَظِرُونَ } بكم العذاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعين ، وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا » (1) وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال

---

(1) أخرجه البخاري في التفسير 8 / 397 ومسلم في الإيمان رقم (157) 1 / 137 .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا : الدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها » (1) .

---

(1) أخرجه مسلم في الإيمان رقم (158) 1 / 138 .

[159] قوله عز وجل : { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ } ، قرأ حمزة والكسائي : فارقوا ، بالألف ها هنا وفي سورة الروم ، أي : خرجوا من دينهم وتركوه وقرأ

الآخرون : { فَرَّقُوا } مشددا ، أي : جعلوا دين الله وهو واحد دين إبراهيم عليه السلام الحنيفية ، أديانا مختلفة فتهود قوم وتنصر قوم ، يدل عليه قوله عز وجل : { وَكَانُوا شِيَعًا } ، أي : صاروا فرقا مختلفة وهم اليهود والنصارى في قول مجاهد وقتادة والسدي وقيل : هم أصحاب البدع والشبهات من هده الأمة . وروي عن عمر بن الخطاب « أن رسول صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : يا عائشة إن الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعا هم أصحاب البدع والشبهات من هذه الأمة » (1) . وعن العرباض بن سارية قال : « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، وقال قائل : يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا : فقال : (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبدا حبشيا ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » (2) . وعن عبد

____

(1) عزاه ابن كثير لابن مردويه وقال : (هو غريب ولا يصح رفعه) ثم قال : والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفا له انظر تفسير ابن كثير 2 / 197 .

(2) أخرجه أبو داود في السنة ، باب لزوم السنة 7 / 11 والترمذي في العلم 7 / 437-442 وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه في المقدمة رقم (42 , 43) والمصنف في شرح السنة (1 / 205) .

الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن بني إسرائيل تفرقت على اثنين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين ملة ، كلهم في النار إلا واحدة ، قالوا : من هي يا رسول الله؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي » (1) ، { لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } ، قيل : لست من قتالهم في شيء نسختها آية القتال ، وهذا على قول من يقول : المراد في الآية اليهود والنصارى ، ومن قال : أراد بالآية أهل الأهواء قال : المراد من قوله لست منهم في شيء أي أنت منهم بريء وهم منك براء ، تقول العرب . إن فعلت كذا فلست مني ولست منك أي : كل واحد منا برئ من صاحبه ، { إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ } ، يعني : في الجزاء والمكافآت ، { ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } ، إذا وردوا للقيامة .

____

(1) روي هذا الحديث بطرق كثيرة بألفاظ مختلفة فقد أخرجه أبو داود في السنة 7 / 3-4 والترمذي في الإيمان 7 / 397 وقال : (حسن صحيح) وابن ماجه في الفتن رقم (3991) 2 / 1321 والدارمي في السير 2 / 241 وابن حبان برقم (1834) من الموارد وصححه الحاكم على شرط مسلم .

[160] قوله تعالى : { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا } ، أي : له عشر حسنات أمثالها ، وقرأ يعقوب (عشر) منون ، (أمثالها) بالرفع . { وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها حتى يلقى الله عز وجل » (1) ، وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تبارك وتعالى : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد ، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة بمثلها أو أغفر ، ومن تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا

ومن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئا لقيته بمثلها مغفرة » . قال ابن عمر : الآية في غير الصدقات من الحسنات ، فأما الصدقات تضاعف سبعمائة ضعف .

---

(1) أخرجه البخاري في الإيمان باب حسن إسلام المرء 1 / 1000 ومسلم في الإيمان باب إذا هم العبد بحسنة كتبت رقم (129)1 / 18 والمصنف في شرح السنة 14 / 338 .

[161] قوله عز وجل : { قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا } ، قرأ أهل الكوفة والشام { قِيَمًا } بكسر القاف وفتح الياء خفيفة ، وقرأ الآخرون بفتح القاف وكسر الياء مشددا ومعناهما واحد وهو القويم المستقيم ، وانتصابه على معنى هداني دينا قيما ، { مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } .
[162] { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي } ، قيل : أراد بالنسك الذبيحة في الحج والعمرة ، وقال مقاتل : نسكي : حجي ، وقيل : ديني ، { وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي } ، أي : حياتي ووفاتي ، { لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ، أي : هو يحييني ويميتني ، وقيل : محياي بالعمل الصالح ومماتي إذا مت على الإيمان لله رب العالمين ، وقيل : طاعتي في حياتي لله وجزائي بعد مماتي من الله رب العالمين . قرأ أهل المدينة : ومحياي بسكون الياء ومماتي بفتحها ، وقراءة العامة { وَمَحْيَايَ } بفتح الياء لئلا يجتمع ساكنان .
[163] قوله تعالى : { لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } ، قال قتادة : وأنا أول المسلمين من هذه الأمة .

[164] { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : سيدا وإلها { وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ } ، وذلك أن الكفار كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم : ارجع إلى ديننا . قال ابن عباس : كان الوليد بن المغيرة يقول : اتبعوا سبيلي أحمل عنكم أوزاركم ، فقال الله تعالى : { وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا } ، لا تجني كل نفس إلا ما كان من إثمه على الجاني ، { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } ، أي : لا تحمل نفس حمل أخرى ، أي : لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، { ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } .

[165] { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ } ، يعني : أهلك أهل القرون الماضية وأورثكم الأرض يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم من بعدهم ، فجعلكم خلائف منهم فيها تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم ، والخلائف جمع خليفة كالوصائف جمع وصيفة ، وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفة ، لأنه يخلفه . { وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ } ، أي : خالف بين أحوالكم فجعل بعضكم فوق بعض في الخلق والرزق والمعاش والقوة والفضل ، { لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ } ، ليختبركم فيما رزقكم ، يعني : يبتلي الغني والفقير والشريف والوضيع والحر والعبد ، ليظهر منكم ما يكون عليه من الثواب والعقاب ، { إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ } ، لأن ما هو آت فهو سريع قريب ، قيل : هو الهلاك في الدنيا ، { وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } ، قال عطاء : سريع العقاب لأعدائه غفور لأوليائه رحيم بهم .

(7) سورة الأعراف [1, 2] { المص } . { كِتَابٌ } أي : هذا كتاب ، { أُنْزِلَ إِلَيْكَ } ، وهو القرآن { فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ } ، قال مجاهد : شك ، فالخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به الأمة . وقال أبو العالية : حرج أي ضيق ، معناه لا يضيق صدرك بالإبلاغ وتأدية ما أرسلت به ، { لِتُنْذِرَ بِهِ } ، أي : كتاب أنزل إليك لتنذر به ، { وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } ، أي : عظة لهم وهو رفع مردود على الكتاب .
[3] { اتَّبِعُوا } ، أي وقل لهم اتبعوا : { مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ } أي : لا تتخذوا غيره أولياء تطيعونهم في معصية الله تعالى ، { قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ } ، تتعظون ، وقرأ ابن عامر : (تذكرون) ، بالياء والتاء .

[4] { وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا } ، بالعذاب ، (وكم) للتكثير و(رب) للتقليل ، { فَجَاءَهَا بَأْسُنَا } ، عذابنا ، { بَيَاتًا } ، ليلا { أَوْ هُمْ قَائِلُونَ } ، من القيلولة ، تقديره : فجاءها بأسنا ليلا وهم نائمون أو نهارا وهم قائلون أو نائمون ظهيرة ، والقيلولة : الاستراحة نصف النهار ، وإن لم يكن معها نوم . ومعنى الآية : أنهم جاءهم بأسنا وهم غير متوقعين له إما ليلا أو نهارا . قال الزجاج : و(أو) لتصريف العذاب ، مرة ليلا ومرة نهارا . وقيل : معناه من أهل القرى من أهلكناهم ليلا ، ومنهم من أهلكناهم نهارا ، فإن قيل : ما معنى أهلكناها فجاءها بأسنا؟ فكيف يكون مجيء البأس بعد الهلاك؟ قيل : معنى (أهلكنا) حكمنا بإهلاكها فجاءها بأسنا . وقيل : فجاءها بأسنا هو بيان قوله { أَهْلَكْنَاهَا } مثل قول القائل : أعطيتني فأحسنت إلي لا فرق بينه وبين قوله : أحسنت إلي فأعطيتني ، فيكون أحدهما بدلا من الآخر .

[5] { فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ } ، أي : قولهم ودعاؤهم وتضرعهم ، والدعوى تكون بمعنى الادعاء وبمعنى الدعاء ، قال سيبويه : تقول العرب اللهم أشركنا في صالح دعوى المسلمين أي في دعائهم ، { إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا } ، عذابنا ، { إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } ، معناه لم يقدروا على رد العذاب ، وكان حاصل أمرهم الاعتراف بالجناية حين لا ينفع الاعتراف .
[6] { فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ } ، يعني : الأمم عن إجابتهم الرسل ، وهذا سؤال توبيخ لا سؤال استعلام ، يعني : لنسألهم عما عملوا فيما بلغتهم الرسل ، { وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ } ، عن الإبلاغ .
[7] { فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ } أي : لنخبرنهم عن علم . قال ابن عباس رضي الله عنهما : ينطق عليهم كتاب أعمالهم ، كقوله تعالى : { هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ } . { وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ } ، عن الرسل فيما بلغوا ، وعن الأمم فيما أجابوا .

[8] قوله تعالى : { وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ } ، يعني : يوم السؤال . قال مجاهد : معناه والقضاء يومئذ العدل . وقال الأكثرون : أراد به وزن الأعمال بالميزان ، وذلك أن الله تعالى ينصب ميزانا له لسان وكفتان كل كفة بقدر ما بين المشرق والمغرب ، واختلفوا في كيفية الوزن ، فقال بعضهم : توزن صحائف الأعمال . وروينا : « أن رجلا ينشر عليه تسعة وتسعون سجلا ، كل سجل مد البصر فيخرج له بطاقة فيها شهادة أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » (1) وقيل : توزن الأشخاص ، وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » (2) وقيل : توزن الأعمال ، روي ذلك عن ابن عباس ،

فيؤتى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان ، والحكمة في وزن الأعمال امتحان الله عباده بالإيمان في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العقبى ، { فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ } ، قال مجاهد : حسناته ، { فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } .

---

(1) أخرجه الترمذي في الإيمان 7 / 395 وقال حديث حسن غريب ، وابن ماجه في الزهد رقم (4300) 2 / 1437 ، وصححه الحاكم 1 / 6 ، وابن حبان ص 625 ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ح 2 / 213 ، والمصنف من شرح السنة 15 / 134 .

(2) رواه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب التفسير 8 / 426 ، ومسلم في صحيحه في كتاب المنافقين رقم (2785) 4 / 2147 ، والمصنف في شرح السنة 15 / 143 .

[9] { وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ } يجحدون ، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين حضره الموت في وصيته لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا, وثقله عليهم ، وحق لميزان يوضع فيه الحق غدا أن يكون ثقيلا ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا ، وخفته عليهم وحق لميزان يوضع فيه الباطل غدا أن يكون خفيفا ، فإن قيل : قد قال : (فمن ثقلت موازينه) ذكر بلفظ الجمع ، والميزان واحد ، قيل : يجوز أن يكون لفظه جمعا ومعناه واحد كقوله { يا أَيُّهَا الرُّسُلُ } وقيل : لكل عبد ميزان وقيل : الأصل ميزان واحد عظيم ولكل عبد فيه ميزان معلق به ، وقيل : جمعه لأن الميزان يشتمل على الكفتين والشاهدين واللسان ، ولا يتم الوزن إلا باجتماعها .

[10] قوله تعالى : { وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ } ، أي : مكناهم والمراد من التمكين التمليك والقدرة ، { وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ } ، أي : أسبابا تعيشون بها أيام حياتكم من التجارات والمكاسب والمآكل والمشارب والمعايش جمع المعيشة ، { قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ } ، فيما صنعت إليكم .

[11] قوله عز وجل : { وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ } قال ابن عباس : خلقناكم ، أي : أصولكم وآباءكم ثم صورناكم في أرحام أمهاتكم . وقال قتادة والضحاك والسدي : أما خلقناكم فآدم ، وأما صورناكم فذريته . وقال مجاهد في خلقناكم : آدم ثم صورناكم في ظهر آدم بلفظ الجمع لأنه أبو البشر ففي خلقه خلق من يخرج من صلبه ، وقيل : خلقناكم في ظهر آدم ثم صورناكم يوم الميثاق حين أخرجكم كالذر . وقال عكرمة : خلقناكم في أصلاب الرجال ثم صورناكم في أرحام النساء . وقال يمان : خلق الإنسان في الرحم ثم صوره وشق سمعه وبصره وأصابعه . وقيل : الكل آدم خلقه وصوره وثم بمعنى الواو ، { ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ } ، فإن قيل : الأمر بسجود الملائكة كان قبل خلق بني آدم ، فما وجه قوله : { ثُمَّ قُلْنَا } وثم للترتيب والتراخي؟ قيل : على قول من يصرف الخلق والتصوير إلى آدم وحده يستقيم هذا الكلام أما على قول من يصرفه إلى الذرية فعنه أجوبة . أحدها ثم بمعنى الواو ، أي : وقلنا للملائكة ، فلا تكون للترتيب والتعقيب ، وقيل : أراد ثم أخبركم أنا قلنا للملائكة اسجدوا ، وقيل : فيه تقديم وتأخير تقديره ولقد

خلقناكم ، يعني : آدم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم صورناكم . قوله تعالى : { فَسَجَدُوا } ، يعني الملائكة ، { إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ } . , لآدم .

[12] { قَالَ } , الله تعالى : يا إبليس : { مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ } ، أي : وما منعك أن تسجد ولا زائدة كقوله تعالى : { وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } . { قَالَ } إبليس مجيبا { أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ } ، لأنك { خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } , والنار خير وأنور من الطين قال ابن عباس : أول من قاس إبليس فأخطأ القياس فمن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس . قال ابن سيرين : ما عبدت الشمس إلا بالقياس . قال محمد بن جرير : ظن الخبيث أن النار خير من الطين ولم يعلم أن الفضل لمن جعل الله له الفضل ، وقد فضل الله الطين على النار . وقالت الحكماء : للطين فضل على النار من وجوه منها أن من جوهر الطين الرزانة والوقار والحلم الصبر وهو الداعي لآدم بعد السعادة التي سبق له إلى التوبة والتواضع والتضرع فأورثه الاجتباء والتوبة والهداية ، ومن جوهر النار الخفة والطيش والحدة والارتفاع وهو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار ، فأورثه اللعنة والشقاوة ، ولأن الطين سبب جمع الأشياء والنار سبب تفرقها ولأن التراب سبب

الحياة ، فإن حياة الأشجار والنبات به ، والنار سبب الهلاك .
[13] قوله تعالى : { قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا } ، أي : من الجنة ، وقيل : من السماء إلى الأرض وكان له ملك الأرض فأخرجه منها إلى جزائر البحر وعرشه في البحر الأخضر ، فلا يدخل الأرض إلا خائفا على هيئة السارق مثل شيخ عليه أطمار يروع فيها حتى يخرج منها . قال تعالى : { فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ } ، بمخالفة الأمر ، { فِيهَا } ، أي : في الجنة ، فلا ينبغي أن يسكن في الجنة ولا السماء متكبر مخالف لأمر الله ، { فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ } ، من الأذلاء ، والصغار : الذل والمهانة .
[14] { قَالَ } ، إبليس عند ذلك ، { أَنْظِرْنِي } ، أخرجني وأمهلني فلا تمتني ، { إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } ، من قبورهم وهو النفخة الأخيرة عند قيام الساعة ، أراد الخبيث أن لا يذوق الموت .
[15] { قَالَ } ، الله تعالى ، { إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ } ، المؤخرين ، وبين مدة النظر والمهلة في موضع آخر فقال : { إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ } ، وهو النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم .

[16] { قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي } ، اختلفوا في ما قيل : هو استفهام يعني فبأي شيء أغويتني؟ ثم ابتدأ فقال : { لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ } وقيل : ما الجزاء ، أي : لأجل أنك أغويتني لأقعدن لهم . وقيل : هي ما المصدرية موضع القسم تقديره : فبإغوائك إياي لأقعدن لهم ، كقوله : { بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي } ، يعني لغفران ربي ، والمعنى بقدرتك علي ونفاذ سلطانك في .
وقال ابن الأنباري : أي فيما أوقعت في قلبي من الغي الذي كان سبب هبوطي من السماء أغويتني : أضللتني عن الهدى . وقيل : أهلكتني . وقيل : خيبتني ، { لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ } ، أي : لأجلسن لبني آدم على طريقك القويم وهو الإسلام .

[17] { ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ } ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : من بين أيديهم أي من قبل الآخرة فأشككهم فيها ، { وَمِنْ خَلْفِهِمْ } ، أرغبهم في دنياهم ، { وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ } ، أشبه عليهم أمر دينهم . { وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ } ، أشهي لهم المعاصي . وروى عطية عن ابن عباس : { مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ } من قبل دنياهم ، يعني أزينها في قلوبهم ، { وَمِنْ خَلْفِهِمْ } ، من قبل الآخرة فأقول : لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ، { وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ } من قبل حسناتهم ، { وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ } من قبل سيئاتهم . وقال الحكم : من بين أيديهم : من قبل الدنيا يزينها لهم ، ومن خلفهم : من قبل الآخرة يثبطهم عنها ، وعن أيمانهم : من قبل الحق يصدهم عنه ، وعن شمائلهم : من قبل الباطل يزينه لهم . وقال قتادة : أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ، ومن خلفهم : من أمور الدنيا يزينها لهم ويدعوهم إليها ، وعن أيمانهم : من قبل حسناتهم بطأهم عنها ، وعن شمائلهم : زين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها ، أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك

وبين رحمة الله . وقال مجاهد : من بين أيديهم وعن أيمانهم من حيث يبصرون ، ومن خلفهم وعن شمائلهم من حيث لا يبصرون . وقال ابن جريج : معنى قوله حيث لا يبصرون أي لا يخطئون وحيث لا يبصرون أي لا يعلمون أنهم يخطئون . { وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ } ، مؤمنين ، فإن قيل : كيف علم الخبيث ذلك؟ قيل : قاله ظنا فأصاب . قال الله تعالى : { وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ } .

[18] { قَالَ } ، الله تعالى لإبليس ، { اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا } ، أي : معيبا ، والذيم والذأم أشد العيب ، يقال : ذأمه يذأمه ذأما فهو مذءوم وذامه يذيمه ذاما فهو مذيم ، مثل سار يسير سيرا . والمدحور : المبعد المطرود ، يقال : يدحره دحرا إذا أبعده وطرده . قال ابن عباس : مذءوما أي ممقوتا ، وقال قتادة : مذءوما مدحورا أي : لعينا منفيا . وقال الكلبي : مذءوما ملوما مدحورا مقصيا من الجنة ومن كل خير . { لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ } ، من بني آدم ، { لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ } ، اللام لام القسم ، { مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ } ، أي : منك ومن ذريتك ومن كفار ذرية آدم أجمعين .

[19] { وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } .

[20] { فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ } , أي : إليهما ، والوسوسة : حديث يلقيه الشيطان في قلب الإنسان { لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا } ، أي : أظهر لهما ما غطي وستر عنهما من عوراتهما ، قيل : اللام فيه لام العاقبة وذلك أن إبليس لم يوسوس لهذا ولكن كان عاقبة أمرهم ذلك ، وهو ظهور عورتهما ، كقوله تعالى : { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا } ، ثم بين الوسوسة فقال : { وَقَالَ } ، يعني إبليس لآدم وحواء , { مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ } , يعني لئلا تكونا كراهية أن تكونا ملكين من الملائكة يعلمان الخير والشر ، { أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ } ، من الباقين الذين لا يموتون كما قال في موضع آخر : { هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى } .

[21] { وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ } , أي : وأقسم وحلف لهما وهذا من المفاعلة التي تختص بالواحد ، قال قتادة : حلف لهما بالله حتى خدعهما ، وقد يخدع المؤمن بالله ، فقال : إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني

أرشدكما ، وإبليس أول من حلف بالله كاذبا فلما حلف ظن آدم أن أحدا لا يحلف بالله إلا كاذبا فاغتر به .

[22] { فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ } ، أي : خدعهما ، يقال : ما زال فلان يدلي لفلان بغرور ، يعني : ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف باطل من القول . وقيل : حطهما من منزلة الطاعة إلى حال المعصية ، ولا يكون التدلي إلا من علو إلى أسفل والتدلية إرسال الدلو في البئر ، يقال : تدلى بنفسه ودلى غيره ، قال الأزهري : أصله تدلية العطشان البئر ليروي من الماء ولا يجد الماء فيكون مدلى بغرور ، والغرور : إظهار النصح مع إبطان الغش . { فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا } ، قال الكلبي : فلما أكلا منها . وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قبل أن ازدردا (1) أخذتهما العقوبة ، والعقوبة أن بدت ظهرت لهما سوآتهما عوراتهما ، وتهافت عنهما لباسهما حتى أبصر كل واحد منهما ما ووري عنه من عورة صاحبه ، وكانا لا يريان ذلك { وَطَفِقَا } فأقبلا وجعلا { يَخْصِفَانِ } ، يرقعان ويلزقان ويصلان ، { عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ } ، وهو ورق التين حتى صار كهيئة الثوب . قال الزجاج : يجعلان ورقة على ورقة ليسترا سوآتهما { وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ } ، يعني : الأكل منها ،

____

(1) ازدردا من زرد اللقمة بلعها . انظر مختار الصحاح ص 270 .

{ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ } ، أي : بين العداوة .

[23] { قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا } ، ضررناها بالمعصية ، { وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } ، الهالكين .
[24] { قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } .
[25] { قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ } ، يعني في الأرض تعيشون ، { وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ } أي : من الأرض تخرجون من قبوركم للبعث ، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي : (تخرجون) بفتح التاء ها هنا وفي الزخرف ، وافق يعقوب ها هنا وزاد حمزة والكسائي : (وكذلك تخرجون) ، في أول الروم ، والباقون بضم التاء وفتح الراء فيهن .

[26] { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ } ، أي خلقنا لكم { لِبَاسًا } ، وقيل : إنما قال : { أَنْزَلْنَا } لأن اللباس يكون من نبات الأرض ، والنبات يكون بما ينزل من السماء ، فمعنى قوله : { أَنْزَلْنَا } أي : أنزلنا أسبابه . وقيل : كل بركات الأرض منسوبة إلى بركات السماء كما قال تعالى : { وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ } وإنما يستخرج الحديد من الأرض . وسبب نزول هذه الآية أنهم كانوا في الجاهلية يطوفون بالبيت عراة ويقولون : لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها ، فكان الرجال يطوفون بالنهار والنساء بالليل عراة . وقال قتادة : كانت المرأة تطوف وتضع يدها على فرجها فأمر الله سبحانه بالستر فقال : { قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ } ، يستر عوراتكم ، واحدتها سوأة سميت بها لأنه يسوء صاحبها انكشافها فلا تطوفوا عراة ، { وَرِيشًا } ، يعني : مالا في قول ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي ، يقال : تريش الرجل إذا تمول ، وقيل : الريش الجمال ، أي : ما يتجملون به من الثياب ، وقيل : هو اللباس { وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ } ، قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي (وَلِبَاسُ) بنصب

السين عطفا على قوله { لِبَاسًا } وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وخبره { خَيْرٌ } وجعلوا ذلك صلة في الكلام ، ولذلك قرأ ابن مسعود وأبي بن كعب { وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ } واختلفوا في (لِبَاسُ التَّقْوَى) قال قتادة والسدي : لباس التقوى هو الإيمان . وقال الحسن : هو الحياء لأنه يبعث على التقوى . وقال عطية عن ابن عباس : هو العمل الصالح . وعن عثمان بن عفان أنه قال : السمت الحسن . وقال عروة بن الزبير : لباس التقوى خشية الله وقال الكلبي : هو العفاف . والمعنى : لباس التقوى خير لصاحبه إذا أخذ به مما خلق له من اللباس للتجمل . وقال ابن الأنباري : لباس التقوى هو اللباس الأول وإنما أعاده إخبارا أن ستر العورة خير من التعري في الطواف . وقال زيد بن علي : لباس التقوى الآلات التي يتقى بها في الحرب كالدرع والمغفر والساعد والساقين . وقيل : لباس التقوى هو الصوف والثياب الخشنة التي يلبسها أهل الورع ، { ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } .

[27] { يا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ } لا يضلنكم الشيطان ، { كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ } ، أي : كما فتن أبويكم آدم وحواء فأخرجهما ، { مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا } ، ليرى كل واحد سوأة الآخر . { إِنَّهُ يَرَاكُمْ } ، يعني أن الشيطان يراكم يا بني آدم ، { هُوَ وَقَبِيلُهُ } ، وجنوده ، قال ابن عباس . هو وولده . وقال قتادة : قبيلة الجن والشياطين ، { مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ } ، قال مالك بن دينار : إن عدوا يراك ولا تراه لشديد الخصومة والمؤنة إلا من عصم الله ، { إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ } قرناء وأعوانا ، { لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } ، وقال الزجاج : سلطناهم عليهم يزيدون في غيهم كما قال . { أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا } .

[28] { وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً } ، قال ابن عباس ومجاهد : هي طوافهم بالبيت عراة . وقال عطاء : الشرك والفاحشة : اسم لكل فعل قبيح بلغ النهاية في القبح . { قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا } ، وفيه إضمار معناه : وإذا فعلوا فاحشة فنهوا عنها قالوا وجدنا عليها آباءنا . قيل : ومن أين أخذ آباؤكم قالوا ، { وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } .

[29] { قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ } ، قال ابن عباس : بلا إله إلا الله . وقال الضحاك : بالتوحيد . وقال مجاهد والسدي : بالعدل . { وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ } قال مجاهد والسدي : يعني وجهوا وجوهكم حيثما كنتم في الصلاة إلى الكعبة . وقال الضحاك : إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فصلوا فيه ولا يقولن أحدكم أصلي في مسجدي . وقيل : معناه اجعلوا سجودكم لله خالصا . { وَادْعُوهُ } ، واعبدوه ، { مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } ، الطاعة والعبادة ، { كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } ، قال ابن عباس : إن الله تعالى بدأ خلق بني آدم مؤمنا وكافرا . كما قال : { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ } ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمنا وكافرا قال مجاهد : يبعثون على ما ماتوا عليه ، وقال الحسن ومجاهد : كما بدأكم فخلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئا ، كذلك تعودون أحياء يوم القيامة كما قال الله تعالى : { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ } . قال قتادة : بدأهم من التراب وإلى التراب يعودون ، نظيره قوله تعالى : { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ } .

[30] قوله عز وجل : { فَرِيقًا هَدَى } ، أي : هداهم الله ، { وَفَرِيقًا حَقَّ } ، وجب { عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ } ، أي : بالإرادة السابقة ، { إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ

أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ } ، فيه دليل على أن الكافر الذي يظن أنه في دينه على الحق والجاحد والمعاند سواء .

[31] قوله تعالى : { يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ } ، قال أهل التفسير : كانت بنو عامر يطوفون بالبيت عراة ، فأنزل الله عز وجل { يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ } ، يعني الثياب . قال مجاهد : ما يواري عورتك ولو عباءة . قال الكلبي : الزينة ما يواري العورة عند كل مسجد لطواف أو صلاة . { وَكُلُوا وَاشْرَبُوا } ، قال الكلبي : كانت بنو عامر لا يأكلون في أيام حجهم من الطعام إلا قوتا ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم ، فقال المسلمون : نحن أحق أن نفعل ذلك يا رسول الله ، فأنزل الله عز وجل وكلوا يعني اللحم والدسم واشربوا اللبن ، { وَلَا تُسْرِفُوا } ، بتحريم ما أحل الله لكم من اللحم والدسم ، { إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } ، الذين يفعلون ذلك . قال ابن عباس : كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة . قال علي بن الحسين بن واقد : قد جمع الله الطب كله في نصف آية فقال : { وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا } .

[32] قوله عز وجل : { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ } ، يعني لبس الثياب في الطواف ، { وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ } ، يعني اللحم والدسم في أيام الحج . وعن ابن عباس وقتادة .والطيبات من الرزق ما حرم أهل الجاهلية من البحائر والسوائب . { قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ، فيه حذف تقديره : هي للذين آمنوا وللمشركين في الحياة الدنيا ، فإن أهل الشرك يشاركون المؤمنين في طيبات الدنيا ، وهي في الآخرة خالصة للمؤمنين لا حظ للمشركين فيها . وقيل : هي خالصة يوم القيامة من التنغيص والغم للمؤمنين ، فإنها لهم في الدنيا مع التنغيص والغم . قرأ نافع (خالصة) رفع ، أي : قل هي للذين آمنوا مشتركين في الدنيا وهي في الآخرة خالصة يوم القيامة . وقرأ الآخرون بالنصب على القطع ، { كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } .

[33] { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ } ، يعني : الطواف عراة { مَا ظَهَرَ } طواف الرجال بالنهار { وَمَا بَطَنَ } طواف النساء بالليل . وقيل : هو الزنا سرا وعلانية { وَالْإِثْمَ } ، يعني : الذنب والمعصية . وقال الضحاك : الذنب الذي لا حد فيه . قال الحسن : الإثم : الخمر . قال الشاعر :

شربت الإثم حتى ضل عقلي ... كذاك الإثم تذهب بالعقول

{ وَالْبَغْيَ } ، الظلم والكبر ، { بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا } ، حجة وبرهانا ، { وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } ، في تحريم الحرث والأنعام ، في قول مقاتل . وقال غيره : هو عام في تحريم القول في الدين من غير يقين .
[34] { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ } ، مدة وأكل وشرب . وقال ابن عباس وعطاء والحسن : يعني وقتا لنزول العذاب بهم ، { فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ } ، وانقطع أكلهم ، { لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } ، أي : لا يتقدمون . وذلك حين سألوا العذاب فأنزل الله هذه الآية .

[35] قوله تعالى : { يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ } ، أي : أن يأتيكم . قيل : أراد جميع الرسل . وقال مقاتل : أراد بقوله { يا بَنِي آدَمَ } مشركي العرب وبالرسل محمدا صلى الله عليه وسلم وحده ، { يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي } ، قال ابن عباس : فرائضي وأحكامي ، { فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ } ، أي : اتقى الشرك وأصلح عمله . وقيل : أخلص ما بينه وبين ربه { فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ } ، إذا خاف الناس ، { وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } ، أي : إذا حزنوا .
[36] { وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا } ، تكبروا عن الإيمان بها ، وإنما ذكر الاستكبار لأن كل مكذب وكافر متكبر . قال الله تعالى : { إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ } . { أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } .

[37] قوله تعالى : { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } ، جعل له شريكا ، { أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ } ، بالقرآن { أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ } ، أي : حظهم مما كتب لهم في اللوح المحفوظ . واختلفوا فيه ، قال الحسن والسدي : ما كتب لهم من العذاب وقضى عليهم من سواد الوجوه وزرقة العيون . قال عطية عن ابن عباس : كتب لمن يفتري على الله أن وجهه مسود ، قال الله تعالى : { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ } وقال سعيد ابن جبير ومجاهد : ما سبق لهم من الشقاوة والسعادة وقال ابن عباس وقتادة والضحاك : يعني أعمالهم التي عملوها وكتب عليهم من خير وشر يجزي عليها . وقال محمد بن كعب القرظي : ما كتب لهم من الأرزاق والآجال والأعمار والأعمال فإذا فنيت ، { جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ } ، يقبضون أرواحهم يعني ملك الموت وأعوانه ، { قَالُوا } ، يعني يقول الرسل للكفار ، { أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ } ، تعبدون ، { مِنْ دُونِ اللَّهِ } ، سؤال تبكيت وتقريع ، { قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا } ، بطلوا وذهبوا عنا ، {

وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ } ، اعترفوا عند معاينة الموت ، { أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ } .

[38] { قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ } ، يعني : يقول الله لهم يوم القيامة ادخلوا في أمم ، أي : مع جماعات ، { قَدْ خَلَتْ } ، { مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ } ، يعني كفار الأمم الخالية ، { كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا } ، يريد أختها في الدين لا في النسب ، فتلعن اليهود اليهود والنصارى النصارى ، وكل فرقة تلعن أختها ويلعن الأتباع القادة ، ولم يقل أخاها لأنه عنى الأمة والجماعة ، { حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا } ، أي : تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا في النار ، { جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ } ، قال مقاتل : يعني أخراهم دخولا النار وهم الأتباع ، { لِأُولَاهُمْ } ، أي : لأولاهم دخولا وهم القادة ، لأن القادة يدخلون النار أولا . وقال ابن عباس : يعني آخر كل أمة لأولاها . وقال السدي : أهل آخر الزمان لأولاهم الذين شرعوا لهم ذلك الدين ، { رَبَّنَا هَؤُلَاءِ } ، الذين ، { أَضَلُّونَا } عن الهدى يعني القادة { فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ } ، أي : ضعف عليهم العذاب ، { قَالَ } , الله تعالى, { لِكُلٍّ ضِعْفٌ } ، يعني للقادة والأتباع ضعف من العذاب ، {

وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ } ما لكل فريق منكم من العذاب . قرأ الجمهور : { وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ } وقرأ أبو بكر (لا يعلمون) بالياء ، أي : لا يعلم الأتباع ما للقادة ولا القادة ما للأتباع.
[39] { وَقَالَتْ أُولَاهُمْ } ، يعني القادة ، { لِأُخْرَاهُمْ } ، للأتباع ، { فَمَا كَانَ

لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ } ، لأنكم كفرتم كما كفرنا فنحن وأنتم في الكفر سواء وفي العذاب سواء ، { فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ } .

[40] { إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ } ، بالتاء ، خفف أبو عمرو ، وبالياء ، خفف حمزة والكسائي ، والباقون بالتاء مشددة ، { لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ } لأدعيتهم ولا لأعمالهم . وقال ابن عباس : لأرواحهم لأنها خبيثة لا يصعد بها بل يهوى بها إلى سجين ، إنما تفتح أبواب السماء لأرواح المؤمنين وأدعيتهم وأعمالهم ، { وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ } ، أي : حتى يدخل البعير في ثقب الإبرة ، والخياط والمخيط واحد وهو : الإبرة والمراد منه أنهم لا يدخلون الجنة أبدا لأن الشيء إذا علق بما يستحيل كونه يدل ذلك على تأكيد المنع ، كما يقال : لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب أو يبيض القار ، يريد لا أفعله أبدا ، { وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ } .

[41] { لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ } ، أي : فراش ، { وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ } ، أي : لحف . وهي جمع غاشية ، يعني ما غشاهم وغطاهم ، يريد إحاطة النار بهم من كل جانب ، كما قال الله : { لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ } { وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} .
[42] { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } ، أي : طاقتها وما لا تحرج فيه ولا تضيق عليه ، { أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } .

[43] { وَنَزَعْنَا } ، وأخرجنا ، { مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ } ، من غش وعداوة كانت بينهم في الدنيا فجعلناهم إخوانا على سرر متقابلين لا يحسد بعضهم بعضا على شيء خص الله به بعضهم . { تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ } { وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } . أي إلى هذا ، يعني طريق الجنة . وقال سفيان الثوري : معناه هدانا لعمل هذا ثوابه ، { وَمَا كُنَّا } ، قرأ ابن عامر : (ما كنا) بلا واو ، { لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ } ، هذا قول أهل الجنة حين رأوا ما وعدهم الرسل عيانا ، { وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ، قيل . هدا النداء إذا رأوا الجنة من بعيد نودوا أن تلكم الجنة ، وقيل : هذا النداء يكون في الجنة ، عن أبي سعيد وعن أبي هريرة قالا : ينادي مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبدا ، { وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ } , هذا حديث صحيح أخرجه مسلم .

[44] قوله تعالى : { وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا } ، من الثواب ، { حَقًّا } ، أي : صدقا ، { فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ } ، من العذاب ، { حَقًّا قَالُوا نَعَمْ } ، قرأ الكسائي بكسر العين حيث كان ، والباقون بفتحها وهما لغتان ، { فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ } ، أي : نادى مناد أسمع الفريقين ، { أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } ، قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم : (أن) خفيف ، { لَعْنَةُ } ، رفع ، وقرأ الآخرون بالتشديد ، (لعنة الله) نصب على الظالمين ، أي : الكافرين .
[45] { الَّذِينَ يَصُدُّونَ } ، أي : يصرفون الناس ، { عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ، طاعة الله ، { وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا } ، أي : يطلبونها زيغا وميلا ، أي : يبطلون سبيل الله

جائرين عن القصد . قال ابن عباس : يصلون لغير الله ، ويعظمون ما لم يعظمه الله . والعوج بكسر العين في الدين والأمر والأرض وكل ما لم يكن قائما ، وبالفتح في كل ما كان قائما كالحائط والرمح ونحوهما . { وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ } .

[46] { وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ } ، يعني : بين الجنة والنار . وقيل . بين أهل الجنة وبين أهل النار حجاب ، وهو السور الذي ذكر الله تعالى في قوله : { فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ } ، قوله تعالى : { وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ } ، والأعراف هي ذلك السور الذي بين الجنة والنار ، وهي جمع عرف وهو اسم للمكان المرتفع ، ومنه عرف الديك لارتفاعه عما سواه من جسده . وقال السدي : سمي ذلك السور أعرافا لأن أصحابه يعرفون الناس . واختلفوا في الرجال الذين أخبر الله عنهم أنهم على الأعراف ، فقال حذيفة وابن عباس : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار ، فوقفوا هناك حتى يقضي الله فيهم ما يشاء ، ثم يدخلهما الجنة بفضل رحمته ، وهم آخر من يدخل الجنة . وقال عبد العزيز بن يحيى الكناني : هم الذين ماتوا في الفترة ولم يبدلوا دينهم . وقيل . هم أطفال المشركين . وقال الحسن : هم أهل الفضل من المؤمنين علوا على الأعراف فيطلعون على أهل الجنة وأهل النار جميعا ، ويطالعون أحوال الفريقين . قوله تعالى : { يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ } ، أي : يعرفون أهل الجنة ببياض وجوههم

وأهل النار بسواد وجوههم { وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ } أي : إذا رأوا أهل الجنة قالوا سلام عليكم ، { لَمْ يَدْخُلُوهَا } وَهُمْ يَطْمَعُونَ يعني : أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة { وَهُمْ يَطْمَعُونَ } ، في دخولها قال أبو العالية : ما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلا كرامة يريدها بهم . قال الحسن : الذي جعل الطمع في قلوبهم يوصلهم إلى ما يطمعون .
[47] { وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ } ، تعوذوا بالله ، { قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } ، يعني الكافرين في النار .

[48] { وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا } ، كانوا عظماء في الدنيا من أهل النار ، { يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ } ، في الدنيا من المال والولد ، { وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ } ، عن الإيمان . قال الكلبي : ينادون وهم على السور : يا وليد بن المغيرة ويا أبا جهل ابن هشام ويا فلان ، ثم ينظرون إلى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزءون بهم ، مثل سلمان وصهيب وخباب وبلال وأشباههم فيقول أصحاب الأعراف لأولئك الكفار :

[49] { أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ } ، حلفتم ، { لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ } ، أي : حلفتم أنهم لا يدخلون الجنة . ثم يقال لأهل الأعراف ، { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ } ، وفيه قول آخر : أن أصحاب الأعراف إذا قالوا لأهل النار ما قالوا قال لهم أهل النار : إن دخل أولئك الجنة وأنتم لم تدخلوها فيعيرونهم بذلك ويقسمون أنهم يدخلون النار ، فتقول الملائكة الذين حبسوا أصحاب الأعراف على الصراط لأهل النار . أهؤلاء يعني أصحاب الأعراف الذين أقسمتم يا أهل النار أنهم لا ينالهم الله برحمة ، ثم قالت الملائكة لأصحاب الأعراف : { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ } ، فيدخلون الجنة .

[50, 51] قوله تعالى : { وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا } ، أي صبوا ، { عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } ، أي : أوسعوا علينا مما رزقكم الله من طعام الجنة . قال عطاء عن ابن عباس : لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار في الفرج ، وقالوا : يا رب إن لنا قرابات من أهل الجنة ، فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم ، فينظروا إلى قرابتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فيعرفونهم ولم يعرفهم أهل الجنة لسواد وجوههم فينادي أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم ، وأخبروهم بقراباتهم أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، { قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ } ، يعني : الماء والطعام ، { الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا } وهو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة وأخواتها والمكاء والتصدية حول البيت ، وسائر الخصال الذميمة التي كانوا يفعلونها في الجاهلية . وقيل : دينهم أي عيدهم ، { وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ } ، نتركهم في النار ، { كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا } ، أي : كما

تركوا العمل للقاء يومهم هذا ، { وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ } .

[52] { وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ } ، يعني القرآن { فَصَّلْنَاهُ } , بيناه ، { عَلَى عِلْمٍ } منا لما يصلحهم ، { هُدًى وَرَحْمَةً } أي : جعلنا القرآن هاديا وذا رحمة ، { لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } .
[53] { هَلْ يَنْظُرُونَ } ، أي : هل ينتظرون ، { إِلَّا تَأْوِيلَهُ } ، قال مجاهد : جزاءه . وقال السدي : عاقبته . ومعناه : هل ينتظرون إلا ما يئول إليه أمرهم في العذاب ومصيرهم إلى النار . { يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ } ، أي : جزاؤه وما يئول إليه أمرهم ، { يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ } ، اعترفوا به حين لا ينفعهم الاعتراف ، { فَهَلْ لَنَا } ، اليوم ، { مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ } ، إلى الدنيا ، { فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ } ، أهلكوها بالعذاب ، { وَضَلَّ } ، وبطل ، { عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } .

[54] قوله تعالى : { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } ، أراد به في مقدار ستة أيام لأن اليوم من لدن طلوع الشمس إلى غروبها ، ولم يكن يومئذ يوم ولا شمس ولا سماء ، قيل : ستة أيام كأيام الآخرة ، وكل يوم كألف سنة . وقيل : كأيام الدنيا . قال سعيد بن جبير : كان الله عز وجل قادرا على خلق السموات والأرض في لمحة ولحظة ، فخلقهن في ستة أيام تعليما لخلقه التثبت والتأني في الأمور . وقد جاء في الحديث : « التأني من الله والعجلة من الشيطان » (1) ، { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } ، قال الكلبي ومقاتل : استقر . وقال أبو عبيدة : صعد ، وأولت المعتزلة (2) الاستواء بالاستيلاء ، فأما أهل السنة يقولون : الاستواء على العرش صفة الله تعالى بلا كيف ، يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل . وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله : { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } [سورة طه : آية 5] ، كيف استوى؟ قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أظنك إلا ضالا ، ثم أمر به فأخرج ، وروي عن سفيان الثوري والأوزاعي والليث

---

(1) قال العجلوني في كشف الخفاء ج 1 / 350 «رواه ابن أبي شيبة وأبو يعلى ، وابن منيع والحارث بن أبي أسامة في مسانيدهم عن أنس رفعه

وأخرجه البيهقي عنه أيضا وله شواهد عند الترمذي وقال : حسن غريب ، بلفظ : »الأناة من الله والعجلة من الشيطان « . وأخرجه المصنف في شرح السنة 13 / 176 .
(2) المعتزلة : فرقة كلامية ، ظهرت في أخريات القرن الأول الهجري ، وبلغت شأوها في العصر العباسي الأول ، يرجع اسمها إلى اعتزال إمامها «واصل بن عطاء» مجلس الحسن البصري . وهذه الفرقة شديدة التأثر بالفلسفة اليونانية ، وهي تعتمد في إدراك الغيبيات على العقل ، وكل ما خالف العقل عندهم يأولونه ويطوعونه حسب مفاهيمهم الكلامية ، ولقد جعلوا العقل أساسا لفهم القرآن الكريم لا القرآن أساسا للعقل ففسروا آيات الصفات على حسب ما تدركه عقولهم من الفهم وحكموا العقل في كل ما يتعلق بالاعتقاد والإيمان .

بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة : أمروها كما جاءت بلا كيف ، والعرش في اللغة : هو السرير . وقيل : هو ما علا فأظل ، ومنه عرش الكروم . وقيل : العرش الملك . { يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ } ، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب (يغشي) بالتشديد ها هنا وفي سورة الرعد ، والباقون بالتخفيف ، أي : يأتي الليل على النهار فيغطيه ، وفيه حذف أي : ويغشي النهار الليل ، ولم يذكره لدلالة الكلام عليه وذكر في آية أخرى فقال : { يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ } . { يَطْلُبُهُ حَثِيثًا } ، أي : سريعا ، وذلك أنه إذا كان يعقب أحدهم الآخر ويخلفه ، فكأنه يطلبه . { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ } أي : خلق هذه الأشياء مسخرات ، أي : مذللات { بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ } ، له الخلق لأنه خلقهم وله الأمر يأمر في خلقه بما يشاء ، قال سفيان بن عيينة : فرق الله بين الخلق والأمر فمن جمع بينهما فقد كفر . { تَبَارَكَ اللَّهُ } ، أي : تعالى الله وتعظم . وقيل : ارتفع .

والمبارك المرتفع . وقيل : تبارك تفاعل من البركة وهي النماء والزيادة . أي : البركة تكتسب وتنال بذكره . وعن ابن عباس قال : جاء بكل بركة . وقال الحسن : تجيء البركة من قبله وقيل . تبارك تقدس . والقدس الطهارة . وقيل : تبارك الله أي باسمه يتبرك في كل شيء . وقال المحققون . معنى هذه الصفة ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال وأصل البركة الثبوت . ويقال : تبارك الله ، ولا يقال . متبارك ولا مبارك ، لأنه لم يرد به التوقيف . { رَبُّ الْعَالَمِينَ } .

[55] { ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا } ، تذللا واستكانة ، { وَخُفْيَةً } أي : سرا . قال الحسن : بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفا ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت ، وإن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم ، ذلك أن الله سبحانه يقول : { ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً } ، وإن الله ذكر عبدا صالحا ورضي فعله فقال : { إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا } . { إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } ، قيل : المعتدين في الدعاء . وقال أبو مجلز : هم الذين يسألون منازل الأنبياء عليهم السلام وقيل : أراد به الاعتداء بالجهر والصياح ، قال ابن جريج : من الاعتداء رفع الصوت والنداء بالدعاء والصياح . وروينا عن أبي موسى قال : لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا » (1) . وقال عطية : هم الذين يدعون على المؤمنين فيما لا يحل ، فيقولون :

اللهم اخزهم اللهم العنهم .

____

(1) رواه البخاري في الجهاد 7 / 470 ومسلم في الذكر رقم (2704) 4 / 2076 والمصنف في شرح السنة 5 / 66 .

[56] { وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا } ، أي : لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة ، والدعاء إلى طاعة الله ، وهذا معنى قول الحسن والسدي والضحاك والكلبي . وقال عطية : لا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم . فعلى هذا معنى قوله : { بَعْدَ إِصْلَاحِهَا } أي : بعد إصلاح الله إياها بالمطر والخصب . { وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا } ، أي : خوفا منه ومن عذابه وطمعا فيما عنده من مغفرته وثوابه . وقال ابن جريج : خوف العدل وطمع الفضل . { إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } ، ولم يقل قريبة ، قال سعيد بن جبير : الرحمة ها هنا الثواب فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ كقوله : { وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ } ، ولم يقل منها لأنه أراد الميراث والمال . وقال الخليل بن أحمد : القريب والبعيد يستوي فيهما في اللغة المذكر والمؤنث والواحد والجمع . قال أبو عمرو بن العلاء : القريب في اللغة يكون بمعنى القرب وبمعنى المسافة ، تقول العرب :

هذه امرأة قريبة منك إذا كانت بمعنى القرابة ، وقريب منك إذا كانت بمعنى المسافة .

[57] قوله تعالى : { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا } ، قرأ عاصم (بشرا) بالباء وضمها وسكون الشين ها هنا وفي الفرقان وسورة النمل ، ويعني : أنها تبشر بالمطر بدليل قوله تعالى : { الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ } ، وقرأ حمزة والكسائي نشرا بالنون وفتحها ، وهي الريح الطيبة اللينة ، قال الله تعالى : { وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا } وقرأ ابن عامر بضم النون وسكون الشين ، وقرأ الآخرون بضم النون والشين ، جمع نشور ، مثل صبور وصبر ورسول ورسل ، أي : متفرقة وهي الرياح التي تهب من كل ناحية . { بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ } ، أي : قدام المطر { حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ } ، حملت الرياح ، { سَحَابًا ثِقَالًا } بالمطر ، { سُقْنَاهُ } ، ورد الكناية إلى السحاب ، { لِبَلَدٍ مَيِّتٍ } . إلى بلد ميت محتاج إلى الماء . وقيل : معناه لإحياء بلد ميت لا نبات فيه { فَأَنْزَلْنَا بِهِ } ، أي : بالسحاب . وقيل : بذلك البلد الميت ، { الْمَاءَ } ، يعني : المطر ، { فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى } ، استدل بإحياء الأرض بعد موتها على إحياء الموتى { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } ، قال أبو

هريرة وابن عباس : إذا مات الناس كلهم في النفخة الأولى أرسل الله عليهم مطرا كمني الرجال من ماء تحت العرش يدعى ماء الحيوان ، فينبتون في قبورهم نبات الزرع حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح ، ثم يلقي عليهم النوم فينامون في قبورهم ، ثم يحشرون بالنفخة الثانية وهم يجدون طعم النوم في رءوسهم وأعينهم ، فعند ذلك يقولون : { يا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا } .

[58] قوله تعالى : { وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ } ، هذا مثل ضربه الله عز وجل للمؤمن والكافر ، فمثل المؤمن مثل البلد الطيب يصيبه المطر

فيخرج نباته بإذن ربه ، { وَالَّذِي خَبُثَ } ، يريد الأرض السبخة التي ، { لَا يَخْرُجُ } ، نباتها ، { إِلَّا نَكِدًا } ، قرأ أبو جعفر بفتح الكاف ، وقرأ الآخرون بكسرها ، أي : عسرا قليلا بعناء ومشقة . فالأول مثل المؤمن الذي إذا سمع القرآن وعاه وعقله وانتفع به ، والثاني مثل الكافر الذي يسمع القرآن فلا يؤثر فيه ، كالبلد الخبيث الذي لا يتبين أثر المطر فيه { كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ } نبينها ، { لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ } عن أبي موسى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم

يقبل هدى الله الذي أرسلت به » (1) .
[59] قوله تعالى : { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ } ، وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس ، وهو أول نبي بعث بعد إدريس فقال ، لقومه ، { يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } ، قرأ أبو جعفر والكسائي من إله غيره بكسر الراء حيث كان على نعت الإله ، وافق حمزة في سورة فاطر : { هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ } ، وقرأ الآخرون برفع الراء على التقديم ، تقديره : مالكم غيره من إله ، { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ } ، إن لم تؤمنوا, { عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } .
[60] { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ } ، خطأ وزوال عن الحق ، { مُبِينٍ } بَيِّن .
[61] { قَالَ } ، نوح ، { يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ } ، ولم يقل ليست ، لأن معنى الضلالة الضلال أو على تقديم الفعل ، { وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } .

____
(1) أخرجه البخاري في العلم 1 / 175 ومسلم في الفضائل رقم (2282) 2 / 1787 والمصنف في شرح السنة 1 / 287 .

[62] { أُبَلِّغُكُمْ } ، قرأ أبو عمرو : (أبلغكم) بالتخفيف حيث كان من الإبلاغ . لقوله : (لقد أبلغتكم) ، { رِسَالَاتِ رَبِّي } ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وقرأ الآخرون بالتشديد من التبليغ ، لقوله تعالى : { بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ } ، رسالات ربي ، { وَأَنْصَحُ لَكُمْ } ، يقال : نصحته ونصحت له . والنصح أن يريد لغيره من الخير ما يريد لنفسه ، { وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } ، أن عقابه لا يرد عن القوم المجرمين .
[63] { أَوَعَجِبْتُمْ } ، ألف استفهام دخلت على واو العطف ، { أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما . موعظة . وقيل : بيان . وقيل . رسالة . { عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ } ، عذاب الله إن لم تؤمنوا ، { وَلِتَتَّقُوا } ، أي : لكي تتقوا الله ، { وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ، لكي ترحموا .

[64] { فَكَذَّبُوهُ } يعني : كذبوا نوحا ، { فَأَنْجَيْنَاهُ } ، من الطوفان ، { وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ } ، في السفينة ، { وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ } ، أي : كفارا . قال ابن عباس : عميت قلوبهم عن معرفة الله . قال الزجاج : عموا عن الحق والإيمان ، يقال : رجل عم عن الحق وأعمى في البصر . وقيل : العمى والأعمى كالخضر والأخضر . قال مقاتل : عموا عن نزول العذاب وهو الغرق .

[65] قوله تعالى : { وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا } ، أي : وأرسلنا إلى عاد ، وهو عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وهي عاد الأولى أخاهم في النسب لا في الدين ، (هودا) وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوص . وقال ابن إسحاق : هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، { قَالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ } ، أفلا تخافون نقمته؟

[66] { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ } ، يا هود ، { فِي سَفَاهَةٍ } ، في حمق وجهالة . قال ابن عباس رضي الله عنهما : تدعو إلى دين لا نعرفه ، { وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } ، أنك رسول الله إلينا .
[67] { قَالَ } , هود { يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } .

[68] { أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ } ، ناصح أدعوكم إلى التوبة أمين على الرسالة . قال الكلبي . كنت فيكم قبل اليوم أمينا .
[69] { أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ } ، يعني نفسه ، { لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ } ، يعني في الأرض ، { مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ } أي : من بعد إهلاكهم ، { وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً } ، أي : طولا وقوة { فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ } نعم الله ، واحدها إلى وآلاء ، مثل : معى وأمعاء ، وقفا وأقفاء ونظيرها : (آناء الليل) ، واحدها أنا وآناء ، { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } .
[70] { قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا } ، من الأصنام ، { فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا } ، من العذاب ، { إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } .

[71] { قَالَ } ، هود { قَدْ وَقَعَ } ، وجب ونزل ، { عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ } أي : عذاب ، والسين مبدلة من الزاي ، { وَغَضَبٌ } ، أي : سخط ، { أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا } ، وضعتموها ، { أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ } ، قال أهل التفسير : كانت لهم أصنام يعبدونها سموها أسماء مختلفة ، { مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } ، حجة وبرهان ، { فَانْتَظِرُوا } ، نزول العذاب ، { إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ } .
[72] { فَأَنْجَيْنَاهُ } ، يعني هودا عند نزول العذاب ، { وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } ، أي : استأصلناهم وأهلكناهم عن آخرهم ، { وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ } .

[73] قوله تعالى : { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا } ، وهو ثمود بن عابر بن أرم بن سام بن نوح ، وأراد ها هنا القبيلة . قال أبو عمرو بن العلاء : سميت ثمود لقلة مائها ، والثمد : الماء القليل ، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، (أخاهم صالحا) أي أرسلنا إلى ثمود أخاهم في النسب لا في الدين صالحا ، وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماشيح بن عبيد بن خادر بن ثمود ، { قَالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ } , حجة من ربكم على صدقي { هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ } ، أضافها إليه على التفضيل والتخصيص ، كما يقال : بيت الله { لَكُمْ آيَةً } نصب على الحال { فَذَرُوهَا تَأْكُلْ } العشب ، { فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ } ، لا تصيبوها بعقر ، { فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } .

[74] { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ } ، أسكنكم وأنزلكم ، { فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا } ، كانوا ينقبون في الجبال البيوت ففي الصيف يسكنون بيوت الطين ، وفي الشتاء بيوت الجبال . وقيل : كانوا ينحتون البيوت في الجبل لأن بيوت الطين ما كانت تبقى مدة أعمارهم لطول أعمارهم ، { فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } والعيث : أشد الفساد .
[75] { قَالَ الْمَلَأُ } قرأ ابن عامر : وقَالَ الْمَلَأُ بالواو ، { الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ } يعني الأشراف والقادة الذين تعظموا عن الإيمان بصالح ، { لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا } ، يعني الأتباع ، { لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ } ، يعني : قال الكفار للمؤمنين ، { أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ } ، إليكم ، { قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ } .
[76] { قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ } ، جاحدون .

[77] { فَعَقَرُوا النَّاقَةَ } ، قال الأزهري : العقر هو قطع عرقوب البعير ، ثم جعل النحر عقرا لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره . { وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ } ، والعتو الغلو في الباطل ، يقال : عتا يعتو عتوا إذا استكبروا ، والمعنى : عصوا الله وتركوا أمره في الناقة وكذبوا نبيهم . { وَقَالُوا يا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا } ، أي : من العذاب ، { إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } .
[78] { فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ } ، وهي زلزلة الأرض وحركتها وأهلكوا بالصيحة والرجفة ، { فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ } ، قيل : أراد الديار . وقيل : أراد في أرضهم وبلدتهم ، ولذلك وحد الدار ، { جَاثِمِينَ } ، خامدين ميتين . قيل : سقطوا على وجوههم موتى عن آخرهم .

[79] { فَتَوَلَّى } ، أعرض صالح ، { عَنْهُمْ وَقَالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ } ، فإن قيل : كيف خاطبهم بقوله لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم بعدما أهلكوا بالرجفة؟ قيل : كما خاطب النبي صلى الله عليه وسلم الكفار من قتلى بدر حين ألقاهم في القليب ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : « أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال النبي-صلى الله عليه وسلم : "والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون » (1) . وقيل : خاطبهم ليكون عبرة لمن خلفهم . وقيل : في الآية تقديم وتأخير تقديرها : فتولى عنهم ، وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي فأخذتهم الرجفة .

---

(1) قطعة من حديث أنس بن مالك أخرجه البخاري في المغازي باب قتل أبي جهل 7 / 300, 301 .

[80] قوله تعالى : { وَلُوطًا } ، أي : وأرسلنا لوطا . وقيل : معناه واذكر لوطا . وهو لوط بن هاران بن تارخ بن أخي إبراهيم ، { إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ } ، وهم أهل سدوم وذلك أن لوطا شخص من أرض بابل سافر مع عمه إبراهيم عليه السلام مؤمنا مهاجرا معه إلى الشام ، فنزل إبراهيم فلسطين وأنزل لوطا الأردن ، فأرسله الله عز وجل إلى أهل سدوم فقال لهم : { أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ } ، يعني : إتيان الذكران ، { مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ } ، قال عمرو بن دينار : ما نزا ذكر على ذكر في الدنيا إلا كان من قوم لوط .

[81] { إِنَّكُمْ } ، قرأ أهل المدينة وحفص إنكم بكسر الألف على الخبر ، وقرأ الآخرون على الاستئناف . { لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ } ، في أدبارهم ، { شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ } ، فسر تلك الفاحشة يعنى أدبار الرجال أشهى عندكم من فروج النساء ، { بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ } مجاوزون الحلال إلى الحرام . قال محمد بن إسحاق : كانت لهم ثمار وقرى لم يكن في الأرض مثلها فقصدهم الناس لينالوا من ثمارهم فآذوهم .

[82] { وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا } ، قال بعضهم لبعض ، { أَخْرِجُوهُمْ } ، يعني : لوطا وأهل دينه ، { مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } ، يتنزهون عن أدبار الرجال .
[83] { فَأَنْجَيْنَاهُ } ، يعني : لوطا ، { وَأَهْلَهُ } ، المؤمنين, وقيل : أهله ابنتاه ، { إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } ، يعني الباقين في العذاب . وقيل : معناه كانت من الباقين المعمرين قد أتى عليها دهر طويل فهلكت مع من هلك من قوم لوط ، وإنما قال : { مِنَ الْغَابِرِينَ } , لأنه أراد ممن بقى من الرجال فلما ضم ذكرها إلى ذكر الرجال قال من الغابرين .
[84] { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا } . يعني حجارة من سجيل قال وهب : الكبريت والنار ، { فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } ، قال أبو عبيدة : يقال في العذاب أمطر وفي الرحمة مطر .

[85] قوله تعالى : { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا } : وأرسلنا إلى ولد مدين وهو مدين بن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، وهم أصحاب الأيكة أخاهم شعيبا في النسب لا في الدين . قال عطاء : هو شعيب بن توبة بن مدين بن إبراهيم . وقال ابن إسحاق : هو شعيب بن ميكائيل بن يزجر بن مدين بن إبراهيم وأم ميكائيل بنت لوط . وقيل : هو شعيب بن يشرون بن مدين ، وكان شعيب أعمى وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه، وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان ، { قَالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ } ، فإن قيل : ما معنى قوله تعالى : { قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ } ولم تكن لهم آية مذكورة؟ قيل . قد كانت لهم هذه الآية إلا أنها لم تذكر ، وليست كل الآيات مذكورة في القرآن ،وقيل : أراد بالبينة مجيء شعيب ، { فَأَوْفُوا الْكَيْلَ } ، أتموا الكيل ، { وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ } ، لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم إياها ، { وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا } ، أي : ببعث الرسل

والأمر بالعدل ، وكل نبي بعث إلى قوم فهو صلاحهم ، { ذَلِكُمْ } الذي ذكرت لكم وأمرتكم به ، { ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } ، مصدقين بما أقول .
[86] { وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ } ، أي : على كل طريق ، { تُوعِدُونَ } تهددون { وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ، دين الله ، { مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا } ، زيغا ، وقيل : تطلبون الاعوجاج في الدين والعدول عن القصد ، وذلك أنهم كانوا يجلسون على الطريق فيقولون لمن يريد الإيمان بشعيب : إن شعيب كذاب فلا يفتننك عن دينك ويتوعدون المؤمنين بالقتل ويخوفونهم . وقال السدي : كانوا عشارين . { وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ } ، فكثر عددهم ، { وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } ، أي : آخر أمر قوم لوط .
[87] { وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا } ، أي : إن اختلفتم في رسالتي فصرتم فرقتين مكذبين ومصدقين ، { فَاصْبِرُوا حَتَّى

يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا } ، بتعذيب المكذبين وإنجاء المصدقين ، { وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } .

[88] { قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ } ، يعني الرؤساء الذين تعظموا عن الإيمان به ، { لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا } ، لترجعن إلى ديننا الذي نحن عليه { قَالَ } شعيب { أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ } ، يعني : لو كنا أي : وإن كنا كارهبن لذلك فتجبروننا عليه؟

[89] { قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا } ، بعد إذ أنقذنا الله منها ، { إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا } يقول إلا أن يكون قد سبق لنا في علم الله ومشيئته أنا نعود فيها فحينئذ يمضي قضاء الله فينا وينفذ حكمه علينا . فإن قيل : ما معنى قوله : { أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا } ، { وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا } ولم يكن شعيب قط على ملتهم حتى يصح قولهم ترجع إلى ملتنا؟ قيل : معناه أو لتدخلن في ملتنا ، فقال : وما كان لنا أن ندخل فيها . وقيل : معناه إن صرنا في ملتكم ، ومعنى (عاد) صار ، وقيل : أراد به قوم شعيب لأنهم كانوا كفارا فآمنوا فأجاب شعيب عنهم ، قوله : { وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا } ، أحاط علمه بكل شيء { عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا } ، فيما توعدوننا به . ثم عاد شعيب بعد ما أيس من فلاحهم فقال : { رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا } ، أي : اقض بيننا ، { بِالْحَقِّ } ، والفتاح : القاضي ، { وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ } أي : الحاكمين .

[90] { وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا } ، وتركتم دينكم ، { إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ } ، مغبونون وقال عطاء : جاهلون ، قال الضحاك : عجزة .
[91] { فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ } ، قال الكلبي : الزلزلة . وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : فتح الله عليهم بابا من جهنم فأرسل عليهم حرا شديدا فآخذ بأنفاسهم ولم ينفعهم ظل ولا ماء فكانوا يدخلون الأسراب ليتبردوا فيها فإذا دخلوها وجدوها أشد حرا من الظاهر ، فخرجوا هربا إلى البرية فبعث الله سحابة فيها ريح طيبة فأظلتهم ، وهي الظلة ، فوجدوا لها بردا ونسيما فنادى بعضهم بعضا حتى اجتمعوا تحت السحابة ، رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألهبها الله عليهم نارا ورجفت بهم الأرض فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلى ، وصاورا رمادا { فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } .
[92] وقوله تعالى : { الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا } ، أي : لم يقيموا ولما ينزلوا فيها ، من قولهم : غنيت بالمكان إذا قمت به ، والمغاني المنازل واحدها مغنى ، وقيل : كأن لم يتنعموا فيها .

{ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ } ، لا المؤمنين كما زعموا .
[93] { فَتَوَلَّى } ، أعرض { عَنْهُمْ } شعيب شاخصا من بين أظهرهم حين أتاهم العذاب { وَقَالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى } ، أحزن, { عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ } ، والأسى : الحزن : والأسى : الصبر .
[94] قوله تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ } ، فيه إضمار، يعني : فكذبوه ، { إِلَّا أَخَذْنَا } ، عاقبنا { أَهْلَهَا } ، حين لم يؤمنوا ، { بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ } ، قال ابن مسعود : البأساء : الفقر والضراء : المرض ، وهذا معنى قول من قال البأساء في المال والضراء في النفس . وقيل : البأساء البؤس وضيق

العيش ، والضراء والضر سوء الحال . وقيل : البأساء في الحرب والضراء الجدب ، { لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ } ، لكي يتضرعوا فيتوبوا .

[95] { ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ } ، يعني : مكان البأساء والضراء الحسنة ، يعني النعمة والسعة والخصب والصحة ، { حَتَّى عَفَوْا } ، أي : كثروا وازدادوا ، وكثرت أموالهم ، يقال : عفا الشعر إذا كثر . قال مجاهد : وكثرت أموالهم وأولادهم ، { وَقَالُوا } ، من غرتهم وغفلتهم بعد ما صاروا إلى الرخاء ، { قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ } ، أي : هكذا كانت عادة الدهر قديما لنا ولآبائنا ولم يكن ما مسنا من الضراء عقوبة من الله ، فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم فإنهم لم يتركوا دينهم لما أصابهم من الضراء ، قال الله تعالى : { فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً } ، فجأة آمن ما كانوا { وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } ، بنزول العذاب .

[96] { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } يعني : المطر من السماء والنبات من الأرض ، وأصل البركة : المواظبة على الشيء ، أي : تابعنا عليهم المطر والنبات ورفعنا عنهم القحط والجدب ، { وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } ، من الأعمال الخبيثة .
[97] { أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى } الذين كفروا وكذبوا ، يعني : أهل مكة وما حولها ، { أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا } ، عذابنا { بَيَاتًا } ، ليلا ، { وَهُمْ نَائِمُونَ } .
[98] { أَوَأَمِنَ } ، قرأ أهل الحجاز والشام: (أوأمن) بسكون الواو ، والباقون بفتحها ، { أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى } ، أي : نهارا : والضحى : صدر النهار ، ووقت انبساط الشمس ، { وَهُمْ يَلْعَبُونَ } ، ساهون لاهون .
[99] { أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } ومكر الله استدراجه إياهم بما أنعم عليهم في دنياهم . وقال عطية : يعني أخذه وعذابه .

[100] { أَوَلَمْ يَهْدِ } ، قرأ قتادة ويعقوب : نهد بالنون على التعظيم ، والباقون بالياء على التفريد ، يعني أولم نبين ، { لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ } ، هلاك { أَهْلِهَا } ، الذين كانوا فيها قبلهم { أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ } ، أي : أخذناهم وعاقبناهم ، { بِذُنُوبِهِمْ } كما عاقبنا من قبلهم ، { وَنَطْبَعُ } ، نختم ، { عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ } ، الإيمان ولا يقبلون الموعظة ، قال الزجاج : قوله (نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) منقطع عما قبله لأن قوله { أَصَبْنَاهُمْ } ماض ، و { نَطْبَعُ } مستقبل .

[101] { تِلْكَ الْقُرَى } ، أي : هذه القرى التي ذكرت لك أمرها وأمر أهلها يعني قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب . { نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا } ، أخبارها لما فيها من الاعتبار ، { وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ } ، بالآيات والمعجزات والعجائب ، { فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ } ، أي : فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات والعجائب بما كذبوا من قبل رؤيتهم تلك العجائب ، نظيره قوله عز وجل : { قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ } . قال ابن عباس والسدي . يعني فما كان هؤلاء الكفار الذين أهلكناهم ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا من قبل يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم ، فأقروا باللسان وأضمروا التكذيب . وقال مجاهد : معناه فما كانوا لو أحييناهم بعد إهلاكهم ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل هلاكهم ، كقوله عز وجل : { وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ } . قال يمان بن رباب : هذا

على معنى أن كل نبي أنذر قومه بالعذاب فكذبوه ، يقول : ما كانوا ليؤمنوا بما كذب به أوائلهم من الأمم الخالية ، بل كذبوا بما

كذب أوائلهم ، نظيره قوله عز وجل : { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ } . { كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ } ، أي : كما طبع الله على قلوب الأمم الخالية التي أهلكها كذلك يطبع الله على قلوب الكفار الذين كتب عليهم أن لا يؤمنوا من قومك .
[102] { وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ } ، أي : وفاء بالعهد الذي عاهدهم يوم الميثاق ، حين أخرجهم من صلب آدم { وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ } ، أي : ما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين ناقضين للعهد .
[103] قوله تعالى : { ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ } ، أي : من بعد نوح وهود وصالح وشعيب ، { مُوسَى بِآيَاتِنَا } ، بأدلتنا ، { إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا } ، فجحدوا بها ، والظلم : وضع الشيء في غير موضعه ، فظلمهم وضع الكفر موضع الإيمان ، { فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } ، وكيف فعلنا بهم .

[104] { وَقَالَ مُوسَى } لما دخل على فرعون { يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } إليك ، فقال فرعون : كذبت ، فقال موسى :
[105] { حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ } ، أي : أنا خليق بألا أقول على الله إلا الحق ، فتكون على بمعنى الباء كما يقال : رميت بالقوس ورميت على القوس ، وجئت على حال حسنة وبحال حسنة ، يدل عليه قراءة أبي والأعمش (حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق) ، وقال أبو عبيدة : معناه حريص على ألا أقول على الله إلا الحق ، وقرأ نافع (علي) بتشديد الياء أي حق واجب علي ألا أقول على الله إلا الحق . { قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ } ، يعني العصا ، { فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ } ، أي : أطلق عنهم وخلهم يرجعون . إلى الأرض المقدسة ، وكان فرعون قد استخدمهم في الأعمال الشاقة من ضرب اللبن ونقل التراب ونحوهما، فقال فرعون مجيبا لموسى .
[106] { قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }

[107] { فَأَلْقَى } موسى { عَصَاهُ } من يده { فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ } والثعبان : الذكر العظيم من الحيات ، فإن قيل . أليس قد قال في موضع آخر { كَأَنَّهَا جَانٌّ } ، والجان الحية الصغيرة؟ قيل : إنها كانت كالجان في الحركة والخفة ، وهي في جثتها حية عظيمة . قال ابن عباس والسدي : إنه لما ألقى العصا صارت حية عظيمة صفراء شعراء فاغرة فاها ما بين لحييها ثمانون ذراعا وارتفعت من الأرض بقدر ميل ، وقامت له على ذنبها واضعة لحيها الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر ، وتوجهت نحو فرعون لتأخذه ، وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا ودخل فرعون البيت وصاح يا موسى أنشدك بالذي أرسلك خذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل ، فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت ثم قال فرعون : هل معك آية أخرى؟ قال : نعم .
[108] { وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ } ، فأدخل يده في جيبه ثم نزعها ، وقيل : أخرجها من تحت إبطه فإذا هي بيضاء لها شعاع غلب نور الشمس ، وكان موسى آدم ، ثم أدخلها جيبه فصارت كما كانت .

[109] { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ } ، يعنون إنه ليأخذ بأعين الناس حتى يخيل إليهم العصا حية والآدم أبيض ، ويري الشيء بخلاف ما هو به .

[110] {يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ } ، يا معشر القبط ، { مِنْ أَرْضِكُمْ } ، مصر ، { فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } ، أي : تشيرون إليه ، هذا يقوله فرعون وإن لم يذكره ، وقيل : هذا من قول الملأ لفرعون وخاصته .
[111] { قَالُوا } ، يعني الملأ ، { أَرْجِهْ } قرأ ابن كثير وأهل البصرة وابن عامر بالهمزة وضم الهاء ، وقرأ الآخرون بلا همز ، ثم نافع رواية ورش والكسائي يشبعان الهاء كسرا ، ويسكنها عاصم وحمزة ، ويختلسها أبو جعفر وقالون ، قال عطاء : معناه أخره . وقيل : احبسه ، { وَأَخَاهُ } ، معناه أشاروا عليه بتأخير أمره وترك التعرض له بالقتل ، { وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ } ، يعني الشرط في المدائن ، وهي مدائن الصعيد من نواحي مصر ، قالوا : أرسل إلى هذه المدائن رجالا يحشرون إليك من فيها من السحرة ، وكان رؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد ، فإن غلبهم موسى صدقناه وإن غلبوا علمنا أنه ساحر .

[112] فذلك قوله : { يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ } ، قرأ حمزة ، والكسائي (سحار) ها هنا وفي سورة يونس ولم يختلفوا في الشعراء أنه سحار ، قيل : الساحر الذي يعلم السحر ولا يعلم ، والسحار الذي يعلم . وقيل : الساحر من يكون سحره في وقت دون وقت ، والسحار من يديم السحر . قال ابن عباس وابن إسحاق والسدي : قال فرعون لما رأى من سلطان الله في العصا ما رأى : إنا لا نغالب إلا بمن هو منه ، فاتخذ غلمانا من بني إسرائيل فبعث بهم إلى قرية يقال لها الفرحاء يعلمونهم السحر ، فعلموهم سحرا كثيرا وواعد فرعون موسى موعدا فبعث إلى السحرة فجاءوا ومعلمهم معهم ، فقال له : ماذا صنعت؟ قال : قد علمتهم سحرا لا يطيقه سحرة أهل الأرض إلا أن يكون أمرا من السماء فإنه لا طاقة لهم به ، ثم بعث فرعون في مملكته فلم يترك في سلطانه ساحرا إلا أتى به ، واختلفوا في عددهم فقال مقاتل : كانوا اثنين وسبعين ، اثنان من القبط وهما رأسا القوم وسبعون من بني إسرائيل . وقال الكلبي : كان الذين يعلمونهم رجلين مجوسيين من أهل نينوى ، وكانوا سبعين غير رئيسهم . وقال كعب : كانوا اثني عشر ألفا . وقال السدي : كانوا بضعة وثلاثين ألفا . وقال عكرمة :

كانوا سبعين ألفا . وقال محمد بن المنكدر : كانوا ثمانين ألفا . وقال مقاتل : كان رئيس السحرة شمعون . وقال ابن جريج : كان رئيس السحرة يوحنا .
[113] { وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ } واجتمعوا ، { قَالُوا } ، لفرعون { إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا } ، أي : جعلا ومالا { إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ } ، قرأ أهل الحجاز وحفص { إِنَّ لَنَا } على الخبر ، وقرأ الباقون بالاستفهام ، ولم يختلفوا في الشعراء أنه مستفهم .
[114] { قَالَ } فرعون { نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ } ، في المنزلة الرفيعة عندي مع الأجر ، قال الكلبي : يعني أول من يدخل وآخر من يخرج .
[115] { قَالُوا } يعني السحرة { يا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ } عصاك { وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ } ، لعصينا وحبالنا .

[116] { قَالَ } ، موسى بل { أَلْقُوا } أنتم ، { فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ } ، أي : صرفوا أعينهم . عن إدراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل ، وهذا هو السحر ، { وَاسْتَرْهَبُوهُمْ } ، أي : أرهبوهم وأفزعوهم ، { وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ } ، وذلك أنهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا فإذا هي حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضا . وفي القصة أن الأرض

كانت ميلا في ميل صارت حيات وأفاعي في أعين الناس .
[117] { وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ } ، فألقاها فصارت حية عظيمة . حتى سدت الأفق . قال ابن زيد : كان اجتماعهم بالإسكندرية { فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ } قرأ حفص (تلقف) ساكنة اللام خفيفة حيث كان ، وقرأ الآخرون بفتح اللام وتشديد القاف ، أي : تبتلع ، { مَا يَأْفِكُونَ } ، يكذبون من التخاييل وقيل : يزورون على الناس . فكانت تلتقم حبالهم وعصيهم واحدا واحدا حتى ابتلعت الكل وقصدت القوم الذين حضروا فوقع الزحام عليهم فهلك منهم في الزحام خمسة وعشرون ألفا ثم أخذها موسى فصارت عصا كما كانت .

[118] { فَوَقَعَ الْحَقُّ } ، قال الحسن ومجاهد : ظهر الحق ، { وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ، من السحر ، وذلك أن السحرة قالوا : لو كان ما يصنع موسى سحرا لبقيت حبالنا وعصينا ، فلما فقدت علموا أن ذلك من أمر الله .
[119] { فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ } ، ذليلين مقهورين .

[120] { وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ } لله تعالى . قال مقاتل : ألقاهم الله . وقيل : ألهمهم الله أن يسجدوا فسجدوا . قال الأخفش : من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا .
[121, 122] { قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } , فقال فرعون : إياي تعنون فقالوا : { رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ } ، قال مقاتل : قال موسى لكبير السحرة : تؤمن بي إن غلبتك؟ فقال : لآتين بسحر لا يغلبه سحر ، ولئن غلبتني لأومنن بك ، وفرعون ينظر .
[123] { قَالَ } لهم { فِرْعَوْنُ } حين آمنوا { آمَنْتُمْ بِهِ } ، قرأ حفص { آمَنْتُمْ } على الخبر هاهنا وفي طه والشعراء ، وقرأ الآخرون بالاستفهام أأمنتم به ، { قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ } ، أصدقتم موسى من غير أمري إياكم ، { إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ } ، أي : صنيع صنعتموه أنتم وموسى : { فِي الْمَدِينَةِ } في مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع لتستولوا على مصر ، { لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } ما أفعل بكم .

[124] { لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ } ، وهو أن يقطع من كل شق طرفا . قال الكلبي : لأقطعن أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى ، { ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ } ، على شاطئ نهر مصر .
[125] { قَالُوا } ، يعني السحرة لفرعون ، { إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ } ، راجعون في الآخرة .
[126] { وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا } ، أي : ما تكره منا . وقال الضحاك وغيره : وما تطعن علينا . وقال عطاء : ما لنا عندك من ذنب تعذبنا عليه ، { إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا } ثم فزعوا إلى الله عز وجل فقالوا : { رَبَّنَا أَفْرِغْ } ، اصبب { عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ } ، ذكر الكلبي : أن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم وذكر غيره : أنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى : { فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ } .

[127] { وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ } له { أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ } ، وأرادوا بالإفساد في الأرض دعاءهم الناس إلى مخالفة فرعون في عبادته ، { وَيَذَرَكَ } ، أي : وليذرك ، { وَآلِهَتَكَ } ، فلا يعبدك ولا يعبدها . قال ابن عباس : كان لفرعون بقرة يعبدها ، وكان إذا رأى بقرة حسناء أمرهم أن يعبدوها ، فلذلك أخرج السامري لهم عجلا . وقال الحسن : كان قد علق على

عنقه صليبا يعبده ، وقال السدي : كان فرعون قد اتخذ لقومه أصناما وأمرهم بعبادتها ، وقال لقومه : هذه آلهتكم وأنا ربها وربكم ، فذلك قوله : { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى } ، وقرأ ابن مسعود وابن عباس والشعبي والضحاك : { وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ } ، بكسر الألف ، أي : عبادتك فلا يعبدك ، لأن فرعون كان يعبد ولا يعبد وقيل : أراد بالآلهة الشمس . وكانوا يعبدونها .

{ قَالَ } فرعون { سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ } ، قرأ أهل لحجاز : (سنقتل) بالتخفيف من القتل ، وقرأ الآخرون بالتشديد من التقتيل على التكثير ، { وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ } نتركهن أحياء ، { وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ } غالبون . قال ابن عباس : كان فرعون يقتل أبناء بني إسرائيل في العام الذي قيل له أنه يولد مولود يذهب بملكك ، فلم يزل يقتلهم حتى أتاهم موسى بالرسالة ، وكان ، من أمره ما كان ، فقال فرعون : أعيدوا عليهم القتل ، فأعادوا عليهم القتل ، فشكت ذلك بنو إسرائيل .
[128] { قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ } ، يعني أرض مصر ، { يُورِثُهَا } ، يعطيها { مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } بالنصر والظفر . وقيل : السعادة والشهادة . وقيل : الجنة .

[129] { قَالُوا أُوذِينَا } ، قال ابن عباس : لما آمنت السحرة اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل ، فقالوا - يعني قوم موسى - إنا أوذينا ، { مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا } ، بالرسالة بقتل الأبناء ، { وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا } ، بإعادة القتل علينا . وقيل : فالمراد منه أن فرعون كان يستسخرهم قبل مجيء موسى إلى نصف النهار ، فلما جاء موسى استسخرهم جميع النهار بلا أجر . وذكر الكلبي أنهم كانوا يضربون له اللبن بتبن فرعون ، فلما جاء موسى أجبرهم أن يضربوه بتبن من عندهم . { قَالَ } موسى { عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ } ، فرعون ، { وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ } ، أي : يسكنكم أرض مصر من بعدهم ، { فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } ، فحقق الله ذلك بإغراق فرعون واستخلافهم في ديارهم وأموالهم فعبدوا العجل .

[130] قوله عز وجل : { وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ } ، أي : بالجدب والقحط . تقول العرب : مستهم السنة ، أي : جدب السنة وشدة السنة . وقيل : أراد بالسنين القحط سنة بعد سنة ، { وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ } ، والغلات بالآفات والعاهات . وقال قتادة : أما السنين فلأهل البوادي ، وأما نقص الثمرات فلأهل الأمصار ، { لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } ، أي : يتعظون وذلك لأن الشدة ترقق القلوب وترغبها فيما عند الله عز وجل .

[131] { فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ } ، يعني الخصب والسعة والعافية ، { قَالُوا لَنَا هَذِهِ } ، أي : نحن أهلها ومستحقوها على العادة التي جرت لنا في سعة أرزاقنا ولم يروها تفضلا من الله عز وجل فيشكروا عليها ، { وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ } ، جدب وبلاء ورأوا ما يكرهون ، { يَطَّيَّرُوا } ، يتشاءموا ، { بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ } ، وقالوا : ما أصابنا بلاء حتى رأيناهم ، فهذا من شؤم موسى وقومه . قال الله تعالى : { أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ } ، أي : أنصباؤهم من الخصب والجدب والخير والشر كله من الله . وقال ابن عباس . طائرهم ما قضى الله عليهم وقدر لهم . وفي رواية عنه : شؤمهم عند الله ومن قبل الله أي : إنما جاءهم الشؤم بكفرهم بالله . وقيل : معناه الشؤم العظيم الذي لهم عند الله من عذاب النار ، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } ، أن الذي أصابهم من الله .

[132] { وَقَالُوا } ، يعني : القبط لموسى ، { مَهْمَا } ، متى (ما) كلمة تستعمل للشرط والجزاء ، { تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ } ، من علامة ، { لِتَسْحَرَنَا بِهَا } ، لتنقلنا عما نحن عليه من الدين ، { فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ } ، بمصدقين .

[133] { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ } ، قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن إسحاق : دخل كلام بعضهم في بعض لما آمنت السحرة ، ورجع فرعون مغلوبا أبي هو وقومه إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر فتابع الله عليهم الآيات وأخذهم بالسنين ونقص مع الثمرات ، فلما عالج منهم بالآيات الأربع : العصا واليد والسنين ونقص الثمار ، فأبوأ أن يؤمنوا فدعا عليهم ، فقال : يا رب إن عبدك فرعون علا في الأرض وبغى وعتا وإن قومه نقضوا عهدك ، رب فخذهم بعقوبة تجعلها لهم نقمة ولقومي عظة ولمن بعدهم آية وعبرة ، فبعث الله عليهم الطوفان -وهو الماء- أرسل الله عليهم الماء وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة مختلطة, فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهما ومن جلس منهم غرق ولم يدخل بيوت بني إسرائيل من الماء قطرة ، وركد الماء على أرضهم لا يقدرون أن يحرثوا ولا يعملوا شيئا ، ودام ذلك عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت . وقال مجاهد وعطاء : الطوفان الموت . وقال وهب . الطوفان الطاعون بلغة اليمن . وقال أبو قلابة : الطوفان الجدري ، وهم أول من عذبوا به فبقي في الأرض . وقال مقاتل : الطوفان الماء طغى فوق

حروثهم ، فقال لموسى : أدع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فرفع عنهم الطوفان ، فأنبت الله لهم في تلك السنة شيئا لم ينبته لهم قبل ذلك من الكلأ والزرع والثمر وأخصبت بلادهم ، فقالوا : ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا وخصبا ، فلم يؤمنوا وأقاموا شهرا في عافية ، فبعث الله عليهم الجراد فأكل عامة زروعهم وثمارهم وأوراق الشجر حتى كانت تأكل الأبواب وسقوف البيوت والخشب والثياب والأمتعة ومسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ، وابتلي الجراد بالجوع ، فكان لا يشبع ولم يصب بني إسرائيل شيء من ذلك فعجوا وضجوا ، وقالوا : يا موسى ادع لنا ربك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك وأعطوه عهد الله وميثاقه ، فدعا موسى عليه السلام فكشف الله عنهم الجراد بعدما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت وكانت قد بقيت من زروعهم وغلاتهم بقية ، فقالوا : قد بقي لنا ما هو كافينا فما نحن بتاركي ديننا ، فلم يفوا بما عاهدوا وعادوا لأعمالهم السوء فأقاموا شهرا في عافية ، ثم بعث الله عليهم القمل . واختلفوا فيه فقيل : القمل السوس الذي يخرج من الحنطة ، وقال مجاهد والسدي وقتادة والكلبي : القمل الدبي

والجراد الطيارة التي لها أجنحة ، والدبي الصغار التي لا أجنحة لهها وقال أبو عبيدة : وهو الحمنان وهو ضرب من القراد . وقال عطاء الخراساني : هو القمل . وبه قرأ أبو الحسن (القمل) بفتح القاف وسكون الميم فتتبع ما بقي من حروثهم وأشجارهم ونباتهم فأكله فصرخوا وصاحوا إلى موسى أنا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنا البلاء ، فدعا موسى عليه السلام الله فرفع الله القمل عنهم بعدما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت ، فنكثوا وعادوا إلى أخبث أعمالهم وقالوا : وعزة فرعون لا نتبعه أبدا ولا نصدقه ، فأقاموا شهرا في عافية فأرسل الله عليهم الضفادع فامتلأت منها بيوتهم وأفنيتهم وأطعمتهم وآنيتهم ، فلا يكشف أحد إناء ولا طعاما إلا وجد فيه الضفادع فلقوا منها أذى

شديدا فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا ذلك إلى موسى ، وقالوا: هذه المرة نتوب ، ولا نعود فأخذ عهودهم ومواثيقهم، ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بعدما أقام سبعا من السبت إلى السبت، فأقاموا شهرا في عافية ، ثم نقضوا العهد ، وعادوا لكفرهم، فدعا عليهم موسى فأرسل الله عليهم الدم, فسال النيل عليهم دما ، وصارت مياههم دما ، وما يستقون من الآبار والأنهار إلا وجدوه دما عبيطا أحمر،

فمكثوا في ذلك سبعة أيام لا يشربون إلا الدم. وقال زيد بن أسلم : الدم الذي سلط عليهم كان الرعاف، فأتوا موسى ، وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك ، ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه عز وجل فكشف عنهم ، فلم يؤمنوا فذلك قوله عز وجل: { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ } ، يتبع بعضها بعضا ، وتفصيلها أن كل عذاب كان يمتد أسبوعا ، وبين كل عذابين شهرا { فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ } .
[134] { وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ } أي: نزل بهم العذب وهو ما ذكر الله عز وجل من الطوفان وغيره . . . . وقال سعيد بن جبير : الرجز الطاعون، وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس، حتى منهم سبعون ألفا في يوم أحد فأمسوا وهم لا يتدافنون، { قَالُوا } لموسى : { يا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ } . أي: بما أوصاك. وقال عطاء : بما نبأك. وقيل: بما عهد عندك من إجابة دعوتك { لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ } ، وهو الطاعون، { لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ } .

[135] قوله وجل: { فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ } ، يعني إلى الغرق في اليم، { إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ } ، ينقضون العهد.
[136] { فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ } ، يعني البحر, { بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ } ، أي: عن النقمة قبل حلولها غافلين. وقيل: معناه عن آياتنا معرضين.

[137] { وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ } ، يقهرون ، ويستذلون بذبح الأبناء واستخدام النساء والاستعباد وهم بنو إسرائيل، { مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا } ، يعني مصر والشام، { الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا } ، بالماء والأشجار والثمار والخصب والسعة، { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ } ، يعني: وفّت كلمة الله ، وهي وعده إياهم بالنصر والتمكين في الأرض، وذلك قوله تعالى: { وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ } الآية { بِمَا صَبَرُوا } ، على دينهم وعلى عذاب فرعون، { وَدَمَّرْنَا } ، أهلكنا { مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ } في أرض مصر من العمارات، { وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ } ، قال مجاهد : يبنون من البيوت والقصور. وقال الحسن : يعرشون من الأشجار والثمار والأعناب، وقرأ ابن عامر وأبو بكر (يَعْرُشُونَ) بضم الراء ها هنا وفي النحل، وقرأ الآخرون بكسرها.

[138] قوله تعالى: { وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ } ، قال الكلبي : عبر بهم موسى البحر يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه ، فصامه شكرا لله عز وجل { فَأَتَوْا } ، فمروا { عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ } يقيمون، قرأ حمزة والكسائي (يَعْكِفُونَ) بكسر الكاف ، وقرأ الآخرون بضمها وهما لغتان، { عَلَى أَصْنَامٍ } ، أوثان { لَهُمْ } ، يعبدونها من دون الله. قال ابن جريج : كانت تماثيل بقر،

وذلك أول شأن العجل. قال قتادة . كان أولئك القوم من لحم ، وكانوا نزولا بالرقة، فقالت بنو إسرائيل لما رأوا ذلك، { قَالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا } أي مثالا نعبده { كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ } ، ولم يكن ذلك شكا من بني إسرائيل في وحدانية الله، وإنما معناه اجعل لنا شيئا نعظمه ، ونتقرب بتعظيمه إلى الله عز وجل ، وظنوا أن ذلك لا يضر الديانة ، وكان ذلك لشدة جهلهم. { قَالَ } موسى { إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } ، عظمة الله.
[139] { إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ } ، مهلك، { مَا هُمْ فِيهِ } ، والتتبير الإهلاك، { وَبَاطِلٌ } ، مضمحل وزائل، { مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } .

[140] { قَالَ } يعني موسى { أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ } ، أي: أبغي لكم وأطلب، { إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } ، أي: على عالمي زمانكم.
[141] قوله عز وجل: { وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ } ، قرأ ابن عامر (أنجاكم) وكذلك هو في مصاحف أهل الشام، { مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ } ، قرأ نافع (يَقْتُلُونَ) خفيفة التاء من القتل ، وقرأ الآخرون بالتشديد على التكثير من التقتيل، { وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ } .

[142] { وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً } ، ذا القعدة, { وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ } , من ذي الحجة { فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى } عند انطلاقه إلى الجبل للمناجاة { لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي } ، كن خليفتي، { فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ } ، أي: أصلحهم بحملك إياهم على طاعة الله وقال ابن عباس : يريد الرفق بهم ، والإحسان إليهم { وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ } ، أي: لا تطع من عصى الله ، ولا توافقه على أمره ، وذلك أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهم بمصر أن الله إذا أهلك عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون ، وما يذرون! فلما فعل الله ذلك بهم سأل موسى ربه الكتاب ، فأمره الله عز وجل أن يصوم ثلاثين يوما فلما تمت ثلاثون أنكر خلوف فمه فتسوك بعود خروب، وقال أبو العالية : أكل من لحاء شجرة ، فقالت له الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك، فأفسدته بالسواك ، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذي الحجة، وقال: أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، وكانت فتنتهم في العشر التي زادها.

[143] قوله عز وجل: { وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ } ، أي: للوقت الذي ضربنا له أن نكلمه فيه. قال أهل التفسير: إن موسى عليه السلام تطهر ، وطهر ثيابه لميعاد ربه ، فلما أتى طور سيناء ، وكلمه الله ، وناجاه حتى أسمعه، وكان جبريل عليه السلام معه فلم يسمع ما كلمه ربه ، وأدناه حتى سمع صرير القلم فاستحلى موسى عليه السلام كلام ربه ، واشتاق إلى رؤيته { قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ } ، قال الزجاج : فيه اختصار تقديره : أرني نفسك أنظر إليك.

قال ابن عباس : أعطني أنظر إليك فإن قيل: كيف سأل الرؤية ، وقد علم أن الله تعالى لا يرى في الدنيا؟ قال الحسن : هاج به الشوق ، فسأل الرؤية. وقيل: سأل الرؤية ظنا منه أنه يجوز أن يُرَى في الدنيا { قَالَ } الله تعالى { لَنْ تَرَانِي } وليس لبشر أن يطيق النظر إلي في الدنيا من نظر إلي في الدنيا مات فقال: إلهي سمعت كلامك ، فاشتقت إلى النظر إليك ، ولأن أنظر إليك ، ثم أموت أحب إلي من أن أعيش ، ولا أراك فقال الله عز وجل: { لَنْ

تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ } وهو أعظم جبل، وتعلقت نفاة الرؤية بظاهر هذه الآية، وقالوا: قال الله تعالى: { لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ } ، ولن تكون للتأبيد، ولا حجة لهم فيها ، ومعنى الآية: لن تراني في الدنيا أو في الحال، لأنه كان يسأل الرؤية في الحال ، والدليل عليه أنه لم ينسبه إلى الجهل بسؤال الرؤية ، ولم يقل : إني لا أرى حتى يكون لهم حجة ، بل علق الرؤية على استقرار الجبل، واستقرار الجبل عند التجلي غير مستحيل إذا جعل الله تعالى له تلك القوة، والمعلق بما لا يستحيل لا يكون محالا. قال الله تعالى: { وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ

اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا } ، قال ابن عباس : ظهر نور ربه للجبل جبل زبير. وقال الضحاك : أظهر الله من نور الحجب مثل منخر ثور. وقال عبد الله بن سلام وكعب الأحبار : ما تجلى من عظمة الله للجبل إلا مثل سم الخياط حتى صار دكا. وقال السدي : ما تجلى إلا قدر الخنصر، يدل عليه ما روى ثابت عن أنس « أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ، وقال هكذا، ووضع الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل » (1) .

____

(1) أخرجه الترمذي في التفسير 8 / 451 وقال: حديث حسن صحيح غريب. والحاكم في المستدرك 2 / 320.

وحُكِيَ عن سهل بن سعد الساعدي أن الله تعالى أظهر سبعين ألف حجاب نورا قدر الدرهم ، فجعل الجبل دكا، أي: مستويا بالأرض. قرأ حمزة والكسائي (دكاء) ممدودا غير منون ها هنا وفي، سورة الكهف، وافق عاصم في الكهف، وقرأ الآخرون (دكا) مقصورا منونا فمن قصر فمعناه جعله مدقوقا: والدك والدق واحد، وقيل: معناه دكه الله دكا أي: فتته كما قال: { كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا } ، ومن قرأ بالمد أي : جعله مستويا أرضا دكاء. وقيل: معناه جعله مثل دكاء ، وهي الناقة التي لا سنام لها قال ابن عباس : جعله ترابا. وقال سفيان : ساخ الجبل في الأرض حتى وقع في البحر فهو يذهب فيه. وقال عطية العوفي : صار رملا هائلا. وقال الكلبي : جعله دكا أي : كسرا جبالا صغارا قوله عز وجل: { وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا } ، قال ابن عباس والحسن : مغشيا عليه. وقال قتادة : ميتا. وقال الكلبي : خر موسى صعقا يوم الخميس يوم عرفة ، وأعطي التوراة يوم الجمعة يوم النحر { فَلَمَّا أَفَاقَ } ، موسى من صعقته ، وثاب إليه عقله عرف أنه قد سأل أمرا لا ينبغي له، { قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ } ، عن سؤال الرؤية { وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ } ،

بأنك لا ترى في الدنيا. وقال مجاهد والسدي : وأنا أول من آمن بك من بني إسرائيل.

[144] { قَالَ يا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ } ، اخترتك على الناس، قرأ ابن كثير وأبو عمرو { إِنِّي } بفتح الياء وكذلك (أخي اشدد)، { بِرِسَالَاتِي } ، قرأ أهل الحجاز برسالتي على التوحيد، والآخرون بالجمع، { وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ } ، أعطيتك، { وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ } ، لله على نعمه، فإن قيل: فما معنى قوله: { اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي } ، وقد أعطى غيره الرسالة؟ قيل: لما لم تكن الرسالة على العموم في حق الناس كافة استقام قوله :

اصطفيتك على الناس ، وإن شاركه فيه غيره، كما يقول للرجل: خصصتك بمشورتي وإن شاور غيره إذا لم تكن المشورة على العموم يكون مستقيما.

[145] قوله عز وجل: { وَكَتَبْنَا لَهُ } ، يعني لموسى، { فِي الْأَلْوَاحِ } ، قال ابن عباس : يريد ألواح التوراة قال الحسن : كانت الألواح من خشب. قال الكلبي : كانت من زبرجدة خضراء. وقال سعيد بن جبير : كانت من يا قوت أحمر. وقال الربيع بن أنس : كانت الألواح من برد. وقال ابن جريج : كانت من زمرد { مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } ، مما أمروا به ، ونهوا عنه، { مَوْعِظَةً } نهيا عن الجهل، وحقيقة الموعظة: التذكير والتحذير بما يخاف عاقبته، { وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ } ، أي: تبيينا لكل شيء من الأمر والنهي والحلال والحرام والحدود والأحكام. { فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ } ، أي: بجد واجتهاد. وقيل: بقوة القلب وصحة العزيمة، لأنه إذا أخذه بضعف النية أداه إلى الفتور، { وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا } , قال عطاء عن ابن أنس رضي الله عنهما: يحلوا حلالها ، ويحرموا حرامها ، ويتدبروا أمثالها ، ويعملوا بمحكمها، ويقفوا عند متشابهها. وكان موسى عليه السلام أشد عبادة من قومه، فأمر بما لم يؤمروا به. قال قطرب : بأحسنها أي : بحسنها وكلها حسن. وقل: أحسنها الفرائض والنوافل، وهي ما يستحق عليها الثواب ، وما دونها المباح ؛

لأنه لا يستحق عليه الثواب. وقيل: بأحسنها بأحسن الأمرين في كل شيء كالعفو أحسن من القصاص والصبر أحسن من الانتصار. { سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ } ، قال مجاهد : مصيرها في الآخرة قال الحسن وعطاء . يعني جهنم، يحذركم أن تكونوا مثلهم. وقال قتادة وغيره: سأدخلكم الشام فأريكم منازل القرون الماضية الذين خالفوا أمر الله لتعتبروا بها. قال عطية العوفي : أراد دار فرعون وقومه وهي مصر، يدل عليه قراءة قسامة بن زهير : (سأورثكم دار الفاسقين)، وقال السدي : دار الفاسقين مصارع الكفار. وقال الكلبي : ما مروا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكوا.

[146] قوله تعالى: { سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } ، قال ابن عباس : يريد الذين يتجبرون على عبادي ، ويحاربون أوليائي حتى لا يؤمنوا بي، يعني سأصرفهم عن قبول آياتي والتصديق بها، عوقبوا بحرمان الهداية لعنادهم للحق، كقوله: { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } . قال سفيان بن عيينة : سأمنعهم فهم القرآن. قال ابن جريج : يعني عن خلق السموات والأرض وما فيهما، أي : سأصرفهم أن يتنكروا فيها ويعتبروا بها. وقيل: حكم الآية لأهل مصر خاصة، وأراد بالآيات الآيات التسع التي أعطاها الله تعالى موسى عليه السلام. والأكثرون على أن الآية عامة { وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا } ، يعني هؤلاء المتكبرين { سَبِيلَ الرُّشْدِ } , قرأ حمزة والكسائي (الرَّشَدِ) بفتح الراء والشين، والآخرون بضم الراء وسكون الشين وهما لغتان كالسُّقْمِ وَالسَّقَم والْبُخْل والْبَخَل والْحُزْن والْحَزَن. وكان أبو عمرو يفرق بينهما، فيقول: الرشد بالضم الصلاح في الأمر وبالفتح الاستقامة في الدين. معنى الآية: وإن يروا طريق الهدى والسداد، { لَا

يَتَّخِذُوهُ } لأنفسهم { سَبِيلًا } ، { وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ } أي : طريق الضلال { يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ } ، عن التفكر فيها والاتعاظ بها غافلين ساهين.

[147] { وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ } أي: ولقاء الدار الآخرة التي هي

موعد الثواب والعقاب، { حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ } ، بطلت ، وصارت كأن لم تكن، { هَلْ يُجْزَوْنَ } في العقبى، { إِلَّا مَا كَانُوا } ، أي: إلا جزاء ما كانوا { يَعْمَلُونَ } ، في الدنيا.

[148] قوله عز وجل: { وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ } ، أي: من بعد انطلاقه إلى الجبل { مِنْ حُلِيِّهِمْ } التي استعاروها من قوم فرعون . قرأ حمزة والكسائي (من حِلِيِّهِمْ) بكسر الحاء ، وقرأ يعقوب بفتح الحاء وسكون اللام، واتخذ السامري { عِجْلًا } ، وألقى في فمه من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام ، فتحول عجلا، { جَسَدًا } ، حيا لحما ودما { لَهُ خُوَارٌ } ، وهو صوت البقر، وهذا قول ابن عباس والحسن وقتادة وجماعة أهل التفسير. وقيل: كان جسدا مجسدا من ذهب لا روح فيه، كان يسمع منه صوت. وقيل: كان يسمع صوت حفيف الريح يدخل في جوفه ويخرج، والأول أصح. وقيل: إنه ما خار إلا مرة واحدة. وقيل: كان يخور كثيرا كلما خار سجدوا ، وإذا سكت رفعوا رؤوسهم. وقال وهب: كان يسمع منه الخوار وهو لا يتحرك. وقال السدي : كان يخور ويمشي، { أَلَمْ يَرَوْا } ، يعني: الذين عبدوا العجل { أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا } . قال الله عز وجل: { اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ } ، أي: اتخذوه إلها وكانوا كافرين.

[149] { وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ } ، أي: ندموا على عبادة العجل، تقول العرب لكل نادم على أمر: قد سقط في يديه، { وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا } ، يتب علينا ربنا، { وَيَغْفِرْ لَنَا } ، يتجاوز عنا، { لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } ، قرأ حمزة والكسائي : (ترحمنا وتغفر لنا) بالتاء فيهما، (رَبَّنَا) بنصب الباء. وكان هذا الندم والاستغفار منهم بعد رجوع موسى إليهم.

[150] قوله عز وجل: { وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا } ، قال أبو الدرداء : الأسف: شديد الغضب. وقال ابن عباس والسدي : أسفا أي : حزينا. والأسف أشد الحزن. { قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي } ، أي: بئس ما عملتم بعد ذهابي، يقال: خلفه بخير أو بشر إذا أولاه في أهله بعد شخوصه عنه خيرا أو شرا، { أَعَجِلْتُمْ } ، أسبقتم { أَمْرَ رَبِّكُمْ } ، قال الحسن : وعد ربكم الذي وعدكم من الأربعين ليلة. وقال الكلبي : أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم. { وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ } ، التي فيها التوراة ، وكان حاملا لها, وألقاها على الأرض من شدة الغضب. قالت الرواة: كانت التوراة سبعة أسباع ، فلما ألقى الألواح تكسرت ، فرفعت ستة أسباعها وبقي سبع، فرفع ما كان من أخبار الغيب ، وبقي ما فيه الموعظة والأحكام والحلال والحرام، { وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ } ، بذوائبه ولحيته { يَجُرُّهُ إِلَيْهِ } ، وكان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين ، وأحب إلى بني إسرائيل من موسى ؛ لأنه كان لين الغضب. { قَالَ } هارون عند ذلك، { ابْنَ أُمَّ } قرأ أهل الكوفة والشام هاهنا وفي طه بكسر الميم، يريد يا

ابن أمي ، فحذف يا ء الإضافة ، وأبقيت الكسرة لتدل على الإضافة كقوله: { يا عِبَادِ } وقرأ أهل الحجاز والبصرة وحفص بفتح الميم على معنى يا ابن أماه. وقيل: جعله اسما واحدا ، وبناه على الفتح، كقولهم: حضر موت وخمسة عشر ونحوهما، وإنما قال : ابن أم ، وكان هارون أخاه لأبيه وأمه ليرققه ويستعطفه. وقيل: كان أخاه لأمه دون أبيه، { إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي } ، يعني عبدة العجل، { وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي } ، هموا وقاربوا أن يقتلوني، { فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا

تَجْعَلْنِي } في مؤاخذتك علي { مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } ، يعني عبدة العجل.
[151] { قَالَ } موسى لما تبين له عذر أخيه، { رَبِّ اغْفِرْ لِي } ، ما صنعت إلى أخي { وَلِأَخِي } ، إن كان منه تقصير في الإنكار على عبدة العجل، { وَأَدْخِلْنَا } جميعا { فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } .

[152] قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ } ، أي : اتخذوه إلها { سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ } في الآخرة { وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ، قال أبو العالية : هو ما أمروا به من قتل أنفسهم. وقال عطية العوفي : { إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ } أراد اليهود الذين كانوا في عصر النبي صلى الله عليه وسلم عيرهم بصنيع آبائهم ، فنسبه إليهم { سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } أراد ما أصاب بني قريظة والنضير من القتل والجلاء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الجزية { وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ } ، الكاذبين، قال أبو قلابة : هو والله جزاء كل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله. قال سفيان بن عيينة : هذا في كل مبتدع إلى يوم القيامة.
[153] قوله عز وجل: { وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } .

[154] قوله تبارك وتعالى: { وَلَمَّا سَكَتَ } ، أي: سكن، { عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ } ، التي كان ألقاها ، وقد ذهبت ستة أسباعها، { وَفِي نُسْخَتِهَا } ، قيل: أراد بها الألواح ؛ لأنها نسخت من اللوح المحفوظ، وقيل: إن موسى لما ألقى الألواح تكسرت ، فنسخ منها نسخة أخرى فهو المراد من قوله: { وَفِي نُسْخَتِهَا } وقيل: أراد وفيما نسخ منها. وقال عطاء : فيما بقي منها. وقال ابن عباس وعمرو بن دينار : لما ألقى موسى الألواح فكسرت صام أربعين يوما فردت عليه في لوحين فكان فيه، { هُدًى وَرَحْمَةٌ } ، أي: هدى من الضلالة ورحمة من العذاب، { لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } ، أي: للخائفين من ربهم، واللام في (لربهم) زيادة توكيد، كقوله: { رَدِفَ لَكُمْ } ، وقال الكسائي : لما تقدمت قبل الفعل حسنت، كقوله: { لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ } ، وقال قطرب : أراد من ربهم يرهبون. وقيل: أراد راهبون. وقيل: أراد راهبون لربهم.

[155] قوله تعالى: { وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ } ، أي: من قومه فانتصب لنزع حرف الصفة. { سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا } ، وفيه دليل على أن كلهم لم يعبدوا العجل. قال السدي : أمر الله تعالى موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار موسى من قومه سبعين رجلا، { فَلَمَّا } أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة فماتوا. وقال ابن إسحاق . اختارهم ليتوبوا إليه مما صنعوا ، ويسألوا التوبة على من تركوا وراءهم من قومهم، فهذا يدل على أن كلهم عبدوا العجل. قال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب : { أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ } لأنهم لم يزايلوا قومهم حين عبدوا العجل، ولم يأمروهم بالمعروف ، ولم ينهوهم عن المنكر. وقال ابن عباس : إن السبعين الذين قالوا. { لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ } كانوا قبل السبعين رجلا الذين أخذتهم الرجفة، وإنما أمر الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام أن يختار من قومه سبعين رجلا ، فاختارهم ، وبرز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دعوا أن قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعطه أحدا قبلنا ، ولا تعطه

أحدا بعدنا، فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة. قال وهب : لم تكن الرجفة صوتا ، ولكن القوم لما رأوا تلك الهيبة أخذتهم الرعدة ، وقلقوا ، ورجفوا، حتى كادت أن تبين مفاصلهم، فلما رأى موسى ذلك رحمهم ، وخاف عليهم الموت، فاشتد عليه فقدهم ، وكانوا له وزراء على الخير سامعين مطيعين، فعند ذلك دعا ، وبكى ، وناشد ربه فكشف الله عنهم تلك الرجفة، فاطمأنوا ، وسمعوا كلام ربهم، فذلك قوله عز وجل: { قَالَ } ، يعني موسى { رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ } يعني عن عبادة العجل، { وَإِيَّايَ } بقتل القبطي. { أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا } ، يعني عبدة العجل، وظن موسى أنهم عوقبوا باتخاذهم العجل، وقال هذا على طريق السؤال يسأل. أتهلكنا بفعل السفهاء؟ وقال المبرد : قوله { أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا } استفهام استعطاف، أي. لا تهلكنا، وقد علم موسى عليه السلام أن الله تعالى أعدل من أن يأخذ بجريرة الجاني غيره. قوله تعالى: { إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ } , أي: التي وقع فيها السفهاء لم تكن إلا اختبارك وابتلاءك أضللت بها قوما ، فافتتنوا ، وهديت قوما ، فعصمتهم حتى ثبتوا

على دينك, فذلك معنى قوله: { تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا } , ناصرنا وحافظنا, { فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ } .

[156] { وَاكْتُبْ لَنَا } أوجب لنا { فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً } , النعمة والعافية, { وَفِي الْآخِرَةِ } أي: وفي الآخرة { حَسَنَةً } , المغفرة والجنة, { إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ } , أي: تبنا إليك, { قَالَ } الله تعالى: { عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ } , من خلقي, { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ } أي : عمت { كُلَّ شَيْءٍ } , قال الحسن وقتادة : وسعت رحمته في الدنيا البر والفاجر, وهي يوم القيامة للمتقين خاصة, وقال عطية العوفي : وسعت كل شيء ولكن لا تجب إلا للذين يتقون, وذلك أن الكافر يرزق ، ويدفع عنه بالمؤمنين لسعة رحمة الله للمؤمنين ، فيعيش فيها فإذا صار إلى الآخرة وجبت للمؤمنين خاصة كالمستضيء بنار غيره إذا ذهب صاحب السراج بسراجه. قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة وابن جريج : لما نزلت: { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } قال إبليس: أنا من ذلك الشيء، فقال الله سبحانه وتعالى: { فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ } ، فتمناها اليهود والنصارى، وقالوا: نحن نتقي ونؤتي الزكاة ، ونؤمن، فجعلها الله لهذه الأمة فقال:

[157] { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ } وهو محمد صلى الله عليه وسلم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو نبيكم كان أميا لا يكتب ، ولا يقرأ ، ولا يحسب. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: « إنا أمة أمية لا نكتب ، ولا نحسب » (1) ، وهو منسوب إلى الأم أي: هو على ما ولدته أمه. وقيل: هو منسوب إلى أمته، أصله أمتي فسقطت التاء في النسبة كما سقطت في المكي والمدني. وقيل: هو منسوب إلى أم القرى وهي مكة. { الَّذِي يَجِدُونَهُ } أي: يجدون صفته ونعته ونبوته، { مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ } عن عطاء بن يسار قال: « لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة: قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به

أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا » . (2) وعن كعب رضي الله

---

(1) رواه البخاري في الصوم 4 / 126، ومسلم في كتاب الصيام رقم (1080) 2 / 761 والمصنف في شرح السنة 6 / 228.
(2) أخرجه البخاري في البيوع 4 / 342 وفي تفسير سورة الفتح 8 / 585.

عنه قال: « إني أجد في التوراة مكتوبا: محمد رسول الله لا فظ ولا غليظ ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح، أمته الحمادون يحمدون الله في كل منزلة ، ويكبرونه على كل نجد، يأتزرون على أنصافهم ، ويوضؤون أطرافهم، صفهم في الصلاة وصفهم في القتال سواء، مناديهم ينادي في جو السماء، لهم في جوف الليل دوي كدوي النحل، مولده بمكة ومهاجره بطابة وملكه بالشام » (1) . قوله تعالى: { يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ } أي: بالإيمان، { وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ } أي: عن الشرك وقيل. المعروف الشريعة والسنة، والمنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة. وقال عطاء : يأمرهم بالمعروف: بخلع الأنداد ومكارم الأخلاق وصلة الأرحام ، وينهاهم عن المنكر: عن عبادة الأوثان وقطع الأرحام، { وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ } ، يعني: ما كانوا يحرمونه في الجاهلية من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، { وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ } ، يعني: الميتة والدم ولحم الخنزير والزنا وغيرها من المحرمات، { وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ } ، قرأ ابن عامر (آصارهم) بالجمع، والإصر: كل ما يثقل على الإنسان من قول أو فعل. قال ابن

---

(1) أخرجه الدارمي في المقدمة 1 / 5 وابن سعد في الطبقات 1 / 360 والبغوي في المصابيح 4 / 36 وانظر مشكاه المصابيح 3 / 1607 .

عباس والحسن والضحاك والسدي ومجاهد : يعني العهد الثقيل كان أخذ على بني إسرائيل بالعمل بما في التوراة. وقال قتادة : يعني التشديد الذي كان عليهم في الدين، { وَالْأَغْلَالَ } ، يعني الأثقال { الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ } ، وذلك مثل قتل الأنفس في التوبة ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وقرض النجاسة عن الثوب بالمقراض، وتعيين القصاص في القتل ، وتحريم أخذ الدية، وترك العمل في السبت، وأن صلاتهم لا تجوز إلا في الكنائس وغير ذلك من الشدائد، وشبهت بالأغلال التي تجمع اليد إلى العنق. { فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ } ، أي : بمحمد صلى الله عليه وسلم، { وَعَزَّرُوهُ } ، وقروه، { وَنَصَرُوهُ } , على الأعداء، { وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ } ، يعني: القرآن، { أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } .

[158] قوله تعالى: { قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ } ، أي: آياته وهي القرآن. وقال مجاهد والسدي : يعني عيسى ابن مريم . ويقرأ (كلمته). { وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } .
[159] قوله عز وجل: { وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى } ، يعني: بني إسرائيل، { أُمَّةٌ } أي: جماعة، { يَهْدُونَ بِالْحَقِّ } أي: يرشدون ، ويدعون إلى الحق. وقيل. معناه يهتدون ، ويستقيمون عليه، { وَبِهِ يَعْدِلُونَ } أي: بالحق يحكمون وبالعدل يقومون.

[160] قوله عز وجل: { وَقَطَّعْنَاهُمُ } ، أي: فرقناهم، يعني بني إسرائيل { اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا } ، قال الفراء : إنما قال { اثْنَتَيْ عَشْرَةَ } ،

والسبط مذكر لأنه قال: { أُمَمًا } فرجع التأنيث إلى الأمم. وقال الزجاج : المعنى : وقطعناهم اثنتي عشرة أمما، وإنما قال : { أَسْبَاطًا أُمَمًا } ، بالجمع وما فوق العشرة لا يفسر بالجمع، فلا يقال: أتاني اثنا عشر رجالا ؛ لأن الأسباط في الحقيقة نعت المفسر المحذوف وهو الفرقة، أي: وقطعناهم اثنتي عشرة فرقة أمما. وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره. وقطعناهم أسباطا أمما اثنتي عشرة، والأسباط القبائل واحدها سبط. قوله تعالى: { وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ } ، في التيه، { أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ } انفجرت. وقال أبو عمرو بن العلاء : عرقت وهو الانبجاس، ثم انفجرت، { مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا } ، لكل سبط عين، { قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ } ، كل سبط، { مَشْرَبَهُمْ } ، وكل سبط بنو أب واحد. قوله تعالى: { وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ } في التيه تقيهم حر الشمس، { وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ

الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } .
[161] { وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ } ، قرأ أهل المدينة وابن عامر ويعقوب : (تغفر) بالتاء وضمها وفتح الفاء. وقرأ الآخرون بالنون وفتحها وكسر الفاء، { خَطِيئَاتِكُمْ } ، قرأ ابن عامر (خطيئتكم) على التوحيد ورفع التاء، وقرأ أبو عمرو : (خطاياكم)، وقرأ أهل المدينة ويعقوب : (خطيئاتكم) بالجمع ورفع التاء، وقرأ الآخرون بالجمع وكسر التاء. { سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ } .
[162] { فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا } ،عذابا { مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ } .

[163] قوله تعالى: { وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ } قيل: هي مدين، أي: سل يا محمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك سؤال توبيخ وتقريع عن القرية التي كانت حاضرة البحر، أي: بقربه. قال ابن عباس : هي قرية يقال : لها إيلة بين مدين والطور على شاطئ البحر. وقال الزهري . هي طبرية الشام. { إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ } ، أي: يظلمون فيه ، ويجاوزون أمر الله تعالى بصيد السمك، { إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا } ، أي: ظاهرة على الماء كثيرة، جمع شارع. وقال الضحاك : متتابعة. وفي القصة: أنها كانت تأتيهم يوم السبت مثل الكباش السمان البيض. { وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ } ، كإتيانهم يوم السبت، قرأ الحسن : (لا يسبتون) بضم الياء أي : لا يدخلون في السبت، والقراءة المعروفة بنصب الياء، ومعناه لا يعظمون السبت، { كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ } ، نختبرهم، { بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } ، فوسوس إليهم الشيطان ، وقال: إن الله لم ينهكم عن الاصطياد ، وإنما نهاكم عن الأكل، فاصطادوا أو قيل: وسوس إليهم أنكم إنما نهيتم عن الأخذ، فاتخذوا حياضا على شاطئ البحر،

تسوقون الحيتان إليها يوم السبت ، ثم تأخذونها يوم الأحد، ففعلوا ذلك زمانا ، ثم تجرؤوا على السبت ، وقالوا: ما نرى السبت إلا قد أحل لنا فأخذوا ، وأكلوا ، وباعوا، فصار أهل القرية أثلاثا ، وكانوا نحوا من سبعين ألفا، ثلث نهوا، وثلث لم ينهوا ، وسكتوا وقالوا: لم تعظون قوما الله مهلكهم، وثلث هم أصحاب الخطيئة، فلما لم ينتهوا قال الناهون: لا نساكنكم في قرية واحدة ، فقسموا القرية بجدار: للمسلمين باب، وللمعتدين باب، ولعنهم داود عليه السلام ، فأصبح الناهون ذات يوم ، ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إن لهم شأنا

لعل الخمر غلبتهم فعلوا على الجدار ، فإذا هم قردة فعرفت القرود أنسابها من الإنس ، ولم تعرف الإنس أنسابها من القرود، فجعلت القرود تأتي نسيبها من الإنس ، فتشم ثيابه ، وتبكي فيقول: ألم ننهكم ، فتقول برأسها : نعم، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم.

[164] قوله تعالى: { وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ } ، اختلفوا في الذين قالوا هذا، قيل: كانوا من الفرقة الهالكة، وذلك أنهم لما قيل لهم : انتهوا عن هذا العمل السيئ، قبل أن ينزل بكم العذاب ، وأنا نعلم أن الله منزل بكم بأسه إن لم تنتهوا أجابوا ، وقالوا: لم تعظون قوما الله مهلكهم، { أَوْ } علمتم أنه { مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا } أي: قال الناهون { مَعْذِرَةً } أي: موعظتنا معذرة { إِلَى رَبِّكُمْ } ، قرأ حفص : { مَعْذِرَةً } بالنصب أي : نفعل ذلك معذرة إلى ربكم. والأصح أنها من قول الفرقة الساكتة، قالوا : لم تعظون قوما الله مهلكهم، قالوا معذرة إلى ربكم، ومعناه أن الأمر بالمعروف واجب علينا فعلينا موعظة هؤلاء عذرا إلى الله، { وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } ، أي: يتقوا الله ، ويتركوا المعصية ، ولو كان الخطاب مع المعتدين لكان يقول : ولعلكم تتقون.

[165] { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ } أي: تركوا ما وعظوا به، { أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا } ، يعني الفرقة العاصية، { بِعَذَابٍ بَئِيسٍ } ، أي: شديد وجيع، من البأس وهو الشدة. واختلف القراء فيه: قرأ أهل المدينة وابن عامر { بَئِيسٍ } بكسر الياء على وزن فعل، إلا أن ابن عامر يهمزه، وأبو جعفر ونافع لا يهمزان، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بفتح الباء وسكون الياء وفتح الهمزة على وزن فيعل مثل صيقل، وقرأ الآخرون على وزن فعيل مثل بعير وصغير، { بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أسمع الله يقول { أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ } ، فلا أدري ما فعل بالفرقة الساكتة؟ قال عكرمة : قلت له: جعلني الله فداك ألا تراهم قد أنكروا ، وكرهوا ما هم عليه، وقالوا : لم تعظون قوما الله مهلكهم، وإن لم يقل الله أنجيتهم ، فلم يقل: أهلكتهم ، فأعجبه قولي فرضي ، وأمر لي ببردين ، فكسانيهما، وقال: نجت الفرقة الساكتة. وقال يمان بن رباب : نجت الطائفتان الذين قالوا : لم تعظون قوما ،

والذين قالوا : معذرة إلى ربكم، وأهلك الله الذين أخذوا الحيتان ، وهذا قول الحسن . وقال ابن زيد : نجت الناهية ، وهلكت الفرقتان، وهذه أشد آية في ترك النهي عن المنكر.

[166] قوله تعالى: { فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ } ، قال ابن عباس : أبوا أن يرجعوا عن المعصية { قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } ، مبعدين ، فمكثوا ثلاثة أيام ينظر إليهم الناس ، ثم هلكوا.

[167] { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ } ، أي: آذن وأعلم ربك، يقال: تأذن وآذن مثل توعد وأوعد. وقال ابن عباس : تأذن ربك قال ربك. وقال مجاهد : أمر ربك. وقال عطاء : حكم ربك. { لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } ، أي: على اليهود، { مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ } ، بعث الله عليهم محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته يقاتلونهم حتى يسلموا ، أو يعطوا الجزية، { إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } .

[168] { وَقَطَّعْنَاهُمْ } ، وفرقناهم { فِي الْأَرْضِ أُمَمًا } ، فرقا فرقهم الله ، فتشتت أمرهم فلم تجتمع لهم كلمة { مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ } ، قال ابن عباس

ومجاهد : يريد الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا به، { وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ } ، يعني الذين بقوا على الكفر { وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ } ، بالخصب والعافية، { وَالسَّيِّئَاتِ } ، الجدب والشدة، { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } ، لكي يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا.

[169] قوله عز وجل: { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ } ، أي: جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم { خَلْفٌ } ، والخلف: القرن الذي يجيء بعد قرن. قال أبو حاتم : الخلف بسكون اللام الأولاد، الواحد ، والجمع فيه سواء، والخلَف بفتح اللام: البدل سواء كان ولدا أو غريبا. وقال ابن الأعرابي : الخلَف بالفتح: الصالح، وبالجزم: الطالح. وقال النضر بن شميل : الخلف بتحريك اللام وإسكانها في الْقَرْن السوء واحد، وأما في الْقَرْن الصالح فبتحريك اللام لا غير. وقال محمد ابن جرير : أكثر ما جاء في المدح بفتح اللام، وفي الذم بتسكينها ، وقد يحرك في الذم ، ويسكن في المدح. { وَرِثُوا الْكِتَابَ } ، أي: انتقل إليهم الكتاب من آبائهم وهو التوراة، { يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى } ، فالعرض متاع الدنيا، والعرْض بسكون الراء ما كان من الأموال سوى الدراهم والدنانير، وأراد بالأدنى العالم ، وهو هذه الدار الفانية فهو تذكير الدنيا، وهؤلاء اليهود ورثوا التوراة فقرؤوها ، وضيعوا العمل بها بما فيها ، وخالفوا حكمها يرتشون في حكم الله وتبديل كلماته، { وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا } ، ذنوبنا يتمنون على الله الأباطيل. { وَإِنْ يَأْتِهِمْ

عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ } ، هذا إخبار عن حرصهم على الدنيا وإصرارهم على الذنوب، يقول : إذا أشرف لهم شيء من الدنيا أخذوه حلالا كان أو حراما، ويتمنون على الله المغفرة ، وإن وجدوا من الغد مثله أخذوه. وقال السدي . كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيا إلا ارتشى في الحكم ، فيقال له: مالك ترتشي؟ فيقول: سيغفر لي ، فيطعن عليه الآخرون، فإذا مات ، أو نزع ، وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي أيضا، يقول: وإن يأت الآخرين عرض مثله يأخذوه. { أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ } ، أي : أخذ عليهم العهد في التوراة ألا يقولوا على الله الباطل، وهي تمني المغفرة مع الإصرار ، وليس في التوراة ميعاد المغفرة مع الإصرار، { وَدَرَسُوا مَا فِيهِ } ، قرأوا ما فيه فهم ذاكرون لذلك، ولو عقلوه لعملوا للدار الآخرة، ودرس الكتاب قراءته وتدبره مرة بعد أخرى، { وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } .

[170] { وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ } ، قرأ أبو بكر عن عاصم . (يُمْسِكُونَ) بالتخفيف وقراءة العامة بالتشديد لأنه يقال: مسكت بالشيء، ولا يقال: أمسكت بالشيء، إنما يقال: أمسكته، وقرأ أبي بن كعب . (وَالَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِالْكِتَابِ)، على الماضي ، وهو جيد لقوله تعالى: { وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ } إذ قل ما يعطف ماض على مستقبل إلا في المعنى، وأراد الذين يعملون بما في الكتاب، قال مجاهد : هم المؤمنون من أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه تمسكوا بالكتاب الذي جاء به موسى ، فلم يحرفوه ، ولم يكتموه ، ولم يتخذوه مأكلة. وقال عطاء : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم. { وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ } .

[171] قوله تعالى: { وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ } ، أي: فلقنا الجبل. وقيل: رفعناه { كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ } ، قال عطاء : سقيفة. والظلة: كل ما أظلك، { وَظَنُّوا

} ، علموا { أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا } ، أي: وقلنا لهم خذوا، { مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ } ، بجد واجتهاد، { وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ } ، واعملوا به { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } ، وذلك حين أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة، فرفع الله على رؤوسهم جبلا. قال الحسن : فلما نظروا إلى الجبل خر كل رجل منهم ساجدا على حاجبه الأيسر ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقا من أن يسقط عليه، ولذلك لا تجد يهوديا إلا ويكون سجوده على حاجبه الأيسر.

[172] قوله تعالى: { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ } ، الآية عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن هذه الآية فقال عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم نسأل عنها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الله عز وجل خلق آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: ففيم العمل يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » (1) ، وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ } أي: من ظهور بني آدم ذريتهم، قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وابن عامر . (ذُرِّيَّاتِهِمْ) بالجمع وكسر التاء، وقرأ الآخرون { ذُرِّيَّتَهُمْ } على التوحيد، ونصب التاء، فإن

(1) أخرجه أبو داود في السنة باب في القدر 7 / 71 والترمذي في تفسير سورة الأعراف 8 / 452 - 455 وقال: حديث حسن. وصححه الحاكم 1 / 27 وأخرجه الإمام أحمد في المسند 1 / 44، 45 والمصنف في شرح السنة 1 / 139 والآجري في الشريعة ص 170.

قيل: ما معنى قوله { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ } وإنما أخرجهم من ظهر آدم ؟ قيل: إن الله أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض على نحو ما يتولد أسد الأبناء من الآباء في الترتيب، فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لما علم أنهم كلهم بنوه ، وأخرجوا من ظهره. قوله تعالى: { وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى } ، أي: أشهد بعضهم على بعض. قوله: { شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا } ، قرأ أبو عمرو : أَنْ يَقُولُوا ويقولوا بالياء فيهما، وقرأ الآخرون بالتاء فيهما، واختلفوا في قوله: { شَهِدْنَا } قال السدي : هو خبر من الله عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم . وقال بعضهم: هو خبر عن قول بني آدم حين أشهد الله بعضهم على بعض، فقالوا : بلى شهدنا. وقال الكلبي : ذلك من قول الملائكة ، وفيه حذف تقديره: لما قالت الذرية: بلى، قال الله للملائكة. اشهدوا، قالوا: شهدنا، وقوله: أن يقولوا يعني: وأشهدهم على أنفسهم أن يقولوا، أي: لئلا يقولوا أو كراهية أن يقولوا، ومن قرأ بالتاء فتقدير الكلام: أخاطبكم ألست بربكم لئلا تقولوا، { يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا

غَافِلِينَ } ، أي: عن هذا الميثاق والإقرار، فإن قيل: كيف تلزم الحجة على أحد لا يذكر الميثاق؟ قيل: قد أوضح الله الدلائل على وحدانيته ، وصدق رسله فيما أخبروا، فمن أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ، ولزمته الحجة، وبنسيانهم وعدم حفظهم لا يسقط الاحتجاج بعد إخبار المخبر الصادق صاحب المعجزة.

[173] قوله تعالى: { أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ } ، يقول إنما أخذ الميثاق عليكم لئلا تقولوا أيها المشركون: إنما أشرك آباؤنا من قبل ، ونقضوا العهد وكنا ذرية مع بعدهم، أي: كنا أتباعا لهم ، فاقتدينا بهم ، فتجعلوا هذا عذرا لأنفسكم وتقولوا، { أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ } ، أفتعذبنا بجناية آبائنا المبطلين فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل هذا الكلام بعد تذكير الله تعالى بأخذ الميثاق على التوحيد.
[174] { وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ } أي: نبين الآيات ليتدبرها العباد، { وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } ، من الكفر إلى التوحيد.

[175] لقوله تعالى: { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا } الآية، اختلفوا فيه، قال ابن عباس : هو بلعم بن باعوراء . وقال مجاهد : بلعام بن باعر، وقال عطية عن ابن عباس : كان من بني إسرائيل ، وروي عن علي بن أبي طلحة رضي الله عنه أنه كان من الكنعانيين من مدينة الجبارين. وقال مقاتل : هو من مدينة بلقا، قال مقاتل : إن ملك البلقاء قال لبلعام : ادع الله على موسى، فقال: إنه من أهل ديني لا أدعو عليه، فنحت خشبة ليصلبه ، فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعو عليه، فلما عاين عسكرهم قامت به الأتان ، ووقفت فضربها، فقالت: لم تضربني؟ إني مأمورة وهذه نار أمامي قد منعتني أن أمشي فرجع ، وأخبر الملك، فقال: لتدعون عليه ، أو لأصلبنك، فدعا على موسى بالاسم الأعظم: ألا يدخل المدينة، فاستجيب له ، ووقع موسى وبنو إسرائيل في التيه بدعائه، فقال موسى : يا رب بأي ذنب وقعنا في التيه؟ فقال: بدعاء بلعام ، قال: فكما سمعت دعاءه علي ، فاسمع دعائي عليه، فدعا موسى عليه السلام أن ينزع عنه الاسم الأعظم والإيمان، فنزع الله عنه المعرفة ، وسلخه منها فخرجت من صدره كحمامة بيضاء، فذلك قوله: {

فَانْسَلَخَ مِنْهَا } ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم : نزلت هذه الآية في أمية بن أبي الصلت الثقفي ، وكانت قصته: أنه كان قد قرأ الكتب ، وعلم أن الله مرسل رسولا فرجا أن يكون هو ذلك الرسول، فلما أرسل محمد صلى الله عليه وسلم حسده ، وكفر به. وقال الحسن وابن كيسان : نزلت في منافقي أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم. وقال قتادة : هذا مثل ضربه الله عز وجل لمن عرض عليه الهدى فأبى أن يقبله، فذلك قوله { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا } . قال ابن عباس والسدي : اسم الله الأعظم. قال ابن زيد : كان لا يسأل الله شيئا إلا أعطاه. وقال ابن عباس في رواية أخرى: أوتي كتابا من كتب الله فانسلخ، أي: خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها. { فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ } ، أي: لحقه وأدركه، { فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ } .

[176] { وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا } ، أي: رفعنا درجته ومنزلته بتلك الآيات. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لرفعناه بعلمه بها. وقال مجاهد وعطاء : لرفعنا عنه الكفر ، وعصمناه بالآيات. { وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ } ، أي: سكن إلى الدنيا ، ومال إليها. قال الزجاج : خلد ، وأخلد واحد، وأصله من الخلود وهو الدوام والمقام، يقال: أخلد فلان بالمكان ، إذا أقام به، والأرض هاهنا عبارة عن الدنيا ؛ لأن ما فيها من القفار والرباع كلها أرض وسائر متاعها مستخرج من الأرض { وَاتَّبَعَ هَوَاهُ } ، انقاد لما دعاه إليه الهوى. قال ابن زيد : كان هواه مع القوم. قال عطاء : أراد الدنيا ، وأطاع شيطانه وهذه أشد آية على العلماء، وذلك أن الله أخبر أنه آتاه آياته من اسمه الأعظم والدعوات المستجابة والعلم

والحكمة، فاستوجب بالسكون إلى الدنيا واتباع الهوى تغيير النعمة عليه والانسلاخ عنها، ومن الذي يسلم من هاتين الخلتين إلا من عصمه الله؟ قوله تعالى: { فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ } ، يقال: لهث الكلب يلهث لهثا إذا أدلع لسانه. قال مجاهد : هو مثل الذي يقرأ

الكتاب ، ولا يعمل به. والمعنى: إن هذا الكافر إن زجرته لم ينزجر ، وإن تركته لم يهتد ، فالحالتان عنده سواء كحالتي الكلب: إن طرد وحمل عليه بالطرد كان لاهثا ، وإن ترك وربض كان لاهثا، قال القتيبي : كل شيء يلهث إنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وفي حالة الراحة وفي حال العطش، فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته فقال: إن وعظته فهو ضال ، وإن تركته فهو ضال ، كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث، نظيره قوله تعالى: { وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ } ، ثم عم بهذا التمثيل جميع من يكذب بآيات الله فقال: { ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } ، وقيل: هذا مثل لكفار مكة ، وذلك أنهم كانوا يتمنون هاديا يهديهم ، ويدعوهم إلى طاعة الله، فلما جاءهم نبي لا يشكون في صدقه كذبوه فلم يهتدوا تُركوا أو دُعُوا.

[177] { سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } ، أي: بئس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، وتقديره: ساء مثلا مثل القوم، فحذف مثل وأقيم القوم مقامه فرفع، { وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ } .
[178] { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } .

[179] { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ } ، أخبر الله تعالى أنه خلق كثيرا من الجن والإنس للنار ، وهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة، ومن خلقه الله لجهنم فلا حيلة له في الخلاص منها وقيل: اللام في قوله { لِجَهَنَّمَ } لام العاقبة، أي: ذرأناهم، وعاقبة أمرهم جهنم، كقوله تعالى: { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا } ، ثم وصفهم فقال: { لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا } ، أي: لا يعلمون بها الخير والهدى، { وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا } وطريق الحق وسبيل الرشاد، { وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا } مواعظ القرآن فيتفكرون فيها ، ويعتبرون بها، ثم ضرب لهم مثلا في الجهل والاقتصار على الأكل والشرب، فقال: { أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ } ، أي: كالأنعام في أن همتهم في الأكل والشرب والتمتع بالشهوات، بل هم أضل لأن الأنعام تميز بين المضار والمنافع، فلا تقدم على المضار، وهؤلاء يقدمون على النار معاندة مع العلم بالهلاك، { أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } .

[180] قوله تعالى: { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا } ، قال مقاتل : وذلك أن رجلا دعا الله في صلاته ، ودعا الرحمن فقال بعض مشركي مكة: إن محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه يدعون أنهم يعبدون ربا واحدا فما بال هذا يدعو اثنين، فأنزل الله عز وجل: { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا } . والحسنى تأنيث الأحسن كالكبرى والصغرى، فادعوه بها. عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة، إنه وتر يحب الوتر » (1) . { وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ } ، قرأ حمزة (يَلْحَدُونَ) بفتح الياء والحاء حيث كان وافقه الكسائي في النحل والباقون بضم الياء وكسر الحاء، ومعنى الإلحاد: هو الميل عن المقصد، يقال:

ألحد يُلحد إلحادا، ولحد يلحد لحودا إذا مال. قال يعقوب بن السكيت : الإلحاد هو العدول عن الحق وإدخال ما ليس منه فيه { وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ } : هم المشركون عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه، فسموا بها أوثانهم ، فزادوا ، ونقصوا فاشتقوا اللات من الله والعزى من العزيز ومناة من

---

(1) أخرجه البخاري في الدعوات 11 / 214 وفي الشروط وفي التوحيد ومسلم في الذكر والدعاء رقم (2677) 4 / 2062 والمصنف في شرح السنة 5 / 30.

المنان، هذا قول ابن عباس ومجاهد . وقيل: هو تسميتهم الأصنام آلهة. وروي عن ابن عباس : يلحدون في أسمائه أي : يكذبون. وقال أهل المعاني: الإلحاد في أسماء الله تسميته بما لم يسم به ، ولم ينطق به كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجملته أن أسماء الله تعالى على التوقيف فإنه يسمى جواد ، ولا يسمى سخيا، وإن كان في معنى الجواد، ويسمى رحيما ، ولا يسمى رفيقا، ويسمى عالما ، ولا يسمى عاقلا { سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } في الآخرة.

[181] قوله تعالى: { وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ } ، أي: عصابة، { يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ } ، قال عطاء عن ابن عباس . يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان. وقال قتادة : بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال: « هذه لكم وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها ومع قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » .

[182] { وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ } ، قال عطاء : سنمكر بهم من حيث لا يعلمون. وقيل. نأتيهم من مأمنهم، كما قال: { فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا } ، قال الكلبي : يزين لهم أعمالهم ، ويهلكهم. وقال الضحاك : كلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة. قال سفيان الثوري : نسبغ عليهم النعمة ، وننسيهم الشكر. قال أهل المعاني: الاستدراج أن يتدرج إلى الشيء في خفية قليلا قليلا فلا يباغت ، ولا يجاهر، ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه في المشي، ومنه درج الكتاب إذا طواه شيئا بعد شيء.

[183] { وَأُمْلِي لَهُمْ } ، أي: أمهلهم ، وأطيل لهم مدة عمرهم ليتمادوا في المعاصي، { إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } ، أي: إن أخذي قوي شديد، قال ابن عباس : إن مكري شديد. قيل: نزلت في المستهزئين ، فقتلهم الله في ليلة واحدة .

[184] قوله تعالى: { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ } ، قال قتادة : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قام على الصفا ليلا فجعل يدعو قريشا فخذا فخذا يا بني فلان يا بني فلان يحذرهم بأس الله ووقائعه، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون بات يُصَوِّتُ إلى الصباح، فأنزل الله تعالى: { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ } ، محمد صلى الله عليه وسلم: { مِنْ جِنَّةٍ } جنون. { إِنْ هُوَ } ، ما هو، { إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ } ، ثم حثهم على النظر المؤدي إلى العلم فقال:

[185] { أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ } ، فيهما، { مِنْ شَيْءٍ } ، أي : وينظروا إلى ما خلق الله من شيء ليستدلوا بها على وحدانيته { وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ } أي: لعل أن يكون قد اقترب أجلهم فيموتوا قبل أن يؤمنوا ، ويصيروا إلى العذاب، { فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ } ، أي: بعد القرآن يؤمنون، يقول: بأي كتاب غير ما جاء به محمد

صلى الله عليه وسلم يصدقون، وليس بعده نبي ولا كتاب، ثم ذكر علة إعراضهم عن الإيمان فقال:

[186] { مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ } ، قرأ أهل البصرة وعاصم بالياء ورفع الراء، وقرأ حمزة والكسائي بالياء وجزم الراء، لأن ذكر الله قد مر قبله، وجزم الراء مردود على (يضلل) وقرأ، الآخرون بالنون ورفع الراء على أنه كلام مستأنف. { فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } ، يترددون متحيرين.

[187] قوله تعالى: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا } ، قال قتادة : قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن بيننا وبينك قرابة فَأَسِرَّ إلينا متى الساعة؟ فأنزل الله تعالى: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ } ، يعني: القيامة، { أَيَّانَ مُرْسَاهَا } قال ابن عباس رضي الله عنهما: منتهاها. وقال قتادة . قيامها وأصله الثبات، أي: متى مثبتها؟ { قُلْ } يا محمد { إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي } ، استأثر بعلمها ، ولا يعلمها إلا هو، { لَا يُجَلِّيهَا } ، لا يكشفها ، ولا يظهرها. وقال مجاهد : لا يأتي بها، { لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، يعني: ثقل علمها وخفي أمرها على أهل السماوات والأرض، وكل خفي ثقيل. قال الحسن : يقول إذا جاء ثقلت وعظمت على أهل السموات والأرض، { لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً } , فجأة على غفلة { يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا } أي: عالم بها من قولهم أحفيت في المسألة، أي: بالغت فيها، معناه: كأنك بالغت في السؤال عنها حتى علمتها، { قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }

، أن علمها عند الله حتى سألوا محمدا عنها.

[188] { قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أهل مكة قالوا. يا محمد ، ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتريه ، وتربح فيه عند الغلاء؟ وبالأرض التي يريد أن تجدب فترتحل منها إلى ما قد أخصبت؟ فأنزل الله تعالى: { قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا } أي: لا أقدر لنفسي نفعا، أي: اجتلاب نفع بأن أربح ، ولا ضرا، أي دفع ضر بأن أرتحل من أرض تريد أن تجدب إلا ما شاء الله أن أملكه، { وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ } أي : لو كنت أعلم الخصب والجدب (لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ) أي: من المال لسنة القحط (وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)، أي: الضر والفقر والجوع. وقال ابن جريج : { قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا } يعني الهدى والضلالة { وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ } ، أي: متى أموت لاستكثرت من الخير، يعني: من العمل الصالح، وما مسني السوء. قال ابن زيد : واجتنبت ما يكون من الشر واتقيته. وقيل: معناه ولو كنت أعلم الغيب أي : متى الساعة لأخبرتكم حتى

تؤمنوا ، وما مسني السوء بتكذيبكم. وقيل. وما مسني السوء ابتداء يريد: ما مسني الجنون ؛ لأنهم كانوا ينسبونه إلى الجنون { إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ } ، لمن لا يصدق بما جئت به، { وَبَشِيرٌ } ، بالجنة، { لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } ، يصدقون.
[189] قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ } ، يعني من آدم ، { وَجَعَلَ } ، وخلق { مِنْهَا زَوْجَهَا } ، يعني: حواء { لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا } ، ليأنس بها ويأوي إليها، { فَلَمَّا تَغَشَّاهَا } ، أي: واقعها وجامعها { حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا } ، وهو أول ما تحمل المرأة من النطفة يكون خفيفا عليها، { فَمَرَّتْ بِهِ } ، أي:

استمرت به ، وقامت ، وقعدت به ، ولم يثقلها، { فَلَمَّا أَثْقَلَتْ } ، أي: كبر الولد في بطنها ، وصارت ذات ثقل بحملها ، ودنت ولادتها، { دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا } ، يعني آدم وحواء ، { لَئِنْ آتَيْتَنَا } ، يا ربنا { صَالِحًا } أي: بشرا سويا مثلنا، { لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } .

[190] { فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا } ، بشرا سويا { جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا } ، قرأ أهل المدينة وأبو بكر (شركا) بكسر الشين والتنوين، أي: شركة، قال أبو عبيدة : أي : حظا ونصيبا، وقرأ الآخرون (شُرَكَاءُ) بضم الشين ممدودا على جمع شريك يعني إبليس، أخبر عن الواحد بلفظ الجمع، أي: جعلا له شريكا إذ سمياه عبد الحارث ، ولم يكن هذا إشراكا في العبادة ، ولا أن الحارث ربهما فإن آدم كان نبيا معصوما من الشرك، ولكن قصد إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمه، وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به أنه مملوك، كما يطلق اسم الرب على من لا يراد به أنه معبود هذا، كالرجل إذا نزل به ضيف يسمي نفسه عبد الضيف على وجه الخضوع لا على أن الضيف ربه، ويقول للغير. أنا عبدك، وقال يوسف لعزيز مصر: إنه ربي، ولم يرد به أنه معبوده كل ذلك هذا. وقوله: { فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } ، قيل: هذا ابتداء كلام ، وأراد به إشراك أهل مكة، ولئن أراد به ما سبق فمستقيم من حيث إنه كان الأولى بهما أن لا يفعلا ما آتيا به من الإشراك في الاسم، وفي الآية قول آخر: هو أنه راجع إلى جميع المشركين من ذرية آدم، وهو قول

الحسن وعكرمة ، ومعناه: جعل أولادهما شركاء فحذف الأولاد ، وأقامهما مقامهم كما أضاف فعل الآباء إلى الأبناء في تعييرهم بفعل الآباء ، فقال: { ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ } ، { وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا } خاطب به اليهود الذين كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك الفعل من آبائهم. وقيل: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولادا ، فهودوا ، ونصروا. وقال ابن كيسان : هم الكفار سموا أولادهم عبد العزى وعبد الله وعبد مناة ونحوه. وقال عكرمة : خاطب كل واحد من الخلق بقوله : خلقكم أي : خلق كل واحد من أبيه ، وجعل منها زوجها، أي: جعل من جنسها زوجها، وهذا قول حسن لولا قول السلف مثل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن المسيب وجماعة
المفسرين أنه في آدم وحواء (1) . قال الله تعالى: (فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ).
[191] قوله تعالى: { أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا } ، يعني: إبليس والأصنام، { وَهُمْ يُخْلَقُونَ } ، أي: هم مخلوقون.

(1) أي: لماذا ذكرت تلك الأقوال.

[192] { وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا } أي: الأصنام، لا تنصر من أطاعها، { وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } ، قال الحسن : لا يدفعون عن أنفسهم مكروه من أراد بهم بكسر أو نحوه ، ثم خاطب المؤمنين فقال:
[193] { وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى } ، وإن تدعوا المشركين إلى الإسلام، { لَا يَتَّبِعُوكُمْ } ، قرأ نافع بالتخفيف ، وكذلك: (يتبعهم الغاوون) في الشعراء ، وقرأ الآخرون بالتشديد فيهما وهما لغتان. يقال: تبعه تبعا ، وأتبعه اتباعا. { سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ } ، إلى الدين، { أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ } ، عن دعائهم لا يؤمنون، كما قال: { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } وقيل: (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى) يعني الأصنام لا يتبعوكم لأنها غير عاقلة.

[194] { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } ، يعني الأصنام، { عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ } ، يريد أنها مملوكة أمثالكم. وقيل: أمثالكم في التسخير، أي: أنهم مسخرون مذللون لما أريد منهم. قال مقاتل : قوله : { عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ } أراد به الملائكة، والخطاب مع قوم كانوا يعبدون الملائكة، والأول أصح. { فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } ، أنها آلهة. قال ابن عباس : فاعبدوهم هل يثيبونكم ، أو يجازونكم إن كنتم صادقين أن لكم عندها منفعة. ثم بين عجزهم فقال:

[195] { أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا } ، قرأ أبو جعفر بضم الطاء هنا وفي القصص والدخان، وقرأ الآخرون بكسر الطاء { أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا } ، أراد أن قدرة المخلوقين تكون بهذه الجوارح والآلات، وليست للأصنام هذه الآلات، فأنتم مفضلون عليهم بالأرجل الماشية والأيدي الباطشة والأعين الباصرة والأذن السامعة، فكيف تعبدون من أنتم أفضل وأقدر منهم؟ { قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ } ، يا معشر المشركين { ثُمَّ كِيدُونِ } أنتم وهم، { فَلَا تُنْظِرُونِ } ، أي: لا تمهلوني ، واعجلوا في كيدي.

[196] قوله: { إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ } ، يعني القرآن، أي: أنه يتولاني وينصرني كما أيدني بإنزال الكتاب، { وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ } ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد الذين لا يعدلون بالله شيئا فالله يتولاهم بنصره فلا يضرهم عداوة من عاداهم.

[197] { وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } .

[198] { وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا } ، يعني الأصنام، { وَتَرَاهُمْ } يا محمد { يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ } ، يعني الأصنام، { وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ } ، وليس المراد من النظر حقيقة النظر إنما المراد منه المقابلة، تقول العرب: داري تنظر إلى دارك أي: تقابلها. وقيل: وتراهم ينظرون إليك أي: كأنهم ينظرون إليك، كقوله تعالى: { وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى } ، أي: كأنهم سكارى هذا قول أكثر المفسرين. وقال الحسن : { وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى } يعني المشركين لا يسمعوا ، ولا يفعلون ذلك بقلوبهم ، وتراهم ينظرون إليك بأعينهم ، وهم لا يبصرون بقلوبهم.

[199] قوله تعالى: { خُذِ الْعَفْوَ } ، قال عبد الله بن الزبير : أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وقال مجاهد : خذ العفو يعني العفو من أخلاف الناس وأعمالهم من غير تجسس، وذلك مثل قبول الاعتذار، والعفو والمساهلة وترك البحث عن الأشياء ونحو ذلك وقال ابن عباس رضي الله عنهما والسدي والضحاك والكلبي : يعني خذ ما عفا لك من الأموال وهو الفضل عن العيال، وذلك معنى قوله: { وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ } ، ثم نسخت هذه بالصدقات المفروضات. وقوله تعالى: { وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ } ، أي: بالمعروف، وهو كل ما يعرفه الشرع. وقال عطاء: وأمر بالعرف يعني بلا إله إلا الله. { وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } ، أبي جهل وأصحابه, نسختها آية السيف، وقيل: إذا تسفه عليك الجاهل فلا تتقابله بالسفه، وذلك مثل قوله. { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } ، وذلك سلام المتاركة. قال جعفر الصادق : أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية.

[200] قوله تعالى: { وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ } أي: يصيبنك ويعتريك ، ويعرض لك من الشيطان نزغ نخسة. والنزغ من الشيطان الوسوسة. وقال الزجاج : النزغ أدنى حركة تكون من الآدمي، ومن الشيطان أدنى وسوسة. وقال عبد الرحمن بن زيد : لما نزلت هذه الآية { خُذِ الْعَفْوَ } ، قال النبي صلى الله عليه وسلم: « كيف يا رب والغضب » ، فنزل: { وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ } ، أي: استجر بالله { إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } .

[201] { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا } ، يعني المؤمنين، { إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ } ، قرأ ابن كثير وأهل البصرة والكسائي : (طيف)، وقرأ الآخرون { طَائِفٌ } بالمد والهمز وهما لغتان كالميت والمائت ومعناهما: الشيء يلم بك. وفرق قوم بينهما، فقال أبو عمرو : الطائف ما يطوف حول الشيء، والطيف. اللمة والوسوسة. وقيل: الطائف ما طاف به من وسوسة الشيطان، والطيف اللمم والمس. { تَذَكَّرُوا } ، عرفوا، قال سعيد بن جبير . هو الرجل يغضب الغضبة ، فيذكر الله تعالى فيكظما الغيظ. وقال مجاهد : والرجل يهم بالذنب فيذكر الله فيدعه. { فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } ، أي: يبصرون مواقع خطاياهم بالتذكر والتفكر. وقال السدي : إذا زلوا تابوا. وقال مقاتل: إن المتقي إذا أصابه نزغ من الشيطان تذكر ، وعرف أنه معصية، فأبصر ، فنزغ عن مخالفة الله.

[202] قوله: { وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ } ، يعني إخوان الشياطين من المشركين يمدونهم، أي: يمدهم الشيطان. قال الكلبي : لكل كافر أخ من الشياطين. { فِي الْغَيِّ } ، أي: يطلبون هم الإغواء حتى يستمروا عليه. وقيل: يزيدونهم في الضلالة، وقرأ أهل المدينة: (يمدونهم) بضم الياء وكسر الميم من الإمداد والآخرون بفتح الياء وضم الميم وهما لغتان بمعنى واحد، { ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ } ، أي: لا يكفون، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات ، ولا الشياطين يمسكون عنهم، فعلى هذا قوله: { ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ } من فعل المشركين والشياطين جميعا. قال الضحاك ومقاتل : يعني المشركين لا يقصرون عن الضلالة ، ولا يبصرونها، بخلاف ما قال في المؤمنين: { تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } .

[203] { وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ } ، يعني. إذا لم تأت المشركين بآية، { قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا } ، هلا افتعلتها ، وأنشأتها من قبل نفسك واختيارك؟ تقول العرب: اجتبيت الكلام إذا اختلقته. قال الكلبي . كان أهل مكة يسألون النبي صلى الله عليه وسلم الآيات تعنتا فإذا تأخرت اتهموه وقالوا، لولا اجتبيتها؟ أي: هلا أحدثتها ، وأنشأتها من عندك؟ { قُلْ } لهم يا محمد { إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي } ، ثم قال: { هَذَا } ، يعني القرآن { بَصَائِرُ } ، حجج وبيان وبرهان { مِنْ رَبِّكُمْ } واحدتها بصيرة، وأصلها ظهور الشيء واستحكامه حتى يبصره الإنسان، فيهتدي به يقول: هذا دلائل تقودكم إلى الحق. { وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } .

[204] قوله عر وجل: { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ، اختلفوا في سبب نزول هذه الآية فذهب جماعة إلى أنها في القراءة في الصلاة. روي عن أبي هريرة أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة بحوائجهم ، فأمروا بالسكوت والاستماع إلى قراءة القرآن. وقال قوم: نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام. ورُوِيَ عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله صلى الله

عليه وسلم في الصلاة, وقال الكلبي : كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه سمع ناسا يقرؤون مع الإمام ، فلما انصرف قال: أما آن لكم أن تفقهوا ، وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما أمركم الله ؟ وهذا قول الحسن والزهري والنخعي : أن الآية في القراءة في الصلاة. وقال سعيد بن جبير وعطاء ومجاهد : أن الآية في الخطبة، أمروا بالإنصات لخطبة الإمام يوم الجمعة. وقال سعيد بن جبير : هذا في الإنصات يوم الأضحى والفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام. وقال عمر بن عبد العزيز : يجب الإنصات لقول كل واعظ. والأول أولاها، وهو أنها

في القراءة في الصلاة ؛ لأن الآية مكية والجمعة وجبت بالمدينة. واتفقوا على أنه مأمور بالإنصات حالة ما يخطب الإمام.

[205] قوله تعالى: { وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ } ، قال ابن عباس يعني بالذكر: القراءة في الصلاة، يريد يقرأ سرا في نفسه، { تَضَرُّعًا وَخِيفَةً } ، خوفا، أي: تتضرع إلي وتخاف مني هذا في صلاة السر. وقوله: { وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ } ، أراد في صلاة الجهر لا تجهر جهرا شديدا بل في خفض وسكون، يسمع من خلفك. وقال مجاهد وابن جريج : أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرع إليه في الدعاء والاستكانة، دون رفع الصوت والصياح بالدعاء. { بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ } ، أي: بالبكر والعشيات، واحد آصال: أصيل، مثل يمين وأيمان، وهو ما بين العصر والمغرب.

[206] { إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ } ، يعني الملائكة المقربين، { لَا يَسْتَكْبِرُونَ } ، لا يتكبرون { عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ } ، وينزهونه ، ويذكرونه، فيقولون: سبحان الله. { وَلَهُ يَسْجُدُونَ } قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة ، وحط عنه بها سيئة » (1) .

---

(1) أخرجه ابن ماجه رقم (1423) 1 / 457 والإمام أحمد في المسند 5 / 276, 280، روى نحوه مسلم في الصلاة برقم (488).

(8) سورة الأنفال

[1] قوله: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ } أي: عن حكم الأنفال وعلمها، وهو سؤال استخبار لا سؤال طلب. وقيل: هو سؤال طلب. قاله الضحاك وعكرمة . وقوله : { عَنِ الْأَنْفَالِ } أي : من الأنفال، عن بمعنى من. وقيل: عن صلة أي: يسألونك الأنفال، وهكذا قراءة ابن مسعود بحذف عن. والأنفال: الغنائم، واحدها نفل، وأصله الزيادة، يقال: نفلتك وأنفلتك أي : زدتك، سميت الغنائم أنفالا ؛ لأنها زيادة من الله تعالى لهذه الأمة على الخصوص. وأكثر المفسرين على أن الآية في غنائم بدر. وقال عطاء : هي ما شذ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال من عبد أو أمة ومتاع فهو للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع به ما شاء. قوله تعالى: { قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ } يقسمانها كما شاءا ، واختلفوا فيه، فقال مجاهد وعكرمة والسدي : هذه الآية منسوخة بقوله عز وجل : { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ } الآية. كانت الغنائم يومئذ للنبي صلى الله عليه وسلم فنسخها الله عز وجل بالخمس. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هي ثابتة غير منسوخة، ومعنى الآية: قل الأنفال لله مع الدنيا والآخرة وللرسول

يضعها حيث أمره الله تعالى، أي: الحكم فيها لله ولرسوله، وقد بين الله مصارفها في قوله عز وجل: { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ } الآية، { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ } ، أي: اتقوا الله بطاعته وأصلحوا الحال بينكم بترك المنازعة والمخالفة، وتسليم أمر الغنيمة إلى الله والرسول صلى الله عليه وسلم. { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } .

[2] { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ } ، يقول: ليس المؤمن الذي يخالف الله ورسوله إنما المؤمنون الصادقون في إيمانهم { الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } ، خافت ، وفرقت قلوبهم. وقيل: إذا خوفوا بالله انقادوا خوفا من عقابه { وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا } ، تصديقا ويقينا، وقال عمير بن حبيب وكانت له صحبة: إن للإيمان زيادة ونقصانا، وقيل: فما زيادته؟ قال: إذا ذكرنا الله عز وجل ، وحمدناه فذلك زيادته، وإذا سهونا ، وغفلنا فذلك نقصانه، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي : إن للإيمان فرائض وشرائط وشرائع وحدودا وسننا فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان. { وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } ، أي: يفوضون إليه أمورهم ، ويثقون به ، ولا يرجون غيره ، ولا يخافون سواه.
[3] { الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } .

[4] { أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا } ، يعني: يقينا. قال ابن عباس : برؤوا من الكفر. قال مقاتل : حقا لا شك في إيمانهم. وفيه دليل على أنه ليس لكل أحد أن يصف نفسه بكونه مؤمنا حقا لأن الله تعالى إنما وصف بذلك قوما مخصوصين على أوصاف مخصوصة، وكل أحد لا يتحقق وجود تلك الأوصاف فيه { لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ } ، قال عطاء : يعني درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم. وقال الربيع بن أنس : سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر الفرس المضمر سبعين سنة. { وَمَغْفِرَةٌ } ، لذنوبهم { وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } ، حسن يعني ما أعد لهم في الجنة.

[5] قوله تعالى: { كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ } ، اختلفوا في الجالب لهذه الكاف التي في قوله { كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ } قال المبرد : تقديره الأنفال لله والرسول ، وإن كرهوا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن كرهوا. وقيل: تقديره امض لأمر الله في الأنفال ، وإن كرهوا كما مضيت لأمر الله في الخروج من البيت لطلب العير وهم كارهون. وقال عكرمة : معناه فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن ذلك خير لكم كما أن إخراج محمد صلى الله عليه وسلم من بيته بالحق خير لكم، وإن كرهه فريق منكم. وقال مجاهد : معناه كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره فريق منهم، كذلك يكرهون القتال ، ويجادلون فيه. وقيل: هو راجع إلى قوله: { لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ } ، تقديره: وعد الله الدرجات لهم حق ينجزه الله عز وجل كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، فأنجز الوعد بالنصر والظفر. وقيل: الكاف بمعنى على، تقديره: امض على الذي أخرجك ربك. وقال أبو عبيدة : هي بمعنى القسم مجازها: والذي أخرجك، لأن (ما) في موضع الذي، وجوابه { يُجَادِلُونَكَ } ، وعليه يقع القسم، تقديره: يجادلونك والله الذي أخرجك ربك من بيتك بالحق. وقيل:

الكاف بمعنى إذ تقديره: واذكر إذ أخرجك ربك. قيل: المراد بهذا الإخراج هو إخراجه من مكة إلى المدينة، والأكثرون على أن المراد منه إخراجه من المدينة إلى بدر، أي: كما أمرك ربك بالخروج (مِنْ بَيْتِكَ) إلى المدينة

(بِالْحَقِّ) قيل: بالوحي لطلب المشركين { وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } ، منهم، { لَكَارِهُونَ } .
[6] { يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ } ، أي: في القتال: { بَعْدَمَا تَبَيَّنَ } ، وذلك أن المؤمنين لما أيقنوا بالقتال كرهوا ذلك، وقالوا: لم تعلمنا أنا نلقى العدو فنستعد لقتالهم، وإنما خرجنا للعير، فذلك جدالهم بعدما تبين لهم أنك لا تصنع إلا ما أمرك، وتبين صدقك في الوعد، { كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ } لشدة كراهيتهم القتال، { وَهُمْ يَنْظُرُونَ } ، فيه تقديم وتأخير، تقديره: وإن فريقا من المؤمنين لكارهون: كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون يجادلونك في الحق بعد ما تبين. قال ابن زيد : هؤلاء المشركون جادلوه في الحق كأنما يساقون إلى الموت حين يدعون إلى الإسلام لكراهيتهم إياه وهم ينظرون.

[7] قوله تعالى: { وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ } أي: الفريقين إحداهما: أبو سفيان مع العير والأخرى: أبو جهل مع النفير، { وَتَوَدُّونَ } ، أي: تريدون { أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ } ، يعني العير التي ليس فيها قتال. والشوكة: الشدة والقوة. ويقال السلاح. { وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ } ، أي: يظهره ويعليه، { بِكَلِمَاتِهِ } ، بأمره إياكم بالقتال. وقيل: بعداته التي سبقت من إظهاره الدين وإعزازه، { وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ } ، أي: يستأصلهم حتى لا يبقى منهم أحد، يعني كفار العرب.
[8] { لِيُحِقَّ الْحَقَّ } ، ليثبت الإسلام، { وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ } ، أي: يفني الكفر: { وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ } ، المشركون. وكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة ليلة من شهر رمضان.

[9] قوله تعالى: { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ } ، تستجيرون به من عدوكم ، وتطلبون منه الغوث والنصر { فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ } ، مرسل إليكم مددا وردءا لكم، { بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ } ، قرأ أهل المدينة ويعقوب (مُرْدَفِينَ) بفتح الدال، أي: أردف الله المسلمين ، وجاء بهم مددا، وقرأ الآخرون بكسر الدال أي : متتابعين بعضهم في إثر بعض، يقال: أردفته وردفته بمعنى تبعته.
[10] قوله تعالى: { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ } ، يعني: الإمداد بالملائكة، { إِلَّا بُشْرَى } ، أي: بشارة { وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } .

[11] { إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ } ، قرأ ابن كثير وأبو عمرو : (يَغْشَاكُمْ) بفتح الياء (النُّعَاسُ) رفع على أن الفعل له، كقوله تعالى في سورة آل عمران { أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ } ، قرأ أهل المدينة: (يُغْشِيكُمْ) بضم الياء وكسر الشين مخففا، { النُّعَاسَ } نصب كقوله تعالى: { كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ }{ وُجُوهُهُمْ } ، وقرأ الآخرون بضم الياء وكسر الشين مشددا، { النُّعَاسَ } نصب على أن الفعل لله عز وجل، كقوله تعالى: { فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى } ، والنعاس. النوم الخفيف. { أَمَنَةً } أمنا { مِنْهُ } ، مصدر أمنت أمنا وأمنة وأمانا. قال عبد الله بن مسعود رصي الله عنه: النعاس في القتال أمنة من الله وفي الصلاة وسوسة من الشيطان. { وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ } ، وذلك أن المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب، وسبقهم المشركون إلى ماء بدر ، وأصبح المسلمون بعضهم محدثين وبعضهم مجنبين، وأصابهم الظمأ ، ووسوس إليهم الشيطان، وقال: تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي الله وأنكم أولياء الله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ،

وأنتم تصلون محدثين ومجنبين، فكيف ترجون أن تظهروا عليهم؟ فأرسل الله عز وجل عليهم مطرا سال منه الوادي ، فشرب المؤمنون ، واغتسلوا ، وتوضؤوا ، وسقوا الركاب ، وملؤوا الأسقية ، وأطفأ الغبار ، ولبد الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام ، وزالت عنهم وسوسة الشيطان، وطابت أنفسهم، فذلك قوله تعالى: { وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ } من الأحداث والجنابة، { وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ } ، وسوسته، { وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ } ، باليقين والصبر، { وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ } ، حتى لا تسوخ في الرمل بتلبيد الأرض، وقيل: يثبت به الأقدام بالصبر وقوة القلب.

[12] { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ } ، الذين أمد بهم المؤمنين، { أَنِّي مَعَكُمْ } ، بالعون والنصر { فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا } ، أي: قووا قلوبهم. قيل: ذلك التثبيت حضورهم معهم القتال ومعونتهم، أي: ثبتوهم بقتالكم معهم المشركين. وقال مقاتل : أي. بشروهم بالنصر، وكان الملك يمشي أمام الصف في صورة الرجل ويقول: أبشروا فإن الله ناصركم. { سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ } ، قال عطاء : يريد الخوف من أوليائي، { فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ } ، قيل: هذا خطاب مع المؤمنين. وقيل. هذا خطاب جمع الملائكة، وهو متصل بقوله { فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا } وقوله: { فَوْقَ الْأَعْنَاقِ } قال عكرمة : يعني الرؤوس لأنها فوق الأعناق. وقال الضحاك : معناه فاضربوا الأعناق، وفوق صلة كما قال تعالى: { فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ } ، وقيل: معناه فاضربوا على الأعناق، فوق بمعنى على. { وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } ، قال عطية : يعني كل مفصل. وقال ابن عباس وابن جريج والضحاك : يعني الأطراف، والبنان جمع بنانة، وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين.

[13] { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ } ، خالفوا الله، { وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } .
[14] { ذَلِكُمْ } أي: هذا العذاب والضرب الذي عجلته لكم أيها الكفار ببدر { فَذُوقُوهُ } ، عاجلا، { وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ } ، أي: واعلموا ، وأيقنوا أن للكافرين أجلا في المعاد، { عَذَابَ النَّارِ} .
[15] قوله عز وجل { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا } , أي: مجتمعين متزاحفين بعضكم إلى بعض، والتزاحف: التداني في القتال: والزحف مصدر لذلك لم يجمع، كقولهم: قوم عدل ورضا. قال الليث : الزحف جماعة يزحفون إلى عدو لهم بمرة، فهم الزحف، والجمع الزحوف، { فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ } يقول: فلا تولوهم ظهوركم أي : لا تنهزموا فإن المنهزم يولي دبره.

[16] { وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ } ، ظهره، { إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ } ، أي: منعطفا يرى من نفسه الانهزام، وقصده طلب الغرة وهو يريد الكرة، { أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ } أي: منضما صائرا إلى جماعة من المؤمنين يريد العود إلى القتال. ومعنى الآية النهي عن الانهزام من الكفار والتولي عنهم، إلا على نية التحرف للقتال والانضمام إلى جماعة من المسلمين ليستعين بهم ، ويعود إلى القتال، فمن ولى ظهره لا على هذه النية لحقه الوعيد، كما قال تعالى. { فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } ، واختلف العلماء في هذه الآية، فقال أبو سعيد الخدري : هذا في أهل بدر خاصة، ما كان يجوز لهم الانهزام لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان معهم، ولم يكن ليهم فئة يتحيزون إليها دون النبي صلى الله عليه وسلم، ولو انحازوا لانحازوا إلى المشركين، فأما بعد ذلك

فإن المسلمين بعضهم فئة لبعض، فيكون الفار متحيزا إلى فئة فلا يكون فراره كبيرة، وهو قول الحسن وقتادة والضحاك، قال يزيد بن أبي حبيب . أوجب الله النار لمن فر يوم بدر، فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال: { إِنَّمَا

اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ } ، ثم كان يوم حنين بعده فقال: { ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ } . { ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ } ، وقال عبد الله بن عمر : « كنا في جيش بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاص الناس حيصة ، فانهزمنا، فقلنا: يا رسول الله نحن الفرارون؟ قال: "بل أنتم الكرارون، أنا فئة المسلمين » (1) . وقال محمد بن سيرين : لما قتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر فقال: لو انحاز إلي كنت له فئة فأنا فئة كل مسلم. وقال بعضهم: حكم الآية عام في حق كل من ولى منهزما. جاء في الحديث: "من الكبائر الفرار من الزحف" (2) وقال عطاء بن أبي رباح : هذه الآية منسوخة بقوله عز وجل: { الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ } ، فليس لقوم أن يفروا من مثلهم فنسخت تلك إلا في هذه العدة ، وعلى هذا أكثر أهل العلم أن المسلمين إذا كانوا على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا أو يولوا ظهورهم إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة، وإن كانوا أقل من ذلك جاز لهم أن يولوا ظهورهم ، وينحازوا عنهم، قال ابن عباس : من فر من ثلاثة فلم يفر، ومن فر من اثنين

____

(1) أخرجه الترمذي في الجهاد 5 / 378 وقال: حديث حسن غريب، وأبو داود في الجهاد 3 / 438، وسعيد بن منصور في السنن 2 / 209، 210، والشافعي في المسند 2 / 116.

(2) جاء في أحاديث في أن الفرار من الزحف كبيرة.

فقد فر.

[17] قوله تعالى: { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ } ، قال مجاهد . سبب نزول هذه الآية أنهم لما انصرفوا عن القتال كان الرجل يقول: أنا قتلت فلانا ، ويقول الآخر مثله، فنزلت الآية. ومعناه: فلم تقتلوهم أنتم بقوتكم ، ولكن الله قتلهم بنصرته إياكم وتقويته لكم. وقيل: لكن الله قتلهم بإمداد الملائكة. { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } فلما أقبلت قريش يوم بدر ، ورآها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، فأتاه جبريل عليه السلام ، وقال له: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فلما التقى الجمعان تناول كفا من حصى عليه تراب ، فرمى به في وجوه القوم، وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق منهم مشرك إلا دخل في عينيه وفمه ومنخريه منها شيء، فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ، ويأسرونهم فذلك قوله تعالى: { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } ، إذ ليس في وسع أحد من البشر أن يرمي كفا من الحصا إلى وجوه جيش ، فلا يبقى فيهم عين إلا ، ويصيبها منه شيء. وقيل: معنى الآية: وما بلغت إذ رميت ، ولكن الله

بلغ. وقيل: وما رميت بالرعب في قلوبهم إذ رمشا بالحصباء ، ولكن الله رمى بالرعب في قلوبهم حتى انهزموا، { وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا } ، أي: ولينعم على المؤمنين نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة، { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ } لدعائكم ، { عَلِيمٌ } بنايتكم.

[18] { ذَلِكُمْ } ، الذي ذكرت من القتل والرمي والبلاء الحسن، { وَأَنَّ اللَّهَ } ، قيل: فيه إضمار، أي: واعلموا أن الله { مُوهِنُ } ، مضعف، { كَيْدِ الْكَافِرِينَ } ، قرأ ابن كثير ونافع وأهل البصرة: (مُوَهِّنٌ) بالتشديد والتنوين، (كيدَ) نصب، وقرأ الآخرون "مُوهِنٌ" بالتخفيف والتنوين إلا حفصا ، فإنه يضيفه فلا ينون ويخفض ماله { كَيْدِ } .

[19] قوله تعالى: { إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ } ، وذلك أن أبا جهل -لعنه الله- قال يوم بدر لما التقى الناس: اللهم أقطعنا للرحم ، وأتانا بما لم نعرف ، فأحنه الغداة، فكان هو المستفتح على نفسه ، وقال السدي والكلبي : كان المشركون حين خرجوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من مكة أخذوا بأستار الكعبة ، وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين ، وأهدى الفئتين ، وأكرم الحزبين ، وأفضل الدينين ففيه نزلت: { إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ } ، أي: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر. وقال عكرمة : قال المشركون: والله لا نعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق فأنزل الله عز وجل: { إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ } أي إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء. وقال أبي بن كعب : هذا خطاب لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى للمسلمين: إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح أي: إن تستنصروا فقد جاءكم الفتح والنصر قوله: { وَإِنْ تَنْتَهُوا } ، يقول للكفار: إن تنتهوا عن الكفر بالله وقتال نبيه صلى الله عليه وسلم، { فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا } ، لحربه وقتاله، { نَعُدْ }

بمثل الواقعة التي وقعت بكم يوم بدر. وقيل: وإن تعودوا إلى الدعاء والاستفتاح نعد للفتح لمحمد صلى الله عليه وسلم، { وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ } ، جماعتكم، { شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ } ، قرأ أهل المدينة وابن عامر وحفص { وَأَنَّ اللَّهَ } بفتح الهمزة، أي: ولأن الله مع المؤمنين، كذلك { وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا } ، وقيل: هو عطف على قوله: { ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ } ، وقرأ الآخرون: (وإن الله) بكسر الألف على الابتداء.

[20] قوله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ } ، أي: لا تعرضوا عنه، { وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ } ، القرآن ومواعظه.

[21] { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ } ، أي: يقولون بألسنتهم سمعنا بآذاننا ، وهم لا يسمعون، أي: لا يتعظون ، ولا ينتفعون بسماعهم فكأنهم لم يسمعوا.

[22] قوله تعالى: { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ } ، أي: شر من دب على وجه الأرض من خلق الله، { الصُّمُّ الْبُكْمُ } ، عن الحق فلا يسمعونه ، ولا يقولونه، { الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ } أمر الله عز وجل سماهم (دواب) لقلة انتفاعهم بعقولهم، كما قال تعالى: { أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ } ، قال ابن عباس : هم نفر من بنى عبد الدار بن قصي، كانوا يقولون: نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد ، فقتلوا جميعا بأحد، وكانوا أصحاب اللواء لم يسلم منهم إلا رجلان مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة .

[23] { وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ } أي: لأسمعهم سماع التفهم والقبول، { وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ } ، بعد أن علم أن لا خير فيهم ما انتفعوا بذلك، { لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ } ، لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره. وقيل: إنهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: أحيي لنا قصيا فإنه كان شيخا مباركا

حتى يشهد لك بالنبوة فنؤمن بك، فقال الله عز وجل: { وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ } كلام قصي { لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ } .

[24] قوله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ } ، يقول أجيبوهما بالطاعة، { إِذَا دَعَاكُمْ } ، الرسول صلى الله عليه وسلم، { لِمَا يُحْيِيكُمْ } ، أي: إلى ما يحييكم. قال السدي : هو الإيمان، لأن الكافر ميت فيحيا بالإيمان. وقال قتادة : هو القرآن فيه الحياة وبه النجاة والعصمة في الدارين. وقال مجاهد : هو الحق. وقال ابن إسحاق : هو الجهاد أعزكم الله به بعد الذل. وقال القتيبي : بل الشهادة قال الله تعالى في الشهداء: { بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } . « وروينا أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على أبي بن كعب رضي الله عنه ، وهو يصلي ، فدعاه ، فعجل أبي في صلاته، ثم جاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما منعك أن تجيبني إذ دعوتك؟ " قال: كنت في الصلاة، قال: لا أليس يقول الله عز وجل: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ } ؟ فقال: لا جرم يا رسول الله لا تدعوني إلا أجبت، وإن كنت مصليا » (1) ". قوله تعالى: { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ } ، قال سعيد بن جبير

(1) أخرجه الطبري في التفسير 13 / 467 وأخرجه بنحوه الترمذي في فضائل الأعمال 8 / 178 - 180 وقال: حديث حسن صحيح، والإمام أحمد في المسند 2 / 412, 413، وأخرجه البخاري بغير هذا السياق في التفسير 8 / 156.

وعطاء : يحول بين المؤمن والكفر وبين الكافر والإيمان. وقال الضحاك : يحول بين الكافر والطاعة، ويحول بين المؤمن والمعصية. وقال مجاهد : يحول بين المرء وقلبه فلا يعقل ، ولا يدري ما يعمل. وقال السدي : يحول بين الإنسان وقلبه ، فلا تستطيع أن يؤمن ، ولا أن يكفر إلا بإذنه. وقيل: هو أن القوم لما دعوا إلى القتال في حالة الضعف ساءت ظنونهم ، واختلجت صدورهم فقيل لهم: قاتلوا في سبيل الله ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه فيبدل الخوف أمنا والجبن جرأة. { وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } ، فيجزيكم بأعمالكم. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول. « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قالوا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: « القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف شاء » (1) .

(1) أخرجه الإمام أحمد في المسند 3 / 112, 257 والترمذي في القدر 6 / 349، وأخرجه مسلم من رواية عبد الله بن عمرو في القدر رقم (3654) 4 / 2045 وذكره البغوي في مصابيح السنة 1 / 141.

[25] { وَاتَّقُوا فِتْنَةً } ، اختبارا وبلاء { لَا تُصِيبَنَّ } , قوله: { لَا تُصِيبَنَّ } ليس بجزاء محض، ولو كان جزاء لم تدخل فيه النون، لكنه نفي، وفيه طرف من الجزاء كقوله تعالى: { يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ } ، وتقديره: واتقوا فتنة إن لم تتقوها أصابتكم، فهو كقول القائل: انزل على الدابة لا تطرحك ، ولا تطرحنك، فهذا جواب الآمر بلفظ النفي، معناه إن تنزل لا تطرحك. قال المفسرون: نزلت هذه الآية في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعناه: اتقوا فتنة تصيب الظالم وغير الظالم. قال

الحسن : نزلت في علي وعمار وطلحة والزبير رضي الله عنهم. قال الزبير : لقد قرأنا هذه الآية زمانا ، وما أرانا من أهلها ، فإذا نحن المعنيون بها، يعني ما كان يوم الجمل. وقال السدي، ومقاتل والضحاك وقتادة : هذا في قوم مخصوصين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابتهم الفتنة يوم الجمل. وقال ابن عباس : أمر الله عز وجل المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم ، فيعمهما الله بعذاب يصيب الظالم وغير الظالم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الله لا يعذب العامة

بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه ، فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة » (1) . وقال ابن زيد : أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. « ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، فمن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به » (2) قوله: { لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً } يعني العذاب، { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } .

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في المسند 4 / 192 والطحاوي في مشكل الآثار 2 / 66 وعبد الله بن المبارك في الزهد رقم 1352 ص 476 والمصنف في شرح السنة 14 / 346 .
(2) أخرجه البخاري في الفتن 13 / 29 وفي الأنبياء وفي المناقب ومسلم في الفتن رقم (2886) 4 / 2212 والمصنف في شرح السنة 15 / 22.

[26] قوله تعالى: { وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ } ، يقول: اذكروا يا معاشر المهاجرين إذ أنتم قليل في العدد مستضعفون في أرض مكة في ابتداء الإسلام { تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ } ، يذهب بكم الناس, يعني: كفار مكة. وقال عكرمة : كفار العرب. وقال وهب : فارس والروم، { فَآوَاكُمْ } ، إلى المدينة، { وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ } ، أي: قواكم يوم بدر بالأنصار. وقال الكلبي : قواكم يوم بدر بالملائكة، { وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ } ، يعني: الغنائم أحلها لكم ، ولم يحلها لأحد قبلكم، { لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } .

[27] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ } ، قال السدي : كانوا يسمعون الشيء من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيفشونه، حتى يبلغ المشركين. وقال الزهري والكلبي : نزلت الآية في أبي لبابة هارون بن عبد المنذر الأنصاري من بني عوف بن مالك، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما حاصر يهود بني قريظة قالوا: أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر ، وكان مناصحا لهم لأن ماله وولده وعياله كانت عندهم، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم وآتاهم فقالوا له: يا أبا لبابة ما ترى أننزل على حكم سعد بن معاذ ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه أنه الذبح فلا تفعلوا، قال أبو لبابة : والله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشد نفسه على سارية من سواري المسجد وقال: والله لا أبرح ، ولا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت ، أو يتوب الله علي، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره، قال: أما لو جاءني لاستغفرت له فأما إذ فعل ما فعل فإني لا أطلقه حتى يتوب الله عليه، فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ، ولا شرابا حتى خر

مغشيا عليه ، ثم تاب الله عليه، فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك، فقال: لا والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني بيده، فجاءه فحله بيده، ثم قال أبو لبابة ": يا رسول الله إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب ، وأن أنخلع من مالي كله، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يجزيك الثلث فتصدق به » ، فنزلت فيه { لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ } ، { وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ } أي: ولا تخونوا أماناتكم، { وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } ، أنها أمانة. وقيل: وأنتم تعلمون أن ما فعلتم من الإشارة إلى الحلق خيانة. قال السدي : إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم. وقال ابن عباس : لا تخونوا الله بترك فرائضه والرسول بترك سنته ، وتخونوا أماناتكم. قال ابن عباس : هي ما يخفى عن أعين الناس من فرائض الله، والأعمال التي ائتمت الله العباد عليها. قال قتادة: اعلموا أن دين الله أمانة ، فأدوا إلى الله عز وجل ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده، ومن كانت عليه أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

[28] { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ } ، قيل: هذا أيضا في أبي لبابة ، وذلك أن أمواله وأولاده كانوا في بني قريظة، فقال ما قال خوفا عليهم. وقيل: هذا في جميع الناس { وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } ، لمن نصح لله ولرسوله وأدى أمانته.
[29] عز وجل: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ } ، بطاعته وترك معصيته، { يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا } ، قال مجاهد : مخرجا في الدنيا والآخرة. وقال مقاتل بن حيان : مخرجا في الدين من الشبهات، وقال عكرمة : نجاة أي يفرق بينكم وبين ما تخافون. وقال الضحاك . بيانا. وقال ابن إسحاق : فصلا بين الحق والباطل يظهر الله به حقكم ، ويطفئ باطل من خالفكم، والفرقان مصدر كالرجحان والنقصان، { وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ } ، يمح عنكم ما سلف من ذنوبكم، { وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } .

[30] قوله تعالى: { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، هذه الآية معطوفة على قوله: { وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ } واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا { وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ } لأن هذه السورة مدنية وهذا المكر والقول إنما كانا بمكة، ولكن الله ذكرهم بالمدينة كقوله تعالى: { إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ } وكان هذا المكر على ما ذكره ابن عباس وغيره من أهل التفسير: أن قريشا فرقوا لما أسلمت الأنصار أن يتفاقم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمع نفر من كبارهم في دار الندوة ليتشاوروا في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبو جهل : أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شابا نسيبا وسيطا فتيا ، ثم يعطى كل فتى منهم سيفا صارما، ثم يضربوه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ، ولا أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها، وأنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل ، فتؤدي قريش ديته، فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخبره بذلك ، وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأذن الله له عند ذلك بالخروج إلى المدينة، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي

طالب أن ينام في مضجعه ، وقال له: اتشح ببردتي هذه فإنه لن يخلص إليك منهم أمر تكرهه، ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخذ قبضة من تراب ، فأخذ الله أبصارهم عنه، فجعل ينثر التراب على رؤوسهم ، وهو يقرأ: { إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا } إلى قوله : { فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ } ، ومضى إلى الغار

من ثور هو وأبو بكر ، وخلَّف عليًّا بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده ، وكانت الودائع تودع عنده صلى الله عليه وسلم لصدقه وأمانته، وبات المشركون يحرسون عليا في فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسبون أنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فرأوا عليا رضي الله عنه، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فاقتصوا أثره ، وأرسلوا في طلبه ، فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخله لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاثا ، ثم قدم المدينة، فذلك قوله تعالى: { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، { لِيُثْبِتُوكَ } ، ليحبسوك ، ويسجنوك ، ويوثقوك، { أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ } ، قال الضحاك : يصنعون ، ويصنع

الله، والمكر التدبير وهو من الله التدبير بالحق. وقيل: يجازيهم جزاء المكر { وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } .
[31] { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا } ، يعني النضر بن الحارث ، { قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا } ، وذلك أنه كان يختلف تاجرا إلى فارس والحيرة فيسمع أخبار رستم وإسفنديار ، وأحاديث العجم ، ويمر باليهود والنصارى فيراهم يقرؤون التوراة والإنجيل ، ويركعون ، ويسجدون، فجاء إلى مكة فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ، ويقرأ القرآن فقال النضر : قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا، { إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } ، أخبار الأمم الماضية وأسماؤهم ، وما سطر الأولون في كتبهم، والأساطير: جمع أسطورة، وهي المكتوبة، من قولهم : سطرت أي : كتبت.

[32] قوله تعالى: { وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ } ، الآية نزلت في النضر بن الحارث من بني عبد الدار قال: اللهم إن كان هذا الذي يقول محمد هو الحق من عندك، (والحقَّ) نصب بخبر كان، وهو عماد وصلة: { فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ } ، كما أمطرتها على قوم لوط، { أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } ، أي: ببعض ما عذبت به الأمم، وفيه نزل: { سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ } ، وقال عطاء : لقد نزل في النضر بن الحارث بضع عشرة آية ، فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر، وروى أنس رضي الله عنه أن الذي قاله أبو جهل لعنه الله.

[33] قوله تعالى: { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ } ، اختلفوا في معنى هذه الآية، فقال محمد بن إسحاق : هذا حكاية عن المشركين أنهم قالوها ، وهي متصلة بالآية الأولى، وذلك أنهم كانوا يقولون : إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفره، ولا يعذب أمة ونبيها معها، فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم يذكر جهالتهم وغرتهم واستفتاحهم عمى أنفسهم { وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ } الآية، وقالوا: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم { وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } ، ثم قال ردا عليهم : { وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ } وإن كنت بين أظهرهم وإن كانوا يستغفرون، وهم يصدون عن المسجد الحرام. وقال الآخرون: هذا كلام مستأنف يقول الله عز وجل إخبارا عن نفسه: { وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ } ، واختلفوا في تأويلها، فقال الضحاك وجماعة: تأويلها : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم مقيم بين أظهرهم، قالوا: أنزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مقيم بمكة، ثم خرج من بين أظهرهم ، وبقيت بها بقية من المسلمين

يستغفرون، فأنزل الله تعالى: { وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } ، ثم خرج أولئك من بينهم فعذبوا وأذن ، الله في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم، وقال أبو موسى الأشعري : كان فيكم أمانان، وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون، فأما النبي صلى الله عليه وسلم فقد مضى والاستغفار كائن فيكم إلى يوم القيامة.

[34] قوله تعالى: { وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ } أي: وما يمنعهم من أن يعذبوا، يريد بعد خروجك من بينهم، { وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } ، أي: يمنعون المؤمنين من الطواف بالبيت. وقيل: أراد بالعذاب الأول عذاب الاستئصال، وأراد بقوله: (وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ) أي: بالسيف. وقيل: أراد بالأول عذاب الدنيا، وبهذه الآية عذاب الآخرة. وقال الحسن : الآية الأولى وهي قوله: { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ } منسوخة بقوله تعالى. (وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ)، { وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ } قال الحسن : كان المشركون يقولون: نحن أولياء المسجد الحرام، فرد الله عليهم بقوله: { وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ } أي: أولياء البيت، { إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ } أي. ليس أولياء البيت، { إِلَّا الْمُتَّقُونَ } ، يعني: المؤمنين الذين يتقون الشرك، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } قوله تعالى: { وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً } ، قال ابن عباس والحسن : المكاء: الصفير، وهي في اللغة اسم طائر أبيض يكون بالحجاز له

صفير، كأنه قال: إلا صوت مكاء، والتصدية التصفيق. قال ابن عباس : كانت قريش تطوف بالبيت وهم عراة يصفرون ، ويصفقون، فالمكاء: جعل الأصابع في الشدق، والتصدية: الصفير، ومنه الصدى الذي يسمعه المصوت في الجبل. قال سعيد بن جبير : التصدية صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام وعن الدين، والصلاة وهي على هذا التأويل: التصددة بدالين، فقلبت إحدى الدالين يا ء كما يقال: تظنيت من الظن
وتقضَّى البازي إذا البازي كسر ...

أي تقضض البازي. قال ابن الأنباري : إنما سماه صلاة لأنهم أمروا بالصلاة في المسجد الحرام ، فجعلوا ذلك صلاتهم { فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } .

[36] قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ، أي: ليصرفوا عن دين الله. قال الكلبي ومقاتل: نزلت في المطعمين يوم بدر ، وكانوا اثني عشر رجلا من قريش ، وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر. وقال الحكم بن عيينة . نزلت في أبي سفيان أنفق على المشركين يوم أحد أربعين أوقية. قال الله تعالى: { فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً } ، يريد ما أنفقوا في الدنيا يصير حسرة عليهم في الآخرة، { ثُمَّ يُغْلَبُونَ } ، ولا يظفرون { وَالَّذِينَ كَفَرُوا } ، منهم، { إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ } ، خص الكفار لأن منهم من أسلم.

[37] { لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ } ، في سبيل الشيطان، { مِنَ الطَّيِّبِ } ، يعني الكافر من المؤمن فينزل المؤمن الجنان والكافر النيران. وقال الكلبي : العمل الخبيث من العمل الصالح الطيب، فيثيب على الأعمال الصالحة الجنة، وعلى الأعمال الخبيثة النار، وقيل: يعني الإنفاق الخبيث في سبيل الشيطان من الإنفاق الطيب في سبيل الله. { وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ } ، أي: فوق بعض، { فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا } ، أي: يجمعه. ومنه السحاب المركوم، وهو

المجتمع الكثيف، فيجعله في جهنم { أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } ، الذين خسرت تجارتهم، لأنهم اشتروا بأموالهما عذاب الآخرة.
[38] { قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا } ، عن الشرك { يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ } ، أي: ما مضى من ذنوبهم قبل الإسلام، { وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ } ، في نصر الله أنبياءه وإهلاك أعدائه. قال يحيى بن معاذ الرازي : توحيد لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر أرجو ألا يعجز عن هدم ما بعده من ذنب.

[39] { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ } أي: شرك. قال الربيع : حتى لا يفتن مؤمن عن دينه { وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ } ، أي: ويكون الدين خالصا لله لا شرك فيه، { فَإِنِ انْتَهَوْا } ، عن الكفر، { فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } ، قرأ يعقوب (تعملون) بالتاء ، وقرأ الآخرون بالياء.
[40] { وَإِنْ تَوَلَّوْا } ، عن الإيمان ، وعادوا إلى قتال أهله، { فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ } ، ناصركم ومعينكم { نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } ، أي: الناصر.

[41] قوله تعالى: { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ } ، الآية، الغنيمة والفيء اسمان لمال يصيبه المسلمون من أموال الكفار، فذهب جماعة إلى أنهما واحد. وذهب قوم على أنهما مختلفان، فالغنيمة: ما أصابه المسلمون منهم عنوة بقتال، والفيء ما كان عن صلح بغير قتال، فذكر الله عز وجل في هذه الآية حكم الغنيمة فقال: { فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ } ، فذهب أكثر المفسرين والفقهاء إلى أن قوله: (لله) افتتاح كلام على سبيل التبرك ، وإضافة هذا المال إلى نفسه لشرفه، وليس المراد منه أن سهما من الغنيمة لله مفردا، فإن الدنيا والآخرة كلها لله عز وبر. وهو قول الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم والشعبي ، قالوا: سهم الله وسهم الرسول واحد. والغنيمة تقسم خمسة أخماس، أربعة أخماسها لمن قاتل عليها، والخمس لخمسة أصناف كما ذكر الله عز وجل، { وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } ، قال بعضهم: يقسم الخمس على ستة أسهم، وهو قول أبي العالية ، سهم لله: فيصرف إلى الكعبة. والأول أصح أن خمس الغنيمة يقسم على خمسة أسهم، سهم كان لرسول الله صلى الله

عليه وسلم في حياته واليوم هو لمصالح المسلمين وما فيه قوة الإسلام، وهو قول الشافعي رحمه الله، وروى الأعمش عن إبراهيم قال: كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يجعلان سهم النبي صلى الله عليه وسلم في الكراع والسلاح. وقال قتادة : هو للخليفة بعده. وقال بعضهم: سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مردود في الخمس والخمس لأربعة أصناف. قوله: { وَلِذِي الْقُرْبَى } أراد أن سهما من الخمس لذوي القربى وهم أقارب النبي صلى الله عليه وسلم، واختلفوا فيهم فقال قوم: جميع قريش. وقال قوم: هم الذين لا تحل لهم الصدقة. وقال مجاهد وعلي بن الحسين : هم بنو هاشم. وقال الشافعي : هم بنو هاشم وبنو المطلب وليس لبني عبد شمس ولا لبني نوفل منه شيء، وإن كانوا إخوة، والدليل عليه ما ورد عن جبير بن مطعم عن أبيه قال: « قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سهما ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطلب، ولم يعط منه أحدا من بني عبد شمس ولا بني نوفل شيئا » (1)
واختلف أهل العلم في سهم ذوي القربى هل هو ثابت اليوم؟ فذهب أكثرهم إلى أنه ثابت، وهو قول مالك والشافعي ، وذهب أصحاب الرأي إلى أنه غير ثابت، وقالوا: سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسهم ذوي

____

(1) أخرجه الشافعي في المسند 2 / 112 والمصنف في شرح السنة 11 / 126

القربى مردودان في الخمس وخمس الغنيمة لثلاثة أصناف: اليتامى والمساكين وابن السبيل. وقال بعضهم: يعطى للفقراء منهم دون الأغنياء، والكتاب والسنة يدلان على ثبوته ، والخلفاء بعد الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يعطونه، ولا يفضل فقير على غني ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده كانوا يعطون العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله، فألحقه الشافعي بالميراث الذي يستحق باسم القرابة، غير أنه يعطي القريب والبعيد. وقال: يفضل الذكر على الأنثى فيعطى الرجل سهمين والأنثى سهما واحدا. قوله: { وَالْيَتَامَى } وهو جمع اليتيم، واليتيم الذي له سهم في الخمس هو الصغير المسلم الذي لا أب له إذا كان فقيرا، { وَالْمَسَاكِينِ } هم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين، { وَابْنِ السَّبِيلِ } هو المسافر البعيد عن ماله، فهذا مصرف خمس الغنيمة ، ويقسم أربعة أخماس الغنيمة بين الغانمين الذين شهدوا الوقعة، للفارس منهم ثلاثة أسهم ، وللراجل سهم واحد. عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أسهم لرجل ولفرسه ثلاثة أسهم، سهما له وسهمين لفرسه » (1) وهذا قول أكثر أهل العلم ، وإليه ذهب الثوري والأوزاعي ومالك وابن المبارك والشافعي وأحمد

____

(1) أخرجه البخاري في الجهاد 6 / 67 ومسلم في الجهاد والسير رقم (1762) 3 / 1382 والمصنف في شرح السنة 11 / 101.

وإسحاق ، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: للفارس سهمان ، وللراجل سهم واحد ، ويرضخ للعبيد والنسوان والصبيان إذا حضروا القتال، ويقسم العقار الذي استولى عليه المسلمون كالمنقول. وعند أبي حنيفة : يتخير الإمام في العقار بين أن يقسمه بينهم وبين أن يجعله وقفا على المصالح. وظاهر الآية لا يفرق بين العقار والمنقول، ومن قتل مشركا في القتال يستحق سلبه من رأس الغنيمة، لما روي عن أبي قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم حنين: « من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه » (1) والسلب: كل ما يكون على المقتول من ملبوس وسلاح وفرسه الذي هو راكبه، ويجوز للإمام أن ينقل بعض الجيش من الغنيمة لزيادة عناء وبلاء يكون منهم في الحرب يخصهم به من بين سائر الجيش ، ويجعله أسوة الجماعة في سهمان الغنيمة. عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان ينفل بعض من يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوف قسم عامة الجيش » (2) واختلفوا في أن النفل من أين يعطى؟ فقال قوم: من خمس الخمس سهم النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قول سعيد بن المسيب ، وبه قال الشافعي ، وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ما لي مما أفاء الله عليكم إلا

____

(1) رواه البخاري في المغازي 8 / 34،35 والجهاد ومسلم في الجهاد والسير رقم (1751) 3 / 1370 والمصنف في شرح السنة 11 / 105.
(2) أخرجه البخاري في فرض الخمس 6 / 237 ومسلم في الجهاد والسير رقم (.173) 3 / 1369 والمصنف في شرح السنة 11 / 112.

الخمس والخمس مردود فيكم » (1) وقال قوم: هو من الأربعة الأخماس بعد إفراز الخمس كسهام الغزاة، وهو قول أحمد وإسحاق ، وذهب بعضهم إلى أن

النفل من رأس الغنيمة قبل الخمس كالسلب للقاتل. وأما الفيء وهو ما أصابه المسلمون من أموال الكفار بغير إيجاف خيل ولا ركاب، بأن صالحهم على مال يؤدونه ومال الجزية وما يؤخذ من أموالهم إذا دخلوا دار الإسلام للتجارة أو يموت واحد منهم في دار الإسلام ولا وارث له، فهذا كله فيء، ومال الفيء كان خالصا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته. قال عمر رضي الله عنه: إن الله قد خص رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الفيء بشيء لم يعطه أحدا غيره، ثم قرأ: { وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ } إلى قوله: { قَدِيرٌ } ، وكانت هذه خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينفق على أهله وعياله نفقة سنتهم من هذا المال، ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله عز وجل، واختلف أهل العلم في مصرف الفيء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال قوم: هو للأئمة بعده. وللشافعي فيه قولان، أحدهما: للمقاتلة الذين أثبتت أساميهم في ديوان الجهاد لأنهم القائمون مقام النبي صلى الله عليه وسلم في

____

(1) رواه أبو داود في كتاب الجهاد 4 / 62 والنسائي في كتاب الفيء 7 / 131، الإمام أحمد في مسنده ج 4 / 128.

إرهاب العدو. والقول الثاني: أنه لمصالح المسلمين ويبدأ بالمقاتلة فيعطون منه كفايتهم، ثم بالأهم فالأهم من المصالح. واختلف أهل العلم في تخميس الفيء، فذهب الشافعي إلى أنه يخمس فخمسه لأهل الغنيمة على خمسة أسهم وأربعة أخماسه للمقاتلة وللمصالح. وذهب الأكثرون إلى أن الفيء لا يخمس بل مصرف جميعه واحد، ولجميع المسلمين فيه حق قوله تعالى: { إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ } ، قيل: أراد اعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسة وللرسول , يأمر فيه بما يريد، فاقبلوه إن كنتم آمنتم بالله { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا } ، أي: إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا على عبدنا، يعني: قوله { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ } ، { يَوْمَ الْفُرْقَانِ } ، يعني يوم بدر، فرق الله بين الحق والباطل، وهو { يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ } ، حزب الله وحزب الشيطان، وكان يوم الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } على نصركم مع قلتكم وكثرتهم.

[42] { إِذْ أَنْتُمْ } ، أي: إذ أنتم نزول يا معشر المسلمين، { بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا } ، أي: بشفير الوادي الأدنى إلى المدينة، والدنيا. تأنيث الأدنى، { وَهُمْ } ، يعني عدوكم من المشركين، { بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى } بشفير الوادي الأقصى من المدينة، والقصوى تأنيث الأقصى قرأ ابن كثير وأهل البصرة (بِالْعِدْوَةِ) بكسر العين فيهما والباقون بضمهما، وهما لغتان: كالكِسْوَةِ والْكُسْوَة والرِّشْوَة والرُّشْوَة. { وَالرَّكْبُ } ، يعني: العير يريد أبا سفيان وأصحابه، { أَسْفَلَ مِنْكُمْ } ، أي: في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر، على ثلاثة أميال من بدر، { وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ } ، وذلك أن المسلمين خرجوا ليأخذوا العير ، وخرج الكفار ليمنعوها، فالتقوا على غير ميعاد، فقال تعالى: { وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ } ، لقلتكم وكثرة عدوكم، { وَلَكِنْ } جمعكم على غير ميعاد، { لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا } ، من نصر أوليائه وإعزاز دينه وإهلاك أعدائه، { لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ } ، أي: ليموت من يموت على بينة رآها وعبرة عاينها ،

وحجة قامت عليه. { وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ } ، ويعيش من يعيش على بينة لوعده: { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً } . وقال محمد بن إسحاق : معناه ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه، ويؤمن من آمن على مثل ذلك، فالهلاك هو الكفر والحياة هي الإيمان. وقال قتادة : ليضل من ضل عن بينة ، ويهدي من اهتدى على بينة. قرأ أهل الحجاز وأبو بكر ويعقوب (حَيِيَ) بيائين مثل (خَشِيَ) وقرأ الآخرون بياء واحدة مشددة ؛ لأنه مكتوب بياء واحدة. { وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ } ، لدعائكم، { عَلِيمٌ } بنياتكم.
[43] قوله تعالى: { إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ } يريك يا محمد المشركين، { فِي مَنَامِكَ } ، أي: نومك. وقال الحسن : في منامك أي : في عينك، لأن العين موضع النوم. { قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ } ، لجبنتم { وَلَتَنَازَعْتُمْ } ، أي: اختلفتم { فِي الْأَمْرِ } ، أي: في الإحجام والإقدام، { وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ } ، أي: سلمكم من المخالفة والفشل، { إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } قال ابن عباس : علم ما في صدوركم من الحب لله عز وجل.

[44] { وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا } ، قال مقاتل : وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في المنام أن العدو قليل قبل لقاء العدو، وأخبر أصحابه بما رأى، فلما التقوا ببدر قلل الله المشركين في أعين المؤمنين. قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلا فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفا. { وَيُقَلِّلُكُمْ } ، يا معشر المؤمنين { فِي أَعْيُنِهِمْ } ، قال، السدي : قال ناس من المشركين: إن العير قد انصرفت .
فارجعوا، فقال أبو جهل : الآن إذ برز لكم محمد وأصحابه؟ فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم، إنما محمد وأصحابه أكلة جزور، فلا تقتلوهم ، واربطوهم بالحبال. يقوله من القدرة التي في نفسه. قال الكلبي . استقل بعضهم بعضا ليجترئوا على القتال، فقلل المشركين في أعين المؤمنين لكي لا يجبنوا، وقلل المؤمنين في أعين المشركين لكي لا يهربوا، { لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا } ، من إعلاء الإسلام وإعزاز أهله وإذلال الشرك وأهله. { كَانَ مَفْعُولًا } كائنا، { وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ }

[45] قوله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً } أي: جماعة كافرة { فَاثْبُتُوا } ، لقتالهم، { وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا } ، أي: ادعوا الله بالنصر والظفر بهم، { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } ، أي: كونوا على رجاء الفلاح.

[46] قوله تعالى: { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا } ، لا تختلفوا، { فَتَفْشَلُوا } ، أي: تجبنوا وتضعفوا، { وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } ، قال مجاهد : نصرتكم. وقال السدي : جراءتكم وجدكم. وقال مقاتل بن حيان : حدتكم. وقال النضر بن شميل : قوتكم. وقال الأخفش : دولتكم. والريح هاهنا كناية عن نفاذ الأمر وجريانه على المراد، تقول العرب: هبت ريح فلان إذا أقبل أمره على ما يريد. قال قتادة بن زيد : هو ريح النصر لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله عز وجل تضرب وجوه العدو. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » (1) وعن النعمان بن مقرن قال: « شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان إذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تزول الشمس ، وتهب الرياح ، وينزل النصر » (2) قوله عز وجل: { وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا ،

واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » (3) .

____

(1) رواه البخاري في الاستسقاء 2 / 520 والمغازي، ومسلم في الاستسقاء رقم (900) 2 / 617 ورواه الإمام أحمد في مسنده ج 1 / 223، 228 والمصنف في شرح السنة 4 / 387.
(2) أخرجه أبو داود في الجهاد 4 / 7 والترمذي في السير 5 / 238 وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم 2 / 116 وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي والإمام أحمد في المسند 5 / 444, 445
(3) رواه البخاري في الجهاد 6 / 130 ومسلم في الجهاد والسير رقم (1742) 3 / 1362 والمصنف في شرح السنة 11 / 38, 39.

[47] يقوله تعالى: { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا } ، فخرا وأشرا، { وَرِئَاءَ النَّاسِ } ، قال الزجاج : البطر الطغيان في النعمة وترك شكرها، الرياء: إظهار الجميل ليرى وإبطان القبيح، { وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } ، نزلت في المشركين حين أقبلوا إلى بدر ، ولهم بغي وفخر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادلك ، وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني » ، قالوا: لما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم فقد نجاها الله، فارجعوا، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرا،- وكان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام- فنقيم بها ثلاثا فننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقي الخمر ، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدا، فوافوها فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم ، وأمرهم بإخلاص النية والحسبة في نصر دينه ومؤازرة نبيه صلى الله عليه وسلم.

[48] قوله تعالى: { وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ } ، وكان تزيينه أن قريشا لما اجتمعت للسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يثنيهم ، فجاء إبليس في جند من الشياطين معه رايته ، فتبدى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، { وَقَالَ } ، لهم { لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ } ، أي: مجير لكم من كنانة, { فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ } , أي: التقى الجمعان رأي إبليس أثر الملائكة , نزلوا من السماء ، وعلم أنه لا طاقة له بهم , { نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ } قال الضحاك : ولى مدبرا. وقال النضر بن شميل : رجع القهقرى على قفاه هاربا . قال الكلبي : لما التقوا كان إبليس في صف المشركين على صورة سراقة آخذ بيد الحارث بن هشام , فنكص على عقبيه, فقال له الحارث : أفرارا عن غير قتال؟ فجعل يمسكه ، فدفع في صدره ، وانطلق ، وانهزم الناس , فلما قدموا مكة قالوا : هزم الناس سراقة ، فبلغ ذلك سراقة , فقال : بلغني أنكم تقولون إني هزمت الناس, فوالله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم, فقالوا : أما أتيتنا في يوم كذا ؟ فحلف لهم , فلما أسلموا علموا أن ذلك

كان الشيطان . قال الحسن في قوله : { وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ } , قال : رأى إبليس جبريل معتجرا ببرد يمشي بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم, وفي يده اللجام يقود الفرس ما ركب بعد. وقال قتادة : كان إبليس يقول: إني أرى ما لا ترون وصدق . وقال : { إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ } وكذب

والله ما به مخافة الله, ولكن علم أنه لا قوة به ولا منعة ، فأوردهم وأسلمهم, وذلك عادة عدو الله لمن أطاعه إذا التقى الحق والباطل أسلمهم ، وتبرأ منهم . قال عطاء : إني أخاف الله أن يهلكني فيمن يهلك .
وقال الكلبي : خاف أم يأخذه جبريل عليه السلام ، ويعرف حالة فلا يطيعوه. قيل : معناه إني أخاف الله أي : أعلم صدق وعده لأوليائه لأنه كان على ثقة من أمره. { وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ } . قيل : معناه : إني أخاف الله عليكم والله شديد العقاب , وقيل: انقطع الكلام عند قوله : أخاف الله ، ثم يقول الله: والله شديد العقاب.

[49] قوله تعالي : { إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } شك ونفاق , { غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ } , يعني : غر المؤمنين دينهم هؤلاء قوم كانوا مستضعفين بمكة قد أسلموا ، وحبسهم أقرباؤهم من الهجرة , فلما خرجت قريش إلي بدر أخرجهم كرها, فلما نظروا إلي قلة المسلمين ارتابوا ، وارتدوا, وقالوا : غر هؤلاء دينهم ، فقتلوا جميعا قال الله تعالي : { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } , أي: ومن يسلم أمره إلي الله ، ويثق به , { فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ } , قوي يفعل بأعدائه ما يشاء , { حَكِيمٌ } لا يستوي بين وليه وعدوه.

[50] { وَلَوْ تَرَى } , يا محمد , { إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ } , أي: يقبضون أرواحهم. اختلفوا فيه, قيل : هذا عند الموت تضرب الملائكة وجوه الكفار وأدبارهم بسياط النار. وقيل: أراد الذين قتلوا من المشركين ببدر كانت الملائكة يضربون { وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ } , وقال سعيد بن جبير ومجاهد : يريد أستاههم لكن الله حيي كني. قال ابن عباس : كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم بالسيوف, وإذا ولوا أدركتهم الملائكة ، فضربوا أدبارهم. وقال ابن جريج : يريد ما أقبل منهم ، وما أدبر, أي : يضربون أجسادهم كلها , والمراد بالتوفي القتل. { وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } أي : وتقول لهم الملائكة مقامع من حديد يضربون بها الكفار, فتلتهب النار في جراحاتهم, فذلك قوله تعالي : { وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } . وقال الحسن : هذا يوم القيامة تقول لهم خزنة جهنم : ذوقوا عذاب الحريق. وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يقولون لهم ذلك بعد الموت .

[51] { ذَلِكَ } , أي : ذلك الضرب الذي وقع بكم , { بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ } , أي : بما كسبت أيديكم , { وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } .
[52] { كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ } كفعل آل فرعون .
وصنيعهم وعادتهم، معناه: أن عادة هؤلاء في كفرهم كعادة آل فرعون . قال ابن عباس : هو أن آل فرعون أيقنوا أن موسى نبي من الله فكذبوه، كذلك هؤلاء جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالصدق فكذبوه، فأنزل الله بهم عقوبة كما أنزل بآل فرعون . { وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } ، أي: { كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ }

[53] { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } ، أراد أن الله تعالى لا يغير ما أنعم على قومٍ حتى يغيروا هم ما بهم بالكفران وترك الشكر، فإذا فعلوا ذلك غير الله ما بهم، فسلبهم النعمة. وقال السدي : نعمة الله محمد صلى الله عليه وسلم أنعم الله به على قريش وأهل مكة، فكذبوه ، وكفروا به ، فنقله الله إلى الأنصار، {وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }
[54] { كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ } ،كصنع آل فرعون, { وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } , من

كفار الأمم, { كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ } , أهلكنا بعضهم بالرجفة ، وبعضهم بالخسف ، وبعضهم بالمسخ ، وبعضهم بالريح ، وبعضهم بالغرق، فكذلك أهلكنا كفار بدر بالسيف لما كذبوا بآيات ربهم، { وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ } ، يعني الأولين والآخرين.
[55] { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } ، قال الكلبي ومقاتل : يعني يهود بني قريظة منهم كعب بن الأشرف وأصحابه.

[56] { الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ } ، يعني عاهدتهم ، وقيل: أي: عاهدت معهم. وقيل: أدخل من لأن معناه أخذت منهم العهد، { ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ } ، وهم بنو قريظة نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعانوا المشركين بالسلاح على قتال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا ، فعاهدهم الثانية، فنقضوا العهد, ومالؤوا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق، وركب كعب بن الأشرف إلى مكة ، فوافقهم على مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم، { وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ } ، لا يخافون الله تعالى في نقض العهد.

[57] { فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ } ، تجدنهم، { فِي الْحَرْبِ } , قال مقاتل : إن أدركتهم في الحرب وأسرتهم، { فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ } ، قال ابن عباس : فنكل بهم من وراءهم. وقال سعيد بن جبير : أنذر بهم من خلفهم. وأصل التشريد: التفريق والتبديد، معناه فرق بهم جمع كل ناقض، أي: افعل بهؤلاء الذين نقضوا عهدك ، وجاؤوا لحربك فعلا من القتل والتنكيل، يفرق منك ، ويخافك من خلفهم من أهل مكة واليمن، { لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } ، يتذكرون ، ويعتبرون فلا ينقضون العهد.
[58] { وَإِمَّا تَخَافَنَّ } أي: تعلمن يا محمد ، { مِنْ قَوْمٍ } ، معاهدين، { خِيَانَةً } ، نقض عهد بما يظهر لكم منهم من آثار الغدر كما ظهر من "قريظة والنضير، { فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ } ، فاطرح إليهم عهدهم، { عَلَى سَوَاءٍ } ، يقول: أعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواء، فلا يتهموا أنك نقضت العهد بنصب الحرب معهم، { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ }

[59]، قوله تعالى: { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا } ، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة وحفص { يَحْسَبَنَّ } بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء، { سَبَقُوا } أي: فاتوا، نزلت في الذين انهزموا يوم بدر من المشركين، فمن قرأ بالياء يقول { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، أنفسهم سابقين فائتين من عذابنا، ومن قرأ بالتاء فعلى الخطاب. قرأ ابن عامر : (أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ) بفتح الألف، أي: لأنهم لا يعجزون، ولا يفوتونني، وقرأ الآخرون بكسر الألف على الابتداء.

[60] قوله تعالى: { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ } ، الإعداد: اتخاذ الشيء لوقت الحاجة. { مِنْ قُوَّةٍ } أي: من الآلات التي تكون لكم قوة عليهم من الخيل والسلاح. عن أبي علي ثمامة بن شفي أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر: « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ من قوة ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي » (1) وبهذا الإسناد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « ستفتح عليكم الروم ، ويكفيكم الله عز وجل فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه » (2) قوله: { وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ } ، يعني: ربطها واقتناءها

للغزو. وقال عكرمة : القوة الحصون ، ومن رباط الخيل الإناث. وروي عن خالد بن الوليد أنه كان لا يركب في القتال إلا الإناث لقلة صهيلها. وعن أبي محيريز قال: كان الصحابة رضي الله عنهم يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف وإناث الخيل عند البيات والغارات، عن عامر حدثنا عروة البارقي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، والأجر والمغنم » (3) .وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من احتبس فرسا في

---

(1) أخرجه مسلم في الإمارة رقم (1917) 3 / 1522
(2) أخرجه مسلم في الموضع السابق.
(3) أخرجه البخاري في الجهاد 6 / 56 مسلم في الإمارة (1872) 1493 .

سبيل الله إيمانا بالله وتصديقا بوعده، فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة » (1) { تُرْهِبُونَ بِهِ } ، تخوفون { عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ } ، أي: وترهبون آخرين، { مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ } ، قال مجاهد ومقاتل وقتادة : هم بنو قريظة. وقال السدي : هم أهل فارس. وقال الحسن وابن زيد : هم المنافقون، لا تعلمونهم لأنهم معكم يقولون: لا إله إلا الله.
وقيل: هم كفار الجن. { وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ } ، يوف لكم أجره، { وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } ، لا تنقص أجوركم.
[61] قوله تعالى: { وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ } ، أي: مالوا إلى الصلح، { فَاجْنَحْ لَهَا } ، أي: مل إليها ، وصالحهم. روي عن قتادة والحسن : أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: (اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) , { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } !ثق بالله, { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }

---

(1) أخرجه البخاري في الجهاد 6 / 57 المصنف في شرح السنة 10 / 388.

[62] { وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ } ، يغدروا ، ويمكروا بك. قال مجاهد : يعني بني قريظة. { فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ } ، كافيك الله، { هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ } ، أي: بالأنصار.
[63] { وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ } ، أي بين الأوس والخزرج كانت بينهم إحن وثارات في الجاهلية فصيرهم الله إخوانا بعد أن كانوا أعداء، { لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }
[64] قوله تعالى: { يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } ، قال سعيد بن جبير : أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة، ثم أسلم عمر بن الخطاب فتم به الأربعون، فنزلت هذه الآية ، واختلفوا في محل (مَنْ) فقال أكثر المفسرين محله خفض، عطفا على الكاف في قوله. { حَسْبُكَ اللَّهُ } وحسب من اتبعك، وقال بعضهم: هو رفع عطفا على اسم الله معناه: حسبك الله ومتبعوك من المؤمنين.

[65] قوله تعالى: { يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ } ، أي: حثهم على القتال. { إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ } ، رجلا, { صَابِرُونَ } , محتسبون, { يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ } من عدوهم يقهروهم، { وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ } ، صابرة محتسبة، { يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، ذلك { بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ } ، أي: إن المشركين يقاتلون على غير احتساب ، ولا طلب ثواب ، ولا يثبتون إذا صدقتموهم القتال خشية أن يقتلوا، وهذا خبر بمعنى الأمر ، وكان هذا يوم بدر

فرض الله على الرجل الواحد من المؤمنين قتال عشرة من الكافرين، فثقلت على المؤمنين، فخفف الله عنهم، فنزل:

[66] { الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا } ضعفا في الواحد عن قتال العشرة وفي المائة عن قتال الألف ط ، وقرأ أبو جعفر : ضُعَفَاءُ بفتح العين والمد على الجمع وقرأ الآخرون بسكون العين، { فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ } ، من الكفار، { وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } ، فرد من العشرة إلى الاثنين فإن كان المسلمون على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا. وقال سفيان قال ابن شبرمة : وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا.

[67] وقوله تعالى: { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى } ، قرأ أبو جعفر وأهل البصرة. تكون بالتاء والباقون بالياء، وقرأ أبو جعفر : (أسارَى)، والآخرون. (أسْرَى)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: « لما كان يوم بدر وجيء بالأسرى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما تقولون في هؤلاء؟ " فقال أبو بكر . يا رسول الله قومك وأهلك فاستبقهم ، واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار، وقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله كذبوك ، وأخرجوك قَدِّمْهُمْ نضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب ، فأدخلهم فيه ، ثم أضرم عليهم نارا، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم، ثم قال رسول الله: " أنتم اليوم عالة فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق ". قال ابن عباس : قال عمر بن الخطاب : فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يَهْوَ ما قلت، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء

تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأنزل الله تعالى: { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ }» (1) . قوله: { أَسْرَى } جمع أسير مثل قتلى وقتيل. قوله: { حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ } أي: يبالغ في قتال المشركين وأسرهم، { تُرِيدُونَ } ، أيها المؤمنون { عَرَضَ الدُّنْيَا } بأخذكم الفداء، { وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ } ، يريد لكم ثواب الآخرة بقهركم المشركين ونصركم دين الله عز وجل، { وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } ، وكان الفداء لكل أسير أربعين أوقية، والأوقية أربعون درهما. قال ابن عباس رضي الله عنهما. كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا ، واشتد سلطانهم أنزل الله في الأسارى: { فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً } ، فجعل الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في أمر الأسارى بالخيار إن شاؤوا قتلوهم وإن شاؤوا أعتقوهم، وإن شاؤوا استعبدوهم، وإن شاؤوا فادوهم.

---

(1) صحيح. أخرجه مسلم (1763 / 58) كتاب الجهاد والسير، وله شواهد كثيرة .

[68] قوله تعالى: { لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ } ، قال ابن عباس : كانت الغنائم حراما على الأنبياء والأمم فكانوا إذا أصابوا شيئا من الغنائم جعلوه

للقربان، فكانت تنزل نار من السماء فتأكله، فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون في الغنائم ، وأخذوا الفداء، فأنزل الله عز وجل: { لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ } ، يعني لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بأنه يحل لكم الغنائم. وقال الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير : لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحدا ممن شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم . وقال ابن جريج : لولا كتاب من الله سبق أنه لا يضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، وأنه لا يأخذ قوما فعلوا أشياء بجهالة. { لَمَسَّكُمْ } لنالكم وأصابكم، { فِيمَا أَخَذْتُمْ } ، من الفداء قبل أن تؤمروا به { عَذَابٌ عَظِيمٌ }

[69] { فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } , روى أنه لما نزلت الآية الأولى كف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أيديهم عما أخذوا من الفداء فنزل: { فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ } وروينا عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال. « أحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي » .

[70] قولة تعالى : { يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى } ، قرأ أبو عمرو وأبو جعفر : (من الأسارى) بالألف والباقون بلا ألف، نزلت في العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وكان أسر يوم بدر ، وكان قد خرج بعشرين أوقية من الذهب ليطعم بها الناحر، فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا ، وبقيت العشرون أوقية معه، فأخذت منه في الحرب، فكلم النبي صلى الله عليه وسلم أن يحتسب العشرين أوقية من فدائه فأبى ، وقال: « أَمَّا شيءٌ خرجْتَ تستعينُ به علينا فلا أتركه لك » ، وكلف فداء ابني أخيه عقيل ابن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال العباس : يا محمد تركتني أتكفف قريشا ما بقيت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة ، وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقثم "، يعني بنيه الأربعة، فقال له العباس : وما يدريك؟ قال: أخبرني به ربي عز وجل، قال العباس : أشهد أنك صادق وأن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله، ولم يطلع عليه أحد إلا الله عز وجل، » فذلك قوله تعالى: { يا أَيُّهَا النَّبِيُّ

قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى } الذين أخذتم منهم الفداء { إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا } ، أي: إيمانا، { يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ } , من الفداء، { وَيَغْفِرْ لَكُمْ } ، ذنوبكم { وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } ، قال العباس رضي الله عنه: فأبدلني الله عنها عشرين عبدا كلهم تاجر يضرب بمال كثير وأدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان عشرين أوقية، وأعطاني زمزم وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي عز وجل.
[71] قوله عز وجل: { وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ } ، يعني الأسارى، { فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ } ، ببدر، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } ، قال ابن جريج : أراد بالخيانة الكفر، أي: إن كفروا بك ، فقد كفروا بالله من قبل ، فأمكن منهم المؤمنين ببدر حتى قتلوهم ، وأسروهم، وهذا تهديد لهم إن عادوا إلى قتال المؤمنين ومعاداتهم.

[72] قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا } ، أي: هجروا قومهم وديارهم، يعني المهاجرين من مكة، { وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا } رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرين معه، أي: أسكنوهم

منازلهم { وَنَصَرُوا } أي: ونصروهم على أعدائهم ، وهم الأنصار رضي الله عنهم، { أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ } ، دون أقربائهم من الكفار. قيل: في العون والنصرة. وقال ابن عباس : في الميراث ، وكانوا يتوارثون بالهجرة، فكان المهاجرون والأنصار يتوارثون دون ذوي الأرحام، وكان من آمن ، ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة ، وانقطعت الهجرة ، وتوارثوا بالأرحام حيث ما كانوا، وصار ذلك منسوخا بقوله عز وجل: { وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ } ، { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ } ، يعني الميراث، { حَتَّى يُهَاجِرُوا } ، قرأ حمزة (ولايتهم) بكسر الواو والباقون بالفتح، وهما واحد كالدلالة والدلالة. { وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ } ، أي: استنصركم

المؤمنون الذين لم يهاجروا، { فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ } ، عهد فلا تنصروهم عليهم، { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }
[73] { وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ } وقال ابن عباس : في الميراث، أي: يرث المشركون بعضهم من بعض { إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ } ، قال ابن عباس : إلا تأخذوا في الميراث بما أمرتكم به. وقال ابن جريج : إلا تعاونوا وتناصروا. وقال ابن إسحاق : جعل الله المهاجرين والأنصار أهل ولاية في الدين دون من سواهم، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض، ثم قال: { إِلَّا تَفْعَلُوهُ } ، وهو أن يتولى المؤمن الكافر دون المؤمن { وَفَسَادٌ كَبِيرٌ } ، فالفتنة في الأرض قوة الكفر، والفساد الكبير ضعف الإسلام.

[74] { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا } ولا ريب في إيمانهم. قيل: حققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد وبذل المال في الدين، { لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } في الجنة. فإن قيل: أي معنى في تكرار هذه الآية؟ قيل: المهاجرون كانوا على طبقات فكان بعضهم أهل الهجرة الأولى وهم الذين هاجروا قبل الحديبية، وبعضهم أهل الهجرة الثانية وهم الذين هاجروا بعد صلح الحديبية قبل فتت مكة، وكان بعضهم ذا هجرتين: هجرة الحبشة والهجرة إلى المدينة، فالمراد من الآية الأولى الهجرة الأولى. ومن الثانية الهجرة الثانية.

[75] قوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ } أي: معكم، يريد أنتم منهم وهو منكم، { وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ } ، وهذا نسخ التوارث بالهجرة ، ورد الميراث إلى ذوي الأرحام. قوله: { فِي كِتَابِ اللَّهِ } ، أي: في حكم الله عز وجل. وقيل: أراد بكتاب الله القرآن، يعني: القسمة التي بينها في سورة النساء { إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }

(9) سورة التوبة
قال مقاتل : هذه السورة مدنية كلها إلا آيتين من آخر السورة. قال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس سورة التوبة؟ قال: هي الفاضحة ما زالت تنزل فيهم حتى ظنوا أنها لم تبق أحدا منهم إلا ذكر فيها، قال. قلت: سورة الأنفال؟ قال: تلك سورة بدر, قال: قلت: سورة الحشر؟قال: قل سورة بني النضير.
[1] قوله تعالى: { بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } , أي: هذه براءة من الله. وهي مصدر كالنشاءة والدناءة.
قال المفسرون: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف ، وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم

وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم, فأمر الله عز وجل: { وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً } الآية. قال الزجاج : براءة أي: قد برئ الله ورسوله من إعطائهم العهود والوفاء لهم بها إذا نكثوا, { إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } , الخطاب مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي عاهدهم وعاقدهم ؛ لأنه وأصحابه راضون بذلك, فكأنهم عاقدوا ، وعاهدوا

[2] { فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ } ، رجع من الخبر إلي والخطاب، أي: قل لهم سيحوا أي : سيروا في الأرض مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين أحدا من المسلمين، { أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ } ، أي: غير فائتين ولا سابقين { وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ } , أي: مذلهم بالقتل في الدنيا والعذاب في الآخرة. واختلف العلماء في هذا التأجيل وفي هؤلاء الذي برئ الله ورسوله إليهم من العهود التي ، وكانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال جماعة: هذا تأجيل من الله تعالى للمشركين، فمن كانت مدة، عهده أقل من أربعة أشهر رفعه إلى أربعة أشهر، ومن كانت مدته أكثر من أربعة أشهر حطه إلى أربعة أشهر ومن كانت مدة عهده بغير أجل محدود حده بأربعة أشهر، ثم هو حرب بعد ذلك لله ورسوله، فيقتل حيث يدرك ويؤسر، إلا أن يتوب، وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر وانقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر، فأما من لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأشهر الحرم، وذلك خمسون يوما. وقال الزهري: الأشهر الأربعة شوال وذو القعدة وذي الحجة والمحرم، لأن هذه الآية نزلت في شوال، والأول هو الأصوب وعليه

الأكثرون.

[3] { وَأَذَانٌ } عطف على قوله: { بَرَاءَةٌ } أي: إعلام. ومنه الأذان بالصلاة، يقال: أذنته فأذن أي أعلمته. وأصله من الأذن أي : أوقعته في أذنه، { مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ } ، اختلفوا في يوم الحج الأكبر، وروى عكرمة عن ابن عباس . أنه يوم عرفة. وروى ذلك عن عمر بن الخطاب وابن الزبير . وقال جماعة: هو يوم النحر. وروى ابن جريج عن مجاهد : يوم الحج الأكبر حين الحج أيام منى كلها. وكان سفيان الثوري يقول. يوم الحج الأكبر أيام منى كلها، مثل يوم صفين ويوم الجمل ويوم بعاث يراد به الحين والزمان؛ لأن هذه الحروب دامت أياما كثيرة. وقال عبد الله بن الحارث بن نوفل : يوم الحج الأكبر الذي حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول ابن سيرين ؛ لأنه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود والنصارى والمشركين، ولم يجتمع قبله ولا بعده، واختلفوا في الحج الأكبر، فقال مجاهد : الحج الأكبر القرآن، والحج الأصغر إفراد الحج. وقال الزهري والشعبي وعطاء : الحج الأكبر الحج، والحج الأصغر العمرة. قيل لها الأصغر لنقصان أعمالها. قوله تعالى: { أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

وَرَسُولُهُ } ، أي: ورسوله أيضا بريء من المشركين. وقرأ يعقوب بنصب اللام أي: إن الله ورسوله برئ. { فَإِنْ تُبْتُمْ } رجعتم من كفركم ، وأخلصتم التوحيد، { فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ } ، أعرضتم عن الإيمان، { فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }

[4] { إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } ، هذا استثناء من قوله: { بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } إلا من عهد الذين عاهدتم من المشركين، وهم بنو ضمرة حي من كنانة، أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بإتمام عهدهم إلى مدتهم، وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر، وكان السبب فيه أنهم لم ينقضوا العهد، وهذا معنى قوله تعالى: { ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا } من عهدهم الذي عاهدتموهم عليه، { وَلَمْ يُظَاهِرُوا } ، لم يعاونوا، { عَلَيْكُمْ أَحَدًا } ، من عدوكم. وقرأ عطاء بن يسار : (لم ينقضوكم) بالضاد المعجمة من نقض العهد، { فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ } ، فأوفوا لهم بعهدهم، { إِلَى مُدَّتِهِمْ } ، إلى أجلهم الذي عاهدتموهم عليه، { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ }

[5] قوله تعالى: { فَإِذَا انْسَلَخَ } ، انقضى ومضى { الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ } ، قيل: هي الأشهر الأربعة رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم. وقال مجاهد وابن إسحاق : هي شهور العهد فمن كان له عهده فعهده أربعة أشهر، ومن لا عهد له فأجله إلى انقضاء المحرم خمسون يوما. وقيل لها حرم لأن الله تعالى حرم فيها على المؤمنين دماء المشركين والتعرض لهم. فإن قيل: هذا القدر بعض الأشهر الحرم والله تعالى يقول: { فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ } ؟ قيل: لما كان هذا القدر متصلا بما مضى أطلق عليه اسم الجمع، ومعناه: مضت المدة المضروبة التي يكون معها انسلاخ الأشهر الحرم.قوله: { فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ } ، في الحل الحرم، { وَخُذُوهُمْ } ، وأسروهم، { وَاحْصُرُوهُمْ } ، أي: احبسهم. قال ابن عباس رضي الله عنه: يريد إن تحصنوا فاحصروهم، أي: امنعوهم من الخروج. وقيل. امنعوهم من دخول مكة والتصرف في بلاد الإسلام. { وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ } , أي: على كل طريق، والمرصد الموضع الذي يرقب فيه العدو من رصدت الشيء أرصده إذا ترقبته، يريد كونوا لهم رصدا لتأخذوهم من أي وجه توجهوا. وقيل:

أقعدوا لهم بطريق مكة حتى لا يدخلوها، { فَإِنْ تَابُوا } ، من الشرك، { وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ } ، يقول دعوهم فليتصرفوا في أمصارهم ، ويدخلوا مكة، { إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ } ، لمن تاب, { رَحِيمٌ } . وقال الحسين بن الفضل : هذه الآية نسخت كل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء.
[6] قوله تعالى: { وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ } ، أي: وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم، أي: استأمنك بعد انسلاخ الأشهر الحرم ليسمع كلام الله. { فَأَجِرْهُ } ، فأعذه وآمنه، { حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ } ، فيما له وعليه من الثواب العقاب، { ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ } ، أي: إن لم يسلم أبلغه مأمنه، أي: الموضع الذي يأمن فيه وهو دار قومه، فإن قاتلك بعد ذلك فقدرت عليه فاقتله، { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ } ، أي: لا يعلمون دين الله وتوحيده فهم محتاجون إلى سماع كلام الله. قال الحسن : هذه الآية محكمة إلى يوم القيامة.

[7] قوله تعالى: { كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ } ، هذا على وجه التعجب، ومعناه جحد، أي: لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله وهم يغدرون وينقضون العهد، ثم استثنى فقال جل وعلا { إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } ، قال ابن عباس : هم قريش. وقال قتادة : هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية. قال الله

تعالى: { فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ } أي: على العهد، { فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ } ، فلم يستقيموا ، ونقضوا العهد ، وأعانوا بني بكر على خزاعة، فضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح أربعة أشهر يختارون من أمرهم إما أن يسلموا ، وإما أن يلحقوا بأي بلاد شاؤوا، فأسلموا قبل الأربعة الأشهر. قال السدي والكلبي وابن إسحاق : هم قبائل من بكر بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو ضمرة وبنو الديل، وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية ، فلم يكن نقض العهد إلا قريش وبنو الديل من بني بكر، فأمر بإتمام العهد لمن لم ينقض وهم بنو ضمرة. وهذا القول أقرب إلى الصواب لأن هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وبعد فتح مكة،

فكيف يقول لشيء قد مضى: { فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ } وإنما هم الذين قال عز وجل: { إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا } كما نقصكم قريش، ولم يظاهروا عليكم أحدا كما ظاهرت قريش بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } .

[8]قوله تعالى: { كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ } ، هذا مردود على الآية الأولى تقديره: كيف يكون لهم عهد عند- الله وإن يظهروا عليكم، { لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً } قال الأخفش : كيف لا تقتلونهم ، وهم إن يظهروا عليكم، أي: يظفروا بكم، لا يرقبوا: لا يحفظوا. وقال الضحاك : لا ينتظروا. وقال قطرب : لا يراعوا فيكم إلا. قال ابن عباس والضحاك : قرابة وقال يمان : رحما. وقال قتادة الإل: الحلف. وقال السدي : هو العهد. وكذلك الذمة إلا أنه كرر لاختلاف اللفظين. وقال أبو مجلز ومجاهد : الإل هو الله عز وجل، والدليل على هذا التأويل قراءة عكرمة (لا يرقبون في مؤمن إيلا) بالياء، يعني الله عز وجل. مثل جبرائيل وميكائيل. ولا ذمة أي: عهدا. { يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ } ، أي: يطيعونكم بألسنتهم خلاف ما في قلوبهم، { وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ } ، الإيمان { وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ } , فإن قيل: هذا في المشركين وكلهم فاسقون فكيف قال: { وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ } ؟ قيل: أراد بالفسق نقض العهد هاهنا ، وكان في المشركين من وفى بعهده وأكثرهم نقضوا فلهذا قال: { وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ } .

[9] { اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا } ، وذلك أنهم نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم بأكلة أطعمهم إياها أبو سفيان . قال مجاهد : أطعم أبو سفيان حلفاءه، { فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ } ، فمنعوا الناس من الدخول في دين الله. وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن أهل الطائف أمدوهم بالأموال ليقووهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم. { إِنَّهُمْ سَاءَ } بئس { مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[10] { لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً } يقول: لا تبقوا عليهم أيها المؤمنون كما لا يبقون عليكم لو ظهروا { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ } بنقض العهد.
[11] { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ } ، من الشرك، { وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ } ، فهم إخوانكم، { فِي الدِّينِ } ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، { وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ } ، نبين الآيات { لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } قال ابن عباس : حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة. قال ابن مسعود: أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له.

[12] قوله تعالى: { وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ } ، نقضوا عهودهم، { مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ } ، عقدهم يعني مشركي قريش، { وَطَعَنُوا } ، قدحوا { فِي دِينِكُمْ } ،

وعابوه. فهذا دليل على أن الذمي إذا طعن في دين الإسلام ظاهرا لا يبقى له عهد، { فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ } ، قرأ أهل الكوفة والشام: { أَئِمَّةَ } بهمزتين حيث كان، وقرأ الباقون بتليين الهمزة الثانية. وأئمة الكفر: رؤوس المشركين وقادتهم من أهل مكة. قال ابن عباس : نزلت في أبي سفيان بن حرب وأبي جهل بن هشام وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وسائر رؤساء قريش يومئذ الذين نقضوا العهد، وهم الذين هموا بإخراج الرسول. وقال مجاهد : هم أهل فارس والروم. وقال حذيفة بن اليمان : ما قوتل أهل هذه الآية ، ولم يأت أهلها بعد، { إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ } ، أي: لا عهود لهم، جمع يمين. قال قطرب : لا وفاء لهم بالعهد. وقرأ ابن عامر : (لا إيمان لهم) بكسر الألف، أي: لا تصديق لهم ولا دين لهم. وقيل. هو من الأمان أي لا تؤمنوهم ، واقتلوهم حيث وجدتموهم، { لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ } ، أي. لكي ينتهوا عن الطعن في دينكم والمظاهرة عليكم. وقيل: عن الكفر.

[13] ثم حض المسلمين على القتال فقال جل ذكره: { أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ } ، نقضوا عهدهم، وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية ، وأعانوا بني بكر على خزاعة. { وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ } , من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة، { وَهُمْ بَدَءُوكُمْ } ، بالقتال، { أَوَّلَ مَرَّةٍ } ، يعني: يوم بدر، وذلك أنهم قالوا حين سلم العير: لا ننصرف حتى نستأصل محمدا وأصحابه. وقال جماعة من المفسرين: أراد أنهم بدأوا بقتال خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، { أَتَخْشَوْنَهُمْ } ، أتخافونهم فتتركون قتالهم، { فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ } في ترك قتالهم، { إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }

[14] { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ } ، يقتلهم الله بأيديكم، { وَيُخْزِهِمْ } ، ويذلهم بالأسر والقهر { وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ } , ويبرئ داء قوم, { مُؤْمِنِينَ } , مما كانوا ينالونه من الأذى منهم. وقال مجاهد والسدي : أراد صدور خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أعانت قريش بني بكر عليهم، حتى نكأوا فيهم ، فشفى الله صدورهم من بني بكر بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين.

[15] { وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ } , كربها ووجدها بمعونة قريش بني بكر عليهم، ثم قال مستأنفا { وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ } ، فيهديه إلى الإسلام كما فعل بأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو ، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }

[16] يقوله تعالى: { أَمْ حَسِبْتُمْ } ، أظننتم { أَنْ تُتْرَكُوا } , قيل: هذا خطاب للمنافقين. وقيل: للمؤمنين الذين شق عليهم القتال، فقال: أم حسبتم أن تتركوا , فلا تؤمروا بالجهاد ، ولا تمتحنوا ليظهر الصادق من الكاذب، {وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ }، ولم ير الله { الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً } ، بطانة وأولياء يوالونهم ، ويفشون إليهم أسرارهم. وقال قتادة : وليجة خيانة. وقال الضحاك : خديعة. وقال عطاء : أولياء. وقال أبو عبيدة : كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة، والرجل يكون في القوم وليس منهم. فوليجة الرجل: من يختص بدخيلة أمره دون الناس، يقال: هو وليجتي، وهم وليجتي للواحد والجمع. { وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }

[17] قوله تعالى: { مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ } الآية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أسر العباس يوم بدر عيره المسلمون بالكفر

وقطيعة الرحم، وأغلظ علي رضي الله عنه القول، فقال العباس : مالكم تذكرون مساوينا ، ولا تذكرون محاسننا؟ فقال له علي رضي الله عنه: ألكم محاسن؟ فقال نعم: إنا لنعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونسقي الحاج، فأنزل الله عز وجل ردا على العباس: (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ)، أي: ما ينبغي للمشركين أن يعمرا مساجد الله، وأوجب على المسلمين منعهم من ذلك، لأن المساجد إنما تعمر لعبادة الله وحده، فمن كان كافرا بالله فليس من شأنه أن يعمرها فذهب جماعة إلى أن المراد منه العمارة المعروفة من بناء المسجد ومرمته عند الخراب ، فيمنع منه الكافر حتى لو أوصى به لا يمتثل. وحمل بعضهم العمارة هاهنا على دخول المسجد والقعود فيه. قال الحسن : ما كان للمشركين أن يتركوا فيكونوا أهل المسجد الحرام. قرأ ابن كثير وأهل البصرة (مسجد الله) على التوحيد، وأراد به المسجد الحرام، لقوله تعالى. { وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } ، ولقوله

تعالى: { فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ } ، وقرأ الآخرون: (مساجد الله) بالجمع ، والمراد منه أيضا المسجد الحرام. قال الحسن : إنما قال مساجد لأنه قبلة المساجد كلها. قال الفراء : ربما ذهبت العرب بالواحد إلى الجمع وبالجمع إلى الواحد، ألا ترى أن الرجل يركب البرذون فيقول: أخذت في ركوب البراذين، ويقال: فلان كثير الدرهم والدينار، يريد الدراهم والدنانير. وقوله تعالى: { شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ } ، أراد وهم شاهدون، فلما طرحت (وهم) نصبت، قال الحسن : لم يقولوا : نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شاهد عليهم بالكفر. وقال الضحاك عن ابن عباس : شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للأصنام، وذلك أن كفار قريش كانوا نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد ، وكانوا يطوفون بالبيت عراة، كلما طافوا شوطا سجدوا لأصنامهم، ولم يزدادوا بذلك من الله تعالى إلا بعدا. وقال السدي : شهادتهم على أنفسهم بالكفر وهو أن النصراني يسأل من أنت؟ فيقول: أنا نصراني، واليهودي يقول: أنا يهودي، ويقال للمشرك ما دينك؟ فيقول: مشرك. قال الله تعالى { أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ } لغير الله عز وجل, { وَفِي

النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ }

[18] قال تعالى: { إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ } ولم يخف في الدين غير الله لم يترك أمر الله لخشية غيره، { فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ } ، (وعسى) من الله واجب، أي: فأولئك هم المهتدون، والمهتدون هم المتمسكون بطاعة الله عز وجل التي تؤدي إلى الجنة. عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان " فإن الله قال: { إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ }» (1) .

____

(1) أخرجه الترمذي في الإيمان 7 / 366 وقال : حديث حسن غريب، وابن ماجه في المساجد رقم (802) 1 / 263، والدارمي في الصلاة 1 / 222، وصححه ابن حبان ص 99 من موارد الظمآن، والحاكم 1 / 212،والإمام أحمد في المسند 3 / 68، 76 .

[19] قوله: { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ } قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال العباس حين أسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد

كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخبر أن عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا تنفعهم مع الشرك بالله, والإيمان بالله والجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم خير مما هم عيه { سِقَايَةَ } مصدر كالرعاية والحماية. قوله: { وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } , فيه اختصار تقديره: الحاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله وجهاد من جاهد في سبيل الله؟ وقيل: السقاية والعمارة بمعنى الساقي العامر، وتقديره: أجعلتم ساقي الحاج وعامر المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد في سبيل الله ؟ وهذا كقوله تعالى: { وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى } أي: للمتقين، يدل عليه قراءة عبد الله بن الزبير وأبي بن كعب (أجعلتم سُقَاةَ الحاج وعِمرَةَ المسجد الحرام)، على جمع الساقي والعامر، { وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ }

[20] قوله تعالى: { الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً } ,فضيلة { عِنْدَ اللَّهِ } من الذين افتخروا بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام { وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } الناجون من النار.

[21] { يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ }

[22] { خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ }

[23] { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ } بطانة وأصدقاء فتفشون إليهم أسراركم وتؤثر المقام معهم على الهجرة والجهاد, { إِنِ اسْتَحَبُّوا } , اختاروا { الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ } , فيطلعهم على عورة المسلمين ويؤثر المقام معهم على الهجرة والجهاد { فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } ، وكان في ذلك الوقت لا يقبل الإيمان إلا, من مهاجر، فهذا معنى قوله: (فأولئك هم الظالمون).

[24] ثم قال تعالى: { قُلْ } يا محمد لهؤلاء المتخلفين عن الهجرة, { إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ } , وذلك لما نزلت الآية الأولى قال الذين أسلموا ولم يهاجروا: إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا , وذهبت تجاراتنا ، وخُرّبتْ دورُنَا ، وقطعنا أرحامنا, فنزل { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ } , قرأ أبو بكر عن عاصم : (عشيراتكم) بالألف على الجمع, والآخرون بلا ألف على التوحيد لأن العشيرة واقعة على الجمع, ويقوي هذه القراءة أن أبا الحسن الأخفش قال: لا تكاد العرب تجمع العشيرة على العشيرات, إنما تجمعها على العشائر { وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا } , أي: تستطيبونها يعني القصور والمنازل, { أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا } , فانتظروا, { حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } , قال عطاء : بقضائه. وقال مجاهد ومقاتل : بفتح مكة، وهذا أمر تهديد، { وَاللَّهُ لَا يَهْدِي } ، لا يوفق ولا يرشد { الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } الخارجون عن الطاعة.

[25]قوله تعالى: { لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ } , أي : مشاهد, { كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ } حتى قلتم: لن نغلب اليوم من قلة { فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ } ، كثرتكم، { شَيْئًا } ، يعني إن الظفر لا يكون بالكثرة، { وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ } ، أي: برحبها وسعتها، { ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ } منهزمين.

[26] { ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ } ، بعد الهزيمة، { سَكِينَتَهُ } ، يعني: الأمنة والطمأنينة، وهي فعيلة من السكون { عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا

} ، يعني. الملائكة. وقيل: لا للقتال ، ولكن لتجبين الكفار ، وتشجيع المسلمين، لأنه يروى أن الملائكة لم يقاتلوا إلا يوم بدر، { وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، بالقتل والأسر وسبي العيال وسلب الأموال، { وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ } [27] { ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ } فيهديه إلى الإسلام، { وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }

[28] قوله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ } الآية، قال الضحاك وأبو عبيدة : نجس قذر. وقيل: خبيث. وهو مصدر يستوي فيه الذكر والأنثى والتثنية والجمع، فأما النجس بكسر النون وسكون الجيم فلا يقال على الانفراد، إنما يقال: رجس نجس، فإذا أفرد قيل: نجس بفتح النون ، وكسر الجيم ، وأراد به نجاسة الحكم لا نجاسة العين، سموا نجسا على الذم. وقال قتادة : سماهم نجسا ؛ لأنهم يجنبون فلا يغتسلون ، ويحدثون فلا يتوضؤون. وقوله تعالى: { فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ } ، أراد منعهم من دخول الحرم لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام، وأراد به الحرم ، وهذا كما قال الله تعالى: { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } ، وأراد به الحرم لأنه أسري به من بيت أم هانئ . قوله: { بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا } ، يعني العام الذي حج فيه أبو بكر رضي الله عنه بالناس، ونادى علي كرم الله وجهه ببراءة، وهو سنة تسع من الهجرة. قوله: { وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً } ، وذلك أن أهل مكة كانت معايشهم من التجارات وكان المشركون يأتون مكة بالطعام ، ويتجرون،

فلما منعوا من دخول الحرم خافوا الفقر، وضيق العيش، وذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى: { وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً } فقرا وفاقة، يقال: عال يعيل عيلة إذا افتقر، { فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } ، قال عكرمة : فأغناهم الله عز وجل بأن أنزل عليهم المطر مدرارا ، فكثر خيرهم. وقال مقاتل : أسلم أهل جدة وصنعاء وجريش من اليمن ، وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون. وقال الضحاك وقتادة : عوضهم الله منها الجزية فأغناهم بها.

[29] قوله تعالى: { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } ، قال مجاهد : نزلت هذه الآية حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال الروم، فغزا بعد نزولها غزوة تبوك. وقال الكلبي : نزلت في قريظة والنضير من اليهود، فصالحهم وكانت أول جزية أصابها أهل الإسلام، وأول ذل أصاب أهل الكتاب بأيدي المسلمين: قال الله تعالى: { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ } ، فإن قيل: أهل الكتاب مؤمنون بالله واليوم الآخر؟ قيل: لا يؤمنون كإيمان المؤمنين، فإنهم إذا قالوا : عزير ابن الله والمسيح ابن الله، لا يكون ذلك إيمانا بالله. { وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ } ، أي: لا يدينون الدين الحق، أضاف الاسم إلى الصفة. وقال قتادة : الحق هو الله، أي: لا يدينون دين الله ودينه الإسلام. وقال أبو عبيدة : معناه ولا يطيعون الله تعالى طاعة أهل الحق. { مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } ، يعني: اليهود والنصارى { حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ } ، وهي الخراج المضروب على رقابهم، { عَنْ يَدٍ } ، عن قهر وذل. قال أبو عبيدة : يقال لكل من

أعطى شيئا كرها من غير طيب نفس أعطاه عن يد. وقال ابن عباس : يعطونها بأيديهم ، ولا يرسلون بها على يد غيرهم. وقيل: عن يد أي : نقد ولا

نسيئة. وقيل: عن إقرار بإنعام المسلمين عليهم بقبول الجزية منهم، { وَهُمْ صَاغِرُونَ } ، أذلاء مقهورون .

[30] قوله تعالى: { وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ } ، يقولون بألسنتهم من غير علم. قال أهل المعاني: لم يذكر الله تعالى قولا مقرونا بالأفواه والألسن إلا كان ذلك زورا. { يُضَاهِئُونَ } ، قرأ عاصم بكسر الهاء مهموزا، والآخرون بضم الهاء مهموزا، وهما لغتان يقال: ضاهيته وضاهأته، ومعناهما واحد. قال ابن عباس رضي الله عنه: يشابهون. والمضاهاة المشابهة. وقال مجاهد : يواطئون. وقال الحسن : يوافقون، { قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ } ، قال قتادة والسدي : ضاهت النصارى قول اليهود من قبل، فقالوا: المسيح ابن الله كما قالت اليهود من قبل عزير ابن الله. وقال مجاهد : يضاهئون قول المشركين من قبل الذين كانوا يقولون : اللات والعزى ومناة بنات الله. وقال الحسن : شبه كفرهم بكفر الذين مضوا من الأمم الكافرة كما قال في مشركي العرب : { كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ } . وقال القتيبي : يريد أن من كان في عصر النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى يقولون ما قال

أولوهم { قَاتَلَهُمُ اللَّهُ } ، قال ابن عباس : لعنهم الله. وقال ابن جريج : أي: قتلهم الله. وقيل: ليس هو على تحقيق المقاتلة ولكنه بمعنى العجب، { أَنَّى يُؤْفَكُونَ } ، أي: يصرفون عن الحق بعد قيام الأدلة عليه.

[31] { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ } ، أي: علماءهم وقراءهم، والأحبار العلماء واحدها حِبر وحَبر، بكسر الحاء وفتحها، والرهبان من النصارى أصحاب الصوامع واحدها راهب، كصاحب وصحبان، { أَرْبَابًا } ، فإن قيل: إنهم لم يعبدوا الأحبار والرهبان؟ قلنا: معناه أنهم أطاعوهم في معصية الله ، واستحلوا ما أحلوا ، وحرموا ما حرموا، فاتخذوهم كالأرباب. « عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ: { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ } حتى فرغ منها، قلت: إنا لسنا نعبدهم، فقال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه ؟ قال: قلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم » (1) . { وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ } , أي: اتخذوه إلها, { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }

---

(1) أخرجه الطبري في التفسير 14 / 215، ورواه مختصرا الترمذي في تفسير سورة براءة 8 / 492-494 وقال: حديث غريب.

[32] { يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ } , أي: يبطلوا دين الله بألسنتهم وتكذيبهم إياه. وقال الكلبي: النور القرآن, أي: يريدون أن يردوا القرآن بألسنتهم تكذيبا، { وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ } أي: يعلي دينه ، ويظهر ، ويتم الحق الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم { وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ }

[33] { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ } ، يعني: الذي يأبى إلا إتمام دينه هو الذي أرسل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم : { بِالْهُدَى } , قيل القرآن. وقيل: بيان الفرائض, { وَدِينِ الْحَقِّ } ، وهو الإسلام، { لِيُظْهِرَهُ } ، ليعليه ، وينصره، { عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ } ، على سائر الأديان كلها، { وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } ،

واختلفوا في معنى هذه الآية، قال ابن عباس : الهاء عائدة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليعلمه شرائع الدين كلها فيظهره عليها حتى لا يخفى عليه منها شيء. وقال الآخرون: الهاء راجعة إلى دين الحق، وظهوره على الأديان هو أن لا يدان الله تعالى إلا به. وقال أبو هريرة والضحاك : وذلك عند نزول عيسى ابن مريم لا يبقى أهل دين إلا دخل في الإسلام. قال الحسين بن الفضل : معنى الآية ليظهره على الدين كله بالحجج الواضحة. وقيل: ليظهره على الأديان التي حول النبي صلى الله عليه وسلم فيغلبها. قال الشافعي رحمه الله: فقد أظهر الله رسوله صلى الله عليه وسلم على الأديان كلها بأن أبان لكل من سمعه أنه الحق، وما خالفه من الأديان باطل، وقال. وأظهره على الشرك دين أهل الكتاب ودين الأميين ، فقهر

رسول الله صلى الله عليه وسلم الأميين حتى دانوا بالإسلام طوعا وكرها، وقتل أهل الكتاب وسبى، حتى دان بعضهم بالإسلام ، وأعطى بعضهم الجزية صاغرين ، وجرى عليهم حكمه، فهذا ظهوره على الدين كله، والله أعلم.

[34] يقوله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ } ، يعني: العلماء والقراء من أهل الكتاب، { لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ } ، يريد ليأخذون الرشا في أحكامهم ، ويحرفون كتاب الله ، ويكتبون بأيديهم كتبا يقولون هذه من عند الله، ويأخذون بها ثمنا قليلا من سفلتهم، وهي المآكل التي يصيبونها منهم على تغيير نعت النبي صلى الله عليه وسلم يخافون لو صدقوه لذهبت عنهم تلك المآكل، { وَيَصُدُّونَ } , ويصرفون الناس، { عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ، دين الله عز وجل، { وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ، قال ابن عمر رضي الله عنهما. كل مال تؤدى زكاته فليس بكنز ، وإن كان مدفونا وكل مال لا تؤدي زكاته فهو كنز، وإن إن لم يكن مدفونا. ومثله عن ابن عباس . وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: كل مال زاد على أربعة آلاف درهم فهو كنز، أديت منه الزكاة أو لم تؤد، وما دونها نفقة. وقيل: ما فضل عن الحاجة فهو كنز والقول الأول أصح أن الآية في منع الزكاة لا في جمع المال الحلال. قال النبي صلى الله عليه

وسلم : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » (1) ". , قوله عز وجل: { وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ، قيل: لم قال: (وَلَا يُنْفِقُونَهَا)، ولم يقل: ولا ينفقونهما ، وقد ذكر الذهب والفضة جميعا؟ قيل: أراد الكنوز وأعيان الذهب الفضة. وقيل: رد الكناية إلى الفضة لأنها أعم، كما قال: { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ } ، رد الكناية إلى الصلاة لأنها أعم { فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } . أي: أنذرهم.

---

(1) قال العلامة العجلوني في كتابة كشف الخفاء ج 2 ص 424: «رواه أحمد وابن منيع عن عمرو بن العاص رضي الله عنه

[35] { يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ } ، أي: تدخل النار ، فيوقد عليها أي: على الكنوز، محالة { فَتُكْوَى بِهَا } ، فتحرق بها، { جِبَاهُهُمْ } ، أي: تدخل النار فيوقد عليها أي: { وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ } سئل أبو بكر الوراق : لم خص الجباه والجنوب والظهور بالكي؟ قال: لأن الغني صاحب الكنز إذا رأى الفقير قبض جبهته، وزوى ما بين عينيه ، وولاه ظهره ، وأعرض عنه بكشحه. قوله تعالى: { هَذَا مَا كَنَزْتُمْ } ، أي: يقال لهم هذا ما كنزتم، { لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ

تَكْنِزُونَ } ، أي: تمنعون حقوق الله تعالى في أموالكم. وقال بعض الصحابة: هذه الآية في أهل الكتاب. وقال الأكثرون. هي عامة في أهل الكتاب والمسلمين، وبه قال أبو ذر رضي الله عنه.

[36] قوله تعالى: { إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ } ، أي: عدد الشهور، { عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ } ، وهي المحرم وصفر وربيع الأول وربيع الثاني وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة. وقوله: { فِي كِتَابِ اللَّهِ } أي: في حكم الله. وقيل: في اللوح المحفوظ { يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } , والمراد منه الشهور الهلالية ، وهي الشهور التي يعتد بها المسلمون في صيامهم وحجهم وأعيادهم وسائر أمورهم, الشمسية تكون السنة ثلثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم, والهلالية تنقص عن ثلاث مائة وستين يوما بنقصان الأهلة. والغالب أنها تكون ثلاثمائة يوم وأربعة وخمسين يوما, { مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ } , من الشهور أربعة حرم وهي: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم, واحد فرد وثلاثة سرد { ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } , أي: الحساب المستقيم, { فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ } ,قيل: قوله : (فِيهِنَّ) ينصرف إلى جميع شهور السنة, أي : فلا تظلموا فيهن أنفسكم بفعل المعصية ، وترك الطاعة. وقيل : (فِيهِنَّ) أي: في الأشهر الحرم. قال قتادة : العمل

الصالح أعظم أجرا في الأشهر الحرم والظلم فيهن أعظم من الظلم فيما سواهن, وإن كان الظلم على كل حال عظيما. وقال ابن عباس : فلا تظلموا فيهن أنفسكم يريد استحلال الحرام والغارة فيهن. قال محمد بن إسحاق بن يسار : لا تجعلوا حلالها حراما ولا حرامها حلالا كفعل أهل الشرك وهو النسيء, { وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً } , جميعا عامة, { كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } , واختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحرم. فقال قوم: كان كبيرا ، ثم نسخ بقوله: (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) كأنه يقول فيهن وفي غيرهن. وهو قول قتادة وعطاء الخراساني والزهري وسفيان الثوري ، وقالوا: إن النبي صلى الله عليه وسلم غزا هوازن بحنين وثقيفا بالطائف ، وحاصرهم في شوال وبعض ذي القعدة. وقال الآخرون: إنه غير منسوخ؛ قال ابن جريج : حلف بالله عطاء بن أبي رباح : ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا فيها، وما نسخت.

[37] قوله تعالى: { إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ } ، قيل: هو مصدر كالسعير والحريق. وقيل: هو مفعول كالجريح والقتيل، وهو من التأخير. ومنه النسيئة في البيع، يقال: أنسأ الله في أجله أي : أخر، وقيل: هو من النسيان على معنى المنسي أي : المتروك. ومعنى النسيء هو تأخير تحريم شهر إلى شهر آخر ، وذلك أن العرب كانت تعتقد تعظيم الأشهر الحرم، وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم عليه السلام، وكانت عامة معايشهم من الصيد والغارة فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر على التوالي، وربما وقعت لهم حرب في بعض الأشهر الحرم ، فيكرهون تأخير حربهم فنسؤوا- أي: أخروا- تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر، وكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر ، فيحرمون صفر ، ويستحلون المحرم، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخروه إلى ربيع هكذا شهرا بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها. قال مجاهد : كانوا يحجون في كل شهر عامين ، فحجوا في شهر ذي الحجة عامين ، ثم حجوا في المحرم عامين ، ثم حجوا في صفر عامين، وكذلك في الشهور، فوافقت حجة

أبي بكر رضي الله عنه قبل حجة الوداع السنة الثانية من ذي القعدة، ثم حج النبي صلى الله عليه

وسلم في العام القابل حجة الوداع، فوافق حجه شهر الحج المشروع وهو ذو الحجة، فوقف بعرفة اليوم التاسع ، وخطب اليوم العاشر بمنى، وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان ، وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر الحرم يوم خلق السماوات والأرض، وأمرهم بالمحافظة عليه لئلا يتبدل في مستأنف الأيام فهذا الذي ذكرنا هو النسيء الذي ذكره الله تعالى فقال: { إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ } ، يريد زيادة كفر على كفرهم، { يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ } ، يعني النسيء { عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا } ، أي: ليوافقوا، والمواطأة الموافقة، { عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ } يريد أنهم لم يحلوا شهرا من الحرام إلا حرموا مكانه شهرا من الحلال، ولم يحرموا شهرا من الحلال إلا أحلوا مكانه شهرا من الحرام، لئلا يكون الحرم أكثر من أربعة أشهر كما حرم الله فيكون الموافقة في العدد، { فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ } ، قال ابن عباس : يريد زين لهم الشيطان، { وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }

[38] قوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ } الآية، نزلت في الحث على غزوة تبوك، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزوة الروم، وكان ذلك في زمان عسرة من الناس وشدة من الحر حين طابت الثمار والظلال فشق عليهم الخروج وتثاقلوا فأنزل الله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ } أي: قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم : { انْفِرُوا } اخرجوا في سبيل الله { فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ } أي: لزمتم أرضكم ومساكنكم، { أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ } ، أي: بخفض الدنيا ودعتها من نعيم الآخرة، { فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ }

[39] ثم أوعدهم على ترك الجهاد، فقال تعالى: { إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } في الآخرة. وقيل: هو احتباس المطر عنهم في الدنيا { وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ } خيرا منكم وأطوع { وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا } ، بترككم النفير. { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

[40] قوله تعالى: { إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ } ، هذا إعلام من الله عز وجل أنه المتكفل بنصر رسوله وإعزاز دينه، أعانوه أو لم يعينوه، وأنه قد نصره عند قلة الأولياء وكثرة الأعداء، فكيف به اليوم وهو في كثرة من الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ { إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا } ، من مكة حين مكروا به وأرادوا تبييته وهموا بقتله، { ثَانِيَ اثْنَيْنِ } أي : هو أحد الاثنين، والاثنان: أحدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم والآخر أبو بكر الصديق رضي الله عنه، { إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ } ، وهو نقب في جبل ثور بمكة، { إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } ، قال الشعبي : عاتب الله عز وجل أهل الأرض جميعا في هذه الآية غير أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ولم يكن حزن أبي بكر جبنا منه، وإنما كان إشفاقا على رسول الله صلى الله عليه وسلم { فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ } ، قيل: على النبي صلى الله عليه وسلم. وقال ابن عباس : على أبي بكر رضي الله عنه، فإن النبي صلى الله عليه وسلم وكانت عليه السكينة من قبل، { وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا } ، وهم الملائكة نزلوا يصرفون

وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته، وقيل: ألقوا الرعب في قلوب الكفار حتى رجعوا. وقال مجاهد والكلبي : أعانه بالملائكة يوم بدر، أخبر أنه صرف عنه كيد الأعداء في الغار ، ثم أظهر نصره بالملائكة يوم بدر، { وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى } ، وكلمتهم الشرك وهي السفلي إلى يوم القيامة، { وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا } إلى يوم القيامة. قال ابن عباس : هي قول لا إله إلا الله. وقيل: كلمة الذين كفروا ما قدروا بينهم في الكيد به ليقتلوه، وكلمة الله وعد الله أنه ناصره { وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }

[41] قوله تعالى: { انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا } ، قال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة : شبانا وشيوخا. وعن ابن عباس : نشاطا وغير نشاط. وقال عطية العوفي : ركبانا ومشاة. وقال أبو صالح : خفافا من المال أي: فقراء، وثقالا أي: أغنياء. وقال ابن زيد : الثقيل الذي له الضيعة، فهو ثقيل يكره أن يدع ضيعته، والخفيف الذي لا ضيعة له. ويروى عن ابن عباس قال: خفافا أهل الميسرة من المال وثقالا أهل العسرة. وقيل: خفافا من السلاح، أي : مقلين منه، وثقالا أي: مستكثرين منه، وقال مرة الهمداني : أصحاء ومرضى. وقال يمان بن رباب : عزابا ومتأهلين. وقيل: خفافا من حاشيتكم وأتباعكم، وثقالا مستكثرين بهم. وقيل: خفافا مسرعين خارجين ساعة سماع النفير، وثقالا بعد التروي فيه والاستعداد له { وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } قال عطاء الخراساني عن ابن عباس : نسخت هذه الآية بقوله: { وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ } ، قال السدي : لما نزلت هذه الآية اشتد شأنها على الناس فنسخها الله تعالى ، وأنزل: { لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى }

الآية. ثم نزل في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك:
[42] { لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا } ، واسم كان مضمر، أي: لو كان ما تدعوهم إليه عرضا قريبا، أي: غنيمة قريبة المتناول، { وَسَفَرًا قَاصِدًا } ، أي: قريبا هنا، { لَاتَّبَعُوكَ } ، لخرجوا معك، { وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ } أي: المسافة، والشقة السفر البعيد لأنه يشق على الإنسان. وقيل: الشقة الغاية التي يقصدونها، { وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ } ، يعني باليمين الكاذبة، { وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } ، في أيمانهم لأنهم كانوا مستطيعين.

[43] { عَفَا اللَّهُ عَنْكَ } ، قال عمرو بن ميمون : اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين وأخذه الفدية من أسارى بدر، فعاتبه الله كما تسمعون. قال سفيان بن عيينة : انظروا إلى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل أن يعيره بالذنب. قيل: إن الله عز وجل وقره ، ورفع محله بافتتاح الكلام بالدعاء له، كما يقول الرجل لمن يخاطبه إذا كان كريما عنده: عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي، ورضي الله عنك ألا زرتني. وقيل معناه: أدام الله لك العفو.
{ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ } ، أي: في التخلف عنك { حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا } ، في أعذارهم، { وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ } فيها أي: تعلم من لا عذر له. قال ابن عباس رضي الله عنه. لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين يومئذ.
[44] { لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ } ، أي: لا يستأذنك في التخلف, { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ }

[45] { إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ } أي : شكت ونافقت، { فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ } ، يتحيرون .
[46] { وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ } إلى الغزو، { لَأَعَدُّوا لَهُ } ، أي: { عُدَّةً } ، أهبة وقوة من السلاح والكراع، { وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ } ، خروجهم، { فَثَبَّطَهُمْ } ، منعهم وحبسهم عن الخروج، { وَقِيلَ اقْعُدُوا } ، في بيوتكم، { مَعَ الْقَاعِدِينَ } ، يعني: مع المرضى والزمني. وقيل: مع النسوان والصبيان.
وقوله عز وجل: (وَقِيلَ) أي: قال بعضهم لبعض: اقعدوا. وقيل: أوحى إلى قلوبهم وألهموا أسباب الخذلان.

[47] { لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ } ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بالجهاد لغزوة تبوك ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عسكره على ثنية الوداع ، وضرب عبد الله بن أبي على ذي جُدَّة أسفل من ثنية الوداع، ولم يكن بأقل العسكرين ، فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلف عنه عبد الله بن أبي فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب، فأنزل الله تعالى يعزي نبيه صلى الله عليه وسلم { لَوْ خَرَجُوا } يعني المنافقون { فِيكُمْ } أي : معكم، { مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا } ، أي: فسادا وشرا، ومعنى الفساد. إيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر، { وَلَأَوْضَعُوا } أسرعوا، { خِلَالَكُمْ } ، في وسطكم بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم بالنميمة ونقل الحديث من البعض إلى البعض. وقيل: { وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ } أي: أسرعوا فيما يخل بكم. { يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ } ، أي: يطلبون لكم ما تفتنون به، يقولون: لقد جمع لكم كذا وكذا وإنكم مهزومون ، وسيظهر عليكم عدوكما ونحو ذلك. وقال الكلبي : يبغونكم الفتنة يعني: العنت (1) والشر. وقال الضحاك : الفتنة الشرك، ويقال: بغيته الشر والخير أبغيه بغيا إذا التمسته له،

---
(1) في نسخة: (العيب).

يعني: بغيت له. { وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ } ، قال مجاهد : معناه وفيكم مخبرون لهم يؤدون إليهم ما يسمعون منكم ، وهم الجواسيس. وقال قتادة : معناه وفيكم مطيعون لهم، أي: يستمعون كلامهم ويطيعونهم. { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } ،

[48] { لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ } أي: طلبوا صد أصحابك عن الدين وردهم إلى الكفر، وتخذيل الناس عنك قبل هذا اليوم، كفعل عبد الله ابن أبي يوم أحد حين انصرف عنك بأصحابه. { وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ } ، أجالوا فيك وفي إبطال دينك الرأي، بالتخذيل عنك وتشتيت أمرك، { حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ } ، النصر والظفر، { وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ } ، دين الله، { وَهُمْ كَارِهُونَ }

[49]قوله تعالى: { وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي } ، نزلت في جد بن قيس المنافق، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تجهز لغزوة تبوك قال: « يا أبا وهب هل لك في جلاد بني الأصفر؟ يعني الروم، تتخذ منهم سراري ووصفاء، فقال جد : يا رسول الله لقد عرف قومي أني رجل مغرم بالنساء، وإني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، ائذن لي في القعود ولا تفتني بهن وأعينك بمالي » . قال ابن عباس : « اعتل جد بن قيس ولم تكن له علة إلا النفاق، فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: أذنت لك فأنزل الله عز وجل: { وَمِنْهُمْ } يعني من المنافقين { مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي

} في التخلف { وَلَا تَفْتِنِّي } ببنات الأصفر » . قال قتادة : ولا تؤثمني. { أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا } ، أي: في الشرك والإثم وقعوا بنفاقهم وخلافهم أمر الله ورسوله، { وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ } مطيفة عليهم وجامعة لهم فيها.

[50] { إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ } ، نصرة وغنيمة، { تَسُؤْهُمْ } ، تحزنهم، يعني: المنافقين، { وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ } ، قتل وهزيمة، { يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا } ، حذرنا، أي: أخذنا بالحزم في القعود عن الغزو، { مِنْ قَبْلُ } ، أي: من قبل هذه المصيبة، { وَيَتَوَلَّوْا } , ويدبروا { وَهُمْ فَرِحُونَ } ، مسرورون بما نالك من المصيبة.
[51] { قُلْ } لهم يا محمد { لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا } ، أي: علينا في اللوح المحفوظ، { هُوَ مَوْلَانَا } ، ناصرنا وحافظنا. وقال الكلبي : هو أولى بنا من أنفسنا في الموت والحياة، { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }

[52] { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا } ، تنتظرون بنا أيها المنافقون، { إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ } ، إما النصر والغنيمة أو الشهادة والمغفرة، وروينا عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة » (1) . { وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ } ، إحدى السوأتين إما { أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ } ، فيهلككم كما أهلك الأمم الخالية { أَوْ بِأَيْدِينَا } ، أو بأيدي المؤمنين إن أظهرتم ما في قلوبكم، { فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ } ، قال الحسن : فتربصوا مواعيد الشيطان إنا متربصون مواعيد الله من إظهار دينه واستئصال من خالفه.
[53] { قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا } ، أمر بمعنى الشرط والجزاء، أي: إن أنفقتم طوعا أو كرها، نزلت في جد بن قيس حين استأذن في القعود، قال أعينكم بمالي، يقول: إن أنفقتم طوعا أو كرها { لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ } ، أي: لأنكم, { كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ }

____
(1) أخرجه البخاري في الخمس 1 / 220 ومسلم في الإمارة رقم (1876) 3 / 1496 .

[54] { وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ } , صدقاتهم, { إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ } أي: المانع من قبول نفقاتهم كفرهم، { وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى } ، متثاقلون لأنهم لا يرجون على أدائها ثوابا ، ولا يخافون على تركها عقابا، فإن قيل: كيف ذم الكسل في الصلاة ولا صلاة لهم أصلا؟ قيل: الذم واقع على الكفر الذي يبعث على الكسل، فإن الكفر مكسل والإيمان منشط، { وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ } ، لأنهم يعدونها مغرما ومنعها مغنما.

[55] { فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ } , والإعجاب هو السرور بما يتعجب منه، يقول: لا تستحسن ما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد لأن العبد إذا كان من الله في استدراج كثر الله ماله وولده، { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ، فإن قيل: أي تعذيب في المال والولد وهم يتنعمون بها في الحياة الدنيا؟ قيل: قال مجاهد وقتادة: في الآية تقديم وتأخير، تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. وقيل: التعذيب بالمصائب الواقعة في المال والولد. وقال الحسن: يعذبهم بها في الدنيا بأخذ الزكاة منها والنفقة في سبيل الله. وقيل: يعذبهم

بالتعب في جمعه والوجل في حفظه والكره في إنفاقه، والحسرة على تخليفه عند من لا يحمده، ثم يقدم على ملك لا يعذره.
{ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ } ، أي: تخرج، { وَهُمْ كَافِرُونَ } ، أي: يموتون على الكفر.
[56] { وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ } ، أي: على دينكم، { وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ } ، يخافوا أن يظهروا ما هم عليه.

[57] { لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً } ، حرزا أو حصنا أو معقلا. وقال عطاء: مهربا. وقيل: قوما يأمنون فيهم. { أَوْ مَغَارَاتٍ } في الجبال جمع مغارة وهو الموضع الذي تغور فيه، أي تستتر. وقال عطاء : سراديب. { أَوْ مُدَّخَلًا } ، موضع دخول فيه، وهو من أدخل يُدخل، وأصله: مدتخل مفتعل، من دخل يدخل قال مجاهد : محرزا. وقال قتادة : سربا. وقال الكلبي : نفقا في الأرض كنفق اليربوع. وقال الحسن : وجها يدخلونه على خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقرأ يعقوب (مَدْخلا) بفتح الميم وتخفيف الدال، وهو أيضا موضع الدخول، { لَوَلَّوْا إِلَيْهِ } ، لأدبروا إليه هربا منكم، { وَهُمْ يَجْمَحُونَ } يسرعون في إباء ونفور لا يرد وجوههم شيء. ومعنى الآية: أنهم لو يجدون مخلصا منكم ومهربا لفارقوكم.

[58] قوله تعالى: { وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ } ، الآية . نزلت في ذي الخويصرة التميمي ، واسمه حرقوص بن زهير أصل الخوارج { يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ } أي: يعيبك في أمرها وتفريقها ، ويطعن عليك فيها. يقال: لمزه وهمزه، أي: عابه، يعني أن المنافقين كانوا يقولون : إن محمدا لا يعطي إلا من أحب. وقرأ يعقوب (يلمزك) وكذلك يلمزون في الحجرات (ولا تلمزوا) كل ذلك بضم الميم فيهن، وقرأ الباقون بكسر الميم فيهن وهما لغتان يلمُزُ ويلمِز مثل يحسُر ويحسِر ويعكِف ويعكُف. وقال مجاهد : يلمزك أي : يروزك يعني يختبرك. { فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ } ، قيل: إن أعطوا كثيرا فرحوا ، وإن أعطوا قليلا سخطوا.